

تاريخ الإسلام في الهند

بقلم: عبد المنعم النمر
عضو هيئة التدريس والزمائر الإسلامية في الهند سابقاً

الطبعة الأولى

١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

دار المعهد الجديد للطباعة

٨٥٢ - ٥ : ٥٠٠

الاهراء

إلى : أرواح الذين صنعوا هذا التاريخ المجيد .

وإلى : كل الذين هيتوا لى - من بعيد أو قريب - كتابة
هذا التاريخ وإخراجه .

وإلى : الذين يسعدهم أن يعرفوا صفحات من
تاريخهم الإسلامى المجهول .

وإلى : الذين أناروا لى طريق الحياة بالعلم والمعرفة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

حينما ندبني الأزهر والمؤتمر الإسلامي في يناير سنة ١٩٥٦ م للسفر إلى الهند والتدريس في جامعتها الدينية الكبرى « دار العلوم - ديوبند » ، وزيارة مدارسها الدينية في مختلف بلادها ، شعرت بشيء من القلق الطبيعي لم أستطع له دفعا ، وذلك لأقداى على السفر إلى بلاد مجهول أمرها عندى وعند الكثيرين ، ووجدت نفسى بين عوامل تدفعنى للسفر: من القيام بالواجب الذى يفرضه على دينى ووطنى ، ومن إشباع غريزة حب الاستطلاع والمعرفة ، وبين عوامل المجازفة بالسفر إلى بلاد لا أعرف عنها ولا عن المسلمين فيها شيئا ، ولا أعرف كيف ستكون الحياة فيها ، سواء داخل الجامعة أم خارجها ، ولم يكن قد سبقنى أحد للسفر إليها في مثل هذه المهمة ؛ فقد كانت بعثتى أول بعثة من نوعها في تاريخ العلاقات الثقافية بين مصر والهند . .

وتغلب على شعورى نحو واجبى ، ورغبتى في معرفة بلاد ليس لدينا الكثير عنها ، وأخذت أبحث هنا وهناك عما يعطينى فكرة عن ماضى المسلمين في هذه البلاد أو حاضرم ، فلم أظفر بما يطمئنى ، وكان كل ما عرفته أن محمد ابن قاسم الثقفى القائد العربى الشاب فتح بلاد السند أيام الوليد بن عبد الملك الأموى ، كما فتحها من بعده السلطان محمود الغزنوى . أما غير هذا فكان مجهولا عندى وعند الكثير من المثقفين ، وكل ما كنت أظفر به منهم تعليقاتهم الطريف : « الهند والسند وبلاد تركب الأفيال » . .

وهكذا قبلت الاضطلاع بهذه المهمة ، وكل عدتى إيمان بالله ، وبالأمانة التى وضعت فى عنقى ، وتصميم على القيام بها مهما صادفتنى من عقبات ومشقات . . .

وسافرت ، والضباب يحيط بي بالنسبة لتاريخ المسلمين في هذه البلاد ، حتى إذا وصلت إليها ، وأقمت فيها مدة ، أخذت أشعة المعرفة تمزق الضباب الذى أحاط بي ، وأخذت أعرف شيئاً فشيئاً تاريخ المسلمين فيها ، وكانت مفاجأة رائعة لى حقاً : أن أعرف أن المسلمين قد حكموها حكماً متواصلاً ثمانية قرون ونصف ، وتركوا فيها من الآثار الخالدة الرائعة ما تزال الهند للآن تعتز به كاثمن شئ تعتزه أمة فى العالم ، وأن هذا الحكم الإسلامى العتيد ، أو هذا الفردوس الإسلامى قد قضى عليه الإنجليز منذ مائة سنة فقط !! نعم منذ مائة سنة فقد المسلمون حكم هذه البلاد !!

وقد أغرانى ذلك بالبحث والتنقيب ، فتفتحت لى جوانب مشرقة للجهود المسلمين وجهادهم فى هذه البلاد الواسعة الشاسعة ، سواء أكانوا ملوكاً أم علماء ، حتى كتبوا فى تاريخ الإسلام صفحات خالدة فى هذا الجزء من العالم . وعز على كثير أن يكون هذا التاريخ المجيد مجهولاً من قراء العربية ، وأن يجد منا إهمالاً تاماً فى مناهجنا الدراسية ، فى الوقت الذى نعى فيه بتاريخ الغرب إلى حد الوقوف على تفاصيله ، والاهتمام بنهضاته وأبطاله ، مع أن هذا التاريخ الإسلامى الزاهر فى الهند هو جزء من تاريخنا ، وصفحة مشرقة من صفحات أجدادنا ، كأمة واحدة يظلمها علم الإسلام .

تعجبت كيف أسدل على هذا التاريخ ذلك الحجاب الكثيف ، وحيل بيننا وبين معرفته ، والاعتزاز به قروناً متطاولة ، ولم يكن تاريخنا هزيبلاً ، بل كان تاريخنا عملاقاً . استمر كل هذه القرون ، وصنع حضارة من أزهى الحضارات الإسلامية التى عرفناها فى عواصم البلاد العربية ، يوم أن كانت هذه العواصم تصنع التاريخ ، وتصنع معه الحضارات ، بل إن حكم هؤلاء المسلمين الأجداد قد وصل من القوة إلى الحد الذى ظل فيه سفير جيمس الأول ملك إنجلترا أكثر من سنتين فى الهند يحاول مقابلة الملك جهانگیر فلم يظفر بما يريد ، فتضرع أن يأخذ كتاباً منه إلى ملك إنجلترا ، فرد عليه الوزير الأول قائلاً : إن مما لا يناسب

قدر ملك مغولى مسلم أن يكتب كتابا إلى سيد جزيرة صغيرة ، يسكنها صيادون بئسون ، ، وكان هذا فى أوائل القرن السابع عشر بعد ما تأسست الشركة الانجليزية سنة ١٦٠٠ م .

نعم عز على إهمال هذا التاريخ ، وشعرت بأننى أمام عبء جديد ، وأمانة يجب أن أتحمّلها وأؤديها مهما صادفتى من عقبات ، فقد أتيت لى ما لم يتح لغيرى من قبل ، وانفعلت نفسى بمشاهد هذا التاريخ التى لاتزال معالمها الرائعة تحدث كل من رآها بمجد أصحابها وعظمتهم ، فأفأملك بعد ذلك أن أرى وأسكت ؟ أو أن أعرف فأكتف ، وأحتفظ لنفسى بهذه المعرفة ؟ وكنت كلما عرفت شيئا دفعنى إلى المزيد من المعرفة والاطلاع ، كصائد الجواهر كلما عثر على شيء منها أغرى بالبحث عن مزيد عليها ، وسهلت لى مكتبة دارالعلوم الضخمة هذه المهمة ، حيث وضعت تحت يدى كل ما يمكن أن يلقى ضوءاً على هذا التاريخ من كتب عربية وأوردية . .

وبدأت أحبس نفسى بين هذه الكتب ، وأنفق كل ما أملكه من فراغ فقراءتها ، مستهينا بكل تعب أمام لذة المعرفة ، وفتح مغاليق هذا التاريخ ، وبدأت بالكتب التاريخية العربية مثل ابن الأثير ومعجم البلدان وفتوح البلدان ، وغيرها من المراجع العربية القديمة وسرت معها ، ولسكنها توقفت ، حيث وقف بأصحابها ركب الحياة ، ولما أفطع من الشوط إلا أنه ، إلى حيث تاريخ الغوريين ، ولم يكن كل ما مضى إلا بمثابة الألف والباء من هذا التاريخ الطويل .

أما الباقي فقد تكفلت به مصادر باللغة الأوردية مثل تاريخ فرشته الحكيم محمد قاسم ، وتاريخ الهند لسيد هاشمى ، ومختصر تاريخ الهند للسيد أبى ظفر الندوى ، وتاريخ إسلام لعبد الرحمن شوق ، ومصادر أخرى غيت بذكرها فى الهامش . وكانت عقبة كفيفة بأن تحطم على صخرتها كل جهد من أمثالى ؛ فلم أكن أجيد اللغة الأوردية حتى أمضى فى مهمتى بسهولة ويسر ، ولكن معرفتى التى حصلت عليها من هذه اللغة ألفت على طريق شيئا من النور ، وإن لم يكن كل

النور الذى أحتاج إليه فى كتابة تاريخ كهذا ، لكنى أمسكت بالحيط ، ولا يمكن - بعد ذلك - أن أتركه يفلت من يدى حتى أتم ما بدأت به ، وأسير فى الطريق إلى نهايته ، ووجدت العون الذى أرتجيه فى طلابى بقسم تخصص اللغة العربية الذى أنشأته فى الجامعة ، وكان عوناً أجدر من الواجب على أن أشيد به هنا وأشكرهم عليه . .

وكنت مع هذا أعتمد على ما تنشره مجلة « ثقافة الهند » ، أحياناً باللغة العربية ، وهى مجلة تصدرها الحكومة الهندية ، وما نشرته مجلة الضياء العربية التى كانت تصدر عن مدرسة دار العلوم ندوة العلماء فى لكنؤ ، وقد أهدتها لى الدار مشكورة ، وما جاء فى كتاب حضارة الهند « لجوستاف لوبون ، الذى أمدنى به الأخ الشيخ محمد سالم قاسمى المدرس بدار العلوم ، وحاضر العالم الإسلامى للأمير شكيب أرسلان ، وكذلك وجدت فى كتاب « نزهة الخواطر » ، عن أعيان الهند وعلمائها معونة كبيرة ، وهوتايف العلامة الشريف عبد الحى الحسنى الندوى اللكنؤى ، وقد صدر فى أجزاء لا تزال مطبعة دائرة المعارف العثمانية العربية فى حيدر أباد تكمل طبعه ، وقد أهداه لى شيخ الإسلام وشيخ الجامعة المرحوم مولانا حسين أحمد مدنى ، حينما عرف اشتغالى بوضع مؤلف عن تاريخ المسلمين فى الهند ، كما جاء تنى وأنا هناك مذكرة المرحوم الأستاذ حبيب أحمد « بين الهند وباكستان » ، وبجانب هذا وقفت على معلومات متناثرة باللغة العربية ، وقد حرصت على ذكر المصادر كلها فى الهامش ، ورأيت فى ذلك ما يكفى عن ذكرها متجمعة .

وقد كانت الصحف والمجلات التى صدرت فى الهند وباكستان وبورما باللغة الأوردية عام ١٩٥٧م بمناسبة مرور مائة عام على ثورة الهند ضد الانجليز سنة ١٨٥٧م ، وما حفلت به من مقالات وبحوث تاريخية عن الثورة ، وعن الحكم الإسلامى ، كانت عوناً كبيراً لى فى الكتابة بتفصيل دقيق عن هذه الفترة من تاريخ الهند .

وهكذا تيسر لى جمع المعلومات من هنا وهناك حتى إذا انتهيت من الجمع

والتدوين أخذت من جديد في ترتيبها وتبويبها ، وكلما مر الوقت اتسعت أعمى الآفاق ، وازدادت معلوماتى عن هذا التاريخ ، حتى جاء الكتاب فى كتابته الثانية والأخيرة كتابا ضخما يجمع معلومات وافية ودقيقة - كما أعتقد - عن الممالك الإسلامية التى تعاقبت على حكم الهند من سنة ١٠٠١ م إلى سنة ١٨٥٧ م ، أى ثمانية قرون ونصف ، واتخذت من دهللى أوأكرا ، عاصمة لها ، وأقامت حضارة إسلامية عظيمة ، تفاخر بها حضارات العالم ، وكذلك عن الممالك الإسلامية الأخرى التى قامت فى نواح متباعدة عن دهللى ، واستقل حكمها بحكمها ، وتنافسوا فيها بينهم فى توسيع رقعتها ، والرقى بشؤونها وإسعاد الرعية فى ظلها .

وقد عنيت مع هذا بالترجمة فى الهامش للشخصيات التى مر ذكرها فى الكتاب ، وكان لها مشاركة فى صنع هذا التاريخ ، مما استراه إن شاء الله مشجعا لرغبتك فى حب الاستطلاع .

وزيادة منى فى التيقن والاحتياط عرضت ماكتبته على بعض العلماء المعنيين بالتاريخ الإسلامى هناك فاغبطوا به ، وبما حوى من معلومات وافية ودقيقة .

وقد رأيت من الضرورى - وأنا أكتب عن تاريخ الإسلام ودخوله إلى الهند - أن ألقى ضوءا على الهند قبل الإسلام ، ولا سيما أديانها التى كانت تنقسمها فى ذلك الوقت ، وأن أذكر ما يعطى القارىء فكرة عامة عن جغرافيتها وإمكانياتها ، فيما يختص بالزراعة والصناعة والتجارة والأنهار والحيوانات ، وعن الصلات التى كانت بين الهند والعالم العربى عند دخول الإسلام إليها ، حتى يمكن للقارىء أن يقبل على قراءة التاريخ وعنده المام بهذه البلاد من كل ناحية .

وفى المدة التى قضيتها فى الهند استطعت أن أحصل على مجموعات من الصور والرسوم التى لابد منها فى توضيح هذا التاريخ ، ولو أنى لم أستطع الحصول على كل ما أريد .

ولهذا أعتقد - في غير غفر - أن هذا الكتاب بما حوى من معلومات وافية مفصلة لتاريخ الحكم الإسلامى كله ، وبما ضم من صور ورسوم لم تفسر من قبل - هو أول كتاب من نوعه باللغة العربية ، ومن أجل هذا كنت أستعين بالصعوبات التى تجابهنى فى كتابته ، خلال السبعة والعشرين شهرا التى قضيتها فى الهند ، والتى كرست الكثير من وقى فيها لهذا الكتاب .

وحين انتهيت منه - أو كدت - فى أواخر هذه المدة ، وتمثل أمامى كتاباً ضخماً ، بدأت أفكر فى كيفية طبعه ، ولم يكر ذلك يشغلنى من قبل ، وتبدت أمامى صعوبة الطبع وتبعاته ، وهو كتاب لا يحمل المغريات التى تجعل عامة الشعب يقبلون عليه ، وخيل إلى أن هذا المجهود المضنى الذى بذلته خلال هذه المدة الطويلة سيضيع سدى ، ويحكم عليه بالبقاء فى عالم الظلام ، ويحال بذلك بين قراء العربية وبين الاطلاع على معلومات أعتقد أن المكتبة العربية خالية منها .

واستولى على هذا التفكير المقلق مدة . كنت كلما نظرت إلى كراسات الكتاب الضخمة أمامى يزداد تفكيرى ويستبد بى .. ثم بدت لى فكرة رأيت أن أجربها . فعالى الشيخ محمد سرور الصبان قد عرفته معرفة وثيقة أثناء تدريسي بالمملكة العربية السعودية ، وعرفت أنه يحتضن الكثير من مثل هذه المجهودات - وهو أديب كبير ، وعالم واسع الاطلاع - وينفق كثيراً فى إخراج أمهات الكتب القديمة وبعض الكتب الحديثة النافعة ، فرأيت أن أكتب إليه - بعد تفكير طويل - ولم أنتظر غير أسبوعين حتى تلقيت من معاليه هذا الرد الكريم :

جدة فى ١٠ رجب ١٣٧٧ هـ

صاحب الفضيلة الأخ الأستاذ عبد المنعم النمر المحترم

تحية طيبة .. وبعد .

قد سعدنا بخطابكم الكريم المؤرخ فى ٢٩ جمادى الثانية ١٣٧٧ هـ وإنا لا نزال نذكركم ، وسنظل نذكركم دائماً بتقدير عميق لجهودكم وكريم خلقكم ، وإنا نود أن نخبرونا عن تكاليف طبع كتابكم « تاريخ الهند الإسلامى » . لنكتب لكم بما نراه على ضوء ذلك مع تحياتنا وتقديرنا

محمد سرور الصبان

وحضرت إلى مصر بعد ذلك ، وكان معاليه في سويسرا ؛ فرأيت أن الظروف غير مناسبة للسير في هذا الموضوع ، وفاتحت بعض الجهات في طبعه كما تطبع كثيرا من الكتب الإسلامية على نفقتها ، فلم أجد عندها استعدادا ، وعاد ظلام الحبس يخيم على الكتاب ، وعاد القلق إلى نفسى .

وفي مصادفة طيبة تلاقيت بالصديق الأديب الشيخ محمد خليل العناني سكرتير الشيخ محمد سرور ، فبادرنى : أين الكتاب ؟ فقلت : إنه موجود ، ولكنى اعتقدت أن الظروف غير مناسبة للكتابة لكم بشأنه .. فقال : إن معالى الشيخ كلفنى وهو في سويسرا أن أهتم بطبعه بمجرد وصولك إلى مصر . وهكذا أنجز الكريم وعده ، وأخذ الكتاب طريقه إلى النور ، وإلى أيدى القراء ، بفضل هذه المعاونة الكريمة ، التى أكل شكره عليها إلى من اتجهت إليه قلبى وإخلاصى ، حين أقبلت على تحمل المشاق ليلا ونهارا أكثر من سنتين ، فى سبيل إنصاف التاريخ العظيم لإخواننا المسلمين فى الهند ، وإراحة الستار الكشيف عن هذا المجد المجهول المظلوم ...

* * *

ولن أنسى مطلقا تلك الرسالة الكريمة التى تلقيتها من صديق الأديب الحجارى الكبير الشيخ محمد سعيد العامودى رئيس تحرير مجلة الحج ، حين أرسلت له أولى مقالاتى عن تاريخ المسلمين فى الهند ، وأنباته عزمى على تأليف كتاب واف عن هذا التاريخ . فقد كانت فرحته بالنبا وحرصه على نشر هذه المقالات مما ألهم عزمى للسير فى هذا العمل حتى نهايته ، وقد كان دائم السؤال فى كل خطاب منه عن الكتاب ، ومتى أنهى منه ، حتى إذا علم بأننى شرعت فى طبعه تفضل مشكورا بالإعلان عنه ، والتنويه به فى مجلته .

كما أنى لن أنسى ذلك التشجيع الذى وجدته فى مدير دار العلوم مولانا محمد طيب ومدرسى الدار جميعا ، ومولانا محفوظ الرحمن مدير جمعية علماء الهند وعضو البرلمان المركزى ، ومولانا محمد ميان المارخ الكبير والمسكرتير العام لجمعية العلماء ، ومولانا مفتى عتيق الرحمن عضو الجمعية ومدير ندوة المصنفين

في دهلي ، ومولانا أبي الحسن على الحسنى الندوى المشرف على دار العلوم ندوة العلماء لكونوا ، الذى دعت فرحته بهذا الكتاب بعد اطلاعه عليه إلى أن يطلب منى قطعة منه لنشرها فى مجلته العربية «البعث» ، وحرص فى تقديمها فى عدد سبتمبر ١٩٥٧ على تقديم الكتاب كله بأنه « سيسد عوزا كبيرا فى المكتبة العربية العصرية » ...

كما أننى أذكر بالشكر والتقدير تلك الكلمة التى كتبها الأخ الأستاذ عبد المنعم العدوى فى مجلته « العرب » ، التى تصدر فى كراتشى فى ذى الحجة سنة ١٣٧٦ هـ عند ما علم نبأ اشتغالى بتأليف هذا الكتاب والتى قال فيها : « وانه ليسرنا جدا أن يعضى الأستاذ قدما فى وضع كتابه عن الهند ، فإنه ولاشك سيكون أثرا خالدا للأزهر الشريف والمؤتمر الإسلامى ، إذ أن المصادر العربية التى كتبت عن مسلمى الهند الكبرى قديما وحديثا إسهابا وتفصيلا لازى منها أما منا شيئا ، اللهم إلا مقالات كتبت هنا وهناك ، بعضها فى الصحف والمجلات العربية ، وبعضها فى « العرب » ، ولم يضع أحد من الكتاب العرب المعاصرين كتابا عن مسلمى القارة الهندية الباكستانية للآن ، ...

وبعد ، فهذا هو الكتاب بين يديك ، يقدم نفسه بنفسه ، لا أدعى أننى قد بلغت فيه درجة العصمة من الخطأ ، فهذا مستحيل ، ولكن الذى يمكن أن أدعيه أننى بذلت أقصى جهد أملكه فى تقديمه إليك بصورة وافية ، تنبئك عن هذا التاريخ المجيد ، فإن وجدت فيه نقصا أو خطأ فإتنى أكون شاكرًا لو تفضلت بتنبهى إليه ، حتى أنداركة فى طبعته الثانية ، التى أعتقد أنها ستضم زيادات وتنقيحات مما يمكن أن تمدنى به وتدلى أنت عليه ، وما يمكن أن أضمه إليه من معلومات جديدة تكشف لى ، فهذه طبيعة الأشياء دائما : فى تطور .

ويلاحظ القارئ أننى وقفت بهذا التاريخ عند انتهاء حكم المسلمين للهند سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧م أى منذ قرن ، ولاشك أنه سيجد فى نفسه شوقا ملحا لمتابعة هذا التاريخ ، والسير معه فى هذا القرن الذى خلص فيه حكم الهند تماما

للانجليز ، ومعرفة ماتمخض عنه هذا الحكم في هذه المدة ، ولا سيما ما يتصل منه بالمسلمين ، وسيجد في نفسه إلحاحا أكثر من هذا لمعرفة شؤون الهند الحاضرة . بعد إنشاء دولة باكستان ، والتحدث عما شاهده عن كسب في المدة الطويلة التي مكثها هناك ، واختلطت بأوساطها المختلفة ، وارتحلت إلى ريفها ومدنها ، شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ، بما أتاح لي الحصول على معلومات وافية عن أديان البلاد ، وأحوالها الاجتماعية ، وظروفها المادية ، وطرق معيشتها وتعاملها فيما بينها ، وهي أجناس مختلفة ذات أديان ولغات متباينة ، ثم مدى ما وصلت إليه من تقدم ، وما تبذله من جهد لتعويض ما فاتها ..

وستتظر - بلا شك - أن أحدثك عن أحوال المسلمين الآن ، وما عدهم ، وكيف يعيشون ، وما هي أحوالهم السياسية والتعليمية والاقتصادية والاجتماعية ، وما هي حقيقة التقسيم ، وما حدث في البلاد من مذابح وأحوال في هذا الظرف الكئيب ؟ ثم ماذا كانت نتيجة ذلك كله في ظروف المسلمين الذين يعيشون في الهند الآن ، وهل يجدون نصيبهم العادل في وطنهم الذي آثروا الاستقرار والعيش فيه ، وما هي حقيقة مسألة كشمير كما عرفتها ، وما أثرها على مسلمي الهند ، وكيف ينظرون إليها ؟ كل هذا يا أخي تشتاق إليه بلا شك ، كما أشتاق أن أقدمه أيضا إليك ، ولكن هذا الحديث الوافي للشعب بما يحمل من ذكرياتي ومشاهدتي الواقعية التي أحب أن أنقلها لك بأمانة وصدق وإسهاب ، لا يمكن أن أضمه إلى هذا الكتاب - وقد جاء ضخما كما ترى ..

لهذا لم أجد بدا من أن أخصص له كتابا مستقلا . أرجو من الله العون على أن أقدمه لك قريبا .

والله أرجو أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه ، وهو حسبي ونعم النصير .
عليه توكلت وإليه أنيب ؟

عبد المنعم النمر

٢١ شارع الرشيدى - أرض شريف بشبرا مصر

المدرس بالأزهر
وعضو بئنة الأزهر والمؤرخ الإسلامى
في الهند سابقا

الأربعاء ١٢ رجب سنة ١٣٧٨
٢١ يناير سنة ١٩٥٩

أَضِئُوا عَلَى الْهِنْدِ

الهند

كانت كلمة « الهند » حينما يذكرها الكاتب قبل سنة ١٩٤٧ يريد بها تلك البلاد الواسعة التي تشمل دولتي باكستان والهند الآن . . ونحن حينما نؤرخ للهند نريد بها ذلك المعنى الواسع . . ولم يكن الكاتب أو المؤرخ بحاجة إلى مثل هذا التنبيه قبل سنة التقسيم أعنى سنة ١٩٤٧ أما الآن فأجدني محتاجا إلى هذا حتى لا يلتبس الأمر على القراء . .

وتستمد الهند اسمها من كلمة «سندهو» وهو الاسم الهندي لنهر «الاندوس» وهوهر «السند» ومن هذه الكلمة اشتقت كلمتا «اند» «وهند» (ومعناهما الأرض التي تقع فيما وراء نهر الاندوس) وأصبح سكان هذا الأقليم يسمون الهندوس أو الهنود كما أصبحت بلادهم تعرف بالهندوستان (١)

على أن «جوستاف لوبون» في كتابه حضارة الهند (٢) أبدى رأيا آخر وقال يحتمل اشتقاق هذا الاسم من اسم إله الهنود «اندرا»

وأياما كان الأصل لكلمة « الهند » فأئنا نعني بها البلاد الشاسعة التي يحدها من الشمال سلسلة جبال الهملايا ومن الغرب جبال هندكوش وسليمان حيث تقع أفغانستان وإيران ثم تمتد الهند إلى الجنوب في شبه جزيرة يقع بحر العرب في غربها وخليج البنغال في شرقها وسيلان في طرفها الجنوبي ويتجه الأقليم الشمالى منها إلى الشرق حتى جبال آسام

وإذا أردنا تحديدها بخطوط الطول والعرض أمكن أن نقول إنها تقع شمال خط الاستواء بين خطي عرض ٨، ٢٧ . وخطي طول ٦١ — ١٠٠ شرق جرينيتش فهي بذلك تقع في الأقليم الحار والأقليم المعتدل وفيها من الفصول المناخية ثلاثة : الفصل الحار من إبريل تقريبا إلى يونيو حيث

(١) حقائق عن الهند أصدره قلم الاستعلامات الهندي

(٢) ص ٢٥ تريب الأستاذ عادل زعيتر

تبلغ الحرارة ذروتها ثم يبدأ فصل الأمطار الموسمية التي تخفف قليلا من حدة الحرارة وإن كانت تظل شديدة ويبدأ في الشمال من يوليو إلى سبتمبر ويبدأ قبل ذلك في الجنوب ويسقط بغزارة شديدة يصحبه رعد وبرق لم أحس مثلهما في البلاد العربية وكثيراً ما تسبب هذه الأمطار سيولا وفيضانات تقضى على الحرث والنسل وتخلف وراءها خرائب وبؤسا وأمراضا متعددة وقد شاهدت ذلك وسمعت عنه في المدة التي قضيتها في الهند وأغزر مناطق الهند بالمطر هي المناطق الشرقية مثل البنغال وآسام .

ثم يبدأ فصل الشتاء ويكون دافئاً في الجنوب بينما تبلغ البرودة ذروتها في الشمال في ديسمبر ويناير وتسقط الثلوج وتتجمد المياه قريبا من سفوح الهملايا . . وفي هذه السنة أعنى ١٩٥٦ — ١٩٥٧ مات كثير من الناس وهلك آلاف المواشي من شدة البرد^(١) ويوجد في المناطق الشمالية المصايف الممتعة كما في سملا ومسوري وغيرها من بلاد الشمال أما كشمير التي تقع في منتهى الشمال الغربي فهي باردة جداً شتاء بينما صيفها معتدل لا تحس فيه حرارة لا سيما على المرتفعات التي تعتبر من أحسن المناطق الهندية وأمتعها في الصيف حيث تمتاز بمناظرها الطبيعية الخلابة مع جردة الهواء .

وتبدو لك جدران المدن والقرى وسطوحها أثناء فصل المطر وكأنها حقل نبتت فيه أنواع مختلفة من العشب فأن التراب الذي يعلو سطوحها أو يكون بين الأجر في جدرانها كثيراً ما يكون فيه بذور أعشاب مختلفة فإذا نزل المطر نبتت هذه البذور ونمت وقد تتسلق الجدار لعدة أمتار وقد شاهدت بعض الأهالي يجذون هذه الأعشاب من فوق السطوح والجدران

(١) كما نشرت صحيفة « الجمعية » وغيرها من الصحف الهندية والطبيعة لا تتغير عما كانت

بالمنجل ويقدمونها لدواهم أو يتركونها تحف للوقود . وحقا كان منظرا فريدا لم أر مثله من قبل . .

أنهارها .

وفي الهند أنهار عظيمة بعضها ينبع من الشمال حيث جبال الهملايا ويصب في بحر العرب مثل نهر السند أو نهر « الأندوس » وفي مجراه الأعلى تمده بعض الروافد لاسيما تلك التي تجرى في البنجاب ، أو بلاد الأنهار الخمسة . . . فأن « بنج » معناها خمسة « وآب » معناها نهر . . وهي من أنحصب بلاد الهند وأكثرها عمرا ناً . . وبعض هذه الروافد ينبع من كشمير ويعتبر نهر السند من أطول أنهار الدنيا إذ يبلغ طول مجراه ٢٩٠٠ كيلومترا . ومنها نهر الكنج أو حسب ما ينطقون « گنگا (١) » وهو النهر المقدس لدى الهندوس الذين يغتسلون في مياهه ليطهروا من ذنوبهم ويتدفق من جبال الهملايا من ارتفاع أربعة آلاف متر ويعتبر الصعود إلى هذا المكان عند الهندوس من أعظم القربات ويقول « جوستاف لوبون » (٢) « إن الأوروبيين هم أول من ارتقى إلى هذا المكان وحاول الهندوس تقليدهم والحج إليه فهلكوا » .

وعلى شواطئ گنگا ، تقوم معابد كثيرة يؤمها الملايين من الهندوس للعبادة أو التطهر . ومن أكبر الأنهار التي تنبع من هملايا أيضاً نهر « جمنا » وقد ذهبت إلى الهملايا حيث منبع ذلك النهر ورأيت يأتى من بعيد وسط الجبال ولم نكن في فصل الأمطار الكثيرة لذلك رأيت وفيه قليل من الماء الجارى في قنوات وسط مجراه . .

ويلتقى في طريقه إلى الشرق بنهر گنگا عند مدينة « إلہ آباد » أى

(١) هذه السكاف ذات الشراطين « گ » كاف فارسية ونطقها كظن الجيم = د عمل الناهرة أو كظن القاف في الرضه بين الجيم والسكاف وسنمر بك كثيراً .
(٢) ص ٣٨ حضارة الهند

مدينة الله بعد أن يمر جمننا في طريقة بدلهى وآگرا وكثير من المدن . .
وقريباً من « إله أباد » قامت مدينة بنارس المقدسة عاصمة الهندوسية في
الهند (١) ومن مياه نهر « گنگا » المقدسة كان ولا يزال الهنود يحملون
الماء لغسل معابدهم وتطهيرها . . وفيه يرمى الهنود جثث موتاهم . وقد
حاول الانجليز منعهم من ذلك ولكنهم لم يفلحوا وبقول جوستاف
لوبون (٢): إن الهندوس ثاروا على الانكليز لما أرادوا فتح قناة كبيرة تأخذ
مياهها من نهر گنگا المقدس ولكنهم شقوها برغم هذه المعارضة « ويسير
« گنگا » حتى يصب في خليج البنغال . . بعد أن تتصل به كثير من الأنهار
الكبيرة في الهند . . ويبلغ طوله ٢٤٢٠ كيلو مترا . .

ومن الأنهار الشهيرة أيضاً نهر براهماپترا الذى يجرى في البنغال آتياً
من الشمال الشرقى حيث جبال هملايا وأسام ويلتقى عند مصبه بأحدى
التفرعات التى يتفرع إليها گنگا عند مصبه .

وهناك عدا هذه أنهار تجرى في وسط الهند حيث تنحدر من جبال
في وسطها وتتجه غرباً لتصب في بحر العرب . . ويقدر الهنود إحداها
وهو « نريدا » الذى يصب في بحر العرب قريباً من « سورت » هو ونهر
آخر يسمى « تاپتى » وفي جنوب الهند عدة أنهار صغيرة منحدرة تتجه
شرقاً لتصب في خليج البنغال أو غرباً لتصب في بحر العرب . .

والذى اطلعت عليه من الكتب عن أنهار الهند وما لاحظته على العموم
فيها أنها غالباً تسير دون حواجز تحكم سيرها حيث لا تجد جسوراً على الجانبين
كذلك التى نراها على النيل ولذا تجد النهر يجرى حراً كما يشاء وكما كثرت

(١) جاء في مجلة ثقافة الهند مارس ١٩٥٤ « هناك عند ملتقى نهري گنگا وجمن » على
مقربة من مدينة « إله أباد » اتخذ الهندوس هذا المكان وما حوله من قديم الزمان
تقليداً دينياً هو أن يجتمعوا فيه من كل أقطار البلاد زرافات ليتبركوا بالغسل فيه ويستمر
هذا الاجتماع العاشر شهراً كاملاً . . وتدل احصاءات هذا العام على أن أربعة ملايين
من الزوار تقريباً حضروا يوم « أشتان » أى الغسل . (٢) ص ٣٩

مياهه فاض على الجانين وأغرق الزرع والقرى وجرف أمام تياره الكثير منها .. وذلك برغم ما قامت به الحكومات المتعاقبة التي حكمت الهند منذ مئات السنين وبرغم السدود الكثيرة التي أنشئت على بعضها للاستفادة منها في ضبط مياهها ، واستخراج الكهرباء من انحدارها ..

ومع ذلك فإن هذه الأنهار العظيمة وغيرها من الأنهار الكثيرة لم تف أرض الهند الشاسعة بحاجتها من الماء فإن كثيراً من الأراضي لا تمتد إليه مياه الأنهار ويعيش على الأمطار والأنهار المتوازية للجهات التي يروى عن طريق الترع والأنهار لا تزيد على ٢٠ ٪ من مجموع سطح البلاد وهذه الجهات هي التي يستطيع الزراعة فيها أن يعملوا مدة تتراوح من ستة أشهر أو ثمانية كل عام . أما في سائر الجهات حيث تعتمد الأرض على الأمطار في ريها فإن مدة العمل الزراعي بها لا تكاد تتعدى أربعة أشهر في السنة » (١) .

وهذا الإحصاء على وجه التقريب لأنه يخص الهند الحاضرة لا الهند التي نتكلم عنها وهو على كل حال يعطينا فكرة عامة في هذا الموضوع .. أما المدن والقرى فإنها تعيش غالباً على ماء الآبار وتجدها حاجتها بسهولة لكثرة ما يتسرب إلى باطن الأرض من مياه الأمطار والأنهار .. وفيما عدا فصل الأمطار تجدد بعض هذه الأنهار العظيمة قد تحولت إلى قنوات صغيرة وظهرت رمال مجرى النهر أو طميه وقام الفلاحون بزراعته .. وقد مربى القطار على جسور (كبارى) وصل بعضها إلى ما يقرب من كيلومتر ولم يكن تحته من المياه إلا قناة صغيرة وأما الباقي فكان مزروعا أو يعد للزراعة .. ونهر جمنا الذي يفيض كل عام ويغرق كثيراً من القرى والمزارع ويهدد دلهي وغيرها بالغرق أراه بعد انتهاء فصل الأمطار قناة صغيرة يخوضها الناس بينما ترح أفواج البقر على شاطئ القناة فوق الرمال

بعد أن انحسرت عنها المياه ونشرت الملابس البيضاء التي اعتاد الغسالون غسلها ونشرها على الرمال على شاطئ المياه ..

زراعتها :

مما لا شك فيه أن بلاداً واسعة كالهند مختلفة في تربتها وأجوائها وارتفاعها وانخفاضها يمكن أن تجد فيها من أنواع النباتات ما لا تراه في غيرها ويمكن أن أترك الكلام في هذا لأحد علماء الهند الكبار وهو العلامة للرحوم الشريف مولانا عبد الحى الحسنى الذى وضع كتاب « الهند جنة المشرق ومطلع النور المشرق » . وهو لم يطبع حتى كتابة هذه السطور وإن كانت مجلة « ثقافة الهند » قد عيّنت بنشره منه وأنا أنقل لك هذا مما ذكرته المجلة في عديها الصادرين في مارس ويونيو سنة ١٩٥٤ .. يقول « أما حاصلات هذه البلاد فكثيرة جداً .. اعتنى العلماء بجمع أنواع نباتها وأشجارها فكانت أكثر من ثمانية آلاف نوع من النبات وأربعمائة وسبع وخمسين نوعاً من الشجر وما زالوا يكتشفون غيرها في أجام البلاد ورياضها ..

فمن حاصلاتها الخنطة والشعير والذرة والأرز والعدس بأنواع مختلفة والخص وغيرها ولا سيما الأرز الذى يذكرون منه سبعاً وعشرين صنفاً .

ومنهما قصب السكر والقطن والتبغ والتوت والنارجيل والنخل والخيزران والخشخاش ، الذى يؤخذ منه الأفيون والشاى والتنبول « وهو المعروف فى الهند باسم « البان » يعضغون أوراقه وشجره يشبه العنب غير أنه لا ثمر له وينتفع بورقه فى المضغ وهو عام شائع فى الهند يعضغه الرجال والنساء بعد أن يضعوا عليه القات والنورة (الجير) وقطع الفوفل والحبهان ويسمونونه (إيليجى) وهو معروف فى الحجاز باسم « هيل » وقرنفل وكثيراً ما يضيفون إليه التبغ ..

قال الشيخ أحمد بن علان :

لطائف الهند ثلاث أتت الأنب والنجس والبان

قال لى الخان نسيت النساء والحق ما قاله الخان

ووصف المشعودي التنبول من تسعة قرون فقال : تنبت أرض الهند ورقا يسمى « التنبول » فإذا مضغوه مضيقين إليه الجص والفوفل تحمر الأسنان كأنها حبات الرمان ، ويمتلئ الفم بالرائحة الطيبة وينفخ للقلب ، وأهل الهند لا يشربون إلا سينان البيضاء التى يصنعها التنبول بالخرقة اه

ولعل رأيه هذا يرجع إلى زمانه فإن الناس الآن يجتهدون فى إزالة هذا اللون بمختلف المواد ولو أنك تجد أثره دائماً فى أفواههم . وإذا مضغوه تكون لعاب أحمر كثير يتخلصون منه فيخيل لك أنه دم ولا زال الناس فى الهند يتناقلون نادرة علق بها أحد شعراء فارس على هذا المنظر فقال : عجبت فى الهند لرجال يحضون من أفواههم ..

« ومن أثمارها الموز والرمان والأترج واللوز والعنب والتمرهندي والليمون والأنبه (المانجو) (١) وفى الجهات الشمالية التفاح والأجاص .

(١) تسكثر أشجاره وتنوع ثماره حتى ذكروا أن أنواعه تزيد على المائة نوع ويصنعون منه وهو أخضر الحلل . ولا يعرف من عشت معهم فى الهند عصيره كما نعرفه فى مصر .. حتى كانوا يدهشون حين تقدمه إليهم .. وزراعة المانجو فى مصر نقلت عن الهند ولا زلنا نسمي كثيراً من أنواعها بالهندي .

وقد نقل صاحب « جنة المشرق » شعرا لأحد شعراء الهند وهو مولانا ذو الفقار على الديوبندي يتغزل فيه بالمانجو ويذكر أنواعها وأوصافها فيقول :

لأن كنت تبغى أطيب اللذات	فعلبك صاح بأنبه الثمرات
فى حسن مرأى فى نباهة سيرة	فى لطف ذات فى سمو صفات
من طعمها فى شكل قلب شهوة	فكأنها مجموعة الشهوات
يا حسن خضرتها وسمرتها وصفرتها	على الأشجار فى الروضات
لم تختلف كنهاتها الأعمار فى الألو	ان والأذواق والهيئات
هذا ولا تحسبه صنفاً واحداً	بل جملة الأصناف المختلفة
سبحان من بالفضل فضلها على	أشهى مذوقات ومشومات

« ومن الأشجار شجر التيك (المعروف بالساج) الذى تصنع من أخشابه السفن وشجر القرفة والصندل والفوفل والنيل والآبنوس » وكثير من الأشجار ذكر المؤلف اسمها بالهندية حيث اصطلاحهم الذى لا نعرف مدلوله . . . وقد ذكر جوستاف لوبون مثل هذا وتكلم عن زراعة الخشخاش وما ينتجه من الأفيون الذى يعد من أهم صادرات الهند التى تسببت فى الحرب بين الانكليز والصين « وهى الحرب المعروفة بحرب الأفيون » حيث أرغموا الصين على إدخال أفيون الهند إليها . . . ومحدث عن زراعة القنب والحبوب الزيتية الكثيرة وعن الشاي ومركز الهند من حيث تجارته وعن خشب السال وما ينتجه من القطران والضمغ وعن شجر التيك (الساج) الذى يتحول بعد حرقه إلى فحم جيد وقد شاهدت كثيراً من أشجار السال تكسو منحدرات جبال الهمالايا عند زيارتي لها . كما شاهدت أما كن تحويل الخشب إلى فحم . . .

وأشجار الصنوبر تكسو أعلى الجبال كما توجد أشجار البلوط هذا عدا أصناف الفواكه ونباتات المنطقة الحارة التى تنبت بالجنوب . . . وقد شاهدت فى الهند أشجاراً لم أرها فى حياتي كما شاهدت كذلك أزهاراً غريبة فى ألوانها وروائحها . . . وكثير من الفواكه والمحصولات لا نزرعها فى مصر مع اعتقادي أنه يمكن زرعها هنا لو عنيها بزراعتها . . .

حيواناتها :

لعل أقرب شيء إلى تصور الإنسان حين يذكر الهند هو الفيل وكثيراً ما تسمع فى مصر هذه الجملة « الهند والسند وبلاد تركيب الأفيال » ويتفنن الخيال فى هذه الناحية فيصور للإنسان أن الأفيال كثيرة فى الهند كثرة الغنم فى مصر . . . ولكن سرعان ما يتبدد هذا الخيال عند ما يبتصر الإنسان فى الهند ويمكث فيها كثيراً فلا تصادفه الأفيال التى كان يتظرها . . . وقد مكثت أكثر من سنتين ولم أر إلا عدداً قليلاً جداً من الأفيال ولا يزيد عن عشرة مع

أنى تنقلت فى أكثر بلاد الهند . . وعرفت أن ثمن الفيل يبلغ أربعة آلاف روبية على الأقل أى ٣٠٠ جنيهه وليس هذا هو المهم بل المهم بعد ذلك هو تغذيته التى تتطلب نفقات كثيرة ، وقد كانت من قبل يستخدمها الملوك فى الحروب والزينة كما تستعمل فى حمل الأثقال ولكن ذلك العهد كاد ينقضى أو انقضى بالفعل وأصبحت رؤية الأفيال أو اقتناؤها شيئاً نادراً فى الهند ولا يقتنيه إلا الحكومة ويذكر « جوستاف لوبون » من ثلاثة **مؤلفين** قرن تقريباً أن الناس يصطادون منها كل سنة نحو مائة بالكون والظوايح حتى تكاد تنبذ وأكثر ما توجد فى غابات آسام كما يوجد فيها وفى جبال هماليا كثير من الوعول والثيروس والديبة والحيوانات المفترسة وإن كانت الأسود تكاد تنبذ كذلك . . أما النمر فكثيرة فى الغابات لا يطاردها الناس عادة لما تتمتع به من إحترام الهنود وما تقوم به من افتراس بعض الحيوانات الضارة فى الوقت الذى لا تهجم فيه على أحد . . وإذا صادف النمر وهجم على أحد نتيجة لشدة الجوع فإنه يصبح خطراً بعد ما يتذوق طعم لحم الإنسان إذ أنه لا ينفك عن مهاجمته أينما وجده حتى يخرب بلاده بأكلها ويفتك بالمئات من الناس . ومن العجيب أن النمر يتحول فى هذه الحالة إلى نوع من القداسة التى يمنحها الهندوس لآلهتهم كما يفعلون أكثر من ذلك مع الحية الخطيرة المعروفة « بالكوبرا » إذ يقدسونها نتيجة لما تبعثه فى نفوسهم من الخوف (١) .

وبجوار هذه الحيوانات توجد التماسيح والسكركدن والضباع والقرودة . . وهذه توجد بكثرة وفى كل مكان تقريباً حيث تعتدى على المزارع والبيوت وكثيراً ما شاهدها فى أسفارى تعلو القطارات فى المحطات الكبرى وتقفز من أحدها إلى الآخر كما شاهدها فى دلهى ولكهنو وسهارة نبور وغيرها من المحطات . . وقد حدث لى مرة أننى كنت أضع بجانبى فى القطار شيئاً من الموز وكنت فى محطة « روركى » قادماً من « مراد آباد » إلى سهارة نبور ،

(١) وقد رأيت الماعبد وقد رسم عليها صور كثيرة للحية .

أتحدث مع زميلي فإذا بالقرديد دخل بحفة وسرعة من النافذة ويخطف الموز ولم نحس به إلا وهو خارج ثم وقف بعيدا منا وأخذ يقشره ويأكل وهو ينظر إلينا كأنه يغيطنا ويشمت بنا ومن يدرى لعله يهزأ بالإنسان وهو ينظر إلينا .. وبحوار هذه الحيرانات توجد أنواع كثيرة أخرى لا يمكن أن نجدها في غير الهند فالطاووس يمكن أن تجده كثيرأ في الأراضي يختال بذيله الطويل في الفضاء . كما يجب أن نذكر إليه وأن نصور تلك المرات القليلة التي رأيت فيها في حديقة الحيوان في مصر محبوباً داخل الأسوار . . وقد حاول بعض الاصدقاء الذين كنا في زيارتهم أن يصيدوا لنا منها ولو واحداً وكان قريبا منا في تناول البندقية لكنهم لم يستطيعوا أن يقرّبوه لما يتمتع به من تقديس لدى أغلبية سكان المنطقة من الهندوس ، وصيده يجرّ مشا كل وثورات لا حد لها وربما يعقب ضحايانا من المسلمين والهندوس على حد سواء وتساءلت : فكيف تصطادونه إذن ؟ قالوا في الصحراء حيث لا يعلم الهندوس وبعد ذلك أصطادوا طاووسا كبيرا ولحمه يفضل لحم « الرومي » المعروف في مصر وأثناء رحلة في غابات الهمالايا مع بعض الأصدقاء من بلدة « بهيت » أصطادوا عدة طاوويس وكان عندي واحد ظل في البيت عدة شهور ، والهند تحرم تصديره أو تصدير ريشة ..

أما الغزلان فكثيرأ ما رأيناها تعدو أمامنا في المزارع وهي إن كثرت أتلفت الزرع وضج منها الزراع ، والنسور التي تكثر في الهند كثرة الغربان في مصر نجدها في كل مكان تعلو الشجر بالعشرات أو تتجمع على فريستها التي ألقاها الناس من الحيوانات الميتة تنهشها وترج الناس من رائحتها ومن كثير من المواد الصارة في الأرض ، والحدأة البيضاء الكبيرة الحجم تكثر في كل مكان ، أما الغربان فهي كالجراد وتكاد تزججك بأصواتها في الصباح والمساء ، وكل تجمع حولنا ونحن نأكل في حديقة المنزل ، وكثيرا ما كانت تهجم على « هشام » الصغير وتأخذ ما بيده وهو ينازعها وهي تنازعه حتى يستسلم لها وتستولى على ما بيده ..

وفي الصيف تكثر الحشرات وتهجم الثعابين والعقارب على الناس في بيوتهم . وقد اعذر تليذ لي مرة عن حضوره ليلاً لأن الحرارة التي يسكن فيها يوجد بها ثعبان يهجم على الناس حتى أصاب رجلين . . وفي كل بيت تجد العقارب تمشي وتلدغ من تصادفه . . وقد قلنا في البيت في فصل الصيف نحو خمس وعشرين عقرباً كنا نجدها أحياناً بجانبنا ونحن جلوس وربما سعت في المناوشين في الهواء^(١) وقد أصابنا فزع شديد من هذه الحالة ولكننا رأينا عجباً . . فإن لدغة العقرب لا تقضي إلى الموت كما تشهد في مصر . . وهم الذين سمعوا نتحدث عن الموت من لدغتها ، فهم لا يعتبرونها إلا كما تعتبر لدغة الزنبور في مصر . . وهم يداوونها غالباً بالتعاونيد والتفل على موضعها .

وكنا نكذب أولاً مثل هذه الأخبار لكنها تواترت بشكل لا يدعو إلى الشك وفي المكتب حيث كان « محمد » ولدي يحفظ القرآن لدغت العقرب ولداً فأتى ولدي يحدثني عما فعله « القاري » الذي يحفظهم القرآن وكيف أنه قرأ كلاماً ثم تفل على موضع اللدغ فخف الألم وجلس الولد يتابع الحفظ كأنه لم يحدث شيء^(٢) .

وبجانب التعاويذ يوجد دواء يحضره الأطباء اليونانيون الذين تشتهر بهم الهند أو تختص بهم ويصنعونه من وضع ذيل العقرب مدة في الزيت أما الحشرات الأخرى الصغيرة ولا سيما الطائفة منها فأكثر أنواعها ولشد ما كانت تضايقنا في الصيف حتى لنعطل الإنسان عن العمل ليشغل بكفها بعيداً عنه . . ولكنني كنت مع ذلك أقف مشدوهاً أمام الفراشات المتعددة الأشكال المتنوعة الألوان الجميلة ، وكان الأولاد يجرون وراءها ويمسكونها ونفرسون في أشكالها وكنت أنظر إليها وأرى في جمالها صنع

(١) هكذا كان حالنا في « ديوبند » البلدة التي كنت أدرس في كليتها الإسلامية « دار العلوم » .

(٢) وقد قرأت بعد ذلك بحثاً عن العقارب وعرفت أنه يوجد فيها نوعان نوع سام قاتل ونوع آخر لا تقضي لدغته للموت ولعل ما في الهند غالباً من النوع الأخير .

الله الذى أتقن كل شيء . . حقاً إن الهند بلد العجائب .
وما شاهدته أيضاً نوع من الطيور يسمى « الدراج أو النير » وهو
نوعان : كبير يتألفه الناس ، ويشبه فى لونه الفراخ الرومى المعروفة
فى مصر ، ولو أنه أصغر منها حجماً ، وقد أحضرت منه عدداً فى البيت
إعجاباً بشكله وعاش مع الدجاج والبط . . ونوع أصغر منه ويستعمله
بعض الناس فى قتال بعضه بعضاً ثم يكسب صاحب الغالب منه الرهان
ويتجمع الناس كثيراً لمشاهدة الحرب بين هذين الطائرين . .
وبمناسبة هذا أذكر أيضاً أننى شاهدت كثيراً من الناس يتجمعون
حول ما نسميه الحاوى فى مصر يشاهدونه وهو يتولى بأنغام مزماره
ترقيص الحيات وقد أبت التقاليد المضروبة على مثلى . أن أشاهد مثل
هذا المنظر وهو قريب منى مع شدة رغبى فى مشاهدته . . وكم وقفت
التقاليد بين الإنسان وبين كثير مما يحبه ويشتاق إليه ليرضى رغبة حب
الاستطلاع عنده . .

معادنها :

ربما كان ذكر الهند مدعاة لخيال واسع عن ذهبها السيل وغيره
من الكنوز التى تتحدث عنها القصص ، وعن الثراء الذى يتحدث عنه
التاريخ عندما يقص علينا أبناء الملوك وثرواتهم الذهبية . وسترى فيما سأتى
من أنباءهم أخباراً كثيرة عن الذهب والأحجار الكريمة التى كان
الملوك والحكام والأغنياء يبنون بها ملابسهم وتحفهم ويملئون بها خزائهم . .
وقد كان ذلك مصدر ثروة فيما مضى . . وإن كان الآن كما يقول
ج. س. ساف لوريون قد فقد تقريباً . . ويوجد خلال ذلك الحديد والحاجر
الرخام الجيد التى كانت تمد الملوك بما يشيدون به المساجد والمباني الفخيمة
: أشهر هذه الحاجر « مكرانه » فى راجپوتانا حيث كانت ولا تزال مصادر
الرخام الجيد بأنواعه المختلفة وبحوار ذلك توجد مناجم الزمهرى الحجرى
وجبال الملح كما بسمرتها . . وقد كان للملح دور كبير فى شركة التخصير

والعصيان المدنى بالهند حين قام « غاندى » يدعو إلى مقاطعة الإنجليز والاستغناء عن الملح الحكومى « ولا شك أن الطرق الحديثة فى استغلال معادن الأرض تساعد كثيرا على استخراج بعض المعادن التى لم تعرف طريقة استخراجها فيما مضى أو تحسين استغلال ما عرف منها من قبل ، حيث أخذت الهند تستغل بشكل واسع مناجم الحديد والمنجنيز وتعد الهند الحديثة ثانى دول العالم فى استخراجها كما نخرج ثلاثة أرباع ما فى حوزة العالم من « الميكا » وهو معدن شفاف من المواد الأساسية فى صناعة الأدوات والأجهزة الكهربائية وتصدر معظم إنتاجها منه إلى الولايات المتحدة يضاف إلى ذلك بعض كميات كبيرة من المعادن ذات النشاط الإشعاعى مثل الوريوم والمورنازيت ومن المناسب بعد كل هذا أن أذكر هنا ما جاء فى كتاب البلدان لابن الفقيه الهمدانى (ص ٢٥١ طبع ليدن) .

« خص الله تعالى أرض الهند والسند بأنها توجد بها جميع الروائح العطرية والجواهر كالياقوت والماس وغيرها وكذلك السكر كدكن والفيل والطاووس والعود والعنبر والقرنفل والسنبيل والخولجان والدارصيني والنارجيل والهيللة والنوتيا والبقم والخيزران والصندل وخشب الساج والفلفل الأسود .

صناعاتها

على الرغم من أن الهند بلاد زراعية إلا أنه قام بها من قديم عة صناعات كان أهمها صناعة النسيج فالهند مشهورة به وبأنواع فاخرة منه كانت تصدره إلى أوربا فى عهد الملوك المسلمين وقد كانت الشركة الإنكليزية أول ما جاءت إلى الهند تصدر منها إلى إنجلترا البفته وكثيرا من المنسوجات وكانت أهم مدن الهند فى هذه الصناعة « أحمد أباد » التى لا تزال لها شهرتها الآن وتنتشر المخازل والمناسج اليدوية فى جميع مدن الهند وقرائها وإن كان الإنجليز قد حاولوا القضاء عليها ليفتحوا المجال لبضاعتهم فى هذه البلاد الواسعة وسيمر بك الحديث عن هذا فى شيء من التفصيل فى فصول

الكتاب الآتية إن شاء الله ، ومن أهم الصناعات كذلك صناعة الجلود وصناعة الآلات الحديدية التي نمت في عهد الحكم الإنجليزى حتى رأينا الهند تصنع كثيراً مما تحتاج إليه سككها الحديدية وأجهزة السيارات والدراجات وغير ذلك من الأدوات الحديدية هذا بالإضافة إلى صناعة السكر التي تنتشر مصانعها في كافة بلاد الهند وتنتج منه كميات وافرة حتى لنعُد أكبر بلاد العالم في إنتاجه . . وكذلك صناعة الجوت الذي تصنع منه الأكياس والزكائب لاستهلاكها وتصدير الفائض منها إلى الخارج وصناعة المطاط الذي تستورده خاماً من البلاد المجاورة فوق ما تنتجه محلياً وتقوم بصنع أشياء متعددة منه .

تجارتهـاـ .

ومن المناسب أن نذكر هنا أيضاً أن الهند تصدر كثيراً من منتجاتها الزراعية والصناعية للخارج فهي تصدر الشاي والقطن الخام والمغزول والمنسوجات القطنية والحريرية والعاج وخشب الساج والصندل والروائح العطرية وكثيراً من الحبوب الزيتية والأعشاب الطبية وجوز الهند والنوابل والجرت ومصنوعاته . ولعل مما اشتهرت به الهند من قديم خيراتها الوفيرة التي كانت تصدر إلى البلاد الغربية أعنى التي تقع في الجهة الغربية منها سواء أكانت البلاد العربية أم الإفريقية أم الأوربية وكانت هذه الشهرة مما أسال لعاب الأوربيين وجعلهم يتسابقون إلى الهند ، وكانت تجارتها التي تذهب إلى أوروبا مارة بالبلاد العربية ومصر من مصادر ثروة هذه البلاد بما يجبي عليها من ضرائب ، ثم كانت هذه التجارة من عوامل النزاع بين أوروبا وبين البلاد العربية ولا سيما مصر ثم بين الدول الأوربية نفسها مثل جنوا والبنديقية ومثل أسبانيا والبرتغال وهولندا وإنجلترا وفرنسا في استعمار الهند . وكانت صادرات الهند والرغبة في الاستفادة منها سبباً في اكتشاف رأس الرجاء الصالح بل سبباً في اكتشاف الدنيا الجديدة أى الأمريكتين حينما حاول

كولمب . أن يصل إلى الهند عن طريق الاتجاه إلى الغرب بدلاً من الشرق . ولمعان اسم الهند وتجارها في أوروبا في ذلك الوقت هو الذي سبب كل هذا النشاط ، وهو الذي جعلهم يسمون الجزر التي وصل إليها المكتشفون الأوروبيون في أمريكا باسم جزر الهند الغربية لأنهم ظنوا حينما وصلوا إليها أنها هي الهند .

وهكذا كان اسم الهند وما يحيط بها من أفكار ضرماً لامتداداً يجذب إليها الأنظار مما سبب لها الاستعمار الإنجليزي ذلك الاستعمار الذي ظلت تروح تحته طويلاً وكبدها ما كبدها من متاعب وأهوال ، وكان استعمار الهند مدعاة لأن يؤمن الإنجليز طرقهم إليها فعمدوا إلى استعمار مصر ، ومداخل البحر الأحمر في عدن والشواطيء الشرقية لأفريقية ثم الشواطيء الجنوبية لجزيرة العرب التي لا تزال تن من هذا الاستعمار الآن رغم تخلص الهند منه . .

حضارة الهند

تعتبر الهند من الأمم ذات الحضارة القديمة بحيث تزامن في حضارتها حضارات مصر وبابل وآشور واليونان ، ويقول المؤرخون حين يبحثون في بدء تاريخ هذه الحضارة إنها بدأت قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة في حوض السند وهو أقرب مكان في الهند لتلك البلاد ذات الحضارة القديمة ومع ذلك يعجز المؤرخون عن الأتيان بمعارف كاملة متسلسلة عن تاريخ الهند منذ هذه الحقبة .

يقول جوستاف لوبون ^(١) : « ليس للهند القديمة تاريخ وليس في كتبها وثائق عن ماضيها ولا تقوم مبانها مقام الكتب مادامت لا تزيد في القدم عن ثلاثة قرون قبل الميلاد ، ولولا ما في قليل من الكتب الدينية من أكاداس الأساطير التي تستشف منها الحوادث التاريخية لظل ماضي الهند

مجهولاً ، وأقدم المصادر التي يرجع إليها في تبين أثر الماضي المفقود أشعار الفيدا الدينية التي كتبت في أدوار مختلفة والتي تصل في القدم إلى ما قبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد » على أن كثيراً من الآثار التي كشف عنها المنقبون يمكن أن تعطينا صورة عن تاريخ الهند وحضارتها القديمة فقد رأيت آثاراً لأشوكا عند منبع جمنا وهو الذي حكم الهند الشمالية قبل الميلاد بنحو قرنين ونصف ، كما رأيت أثناء زيارتي لـ « بتنا » عاصمة ولاية « بهار » آثاراً ترجع إلى عهده أيضاً حيث كانت « باتلي بوترا » عاصمة أشوكا وهي في مكان « بتنا » تقريباً كما شاهدت آثار جامعة « ناندا » القديمة التي يقولون أنها كانت تتسع لأكثر من عشرة آلاف طالب والتي تعلم فيها بوذا . . ولذا أقامت حكومة الهند الحالية بجانبها معهداً للبحوث في الآداب القديمة ولاسيما البوذية منها ، وقد زرته واطلعت على كثير من الكتب النادرة الموجودة فيه والتي استجلبت هي أو صورها من أماكن متعددة ، وفي المعهد كثير من الطلاب الشرقيين الذين أتوا من بورما وسيام والصين وغيرها ليجتثوا في آداب البوذية ويعيشون في بساطة حيث يقيم أكثرهم في خيام حول مبنى المعهد ذلك المبنى الوحيد في المنطقة مما جعلني أعجل إعجابي بهم في دفتر الزيارات .

الغزو الآري .

يقول المؤرخون إنه على الرغم من أن الهند محاطة بحواجز طبيعية عزلتها عن العالم على مر السنين إلا أنها تعرضت للغزو دائماً من الغرب حيث توجد الممرات التي تصلها بالدول الغربية منها ، فقد غزاها الآريون المنحدرون من أواسط آسيا قبل الميلاد بنحو ألفي سنة . ولو أن بعض المؤرخين يرجع ذلك إلى أكثر من أربعة آلاف سنة ، كما غزوا أوروبا كذلك . . .

وقد كان لهذه القبائل أثر كبير في تاريخ الهند إذ بعزى إليها تكوين

اللغة السنسكريتية التي يقول علماء اللغات إنها تشبه اللغات الأوربية القديمة مثل اللاتينية ولغة القوط كما تشبه الفارسية القديمة مما جعلهم يحكمون بأن أصلها جميعاً واحد . . وقد تولد من استعلاء الآريين الفاتحين على سكان الهند الأصليين ومن احتكاكهم بهم تلك التقاليد الهندوسية التي اعتبرت على مر التاريخ ديناً يدين به الهنود ويلتزمون بأدابه . .

« والهندوسية أسلوب في الحياة كامل أكثر مما هي مجموعة من العقائد والمعتقدات وتاريخها يوضح استيعابها لشتى المعتقدات والفرائض والسنن وليست لها صيغ محددة المعالم ولذا تشمل من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار وما يرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة ^(١) »

غزو الإسكندر .

في سنة ٣٢٧ قبل الميلاد وصل الإسكندر الأكبر المقدوني إلى أرض الهند بعد ما فتح كل البلاد التي في طريقه من اليونان إلى الهند وأخضعها لحكمه ، وقد دخل الهند من أرض السند حيث يوجد الطريق الطبيعي الذي يتخذة الغزاة دائماً لغزو الهند وأخضع الإسكندر جزءاً كبيراً من أرضها بعد ما هزم ملوكها . ثم توقف عن الغزو وعاد أدراجه نحو الغرب بعد أن ترك حاميات له في البلاد المفتوحة .

« ولو نظرنا إلى غزوة الإسكندر من ناحية الفتح لقلنا إنها غير ذات نتائج سياسية لتلاشى الحاميات الإغريقية التي تركها في أرض الهند في بضعة سنين بيد أنه كان لها نتائج طيبة من ناحية وصلها الهند بأوروبا لأول مرة . »

وينتهي لهذا الحكم أحد الكتاب الهنود ^(٢) ويثبت أن الهند كان لها اتصال بالغرب قبل غزوة الإسكندر ويبرهن على هذا بأدلة من التاريخ إلى أن يقول « وينتهي بنا كل ذلك إلى أن الهند قد عرفت الأغريق عن

(١) الهند والغرب ص ١٨

(٢) الأستاذ بوذا برকাশ في مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر سنة ١٩٥٠ .

طريق فارس كما عرف الأغريق الهند عن طريقها أيضاً ، ولقد كانت الأقاليم الغربية لنهر السند تسكون جزءاً من الإمبراطورية الفارسية في عهد « دارا » ثم في عهد ابنه ، كما اشترك الهنود في الجيش الذي قاده ابن دارا إلى اليونان وقد وصف « هيردوت » جنود هذه الحملة بأنهم كانوا يحملون أقواساً من الغاب وحراً بآ قصيرة ، وأن الهنود منهم كانوا يرتدون بزات من القطن ويحملون أقواساً من الخيزران ، وسهاماً ذات رموس مصنوعة من الحديد .

« ولقد عمل هذا الاحتكاك بين الأغريق والهنود على النفثات الهند نحو اليونان ، وكما نقل الأغريق إلى بلاده أقاصيص الهند وأساطيرها التي سمعها في البلاط الفارسي فقد شرع الهنود يهتمون بالأغريق . ويحدثنا « أرسطر » عن فلاسفة من الهند قدموا إلى أثينا لمحاوره سقراط ومناقشته في المشاكل الفلسفية التي يعالجها المفكر اليوناني » . ونحن من جانبنا يمكن أن نقول إنه كانت هناك صلة بين الهند والأغريق ، ولكن هذه الصلة قد زادت واتسعت بعد غز الإسكندر ، ذلك الاتساع الذي نلنسه في عدة مظاهر . أهمها ذلك التصاهر الذي حدث بين الهند والإغريق ، فهناك دلائل تثبت أن « تشاندارجوبتامورا » أحد ملوك الهند قدزوج ابنته من الإسكندر الأكبر توددأ له وتحالفاً ، ويسجل التاريخ أن خلف الإسكندر في سوريا وبلاد بابل وهو « سيلوكس » ^(١) زوج ابنته من « تشاندارجوبتامورا » طمعاً في مساعدتي وعونه ، ^(٢) كما أن ملك سوريا هذا أرسل سفيراً إلى بلاط « تشاندر » اسمه « ميغاستين » فأقام هذا السفير في العاصمة الهندية زمناً طويلاً ، وكان هذا الاتصال الوثيق باعثاً لأحد الضباط الأغريق « بتروكليس » إلى الارتحال للهند والكتابة عنها ، على أن الاتصال بين الهند والدول الواقعة في الغرب منها قد اتسع أكثر من ذلك أيام إمبراطور الهند

(١) ذكره كتاب حضارة الهند ص ٢١ باسم نيكاتور السلوقي

(٢) ثقافة الهند سبتمبر سنة ١٩٥٠

الشمالية « أشركا »^(١) ذلك الإمبراطور الذى ولى الحكم فى سنة ٢٥٠ قبل الميلاد ، واعتنق البوذية ، وأصبح من أهم دعااتها فى الداخل والخارج ، فأرسل بعثات التبشير البردية إلى اليونان ومصر وسوريا وشمال إفريقيا ، للتبشير برسالة الحب والسلام والتعالى عن الألم ، تلك المبادئ التى بشر بها بوذا . وقامت بجانب هذه البعثات الرسمية بعثات دينية بوذية أخرى من قبل المؤسسات الدينية البوذية ؛ لواصل جهودها فى تلك البلاد الغربية وتبشر برسالة الدين البوذى ، حتى أصبح لهم مكان مرموق فى هذه البلاد ، مما كان له أثره فى بعض الأفكار الفلسفية التى نشأت فيها .. وما يلاحظه الإنسان بكثير من الدهشة ذلك التشابه الحاصل فيما يقوله أتباع بوذا عنه ، وفيما يقوله أتباع عيسى عليه السلام عنه كذلك مما سنبسط فيه القول إن شاء الله عند حديثنا الخاص عن البوذية :

وأعتقد أنه من الضرورى بعد هذا أن أحدثك عن حالة الهند الاجتماعية ولا سيما الأديان الشائعة فيها من قبل الإسلام لتأخذ فكرة عنها مادم تريد الوقوف على تاريخ الهند . والأديان فيها تفعل فعلها فى حياة الناس اليومية ، ومعاملتهم بعضهم لبعض ، حتى يقول جوستاف لوبون^(٢) : « إن المعتقدات الدينية فى الهند هى أساس جميع النظم الاجتماعية فما فى الهند من نظم اجتماعية ليس بالحقيقة إلا نظم آدينية » وسترى صدق ذلك فيما يأتى :

(١) ويقول جوستاف لوبون فى كتابه حضارة الهند ص ٢١٢ : إن خلفاء الدولة الأغريقية البطارية التى أقامها نيكاتور السلوق فتحوا البنجاب وشادوا عدة ممالك ووصلوا إلى « مترا » وأن أفانا أيم ميناندر أسس سنة ١٢٦ ق م مملكة بين نهر جمنا ومصب نهر « نربدا » .

(٢) ص ٢٥٥ فى كتابه حضارة الهند السابق .

شعوب في شعب واحد

نحدثنا فيما سبق عن مساحة الهند السكيرة وعن تباين المناخ فيها حسب قربها وبعدها من خط الاستواء وحسب ارتفاعها وانخفاضها وحسب تحكم الجبال والصحارى في تكييف جوها وحسب تأثير البحر ورياحه التي تهب عليها .

ونضيف إلى ذلك أن سكان الهند يختلفون في ألوان بشرتهم حيث تجد اللون الأسود غالباً في الجنوب فأذا سرنا نحو الشمال وجدنا اللون القهجي هو الغالب حتى إذا وصلنا إلى نهاية الشمال وجدنا السكان يمتازون ببياض البشرة كما في كشمير . .

وتد كانت مساحة الهند الواسعة وتعرضها للغزاة الذين وغدوا عليها من الغرب سبباً في اختلاف الناس كذلك في الأجناس التي ينتسبون إليها .

وقد تكون هذه الاختلافات السابقة هيئة بجانب اختلاف السكان في اللغة والدين ؛ فان تباين لغات السكان ولهجاتهم يلمسه كل زائر للهند كما يلمسه سكان الهند أنفسهم الذين يستحيل عليهم التفاهم مع أبناء وطنهم حتى غادروا دني شالينوزرا السكجرات أو المليار أو مدياس أو بنغال أو البنجاب أو آسام أو التبت أو بلوخيستان أو غير ذلك من المناطق . ويقول العلامة « جوستاف لوبون » : « إن في الهند ٢٤٠ لغة ونحو ٢٠٠ لهجة ما عدا اللغة الفارسية والبهلوية والصينية والإنجليزية والسانسكريتية ولو أن الأخيرة لا تجد رجلاً واسعاً يتكلم بها في قوساء - اجات - وهي لغة كتب الهند القديمة التي لا يعرفها إلا أقلية من البراهمة لخرقة النسب المقدسة فخط » وهذا الكلام قد قرره بشأن سانسكريتية منذ ثلاث أربعين قرناً . أما الآن وبعد استقلال الهند فقد عملت الحكومة الهندية على بحث السانسكريتية من سرقتها وذلك بالاعتباس منها في اللغة الهندية التي جعلتها اللغة الرسمية بجانب الإنجليزية وقرضت تعليمها في مدارسها . وألغت بها عدة كتب ، كما جعلت

بعض الاذاعات بها ، ووضعت النشيد الوطنى بها أيضاً . وبما المسته أن الأغلبية العظمى من الهنود لا يفهمون جيداً هذه اللغة فيسمعون الاذاعة أو النشيد الوطنى وكأنهم يسمعون لغة أجنبية . وإذا كانت اللغات قد بلغت هذا العدد الضخم فى الهند فإن اللغة الأوردية الحديثة التكوين هى التى تحظى أكثر من كل اللغات بعدد أكبر من السكان نسبياً ، ويسمىها جوستاف لوبون اللغة الهندوستانية ، يتكلم بها المسلم وغيره على السواء ، وقد تكونت فى عهد المغول من اختلاط الفاتحين الذين كانوا يتكلمون ألسنة متعددة منها العربية والفارسية والتركية فنشأت من اختلاطهم بسكان البلاد الأصليين لغة جديدة تتكون من الفارسية والعربية والهندية والتركية أيضاً ، ثم دخلت فيها ألفاظ كثيرة من الانجليزية بعد الاحتلال الانجليزى .. لأنها لغة قام تكويناها على خليط من اللغات فهى لذلك لا ترفض أية كلمة أو أى اصطلاح يأتى من أية لغة أخرى ويصير بعد دخوله فيها لغة أوردية و « أوردو » معناها « معسكر » أى أن اللغة الأوردية كانت لغة العسكر ، لغة الجنود الفاتحين الذين اضطروا إلى خلط عدة لغات بعضها ببعض : لفظ من هنا ولفظ من هناك ليستطيعوا التفاهم ، وقد أخذت هذه اللغة تنمو بتشجيع الملوك المسلمين حتى صارت اللغة الرسمية للدولة المغولية وصارت لغة عدد كبير من الشعب مسلمين وغير مسلمين . وهى الآن بعد استقلال الهند قد نجت عن مكانتها الرسمية السابقة وأبت الحكومة المركزية وبعض حكومات الولايات أن تجعلها لغة من لغاتها وأخذت الحكومة ترحزها عن الحياة لتحل محلها اللغة الهندية .

ويجاهد المسلمون جهاداً مستمراً للاعتراف بها ولو فى حكومات الاقاليم الشمالية مثل « أوتر برادش » ولكنهم يلقون للآن صدودا عن الاستماع إلى صوتهم . وقد سمعت من أحد كبار المثقفين المسلمين (١) إن رئيس وزراء « أوتر برادش » ينكر أهمية اللغة الأوردية فى الهند بينما هو فى

إنكاره هذا وفي خطبه في المجتمعات هو وجميع وزراء الحكومة حين يخاطبون الشعب يستعملون اللغة الأوردية !! . حتى قال « نهرو » في هذا الصدد مدافعاً عن الأوردية ومتهكماً بالمعارضين لها « إن المخالفين للأوردية يخالفونها بالأوردية » ورأى « نهرو » لا يلزم الحكومات المحلية وبرلماناتها المعارضة للأوردية ، وقد حضرت عدة حفلات بمناسبة تأميم قناة السويس وكان أكثرها من الهندوس فوجدت اللغة الأوردية هي لغة الشعر ولغة الخطابة ولغة الحديث . (١)

وحضرت اجتماع المجلس النيابي لحكومة « بهار » فلاحظت أن النواب حين يخطبون يختار كل واحد اللغة التي يريد بها ، فسمعت الأوردية والانجليزية والهندية في جلسة واحدة .

ولا شك أن اللغة الأوردية تحابه مستقبلاً شاقاً وتجاهبه الذخيرة العظيمة من الكتب التي وضعت بها في مختلف العلوم والفنون مثل هذا المستقبل . ومن المعروف أن اللغة الأوردية هي اللغة الثالثة بعد العربية والفارسية في تدوين الكتب الإسلامية مع حداثة عهدها . . وإذا كان هذا هو حال الأوردية في حكومة الهند الحاضرة بعد الاستقلال فأنها في باكستان الدولة الإسلامية هي اللغة الرسمية ..

ولكي ننصور مسألة اختلاف اللغات وتعددتها في الهند أذكر لك عدد اللغات التي تذيب بها محطة الهند بعد التقسيم وهي اللغات الهامة التي عنيت الحكومة بالإذاعة بها .. فقد جاء في مجلة الثقافة الهندية عدد مارس ١٩٥٣ « إن هيئة إذاعة عموم الهند تذيب بست عشرة لغة وعشرين لهجة في إذاعتها المحلية » ولا شك أنها قبل التقسيم كانت أكثر من هذا مراعاة لسكان الجزء الغربي من الهند الذي يكون باكستان الآن بما فيها من بلو خستان والقبائل الجبلية .

(١) ومما هو جدير بالذكر أن بعض الحكومات الفرعية في الولايات اعترفت بالأوردية في لغاتها مثل بومباي وأندرا ومدراس .

وقد كان عدم وجود لغة متفق عليها بين الهنود مساعداً للانحياز في فرض لغتهم في جميع الهند وجعلها اللغة الرسمية العامة حتى صار لها في الهند مكاناً ممتازاً وأصبحت هي اللغة العامة التي يستطيع أى هندي التفاهم بها مع أخيه الهندي ولو اختلفت لغتهم الوطنية .
تلك هي الاختلافات بين القوم في اللغة . .

الاختلاف في الدين

أما الدين فيهم مختلفون فيه أيضاً ولو أنه لا يبلغ في الكثرة مبلغ اللغات فالأديان المشهورة في الهند هي الهندوسية والإسلام والبوذية والسيكيد .
والمسيحية بجوار مذاهب أتباعها قليلون جداً . .

والهندوسية أقدم هذه الأديان في الهند تليها البرذية التي انتشرت قبل الميلاد بنحو خمسةة سنة ثم الإسلام ثم السيكية ثم المسيحية التي بدأت تنتشر في الهند مع بعثات الغرب التجارية وبعد دخول الإنكليز واهتمامهم بنشرها وهي في الجنوب أكثر من الشمال . وهذا لا ينفي أنه كان لليهودية والمسيحية بعض أتباع قليلين قبل الإسلام .

ويكره الأحراف في الدين فوارق كبيرة بين سكان الهند لا يكرهه الاختلاف في اللغة لمكانة الدين من التأثير على النفوس في العادات والعقائد حتى انشعر بالفتاوت البعيد بين أبناء الوطن الواحد في أفغانستان وعقائدهم وعاداتهم بل وظهرت التي كثيراً ما تخضع لديانتهم وظقوسهم . .
وستكلم إن شاء الله في شيء من التفصيل عن هذه الأديان لاسيما المحلية التي تنجحت في الهند والتي تعبر غريبة عن التاريخ العربي .

وسكان الهند قبل التقسيم كانوا نحو ٤٣٥ مليون والمسلمون ثم أكثر السكان إذ يبلغون الثلثين « حوالي ثلثمائة مليون » يليهم المسلمون الذين يبلغون المائة مليون مسلم وتجد بجانب هذا نسبة صغيرة من البرذيين والمسيحيين والسيخ (١) .

(١) تكتب سيك وسيخ ومنها المريدون .

وزن الإنسان ليجتاز حين ينظر إلى اختلاف الخلود في ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وأديانهم وطبائعهم وناياتهم ويتساءل كيف يتكون من هذا الخليط شعب واحد .

إن الحقيقة الواقعة أنه لا رابطة بين سكان الهند جميعاً إلا الاسم فقط ثم تجدهم بعد ذلك يترقون ويكفون جهانات أو أجناساً ظلت على مر السنين متباعدة بعضها عن بعض كل يحارب الآخر ليدفعه . وكل يعز بجذبه وخصائصه ويشعر بالفارق البعيد بينه وبين الآخرين . وقد يكونون مع ذلك متفقين في الدين لكن الطبقة وخصائصها مقدمة في نزعتهم على كل اعتبار . . وهذا يصدف أكثر ما يكون على أتباع الهندوسية . وإن كنا نجد له شبيهاً بين المسلمين حيث قسموا أنفسهم إلى طبقات من حيث نسبهم للأفغان أو الفرس أو أبناء البراهميين أو بني بكر وعمر وعثمان أو آل البيت من نسل نبي رضى الله عن الجميع . . بحيث صار من عاداة هؤلاء في نظرهم أحط منهم شأن حتى لا يجوزوا انصافه دمه . وسندكر ذلك بتأصيل إن شاء الله . .

ولم تشعر الهند كلها بوحدة سياسية كذلك التي شعرت بها تحت حكم الإنجليز . وإن كان الحكم الإسلامي في عهد أورنگزيب ، أشهر ملوك المسلمين الكبار قد كاد يوحد الهند كلها تحت مظلته إلا أنه بقيت ولاية في الجنوب لم تخضع له . أما في عهد الإنجليز فقد خضعت الهند كلها لسيارتهم حتى أصبح الحاكم الإنجليزي العام في دلهي يسيطر على الحكم في جميع أنحاء الهند . وكانت هذه الوحدة السياسية تحت حكم الإنجليز دائمة وتمتد إلى وسطها حيث كانت لها الآن تحت حكم أبنائها ولا أنها تمت إلى دولتين . ورب ضارة نافعة . كما يقولون . .

الاديان في الهند قبل دخول الاسلام

الهندوسية .

سبق أن قلنا إن الديانة الهندوسية عبارة عن تقاليد وأوضاع تولدت من تنظيم الآريين لحياتهم بعد ما وفدوا على الهند واستعمروها وتغلبوا على سكانها الأصليين وطردهم من ميادين الحياة ..

وأعظم وأقدم كتبهم التي تقوم عليها طقوسهم ويستمدون منها عقائدهم أربعة يرجع تاريخ أقدمها إلى ٢٥٠٠ سنة ق . م . وبعضها إلى حوالى ١٢٠٠ ق . م ^(١) . وهذه الكتب أربعة .

(١) رگھيدا ^(٢) (٢) سام فيدا : وهما يشتملان على مجموعات من الأناشيد التي كانوا ينشدونها في تقديم القرابين للإلهة ..

(٣) يجر فيدا وتشتمل على الصلوات والأدعية شعراً ونثراً .

(٤) « أتهر فيدا » ^(٣) يصف عقائد الجمهور في الأرواح الشريرة والرقى والتسحر وهو آخر مجموعة من هذه الكتب . ولذا ظل مدة غير معترف به فهو لا يلقى ما تلقاه الكتب الثلاثة السابقة من التقديس ^(٢) ..

(١) المسألة الهندية ص ٤٧ نقلا عن المؤرخ الهندي « تيلاك » وإن كان المؤرخ « مكس موللر » يرى أنها ألقت قبل الميلاد بألف سنة كما في حضارة الهند ص ٢٥٧

(٢) Rigveda معنى « فيدا » مقدس . والفاء تنطق بثلاث نطق فوقها

« ورك » بالسكاف الفارسية التي بين الميم والكاف وتشبه نطق القاهرين بالميم . . ولذلك ترى بعضهم يرميها إلى الميم كما في كتاب المسألة الهندوسية لعبد الله حسين وبعضهم إلى الغين كما في كتاب حضارة الهند أما الفاء ذات الثلاث نطق فبعضهم يرميها بالفاء . وبعضهم بالواو . . وكثيراً ما تقرأ في الكتب « الرغ ويدا » العصر الويدي . الفيدا العصر الفيدي . وذلك ناشئ من عدم وجود الفاء ذات الثلاث نطق أو السكاف الفارسية في اللغة العربية .

(٣) الهاء هنا تنطق مخطوفة كأنها غير موجودة وهي غالبية في اللغة السنسكريتية واللغة الأوردية والتاء مفتوحة والراء ساكنة .

(٤) تاريخ الهند لسيد هاشم ص ١٧ والمسألة الهندية ٤٧ لعبد الله حسين .

وقد لخص جوستاف لوبون المعتقدات التي جاءت في هذه الكتب كما يأتي :

(١) عبادة قوى الطبيعة . (٢) تشخص هذه القوى بأسماء الآلهة .
(٣) اعتقاد خلود الروح^(١) (٤) عبادة الأجداد (٥) الميل إلى اخضاع الطبيعة والناس والآلهة لإله واحد أقوى منها وهو الآله « اندرا »^(٢) ، على العموم . (٦) أساس الدين أو حقيقته تنحصر في تبادل الإنسان قرايبته ويقدم فواكهه وأن تمنحه الآلهة الكثير واليسر والمطر المبارك والصحة والكنوز .

ويمضى هذا المؤرخ الاجتماعى فى تحليل هذه الأصول والاستشهاد لها ثم يتحدث عن حضارة هؤلاء الآريين التى قامت على أساس كتبهم ويختم حديثه بقوله . « إنك لا تبصر حضارة تساوت هى وحضارتهم فى النشوء فاستطاعت أن تتخلص مثلها من بقايا الهمجية الأولى . وإنك إذا قايست بين الشعب الآرى والشعب اليهودى الذى مثل دوراً كبيراً فى العالم وجدت ذلك أعلى من هذا فى تاريخ بنى إسرائيل ترى ما لا ترى له أثراً فى كتب الآريين من الأكاذيب وكفران النعمة والجبن والنذالة والتجبر والبهيمية وسفك الدماء والخرافية الضاربة^(٣) .

فكرة الطبقات

وقد بدأت الإشارة إلى الطبقات التى قامت عليها الحياة الاجتماعية للهندوس فى القيدا ، ومن المهم أن نقول إن هذا التقسيم جاء أولاً نتيجة طبيعية لتوزيع الأعمال على الناس فى المجتمع . فقد اقتضت حياتهم أن يقوم بعض الناس بالطقوس الدينية بينما يقوم الآخرون بالحروب وكان

(١) على أساس فكرة التناسخ . .

(٢) سبق أن قلنا أن بعض المؤرخين يرى أن اسم الهند مشتق من اسم هذا الآله

(٣) صفحات ٢٨٣ ، ٢٨٨ ، ٢٩٦ .

من الطبيعي أن توجد جماعة تقوم بالعمل في الحقول ومطالب الحياة حتى يتفرغ السكان والحاربون لعملهم ، وبالتدريج وجدت الطبقة الرابعة وهي طائفة « الشودرا » التي هي أخس الطبقات والتي عرفت عند كتاب العربية بالطائفة المنبوذة .

وكانت الفواصل بين الطبقات غير واسعة في مبدأ حياة هؤلاء ، ثم أخذت على مر الأيام تتسع وتشكل ويوضع لها نظام وحدود . . عنت بها المكتب التي شرحت هذه الكتب المقدسة وبيّنت خصائصها ووظائفها وعظماها في الحياة . . وأهم هذه الشروح ذلك الشرح الذي قام به « منومهارشي ^(١) » ومن شروحه وتقنيناته ننقل لك ما تتعرف به على الأوضاع الهندوسية للحياة الاجتماعية ، وقد جاءت هذه الروح في العصور المتأخرة قبل الميلاد بحوالي خمسة قرون أو ثلاثة على خلاف بين المؤرخين وعلى هذا الأساس الذي وضعه « منو » وقعه قامت الحياة الهندوسية إلى الآن . .

بناءً في شرائع « منو » تحديد الطوائف في الحياة الهندوسية الاجتماعية هكذا : (١) طائفة البراهمة أي السكان . (٢) طائفة الأكشترية (وهي الطائفة المحاربة) . (٣) طائفة الثميشية (وهي طائفة الزراع والتجار التي توفر مسائل العيش لسكان والمحاربين) . (٤) وطائفة الشودرا (وهي أسفل الطبقات وليس لها مهنة خاصة ولم يعتز بها بما يعمل إلا لخدمة الطوائف السابقة في أخس حاجاتها . وهي طائفة المنبوذين وعلى الرغم أن يتخرج من طائفتهم نوابغ أدنى منها ^(٢) . وليس من الرجل

(١) معناه : منو الرئي الكبير « ذن » « ١٠ » معناه في اللغة الهندوسية يتيه عظيم أو كبير و « رشي » معناه الوي .

(٢) سبب سماحهم للرجل بأن يتزوج من طبقة أدنى منه اعتقادهم بأن الولد يرث أيامه في خصائصه وذلك مصدر على الطبقات الثلاثة الأولى كما يتبين مما ذكر سنده .

الذى يتزوج بواحدة من « الشودرا » يصبح مفضل حاً مهتوك الستر ، ويطرد من طائفته ، ويصديه خزى فى الدنيا والآخرة . فإنه لا يتزوج نساء الشودرا إلا رجال من الشودرا .

ويمكن للبرهمى أن يتزوج امرأة أكشترية أو من الفيشية ولا عكس^(١) أى لا يصح للمرأة من طبقة عالية أن تتزوج من طبقة أقل منها ، لأنها حينئذ تلد أولاداً يرثون صفات أبهم التى هى أقل من صفات طبقة أمهم .

أما النكحة التى أقاموا عليها هذه الطبقات وجعلوها من المعتقدات فهى كما جاءت فى شريعة « منو » : — « أراد الرب المولى تكاثر الجنس البشرى فخلق من فمه البراهمة ، ومن ذراعه الاكشترية ، ومن غفذه الفيشية ومن رجله الشودرا . . وأراد دوام هذا الجنس فجعل لكل واحدة من هذه الطبقات أعمالاً خاصة . . فعهد إلى البراهمة فى درس أسفار الفيدا وتعليمها وتقريب القربان ، وإدارة ضحايا الآخرين والعطاء والأخذ ، وفرض على الاكشترية حماية الشعب وممارسة الإحسان والتضحية ، وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الانهماك فى الشهوات . . وخص الفيشية بتربية المواشى وإيتاء الزكاة والتضحية ، ودراسة الكتب المقدسة والتجارة والربا والحرث الخ . وأوحى على الشودرا عملاً واحداً فقط وهو خدمة تلك الطبقات » .

« ونار جهنم هى دار البرهمى الذى يتزوج امرأة من الشودرا . فإذا ولد له ولد طرد من البراهمة » .

ويعيش البراهمة على ما يقدم لهم من القرابين والهدايا ، وإن كان يؤذن لهم فى حالة الحاجة بالقيام ببعض الوظائف وأعمال التجارة .

« يؤجر الواهب مرة لهبته المال لغير البرهمى ، ويؤجر مرتين على

هيبته الرجل يزعم أنه برهمى ، ويؤجر مائة ألف مرة على هيبته لبرهمى متبحر فى كتب القيدا ، ويؤجر أجراً لاحد له على هيبته لبرهمى متبتل فى علم اللاهوت .

« كل مافى هذا العالم ملك البرهمى ، وللبرهمى حق فى كل موجود بسبب النسب . »

« ولان يدنس البرهمى صاحب الرگشيدا بذنب ، ولو قتل أهل العرالم الثلاثة ، وليتجنب الملك قتل برهمى ولو اقترف جميع الجرائم . »

وقد حددت شريعة « منر » العلاقة بين البراهمة والأكشترية حيث قالت « لافلاح للأكشترية بغير البراهمة ، ولا ارتقاء للبراهمة بغير الأكشترية » فتناك الطائفتان إذا ما اتحدتا كتب لهما الفوز فى الدارين .

« ويجب أن يعد البرهمى أباً للأكشترية ، ولو كان عمر البرهمى عشر سنوات وعمر الأكشترى مائة سنة . »

أما الفيشية وهم الزراع والتجار فهم أقل مرتبة من الأكشترية ، لأنهم وإن كان يجرى فيهم الدم الآرى إلا أنه قليل . . ومنزلتهم من البراهمة هى منزلة الفخذ من الرأس ، وأين ذاك من هذا ؟

أما الشودرا : فلا يجرى فيهم الدم الآرى مطلقاً ، فهم من سكان البلاد الأصليين ، وهم خطر على الدم الآرى ، ولذلك وجب أن تتحاشاهم الطبقات الثلاثة كما يتحاشى الإنسان الممرض الخبيث ، ومن هنا جاء التشديد فى شريعة « منر » فى عدم الزواج منهم ، أو محاولة الارتقاء بهم عن طبقته السفلى ، حتى لا يحدثوا أنفسهم يوماً من الأيام برفعة تسول لهم الزواج من الطبقات العليا . . جاء فى شريعة « منر » .

« يجب على الشودرى أن يمثل امتثالاً مطلقاً أوامر البراهمة . »

« خدمة الشودرى للبراهمة هى أفضل عمل يحمد عليه . »

« لا يجوز للشودرى أن يجمع ثروة زائدة ولو كان على ذلك من القادرين

فالشودرى إذا جمع مالا آذى البراهمة بقبحته . »

« تقطع يد ابن الطبقة الدنيا إذا علا من هو أعلى منه يده أو عصاه
وتقطع رجله إذا رفسه برجله حين الغضب » .

« وإذا ما دعاه باسمه أو اسم طائفته متهكماً أدخل إلى فيه خنجر محمى
مثالوث النصل طوله عشرة قراريط » .

« ويأمر الملك بصب زيت حار في فيه وفي أذنيه إذا بلغ من الوقاحة
ما يبدى به رأياً للبراهمة في أمور وظائفهم » .

« ومن يك ذا علاقات برجل منبوذ أسقط في نهاية سنة ، ولو كانت
العلاقة عن طريق قراءة الكتاب المقدس معه ، ولو كان في الركوب معه
في مركبة واحدة ، أو الجلوس معه على متكأ واحد أو الأكل معه على
خوان واحد » .

على هذا الأساس الذي وضعته الكتب الدينية الهندوسية قامت الحياة
الاجتماعية للهندوس . . وظلت كذلك عبر القرون تزداد كل يوم شدة
وتمكنياً وتزداد كل طبقة إيماناً بموقفهم من غيرها حتى رأيت طبقة الشودرا^(١)
« المنبوذين » وكأنهم أشد إيماناً بذلتهم من غيرهم فهم لا يسكنون مع بقية
الأهالي ، ولكنهم يتخذون لهم مساكن في أطراف البلد في غاية الحقارة
والضعة ، ولا يحاولون أن يرتفعوا عن وضعهم ، والجهل بينهم متمكن اللهم
إلا بعد أن انتشر التعليم حيث استطاع جماعة قليلة منهم المتعلم ومن هنا
بدؤوا يشعرون بمكانهم المهين في المجتمع وأخذوا يفكرون في تغييره .

جاء واحد من هؤلاء إلى بيتي للخدمة التي يمارسها وطلب ماء ليشرب ،
فأعطيته الكوب وأنا بعيد الذهن عن فكرة الطبقات . . . ولكن
سرعان ما دهشت حين امتنع عن لمسها وابتعد عني وأشار إلى أن أصب الماء
في يده وهو يشرب ، وعبثاً حاولت إقحامه أن يشرب من الكوب فإني
لا أعتقد أنه نجس . . فقد كانت عدم معرفتي بلغتهم حائلاً بيني وبين حسن

(١) معنى كلمة الشودرا ، في اللغة السنسكريتية : المتروك . المهمل . المنبوذ ويسمون في
اللغة الأوردية « مهانكي » أو « أجهوت » مع حذف الهاء في النطق كأنها هكذا « أتشوت »

تفهميه ولو أن الأشارات أفادت نوعاً لكنه لم يقتنع ففعلت ما أراد . .
وكنّت كلما اقتربت بالكوب من يده حتى لا يقع الماء على الأرض ابتعد
هر بيده خوفاً من أن يلمس الكوب ، وتكررت هذه الحادثة مرة أخرى
حين جاءت خادمة من هؤلاء لعملها ، وكنا في الصيف فطلبت الماء لتشرب
فذهبت إليها بنى «أمال» الصغيرة بالكوب ، وناولتها إياها ، ولكنها امتنعت ،
ثم أشارت إليها أن تصب الماء في كفها وأثناء صب الماء فزعت المنبوذة
وارتعدت وابتعدت . فلما تبينت الأمر علمت أن البنات قربت الكوب منها حتى
كادت تلمسها فقررت هي من ذلك على هذه الصورة فتعجبت ، بل رأيت
ما هو أكثر ، فإن « طالبة » الماء في البيت لا تستطيع أن تلمسها لتخرج بها
الماء ، فإذا أرادت ماء منها نادت أحداً طاهر أدير لها «الطالبة» لتتلقى هي الماء
من بيده وتشرب حتى لا تنجس الحديد الذي يلمسه الأطهار . . وقد أيقنت
من هذا أن هؤلاء استقر في طبعمهم الذل ، واعتقدوا في أنفسهم النجاسة
بمرور عشرات القرون ، ومن الأسف أن المسلمين يعاملونهم كما يعاملهم
الهندوس تماماً دون أن يشعروهم بأنسانيتهم ويفهموهم ألافق بينهم . .
ان « ديوبند » مثلاً نصفها مسلمون ، ولو أن مثل هذه المرأة أو هذا الرجل
وجدوا من المسلمين من يشعرهم بأنه لا غضاضة من مثل الشرب من كوبهم
أو مجالستهم لما استغربوا من أن تقدم لهم الكوب ولما امتنعوا عن قبوله
بهذه الصورة . .

واعتقد أن هؤلاء لو وجدوا من المسلمين معاملة تشعرهم بقيمتهم على
خلاف معاملة الهندوس لهم لأقبل كثير منهم على الإسلام ولكن المسلمين
تأثروا بمعاملة الهندوس لهم فعاملوهم مثلهم . . على أن الحكام المسلمين
الذين حكموا الهند أكثر من ثمانية قرون لو وجبوا عنايتهم إلى إنصاف
هؤلاء لتمكن لهم أن يحققوا غرضهم . فقد كانت الدولة الإسلامية حينذاك
قادرة على أن تسن لهم القوانين التي ترفع مستواهم . وتفتح لهم المدارس ،
وتعالونهم بالمال ، وتعاملهم معاملة حسنة تشعرهم بما في الإسلام من حرية

ومساواة وإخاء وحينئذ كان من الممكن أن يقبلوا على الإسلام وهم عشرات الملايين، ولكن لم يتجه الحكام لمثل هذا فضل المنبوذين كما هم منذ أن حكمت عليهم شريعة « منو » بأن يبقوا داخل نطاق طائفهم لا يخرجون عنها ولا يرتفعون إلى غيرها . الأولاد يرثون الآباء في ضعتهم ومهانتهم ومهنتهم ، ولا ننكر مع هذا أن بعض هؤلاء المنبوذين دخلوا الإسلام بفضل بعض الجهود الفردية للمسلمين فوجدوا معاملة طيبة وكانوا هم وجميع المسلمين سواء إلا في ناحية الزواج (١) . .

ودليلنا على هذا أن هؤلاء حينما تعلموا وتفتحت عيون المتعلمين منهم إلى مكاتبتهم الوضيعة في المجتمع هالهم أمرهم وثاروا على الوضع الذي هم فيه ورفعوا أصواتهم مطالبين بتغييره أو الخروج من الديانة الهندوسية التي تحكم عليهم هذا الحكم القاسى منذ عشرات أو آلاف القرون . . وحينئذ بدأ الناس حولهم يبحثون ويفكرون في الطرق التي ينبغي اتخاذها لأرضائهم لكي يظلوا في الديانة الهندوسية أو ليجذبوهم إلى ديانة أخرى يجدون فيها ما يطلبون من الإنصاف . .

وأذكر بهذه المناسبة البعثة الأزهرية التي أوفدها الأزهر سنة ١٩٣٦ إلى الهند لتبحث في شأن المنبوذين بمناسبة ما أشيع من عزمهم على تغيير دينهم، وكانت البعثة برئاسة المرحوم الشيخ إبراهيم الجبالى وعضوية المرحومين الشيخ عبد الوهاب النجار والشيخ محمد أحمد العدوى وسكرتيرية المرحوم الأستاذ حبيب أحمد . وقد مكثت البعثة في الهند عدة شهور تتصل بالمهتمين بالشؤون الإسلامية وتبحث معهم في إمكانيات العمل الذي يستطيع الأزهر أن يقدمه لهذه الطائفة ترغيباً لها في الإسلام .

(١) تتحكم فكرة الطبقات بين المسلمين في ناحية الزواج على الأخص ، فهم إما صديق أو فاروق أو عثماني أو سيد نسبة إلى الخلفاء الأربعة أو أنصاري نسبة لواحد من الأنصار أو أنثاني . . أو مغربي وهذه هي الطبقات العليا ، وتصار كل طبقة داخل نطاقها غالباً ، ولا يصاهرون سواء ، إذ يعتبرونهم غير أكتفاء لهم . .

وبما تجدر الإشارة إليه أن البعثة لم تخرج بنتيجة عملية فإنه لم يكن من المعقول أن مصر يبعثاتها أو بمالياتها الضعيفة تستطيع أن تؤثر في هذا العدد الضخم وتجذبه للإسلام بالخطب في مدة وجيزة بينما كان المسلمون في الهند عدة قرون في غفلة عن هذا الأمر بل إنهم كما سبق أن قلت كانوا عاملاً منفراً من الإسلام بمعاملتهم السيئة للمنبوذيين اللهم إلا بعض أفراد كان لهم جهود ذكرها تقرير بعثة الأزهر ولكنها جهود كانت كذرة في محيط .. وكان أمل البعثة وكبار المسلمين المعنيين بهذا الأمر معلقاً على رئيس المنبوذيين الدكتور « امبيدكار » ولكن هذا بدا وسط تيارات تجذبه هنا وهناك فظهر كأنه يتلاعب بالجميع ويختار الورقة الراجحة هنا أو هنا وانتهى الأمر بعدم اعتناق الإسلام واتجاهه أخيراً نحو البوذية ..

ويحسن بنا أن نستعين هنا بدراسة البعثة حول هذا الموضوع لكي تأخذ صورة شاملة عن هذه الطائفة التي لا يوجد لها نظير في العالم كله برغم عددها الكبير الذي يزيد على ٦٠ مليوناً من الأنفس ..

فقد جاء في التقرير ص ٧٧ عن جهود المسلمين لتحويل هذه الطائفة للإسلام « وثمت أمر واحد لا شك فيه هو أن المسلمين لم يحاولوا — قبل العصر الحديث — أن يدخلوا المنبوذيين خصيصاً في الإسلام ولو عنوا بذلك في وقت من الأوقات لأسلم المنبوذون كافة منذ أجيال » ثم يقول عن جهود جمعيات التبشير المسيحية مع هؤلاء « كان المنبوذون هم الهدف المقصود من أعمال المبشرين ، ولذلك ركزوا جهودهم في هذه الناحية .. ويصح أن يقال إن بعثات التبشير المسيحية قد جنت ثمرة طيبة في كفاحها الطويل بين المنبوذيين .. وكان نجاحها في ملابار ومدراس كثيراً كما شاهدت ذلك حين رحلت في الجنوب .

ثم يتحدث التقرير عن انتشار التعليم في عهد الاحتلال البريطاني للهند حيث أتاحت الفرصة لبعض المنبوذيين أن يتعلموا فنفذت عيونهم لما هم فيه من ضعة وبدءوا يهددون بترك الديانة الهندوسية ليجدوا حظهم في الحياة

كغيرهم وهنا يتنبه بعض رجال الهندوس من ذوى المدارك العالية للخطر السياسى الذى يترتب على انفصال هؤلاء من الهندوسيه وانضمامهم إلى دين آخر من ديانات الهند ، إذ أن عدد الهندوس ونفوذهم سيقبل تبعاً لذلك فيقوم جماعة منهم بدور المصلحين ، ويأخذون فى العمل لرفع مستوى هذه الطائفة ، وكان على رأس هؤلاء مستر « غاندى » الزعيم الهندى الكبير حيث أراد أن يحمل حزب المؤتمر الوطنى والمجلس التشريعى على اتخاذ قرار بإلغاء فكرة التمييز ، ولكنه أخفق أمام هجمات الهندوس عليه حتى اضطر لسحبه من المجلس . . وهنا نجد المنبوذين يلجئون إلى القوة فى تحطيم القيود المفروضة عليهم حيث حاولوا عدة مرات اقتحام المعابد المحرم عليهم دخولها ولكن البوليس كان يطاردهم فى كل مرة ويحمى هذه المعابد من نجاستهم . .

وقد كان « غاندى » أكثر الناس شعوراً بخطور انفصال المنبوذين عن الهندوس ، لذلك رأيناه يصوم حينما قرر الانجليز فى إحدى المؤتمرات بينهم وبين الهند أن يمنحوا المنبوذين مقاعد مستقلة ويجعلواهم طائفة لها كيائها الخاص البعيد عن الهندوس ، ف شعر أن هذا هو بدء التفرقة التى ستضعف شأن الهندوس سياسياً ، فقرر الصيام حتى يرجع الإنجليز عن هذا رأى ، ويتنازل المنبوذون عن فكرة الطائفة المستقلة فى مقابل زيادة عددهم فى المجلس التشريعى . . وقد قبل المنبوذون هذا رأى ورجع غاندى عن صيامه وكسبوا بذلك مكسباً جديداً . وبالرغم من ذلك ظلت حالتهم كما هى دون تغيير يذكر مما بلغوا من الثقافة ، ولقد واجه زعيمهم الدكتور « امبيدكار » (١) — وهو من كبار المحامين ومن خيرة المثقفين — موقفاً صعباً لأنه من طائفة المنبوذين ، فعند ما انتخب عميداً لكلية الحقوق فى بومباى سنة ١٩٣٥ ثارت ثائرة الهندوس لاشئ إلا لأنه منبوذ مع أنه من أكفأ رجال القانون وكان زعيم الطائفة المتكلم باسمها فى عدة مؤتمرات فى «لندن» .

(١) توفى قريباً واعتنق البوذية قبل وفاته وكان يشغل منصب وزير العدل أخيراً .

وفى عدة مفاوضات واجتماعات بينه وبين رجال حزب المؤتمر فى الهند .
ومع كل هذا ثار الهندوس لتعيينه عميداً لكلية الحقوق .

ولهذا عقد المنبوذون اجتماعاً عاماً فى اكتوبر سنة ١٩٣٥ حضره عشرة
آلاف منهم، وتولى رياسته الدكتور « أمبيدكار » حيث بين للحاضرين أن
الطريق الوحيد لعلاج النبذ هو الانسلاخ من الهندوسية إلى دين يضمن
لهم الحرية والمساواة . . وقد أعلن المنبوذون فى كل مكان الموافقة على هذا
الرأى . وهنا اضطرب الهندوس اضطراباً شديداً لما يترتب على هذا من
ضعف قوتهم السياسية بينما يزداد غيرهم ممن يدخل هؤلاء فى دينهم قوة . .
وطالب زعمائهم منه أن يترث فى تنفيذ هذا القرار . أما أصحاب الديانات
الأخرى فقد ظن كل منهم أنهم سيكسبون هذا العدد بجانبهم وأخذوا
يتنافسون فى استمالة زعماء المنبوذين إليهم بالمال والبيان . . فسعى إليهم
زعماء السيخ وجمعوا تبرعات لمساعدتهم فى إنشاء مدارس ومصانع . . كما
سعى إليهم المسلمون ويذوا لهم مافى الإسلام من حرية ومساواة وارتفاع
بشؤونهم فى المجتمع ، وكذلك فعلت جمعيات التبشير المسيحية ولكن كل
هذه المحاولات باءت بالفشل ، وذلك لأنه كانت هناك عوامل تحول بين
المنبوذين وبين تنفيذ قرارهم ، فهم يعيشون على خدمة الهندوس غالباً فإن
خرجوا من الهندوسية فقدوا مصدر رزقهم ولم يجدوا عوضاً عنه حيث
لم يكن فى وسع المسلمين ولا السيخ ولا الجمعيات التبشيرية أن يهيئوا المعيشة
الطيبة لهذا العدد الضخم فى جميع أنحاء الهند . . كما أن زعماء المنبوذين الذين
قرروا من قبل الخروج من الهندوسية دخل كثير منهم الانتخابات وهم
لا يستطيعون الحصول على أصوات الهندوس إذا هم تمسكوا بقرارهم ، ولذلك
كله تلاشت هذه الحركة وتضاءلت وخفت الأصوات القوية التى كانت
تنادى من قبل بالانفصال الجماعى ، ومع هذا فقد أسلم عدد قليل منهم لاسيما
من منبوذى الجنوب فى مليبار وعلى رأسهم الدكتور طایل الذى سعى نفسه بعد

إسلامه « كمال باشا طایل » وأبدى مع بعض زعماء المسلمين نشاطاً ملموساً في دعوة أبناء جنسه إلى الاسلام .

وكان من أثر هذه الحركة من المنبوذين أن أحس زعماء الهندوس بالخطر إذا تحول هؤلاء عن الهندوسية وبدءوا يفكرون في تخفيف حدة النبذ وكان « غاندى » على رأس المجاهدين في هذا الصدد ، فألف جماعة سهاها « جماعة خدمة المنبوذين » ، وأخذ يجمع لهم التبرعات ، وينشئ لهم المصانع الصغيرة والمدارس لتعليمهم ، وأنفق الهندوس بسخاء في هذه الناحية . وإذا كنا لانستطيع إغفال الجانب الإنسانى في جهاد « غاندى » هذا فإنه لا يمكننا كذلك أن نغفل أن الناحية السياسية والعصبية الهندوسية كانتا من أكبر الدوافع له على القيام بما فعل نحو المنبوذين ، وقد أثمر اتجاه غاندى في تقريب المنبوذين وإعطائهم بعض الحقوق فرأينا المدارس المتعددة تفتح لهم ، ورأينا الحكومة الهندية بعد الاستقلال ترحب بهم في وظائفها بل وتفضلهم على غيرهم أحياناً ، ورأينا بعضهم يرتقون إلى مناصب الوزارة ورأينا الدستور الهندي الحديث يقوم على التسوية العامة بين جميع المواطنين في الحقوق والواجبات لافرق بين برهمى ومنبوذ ، ورأيناه يجعل ممارسة العبادة في المعابد حقاً للجميع دون تفرقه بحيث يعاقب من يخل بهذا القانون . وقد علمت أن بعض البراهمة اشتدوا في محاربة هذه الفكرة ، ولما وجدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع ، وأن منع المنبوذين من دخول المعابد يعتبر مخالفة للقانون تركوا هم المعابد ولم يدخلوها . . . وقد حضرت حفلة في « ديوبند » (١) . قدم لى القائمون بأمرها رئيس المنبوذين فيها وقد دعى إلى هذه الحفلة التى جمعت وجوه البلدة ، وكان من قبل رئيساً للبلدية .

وليس معنى هذا أن الدولة بزعمائها وقوانينها . قضت على هذه الفكرة

(١) البلدة التى كنت أقوم بالتدريس في كليتها الاسلامية التى تسمى دار العلوم وهى أكبر دار للدراسات الاسلامية في الهند وباكستان والبلاد الآسيوية الشرقية وتقع شمال دلهى بنحو ٩٠ ميلا .

التي ظلت قائمة في الهند آلاف القرون ملتصقة بعقائدهم الدينية ؛ إذ أنه من الصعب أن يقضى على فكرة كهذه في وقت قصير بالقرانين . . وأعتقد أن هذه الطائفة ستبقى هكذا أو قريباً مما كانت مادامت حرقة الربالة والمهن الحقيمة القذرة قاصرة عليهم في الهند . . وما دام الهندوس يتلون صباح مساء كتبهم المقدسة التي أسست لهم هذا النظام الذي لا يوجد مثله في أى دين أو مجتمع .

إن أقسى القلوب لتحس بالإشفاق لما يعانيه هؤلاء المساكين من احتقار ، وأعتقد أنه لا توجد جماعة في العالم ترهق بما يرهق به هؤلاء من ازدراء . . ولا يستطيع أى إنسان أن يحس إحساساً حقيقياً بحالة هؤلاء إلا إذا رآهم وشاهد وعرف عن قرب ما يلاقونه من هوان ، إن أى قارىء عربى لا يستطيع أن يتصور المهانة التي كان فيها هؤلاء والتي لا يزالون يرضخون تحتها . . كان الواحد منهم لا يستطيع أن يقابل هندوسياً برهياً في الطريق ، وكان عليه أن يجلس ويدير ظهره للطريق إذا مر به هذا الهندوسى . فحتى مجرد النظر كان محرماً !! إنهم حقاً في حاجة إلى رثاء ، وإن من واجب الحكومة الهندية بحكومة متمدنة متحضرة أن ترفع عن هؤلاء إصرهم والأغلال المضروبة عليهم ، وأن تعمل على إنقاذ هؤلاء أولاً من المهن الحقيمة التي يزاولونها ، وهى جمع القذارات المتخلفة من الإنسان صباحاً ومساءً ، فإن الطريقة البدائية التي يتبعها أهل الهند في بيوت الخلاء المكشوفة^(١) التي تقتضى أن يأتى المنبوذ أو المنبوذة مرتين في اليوم ليجمع فضلات الإنسان فيها ويحملها تحت إبطه في سلة مكشوفة ليرميها في أطراف البلدة . هذه الطريقة يجب أن يقضى عليها ، فأنها من أسباب شقاء هؤلاء المساكين واستقذارهم فارق ما هم فيه ، ويجب أن تبحت الحكومة عن أعمال نظيفة ومهن غير مستقذرة لهم أولاً كثرهم ، حيث إن تنظيف البيوت الآن وقف

(١) فهمي مثل « الكوانين » المعروفة في الريف وتراها عندهم في الريف وفي المدن كذلك ، ولكنها تختفي في المباني الحديثة بالمدن الآن .

عليهم ، فلو أننا غيرنا نظام دورات المياه عما هي عليه الآن لما كانت هناك حاجة إلى هذا الجديش الذي يتردد على البيوت صباح مساء ويملا الطرقات في كل مدينة وقرية ، ويصبح من واجب الحكومة حينئذ أن تهيم لهم العمل المناسب بعيداً عن هذه القذارة التي يزاولونها الآن .

أعتقد أنه بهذا يمكن التدرج مع الزمن في القضاء على هذه السببة وتلك الوصمة ، فأنا ستين مليوناً أو أكثر ليس عدداً بسيطاً من السهل إغفاله وتركه كالسائمة أو أقل ...

ومن المناسب ونحن في آخر الكلام عن هؤلاء المساكين أن أنقل لك هنا إحصاء عنهم كما دونه تقرير بعثة الأزهر وقالت إنه يرجع لأحصاء رسمي يرجع إلى سنة ١٩٣٠ . وهو وإن لم يبين الحقيقة كما هي لزيادة العدد الآن عما هو مدون لكنه مما لا شك فيه يعطينا فكرة واسعة عنهم .

سواء فيما يخص بعددهم أو نسبة المتعلمين فيهم حتى هذه السنة قال : يبلغ عدد المنبوذين وفق آخر إحصاء رسمي صدر منذ ست سنوات : ٥٠١٩٥,٧٧٠ نسمة أى بنسبة ١٤٪ من مجموع سكان الهند وبنسبة ٢١٪ من تعداد الهندوس العام .. وتختلف نسبتهم إلى عامة السكان ثم إلى الهندوس بين إقليم وآخر وفيما يلي بيان ذلك : —

في الهند البريطانية

الأقاليم	عدد المنبوذين	الأقاليم	عدد المنبوذين
الولايات المتحدة (أوتربديش)	١١,٣٢٢,٠٠٠	البنجاب	١,٢٨٠,٠٠٠
مدراس	٧,٢٣٤,٠٠٠	دهلي	٧٣,٠٠٠
بنغال	٦,٩٠٠,٠٠٠	أجمير ومروار	٦٧,٠٠٠
بهار وأوريسا	٥,٧٧٤,٠٠٠	كرج	٦٥,٠٠٠
الولايات الوسطى وبرا	٢,١٨٠,٠٠٠	بلوخستان	٥٠,٧٠٠
آسام	١,٨٢٩,٠٠٠		
بومباي	١,٧٥٠,٠٠٠		

مقاطعة الحدود	٥,٥٠٠	إمارات الهند الغربية	٣١٨,٠٠٠
جزائراًندمانونيكوبار	٥,١٠	الولايات الوسطى	٢٥٣,٠٠٠
في الإمارات		المتحدة	٣٠٩,٠٠٠
حيدر أباد	٢,٤٧٣,٠٠٠	برودا	٢٠٩,٠٠٠
ترافنكور	١,٧٧٠,٠٠٠	كشمير	١٧٠,٠٠٠
راجبوتانا	١,٥٦٥,٠٠٠	كوچين	١٢٥,٠٠٠
ميسور	١,٠٠٠,٠٠٠	إمارات مدراس	٦٥,٠٠٠
إمارات الهند الوسطى	٧٨٠,٠٠٠	بنغال	٣١,٠٠٠
إمارات بهار وأوريسا	٦٣٢,٠٠٠	سخيم	٢,٠٠٠
إمارات البنجاب	٣٩٣,٠٠٠	إمارات آسام	١,٤٠٠
إمارات بومباي	٣٤٩,٠٠٠	الحدود	٥٤٠
		بلوخستان	٠.٢٠

ذلك هو عدد المنبوذين في أنحاء الهند أخذنا من الإحصاء الرسمي الذي أجرى منذ نحو ٢٥ سنة ولا شك أن عددهم قد ازداد كما ازداد عدد السكان جميعاً ..

أما نسبة التعليم بينهم فيمكن أن نبينها بوجه عام من هذا الأحصاء عن بعض الولايات .

في ترافنكور	في الألف	١٤٩
» إمارات آسام	» »	١٢٩
» » برودا	» »	١٠٣
» بلوخستان	» »	٦٩
» بنغال	» »	٥٠
» إمارة كوچين	» »	٤٨
» مقاطعة الحدود	» »	٣٦
» إمارات مدراس	» »	٣٥

٣١	في الآلف	في آسام
٢٨	» »	» بومباي
٢٨	» »	» إمارات بومباي
٢٥	» »	» » بلو خستان
٢٢	» »	» أجمير
١٩	» »	» إمارات الهند الغربية

أما بقية الولايات والأمارات فأن نسبة التعليم فيها تتضاءل بين المنبوذين حتى تصل في بعضها إلى ٢ في الآلف .

وهذه النسبة قد زادت الآن طبعاً للجهود التي بذلت لتخفيف وطأة الاضطهاد عن هؤلاء وإتاحة الفرصة لهم للتعليم . . ومع ذلك فأن كل إنسان يشعر أنهم لا يأخذون حقوقهم كأناس من بني آدم يجب على مواطنهم أن يسمحوا لهم بالحقوق التي يتمتعون هم بها . . وأن يعملوا ما وسعهم على تنفيذ القوانين التي تسنها الحكومة لصالح هؤلاء حتى يعيش هذا العدد الضخم كما يعيش بنو آدم في العالم ويساهموا في نهضة وطنهم بأعمالهم الفكرية والصناعية والزراعية وغير ذلك من نواحي الأعمال ؛ لأن الحكم بالموت على هذا العدد الضخم يعتبر أقسى حكم يصدره شعب على شعب آخر فما بالنا إذا تصورنا أنه حكم يصدر من جزء من الشعب على جزءه الآخر . . إن الذي يبعثني على التطويل في هذا وربما التكرار هو ما أحسه من الألم هؤلاء حين رأيتهم . وما أشعر به من فداحة الخسارة على الشعب الهندي حين يقسر على هؤلاء وبجز لهم عن ركب الحياة ، ويحكم عليهم بالشلل الفكري والعاني والصناعي . .

وإذا كانت الحكومة قد أدت شيئاً من واجبها وبقي عليها أشياء ، فعلى الشعب الهندي أن يفسح صدره لما تعمله الحكومة ويشجعها على النهوض بهم ففي ذلك الخير لهم جميعاً ولسمعتهم وسمعة وطنهم ، وقبل أن تطالب الهند والشعب الهندي حكومة جنوب افريقيا بعدم التفرقة بين الملونين والبيض

في المعاملة ، عليها أن تعمل هي وشعبها على عدم التفرقة بين الهندوس أنفسهم في المعاملة ؛ ليضربوا المثل بذلك على ديمقراطية صحيحة وفهم سليم لمقتضيات الحياة في العصر الحديث عصر الحرية والأخاء والمساواة . .

وإن أى إنسان لا يستطيع أن ينسى جهاد « غاندى » وإخراجه وتلامذته في هذا السبيل مهما كان الدافع لهم على هذا الجهاد ؛ فإن المهم أن يصل هؤلاء إلى الحقوق التي يتمتع بها الآخرون . .

تحية للجهاديين في سبيل النهوض بهؤلاء المساكين . . وتحية لهؤلاء المساكين أنفسهم . وعفوا إذا أطلت في الحديث عن هؤلاء ولعل من المناسب بعد هذا أن نتابع البحث في ديانة الهند .

المذاهب والآلهة الهندوسية :

تبلورت الديانة الهندوسية ذات الآلهة التي لاحد لها إلى آلهة ثلاثة . .

(١) الآلهة شيفا « Shiva » (٢) الآلهة فشنو « Vishnu » (٣) براهما ! أما الآلهة شيفا فهو إله الحياة والتبديل ، وأما « فشنو » فهو الحافظ ، وأما « براهما » فهو البارئ الخالق . . وهو أعلاها (١) .

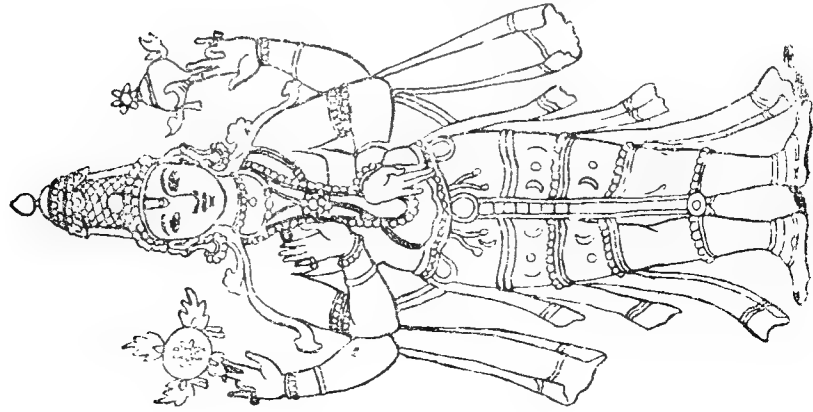
وبجوار ذلك نشأ مذهب آخر هو المذهب الجيني . . مستقل عن الديانة الهندوسية . ونكتفي برسم صورة سريعة عن هذه المذهب .

الشيقي :

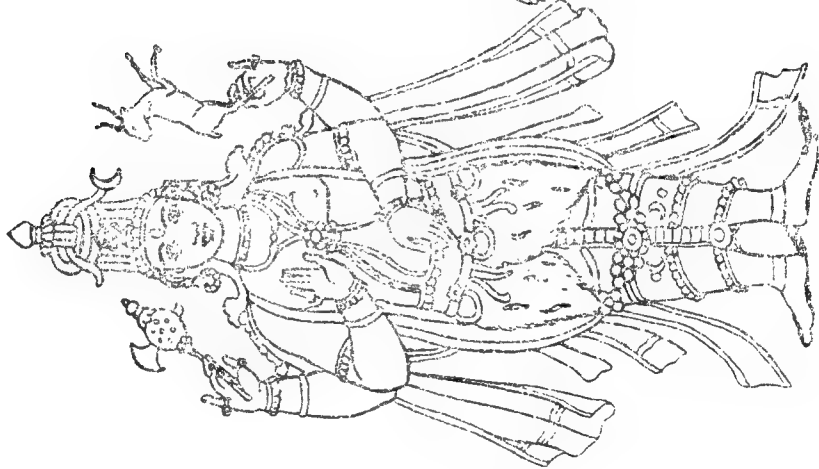
هو المذهب الذي يعبد أتباعه الآلهة شيفا المختص بالأبادة والموت ، أو على فكرتهم في التناسخ هو المختص بالتبديل والتحويل إذ أنه لاموت حقيقياً

(١) والفكرة التي تقوم عليها عبادة الهندوس كما حدثني غير واحد منهم أن الله واحد ولكنه حل في شيفا وفشنو . . الخ وقال لي كاهن لما كنا لانستطيع تصور الجرد ولذلك رمزنا للاله بهذه الرموز التي سميناها آلهة حتى يمكن تصوره والتوجه له . وقال لي بعضهم إن فكرتنا قريبة من فكرة المسيحيين عن حلول روح الآله في عيسى . وكل فرقة منهم اعتقدت في حلول الآله في واحد فبيدوه . وهذا تفسير المثقفين لا العوام .

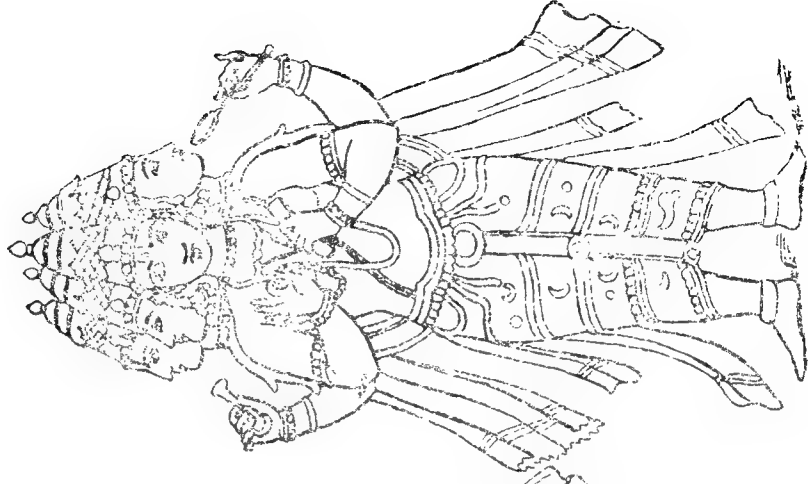
صور آلهة الهنود كما جاءت في كتبهم



شيشو



شفا



براهما

عندهم .. ولم يكتف أتباع هذا المذهب بعبادة الآله « شيفا » بل أنهم أخذوا يخترعون له أو بمعنى أصح لعمله واختصاصه رموزا ترمز اليه ويعبدونها وقد أدام فكرهم إلى أن يتخذوا عضوى التناسل فى الرجل والمرأة رمزين لهذا الآله ويعبدوهما بعد أن يقيموا لهما تماثيل فى معابدهم « فظهر المذهب القضيبى الذى اتخذ عبادة شيفا فى صورة عضو التوليد موضوعا له فترى جميع معابدهم مملوءة بهذا الرمز ، ويحملون عليهم تصاوير صغيرة له من ذهب أو فضة على الدوام فيقبلونها بين حين وحين مصلين لها ، وعضو التذكير يمثل الآله شيفا وعضو الأنثى يمثل زوجته « پاروتى أو كالى » أى إلهة الحياة والمرت والام التى خرج العالم منها (١) .

ويقول چوستاف لوبون تعليقا على هذا ، ولا تجد عبادة أدت إلى مناظر مخالفة للذوق والأدب كعبادة « كالى » الهائلة .. ولا يزال يرى فى معابدها من الفحشاء والمنكر والدعارة ما يستحيل وصفه (٢) وأكثر ما يكرن عباد « شيفا » وأتباعه فى الوسط والجنوب « وحين قام محمود الغزنوى بغزو الهند سنة ١٠٠١ م كان يوجد اثنا عشر معبدا مشهورا لتقديس هذا الرمز » (٣) وأتباع شيفا يخططون على جبهاتهم عادة ثلاثة خطوط أفقية من الزعفران وغيره هكذا « ≡ »

الفشنى

هذا المذهب الذى يعبد أتباعه الإله Vishnu « فشنو » إله الحفظ والحب والجمال ..

ولما كان من طبيعة الهندوس أنهم يميلون إلى تمثيل المعانى فى صور حسية لما يدعونه من عدم قدرتهم على تعقل المعانى العليا وإدراكها ، وأنهم لهذا يدعون أن الإله يحل فى صور مادية يتخذونها معبودات لهم ويقدمونها تقديسهم للآله نفسه ، وغالبا ما ينسى الناس الأصل ، ويتجهون بكل تفكيرهم وعبادتهم إلى الرمز قال منشو هذا المذهب إن الآله « فشنو » يمكن أن

يحل في كل عظيم وبطل من الإنسان أو الحيوان ، ويضاف حينئذ إلى قائمة المعبودات التي لا تنتهى . . وأشهر ما عرف عندهم من الأبطال الذين حل فيهم الآله « قشنو » : راما ، وكرشنا ، فراما هذا إنسان تحول إلى إله معبود بعد أن حل « قشنو » فيه ، وتورد كتبهم قصته ، ونحن حين نقرأها يأخذنا الإعجاب بخيالها الذى يفوق خيال قصص ألف ليلة وليلة ، ولكن ماجاء فيها من البطولة الخيالية لراما كان مدعاة لعبادة الناس له ، ولا بأس أن نضع أمام القراء صورة مختصرة لهذه القصة معتمدين على ماجاء عنها فى كتاب حضارة الهند (١) وغيره .

كان ملك الجن المقيمين فى سيلان قد عبث بالكهان فسخطت عليه الآلهة ، وعقدت مجلساً لأنقاذ البشر منه ، ورأت أن يتجسد أحدها فى صورة إنسان ليقهر ملك الجن « راونا » فتجسد « قشنو » فى صورة البطل « راما » وحدث أن اعتدى ملك الجن على زوجة « راما » وهى « سيتا » حيث خطفها من الهند إلى بلاده ، ومع ذلك ظلت وفيه مخلصه فى حبها له ويجتهد « راما » لمعرفة مكان زوجته المحبوبة « سيتا » ليستردها ويتعب فى ذلك حتى يتقدم أحد القروء فيكشف له عن مكانها ، فيهمج « راما » بمساعدة القروء والديبة على ملك الجن ، ويقضى عليه ، ويعود بزوجته راكبين المركبة السحرية حتى وصلا إلى الهند وانتصر بذلك العرق الآرى مثلاً فى « راما » فأصبح معبوداً ومعه « سيتا » منذ ذلك الوقت .

وقد أصبح القرود بسبب هذه المعاونة التى أسداها إلى « راما » من الحيوانات المقدسة (٢) وأصبح تاريخ استرجاع « سيتا » وانتصار « راما »

(١) ص ٤٦١ وقد وجدت فى مطالبى شها قويا بين أساطير الهند وأساطير قدماء المصريين حول آلهتهم . وقد انقرضت أساطير قدماء المصريين ولم يبق لها وجود إلا فى باطن الكتب بينما ظلت الأساطير الهندية للآن مهيمنة على عقول الهند كأصل من أصول دياتهم .

(٢) ذكرت الصحف أخيراً أن الحكومة الهندية اعترفت عن عدم تصدب القرود للخارج لما فى ذلك من مصادرة لعقيدة الشعب .

عيداً دينياً يحتفل به القشنويون كل عام . . وقد شاهدت احتفالهم بهذا العيد ورأيتهم يطوفون البلدة والكهان في مركبة كمثل المركبة التي ركبها «راما» في عودته مع «سيتا» للهند . . ويرتسمون ومعابدهم ممتلئة بصور وتمائيل لهذا وتلك ، ويقومون في كل صباح يقدمون خضوعهم لهذه الصور أو التماثيل المعلقة في بيوتهم ثم يذهبون لأعمالهم .

وبجوار «راما وسيتا» يأتي بطل آخر حل فيه «قشنو» فصار معبوداً كذلك وهو «كرشنا» «Krishna» وبطولته تتمثل في الحب واجتذاب قلوب النساء إليه حتى فتن به ، وأصبح هو مع «راما» يمثلان عاطفة قوية من عواطف الهندوس ، هي عواطف الحب والوفاء والعشق والغرام ، فأصبحت لذلك مهري أفئدة العاشقين ، الوطنيين ومهوى أفئدة الأمهات المحبات العطوفات . . ويعلق العلامة جوستاف لوبوف على هذا فيقول (١) :

«وما في ديانة «قشنو» من الغرام يأتي في الهند ذات الجو المحرق وذات السكان الملتهمي المزاج بنتائج مخالفة للأدب الأوربية . . هكذا إلى هذا الحد !! مع ما تدله عن المجتمع الأوربي وآدابه المنحلة . . ثم يقول : «وتجد في گچرات على الخصوص بعض المذاهب القائلة بعبادة «كرشنا» فيدعي كهانها «بالمها راجوات» فمن أقصى آمال النساء أن يصبحن عاشقات لكرشنا أي لممثليه أولئك الكهان الذين يبيعون قضاء الأوطار بأعلى الأسعار» ثم ينقل عن الكاتب الهندي السيد مليباري قوله «قد يرى الأوربيون أن المهاراجويه «الكهان» خرافة شائنة أو طريقة شهوانية ساقطة ، بيد أن ألوف الأسر الهندوسية ستظل رازحة تحت نيرها البهيمي ما بقي هذا النير مستتراً تحت رائحة الطهر» وفي مكان آخر من الكتاب (٢) ينقل عن هذا الكاتب الهندوسي قوله عن أتباع هذا المذهب : «إن المهاراجا هو الكاهن

الذى يؤله أى الذى يتجسد فيه « فشنو وكرشنا » فيقف عليه كل فشنوى
تقى جسمه وروحه وملكه وأهله وتوابعه . .

وإليك بعض ما يجنيه المهاراجا من عبادة الأتقياء : خمس روبيات (١)
للشرف برؤيته ، ٢٠٠ روبية الهسه ، ٣٥ لغسل رجليه ، ٦٠ للجلوس بجانبه ،
٥٠ — ٥٠٠ للشواء بغرفته ، ١٣ ليتفضل فيضربه بسوطه ، ١٩ لشربه من
غسالته أو غسالة ثيابه القذرة ، ١٠٠ — ٢٠٠ من النساء اللاتي يقضين معه
روح اللذة » .

ولم يقف الكاتب الهندى عند هذا المرد . بل أبدى تعجبه من مسألة
« قضاء روح اللذة » وإغضاء رجال غيارى ونساء محصنات عن أعز
المشاعر (٢) . ولكن الكاتب والمؤرخ الاجتماعى الفرنسى الكبير يعلق على
هذا فيقول : وأرى مع ذلك أنه ليس فى الأمر مالا يمكن إيضاحه مع
وقفه للنظر . فقد ظل الإيمان الدينى أقوى العوامل فى توجيه النفوس على
الدوام ، . . . ولكن أى توجيه هذا وللناس عقول !! ؟

لقد كانت فكرة الحلول عند الهندوس سيئاً فى سهولة اعتقادهم
وعبادتهم لأى عظيم وأى قرى . . فكل قرى لا بد أن يكون قد حل فيه
الآله وإلا لما صار قرياً . .

ومن هنا تعددت الآلهة وتعددت المذاهب وإن كانت كلها داخل
الهندوسية التى أوحى بمبادئها وأفكارها بإيجاد وخلق مثل هذه المذاهب
وهذه الاعتقادات ، فالهندوسى لا يرفض تقديس أى قرى ، ومن الممكن
بكل سهولة أن يضيفه إلى قائمة القديسين فى المعبد أو البيت ، فالبقر مقدس
لما يدره من خير على الحياة فى الهند ، والأفعى مقدسة لقدرتها على الضر ،

(١) الروبية تساوي سبعة قروش ونصف الآت .

(٢) حدثنى كبير الأساتذة بدار العلوم « ديوبند » أنه رأى فى بلده كاهنا هندوسيا
يجلس طاريا فى أحد البيوت وهو مضطجع وعورته بارزة للجميع وكل واحد من أتباعه
تهافت عليه وبقف أو يقعد أمامه ويؤدى تحية الخضوع والتقديس لهذه العورة البارزة
أمامه . .

والنمر حين يذوق طعم لحم الإنسان فيصبح مفترسا وخطرا على الإنسان لا يحاولون قتله، بل إنه ينقلب في أنفسهم إلى قديس يعبد لقوته وسطوته .. والقطار لا مانع من عبادته لقوته الخارقة في قطع المسافات وحمل المسافرين وأثقالهم .. وهكذا نجد صورة للبقرة وصورة للأفعى في المعابد وتقدم إلى هذه الصور مراسيم العبادة حين تهفو نفس الهندوسى للتبتل والعبادة .. ولقد حكى لنا العلامة چوستاف لوبون أن ولى عهد انكلترا حينما زار الهند أحيط بمظاهر التقديس والاحلال لاعتقادهم أن روح الآله « فشنو » قد حلت فيه ..

والباب مفتوح يدخله كل بطل وكل قوى وطريقه إلى المعبد سهل لتصبح صورته مكان التقديس والاحلال تعنو لها الجباد وتحشع لها القلوب .. وأتباع فشنو يكثرون في الشمال وهم يرسمون غالبا على جبهاتهم ثلاثة خطوط رأسية هكذا « !!! »
وأما الذين يضعون نقطة وسط جبهتهم فهم من أتباع كريشنا ..

الچينية

إحدى الديانات المنتشرة في الهند ، وإن كان أتباعها الآن قليلين مثل البدهية أو البرذية كما نذكر في السكتب العربية. وإذا كانت الشيشية والفشنوية مشتقتين من الديانة القديمة الهندوسية التى تقوم على السكتب المقدسة الهندوسية من الفيدا وغيره فإن الجينية يعتبرها أتباعها ديانة مستقلة كالبرذية لا تعترف بالفيدا. ويدعى الجينيون أن دياتهم أقدم الديانات في الهند ، ولكن المؤرخين لا يعرفون الجينية حقيقة إلا منذ القرن السادس قبل الميلاد، ويعرفون مؤسسها أو منظمها الأخير « مهاويرا » الذى يؤرخون ميلاده بسنة ٥٩٩ قبل الميلاد أى قبل ولادة بوذا التى كانت سنة ٥٥٧ ق. م وتعاصرا فى الحياة ثلاثين سنة ، ولكنهما لم يتقابلا ، مع أنهما كانا فى منطقة واحدة تعرف الآن باسم « بهار » وقد مات مهاويرا قبل بوذا بحوالى

خمسین سنة ، ولكن بعض المؤرخین يعتبرون الجينية مشتقة من الهندوسية . وقد قامت الجينية كما قامت البوذية فی وقت ثارت فیہ الطبقة المحاربة علی البراهمة لاختصاصهم بجميع الامتیازات . وكان « مهاویرا » من هذه الطبقة المحاربة فأسس هذه الديانة الی تختلف عن البرهمية الهندوسية ، لاسیما فی القری بتقسیم الناس إلی طبقات وفی عدم الاعتراف بألهة الهندوسية الثلاثة . برهما وشیفا وفشنو ، وإن اعترفوا ببعض آلهة أخرى ، ولكن لم یعبدها ، فأن هذه الديانة تقوم علی عدم الاعتراف بالروح الا کبر اى الخالق وإن اعترفت بوجود ارواح خالدة ، وهم یتجهون فی عبادتهم إلی أبطالهم الذین یعتبر « مهاویرا » آخرهم ، فهم یعبدون الإنسان عرضا عن الله ، ویتخذون الأصنام للعبادة فی معابدهم^(١) ، وتخالف الجينية الهندوسية أيضاً فی أنها لاتعترف بمسألة تعدد الولادة الی یقول بها الهندوس نتیجة لفكرة التناسخ الی تقول بأن الإنسان لا یزال یموت ویولد حتی تطهر نفسه تماماً فتصل إلی الخلود والنعم .

أما الجينية فتقول إن الإنسان یتستطیع أن یتحرر من دورة الولادة هذه بتعطیل حیاته ، وذلك بالتخلی عن کل عمل وكل ما یغذى جسمه حتی تنتهی حیاته ، وكأنها ترغب بذلك فی الانتحار حتی سمیت بالانتحارية . .

وأهم شیء فی الجينية هو الدعوة إلی تجرد الإنسان من شرور الحیاة وشهواتها حتی تدخل النفس فی حالة من الجود والخود لاتشعر فیها بأى شیء مما حولها ، والناسک الحق هو الذی یقهر جمیع مشاعره وعواطفه وحوائجه . فلا یحتاج إلی شیء حتی اللباس ؛ لأنه لا یشعر بحر ولا برد ولا حیاء ، ویهتم الکیهان الجینیون بنشف أشعارهم كلها کدلیل علی أنهم لا یهتمون بالجسد المادى ؛ لأن الذی یشعر بالحیاة — وبالتالي بحاجته إلی ستر عورته ، وأن فی الحیاة خیراً وشراً وحسناً وقبحاً — معناه أنه لا یزال متعلقاً بها خاضعاً لمقایسها

ويقولون إن آدم وحواء كانا يعيشان في الجنة بطهر كامل لا يشعران بجياع ولا خير ولا شر ، ولا يحملان هما أو غماً حتى تسلط عليهما الشيطان ليحرمهما من هذه اللذة ، فحملهما على أن يأكلا من شجرة العلم بالخير والشر ، فأخرجا من الجنة ، وبهذه النظرية يعيش نساكهم عراة لا يسترهم شيء مطلقاً لأن هذا هو المثل الأعلى عندهم ، إذ معناه أن الناسك تجرد من كل إحساس بالدنيا وآراء الناس فيها ، فأصبح لا يهتم فيها بخير أو شر أو حسن أو قبح .

وفيلسوفون هذا المعنى فيقولون إن الشعور بالحياء يتضمن تصور الأثم ، فلم يكن الأثم في الحياة لما كان الحياء ، فترك اللباس هو ترك للأثم وتصوره ، وعلى ذلك يجب على كل ناسك يريد أن يحيا حياة بريئة من الأثم أن يعيش عادياً ويتخذ من الهواء والسما لباساً له .

وهكذا نرى السمات البارزة لهذا الدين هي : المساواة وعدم الاعتراف بأله مع الاعتراف بالروح ، والرغبة في الانتحار البطيء للوصول إلى سمو الروح وتخلصها من الآلام ، والرغبة في العرى واعتباره مثلاً أعلى للناسكين حتى سمي هذا الدين : بدين العرى .

وقد حدثني بعض الأساتذة أنه رأى في بلده مرة ناسكاً چينياً يسير عارياً في زهول شديد ، وكان يتحاشى أن يمر على ماء !! حتى دخل بيتاً من بيوت الجينيه ، فعد ذلك شرفاً كبيراً لأهل البيت ، وأعدوا طعاماً ، لكنه لم يتناول منه إلا شيئاً بسيطاً ، والباقي من الطعام أصبح مقدساً يهدونه لأحبائهم للتبرك به .

وقد انقسم الجينيون إلى فرقتين : إحداهما تميل إلى التقشف التام وإنكار الذات متخذة من حياة « مهاويرا » المتقشفة شعاراً لها . أما ثانيتهما فمعتدلة في شؤون الحياة ، متخذة من حياة « مهاويرا » الأولى في كنف والديه حين كان يتمتع بالخدم والملذات قدوة لها .. ونسلك وجهة .

وأتباع هذا الدين لا يصلون إلى المليون ، ولكن معظمهم من أغنى الأغنياء وأنجح الناس في التجارة والمداولات المالية ، حتى ليعتبرون اليوم

من الطبقة العليا اجتماعياً ، واقتصادياً ، وقد ساهموا مساهمة لا يستهان بها في تراث الهند الثقافي والعقلي . . وهم بمقتضى أصول دينهم سليون هادئون منصرفون إلى العمل الهادئ المنتج ، ولرهبانهم نفوذ كبير عليهم جعلهم يتجهون دائماً إلى الخير في عملهم مبتعدين عن الأذى حتى للحيوانات .

ولهذا نجدهم على عمر التاريخ قد اكتسبوا حب الحكام وإعجابهم وتقديرهم ، فكان ذلك يدفعهم إلى التقدم المالى والاجتماعى فى جميع مظاهر الحياة المادية والأدبية والفنية ، حتى فى عهد ملوك المسلمين نالوا كل احترام وتقدير ، ووصلوا إلى درجة عالية من العز والرفعة ، حيث استخدمهم الحكام المسلمون فى رعاية الأمن والسلام ، وحتى خلع الامبراطور « أكبر » على المعلم الجيئى « هيراويجيا » لقب معلم الدنيا ، وحصلت العائلات الجينية العليا على نفوذ عظيم فى الديوان الملكى المغولى (١) .

البدهية أو البوذية

إحدى الديانات التى نبتت فى الهند وسيطرت على المجتمع الهندى مئات السنين ، ثم انتقلت من الهند إلى ماحولها فى سيلان وبورما وسيام والهند الصينية والصين واليابان ، حتى أصبحت هذه البلاد الآن هى الموطن الحقيقى لازدهار البوذية بعد أن اضمحل شأنها وتقلص ظلها فى الهند نفسها ، وحتى يقدر معتنقوها فى هذه البلاد بحوالى خمسمائة مليون .

ولد « بودا » Boddha فى القرن السادس قبل الميلاد سنة ٥٥٧ ق.م (٢) وبودا هذا لقب له ، ومعناه « العارف المستنير » ، أما اسمه فهو « گوتاما » Gautama « أو سدهارتا Siddhartha » وكانت ولادته فى أسرة حاكمة مترفة من الأكشترية فنشأ على طبع أسرته منزواً منعماً . ولكن لفت

(١) ثقافة الهند سبتمبر سنة ١٩٥٦ م .

(٢) هذه المعلومات عن مجلة ثقافة الهند ديسمبر ١٩٥٣ ، وحضارة الهند ص ٣٥٩

لجوستاف لوبون .

نظره ما كان يراه أحياناً من مظاهر البؤس والمرض والشقاء والتفاوت بين الطبقات ، فأخذ يفكر فى هذه المظاهر حتى نغص عليه تفكيره هذا ما كان فيه من نعيم وترف ، واستمر يفكر فى هذه الحياة وفى لذاتها وانقطاعها بعد حين ، فأفزعته هذه الحقيقة ، وانقطع يفكر ويبحث عن مخرج من هذه الآلام ، وهام على وجهه تاركا القصور والنعيم يبحث عن حقيقة السعادة فى الحياة ، وكان يلزم شجرة يجلس تحتها ويفكر ، وقد صارت هذه الشجرة بعد ذلك ذات مكانة مقدسة ما زال البدهيون ينظرون إليها نظرة تقديس ، وتحيطها الحكومة الهندية بضروب العناية حتى تبقى عليها وعلى ما حولها من أشجار مقدسة ، وهى الآن فى منطقة « Gaia » من ولاية « بهار » . . واستمر هائماً على وجهه بين الغابات وفى الصحارى يعانى آلام البؤس والفاقة والجوع . ويمارس أنواع الرياضات الجسمية والروحية حتى استطاع أن يصل إلى حالة من التجرد عن الماديات ، ويعلو بنفسه على الشهوات حين أدرك أن الشهوة هى أم الشرور فى الحياة ، وأنه لا بد من القضاء عليها ، حتى يحس الإنسان بالسعادة والراحة ، يقول بوذا : « لما أدركت هذا تحررت عن شرور الهوى والخطأ والجهل ، فأخذ يدعو الناس إلى هذا التحرر نحو أربعين سنة مرتحلاً من مكان إلى مكان يبشر بالحبّة بين الناس ، وبأن يعطف الإنسان على كل مخلوق ولو كان حيواناً ، فلا بد أن ننظر إلى المخلوقات كلها نظرة فيها عطف وحنان بعيداً عن التعالى والغرور ، والتفانى فى الاعتداد بالنفس والجري وراء شهواتها ، وعمل « بوذا » بما كان يدعو إليه من مبادئ ، فقام الناس آلامهم وهو يتنقل بينهم يدعوهم إلى مبادئه الرحيمة ، مبادئ الحب والرحمة والتسامح . .

وكانت البلاد ظامئة إلى روح جديدة تنزل على قلوبها الملتهبة بالحدق والشهوة برداً وسلاماً . . وتزيل منها ما علق بها من أفكار سيئة عن الطبقات والتعالى والخطيئة من جانب ، والذل والعبودية من جانب آخر .

لقد كان الناس يعيشون مثقلين تحت وطأة الأفكار الهندوسية التى

تقسم الناس إلى طبقات حتى ظهر « بوذا » وكأنه واحة وارفة الظلال ، فوجد فيها الكثير من الهنود الملجأ الذي يمكن أن يستظلوا بظله ، ويرتووا بمائه فأقبلوا ينضوون تحت لوائه ، وظل هكذا يبشر بمبادئه حتى توفي سنة ٤٨٠ ق.م. ولفتت هذه المبادئ السمحة نظر الامبراطور « أشوكا » امبراطور الهند الشمالية في القرن الثالث قبل الميلاد بعد أن خاض حروباً قاسية رأى فيها من العنف والفظاظة ما جعل نفسه تحس بظماً شديداً إلى حياة الرحمة واللين والحب ، فوجد في دعوة « بوذا » ما يشفي نفسه من سقمها ، فاعتنقها ودعا إليها في حماس وأخذ يشكل حياته على أساس مبادئها ويرسل رسله إلى الممالك المختلفة يبشرون بها ، وكان عمله واندفاعه نحو تحقيق مبادئ الحب والعطف والتسامح في رعيته ، بل وفي الحيوانات أيضاً لافتاً لنظر الكثيرين ، وداعياً عملياً للبوذية ، حتى انتشرت واكتسحت في طريقها الديانة الهندوسية القديمة وظل الأمر بها كذلك عدة قرون حتى أخذت تضعف شيئاً فشيئاً ، بينما كانت الهندوسية تسترد مكانتها الضائعة شيئاً فشيئاً ، حتى انحسرت البوذية عن موطنها الأصلي في الهند ، واسترجعت الهندوسية سيطرتها على الشعب ، ولم يعد للبوذية في موطنها إلا قليل من الأتباع يستوطن أكثرهم شمال الهند في « نيبال » بينما ازدهرت خارج بلادها كما سبق أن قلنا في سيلان وبورما وسيام والصين الخ . .

إن المؤرخين الذين يؤرخون لبوذا يذكرون عنه أنه كان نبيل الفكر قوى الروح ماضى العزيمة واسع الصدر عذوفاً عن الشهوات ، زاهداً كريم النفس حسن المعاشرة ، بريئاً عن الحقد والعدوان ، جامداً لا ينبعث فيه حب ولا بغض ، ولا تحركه عواطف ، ولا تهيجه نوازل ، وكانت مكانته رفيعة في أعين الناس والملوك والأمراء والبراهمة والرهبان ، فكانوا يزورونه ويتبركون به ، وينتظرون أيام قدومه ويحتفون به . وكان مجلسه دائماً حافلاً بالأمراء والوزراء والعلماء والعارفين والرهبان .

وكانت البوذية في أول أمرها مذهباً خلقياً رعى إلى تزكية النفس

وتحررها من الشهوات ، ويدعو إلى الحب والتسامح ، والعمل بقدر ما يمكن للتخفيف من آلام الإنسان ، لافرق بين إنسان وآخر . فالكل فى نظرها سواء على عكس الهندوسية . . ثم أخذت تتشكل وتتعدد وتشعب حسب أفكار وعقول أتباعها الدارسين لها الداعين إليها ، حتى أصبح لكل قرن بوذية تختلف قليلا عن البوذية السابقة واللاحقة ، وتفلسفت وصارت أفكارا منظمة ، ومدارس فلسفية تعددت حسب وجهات نظر الباحثين ، وشتان ما بين الأولى والثانية . فالأولى تركية وتربية ، والثانية دراسة وفلسفة ، وإن كان لا يمكن إنكار الأسس الأخلاقية التى تقوم عليها هذه أو تلك . .

ولم تبحث البوذية فى أمر الآله كما هو الشأن فى الهندوسية ؛ إذ كان جل مقصد بوذا هو تطهير النفس من شهواتها ، وتحليلتها بمكارم الأخلاق فى معاملاتها مع الناس .

ولذا نجد تعاليم بوذا تدور كلها حول هذا الأساس الخلقى : لا تقتل . لا تسرق مالا . لا تشرب خمرأ . لا ترقص . لا تكذب . لا تزن . لا تكن مترفا . الخ . وكان أهم شىء اتجهت إليه نفسه هو العمل على إلغاء نظام الطبقات الذى أوجدته الديانة البرهمية القديمة ، لأن الناس عنده سواسية لافرق بين صغير وكبير ، وتفاوتهم يكون حسب طهارة نفوسهم وما تتحلى به من حب وعطف وتسامح نحو الآخرين .

لذلك لم يعن « بوذا » كثيرا بالبحث عن الآله . فإن للبرهمية آلهة ولكن الناس شقوا بها . فالأولى إذن أن يتجه لتخليص الناس من هذه الآلام التى يثنون من عذابها . وكان هذا المظهر الخلقى الرائع سبباً فى جذب كثير من الناس إلى دعوته ، لكنهم كانوا حينما يدخلون هذه الدعوة ويعتنقون مبادئها لا يجدون فيها توجهاً لآله يعبدونه ، والناس دائماً بطبعهم منساقون إلى الاعتراف بآله أقوى منهم يتجهون له ساعة البأس والشدة . . فلذلك كان الداخلون فى البوذية كثيراً ما يظلون على اعترافهم بآلهتهم التى

كانوا يعبدونها في البرهمية . . ومن هنا بدأت البوذية تختلط في مظاهرها بالهندوسية . وبدأ البوذيون الذين يقوم مذهبهم على عدم الاعتراف بالآله يعترفون بالآلهة ، ويتقربون إليها ، لذلك لم تكن مظاهر البوذية خالصة للبوذية ، بل كانت خليطاً منها ومن الهندوسية ، ومن هنا أخذت البوذية تنلاشى شيئاً فشيئاً ، ويندمج أتباعها في تقاليد وطقوس الهندوسية وآلهتها ، حتى ظهرت البوذية بمظهر الهندوسية ، وبدأت معابدهم تظهر فيها آلهة الهندوس ، بل أصبح بوذا بعد حين إلهاً يعبد به البوذيون ، وبذا مهد السبيل لانحسار موجة البوذية من الهند ورجوع الهندوسية إلى مكانتها القديمة . هكذا يعلنون انتشار البوذية وتغلّبها على الهندوسية أولاً ، ثم تغلب الهندوسية عليها بعد مرور ألف سنة من ولادتها أعنى في نحو القرن السادس المسيحي . .

ومما يلاحظ أن البوذية الأصلية لا تحتفل بالطقوس البرهمية الرسمية من الغسل في الأنهار المقدسة ، والمداومة على الصيام والاشتغال بالعبادات المتعبة ، والجولان عراة حفاة ، والتزيى بزى الرهبان من حلق الرؤوس أو تلبيد الشعر ، وترتيب الجسد وعرض النذور والقرايين ، فكل ذلك ليس له حظ في النجاة عند البوذية . يقول بوذا : « التعرى وتلبيد الشعر والتعهد بالأوساخ والصوم وترتيب الجسد . . الخ . . كل ذلك لا يظهر فانياً لم يقهر شهواته » ثم يقول « لا يظهر نهر رجلاً متعهداً للسننات ، مضمراً للوقت ، مرتكباً للجناية » ، وقال في موضع آخر « النجاسة يستحدثها الغضب وشرب الخمر والغرور والحقد لا أكل اللحم ^(١) » والعمل الصحيح في البوذية هو تطهير الباطن من حب النفس والشح والحقد والغلظة والشهوة والغضب ، وهو غض البصر عن عيوب الناس ، والتأسي بهم في أحزانهم وأوجاعهم ، والأخذ بالتقوى في شعابها المتعددة من الاجتناب « عن قتل كل ذى روح ، وعن سلب أموال الناس ، وعن النظر إلى نسائهم ، وعن قول الزور ، وشرب المسكرات ، والتعدى بالجوارح » .

(١) لأن الهندوسية تحرم أكل اللحم . .

وهكذا تقوم البوذية على السمو الأخلاق والطهر النفسى غير عابثة بمظاهر العبادة التى لا تؤدى لهذه الغاية فى نظرها . .

وتجد البوذية الآن من حكومة الهند عناية خاصة من جهة الأبحاث، فى منطقة « نالندا »، قريباً من « بنتا » فى « بهار » أقامت معهداً للبحوث فى الثقافة والتعاليم البوذية بجانب الجامعة القديمة التى اكتشفوا مبانيها والتى ترجع إلى مئات من السنين قبل الميلاد، وقد زرت هذه المنطقة بصحبة أحد وزراء بهار (شاه محمد عزيز منعمى) وبعض علمائها، وقضينا وقتاً قصيراً فى المعهد تعرفنا فيه على مهمته، ونظرنا بعض الكتب النادرة المستقدمة من جميع أنحاء العالم للبحث عن البوذية وآدابها وتعاليمها، وكان بعض هذه الكتب قد كتب على خوص النخيل المعروف فى الهند باسم « التار »، ويمتاز بأنه عريض وأملس . .

ولاحظنا بالمعهد طلاباً من جميع الأمم الشرقية التى تعنى بالبوذية، وسجلت كلمة إعجاب بالروح التى أملت قيام هذا المعهد، ودفعت هؤلاء الشبان إلى التخصص والتفرغ لما يعنى به من الدراسات القديمة . .

وبما يلفت النظر حقاً هذا التشابه الكبير بين مانسج حول « بوذا »، وولادته وحياته، وبين ما قاله أتباع عيسى عليه السلام عنه، وإن الإنسان ليتأمل كثيراً ويقف عند هذا التشابه الذى يكاد يكون تاماً بين التفرغين البوذى والمسيحى مع العلم بأن بوذا سابق على عيسى عليه السلام بأكثر من خمسمائة سنة، وأن البوذية وأفكارها تسربت إلى البلاد الغربية من الهند بواسطة دعاة « أشوكا » والمبشرين بالآفكار البوذية. وقد سبقت الإشارة إلى ما كان بين الهند وهذه البلاد من صلات قوية بعد غزوة الاسكندر للهند . .

وبودى أن أضع أمامك هذه المقارنة التى عقدها الأستاذ محمد أبوزهرة أستاذ الشريعة فى كلية الحقوق وأستاذ الملل والنحل فى كلية أصول الدين بالأزهر سابقاً، وذلك فى كتابه « الملل والنحل »، عن التشابه الكبير بين

ما يقوله أتباع بوذا عنه وما يقوله أتباع عيسى عليه السلام ..

أقوال المسيحيين عن المسيح
عيسى بن الله

كان تجسد المسيح بواسطة حلول
روح في العذراء مريم
ودل على ولادة عيسى نجم ظهر
في المشرق
وقد زار الحكماء يسوع وأدركوا
سر لاهوته
وأهدوا يسوع وهو طفل هدايا
من ذهب وطيب
لما كان يسوع طفلاً قال لأمه
مريم أنا ابن الله
كان يسوع ولدًا مخيفاً فسعى الملك
وراء قتله كيلا ينزع الملك منه
وصعد يسوع إلى السماء بجسده
بعد صلبه
ولسوف يأتي يسوع مرة ثانية
ويعيد السلام

أقوال البرذيين عن بوذا
بوذا ابن الله

كان تجسد بوذا بواسطة حلول
القدس في العذراء مايا
دل على ولادة بوذا نجم ظهر في
أفق السماء
وعرف الحكماء بوذا وأدركوا
أسرار لاهوته
وأهدوا بوذا وهو طفل هدايا
من مجوهرات
لما كان بوذا طفلاً قال لأمه
مايا إنه أعظم الناس جميعاً
لما كان بوذا ولدًا مخيفاً سعى
الملك وراء قتله
وصعد بوذا إلى السماء بجسده
وسوف يأتي بوذا مرة ثانية
للأرض ويعيد السلام

وعلى هذا النمط من التشابه التام أتى الأستاذ بست وأربعين نقطة ..
وكذلك لاحظ هذه الناحية المؤرخ چوستاف لوبون حيث قال (١) : تجسد
أوجه شبه شاملة للنظر في حوادث حياته (بوذا) الخرافية وبعض
أقاصيص الإنجيل ..

لقد وقفنا كثيراً مع بوذا والبوذية فيكفينا هذا ، وما أردنا إلا رسم صورة عامة عن هذا الدين الأخلاقي الذي نبت في الهند ، ثم انحسر عنها لينتشر ويزدهر في بلاد غيرها . .

وهذه الأديان التي سبق الكلام عنها هي الأديان التي كانت تتقاسم الهند وقت ظهور الإسلام وزحفه إلى هذه البلاد الواسعة . .

الزخرف الاسلامي في الهند

بدء دخول الاسلام في الهند

سبق أن أشرنا إلى الصلات التي كانت قائمة بين الهند والبلاد الغربية من قبل الميلاد ، وكان التجار العرب هم واسطة هذه الصلات تقريباً ، أو كانوا هم أكثر أهل البلاد الغربية صلة بالهند ، فبلادهم قريبة من الهند تقع على بحر العرب كما تقع الهند ، وسفنهم هي التي كانت تقوم بنصيب كبير في نقل التجارة بين الهند وبين هذه البلاد ، ومن الطبيعي أن يكون التجار والبحارة العرب بحكم عملهم أكثر صلة بالهنود ، كما كانت لهم معرفة ودراية بالمدن الهامة الواقعة على الساحل الطويل لبحر العرب ، بل كانوا يذهبون إلى ما وراء ذلك في خليج بنغال وبلاد الملايو وجزر اندونيسيا حتى كونوا لهم جاليات عربية في بعض ثغور هذه البلاد ،

وحين ظهر الإسلام ودخل العرب في دين الله أفواجا كان منهم هؤلاء التجار والبحارة العرب من الحضارمة وغيرهم ، فحملوا معهم دينهم الجديد إلى البلاد التي يتعاملون معها ، وكان من الطبيعي أن يتحدث هؤلاء في حماس وإيمان عن دينهم الجديد ، وعن الرسول الذي ظهر في بلادهم ، يدعو الناس إلى التوحيد والأخاء والمساواة والمعاملة الحسنة بين الناس جميعاً . وكانت الهند تئن حينئذ من التفرقة ونظام الطبقات القاسى الذى تقوم عليه ديانتهم ، فكان حديث التوحيد والمساواة نعمة جديدة يحلو لهم أن يسمعوها ، وأن يقارنوا بينها وبين ما هم فيه من أضرار التفرقة وأثقالها ، وكانت النتيجة أن تفتتح القلوب لهذا الدين ويقبل الناس عليه ليتخلصوا من العناء النفسى والاجتماعى الذى كانوا يعانونه ، كما ينفضون عنهم الوثنية الهندوسية المشهورة بالخرافات والأساطير . . ولذا وجد الإسلام في الهند أرضاً خصبة سهلة ، وأصبح في كل ميناء أو مدينة اتصل بها المسلمون جماعة اعتنقوا الإسلام ، وأقاموا المساجد ، وباشروا شعائرهم في حرية تامة لما كان للمسلمين والعرب في ذلك الوقت من منزلة عند الحكام باعتبارهم أكبر العوامل في رواج

التجارة الهندية التي كانت تدر على هؤلاء الحكام الدخل الوفير .
وكانت سواحل السند ومليبار الواقعة على بحر العرب من أسعد هذه
البلاد بالدين الجديد هي وجزيرة سيلان أو جزيرة « الياقوت » كما يسميها
المؤرخون القدامى .

ولم يكن من السهل على كتب التاريخ أن تتبع الجهود الفردية التي يبذلها
هؤلاء التجار والبحارة العرب في سبيل الإسلام ، ولذلك اكتفتْ بذكر
العنوان لهذه الجهود بينما عنيّتْ كعادة كتب التاريخ بذكر حادثة وقعت
لأحد حكام مليبار الذين سمعوا عن الإسلام وأقبلوا عليه . .

ونحن ننقل هنا ما ذكره الشيخ زين الدين ^(١) صاحب كتاب « تحفة
المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين » في القسم الخاص بظهور الإسلام
في مليبار قال : —

إن جمعا من اليهود والنصارى دخلوا بلدة من بلاد « مليبار » يقال لها
« كدنسكور » وهي مسكن ملوكها في مركب كبير بعيالهم وأطفالهم وتوطنوا
فيها ، وبعد ذلك وصل إليها جماعة من فقراء المسلمين معهم شيخ قاصدين
زيارة قدم أيدينا آدم عليه السلام بسيلان ^(٢) .

(١) هو الشيخ زين الدين بن عبد العزيز المعبري عائلته يعرفها أهل مليبار حتى اليوم
بأنها عائلة علم وورع وتقوي وكان جده زين الدين أبو يحيى من كبار العلماء المتصوفين
وصاحب تصانيف كبيرة باللغة العربية . بنى جامعا في « بناني » وحوله مدرسة وزاوية
كانت تأوى العلماء والمتصوفين القادمين من مصر وسوريا ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد
ابن حجر الهيتمي سنة ٩٠٩ هـ حيث علم فيها دروس التفسير والحديث وتلمذ عليه الشيخ
زين الدين هذا وقد نقل كتاب التحفة من العربية إلى البرتغالية سنة ١٨٩٨ هـ والانكليزية
سنة ١٨٣٣ والأوردية . . ويعتبر من السكتب الموثوق بها . .

وقد زرت « بناني » في ١٧ نوفمبر ١٩٥٧ وزرت المسجد الجامع الذي يوجد بجوار
جداره الجنوبي قبر الشيخين ووقفت عند الباب الموصل للقبور وسلت عليهما ودعوت لهما
ونظرت من الباب فوجدت الحشائش والأشجار تملو القبرين . وقابلني أفراد من ذريتهم
يسمون الآن « بالمخدومين » ولهم مقام خاص بين المسلمين هناك وأكثريّة سكان هذه
المدينة مسلمون بفضل جهاد هؤلاء العلماء الأعلام وذريتهم . .

(٢) حكاية اهتمام المسلمين بزيارة قدم أيدينا آدم عليه السلام في سيلان شيء أشك فيه =

فلما سمع الملك بوصولهم طلبهم وأضافهم ، وسألهم عن الاخبار ، فأخبره شيخهم بأمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبدين الإسلام وبمعجزة انشقاق القمر ، فأدخل الله سبحانه وتعالى في قلبه صدق النبي صلى الله عليه وسلم فأمن به ، ودخل في قلبه حب النبي (صلى الله عليه وسلم) وأمر الشيخ أن يرجع هو وأصحابه إليه بعد زيارة قدم آدم عليه السلام ليخرج هو معهم ، ومنعه أن يحدث بهذا السرا المليباريين . ثم إنهم سافروا إلى سيلان ورجعوا إليه ، فأمر الشيخ بأن يهيئ مركبا لسفره من غير أن يعلم به أحد . وكان في البندر المذكور مراكب كثيرة للتجار الغرباء ، فقال الشيخ لصاحب مركب : أنا وجماعة من الفقراء يتوقعون أن يركبوا في مركبك ، فرضى بذلك . ولما قرب وقت السفر نهى الملك أهل بيته ووزرائه أن يدخل أحد منهم عليه مدة سبعة أيام ، ورتب أمور البلاد من بعده . . والحكاية مشهورة عند كفرة مليبار أيضاً . . .

ثم إن الملك ركب مع الشيخ والفقراء ليلا ، وسار المركب حتى وصل إلى « شحر » (١) ونزل فيها هو ومن معه أياما سنع لهم فيها ترتيب بعثة تبشيرية من المسلمين تقصد مليبار تدعو الناس للإسلام وتنشئ المساجد ، ولكن فوجي . الجميع بمرض الملك مرضا شديدا ، ولم يقته وهو في شدة مرضه أن يوصى الدعاة ألا يتأخروا عن السفر إذا مات ، وكانوا « شرف بن مالك وأخاه مالك بن دينار ، وابن أخيه مالك بن حبيب بن مالك » فقالوا له ، لا نعرف موضعك ولا حد ولايتك ، وإنما أردنا السفر بصحبتك فتفكر الملك ساعة ، ثم كتب لهم ورقة بخط مليباري عين فيها مكانه وأقرباه وأمرهم أن ينزلوا في « كدنكلور » أو « دار مفتن » أو « فندرينه » أو « كولم »

== كثيرا فإنه لم يكن ذلك شيئا يهتم به بين المسلمين في تلك الأيام كما أعرف فلنمر على سبب الزيارة من السكرام دون أن نشكك في وجود هؤلاء بمليبار . . ومدينة « كدنكلور » هذه تسمى اليوم « كرنكلور » على مقربة من ميناء « كوتشين » على ساحل مليبار وكانت التجار العرب والروم يأتون لهذه البلدة للتجارة . .

(١) على الشاطئ الجنوبي لجزيرة العرب .

وقال لهم لا تخبروا أحداً بمرضى أو بموتى إن مت ، ثم إنه توفى إلى رحمة الله ، وبعد ذلك بسنين سافرت البعثة مع أسرها إلى مليبار فوصلوا إلى « كدنكلور » ، ونزلوا فيها ، وأعطوا مكتوب الملك المتوفى إلى الملك الذى فيها ، وأخفوا خبر موته ، فلما قرأها وعلم مضمونها أعظامهم الأراضى والبساتين على مقتضى ما كتبه ، فأقاهوا فيها وعمرها بهامسجدا ، وتوطن فيها « مالك بن دينار » وارتحل ابن أخيه « مالك بن حبيب » للدعوة للإسلام وبناء المساجد ، فوصل إلى « كولم » بأسرته وعمر بها مسجدا ، ثم خرج منها بعد ما خلى زوجته فيها إلى « هيلي ماراوى » وعمر بها مسجدا ثم إلى « باكنور » وعمر بها مسجداً ثم رجع إلى « منكلور » وعمر بها مسجدا ، ومنها إلى « كانجركوت » وعمر بها مسجدا ، ثم ذهب إلى « جرفتن » ومنها إلى « شاليات » وعمر بكل منهما مسجدا ، ثم عاد إلى « كدنكلور » عند عمه « مالك بن دينار » . . ثم خرج ومعه عمه مالك إلى هذه المساجد التى بناها حيث صلى فى كل منها ورجع إلى « كدنكلور » شاكرًا لله وحامداً له ظهور دين الإسلام فى أرض مملوكة كفرة ، ثم خرج « مالك بن دينار » و « مالك بن حبيب » مع الأصحاب والعبيد إلى « كولم » وتوطنوا فيها إلا « مالك بن دينار » وبعض أصحابه ، فإنهم سافروا إلى « شمر » وزاروا قبر الملك المتوفى فيها ، ثم سافر مالك إلى خراسان وتوفى فيها هو وزوجته . أما مالك بن حبيب فإنه رجع إلى مليبار وترك بعض أولاده فى « كولم » ، واتخذ لنفسه وزوجته مستقرا فى « كدنكلور » حتى انتقلا لرحمة الله (١) هذا خبر أول ظهور الإسلام فى ديار مليبار ، وأما تاريخه فلم يتحقق عندنا ، وغالب الظن أنه كان بعد المائتين من الهجرة ، وأما ما اشتهر عند مسلمى مليبار من أن إسلام الملك المذكور كان فى زمن النبى (صلى الله عليه وسلم) برويته انشقاق القمر وأنه سافر إلى النبى وتشرف

(١) قبره معروف فى شمال مليبار باسم قبر سيدنا مالك للآن كما سمعت من كثيرين زيارتى لمليبار فى نوفمبر ١٩٥٧ .

بلقائه الخ فلا يكاد يصح منها شيء .
أما المؤرخ « فرشته » الذي كتب تاريخ الهند في عدة أجزاء بالفارسية وترجمه للأوردية فقد ذكر أيضاً أن هذه الحادثة وقعت في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن السامري رأى بنفسه معجزة شق القمر ، وسافر وقابل الرسول ، ومات حين رجوعه في ظفار بعد ماذكر الرواية الأولى دون أن يرجح إحداها ^(١) .

وهكذا يظهر لنا أن أصل الحادثة لا اختلاف عليها وإنما الخلاف في تعيين زمن وقوعها ..

ويوجد في « المكتب الهندي » « أنديا أفس » مخطوطتان منظرمتان باللغة العربية وفيهما شرح لحوادث اعتناق الملك للدين الإسلامي ، وقدم المسلمين إلى مليبار ، وفي واحدة منهما كتب اسم الملك « شكروتي » وفي الأخرى « شكرورتي » وتنطق « چكرورتي » ومعنى الكلمة الملك والامبراطور . ونحن لا يهمنا كثيراً البحث في اسم الملك بقدر ما يهمنا وقوع الحادثة نفسها كدليل على انتشار الإسلام في مليبار .. على أنه إذا صح أن هذه الحادثة وقعت في القرن الثالث الهجري كما يؤكد بعض المؤرخين فإنه مما لا شك فيه أن الإسلام قد وصل إلى مليبار قبل ذلك بكثير على يد التجار والبحارة العرب الذين كانت لهم صلة تجارية وثيقة بهذه البلاد .. فإن الإسلام قد وصل إلى سيلان على يدهم أيضاً في وقت مبكر جداً وهي أبعد من مليبار .. وتكون عناية الكتب بذكر حادثة اعتناق الملك للإسلام راجعة لأهميتها ؛ لأنها وقعت من ملك ، والكتب التاريخية دائماً تعني بحوادث الملوك قبل أن تعني بالحوادث الفردية ..

ونحن لا نزال نرى للآن أثر العرب في مليبار متمثلاً في بعض الأسر العربية الأصل ، وفي عناية هذه البلاد أكثر من غيرها من بلاد الهند باللغة

(١) تاريخ فرشته الترجمة الأوروبية ص ٨٣٤ ج ٤ نقل عن مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر ١٩٥٥ من مقال للاستاذ محي الدين الالواني المليباري . « والسامري » لقب للمسلم وينطقونه أحياناً « الزامورين » .

العربية كما شاهدت ذلك بنفسى حين رحلتى إليها فى نوفمبر ١٩٥٧ ويحكى لنا الشيخ زين الدين فى كتابه^(١) عن ازدهار الإسلام وانتشاره فى هذه البلاد برغم أن حكماها لم يكونوا من المسلمين ، وذلك بفضل نشاط المسلمين ومركزهم المالى والتجارى فى البلاد ، فكانوا يبنون المساجد ويقيمون الجمع والأعياد وينفذون فيما بينهم أحكام شريعتهم . وينظر الهندوس المحليون إليهم نظرة إكبار وتقدير ، وإذا اعتنق هندوسى الإسلام ولو كان من الطبقة السفلى فإنه ينال نفس الاحترام والتقدير ، مما كان سببا لدخول كثير من المضطهدين فى الإسلام .

وبودى أن أضع أمام القراء مقتطفات من بحث طويل فى هذا الموضوع للباحث الهندى الدكتور « تاراشند » نشرته له مجلة « ثقافة الهند » (مارس سنة ١٩٥٠) .

قال « أما كيف وصل المسلمون إلى الهند ؟ فنقول :

« إن الروابط بين الهند والبلاد الغربية : القطر العربى وفلسطين ومصر : قديمة جداً فالملك سليمان كان يستورد الذهب والفضة والعاج والطواويس من بلاد الهند . . وأنشأ البطالسه موانئ على البحر الأحمر لتنشيط التجارة الهندية . . وكانت فى الاسكندرية جالية هندية ذبحت بأيدى « كارا كالا » فى أوائل القرن الثالث . . . ووجدت نقود الأمبراطورية الرومانية من زمن « أغسطس » (١٤ م) إلى زمن الامبراطور زينو (٤١٩ م) فى حفريات الهند الجنوبية ، وهذا دليل حسى على سعة التجارة الهندية مع العالم الغربى .

وقد أبدى الفرس نفس النشاط الذى اتصف به الرومان . . ثم قال : وقد كان من الطبيعى أن يهتم العرب بالتجارة بين الشرق والغرب ، وقد فعلوا ذلك . . إلى أن قال : قال « رينود » كل شىء يحملنا على اليقين بأنهم (العرب) باشترا كهم مع الفرس تمتعوا فى هذه السواحل الهندية إلى القرن

الرابع عشر بالنفوذ الذى تمتع به البرتغاليون من بعدهم ،
« وكانت السفن العربية تبخر من سواحل البحر الأحمر أو من السواحل
الجنوبية ، فتتجه إلى مصب السند أو ساحل مليبار ، وكانت الرياح تسهل
مجرأها إلى « كولم » ، والموانئ الأخرى ، كما كانت السفن المبحرة من الخليج
الفارسى تتخذ نفس الطريق ، وبمساعدة الرياح تصل حتى جزائر الملايا
وساحل الصين .

« ومن هذا القرن (الثامن الميلادى) أخذ نفوذ المسلمين يزداد ، وفى
خلال المائة التالية استقروا بساحل مليبار كل الاستقرار ، ورحبت بهم
الحكومة الوطنية كنجار ، وسهلت لهم السبل للمكث والتمكث ، وأطلقت لهم
الحرية الدينية . .

« وقبل أن يتقدم القرن التاسع انتشروا على ساحل الهند الغربى كله ،
وأحدثوا ضجة بين أبناء البلاد من الهندوسيين بمعتقداتهم وعبادتهم
وتحمسهم لنشر دينهم » . « وقد كانت الهند الجنوبية إذ ذاك مسرحا
للمصادمات الدينية بين الهندوسية والبوذية والچينية . كما كان هذا العصر
من الوجهة السياسية كذلك . . فكان الناس بطبيعة الحال مضطربين مستعدين
لقبول أفكار جديدة . فظهر الإسلام بدين سائز يجذب إلى عقائده بسيرة ،
وعبادات سهلة ، وإلى المبادئ الجمهورية فى الهيئة الاجتماعية . فكان
للإسلام دوى عظيم » .

ثم ذكر قصة اعتناق أحد الملوك للإسلام . ثم قال : ولا يخفى ما يكون
لإسلام الملك من تأثير عميق فى رعاياه ، وتذكر هذا الحادث ظل حيا فى
مليبار . فمثلا جرت التقاليد أن زامورين (راجا) عندما يرتقى العرش
يخلقون رأسه ويكسونه كواحد من المسلمين ، ويتوجه رجل من « ما بلا »
المسلمين (أشرافهم) ويزعمون أن زامورين ليس جلوسه على العرش
إلا كغائب عن الملك الغائب ، وهو ينتظر رجوعه من البلاد العربية ، وكذلك
أمراء « ترافنكور » . حينما يتوجون ويحملون السيف يعلن كل واحد منهم

في دوره قائلاً. إني أحافظ على هذا السيف حتى يرجع العم الغائب الذي رحل إلى مكة « (١) .

وبعد ماشكك الكاتب في تفاصيل حادثة إسلام الملك قال « ولكن كما قال المؤرخ إنيس » « Innes » لنا أن نستنج من الحكاية أن الأسرة الحاكمة في « كارانفانور » انتهت بأسلام ملك يحمل لقب بيرومل وعزله في القرن التاسع « والظاهر أن المسلمين في هذا العهد وصلوا إلى نفوذ كبير فقد كانوا يلقبون بكلمة « مابلا » وهو لقب احترام . وخص المسلمون بمظاهر الاحترام الأخرى . وقد كان من عطف « زامورين » وحمائمه ومساعدته أن كثر عدد التجار العرب في مملكته ، وهم ساعدوه مساعدات عظيمة ، ليس بتوفير ثروته وتعمير بلاده فحسب بل في حروبه كذلك » .

وأ أسرة « على راجا » (٢) المسلمة التي كانت تنجب أمراء البحر والوزراء للملوك « كيرلاترى » أسسها رجل من العرب الذين استقدمهم من بلادهم الملك « شيرا من بيرومل » وكان « زامورين » يثق بالمسلمين ثقة عظيمة ، حتى أنه كان يرغب بنفسه الناس إلى اعتناق الاسلام ، وذلك لتقوية أسطوله الذي كان في أيدي المسلمين ، بل إنه أصدر أمراً يحتم على كل أسرة من السهاكين في مملكته أن تربي واحداً أو اثنين من أبنائها على الديانة الاسلامية . . . وتقول الروايات إن تاجرا مسلما كان يتاجر مع البلاد العربية أقام سوقا في

(١) سألت أهل مليبار عن هذا التقليد وهل بقي للآث ، فقالوا . ليس له وجود في هذه الأيام .

(٢) في أثناء رحلتي إلى ملابار زرت هذه الأسرة في « كسنور » شمالي كاليكوت بدعوة منها وتناولنا الشاي عندها وعلمنا أن آخر أمراءها كانت أميرة أولمطانة كما يقولون نوقيت في أكتوبر ١٩٥٧ وكانوا يحكمون في « كسنور » وما حولها وبعد تقسيم الهند زال حكمهم ، ولكن بقي للأسرة مجدها فاجتمعوا وانتخبوا كبيرا لهذه الأسرة وشاهدت الحراس بأزيائهم الزاهية حسب تقاليدهم القديمة ويحافظون على الطربوش في الأسرة وأهدوني صورة السلطان الذي كان واليا قبل السلطنة واسمه « محمد علي راجا » والمسلمون هناك يؤدون لهم مايليق بهم من تحية ولا كبار ويسمون بيتهم بيت السلطان . . . وبيت الملك .

مكان يسمى «ويلابورم» شاء القدر أن تكبر السوق ويصير مكانها ثغرا عظيما وهي التي يسمى الآن «بكاليكوت» (١) .

ثم ذكر بعد ذلك مارآه الرحالون ودونوه عن حال المسلمين في هذه البلاد، وكيف أنهم كثروا وازداد عددهم وجاءوا إليها من البلاد العربية . . . وذكر أقوالا عن هؤلاء الرحالة كالمسعودي الذي زار الهند في أوئل القرن العاشر (٩١٦م) ووجد عشرة آلاف مسلم من مسلمي السرف وعمان والبصرة وبغداد في «سى مور»، «شول»، الحاضرة . عدا كثيرين من ذرية العرب المولودين في البلاد وكذا أبودلف المهلهل، وابن سعيد في القرن الثالث عشر وماركوپولو، وأبو الفداء ثم ابن بطوطة في القرن التاسع عشر الذي ذكر الكثير عن أحوال المسلمين الحسنة في هذه البلاد، وكان مما ذكره أن رئيس التجار في «كاليكوت» كان من المسلمين واسمه «إبراهيم شاه بندر» من البحرين . ثم قال أخيراً :

« فهذه التصريحات ناطقة بأن المسلمين سكنوا الساحل الغربي الهندي قديما وازدادوا فيه عددا وثروة ومنعة، . . . ووصلوا إلى مقام ونفوذ كبير عند ملوك ملابار الهندوس . . . »

هذا القدر الذي لخصه هذا الكاتب بعد تفصيل هو ما نريد إثباته ولعلنا

(١) زرت هذه المدينة الكبيرة عدة مرات وأقت فيها أياما وهي تقع على ساحل بحر العرب وتعتبر ميناء صغيرا ولا تزال السفن الشراعية الكبيرة تأتي لها من البلاد العربية وتوود محملة بالخشاب والحبال وجوز الهند والفلفل وشاهدت بها مسجدا قديما جدا يقال إنه يرجع إلى ألف سنة مضت، وقابلت بها بعض العرب من البحرين والكويت الذين استوطنوها وأصبحت لهم تجارة كبيرة مثل « يعقوب الصقر » من الكويت وغيره وكثير من الأسر فيها يفتخر بأن أصله عربي وبها نشاط إسلامي في المدارس الدينية ودور التماحي والتربية الإسلامية وتصدر فيها الصحيفة الإسلامية « الهلال » « تشاندريكا » باللغة الملايانية التي تنطق باسم حزب « مسلم ليك » أي الرابطة الإسلامية وفيها عائلة « باقية » العربية وتعتبر نفسها من الأشراف وعميدها هو السيد عبد الرحمن باقية رئيس الحزب الإسلامي .

نكون قد أطلنا في هذه النقطة ، ولكن لا بأس مادام الحديث يستدعى ذلك
لا سيما إذا استشهدنا بأقوال مؤرخين من غير المسلمين . . والمهم بعد هذا
أن الاسلام انتشر في هذه البلاد بجهود الأفراد ولم يكن هناك حاكم إسلامي
يقال إنه يجبر الناس على الاسلام أو يرعى شؤون المسلمين ، ولكنها جهود
الأفراد وقوة نفوذ الاسلام وبساطته هي التي مهدت له السبيل . .

في سيلان :

وحينما نتحدث عن الاسلام في سيلان فإننا لا نعيد عن الحديث عن
الهند ، فسيلان والهند شيء واحد تقريباً وإن كانت السياسة جعلت منهما
حكومتين . . على أن حديثنا عن الإسلام في سيلان يعزز حديثنا عنه
في الهند فإن التجار المسلمين قبل أن يذهبوا إلى سيلان ويؤثروا فيها لا بد
أن يمرؤا بالهند ويتركوا أثرهم فيها أيضاً .

تقول كتب التاريخ إن سيلان اهتمت بالإسلام منذ عهده الأول
حينما سمعوا عنه من التجار العرب .

جاء في كتاب « عجائب الهند » لمؤلفه الرحالة « بزرگ بن شهریار » (١)
(١٠١٣ م - ٤٠٤ هـ) : لما سمع أهالي سيلان عن الرسول العربي أوفدوا
رجلاً ممتازاً إلى جزيرة العرب للاستطلاع عن حالات ودعوة الرسول
الجديد ليبلغهم كما رأى وسمع . فوصل ذلك المبعوث إلى جزيرة العرب
في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٣ - ٢٣ هـ - ٦٣٤ - ٦٤٤ م)
فتشرف بمقابلة الخليفة وتحدث معه عن دعوة الرسول وتاريخ حياته وجمع
معلومات ، ثم عاد إلى سيلان ولكن فاجأه الموت في الطريق وهو في « مكران » ،
وكان معه خادم هندي فعاد إلى « سيلان » وبلغ أهلها عن مشاهداته ومعلوماته ،
وبين لهم ما سمع عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر الصديق

(١) ص ٥٦ نقل عن ثقافة الهند سبتمبر ١٩٥٥ مقال للأستاذ محي الدين الواني .

الخليفة الأول وكذلك كشف لهم تفاصيل المحادثات التي جرت بينهما وبين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : إن عمر بن الخطاب رجل تقى شجاع يلبس الثوب المرقع وينام فى المسجد^(١) ، ولا شك أنه كان لهذا الحديث نتائج فى إقبال الناس على الإسلام . على أن التاريخ يحدثنا أيضاً عن الأسر المسلمة العربية التي سكنت سيلان واستقرت بها مما سيمر بك قريباً عندما نذكر أسباب فتح السند إن شاء الله ..

ومن كل هذا نعرف شيئاً عن دخول الإسلام فى جزيرة سيلان التي يوجد بها الآن عدد كبير من المسلمين لهم مقام ممتاز فيها ..

فتح الهند

كان حديثنا الماضى عن الجهود الفردية السلمية الهادئة لنشر دعوة الإسلام فى الهند . والأمر فى هذا السبيل لم يقف عند هذا الحد ، فقد كان هناك تفكير مبكر قام فى رموس الحكام المسلمين نحو هذه البلاد ونشر دعوة الإسلام فيها وضمها إلى رقعة الدولة الإسلامية التى أخذت تتسع حتى وصلت شرقاً إلى حدود الهند حينما وطئ المسلمون أرض فارس وقوضوا عرش كسرى ، وانطلق الفاتحون المسلمون وراء انتصاراتهم يضيفون نصراً إلى نصر وأرضاً إلى أرض ..

لقد بدأ هذا التفكير فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين فكر واليه على البحرين وعمان وهو عثمان بن أبى العاصى الثقفى « سنة ١٥ هـ فى تسمير جيشه إلى الهند يقول البلاذرى فى كتابه « فتوح البلدان ص ٤٣٨ » : « ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه عثمان بن أبى العاصى الثقفى البحرين وعمان سنة ١٥ هـ فوجه أخاه الحكم بن أبى العاصى إلى البحرين ومضى إلى عمان فأقطع جيشاً إلى « تانه »^(١) فلما رجع الجيش كتب إلى عمر يعلمه ذلك فكتب إليه عمر : يا أخا ثقيف حملت دوداً على عود ، وإنى أحلف بالله أن لو أصيدوا لأخذت من قرمك مثلهم : ووجه الحكم أيضاً إلى بروص (Broach .^(٢)) ووجه أخاه المغيرة بن أبى العاصى إلى خور الديبل فلقى العدو فظفر به .. » .

ويبدو من كتاب عمر رضى الله عنه لواليه أنه كان يخشى على المسلمين

(١) تانه تقع شمال بومباى قرية منها على بعد نحو ١٥ ميلا ، وهى تقع على بحر العرب وقد حدثنى أحد العلماء المعنيين بالتاريخ فى بومباى أنه شاهد بها بعض المقابر الإسلامية القديمة التى يعتقد المسلمون أنها ترجع إلى هذا العهد القديم ..

(٢) تقع الآن شمال سورت بينها وبين نهر زربدا وكانت ميناء قديماً ولكنه فقد أهميته على مر الزمن وقد مررت بها عند ذهابى إلى بلدة «سورت» فى أكتوبر ١٩٥٦

من المجازفة بركوب البحار . وتلك فكرة خاصة بسيدنا عمر وجدنا أثرها كذلك حين منع معاوية واليه في الشام من ركوب البحر الأبيض لفتح إحدى الجزر الواقعة قريباً من ساحل الشام ..

ولا شك أن عثمان بن أبي العاصي قد استعان في ترجيه حملته إلى الهند بالسفن العربية وبحارها المسلمين الذين كانوا يعرفون جيداً هذه البلاد ، وكانوا سادة البحر في هذه الناحية من قديم ، ولم يكن هناك ما يخشى منه على المسلمين لكن الخليفة كانت له هذه الفكرة الخاصة التي لم يشاركه فيها عثمان ابن عفان رضى الله عنهما حين ولي الخلافة ، فأذن لمعاوية بالغزو عن طريق البحر كما بدأ يفكر في الهند ويرسل رسله ليعرف أخبارها وطرقها لينفذ فكرة غزوها ..

ولذلك لا أوافق على رأى الأستاذ حبيب الذى كتبه في مذكرته لطلاب كلية أصول الدين بالأزهر والذى ينفي فيه أن عمر رضى الله عنه كان يخاف على المسلمين من ركوب البحر .. إذ أن هذا الخوف تمثل جلياً في منعه معاوية كما ظهر بصورة أوضح في كتابه لواليه حين قال له : « حملت دودا على عود » ..

ولا شيء على عمر في خوفه وإشفاقه على المسلمين ، فالأمر لا يعدو احتياطاً من ناحيته لأموار المسلمين الذين يرعاهم ويسأل عن سياستهم وتوجيههم ولا يريد أن يزعجهم في طريق يخاف عليهم منه .. وقد رأينا إشفاقه هذا يتمثل في كتابه لعمر بن العاصي بعد أن وجهه لفتح مصر يأمره بالرجوع عن غزو مصر إن لم يكن قد دخل حدودها ، فإنه لم يفعل هذا إلا خوفاً على المسلمين من الابتعاد عن مركز الخلافة ووجود مسافات وحوائل ، ربما تحول بيده وبين إمدادهم حين يحتاجون للمدد . فهو احتياط على كل حال لا عيب فيه ، بل إنه يمدح عليه .. ولكل وجهة ..

يقول البلاذرى « فلما ولي عثمان رضى الله عنه وولى عبد الله بن عامر

ابن كرين العراق كتب إليه يأمره أن يوجه إلى ثغر الهند من يعلم عليه وينصرف إليه بخبره فوجه « حكيم بن جبلة العبدى . . فلما رجع أوفده إلى عثمان فسأله عن حال البلاد فقال: يا أمير المؤمنين قد عرفتها . قال : فصفا لي قال : « ماؤها وشل وثمرها دقل (١) ولصها بطل . إن قل الجيش فيها ضاعوا ، وإن كثروا جاعوا » فقال له عثمان : أخبر أم ساجع ؟ قال : بل خابر . فلم يغزها أحدا . . فلما كان آخر سنة ٣٨ هـ وأول سنة ٣٩ هـ في خلافة على بن أبى طالب (رضى الله عنه) توجه إلى ذلك الثغر « الحارث ابن مرة العبدى » متطوعا بأذن على فظفر وأصاب مغنما وسبيا . الخ ،

وقد ظل القواد المسلمون يطرقون أبواب الهند ويصيرون من أطرافها حتى كان زمن الحجاج بن يوسف عامل الوليد بن عبد الملك على العراق ، وبدأت الحملة القوية المنظمة تتجه إلى الهند لفتحها وضمها إلى رقعة البلاد الإسلامية .

ويختلف المؤرخون في ذكر السبب الذى حدا بالحجاج إلى تسيير حملة على الهند فيذكر البلاذرى أنه كان فى سيلان أو جزيرة الياقوت كما يسميها نسوة من العرب المسلمين مات عنهن آباؤهن ، فأراد ملك الجزيرة أن يجامل الحجاج ، ويرسل له هؤلاء النسوة ، أو حسب ما ذكره البلاذرى يهديهن إليه تقرباً منه ، فأركهن سفينة إلى البلاد العربية ، فعرض للسفينة قوم من ميد الديبل فى بوارج ، فأخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأة منهم — وكانت من بنى يربوع — « يا حجاج ، » وبلغ الحجاج ذلك ، فقال : « ليك » فأرسل إلى « داهر » يسأله تخليّة النسوة . فقال : إنما أخذهن لصوص لا أقدر عليهم ، فحمل ذلك الحجاج على غزو السند مملكة « داهر » .

ويذكر بعض المؤرخين (٢) أن سبب الحملة هو هجرة جماعة إلى السند من بنى هاشم فراراً من ظلم الحجاج وعسفه بالعراق ، فكتب الحجاج إلى

(١) وشل : قليل ، دقل : ردى .

(٢) (رايس) عن مجلة الثقافة الهندية مارس سنة ١٩٥٠ مقال الدكتور

ناراشند عن وصول المسلمين لهند ، وتاريخ الهند لسيد هاشمى بالأوردية .

ملك السند يطلب منه تسليم الفارين، ولكنه لم يظفر بما يريد، فقرر أن ينتقم لنفسه من ملك السند .

ولا تناقض في رأي بين السبيين، فيصح أن يكون كل منهما قد حدث ،
لخفزا الحجاج لغزو هذه البلاد ..

وقد وجه الحجاج أولاً بعض قواده إلى هذه البلاد ، ولكنه فشل في مهمته ، فرأى أن يوجه حملة أخرى جعل على رأسها ابن أخيه الشاب الشجاع محمد بن قاسم الثقفي ، وذلك سنة ٧١١ م — سنة ٩٢ هـ . وكان عمره إذ ذاك لم يصل إلى العشرين ، ولكنه عرف بالصلافة والشجاعة . وقد جهزه الحجاج بجيش قوى حشد له فيه كل ما يحتاج إليه حتى الخيوط والمسال ، وعمد الحجاج إلى القطن المحلوج ، فنقع في الخل الأحمر الحاذق ، ثم جفف في الظل ، وقال لهم ، إذا صرتم إلى السند فإن الخل بها ضيق (أى قليل) فانقعوا هذا القطن في الماء ، ثم اطحخوا به واصطبغوا . وسار محمد بجيشه من جنوب فارس قريباً من الساحل ، حيث كانت سفن الحملة تحمل ما تحتاج إليه من العدة والمؤن .. حتى وصل الديبل ^(١) يوم جمعة ، ووافته سفنه التي كانت تحمل العتاد ، فخذق وركز الرماح تجاه المدينة ، ونشر الأعلام وأنزل الناس على راياتهم ، ونصب منجانيقاً تعرف بالعروس ، وكان بالديبل « بد » عظيم « والبد » فيما ذكروا منارة عظيمة في بناء لهم فيه أصنامهم (أى معبد) . وكل شيء عظموه من طريق العبادة فهو عندهم « بد » والصنم بد أيضاً . وقد أمر محمد بن قاسم أن يرمى البد بالمنجانيق فكسره ، ثم دار قتال انتهى باستيلاء المسلمين على المدينة ، ومكث محمد يقتل من فيها ثلاثة أيام ، وهرب عامل « داهر » عنها واخط للمسلمين بها ، وبنى لهم مسجداً ، فكان أول مسجد بهذه المنطقة .. ثم تابع محمد سيره والبلاد تخضع له صلحاً أو عنوة و« داهر » مستخف به لاه عنه ، حتى تلاقى الجمعان ، واقتتلوا قتالاً شديداً وكان « داهر » يركب

(١) الديبل كان موقعها قريباً من كراتش واندرست الآن . . جاء في صبح الإعمى

ص ٦٤ ج ١ أنها « الديبل » بلدة على ساحل البحر وفي تقويم البلدان بلدة صغيرة على ساحل ماء السند شديدة الحر وقال ابن سميع أنها في خليج السند أكبر قمر السند (موانبها) واشهرها

فيلا كعادة ملوك الهند ، ولكنه لم يمكث طويلا حتى قتل وانهمز أصحابه ،
وتبعهم المسلمون يقتلون كيف شاءوا ، وبذلك خلا الجو للمسلمين في هذه
البلاد التي كان يملكها « داهر » ، واتجه محمد بجيشه نحو الشمال يريد الرور ،
وكانت البلاد تقابله مستسلمة طالبة منه الأمان حتى وصل إلى « ملتان »
فقاتله أهلها ، ولكنهم انهزموا في النهاية بعد حصار شديد فقتل منهم « محمد »
المقاتلة وسبي الذرية كما سبي سدة البد ، وأصاب ذهباً كثيراً لا سيما ذلك
الذي كان يهدى إلى صنمهم ، وسيقت الغنائم إلى الحجاج ، فسر بها ورأى
كيف نجحت الحملة نجاحاً عظيماً فقال : شفيناعظنا ، وأدركنا ثأرنا ، وازددنا
ستين ألف درهم ورأس « داهر » (١) .

وفي الوقت الذي كان فيه قائدنا ينتقل من نصر إلى نصر ، مؤملاً أن يضم
إلى المملكة الإسلامية مملكة الهند الشمالية وعاصمتها « قنوج » جاءه خبر وفاة
عمه الحجاج سنة ٩٥ هـ ، وبعد قليل جاءه خبر وفاة الخليفة « الوليد بن عبد الملك »
— وكان سنده وسند عمه الحجاج — وتولية « سليمان بن عبد الملك » وكان
عدوا للحجاج وأسرتهم لضغائن قديمة بينهما . . فولى صالح بن عبد الرحمن
على العراق ، وكان الحجاج قد قتل أخاه ، وولى « يزيد بن أبي كبشة » السند ، وأمر
بعزل محمد بن قاسم ، وحمله إلى العراق مقيداً بالسلاسل مع معاوية بن المهلب
حيث حبس في سجن « واسط » حتى وافاه مصيره المحتوم بعد عذاب شديد
سلط عليه . .

ولم يكن لمهارة القائد الشاب ، ولا لبلائه في توسيع رقعة الدولة الإسلامية ،
ولا لانتصاراته الرائعة في الهند ، لم يكن لذلك كله من قيمة أمام حقد الخليفة
وواليه في العراق على الحجاج ، وإذا كان الحجاج قد مات ، ونجا الموت من
التشني ، فقد لقي ابن أخيه ما كان ينتظره لو بقي حياً . . وهكذا كانت الاحقاد
والأضغان تلعب بمصائر عظماء القادة والرجال ، ولعلنا نذكر بهذه المناسبة
أيضاً مصير قائدين عظيمين من قواد الدولة الأموية وهما قتيبة بن مسلم ، وموسى

ابن نصير بعد أن فتحا المغرب والمشرق ثم آل أمرهما إلى مثل ما آل
إليه أمر الشاب البطل محمد بن قاسم ، مما جعله يتمثل بقول الشاعر .

أضاعوني وأى فتي أضاعوا ليوم كريمة وسداد نغر
وقد حز هذا المصير في نفوس كثير من أهل الهند فبكوه كما بكاه
الشعراء وانطلقت ألسنتهم تراثه فقال أحدهم :

إن المروءة والسباحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوس لسبع عشرة حجة ياقرب ذلك سؤدد آمن مولد
أما هو فقد رثى نفسه وهو في سجنه حيث قال :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها رهن الحديد مكبلا مغلولاً
فلرب قينة فارس قدرعتها ولرب قرن قد تركت قتيلاً^(١)

على أن الذى يسترعى الإعجاب بشخصية هذا القائد الشاب ليس هو
هذه الفتوحات العظيمة فحسب ، بل حسن سياسته للبلاد المفتوحة ، وتدير
أموارها وتأليف قلوب أهلها ، وهذه هى ميزة القواد المحنكين رزقها هذا
القائد العربى الشاب .

يقول الأستاذ عبد الله يوسف فى كتابه « تكوين الهند » معلقاً على حملة
ابن قاسم « سر نجاح المسلمين فى هذه الحملة كان مزدوجاً ، فلقد كان الهنود
الذين يحاربونهم على حال من الفوضى والشقاق ، بينما كانت سياسة محمد بن قاسم
سياسة صلح وكياسة ، فلما استتب له الأمر ، وكل الأمور الادارية للهنود
نائبين عنه ، وكانت سياسة الحكم العليا خيراً مما جرت به التقاليد المحلية ،
ومما يؤثر عنه أنه لم يخن عهداً قطعه على نفسه ، ولقد كتب له الحجاج مرة
يشيد بمزاياه العسكرية ، ويمتدح له تجشم المشاق فى سبيل إسعاد الشعب
وتحسين أحواله ، ويثنى على سياسة الحكم التى اتبعها ، إذ حدد الخراج الذى

تدفعه كل قرية على حدة ، وشجع كافة طبقات الشعب على اتباع القانون ، والوفاء بما يقطعون لبعضهم من عهود فارتفعت بذلك سمعة الحكم الآدية،^(١) وكان من الطبيعي بعد ما جرى لهذا القائد الفاتح أن توجد الفرصة لمن يريد استرداد ملكه أو الرجوع عن الإسلام ، لذلك ثارت القلاقل في البلاد المفتوحة مما اضطر والى السند إلى الحرب من جديد لاسترداد ما فتحه محمد بن قاسم من قبل ، حتى كان عهد « عمر بن عبد العزيز » فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة ، على أن يظلوا في مراكزم ، ولهم ما للسليين وعليهم ما عليهم ، وقد سبقته سيرته الطيبة إلى أسماع هؤلاء ، فأسلم بعضهم وتسموا بأسماء العرب ، واستمر الحال هكذا في هذه البلاد : أمير يأتي من قبل الخلافة وأمير يذهب ، وكل منهم مشغول بتوطيد الحكم الإسلامي في السند .

وفي أيام أحد هؤلاء الولاة ، واسمه الحكم بن عوانة الكلبي بنى مدينة سماها « المحفوظة » وجعلها مأوى للمسلمين ، كما بنى مدينة أخرى سماها « المنصورة »،^(١) صارت مركز الولاة فيما بعد . .

ولما انتقل الحكم إلى الدولة العباسية انتقل حكم السند كذلك إليها ، وأرسل خلفاء الدولة العباسية الولاة إلى السند ، فجعلوها تابعة لهم ، واستقر الأمر لهم فيها ، وزادوا في عمارة « المنصورة » ، حتى إذا كان عهد أبي جعفر المنصور تم فتح كشمير والمثلتان . .

واستمر الأمر على ذلك حتى ضعف سلطان الخليفة العباسي ، وبدأت

(١) نقلا عن مذكرة الأستاذ حبيب أحمد .

(٢) ولكن جاء في صبح الاعشى ص ٦٣ ج هـ عن المنصورة : سميت بذلك لأن عمر ابن حفص المعروف بهزار مرد بناها في أيام أبي جعفر المنصور وسماها بلقبه . وقد صارت مع المحفوظة مدينتين بأدنين اليوم . جاء في تعليق للأستاذ حبيب : « ويقدر السير لإليوت أنهما كانتا واقعتين إلى شمال نهر السند بين الديبل والنور على الضفة الشرقية للنهر ، وعلى بعد منه ، وقد أثبتت الكشوف الأثرية صحة هذا التقدير .

الأطراف تنفصل عن مركز الخلافة في بغداد ، فانفصلت السند كذلك ، وقامت فيها حينئذ ولايتان أو إمارتان للمسلمين ، إمارة في الجنوب وعاصمتها «المنصورة» ، وإمارة في الشمال وعاصمتها «ملتان» ، وقد أتيح الاستقرار لهاتين الإمارتين بما توفر لهما من خيرات البلاد ، ومن التجارة الواسعة التي كانت بين السند ، وبين الشرق والغرب ، وكان من الطبيعي أن تزدهر العلوم والحضارة العباسية في هذه البلاد وتصبح ملجأً للفارين من بطش الحكام في بغداد ، حيث يجدون الأمن والسلام ^(١) .

وما لا شك فيه أن وجود المسلمين في أرض السند وفي ملتان وكشمير كان نقطة ارتكاز للدعاة المسلمين الذين كانوا يقرمون في حماس وصفاء نفس بنشر دعوة الإسلام في البلاد الهندية كلها ، مما كان له أثره — ولا شك — في انتشار الإسلام رويدا رويدا فيها .

على أن الفتوحات الإسلامية قد توقفت تماما ، وظلت الهند بعيدة عن أى غزو إسلامي ، حتى طرق بابها طارق قوى ، كتب بطرقاته هذه صفحات جديدة في تاريخ الهند والإسلام .

وكان هذا الطارق هو الفاتح المسلم الشجاع السلطان محمود الغزنوى .

الدول الإسلامية في الهند

الدولة الغزنوية

كان خليفة المسلمين في بغداد يمد ظله على كل البلاد الإسلامية شرقا وغربا، وشمالا وجنوبا، وحين كانت له قوة تؤيد ظله وتؤكد نفوذه تظل هذه البلاد خاضعة للكلمة العاصمة «بغداد» .

فلما ضعف الخليفة، وأصبح خاضعا لقواده من الأتراك والفرس اشترأت أعناق حكام الأطراف إلى الاستقلال، وكان هذا هو التفكير الطبيعي لولاة مغامرين يحبون السيطرة والحكم، والاستقلال بشؤونهم، فعملوا كذلك، واستقل كثير منهم، وكان الخليفة نفسه في حالة ضعف لا تمتد معها آماله في حكم هذه الولايات، وهو لا يستطيع حكم بغداد نفسها، فبقى له اسم الخلافة العباسية، يمنح بركاته ونفوذه الاسمي لكل من يسترضيه بشيء ما من حكام الولايات، وكان الحكام يلجئون إلى هذه البركات كمتأيد شعبي لنفوذهم وقرتهم الحربية، إذ كان الشعب المسلم لا يزال ينظر إلى الخليفة نظرة إجلال باعتباره من سلالة البيت النبوي الكريم .

والذي يعيننا الآن من أمر هذه الولايات ولاية قامت في أفغانستان، واتخذت من «غزنه» عاصمة لها، وقام عليها إسحاق بن «ألبكتكين»، واليا من قبل السامانيين الذين كانوا تابعين بالاسم للخلافة العباسية . . ولما توفي إسحاق اجتمع القواد والكبراء على اختيار «سبكتكين» ، لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته .

كان «سبكتكين» من غلمان «إسحاق بن ألبكتكين» ، والمقدم عنده في شؤونه، وعليه مدار أمره، واشتهر بالعقل والعفة، وجودة الرأي والصرامة . فلما ولي أمر «غزنه» ، حقق ظن الناس فيه ، وساس أمورهم سياسة حسنة، وجعل

نفسه كأحدهم في الحال والمآل^(١) وبذلك قامت الدولة الغزنوية السبكتيكية سنة ٩٧٧ م و ٣٦٦ هـ وظلت تحكم زهاء قرنين من الزمان . .

وعندما استقر له الأمر في «غزنه» فكر في أمر الهند، وبدأ يرسل جيوشه إلى أطرافها الغربية، وهنا رأى «جيبال» ملك الهند أن ينازله حتى يحد من شوكته، ولكنه هزم، وتعهّد بدفع غرامة، ثم نكث عهده، فسار إليه سبكتكين وهزمه مرة ثانية، فعظم شأنه وعلت هيئته في النفوس .

وكان ولده «محمود» عضده وساعده الأيمن في كل حروبه، سواء مع الهند أو مع غيرها من الولاة المسلمين حول إمارة «غزنه»

وبعد ملك دام عشرين سنة. توفي ناصر الدين سبكتكين (سنة ٥٣٨٧ هـ ٩٩٧ م) بعد أن عهد بالملك من بعده لابنه الصغير إسماعيل، وكان محمود غائبا عن العاصمة، فقدم إليها، ودارت بينه وبين أخيه مناوشة انتهت بتغلبه وقبضه على ناصية الحكم بعد نحو سبعة أشهر من وفاة أبيه، ولكنه كان كريما مع أخيه فعامله معاملة حسنة كريمة . .

محمود بن سبكتكين الغزنوي

٥٣٨٧ هـ ٩٩٧ م إلى ٥٤٢١ هـ ١٠٣٠ م

محمود بن سبكتكين أو محمود الغزنوي — كما اشتهر في التاريخ — اسم لامع يذكره التاريخ بأعماله وبطولاته، كما يذكره كل هندی مسلم وغير مسلم، باعتباره الرجل الذي أسس بشجاعته وجراته حكما إسلامياً في الهند، ظل يزدهر ويقوى من بعده على يد عدة أسر نحو ثمانية قرون ونصف قرن، حتى انطوت صفحته على يد الإنجليز نهائياً سنة ١٨٥٧ م . .

(١) تاريخ الأمم للخضري ج ٣ ونزعة الخواطر للعلامة عبد الحمي الهندي ج ١ ص ٧١ (٦ الهند)

ولد محمود سنة ٨٣٥٧ م ٩٦٧ م^(١)، وارتقى أبوه عرش الملك في غزنه وهو صغير لم يعد العاشرة من عمره، فشب واكتمل شبابه في رعاية أبيه، وأتيح له أن يشارك في الحروب الكثيرة التي قام بها أبوه حتى اشتهر أمره، وسمى سيف الدولة، كما لقب أبوه بناصر الدولة ..

ولما انتصر على أخيه إسماعيل بعد شهر من وفاة أبيه، وامتلك زمام الحكم بدأ يتجه إلى من حوله من أمراء المسلمين الذين يخشى منهم على مملكته، فقامت بينه وبينهم حروب انتهت بانتصاره حتى على الدولة السامانية التي كان يتبعها اسمياً، فتخلص من هذه التبعية، وكتب للخليفة العباسي يلتمس منه الاعتراف به أميراً على غزنه، فأرسل إليه الخليفة القادر يقره أميراً عليها، وأنعم عليه بالخلع الخليفية، ثم بعد مدة أنعم عليه بلقب أمين الملة، ثم بلقب يمين الدولة بعد انتصاراته بالهند .

كان محمود طموحاً جريئاً، وكان مثله غيوراً، وقد رنى ببصره إلى السباحات التي يرضى فيها طموحه وغيرته، ولم يملك طويلاً حتى اتجه إلى الهند التي كان قد طرق أبوابها، وخاض حروباً مع بعض ملوكها في عهد أبيه .. ففيها يجد ما يرضى طموحه وغيرته الإسلامية .. فهي بلاد واسعة مترامية الأطراف، يحكمها ملوك مختلفون، ويسكنها أناس لا يزالون يعكفون على أصنام لهم . فهي إذن ساحة الجهاد التي تناسبه ..

ولقد قضى محمود الفترة الأولى من حكمه يحارب أمراء مسلمين، وكأنه وجد عمله هذا في نهايته أمراً غير مرغوب فيه، فاتجه للهند على يكفر عما كان بينه وبين المسلمين من حروب، ونجد هذا الإحساس واضحاً حين أعلن أنه يريد أن يغزو الهند غزوة تكون كفارة لما كان منه من قتال المسلمين^(٢)، ونتيجة لهذا أمضى محمود نحو خمسة وعشرين عاماً في حرب

(١) يقول ابن الأثير أنه ولد في يوم عاشوراء سنة ٨٣٦٠ .

(٢) ابن الأثير ص ٥٨ ج ٩ .

وجهاد ، وفتح لبلاد الهند ، ورفع للواء الإسلام فوق أراضيها ، فحقق بذلك أمنيته ، وأخذت شهادة التوحيد تتردد صداها في بلاد مترامية الأطراف ، بينما تتداعى الأصنام والهياكل واحداً بعد الآخر ، وتقوم على أنقاضها وبدلاً منها بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، وكان السلطان محمود كلما غزا غزوة ، وأحرز انتصاراً وجمع غنائم رجوع إلى عاصمة ملكه «غزنه» ، وعلى جبينه أكليل النصر ، وبين يديه الغنائم الوفرة يوزعها على شعبه ، ويستعين بها في مشاريعه وإصلاحاته العديدة ، ويستريح ويأمر بالحكم ، بينما قواده ونوابه يوطدون سلطانه في الهند ، ثم يعود من جديد إلى ميدان الجهاد ليحرز نصراً ونفراً ، ويضم بلاداً جديدة إلى مملكته التي تتسع يوماً بعد يوم . .

* * *

بدأ محمود غزواته للهند في سنة ٥٣٩٢هـ - ١٠٠١م حيث التقى بالملك «چييال» في المحرم من هذه السنة ، وكانت عدته من المحاربين نحو خمسة عشر ألفاً ، أما «چييال» فكان معه نحو ١٢ ألف فارس ، ٣٠ ألفاً من المشاة ، ٣٠٠ فيل وبالرغم من كثرة عدد العدو ، واستماتته في القتال فإن «محموداً» تغلب عليه ، وأسر «چييال» مع ١٥ رجلاً من أبنائه وأقربائه بعد أن أعمل القتل في جنوده . .

وقد غنم محمود غنائم كثيرة ، منها قلادة ثمينة كانت في عنق چييال ، يقول عنها ابن الأثير (١) ، إنها كانت من الجوهر العديم النظير ، قومت بمائتي ألف دينار وأصيب أمثالها من أعناق الأسرى قدرها المؤرخ فرشته (٢) بنحو خمس

(١) ص ٥٩ ج ٩ (٢) ج ١ واسم هذا المؤرخ الهندي «الحكيم محمد قاسم البيجاپورى» واشتهر تاريخه باسم تاريخ فرشته في أربعة أجزاء كتبها بالفارسية وترجمت للأوردية ، ويمتاز بالأسهاب في ذكر الجزئيات عن تاريخ الهند . . واسم الكتاب في الأصل «كلزار ابراهيمي» فرغ من تصنيفه سنة ١٠١٥هـ وقد خدم المؤلف في مملكة أحمد نكر بالجنوب ، ثم انتقل إلى إبراهيم عادل شاه ملك بيجاپور وصنف له هذا الكتاب وكان شيعياً من كبار العلماء زهرة الخواطر ج ٥ ص ٣٨٥ مختصراً

عشرة قلادة من الجواهر النفيسة قدرت كل واحدة منها بنحو ١٨٠ ألف دينار ، كما استولى محمود على كثير من الأسرى . . ويقول ابن الأثير ، فلما فرغ محمود من غزواته أحب أن يطلق «چييال» ، ليراه الهنود في شعار الذل ، فأطلقه بمال قرره عليه فأدى المال . ومن عادة الهنود أن من وقع فيهم أسيراً في أيدي المسلمين لم تنعقد له بعدها رياسة ، فلما رأى «چييال» حاله خلق رأسه ، وألقى بنفسه في النار . .

أما محمود فبعد استيلائه على «بشاور» ، سافر إلى «بهندا» أو «ويهند» فحاصرها حتى استسلمت ، ثم رجع من الهند في المحرم سنة ٣٩٣ هـ ١٠٠٢ م .

* *

وفي سنة ٣٩٥ هـ ١٠٠٥ م رجع محمود إلى الهند ليغزو «بهاطيه» بجانب «ملتان» ، وكان واليها «راجاجي راو» أو «بحيرا» ، كما يسميه ابن الأثير ، وكانت مدينة محصنة يحيط بها خندق عميق ، وكان واليها مغترأ بكثرة جنوده وأفياله ، ويظهر عدم المبالاة بمحمود ونوابه ، فلما التقى الجمعان استمرت الحرب سجالات ثلاثة أيام ، ثم انتهت بانتصار محمود ، وفرار الوالى بما بقى من جيوشه إلى داخل المدينة ، فسبقهم المسلمون إلى مداخلها واستولوا عليها ، وفر الوالى وجماعة معه إلى صحراء السند ، فتعقبه المسلمون ، حتى إذا وجد نفسه سيقع في أيديهم قتل نفسه ، وقطع المسلمون رأسه ، وأرسلوا به إلى محمود ، كما قتلوا كل من كان معه ، وتم لمحمود النصر ، وغنم غنائم كثيرة من الأموال والأفيال ، وأقام بها مدة يصلح شئونها ، ثم رجع إلى غزنة بعد أن ترك بالهند من يرعى أمرها ، ويعلم الناس الإسلام فيها . .

* *

وفي سنة ٣٩٦ هـ — ١٠٠٥ م . توجه محمود لفتح «مولتان» ، وكان حاكمها المسلم الشيخ «حميد لودى» ، مطيعاً له ، ولما توفي استخلف «أبا الفتوح» ، الذى اشتهر عنه خبث اعتقاده وإلحاده ، ودعوة الناس إلى الألحاد ، واستجابهم إليه ، فرأى محمود أن يجاهده ليرجعه عما هو عليه ، فسار إليه

واضطرب قبل أن يحاربه أن يؤدب « أمنديال » ، أو « أنديال » ، كما يسميه ابن الأثير ، وكان واليا على لاهور ، وذلك لاستنجاد أبي الفتوح به ، وقيامه لنصرة ومنازلته لجيوش محمود ، وكانت النتيجة إنهما جيوشه وفراره حتى بلغ كشمير . فتركه محمود وسار إلى « مولتان » ، فلما رأى واليها ما أصاب هذا الملك القوى داخله الرعب ، وأعلن الاستسلام لمحمود ، وندم على ما فعل ، ورجع عن إلحاده ، ورضى بأن يرسل إلى السلطان عشرين ألف دينار كل سنة ، فقبل محمود منه ذلك وأقره على ولايته « مولتان » .

هذا ما يقرره المؤرخ « فرشته » ، أما ابن الأثير فيقول إن محمودا اضطرب للحرب « أنديال » ، لأنه لم يسمح لمحمود بالمرور من أراضيه ، كما يقول : إن أبا الفتوح لم يستسلم ، بل نقل أمواله إلى « سرنديب » ، وترك مولتان فوصاها محمود ، وحاصرها حتى افتتحتها عنوة ، فوجد أهلها في ضلالهم يعمهون ، وألزم أهلها بعشرين ألفا عقوبة لهم ..

* * *

ويضيف ابن الأثير أن السلطان الغزنوي سار بعد ذلك في هذه السنة سنة ٣٩٦ هـ إلى قلعة « كواكير » ، وكان بها ستمائة صنم ، فافتتها وحرقت أصنامها ، فحرب صاحبها إلى قلعة « كالنكر » ، فسار خلفه ، وكانت حصنا كبيراً يسع خمسمائة ألف إنسان ، وفيه خمسمائة فيل ، وما يكفي الجميع مدة ، فلما وصل إليها محمود حاصرها ثلاثة وأربعين يوماً ، ثم بلغته أنباء سيئة عن خراسان ، فقبل ما عرضه عليه الوالي من الصلح على خمسمائة فيل وثلاثة آلاف من الفضة^(١) ، ولبس الوالي الهندي خلعة يمين الدولة ، وطلب أن بعفيه من شد المنطقة ، فلم يستجب له ، فشدّها وقطع خصره ، وأرسلها إليه

(١) مرفت أثناء إقامتي بالهند أن المن أربون سيرا أي ثمانون رطلا ، ووجدت في التعليق على رحلة ابن بطوطة في الهند أن المن رطل وامل ذلك كان فيما مضى وهو ما يميل إليه العقل في مثل حالتنا هذه ..

توثقة لمهده فيما يعتقدونه ، وعاد يمين الدولة إلى خراسان لأصلاح الأمور بها ..

* * *

وفي سنة ٣٩٩ هـ ١٠٠٨ م ، خرج محمود من غزنه لاختضاع « أنديال » ، نهائيا ، وكان قد حاربه وتعقبه حين سار إلى مولتان ، ولكنه فر إلى كشمير ، وتركه محمود ، وسار إلى مولتان .. ولما علم أنديال ، بخروج محمود أسقط في يده ، ثم رأى أن يرسل ملوك الهند ، يستعين بهم لصد هذا الغازي المسلم الذي يعتبر خطراً عليهم جميعاً ، فاستجاب له ملوك « أجين وگواليار وكالنغر وقنوج . وأجمير ، ودھلي ، وأرسلوا جيوشهم إلى البنجاب ، وعسكر الجمعان في صحراء بشاور ، وكانت جيوش الهندوسيين تتزايد يوماً بعد يوم .

وهنا نجد عملاً جليلاً في معناه تقوم به النساء المسلمات ، فقد تبرعن بحلین — كما يروى ابن الأثير — ، وبما استطعن جمعه من المال إلى الجيش الاسلامی في الهند ، ورأى محمود إزاء تكاثر العدو كل يوم أن يحتاط في الحرب ، فحفر الخنادق ثم تقابل الجيشان ، ودارت المعارك العنيفة ، وابتلى المسلمون وزلزلوا زلزالاً شديداً ، لكن الله أراد لهم النصر في النهاية ، فأن الفيل الذي كان يركبه « أنديال » ، أصابه زعر أثناء المعركة ففر به ، ورأى جنوده أن ملكهم قد فر ، فتابعوه وتبعهم المسلمون يعملون فيهم القتل حتى قتلوا ثمانية آلاف منهم ، ورجعوا إلى محمود بما حملوه من غنائم كثيرة .

* * *

ثم سار محمود إلى قلعة « نگرکوت » ، أو « بهيم » ، واستولى عليها ، وكان الهندوس قد جعلوها مركزاً وخزانة لسنمهم الأعظم ، ينقلون إليها أنواع الجواهر وأنفسها تقرباً إلى آلهتهم ، فاجتمع فيها على طول الأزمان ما لم يسمع بمثله عند أحد الملوك من النقرود والآلئ واليواقيت ، وقد اضطر الهندوس للتسليم ، لما رأوه من حرص المسلمين على القتال واستبسالهم فيه ، وفتحوا

باب القلعة ، وصعد يمين الدولة إليها مع بعض خواصه ، فأخذ منها من الجواهر ما لا يحصى ، ومن الدراهم تسعين مليوناً ، ومن الأواني الذهبية والفضية سبعة آلاف وأربعمائة مئناً .

وذكرها وفرشته ، هكذا . ٧٠ ألف دينار من الأواني ، والحلى سبعة مائة من من الذهب والفضة ، وماتى من من الذهب الخالص ، وألفين من الفضة الجيدة وعشرين مئناً من اليواقيت والأحجار الثمينة . استولى عليها كلها ، ورجع بها إلى غزنة ، حتى إذا وصل إليها بسط كل غنائمه أمام الناس الذين أخذوا يفدون من كل مكان ليروا هذه الغنائم العجيبة والخيرات الوفيرة الثمينة ، وبقي هذا المعرض هكذا ثلاثة أيام ، وقد اجتمع عنده رسل الملوك ، وأخذ يقسم هذه الأموال على الفقراء والمساكين وغيرهم ممن أراد أن يؤلف قلوبهم .

ولاشك أن مثل هذا المعرض وما حواه من نفائس كان بجانب الروح الدينية أكبر حافز على التطوع فى جيش هذا الغازى المنتصر ، والذهاب إلى أرض الهند ، حيث يجدون النصر والذهب والجواهر الثمينة . .

* * *

وفى سنة ٥٤٠٢ هـ — ١٠١١ م كما يذكره فرشته أو ٥٤٠٥ هـ كما يذكر ابن الأثير توجه محمود لغزو «تهانسير»^(١) لما سمعه من أن الهندوس يتخذون فيها صنما يعتقدون قدم وجوده ، ويحيطونه بضروب التعظيم ، فأراد محمود أن يقضى على هذا الصنم ، ويذكر ابن الأثير أنه لقي فى طريقه كثيراً من ضروب المشقات ، لكنه استطاع التغلب عليها والاتصال بهدوء والانتصار عليه . أما فرشته فيذكر قصة يحسن أن نوردها ، لما تنطوى عليه من دلالة طيبة ، فقد ذكر أن أحداً الملوك الهندوس — وكان على صلح ومودة مع محمود — كتب إليه حين علم بتوجهه إلى تهانسير يقول له بعد أن عرض إخلاصه وطاعته

(١) يذكرها ابن الأثير ص ٨٤ ج ٩ باسم تانسير . ولكن الاسم الأول هو ادى ينطقونه الآن .

إننى أعرف أن هدم المعابد الهندوسية شيء تتقربون به إلى الله ، وقد حصلتم على هذا التقرب بما هدمتم من معابد ، لاسيما فى قلعة «نجر كوت» ، ونحن على استعداد لدفع ما تريدون من مال وجواهر ، وأرسل لكم زيادة على ذلك خمسين فيلا كل عام ، على أن تترك المعابد ولا تهدمها .

فأجابه محمود: إننا نحن المسلمين نعمل أولا على نشر الإسلام وهدم معابد الأصنام ، ونعتقد أننا سنجد على ذلك أضعافا مضاعفة من الأجر والثواب عند الله ، ولا حاجة لنا إلى المال . .

ولما سمع ملك دلهى عن قصد محمود هدم هذا المعبد ، كتب إلى ملوك الهند يستحثهم على الوقوف فى وجه هذا الفاتح المعتدى على أصنامهم ، فلما عرف محمود ذلك أسرع فى الهجوم قبل أن يتجمعوا ، فهدم المعبد وكسر ما فيه من أصنام إلا صنما كبيرا أرسله كما هو إلى « غزنه » حيث ألقاه فى الطريق يمر عليه الناس ، ويطئون به بأقدامهم .. وقد ذكر المؤرخون أنه غنم من هذا المعبد ياقوتا كان وزنه ٤٥٠ مثقالا عاده مع الغنائم الأخرى إلى غزنه ظافرا منتصرا ، وقد صارت غزنه لكثرة ما فيها من الأسرى الهندوس كأنها مدينة هندية . .

* * *

وفى سنة ٤٠٦ هـ ١٠١٥ م ، توجه يمين الدولة إلى كشمير ، ويختلف المؤرخون فى نتيجة هذه الحملة ، فالمؤرخ « فرشته » يذكر أنه لم يستطع فتحها لكثرة الثلوج وشدة البرد فرجع عنها . أما ابن الأثير فيذكر أن صاحب كشمير قابله حين اقترب منه وأسلم على يديه .

* * *

ثم سار محمود إلى الشرق يتابع انتصاراته وإخضاع الولاة فى طريقه إلى « قنوج » ، وكان فى شعبان سنة ٤٠٧ هـ ١٠١٦ م ، أما فرشته فيقول إنه سار من غزنه فى سنة ٤٠٩ هـ ١٠١٧ م إلى « قنوج » ، ويتفق الاثنان على أن ملكها

على عظمته وهيبته بين ملوك الهند لم يستطع مواجهة محمود ، بل ترك عاصمته وفر ، فدخلها محمود وكسر أصدانها وغنم ما فيها من أموال ، وإن كان فرشته يذكر أنه حضر إليه خاضعا فعفا عنه وأدخله في خواصه ، وقيل إنه بعد ذلك أسلم . . . ثم أخذ محمود بعد ذلك يوالى زحفه وانتصاراته فاستولى على قلعة « ميرت » و « گلجند » و « مترا » التي كانت تابعة لملك دلهي ، والتي بهرته بما فيها من غنائم ثمينة ، وما كانت عليه من المباني الفخمة العالية ، حتى كتب رسالة إلى غزنة يصفها ويذكر عجائبها . ثم استولى على قلعة « جنديال » ثم قلعة « شروه » وكان صاحبها « جندرائي » .

وهكذا انتقل يمين الدولة من نصر إلى نصر ، لم يقف أمام أي حصن ، ولم يأبه لأية صعوبة ، ورجع إلى غزته محملا بالغنائم ذات الأرقام الخيالية من الجواهر والذهب والفضة والأفيال والأسرى . .

ولما عاد من هذه الغزوة أمر ببناء جامع غزنة فبنى بناء لم يسمع بمثله حتى قيل إنه أنفق ما جمعه في هذه الغزوة على بنائه ، كما أمر ببناء مدرسة كبيرة أمام المسجد كانت مكتبتها تحوى آلاف الكتب النادرة التي لا توجد إلا في غزنة . .

وفي سنة ٤١٠ هـ ١٠١٩ م كتب محمود إلى الخليفة العباسي في بغداد يخبره بفتوحاته في الهند ، فاتبه الخليفة وأعلن هذا النبأ السار على الناس ، فشاركوه ابتهاجه ، وعقدت المجالس المتعددة لإعلان هذا الابتهاج ، والدعاء لمحمود الذي اعتبروه مجددا لعهد الصحابة في فتح البلاد ونشر راية الإسلام ، وكان ذلك بمثابة عيد عظيم في بغداد ، وأنعم عليه الخليفة بالألقاب والخلع ^(١) .

وفي سنة ٤١٣ هـ ١٠٢٢ م توجه محمود إلى « گواليار » جنوب دلهي بمسافة كبيرة ، فحاصر قلعتها عدة أيام حتى اضطر ملكها إلى الصلح معه وتقديم الأموال إليه . .

في سومنات :

ولنترك هذا لننتقل إلى غزوة أخرى هامة من غزوات البطل الناجح .
ففي سنة ٤١٦ ١٠٢٥ م . توجه محمود إلى « گجرات » وكان يقصد بالذات
« سومنات » ومعبدها الشهير في الهند على شاطئ « بحر العرب » (١) . .

كان في هذا المعبد صنم يعرف بسومنات ، وكان من أعظم أصنام الهند
يحجون إليه كل ليلة خسوف ، وتزعم الهنود أن الأرواح إذا فارقت أجسادها
اجتمعت عنده ، لينشئها من جديد في جسم آخر على حسب ما كانت عليه من
خير أو شر ، وذلك على أساس فكرتهم في التناسخ . وكان « شيفا » عندهم
هو إله الحياة والتبديل ، وكان سومنات أصبح عندهم هو القائم بهذا العمل ،
وكان يدعون أن المد والجزر الذي يحدث عندهم في البحر إنما هو عبادة
البحر له على حسب ما يستطيع ، وكان المعبد مبنيًا على ست وخمسين سارية
من الساج المصنوع بالرصاص ، أو بصفائح الذهب المرصعة بالأحجار الكريمة
كما يقول « چوستاف لوبون » ، أما سومنات الصنم نفسه ، فكان من حجر
طوله خمسة أذرع ، ثلاثة متدورة ظاهرة ، واثنان في البناء ، وكان في حجر مظلمة
تضيئها قناديل الجوهر الفائق . . كما كان عنده سلسلة ذهبية وزنها مائتا من ،
وعنده خزانة فيها عدة من الأصنام الذهبية والفضية ، وعليها الستور المعالقة
المرصعة بالجواهر ، كل واحدة منسوبة إلى عظيم . .

فقد كان الهندوس يحملون إليه كل نفيس ، ويغدقون على سدنته ، وله
من الوقف ما يزيد على عشرة آلاف قرية ، فاجتمع في البيت من نفيس
الجواهر ما لا تحصى قيمته ، وكان من شدة تعظيمهم له يحملون له الماء من
نهر « گنگا » المقدس على بعد مئات الأميال ، ويكون عنده من البراهمة كل

(١) وقد رسمها المرحوم الأستاذ حبيب في خريطة بكتابه ص ٨ بين دلهي وعليكره
في الشمال ، وهو خطأ أظن أن منشأه هو وجوه محطة قيل عليكره اسمها قريب الشبه من
هذا الاسم ، وقد لفت التشابه نظري حين مررت عليها . .

يوم ألف رجل لعبادته وتقديم الوفود إليه . وثلاثمائة رجل يملقون رموس الزوار ولحام ، وثلاثمائة رجل وخمسمائة أمة يغنون ويرقصون . ذلك هو معبد سومنات ..

ولقد كان موقعه في أقصى جنوب الكجرات على شاطئ بحر العرب ، والطريق إليه من الشمال صعب تحفه الأخطار .. فما الذى حمل محمود على ركوب هذه الأخطار ، والمجازفة بحيشه في عبور الصحراء ، وقطع المسافات الشاسعة ؟

هنا يحدثنا المؤرخون أن الأخبار وصلت إلى سمحه ، أن الهندوس يحكون فيما بينهم كلها هدم معبد آ وحطم صنما أن « سومنات » ، غاضب على هذا الصنم ، ولو كان راضياً عنه ما استطاع محمود أن يحطمه ، ولهلك قبل أن يبلغه ، فعزم على غزوه وتحطيمه ، ظناً منه أن الهندو إذا فقدوه ، ورأوا ما حل به عرفوا كذب ادعائهم وفاقوا إلى رشدهم ، ورجعوا عن عبادة الأصنام ودخلوا في الإسلام .. وهكذا سيرته عقيدته الدينية التي تستسهل الصعب ولا تعرف الخطر ..

فسار من غزوه في شعبان سنة ٤١٦ هـ ١٠٢٥ م ومعه ثلاثون ألف فارس سوى المتطوعين ، وقبل أن يخوض الصحراء تزود لها ، وزاد على حاجته عشرين ألف جمل تحمل الماء والزاد ، فاجتاز الصحراء في سلام حتى وصل إلى كجرات ، ومنها إلى سومنات مستولياً على البلاد والقلاع التي في طريقه دون مشقة ..

وكان وصوله إليها في منتصف ذى القعدة سنة ٤١٦ هـ ١٠٢٦ م . فوجد حصناً عالياً منيعاً مبنيّاً على ساحل البحر ، ورأى أهل سومنات قائمين على الأسوار يتفرجون على المسلمين ، وكأنهم ينتظرون مصيرهم المحتوم على يد سومنات ، فقد كانوا واثقين أنه سيقطع دابرهم ، وسيأخذ بثأر الأصنام منهم وكانوا يقولون : تعالوا يا معشر المسلمين ، لقد دعاكم سومنات ليهلككم جميعاً ، ويأخذ بثارات الأصنام التي كسرتموها .

ولكنهم ما لبثوا أن أفاقوا من أوهامهم ، وسيوف المسلمين تحصدهم حصداً ، وهنا يتقدم جماعة منهم إلى سومنات يلوذون به ، ويسألونه النصر ويعفرون وجوههم ، ولكن برغم ذلك كثر القتل في الهنود حتى انهزموا ، ولجأوا إلى المعبد يدافعون عنه ، وكانوا يدخلون إلى صنمهم يعانقونه ويبيكون ، ثم يخرجون للقتال ، وكان قتالا دمويًا حاراً ، لعبت فيه العقيدة دورها في دفع أهلها إلى الاستبسال في الدفاع أو الهجوم ، ولكن استبسال الهنود لم يجد نفعاً أمام المسلمين ، بل دفعهم إلى الفناء جماعة بعد جماعة ، حتى لم يجدوا بداً من الفرار ، وترك معبدهم في يد المسلمين يفعلون به ما يشامون ، ولاذوا بالمراكب ، ولحقهم المسلمون فقتلوا بعضاً وأغرقوا بعضاً . وهكذا تم النصر للمسلمين ، واستولى محمود على كل ذخائر المعبد ومجوهراته بعد أن هدمه وحطم صنمهم . وقد توسل الكهنة ألا يمس معبودهم ويعطوه ماشاء من مال ، ولكنهم أبى ، فإنه لم يخرج لطلب المال ، وإنما خرج لإعلاء كلمة الله وهدم هذه الأصنام التي تعبد من دون الله .

وقد قدر ابن الأثير قيمة ما غنمه محمود من هذا المعبد بعشرين ألف ألف دينار (٢٠ مليوناً) . أما الصنم فقد كسره محمود ، وأخذ بعضه وجعله في عتبة المسجد العظيم الذي بناه في غزنه ، كما أخذ أبواب سومنات ، وحملها معه إلى عاصمة ملكه « غزنه » .

وبمقدار ما فرح المسلمون وهللوا وكبروا لتحطيم هذا المعبد والقضاء على أوهام الهندوس حوله ، استولى الحزن والكمد على نفوس الهنود ، وبق أثره البعيد الغور في نفوسهم جيلاً بعد جيل .

ولقد رأينا حكومة الهند بعد أن ظفرت باستقلالها تعتمد إلى إعادة بناء هذا المعبد من جديد ، وافتتحه رئيس الجمهورية في احتفال عظيم (١) .

(١) والمسلمون يتناقضون فيما بينهم أن كل مولود في باكستان ولد في يوم افتتاح هذا المعبد سمي باسم « محمود » كما يقولون لأن أحد الشراء قال شعراً يناحى فيه محمود الغزنوي بهذه المناسبة ، هكذا سمعت من الكثيرين ..

وفي طريق محمود إلى غزنه أخضع بعض البلاد وضمها إلى مملكته الواسعة ..
وقد ظل محمود بعد هذا يواصل جهاده وحروبه، سواء أكان في الهند
أم في خراسان وغيرها، حتى مرض وظل مرضه سنتين ، ومع ذلك لم يحتجب
عن الناس ، وظل يباشر أمور مملكه حتى توفي قاعداً في شهر ربيع الثاني
سنة ٤٢١ هـ — أبريل سنة ١٠٣٠ م بعد أن أوصى بالملك لابنه الصغير
محمد ، تاركا ولده الكبير مسعود ، كما فعل أبوه من قبل معه ..

وكان قد أقام أحمد بن نياتكين نائباً عنه ، وقائد الجيوشه في الهند ..
وقد دفن بغزنه في قبر يحيط به مسجد عظيم ، وقد احتفظ فيه ببعض آثاره
من الهند منها القضيبي الذي كان يحطم به الأصنام ، وكذلك أبواب سومنات ،
وظلت هذه الآثار باقية في أفغانستان حتى سنة ١٨٣٢ . فاختفى القضيبي ،
ونقلت الأبواب الأثرية إلى الهند حينما غزا الانجليز الأفغان سنة ١٨٣٩^(١) ..

محمود في نظر التاريخ :

مات محمود وأصبح في ذمة التاريخ ، وشغل المؤرخون وتعبوا في تتبع
أعماله وسردها .. وما دونوا كل أعماله حتى ليقول ابن الأثير بعد أن كتب
الكثير العظيم عنه ، هذا هو بعض ما بلغنا عن أعماله وفتوحاته ..

وإن الإنسان ليدعش حين يقرأ ما قام به ، كيف استطاع أن يقوم
بكل هذا ، ويقطع كل هذه المسافات ، ويفتح هذه الفتوحات ؟ ولكن هكذا
يكون النادرون من عظماء الرجال ننظر إليهم وكأنهم عمالقة ، نسرح ببصرنا
إلى أعلى فيأخذنا الدوار من طول النظر .. وما بلغنا الإحاطة بمن
ننظر إليه ..

(١) مذكرة الأستاذ حبيب نقلا عن الأستاذ عبد المجيد العبد . ولكن أخبرني
مولانا حفظ الرحمن مدير جمعية علماء الهند وعضو البرلمان المركزي في دلهي ، أن الانجليز نقلوه
إلى بلادهم لا إلى الهند ..

يقول ابن الأثير عنه^(١): كان يمين الدولة عاقلاً ديناً عنده علم ومعرفة ، صنّف له كثير من الكتب في فنون العلم ، وقصده العلماء من أقطار البلاد ، وكان يكرمهم ويقبل عليهم ويعظمهم ويحسن إليهم ، وكان عادلاً كثير الإحسان إلى رعيته والرفق بهم ، كثير الغزوات ملازماً للجهاد ، وقد ذكرنا منها ما وصل إلينا على بعد الدهر . . ويقول المؤرخ « فرشته » : اتفق المؤرخون على أن السلطان محموداً كان جامعاً للمحاسن الدينية والدنيوية ، كما عرف بسياسته وشجاعته وعدله ، وكان أكثر غزواته لإشاعة الإسلام ، وإقامة العدل واستئصال الظلم ، وكان من أشجع الملوك ، يمشى إلى الحروب كالسيل لا يبالي الخطر بل يركبه ..

ثم يقول ومع هذا فقد اتهمه بعض المؤرخين بالحرص والطمع ، وهذا غير صحيح . حقيقة إنه كان يحب أن يجمع المال ، لكن لا يلدخره ، بل لينفقه على مصاريفه من الفقراء والمساكين والعلماء والشعراء . فقد اجتمع في بلاطه من العلماء والشعراء وأهل الفن ما لم يجتمع عند غيره ، وما كان يمكن هذا إلا بالبذل والعطاء^(٢) . وقال الأستاذ عبد الله يوسف في كتابه « تكوين الهند »^(٣) .

لقد وصف المؤرخون السلطان محمود الغزنوي بأنه متعصب طامع متعشش للدماء مغرم بالتدمير ، ولكنها صورة تبعد عن حقائق التاريخ كل البعد ، فقد كان في سبيل الله محارباً موهوباً ، نصب نفسه للقضاء على عبادة الأصنام ، وقد رأى والده ، فيما يرى النائم الرسول عليه السلام ، وهو يقول أن مملكة غزنة ستكون من نصيبه جزاء له على حسن صنيعه ، وأضاف

(١) جزء ٩ ص ١٣٩ .

(٢) ج ١ الطبعة الأوردية ،

(٣) بقلا عن مذكرة الأستاذ حبيب ، وأعتقد أن هؤلاء المؤرخين الذين يشيرونهم مؤرخون غزنويون أو غير مسلمين ، يرون في تحطيم الأصنام تعصباً وغراماً بالتدمير .

الرسول إلى ذلك قوله « لا تجعل جبروتك يطنى على فضائك ، وثابر على إسداء الخير للإنسانية » . وقد كانت هبات السلطان محمود لشاعره الفردوسى أقل مما كان الشاعر يتخيل — بخياله الخصب — أنه سيكون من نصيبه ،^(١) ولكن السلطان محمود كان سخياً فى عطائه لرجال بلاطه من العلماء ، وكان أكثر ذلك سخاء فى هباته للمسكتبة والمتحف ، والمساجد العديدة والمباني العامة التى شيدها فى عاصمة مملكته .

وجاء فى كتاب حاضر العالم الإسلامى^(٢) .

يعترف مؤرخو الأفرنج بأن محمودا الغزنوى لم يكن فاتحاً غازياً على المسكنة من الجهة العسكرية فقط ، بل إنه كان سلطاناً عاقلاً أديباً كيساً جامعاً بين دولتى السيف والقلم ، وقد ضم بلاطه الفارابى والفردوسى والبىرونى . وقد كان السلطان محمود هو الذى اقترح على الفردوسى نظم الشاهنامه ، ووعدته بأن يكافئه على كل بيتين قطعة من الذهب ، إلا أن ذلك أثار عليه غضب حساده ، فوشوا به إلى السلطان ، فبدل الفضة بالذهب ، فغضب الفردوسى وفر وهجاه هجواً مراراً ، وندم السلطان وأمر من يرجعه إليه ، ولكن الفردوسى كان قد مات . . . وقد نبغ فى أيامه بديع الزمان الهمذانى ، وكان عامله هلى هراة وأبو بكر الخوارزمى .

وجاء فى نزهة الخواطر^(٣) .

كان السلطان من أعيان الفقهاء له مؤلفات . منها التتريد فى الفروع ، وهو مشهور فى بلاد غزنة فى غاية الجودة ، وكثرة المسائل ، وبه نحو ستين ألف مسألة ، ولاندرى متى تفرغ لمثل هذا التأليف ولكن لا عجب فقد كان صاحب

(١) يشير بذلك إلى حادثة الفردوسى مع السلطان التى سيأتى ذكرها تلاحن كتاب حاضر العالم الإسلامى . . .

(٢) ص ٢٨٩ ج ٤ للامير شكيب أرسلان (٣) ج ١ ص ٩٠ للعلامه عبد المحي الحسينى الهندى .

السيف والقلم . . ويقول چوستاف لوبون^(١) .

« وماتم على يد محمود الغزنوى من فتح فذو طابع دينى سياسى ، فمحمود الغزنوى كان مسلما متين العقيدة تواقا إلى رفع شأن الشريعة النبوية ، فأعلن فى كل مكان أنه ناشر لدين العرب وحضارتهم ، فأنعم عليه خليفة بغداد بلقب يمين الدولة . »

ذلك هو محمود الغزنوى كما تصوره أعماله وكما كتب عنه المؤرخون . . رجل عظيم ونادر بين العظماء ، ومهما حاول بعض المؤرخين أن يلصقوا به بعض العيوب فعلى فرض ثبوتها فأنها تتضام بجانب نواحيه العظيمة الكثيرة ؛ فأن الرجل لا يقاس على أساس أنه معصوم من العيوب ، ولكن على قدر محاسنه وعيوبه تقاس عظمته بين العظماء . . .

لقد وضع بمجوده النادرة وجهاده المخلص أساس دولة إسلامية عظيمة فى الهند ظلت أكثر من ثمانية قرون تقوى وتزدهر . . وليس هذا هو المهم وحده ، فإن الملايين ممن هداهم الله للإسلام ، وما زال يهديهم بسبب ماخطه هذا البطل العظيم فى أرض الهند ، ليدكر كل من أتى بعده بعظمته وبما قدم للإسلام من خدمات ، وإن المسلمين الذين يعدون فى الهند بعشرات الملايين ، وما أضافوه ولازالوا يضيفونه للإسلام من قوة ، وما خدموه به من فكر ورأى ليمثلون أمام الأجيال من بعده عظمة ما قام به هذا البطل المسلم عليه رحمة الله^(٢) .

(١) ص ٢١٨ من كتاب « حضارة الهند »

(٢) لاحظت أثناء إقامتي فى الهند شدة تقدير المسلمين لمحمود الغزنوي على عكس نظرة الهندوس الذين ينظرون اليه وإلى أعماله نظرة عداوة . وبهذه المناسبة أذكر ماسمته كثيرا من أن الهندوس يكرهون بل يعتقدون كلمة الجهاد والمجاهدين .

خلفاء محمود في الهند

بعد وفاة محمود تابع خلفاؤه من الملوك الغزنويين حكمهم لأرض الهند وتوسعهم في ضم أراض جديدة منها إلى حكمهم . .

جاء بعده ولده « مسعود » الذي أخذ الملك من أخيه محمد بعد وفاة والده بشهور ، فتابع سياسة أبيه في الفتح والتوسع « وكان شجاعا كريما محبا للعلماء كثير الأغداق عليهم ، صنفوا له التصانيف الكثيرة كالقانون المسعودي في الرياضة لليروني^(١) ، والكتاب المسعودي في الفقه الحنفي للقاضي أبي محمد الناصحي^(٢) وقتل مسعود أثناء ذهابه للهند سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م على يد أخيه ، محمد وأولاده ، وجاء بعده ابنه « مردود » وسار سيرة أبيه وجده في التوسع بأرض الهند ، وتوالى الملوك الغزنويون على عرش غزنة والهند . . إلا أن تناحرهم فيما بينهم أضعفهم ، وجعل البلاد التي فتحوها تتمرد عليهم ، كما أطمع فيهم من حولهم . حتى سقطت عاصمتهم « غزنة » سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م في عهد آخر ملوكها « بهرام شاه » .

(١) « البيروني » بكسر الباء نسبة الى منطقة في ضواحي خوارزم تسمى بيرون خاصة بالغرباء ولد بها سنة ٣٦٢ هـ — ٩٧٣ م واتجه الى دراسة الفلك والرياضة حتى نبغ فيهما ، دخل في حاشية محمود الغزنوي العلمية وألف كتباً عدة ، وتجول في السند وكتب « كتاب الهند » من نأحيته التي نبغ فيها ، ولما أتم كتابه « القانون المسعودي » في الرياضة والفلك ونسبه الى السلطان مسعود سنة ٤٢٧ هـ كافأه عليه بقل وما عمله من فضاة فاعتدشوا كراً ، وكان يعرف عدة لغات: العربية والفارسية والسنسكريتية وعندما زرت مطبعة دائرة المعارف العثمانية بجيدر أباد في ديسمبر سنة ١٩٥٧ وجدتها قد طبعت القانون المسعودي لأول مرة سنة ١٩٥٥ م وتوجد منه ست نسخ مخطوطة موزعة في مكاتب العالم ، واحدة في اكسفورد وهي مكتوبة سنة ٤٧٥ هـ ونسخة في برلين ، ونسخة في المكتبة الإمبراطورية في كلكتا ، وواحدة في مكتبة لئن بعلبك ، وواحدة في مكتبة هلافيروز في بومباي .

وقد توفي البيروني في يوم الجمعة ٢ رجب ٤٤٠ هـ ١١ سبتمبر ١٠٤٨ م

(٢) نزهة الخواطر ج ١ ص ٩٨

الدولة الغورية

بجانب الدولة الغزنوية وفي جبال غور أو غورستان ، نشأت الدولة الغورية ، وقوى أمرها في الوقت الذي كانت فيه الدولة الغزنوية تسير في شيخوختها نحو الغروب ، وعلى يد هذه الدولة الناشئة كانت نهاية الدولة الغزنوية في غزنة وفي الهند . قام الحسين بن الحسن الملقب بعلاء الدين وأسس ملكه في منطقة جبال غورستان (١) ، ثم زحف بجيشه إلى «غزنه» في عهد ملكها « بهرام شاه بن مسعود بن محمود الغزنوي » فاستولى عليها ، وفر بهرام سنة ٥٤٧ هـ سنة ١١٥٢ م ، ولكنه استطاع أن يرجع إلى ملكه بمساعدة الأهالي الذين انقضوا على نائب علاء الدين ، وخلعوه ومثلوا به ثم استرجعها علاء الدين من خسرو شاه بن بهرام ونكل بالأهالي ، وظلت بيده حتى توفي ، فحاول الغزنويون استرداد ملكهم وتم لهم ذلك ..

ولكن خلفه غياث الدين أبو الفتح محمد بن سام وأخوه شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام استطاعوا الاستيلاء على غزنة ثانياً ، ومكنوا ملكهم فيها حيث ظلت تحت حكمهم ، وانقضى نهائياً ظل الغزنويين منها سنة ٥٦٧ هـ ١١٧١ م ، وأصبحت تابعة للدولة الغورية ..

شهاب الدين الغوري

لما فر خسرو شاه الغزنوي من غزنة إلى الهند واصل حكم الغزنويين لها ، واتخذ « لاهور » عاصمة له ، ولما توفي سنة ٥٥٥ هـ ١١٦٠ م خلفه ابنه « خسرو ملك » ، وظل بها حتى زحف شهاب الدين إليه ، واستولى على لاهور

(١) جاء في حاضرم العالم الإسلامى ج ٤ ص ٢٩٠ « وهؤلاء الغوريون أمراء « فيرزكوه » قاعدة بلاد النور والغور (بضم المعجمة) هى بلاد فى الجبال بقرب هراة ومعنى (فيرزوكوه) الجبل الأزرق .

سنة ٥٨٢ هـ ١١٨٦ م وبدأ بذلك حكم الغوريين للهند، وزال عنها حكم الغزنويين بعد أن حكموها من ٣٩٢ هـ إلى ٥٨٢ هـ سنة ١٠٠١ م إلى ١١٨٦ م، وقد قبض شهاب الدين الغورى على « خسرو ملك » الغزنوى بعد أن استولى على لاهور، وأمنه على نفسه، وبقي كذلك شهرين مكرما عنده حتى أرسل غياث الدين إلى أخيه يأمره بأيفاد خسرو إليه، فأرسله ومعه ولده، وكان يحس نهايته فتمثل وهو في طريقه بقول الشاعر :

وليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

فلما وصلا إلى بلاد الغور لم يجتمع بهما غياث الدين، بل أمر أن يوضعا في قلعة، وظل بها حتى انتهت حياتهما . .

وقد جعل الملك غياث الدين أخاه شهاب الدين نائبا عنه في حكم الهند، فأخذ هذا يعمل لكي يخضع الهند له ويوسع ملكه فيها، متخذاً من لاهور عاصمة له في الهند . .

وقد لعب شهاب الدين دوراً في الهند يشبه إلى حد كبير دور محمود الغزنوى فيها؛ فقد كانت لكل منهما حروب وفتوحات، عقد عليه فيها لواء النصر، ومكن لحكم الإسلام فيها . .

وقبل أن يستولى شهاب الدين على لاهور كان قد استولى على مولتان من القرامطة التي يحكمونها، وذلك سنة ٥٧٢ هـ سنة ١١٧٦ م وبعض البلاد الأخرى في الهند .

وبعد أن استولى على لاهور سار إلى قلعة بتهنده وكانت تحت يد ملك « أجمير » واستولى عليها .

وإزاء الخطر الذي بدا من شهاب الدين وانتصاراته في الهند تجمع بعض الملوك الهندوس وعلى رأسهم راجا پتھورا، وحشدوا جيوشهم لمقابلته صفا واحداً، والتقى الجمعان سنة ٥٨٧ هـ ١١٩١ م على نهر « سرستى » على بعد ثمانية أميال من دلهى. في موضع مشهور الآن باسم « تراورى »، وكان القتال حاراً دارت فيه الدائرة على المسلمين، فانهمزوا أمام الكثرة الهندوسية، وسقط شهاب

الدين جريحا حتى ظن أنه قتل ، وحمله بعض رجاله من ميدان المعركة حتى بلغوا به مأمنه ، وتوافد عليه الناس يهنئونه بالسلامة . . وكان أول ما فعله بعد ذلك أن أخذ أمراء الغورية الذين انهزموا عنه وأسلموه ، فلأ مخالي خيلهم شعيرا وحلف لئن لم يأكلوه ليضربن أعناقهم ، فأكلوه ضرورة (١) . وقد كان لانهزام شهاب الدين أثر شديد على نفسه ، حتى إنه أقسم ألا يقرب النساء ، ولا يغير ملابسه حتى ينتصر وينتقم ويغسل مالهقه من عار .

وفي سنة ٥٨٨ هـ ١١٩٢ م كون جيشا عظيما وسار به إلى الهند ، وتقابل الجيشان في نفس الموقع الذي انهزم فيه من قبل على نهر « سرستي » ، وقد كتب له ملك أجير يهدده وينذره بالمصير الذي لقيه من قبل ، فخادعه شهاب الدين ، ثم انقض عليه وأعمل في جيشه القتل حتى انهزم ، وتمكن المسلمون من أسر الملك ، وصعد شهاب الدين إلى الحصن ، وأخذ ما فيه من الأموال واستولى على البلاد . ثم ضرب عنق الملك ، وأقام ابنته حاكما مكان أبيه على أن يدفع له الجزية ، ورجع إلى « غزنه » بعد أن أقام مملوكه قطب الدين أيبك نائبا عنه في البلاد التي خضعت له . .

« فتح دهلي »

وكان قبل رجوعه قد توجه إلى دهلي للاستيلاء عليها ، ولكن ملكها تقدم له بالخضوع والهدايا ، فرأى أن يتركه في مملكته ، ولكن قطب الدين توجه إلى دهلي بعد ذلك ، واستولى عليها وضمها إلى البلاد الإسلامية ، وجعلها عاصمته في الهند ، وكان ذلك سنة ٥٨٩ هـ — ١١٩٣ م . .

ومنذ ذلك الوقت احتفظت بمكاتها كعاصمة للدولة الإسلامية ، وإن اتخذ بعض الملوك عاصمة غيرها أحيانا ، لكنها ظلت محتفظة بمركزها بين المدن الهندية الكبرى كمركز للفكر والحكم الإسلامي ، حتى دخلها الانجليز

واستولوا عليها ، وزال عنها السلطان الإسلامى سنة ١٢٧٤ هـ سنة ١٨٥٧ م ومع ذلك ظلت محتفظة بمكانتها الفكرية الإسلامية للآن ^(١) .

وقد قام قطب الدين بتوسيع رقعة الدولة الإسلامية فى الهند بنفسه أحيانا ، وبواسطة بعض القواد الشجعان أحيانا أخرى ، وذلك مثل اختيار الدين محمد بن بختيار الخلجى الذى اتجه شرقا بجيشه ، فاستولى على بهار وأنزل بالبوذية فيها ضربة لم تقم لها قائمة بعدها ، واتجه شرقا يفتح البلاد ويدعم هيبة الحكم الإسلامى فيها ، وينشئ المدارس والمساجد حتى وصل إلى البنغال ، وصار حاكما لها ^(٢) ، بينما كان شهاب الدين يأق أحيانا ليقود جيشه فى الهند إلى فتوحات وانتصارات يوسع بها رقعة المملكة ، ويوطد ملكه ويغنم الغنائم الكثيرة ، ويرجع إلى غزنه .

ففى سنة ٥٨٩ ١١٩٣٥ م توجه بجيشه إلى « قنوج » واستولى عليها وغنم منها الغنائم الكثيرة ، ثم علم أن ملك « بنارس » يستعد لحرب المسلمين ، وكان واسع الملك قويا معتدا بقوته ، معه سبعائة فيل وعدة آلاف من المقاتلين ، ولما التقى الجيشان اقتتلا قتالا عنيفا كان النصر فى آخره للمسلمين ، وكثر القتل فى الهنود حتى امتلأت الأرض بهم وجافت ، وكان المسلمون لا يأخذون إلا الصبيان والجوارى ، وأما الرجال فيقتلون ، وقتل ملك بنارس ولم يعرفه أحد إلا من شريط ذهبى فى أسنانه ، ودخل شهاب الدين البلاد ،

(١) بيت دهلى فى عهد أحد الملوك الهنود واسمه « وادبته » الراجبوتى سنة ٣٠٧ هـ — ٩١٨ م وسميت دهلى لأث أرضها كانت أليفة غير متماسكة لأن « دهول » فى اللغة الهندية معناه التراب الغير المتماسك . وقد جاء بعد هذا الملك عدة ملوك تداولوا عليها حتى سقطت فى يد قطب الدين أيبك وصارت عاصمة الدولة الإسلامية سنة ٥٨٩ ١١٩٣٥ م . ١٠٠ هـ فرشته ج ١ باختصار . والنطق القديم لها هو « دهلى » . ولكن الإنجليز حرقوه إلى « دهلى » فصارت تنطق بهذا أيضا ونحن لم نلتزم واحدا منها فتارة وتارة . . . ويلاحظ أن مكان المدينة تغير على مر الزمن فقد قامت أولا حول المكان الذى يشغله « منار قطب » الآن قريبا من المطار ثم أخذت تزحف نحو الشمال حتى صارت على شاطئ نهر « جينا » وأقفر مكانها الأملى . . .

وحمل من خزائنها على ألف وأربعمائة رجل^(١)، وعاد إلى « غزنه » ومعه الفيلة التي غنمها ، وكان من جملة ما فيل أبيض امتنع عن خدمة شهاب الدين دون بقية الفيلة^(٢) .

وبذلك دخلت هذه البلاد في حكم المسلمين ، وتم ذلك في سنة ٥٩٠ هـ ١١٩٤ م ، وقد ظل شهاب الدين وقواده يغزون ويواصلون فتح البلاد وإخضاعها ، فتم لهم إخضاع « تهنجرا » ، وگواليار ، ونهروالا .

ولما مات أخوه غياث الدين في سنة ٥٩٩ هـ ١٢٠٣ م أصبح شهاب الدين ملصكا بعده على المملكة الغورية ، كما أصبح سيدا على الهند الشمالية كلها تقريبا من السند إلى البنغال الشرقية . .

وقد وقعت له بعض المتاعب بسبب قتاله مع خوارزم شاه ، وانضمامه أمامه وأمام خلفائه ، حتى أشيع أن شهاب الدين قد قتل في الحرب ، فشقت كثير من بلاده عصا الطاعة عليه ، مثل مولتان ولاهور وغيرها ، فسار إليها شهاب الدين سنة ٦٠١ هـ — ١٢٠٥ م ، وقضى عليها وعلى فتن غيرها بمساعدة قطب الدين أيبك نائبه في الهند وعاد إلى غزنه . .

لكنه في طريق عودته داهمه رجال مجهولون وقتلوه غيلة وهو في خيمته . يقول ابن الأثير قتله جماعة من الكوكرية الكفار ، حيث اغتتموا فرصة وجوده وحده وانشغال الحراس عنه ، فدخلوا عليه وطعنوه اثنتين وعشرين طعنة ، ودخل عليه أصحابه فوجدوه على مصلاه قتيلا وهو ساجد . . وقيل قتله جماعة من الاسماعيليين ، وكانت له قوة تحارب بعض قلاعهم في خراسان ، وقد حمله أصحابه وأخفوا خبر موته ، وساروا به وبغنائمه وخرائنه حتى وصلوا إلى غزنه ، ودفنوه بها في شعبان سنة ٦٠٢ هـ ١٢٠٦ م .

وشهاب الدين الغررى هو بطل حديثنا عن الهند ، فأن عمه علاء الدين أو

(١) يقول جوستاف لوبون في حضارة الهند ص ٢٢٠ « إنه حمل غنائم علي أربعة آلاف رجل ، كما هدم ألف معبد في بنارس ، وربما تكون في هذه الأرقام مبالغة . .

(٢) ابن الأثير ص ٤١ ج ١٢

أخاه غياث الدين لم يكن لها في مجرى الحوادث بالهند ما كان له ، ولذا نقصر حديثنا في هذه الدولة عليه ، لاسمها وأن الهند بعد وفاته لم تعد تابعة « لغزنه » حقيقة ، بل استقل بالعمل والحكم فيها مملوكة ونائبه قطب الدين ، الذي أقام بها أسرة مائكة أعقبها لفترة طويلة أسر كثيرة مائكة ، لم تكن لها صلة بالنسبة للغورى ، بل كانت كلها من الممالك كما سنعرف فيما بعد ..

شهاب الدين في نظر التاريخ :

إن شهاب الدين بحروبه وانتصاراته في الهند ليشبه إلى حد كبير — كما قلت من قبل — سلفه الأسبق محمود الغزنوى ، فكلاهما كان له قدم راسخة وجهاد مشكور في فتح الهند ، وتحطيم أصنامها ، والعمل على رفع راية الإسلام بها ..

وقد كان شهاب الدين شجاعا مقداما كثير الغزو ، عادلا في رعيته حسن السيرة فيهم ، حاكما بينهم بما يوجبه الشرع المطهر ، وكان العلماء يحضرون عنده فيتكلمون في المسائل الفقهية وغيرها ، وكان نخر الدين الرازى صاحب التفسير الكبير يعظ في داره ، فحضر يوما ووعظ وقال في آخر كلامه : يا سلطان ، لاسلطانتك يبقى ، ولاتلبس الرازى ، وأن مردنا إلى الله .. فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس لكثرة بكائه ^(١) .

وقال المؤرخ الفرنسى « رينيه غورسه » ^(٢) : إن محمود ^(٣) الغورى أسس ملكا عظيما ثابتا وطيدا ، تعاقبت عليه الدول الاسلامية التى جاءت بعده من

(١) ان الأثير ج ٢ ص ٨٤ (٢) نقلا عن حاضر العالم الاسلامى ص ٢٩١ ج ٤ (٣) لعله أراد محمد الغورى فان كتب التاريخ التى اطاعت عليها ذكرت أن اسمه هو (أبو المظفر شهاب الدين محمد بن سام الغورى) لا محمود . حتى كقالب حاضر العالم الاسلامى ذكر أن اسمه هو (محمد الغورى) في عدة مواضع ولكنه ترك كلام « غورسه » بدون تعليق أما الذى يسمى محمود فهو الذى خلف محمد الغورى وهو محمود بن غياث الدين الغورى وقد رفض أن يتنقل من بلاده إلى « غزنه » ليتولى منها حكم ملك آبائه في أفغانستان والهند : كما أنعم على قطب الدين أبيك بالخلع والهدايا وبوثيقة إعاقته وتفويضه التام في حكم الهند . كما جاء في تاريخ فرشته ج ١ ص ٢٣٥ .

ترك وأفغان وطغلوقيين وسادات وتيموريين ، وكان دستور هذا الملك وحدة الدولة ، وحق الإسلام في السلطنة العامة على الهند ، مما بقى إلى زمن استيلاء البريطانيين .

وما تجدر الإشارة إليه أن الشيخ معين الدين حسن بن الحسن السجزي الاجميرى المشهور باسم معين الدين الجشتى منبع الأولياء والكرامات في الهند قدم إليها في عهد السلطان محمود الغورى ، وتنقل في مدنها حتى استقر أخير آفى « أجير » ، ودفن بها سنة ٦٢٧ هـ - ١٢٢٩ م ، ويعتبر قبره أكبر مزار في الهند ، ويتناقل الناس أنه أسلم على يديه كثير من الهندوس يبالغون تسعة ملايين ، لما رأوه من كراماته وأحواله العجيبة ، وإليه وإلى تلامذته الصوفيين يرجع الفضل في إسلام الكثير من الهندوس . .

دولة الممالك

اقتصر حكم الدولة الغورية للهند على عهد غياث الدين وأخيه شهاب الدين الذى تولى فتح الهند وتدوين ملوكها ، وبعد قتله شغل الغوريون بالخلافات والحروب بينهم بشأن الملك ، بينما كان « قطب الدين أيبك » قائما فى الهند بشأن الحكم فيها ، مستقلا بأمورها بعد أن وافق الملك الغورى الذى خلف شهاب الدين ، وهو « محمود بن غياث الدين » على اضطباعه بالحكم فيها ، وبذلك أتبع لقطب الدين أن ينشئ دولة مستقلة فى الهند يتولاها الممالك من أسرته ، أو من يقوى منهم على انتزاع الحكم له بأى أسلوب يوصله إليه ، كما كان الحال مع الممالك فى مصر . .

جاء فى كتاب « حاضر العالم الإسلامى ^(١) » نقلا عن « رينيه غروسه » صاحب تاريخ آسيا .

« كان بين أولئك الغزاة الذين يقصدون الهند للجهاد كثير من المماليك ، وكان شأن هؤلاء المماليك في الهند شأنهم في مصر . أصلهم أرقاء من أجناس مختلفة ، اندمجوا في الجيش فامتازوا بالبسالة والاقدام وحسن التدبير ، فكان بعضهم يرقى من درجة إلى درجة إلى أن ينال الامارة ، وأحياناً السلطنة كما كان يقع في مصر ، ولم يكونوا ممن يقتنع بالملك دون إبقاء المآثر ، والطمع في تخليد الذكر ، فكما أن سلاطين المماليك بمصر ملأوا مصر والشام مساجد وعمارات ، كذلك سلاطين المماليك بالهند كانوا على هذه الطريقة »

قطب الدين أيبك

المشهور باسم « لك بخش »

كان أحد مماليك شهاب الدين الغورى ، جلب من تركستان في صغره سنة ، فاشتراه أحد القضاة في نيسابور ، وعنى بتربيته وتعليمه حتى تبهر في العلوم ، ولما توفى القاضى اشتراه أحد التجار ، ثم دخل بعد ذلك في ملك شهاب الدين الغورى ، وقد جمع من الصناعات الطبيعية ما حبيبه إلى قلب سيده ، فقر به إليه . كما أبدى من ضروب الشجاعة والاقدام ما جعله أميراً لجيش شهاب الدين ونائباً له في الهند . .

ولقد كان لقطب الدين فضل كبير ويد طولى في كل ما أحرزه شهاب الدين وجيشه في الهند من انتصارات وفترحات كما سبق أن عرفنا ذلك ، وكان يعتبر الحاكم الفعلى ، والتابض على شئون العمل والتصرف في الهند ، لذلك لم يتبدل الأمر بها عند ما قتل شهاب الدين ، وشغل الغوريون بعده بالنزاع على الحكم ، فقد كان بالهند حاكماً الفعلى ، وقائد جيوشها ، فظل قابضاً على ناصية الحكم ، ولم يجد خلف شهاب الدين بدا من إقراره على الهند ، بل إقطاعها له ، فأعتقه وأرسل له المظلة الملوكية ، وغيرها من إمارات السلطنة جرياً على عادتهم . فجلس على عرشها يوم الثلاثاء الثامن عشر من ذى القعدة

ولم تمتد أيامه في السلطنة كثيراً ، فقد توفي بعد ذلك بمدة قصيرة سنة ٦٠٦ هـ ١٢١٠ م ، ودفن بلاهور على أثر حادث أصابه وهو يلعب لعبته الرياضية المحببة إليه « البولو » . .

وكان عادلاً كريماً بأسلاً مقداماً يضرب به المثل في الشجاعة والكرم ، وكان يعطى الناس أكثر مما يستحقون ودون حساب ، حتى اشتهر باسم « لك بخش » ، أى معطى المائة ألف . .

وقد انصرف قطب الدين إلى القيام ببعض الإصلاحات ، وبناء بعض المساجد مثل المسجد الكبير الذى شيده فى دلهى والذى اشتهرت مناراته التى لا تزال معروفة للآن باسم « قطب مينار » أى « منارة قطب » ، كما بنى مسجداً معروفاً باسمه فى أجمير^(١) وجاء فى كتاب « بين الآثار الإسلامية^(٢) » إن قطب الدين أسس مسجد قوة الإسلام تخليداً لذكرى استيلائه على دلهى . . وهو من أعظم المساجد فى العالم . . ثم المنار الذى يحمل اسم « منار قطب » وبعد أخم بناء من نوعه وقد أتمه خلفه . .

وقد زرت بقايا هذا المسجد فى ٢٧ يناير ١٩٥٨ وهو يبعد عن القلعة الحمراء فى دلهى بمسافة ١٢ ميلاً ، ولم تصل إليه مبانى نيودلهى للآن على رغم امتدادها ، وكانت دلهى فى الوقت الذى استولى فيه قطب الدين عليها فى هذا المكان حول مسجده ، ولكنها تحولت بعد ذلك على شاطئ نهر « جمنا » ، كما نراها الآن ، ووجدت على باب المسجد لوحة كتب عليها « مسجد قوت الاسلام » ، أصل مسجد السلطان قطب الدين أيبك بناء عام ١١٩١ م وأكمله ألتش « سنة ١٢٣٠ م ووسعه علاء الدين خلجى سنة ١٢٩٥ م »

والمسجد قد تهدم ، ولم تبق منه إلا بعض الجدران بدون سقوف ، ولا تزال بالأرضية حجارها الكبيرة . ورأيت على واجهة الباب البحرى كتابة

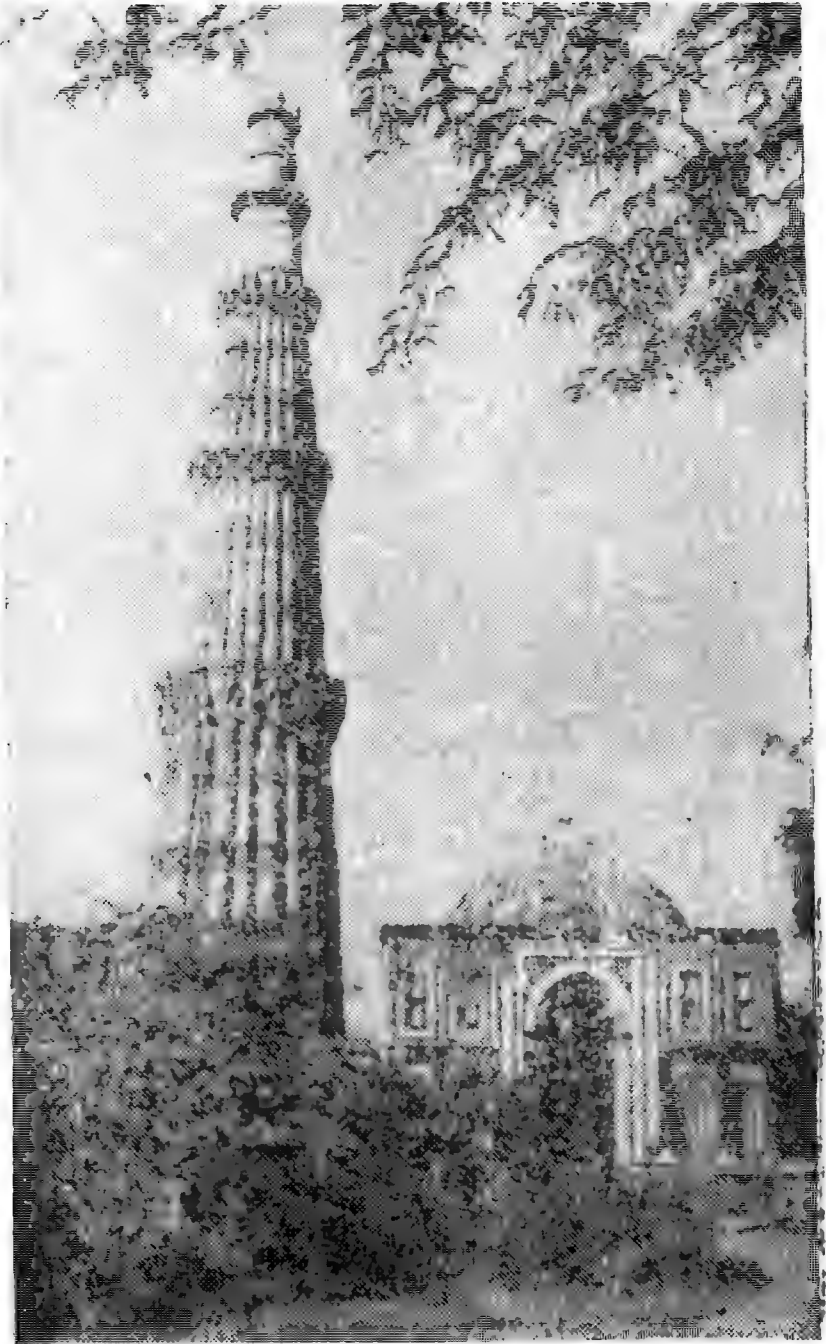
(١) من حاضر العالم الإسلامى ص ٢٩٢ (٢) ص ٥٢ وهو للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق أستاذ الآثار الإسلامية المساعد بجامعة الاسكندرية . . وقد لاحظت أن المؤلف اختلط عليه الأمر فذكر أن قطب الدين تسلم قيادة فرقة محمود الغزنوى بعد وفاته والصحيح أنه تسلم الأمر فى الهند بعد الغورى لا الغزنوى . .

باللغة العربية بحروف بارزة من الحجر عن أمر إنشائه وسنته هكذا
« بسم الله الرحمن الرحيم والله يدعوا إلى دار السلام . . »
ثم كتب تحت ذلك « جرت هذه العارة بأمر .. الخ » ولم أستطع قراءة
الباقى ، وبجانب المسجد كانت مدرسة كبيرة تهدمت أيضاً . ويظهر من
آثارها الباقية ضخامتها واتساعها . .

ورأيت فى وسط المسجد عموداً حديدياً قديماً ، أمر بصنعه الملك
« دهاوا » الهندى ، ويرجع تاريخه للقرن الرابع الميلادى ، وقد رأيت المئات
من الزوار يتنقلون بين هذه الآثار ، وقد اصطف الكثير منهم فى شكل طابور
للصعود فوق المنارة ، بينما صعد بعضهم على طوابقها المتعددة حتى أعلاها ،
وأخذوا يلوحون بأيديهم للذين لا يزالون على الأرض . والمنارة كانت مكونة
من سبع طبقات ، لكن الموجود منها الآن خمسة فقط ، طولها ٢٣٨ قدماً ،
ومحورها من أسفل ٤٧ قدماً ، ومن أعلى ٩ أقدام فقط ، ويقول المؤرخون
إن الطابق الأول أسسه آخر حاكم لدهلى وهو « راجا برتوى » الذى انتصر
عليه قطب الدين أيبك ، فنقش عليه بعض آيات القرآن واشتهر باسمه سنة
١٢٠٠ م ، ثم بنى ألتش الدورين الثانى والثالث سنة ١٢١٠ م .

ثم زاد فيروز تغلق شاه الرابع والخامس سنة ١٣٥١ م وهى على شكل
مخروطى ، وارتفاع الأول ٩٥ قدماً والثانى ٥٠ ، ٨٦ بوصة ، والثالث ٤٠ قدماً ،
٣٦ بوصة ، والرابع ٢٥ قدماً ، ٤ بوصات ، والخامس ٢٢ قدماً ، ٤ بوصات ،
وقد أجرى فيروز تغلق سنة ١٣٥١ م وبهلول لودى سنة ١٣٨٨ م بعض ترميمات
فى المنارة . وفى كل طابق نقش حول المنارة آيات من القرآن الكريم
وبعض مكاتيب الساطان .

وهى من الحجر الأحمر ، ولكنها من فوق يختلط المرمر مع الحجر الأحمر
والطبقة السادسة كانت ١٢ قدماً ، ١٠ بوصات . ولكنها سقطت بسبب
زلزلة سنة ١٨٠٣ م ثم أعيد بناؤها سنة ١٨٢٩ م ولكن حاكم الهند العام أمر
بإزالتها نهائياً خوفاً من خطر وقوعها . أما السابعة فلم يعرف لها تاريخ (١) .



منار تط و بجانبه « بوابة علاء الدين » المدروقة في الهند باسم « علائي دروازه »

شمس الدين ألتش

بعد وفاة قطب الدين اجتمع كبار رجال الدولة ، واختاروا « شمس الدين ألتش » سلطانا خلفا لقطب الدين ، وكان ذلك سنة ٦٠٧ هـ ، ١٢١١ م ، وقد كان مملوكا لقطب الدين ، جلب في صغر سنه إلى « بخارى » ، وبقي ينتقل من سيد إلى سيد ، حتى اشتراه قطب الدين ورباه في مهد السلطنة ، وأخذ يتدرج في المناصب ، حتى صار أميراً على الجند وزوجه السلطان بابنته . . . ويقول ابن بطوطة ^(١) « لما مات قطب الدين استبد بالملك ، وأخذ الناس بالبيعة ، فأثاء الفقهاء يقدمهم قاضى القضاة إذ ذاك « وجيه الدين الكاسانى » ، فدخلوا عليه وقعدوا بين يديه ، وقعد القاضى إلى جانبه كالعادة ، وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه فيه ، فرفع طرف البساط الذى هو قاعد عليه ، وأخرج لهم عقداً يتضمن عتقه ، فقرأه القاضى والفقهاء وبايعوه جميعاً » .

وقد شغل عقب توليته بالخروب فسار إلى أوريسا وبنغال ، وكراليار وغيرها من البلاد التى ثارت على حكم دلهى بعد موت قطب الدين وأخضعها تماماً . . .

وفى عهده سنة ٦١٧ هـ — ١١٢١ م غزا جنكيز خان البنجاب الغربية ، ولكنه رجع عنها وإن كان المغرل قد أصبح حراً أداة تهديد خطير للدولة بهاجومها بين حين وآخر ، وهكذا شغل « ألتش » بالخروب حتى استتب له الملك . . . ثم توفى سنة ٦٣٣ هـ ١٢٣٥ م ^(٢) بعد أن أوصى بالملك لابنه « رضىة »

(١) ص ٣١ مذهب الرحلة ج ٢

(٢) ودفن بمسجد قوة الإسلام الذى أتمه بعد وفاة قطب الدين ، وقد زرت قبره بين الآثار المتهمة من مسجد قوة الإسلام ، وهو وسط حجرة لا تزال متمسكة ، بناها لنفسه وكتب على جوانب القبر من سورة الواقعة بالخط الثلث المجتوف فى الحجر بحروف بارزة « والسابقون السابقون أولئك المقربون . الآيات » وفى الحائط الغربى ثلاثة محارب أوسطها أوسمها وكتب فى أعلى المحراب بحروف المرمر « لأنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يحصى إلا المطهرون » وفوق محراب آخر كتب « كل من عليها فان » وعلى الجدران بعض آيات وأذكار مكتوبة بالخط الكوفى أيضاً . . .

فكان ذلك سبباً لقيام خلافات بينها وبين إخوانها ، وبينها وبين كبار رجال الدولة انتهت بقتلها ، وكان « التمش » ملكاً فاضلاً عادلاً يقول ابن بطوطة عنه ^(١) « ومن مآثره أنه اشتد في رد المظالم وإنصاف المظلومين ، وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوباً مصبوغاً ، وأهل الهند جميعاً يلبسون البياض ، فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحداً عليه ثوب مصبوغ نظر في قضيته وأنصفه من ظلمه ، ثم إنه فكر في ذلك فقال : إن بعض الناس تجرى عليهم المظالم ليلاً ، وأريد تعجيل إنصافهم ، فجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على برجين هنالك ، وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير ، فكان المظلوم يأتي ليلاً فيحرك الجرس فيسمعه السلطان وينظر في أمره للحين وينصفه ، وكان يتردد على العلماء والصرفية ولا سيما الشيخ قطب الدين ^(٢) بختيار السككي ويأتمس منه الدعاء ويخدمه ويجلس عند رجله يدلهم .

ويقول عنه رزييه غورسه ^(٣) : « كان من عظام السلاطين المدبرين ، وطد أركان السلطنة ، وأكمل فتح الهند الشمالية ، وأعلى من هذا كله أنه حفظ الهند من جائحة المغول ، لأنه في زمان ألتمش هذا زحف الجنكيزيون على إيران وأزالوا سلطنة خوارزم العظيمة ، وفر الأمير جلال الدين ما نكبه دى الخوارزمي شريداً ملتبساً إلى ألتمش فكان من حسن تدبير هذا أنه رد غارة المغول على البنجاب ، لكنه لم يتهور في إصرار جلال الدين إلى محاولة إعادة ملكه له ، وشن الغارة على المغول بما لم تكن تؤمن عاقبته . »

(١) ص ٣١ ج ٢ من مذهب الرحلة . .

(٢) هو الامام المارف بالله قطب الدين بن كمال الدين السككي الاوشى من كبار الاولياء ، أصله من بلدة « أوش » من بلاد ما وراء النهر ، رحل إلى بغداد وسعد بملازمة ولي الله الشيخ معين الدين السجزي الاجيرى وفاز منه بالخلافة ، ثم رحل الى الهند ودخل دهلى فأكرمه السلطان « التمش » وكان يتردد عليه الكثير من الناس الذين يتزودون من فيضه وهديه . وقد عاش هزباً وكان يستمع للغناء فيغيب عن رشده ويغنى عليه حتى مات وهو كذلك بعد ثلاثة أيام لم يصح فيها . من استغراقه وكان ذلك سنة ٦٣٣ هـ وعمره حوالي الخمسين سنة . . ومدفنه قريب من « منار قطب » نزهه من ١٩٦ ج ١ .

(٣) عن حاضر العالم الاسلامى ص ٢٩٢ ج ٤

بعد ألتمش

ذكرنا أن ألتمش أوصى بالملك لابنته « رضية » تاركا إخوتها ^(٣) ، وقد تولت الحكم سنة ٦٣٣هـ ١٢٣٥م ومكثت أربع سنين ، وكانت تركب كإيركب الرجال ولا تستروجهها ، ثم إنها اتهمت بعبد لها من الحبش ، فخلعت عن العرش وتولى مكانها أخوها الأصغر محمود ناصر الدين ، وكان في السابعة عشرة من عمره ، فاختر « بالبان » أحد مماليك أبيه الشجعان وزيراً له ، فأبدى من الكفاية والمقدرة وحسن تدبير الأمور ما جعله الحاكم الفعلي للبلاد ، وقد حاولت أخته « رضية » أن تنزع الملك منه وتسترده لنفسها ، ولكنها هزمت وقتلت بعد أن فرت هائمة على وجهها . قتلها أحد الزراع طمعا في مالها وملابسها — بعد أن أمدّها بكسرات من الخبز — لما عرف من ملابسها الداخلية الثمينة أنها امرأة . . وبذلك خلا الجو لناصر الدين بن ألتمش ، ووزيره « بالبان » الذي استطاع أن يخمد الثورات التي قامت في عهده ، كما تمكن من صد غارات المغول التي أخذت تكثر على الهند . .

وقد جاء في نزهة الخواطر ^(٤) عن ناصر الدين أنه كان « أنموذج الخلفاء الراشدين ، نادى برفع المظالم ، وأظهر العدل والكرم ، وكان ورعا متعبداً ذا حلم وأناة ورأفة ، راغبا في الخيرات مع الزهد والتقشف ، وكانت له عناية عظيمة بالأدب ، ومعرفة حسنة بالكتابة ، ومن أخباره أنه كان يكتب القرآن

(١) هذا ما يذكره كتاب المسألة الهندية للرحوم الاستاذ عبد الله حسين ص ١١٢ .
 أما ابن بطوطة فيذكر أنه بعد موت التمش ببيع ابنه ركن الدين فعمد الى قتل أخيه مما جعل أخته تنير عليه الشعب فيقتله وتجلس على العرش ولكنها بعد أربع سنين أبعدت عنه وجلس مكانها أخوها الأصغر ناصر الدين . وغيرهما يقول انه جلس بعدها أخوها معز الدين بهرام شاه ثم بعده علاء الدين مسعود بن ركن الدين ثم جلس ناصر الدين بن محمود ألتمش وهذه تفصيلات لا يهمننا أصحابها كثيراً فأنهم لم يتركوا أثراً يذكر ولذا نقف عند أحدهم أو آخرهم ناصر الدين . .

الكریم : نسختين منه كل سنة فيديعهما ويةتات بثمانهما^(١) وأن زوجته سألته أن يعطيها جارية تكفي مؤنتها في طبخ الطعام وغيره من أمور البيت فأبى .

وتوفي ناصر الدين سنة ٦٦٤ هـ — ١٢٦٦ م . وبوفاته انتقل الملك من أسرة شمس الدين ألتمش إلى أسرة أخرى من الماليك ، هي أسرة « غياث الدين بلبان » .

« غياث الدين بلبن^(٢) »

كان غياث الدين من الأتراك أخذته المغول من تركستان وباعوه ، وانتقل من يد إلى يد حتى وصل إلى يد الشيخ جمال الدين البصرى في بغداد ، فجاء به إلى الهند فاشتراه منه السلطان ألتمش . يقول « فرشته » إن جمال الدين عرف أنه من أسرة ألتمش حاكم الهند ، فجاء به مع عبيد آخرين وباعه له ، وتوسم فيه « ألتمش » نجابة الأصل فقر به إليه ، ثم ظهر له أقرباء في حاشية السلطان ، فأخذ يترقى ويتدرج في المناصب لذلك ولما أبداه من الكفاءة والمقدرة ، ثم زوجه السلطان بابنته ، وظل يترقى حتى كان وزيراً لناصر الدين محمود بن ألتمش ، وكان له الفضل الكبير في إدارة الحكم ، وقع الغارات والثورات — كما سبق — وظل وزيراً نحو عشرين سنة ، ولمسامات محمود قام بالملك بعده سنة ٦٦٤ هـ ١٢٦٦ م ، ولم يكن يهتم بثورات الهندوس كما كان يهتم بغزوات المغول . وفي أول أمره وجد الخطر عليه من « جماعة الأربعين » الماليك الذين كانوا يتلاعبون بالملك ، فقتضى على نفوذهم ، ونظم الدفاع عن الحدود ضد غارات المغول ، كما أحمد ثروة البنسگال وعين أحداً بنائه حاكماً عليه « وهو بغراخان » . على أن ولى عهده « محمد خان » قتل سنة ٦٨٤ هـ ١٢٨٥ م أثناء دفاعه عن المولتان ضد غارات المغول ، فحزن عليه حزناً شديداً ، حتى توفي بسبب حزنه عليه . .

(١) يقول ابن بطوطه « وقد وقفنى القاضى كمال الدين على مصحف بخطه متين محكم الكتابة » .

(٢) جاء ضبطه في رحلة ابن بطوطه بفتح اللام « بلبن »

وإن التاريخ ليذكر له بالخير والتقدير موقفه الكريم إزاء الأمراء وأبناء الملوك الذين فروا من وجه المغول ، والتجئوا إليه من بلاد تركستان وما وراء النهر وخراسان والعراق وآذربيجان وفارس والشام وغيرها ، فوجدوا عنده الأمن والإكرام والإعزاز ، وكان فيهم بعض أبناء الخلفاء العباسيين الذين كان ينزلهم منزلة خاصة ويجلسهم معه في مجلسه الخاص ، وقد بنى هؤلاء الذين التجئوا إليه عدة أماكن ، وجعلها تجهيزاً طيباً يتناسب مع مقامهم وسماها : محلة عباسي ، محلة سنجري ، محلة خوارزم شاهي ، محلة ديلي ، محلة علوي ، محلة أتابكي ، محلة غوري ، محلة جنكيزي ، محلة رومي ، محلة سنقري ، محلة يمني محلة موصلی ، محلة سمرقندی ، محلة كاشغري محلة خطاطي ، وكان ببلن ، يجد في إكرامه لضيوفه هؤلاء لذة ونعمة يشكر الله عليها .^(١)

ويقول ابن بطوطة : إنه بنى داراً سماها دار الأمن ، فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه ، ومن دخلها خائفاً أمن ، ومن دخلها وقد قتل أحداً أرضى عنه أولياء المقتول ، ومن دخلها من ذوى الجنايات أرضى من يطلبه . وقد دفن بتلك الدار .

وقد كان بلن من خيرة السلاطين سيرة في رعيته ، بذل جهده في تعمير البلاد وسد الثغور . وكان عادلاً فاضلاً حليماً محباً لأهل العلم محسناً إليهم ، يتردد في كل أسبوع بعد صلاة الجمعة إلى بيوت كبار المشايخ فيحظى ويفرح بصحبته ، ويتردد إلى مقابر الأولياء فيزورها وإلى مجالس التذكير ، ويقعد بها كآحاد الناس ، ويداوم على الصلاة بالجماعة ، والصيام فرضاً ونفلاً وعلى صلاة الضحى والتهجد ، وكان لا يدهن في العدل والقضاء ولا يسأح أحداً ولو كان من ذوى قرابته^(٢)

ومن أجل ذلك حكم الدولة حكماً مقروناً بالحزم مستخدماً العنف مع

(١) تاريخ فرشته ج ١ ملخصاً

(٢) نزعة الخواطر ص ١٩٢ ج ١

العصاة الثائرين ، والمجرمين المفسدين ، والحكام الملوئين ، والقواد الخاسرين ، فكان إداريا قديرا وحازما عادلا ، كتب له النجاح والتوفيق إلى آخر حياته .
وقد توفي آخر سنة ٥٨٥ هـ ١٢٨٧ م بعد حياة ، حافلة وبعد أن أوصى بولاية العهد إلى حفيده « كي خسرو » ابن ابنه محمد الذى قتل فى حروبه مع المغول ، وكان يحبه كثيرا كما حزن عليه كثيرا ، ولعل هذا بالإضافة إلى عدم ميله لابنه « بغراخان » هو الذى جعله يعهد بالملك إلى حفيده مع أنه كان شابا صغيرا ليست له تجربة .

ومع ذلك فإن « كي خسرو » لم يتول العرش بعد وفاة جده . فإن نائب السلطان كان يكره والده فعمل على ألا يمكن ابنه من العرش ، فبدرجيلة للتخلص منه وتولية « كيقباد » بن بغراخان بن بلبن ، وقد تم له ذلك فعلا وخرج « كي خسرو » من دلهى شبه فار ، وبقي كيقباد متصرفا فى شؤون الملك فى دلهى ، وكان أبوه لا يزال حاكما فى البنغال ، ومع ذلك لم يكن له من الملك إلا اسمه إذ كان منصرفا إلى اللهو والفساد والشراب تاركا الأمور لنائبه . وقد كادت الحرب تقع بينه وبين أبيه حين تقابل جيشاهما ، ولكنهما تلاقيا وتصافيا وأقر الوالد ابنه على عرشه ، وقدم له نصائحه التى لم يستمع إليها بل ظل غارقا فى لهوه وشرابه حتى مرض بسبب ذلك وأصابه الشلل ، فأفاق حينئذ من سكرته ، ولكن بعد فوات الأوان .

وفى مرضه قام خلاف بين الأتراك والأفغان ، وكل له وجهة ومطمع ، فالأتراك يريدون أن يستمر الملك فى أسرة بلبن ، والأفغان يريدون الاستيلاء على الملك منهم . وجعل « جلال الدين فيروز الخلجى » سلطانا ، وكان كيقباد قد عينه نائبا عنه فى آخر حياته ، بعد أن سم نائبه الأول حين تلبه لسوء عمله واستقلاله بتصرفه ، وقد شاء الله للأفغان أن ينتصروا . فتولى جلال الدين الملك ، وقبض على ناصية الأمر ، ودخل قصر السلطان بعد

حصاره ، وقتل ، كيقباد .. ويقول ابن بطوطه : « حدثني من شاهد ذلك أن السلطان معز الدين « كيقباد ، أصابه الجوع في تلك الأيام ، فلم يجد ما يأكله ، فبعث له أحد الجيران الشرفاء ما أقام أوده ، ثم دخل عليه القصر فقتل » .
وكان ذلك سنة ٦٨٩ هـ ١٢٩٠ م ، وبذلك انتقل الملك إلى أسرة أفغانية ، هي أسرة الخلجي^(١) ، وهي الأسرة التي كان منها « اختيار الدين الخلجي ، الذي قام بالفتوحات في بهار والبنغال أيام شهاب الدين الغوري ، وكان حاكما للبنغال في ذلك الوقت .

(١) نسبة إلى خلج موضع قرب غزنة

السلاطین النجاشية

جلال الدين فيروز شاه

۶۸۹ هـ : ۱۲۹۰ م - ۶۹۵ هـ : ۱۲۹۶ م

استطاع جلال الدين الخلجي أن يستخلص الملك لنفسه من بين أنياب الأتراك المؤيدين لأسرة « غياث الدين بلبن » ، والذين عملوا على أن يولوا الطفل الصغير ابن « كيقباد » الملك ، حتى لا يخرج الحكم من أسرة بلبن ، برغم هذا استخلص جلال الدين الملك لنفسه ، وكانت سنة حينذاك سبعين سنة ، وقد كان من المقربين لغياث الدين بلبن وحفيده كيقباد الذي اختاره في أواخر أيامه نائباً عنه ، ثم صار ملكاً سنة ۶۸۹ هـ - ۱۲۹۰ م .

وقد اشتهر جلال الدين فيروز شاه بالخلم الذي لم يعرف عن أحد من الملوك ، وكانت سنة لها دخل كبير في سلوكه الحليم هذا ، حتى أنه جيء له ببعض الثاثرين عليه مكبلين بالأغلال بعد انتهازهم ، فلم يسعه إلا أن يأمر بفك قيودهم وإكرامهم ، وأجلسهم بمجلسه ، وأخذ يهون عليهم ، ويقول لهم : كنتم زملائي ، وقد جعلني الله ملكاً ، فأنا أشكر الله على نعمته ، ولا أنسى الماضي ، وأتم بوفائكم لأمركم من آل بلبن قد قتم بالواجب عليكم ، ولا يمكن أن أحاسبكم على هذا الوفاء ، فإني وفي كذلك لنعمة غياث الدين بابن ، وكان من وفائه لبلبن أنه يذهب لقصره ، وفيه آل بلبن ، فيترجل عن فرسه حين يقرب منه تعظيماً لذكرى هذا القصر وساكنيه ، وكان يكرمهم ، ويخصهم برعايته ، وإن كان قد اضطر إلى قتل الأمير الصغير الذي عين ملكاً في عهد أبيه ، لحشيته على نفسه منه ، حيث كان الأتراك يتجمعون حوله .

وقد حدثت في أيامه بعض الثورات ، لكنه قمعها ، كما رد بعض غارات المغول ، وكان له ابن أخ يسمى « علاء الدين » ، وكان طموحاً وثاباً ، وكانت هناك شبهة جنوة بينه وبين عمه برغم أنه تزوج ابنته ، وقد ولاه إحدى

الولايات « كره » ومازكبور ، ، وقد ذهب علاء الدين مرة إلى الجنوب بحجة أنه خارج للصيد ، حتى وصل إلى بلاد « ديوكره »^(١) في الدكن ، وهناك باغت بمن معه من الجيش هذه القلعة ، فاضطر ملكها إلى الصلح معه على مال كثير يؤديه له ، فرجع به وبالهدايا التي أهديت إليه ، ولم يذهب إلى دلهي ، بل ذهب إلى « كره » ، ولم يبعث إلى عمه شيئا ، فأغرى الناس عمه به ، فبعث إليه فامتنع من الوصول إليه ، فقال السلطان : أنا أذهب إليه فإنه بمقام ولدي ، وذهب إليه في عساكره ، وركب النهر للوصول إلى ابن أخيه ، حيث تواعدا على اللقاء في النهر ، على أمل أن ينتهى اللقاء نهاية سعيدة مثل ما حدث بين السلطان « كيقباد » وأبيه « بغراخان » ، ولكن علاء الدين كان يضمن القدر لعمه ، فدير حيلة لقتله حين اللقاء به ، والتعاقب معه ، وهكذا تم له قتل عمه الذى ساقه حليه وظنه الحسن إلى حتفه . وكان ذلك آخر سنة ٦٩٥ هـ : ١٢٩٦ م .

علاء الدين الخلجي

المشهور باسم « اسكندر الثاني »

٦٩٦ هـ : ١٢٩٦ م — ٧١٦ هـ : ١٣١٧ م

بعد أن غدر علاء الدين بعمه وقلعه على هذه الصورة ، زحف بجيشه إلى دلهي ، وكانت زوجة السلطان المقتول قد عملت على امتدادة بابنه سلطانا خلفا له . واستعد للملاقاة علاء الدين ، ولكنه لم يستطع الثبات أمامه ، فدخل علاء الدين دلهي واستولى على العرش سنة ٦٩٦ هـ : ١٢٩٦ م ، ونكل بأسرة عمه ، وسمل أعين ولديه^(٢) .

(١) يقول المؤرخ فرشته إن علاء الدين وصل بعساكره إلى بلاد لم يصل إليها مسلم من قبل غازيا .

(٢) جاء في مذكرة الأستاذ حبيب ص ٢٠ ما يفيد أن علاء الدين لم يكن ابن أخى فيروز شاه . وهذا خلاف ما ذكره المؤرخون ، فقد ذكروا كما ذكرت أن فيروز شاه كان عم علاء الدين . قال ابن بطوطة ص ٣٩ ج ٢ (وكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين وابن أخ اسمه علاء الدين زوجه بابنته الخ) .

ولما استقرت له الأمور بدأ يمتح لثؤون الدولة الحربية والاجتماعية ،
والحق أنه كان سلطانا قويا في سطوته ، منظما لأموار دولته ، اتسعت رقعة
المملكة في أيامه اتساعا لم تشهده قبله . .

شهدت الهند في أيامه سنة ١٣٠٤ هـ - ١٣٠٤ م غارة كاسحة للغول تحت
قيادة « علي بيك جنكيزي » وخواجه تريال ، ، حتى وصلوا إلى أبواب دلهي
وحاصروها ، فجهز لهم علاء الدين جيشا ع-ته ثمانمائة ألف رجل . وألفان
وسبعمائة من الفيلة بقيادة ملك نايب ، فقاتلهم قتالا شديدا حتى هزمهم وداس
الفيلة رؤسائهم في دلهي . إلا أن كثيرا منهم تفرقوا في البلاد ، واستوطنوا فيها ،
وصاروا بعد قليل عنصر قلق وخطر على علاء الدين ، فاضطر لتعقبهم ،
والقضاء على عشرات الآلاف منهم ، والاستراحة من شرهم ، وكان ذلك سنة
١٣٠٥ هـ - ١٣٠٥ م .

وفي سنة ١٣٠٦ هـ - ١٣٠٦ م أرسل جيشه إلى الدكن بقيادة « خواجه حاجي
وملك نايب » ، فتم لهم الانتصار على حاكمها ، وضموا بلاده إلى مملكة علاء الدين .
ثم قصد جيشه قلعة « ديوكره » ، ويسمى ابن بطوطة « الدويكير » ، وتأتي
في بعض الكتب باسم « ديوكير » ، فأعلن صاحبها الاستسلام ، وقدم
لعلاء الدين التحف والهدايا حين قدم عليه في دلهي مذعنا خاضعا ، فأكرمه
وجعله واليا على بلاده وما حولها من قبل سلطان دلهي . .

وقبل ذلك استولى على الكجرات من الراجبوت ، ولكي تصور الحروب
التي قام بها ، والفتوحات التي تمت له في اختصار ننقل لك ما جاء في حاضر
العالم الإسلامي عنه ^(١) :-

« سنة ١٢٩٠ م انتقلت سلطة الهند من أيدي الممالك إلى « آل قليجي » ،
الافغانيين ، فامتاز من هؤلاء السلطان « علاء الدين » ، الذي كسب للمسلمين
فتوحات جديدة ، فأخضع بهوپال ، واجتاح بلاد المهرات - في مقاطعة

(١) ص ٢٩٣ ج ٤ . وكان المؤرخ ينسب هذه الأسرة « آل قليجي » إلى قانج خان .
وكان رأس هذه الأسرة . كما تنسب أحيانا إلى « خليج » وطنهم الأصلي فيقال خليجي .

بلاد بومباي الحاضرة - وحرب على راجا المهرات الجزية ، وفتح مدنا ،
وقفل بغنائم كثيرة ، وعام ١٢٩٧ م زحف ١٠٠ ألف مغولي بما وراء النهر ،
يقودهم أمير من ذرية جنكيزخان قاصدين البنجاب ، فالتقى بهم علاء الدين ،
وهزمهم شر هزيمة بقرب دلاهور ، فعادوا سنة ١٣٠٥ م ، وتقدموا نحو
دلهي ، فكسروهم علاء الدين كسرة أشنع من الأولى ، وأسر منهم جانبا ، رماهم
تحت أرجل الفيلة فداستهم ، ثم عاد علاء الدين إلى إتمام فتح الهند الوسطى
فاستولى على مملكة گجرات ثم غزا مملكة «جيتور» ، وبعد حرب
ضروس التبا ملكها إلى جبال «أرافالي» ، فلم يرجع علاء الدين عنه إلا بعد
أن أقر له بالطاعة ، وفي سنة ١٣٠٨ م سير علاء الدين أحد قواده الملك
كافور ،^(١) لغزو مملكة دكن ، وامتنع راجا مملكة مهرات عن دفع الجزية ،
فغزا بلاده ، ومملكة «تلينگانا» ، وفتح عنوة عاصمتها فآرا نغال ، واستولى على
خزائن ملكها ، وفي سنة ١٣١٠ م غزا مملكة «ميسور» واجتاح مدينة «هاليبيد»
العظيمة . ثم في أثناء إيباه لدلهي قتل راجا المهرات الذي عاود العصيان ، وضم
المهرات إلى سلطنة دلهي . وفتح الدكن لم يتيسر لالاسكندر ، ولا
لمحمود الغزنوي ، ولا لمحمد الغوري ، وكل من هؤلاء الناحين العظام لم
يصل إلى بلاد الدكن في غزواته .

وهكذا كتب النصر لعلاء الدين في كل الحروب التي خاضها جيشه حتى
لقب بـ«الاسكندر الثاني» ، وكان من أشهر قواده : كافور ، وظهرخان ،
وألغ خان ، «الماس بيك» ، وقد قال بعض المؤرخين : «إن عدة المعارك
العلائية كانت أربعة وثمانين وفي كلها ظفر وغنم»^(٢) . ولكن كان كافور هو
نائب السلطان وأشهر القواد وأقربهم إليه ، وقد سكر علاء الدين بنشوة

(١) كان يسمى «كافورا» «ملك نايب» وكان هندوسيا فأسلم ، وهذا الاسم
الأخير «ملك نايب» يظهر أنه أضيف إليه لما عينه الملك نايبا له فصار نائب الملك . ولكنهم
يقدمون نضاف إليه فيقولون «ملك نايب» ولهذا كانت هذه التسمية «الملك كافور» غير
صحيحة كما يظهر لي .

(٢) نقلا عن نزهة الخواطر ج ٢ ص ١٥٢ .

الاتصار الذى كان ملازماً له ، ولم يكن على قدر من العلم ، فسوات له نفسه أن يخترع ديناً جديداً يضع فيه نفسه موضع التقديس ، غير أن صاحبه .
« علاء الملك » قاضى قضاة دلهى أقنعه بالمعدول عن مثل هذه الأفكار (١) .

وإذا كنا الآن قد شغلنا مع علاء الدين بحروبه وانتصاراته ، فإن هناك جانباً هاماً من أعماله نجب أن نقف عنده ، وكان هذا الجانب خليطاً من الظلم والقسوة ، ومن رعايته لشؤون شعبه فيما يختص بأسعار حاجات المعيشة .

ذلك أن بعض أفراد أسرته حدثته نفسه بالقضاء عليه ، فكان رد علاء الدين عليه أن فتك به وبكل من حامت حوله شبهة فى ذلك ، وأخذ يعامل الأمراء بالشدّة ، وبث حولهم العيون ، حتى أصبحوا فى فزع من أن يتكلموا بشيء ، كما قيد حريتهم ، وأمرهم ألا يتصاهروا إلا بإذنه ، وصادر كثيراً من ثرواتهم ؛ فقد قيل له إن الحرية التى أعطيت لهم ، والمال الكثير الذى صار فى أيديهم هو الذى دفعهم إلى الثورة عليه ، فكان رده على ذلك أن صادر حرياتهم ، والمال الذى فى أيديهم ، ومنع شرب الخمر والمخدرات . وقد أصدر بعض القوانين التى تحد من زيادة الثروة فى أيدي الناس ، ومنها - كما جاء فى نزهة الخواطر : (١) أن يؤخذ نصف غلات الأرض لبيت المال بغير استثناء . (٢) ألا يزيد أحد مهما كان على امتلاك أربع بقرات (ثيران) للزرع ، وجامرستين وبقرتين واثني عشر رأساً من المعز (٣) وأن تؤخذ الضريبة على غلف الدواب .

على أن عنايته بتسعير مواد المعيشة وغيرها يوحى إلينا بمقدار حرصه على راحة شعبه ، وتوفير حاجاته بثمن معتدل لا يظلم فيه على المنتج أو المستهلك . يقول ابن بطرطة عنه : « كان من خيار السلاطين ، وأهل الهند يثنون عليه كثيراً ، وكان يتفقد أمور رعيته بنفسه ، ويسأل عن أسعارهم ، ويحضر

(١) كما جاء فى مذكرة الأستاذ حبيب وفى المسألة الهندية للأستاذ عبد الله حنين ، وقد لاحظت فى المسألة الهندية أن المؤلف كثيراً ما يحرف الأسماء نظراً للنقل عن الإنجليزية فيذكر مثلاً اسم « خوارزم » هكذا « خوارا سام » ويذكر اسم قائد علاء الدين « خواجه حاجى » هكذا « خاجا حاجى » .

المحتسب - وهم يسمونه الرئيس - في كل يوم لذلك ، ويذكر أنه سألهم يوما عن سبب غلاء اللحم . فأخبره أن ذلك بسبب كثرة المغرم ، الضريبة ، على البقر . فأمر برفع ذلك ، وأمر بإحضار التجار ، وأعطاهم الأموال وقال لهم : اشترؤا بها البقر والغنم وبيعوها للناس . وما يرتفع من ثمنها لبيت المال ، ويكون لكم أجرة على بيعها ، ففعلوا ذلك . وفعل مثل هذا في الأثواب التي يؤتى بها من دولت أباد ، ، وكان إذا غلا الزرع فتح المخازن ، وباع الزرع حتى يرخص السعر ، ويذكر أنه ارتفع السعر ذات مرة ، فأمر ببيع الزرع بثمان عينة ، فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن ، فأمر ألا يبيع أحد زرعاً غير زرع المخزن (يريد مخزن الحكومة) ، وباع للناس منه ستة أشهر ، فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس ، فرغبوا أن يؤذن لهم في البيع ، فأذن لهم على أن يبيعوه بأقل من القيمة الأولى التي امتنعوا عن بيعه بها ،

وقد عني صاحب نزهة الخواطر^(١) بتفضيل هذا الجانب من أعمال

علاء الدين فقال :

لأنه أسس قواعد السعر للأطعمة والأقشة ، وكل ما يحتاج إليه الناس ، ثم بين قواعد تسعير الأطعمة بتوليته محتسبا يشرف على سوق الأطعمة وأسعارها ، وتحصيل الضريبة على الزرع عينا ، وتخزينها في مخازن الحكومة ليخرجها حين تقل الأطعمة أو يرتفع السعر . وتخصيص تجار الأطعمة بالسكنى والبيع في مكان معين على نهر وجمنا ، كما منع الزراع من خزن ما زاد عن حاجتهم ، وأمر بعرض الأسعار كل يوم عليه ، وكان يتفقد بنفسه هذه الأسعار ثم ذكر القواعد التي اتخذها بخصوص الأقشة ، وكيف بنى لها سوقا خاصا عند الباب البديوني بدمل ، وأعد دفاتر لحصر المعاملات ، وتقيد أسعارها وكميتها ، وأعطى تجار ملتان ، مبالغ كبيرة ليتولوا بأنفسهم جلب الأقشة من البلاد الأخرى وبيعها ، بالأسعار المعهودة .

(١) كما عني المؤرخ فرشته كذلك بتفصيلها . . .

وهكذا فعل بتجارة الخيول والبقر والجواميس والإبل والمعز والضأن، وكل شيء يحتاج إليه الناس من الأبرة فما فوقها على ما يناسبه الزمان .

وقد توسع صاحب نزهة الخواطر في ذلك حتى ذكر الأسعار التي عرفت لهذه الأشياء كلها حسب التعامل في ذلك الزمان ، وهذا وإن كان لا يمتينا الدخول في تفاصيله ، إلا أننا نأخذ منه صورة عامة عن سياسة علاء الدين ، واجتهاده لتأمين شعبه في معيشته ، وتوفير أسباب الرخاء له . بقدر ما يمكنه ، ولا شك أن ذلك جهد يستحق التقدير ، وعناية يقابلها المؤرخ بالثناء . .

وبما ورد في الأشياء المسعرة « السكر القالب المصري ، بما يدلنا على أن مصر كانت تصدر إلى الهند هذا النوع ، وإلا فنأين جاءت هذه التسمية ؟ وللآن لا زال الناس يسمون السكر باسم « مصري ، كما سمعت مرارا ، كما يسمون نوعا من العدس باسم « مصري دال » أى عدس مصري . . وهو العدس المشهور المعروف في مصر . وفي الهند أصناف من العدس قد تصل إلى العشرين . ونختم كلامنا عن علاء الدين بما جاء في تاريخ البرقي عنه ، قال (١) :

« إن حدود مملكته اتسعت لدرجة لم تتفق للملك من قبله ، وتوطدت الأمور وسار كل شيء طبق رغبته ، وامتلات خزائنه بالذهب والنضة والجواهر ، وكان كثير البذل سفاكا للدماء ، أميا لا يعرف القراءة والكتابة ، إلا أنه كان موافقا في كل مقاصده ، خيرا في قيادة الجيوش وإدارة الأحكام ، وحينما اغضب الملك من الشاه فيروز صار ينثر الذهب في طريقه على أعوان الملك السابق استجلايا لهم ، وكسبا لولائهم ، فلما تم له ذلك قلب لهم ظهر المجن وقبض عليهم جميعا ، فقتل البعض منهم وسمل عيون الآخرين ، وصادر أموالهم ، واستصنى أملاكهم ، ولم يستثن إلا ثلاثة تنزهت نفوسهم عن قبول الرشوة ، وارتكاب الخيانة لسيدهم السابق ، فأعطى بذلك درسا عظيما للذين لا وفاء لهم ولا عهد ، والذين يلبسون ثوب زيد لعمر وطبقا للظروف ، وتماشيا

(١) قلا عن مذكرة الأستاذ حبيب ص ٥٣ وكذلك جاء في تاريخ فرشته ج ٢ .

مع الهوى ، ولقد بالغ علاء الدين فى احترام القواد الثلاثة الذين حافظوا على ولائهم لفيروز ، فأفاد بذلك الجيل المعاصر له درساً أخلاقياً متيناً .

وإننا من جانبنا نعتبر هذا التصرف دليلاً على العقلية الواسعة ، والنفسيّة الكبيرة لهذا السلطان . وقد توفى فى شوال سنة ٧١٦ هـ ١٣١٧ م ، فيكون قد مكث فى الحكم عشرين سنة حافلة بمجالات الأعمال . ومن آثاره الباقية فى دهلى حتى الآن الجزء الذى أعانفه لمسجد «قوة الإسلام» من الناحية الجنوبية ، والأبواب الضخمة التى عملها له ، وتعرف باسم «علاقى درواز» ، أى بوابة علاء . وقد شاهدتها ، ولا تزال متينة وتعلوها قبة كبيرة ، وكلها من الحجر الأحمر .

وبما تجدر الإشارة إليه أنه فى أيام هذا السلطان وسلفه وخلفائه أيضاً عاش رجلاّن عظيمان لهما فى تاريخ الصوفية والشعر مقام ملحوظ فى الهند ، أولهما : الشيخ نظام الدين البديونى الصوفى الكبير ،* ولد فى بدايون سنة ٦٣٦ هـ ١٢٣٨ م وانتهت إليه الرياسة فى دعاء الخلق إلى الله ، وكان جلال الدين فيروز الحلبيّ وعلاء الدين يحترمانه ، ويحاولان مراراً أن يزوراه ، ولكنه كان يمتنع عن مقابلتهما وقد توفى سنة ٧٢٥ هـ ١٢٢٤ م^(١) ودفن فى دهلى وقبره مشهور وتسمى منطقة كبيرة فى دهلى باسمه . نظام الدين أولياءه ، وتتخذ جماعة التبليغ فى الهند مركزها الرئيسى فى مسجده .

وثانى الرجلين الشاعر الصوفى العظيم «الأمير خسرو» ، بلغ مرتبة عظيمة عند الملوك ، وكان شاعراً متفذاً وصوفياً مخلصاً . وكان تلميذ الشيخ نظام الدين وصفيه . تأثر لوفاته فمات بعده بقليل . ودفن بجواره سنة ٧٢٥ هـ ١٢٢٤ م .

*

خلفاء علاء الدين

كان لعلاء الدين من الأولاد : خضر خان ، وشادى خان . وأبو بكر خان ، ومبارك خان الذى لقب بقطب الدين ، وشهاب الدين . وشاء الله ألا يبارك فى هذه الذرية . فكان نصيبهم جميعاً القتل .

سجن خضر خان في عهد أبيه في حصن كواليار لغضبه عليه ، وتوفي علاء الدين وابنه في سجنه ، وعمد « كافر » ، الذي كان قد بلغ منزلة كبيرة في عهد علاء الدين إلى « شهاب الدين » ، الابن الأصغر للسلطان ، ونصبه على العرش لينفرد بالسلطة ، فقد كان عمره ست سنوات ، وقبض على أبي بكر خان ، وشادى خان وسمل أعينهما وأرسلهما إلى السجن مع أخيهما خضر خان الذي سمل عينيه أيضا ، ونجا قطب الدين من سمل عينيه ، وبجوار ذلك أساء « كافر » ، معاملة الملكة الوالدة ، واغتصب أملاكها وسجنها ، وظن أن الأمر بذلك قد استتب له ، ولكن الله سلط عليه عبيد مخلصين لذكرى سيدهم وهما « بشير ومبشر » ، فقتلاه ولما يمض عليه عدة أسابيع ، أخذ جزاءه .

وتولى الملك « قطب الدين مبارك » ، في محرم سنة ٧١٧ هـ ١٣١٧ م بعد أن خلع أخاه الصغير « شهاب الدين » ، وسمل عينيه هو الآخر وسجنه مع أخويه ، وكانت هذه القلاقل والحوادث في العاصمة باعثة بلاشك على خروج من يستطيع الخروج عليها ، فاعطى قطب الدين أن يسير إلى الدكن لتأديب الخارجين عليه هناك ، وقبض على رأسهم « هريال ديو » ، وسلخ جلده ، وحين أحس بحركة ترمى إلى تولية ابن أخيه خضر خان بدله ، أخذ ابن أخيه هذا وكان يرانقه ، وسنه عشر سنوات . وأمسك برجليه ، وضرب برأسه الحجارة حتى نثر دماغه كما يقول ابن بطوطة ، ثم بعث برسول إلى القلعة التي سجن فيها خضر خان وإخوته ، فقتلهم جميعا ، كما قتل أطفالهم ، وأخرج نساءهم من البيوت ، ويقول ابن بطوطة « ولما أتوا بخضر خان ليضربوا عنقه فزع ، وكانت أمه معه ، فسدوا الباب دونها وقتلوه ، وسحبوهم جميعا ورموهم في حفرة دون تكفين وغسل ، وعاشت أم خضر خان مدة ورأيتها بمكة سنة ٧٢٨ هـ (١) »

ولم يسر قطب الدين سيرة أبيه ، فانفرط عقد الدولة ، كما انصرف هو إلى اللهو والشراب ، وقد سلط الله عليه من يقتص منه للقتلى الذين قتلهم ، وكان

أحب الناس وأقربهم عنده ، وأكثرهم تسلطاً عليه وهو « خسروخان ، أحد قواده المحبيين لديه حيث دبر مؤامرة لقتله ^(١) ، وتم له ذلك ، ورمى بجثته من سطح القصر إلى صحته في ربيع الأول سنة ٧٢١ هـ - ١٣٢١ م ، وأرسل خسروخان إلى الكبراء والأمراء - وكان كبير وزراء قطب الدين - فجاءوا إليه وهم لا يعلمون ما حصل . وكلما دخلت طائفة وجدوه على سرير الملك ، فبايعوه باسم ناصر الدين خسروخان وأغدق عليهم العطاء ، ولكن سيرته فيما بعد كانت شاذة لم تشهد البلاد مثلها ، ففوق أنه قبض على نساء قطب الدين ، واتهك حرماتهن ، ووزعن مع بناته على الأشراف من أعوانه ، كان ميالا إلى الهندوس ؛ فقد كان هندوسيا وأسلم ، فاحتضنهم وبلغ الأمر به أن وزع بعض بنات الأشراف عليهم ، كما حرم ذبح البقر مراعاة لهم . وكان الجبال من أتباعه الهندوس يتخذون المصاحف كراسي يجلسون عليها ^(٢) ويضعون الأصنام في المساجد .

وقد ضج الناس من هذه التصرفات الشاذة ، واستغاث أشراف دلهي وأعيانها بحاكم لاهور ، غازي ملك ، أو الملك الغازي ، طغلق ، الذي لم يقر تصرفات خسرو من أولها ، وغضب عليه لخيانته سيده وقتله إياه ، فوجد الفرصة سانحة للزحف إلى دلهي ، وتخليص البلاد من شر هذا السلطان ، الذي سمى نفسه « مساعد المؤمنين خسروخان » ، ١١١ فتم له وللشعب ما أرادوا ، وتخلصوا منه وسقوه من الكأس التي سقى منها غيره ، وكان ذلك في شعبان سنة ٧٢١ هـ - أغسطس سنة ١٣٢١ م بعد حكم لم يدم أكثر من خمسة أشهر . وبذلك انتقلت سلطنة دلهي إلى أسرة « طغلق » ^(٣) .

(١) ذكر تفاصيلها ابن بطوطة ج ٢ ص ٤٥ ، وكان خسروخان هندوسياً وأسلم وتزوجه سلطان إليه .

(٢) قاييغ فرشته ج ١ ص ٤٢٧ (٣) تكتب « طلق » و « تلق » بالناء .

الدولة الطغلقية

غياث الدين طغلق شاه

٧٢١ هـ الموافق ١٣٢١ م إلى ٧٢٥ هـ الموافق ١٣٢٥ م

يقول المؤرخ فرشته : إن مؤرخى الهند القدامى والمحدثين أهملوا ذكر نسب طغلق ، وأنه لذلك ذهب لأحد حكام لاهور يسأله عن هذا النسب ، ثم ذكر أن والده كان من غلمان السلطان غياث الدين بلبن ، وكان تركيا .

ويذكر ابن بطوطة (١) ويعتبر مرجعا مهما في تاريخ طغلق وابنه محمد نظرا لأنه زار الهند في أيام الأخير وكتب ما شاهده وسمعه - يذكر أن طغلق كان من الأتراك القروانة ، وهم قاطنون بالجبال التي بين بلاد السند والترك ، وكان ضعيف الحال ، فقدم السند في خدمة بعض التجار ، وذلك في أيام السلطان علاء الدين الخلاجي ، وأمير السند إذ ذاك أخوه « أولغ خان » ، فخدمه طغلق وتعلق بجماله ، ثم ترقى في خدمته حتى صار أميرا للخيل ، ثم من الأمراء الكبار .

ولما تولى قطب الدين ولاء مدينة « ديال پور » وعملاتها ، وجعل ولده محمدا أمير خيله ، ثم لما قتل قطب الدين ، وولى خسروخان أبقاه على إمارة الخيل .

وقد أبلى طغلق في حرب المغول (٢) بلاء حسنا ، حيث كان قريبا من الحدود ، فقام بصددهم عن دخول الهند ، فسمى بالملك الغازي ، ويقول ابن بطوطة : إنه دخل المسجد الجامع بملتان فوجد مكتوبا على مقصورته « إني قاتلت التتر تسعا وعشرين مرة ، فهزمتهم ، فحينئذ سميت بالملك الغازي » ،

ولما أراد « طغلق » أن يسير إلى دلهي لمقاتلة خسروخان ، كتب إلى كشلو خان وهو يومئذ بملتان ، وإلى غيره من الحكام يطلب منهم القيام بنصرته ، ويذكرهم بنعمة قطب الدين عليهم ، كما كتب إلى ولده « محمد » - وكان أمير الخيل عند السلطان خسروخان - أن يأتي إليه ، ففر إلى أبيه بالخيل التي

(١) ص ٤٧ وما بعدها ج ٢ . (٢) ينطقها أهل الهند (مغل) وهو النطق الصحيح كما سنعرف بعد ، ولكننا جازينا النطق المشهور انمود الناس عليه .

كانت تحت يده ، وجهاز طغلق الجيش ، وسار به مع كشلو خان إلى دلهى ، فهزم جيش « خسرو خان » الذى خرج لمقابله بقيادة أخيه « خان خانان » ، وسار طغلق حتى وصل دلهى ، والتقى بجيش السلطان ، ودار قتال عنيف انتهى بانتصاره بعد أن كاد يهزم ، ودخل القصر السلطانى .

وقال لكشلو خان : تكون أنت السلطان ، فقال له : بل أنت تكون السلطان وتنازعا ، ثم قبل طغلق أن يتولى الملك ، أما خسرو فكان قد فر ، وأخيرا جىء به بعد أن قبض عليه ، فقال للسلطان إنى جائع فأمر له بالطعام والشراب فلما أكل وقف وقال : يا طغلق افعل معى فعل الملوك ، ولا تفضحنى ، فقال له : لك ذلك ، وأمر به فضربت رقبته ، وذلك فى الموضع الذى قتل هو فيه قطب الدين ، ورعى برأسه وجسده من أعلى السطح ، كما فعل هو برأس قطب الدين ، وهكذا كانت نهاية هذا المعتدى ، وكما تدين تدان ، وكان ذلك سنة ٨٧٢١ - ١٣٢١ م .

وأسس طغلق شاه أسرة حكمت الهند نحو مائة سنة وبعد ما استقرت له الأمور جعل ابنه « محمدا » - وكان يسمى « جون » ، و « ألغ خان » - ولياً للعهد ، وسيره على رأس جيش للجنوب ، حيث خرج عليه راجا ورننگل وبلاد التلك ، وهناك أراد ابنه أن يخرج على أبيه بوسوسة بعض قواده ، ولكن الآخرون امتنعوا عليه ، فلما علم أبوه بذلك مؤخرا عاقب بعضهم ، وفر الآخرون ، والتجئوا إلى سلطان بنگال من أسرة غياث الدين بلبن . وفى ذلك الوقت اشتكى أميران من أمراء بنگال بما فعله بهما أخوهما السلطان هناك ، فرأى طغلق أن يسير بنفسه إليه ، ويترك ابنه « ألغ خان » ، ولى عهده نائباً عنه فى دلهى ، فسار للبنگال وحارب السلطان وهزمه ، وجاء به أسيراً إلى دلهى ، وعين بدله أخاه ناصر الدين أحد أخويه اللذين فرا لدلهى من قبل ، ففضى بذلك على استقلال بنگال ، وجعلها تابعة لدلهى .

ولكنه لم يتمتع طويلا بشرة انتصاراته ، ففى أثناء عودته دبر ابنه له مؤامرة ، حيث بنى له بيتا من خشب يستقبله فيه حين قدومه ، فلما استقر فيه جاء بالفيلة واستعرضها أمامه فى ناحية منه فوقع البيت عليه ، ودفن تحت

أقضاؤه ، يقول ابن بطوطة : بعد أن طعم الناس وانصرفوا استأذن ابنه في أن يعرض الفيلة أمامه ، وكان قد أقامه بواسطة الملك زاده واسمه ، أحمد بن إياس ، كبير وزراء السلطان ، بحيث إذا وطئت الفيلة ناحية منه سقط كله ، فلما وطئته سقط البيت على ولده ، محمود ، فأمر ابنه أن يوثق بالفتوس والمساحي للحفر عنه ، وأشار بالإبطاء ، فلم يوث بهما إلا وقد غربت الشمس ، فأخرجوه فوجدوا أنه قد أحنى ظهره على ولده ليقيه الموت ، ودفن في مقبرته التي بناها من قبل في « طغلق آباد » (١) ، وكان ذلك سنة ٧٢٥ هـ - ١٣٢٥ م .

ويذكر المؤرخون عن « غياث الدين طغلق » أنه كان عادلا فاضلا كريما حلما متورعا حسن الأخلاق راجح العقل متين الدين ، كان يلزم الصلوات الخمس بالجماعة ، ويجلس للناس في الديوان العام من الصباح إلى المساء ، ويتفقد بنفسه أحوال الناس ، ويكرم العلماء والمشايخ ويعظمهم تعظيما بالغا (٢) .

محمد طغلق شاه

٧٢٥ هـ - ١٣٢٥ م إلى ٧٥٢ هـ ١٣٥١ م

سبق أن ذكرنا أشياء من حياته ، ولما توفي أبوه تولى هو الملك باسم محمد طغلق ، وكنيته « أبو المجاهد » وكان اسمه « جونه » (٣) ، ثم سماه أبوه « ألغ خان » وهو ولي العهد . يقول عنه صاحب نزهة الخواطر (٤) : « إنه السلطان الجائر المشهور بالعاذل ، وكان من عجائب الزمن ، وسوايح الدهر ، لم يرى مثله في الملوك والسلطين في بذل الأموال الطائلة . وسفك الدماء المعصومة . وجاء ابن بطوطة إلى دلهي في زمانه سنة ٧٣٤ هـ ١٣٣٧ م ، ودرن كل ما شاهده وما سمعه عنه ، ويقول (٥) : - « أما أخبار هذا الملك فعظمها بما

(١) معنى آباد : عمران . وكذلك معنى « پور » وقد صارت هذه المدينة الآن آثارا وخرائب جنوب دلهي .
(٢) نزهة الخواطر ص ١٠١ ج ٢ .
(٣) وسميت مدينة « جونپور » المعروفة في الهند باسمه لأن .
(٤) ج ٢ ص ١٢٩ .
(٥) ص ٥٢ وما بعدها ج ٢

شاهدته أيام كوفي بيلاده ، ثم يصفه فيقول : وهو « أحب الناس لإسداء العطايا وإراقة الدماء ، فلا يخلو بابه من فقير يغنى ، أوحى يقتل . » ثم يقول ، وسنذكر من أخباره عجائب لم يسمع بمثلها عن تقدمه ، وأنا أشهد الله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين ، وكفى بالله شهيدا ، وبعض مآثره لا يسعه عقل كثير من الناس ، ولذا يعدونه من باب المستحيل عادة ، ولكنه شيء عاينته ، وأخذت بحظ وافر منه ، ولا يسعني إلا قول الحق فيه ، وابن بطوطة لم يقتصر على ذكر كرمه ومدائحه ، ولكنه ذكر بجانب ذلك فظائعه وجرائمه التي ارتكبها ، ومن أجل هذا نعتقد أن ابن بطوطة لم يحامل بل ذكر - كما يقول - كل ما رآه ، وهو من أجل ذلك يعتبر من أوثق المصادر عن تاريخ هذا الملك . وتذكر بعض كتب التاريخ عنه (١) . أنه كان متدينا لا يشرب الخمر ، وقائدا شجاعا وإداريا قديرا ، يعتبر أحد القواد والإداريين العظام . غير أنه كان شديدا في معاملة رعاياه إلى حد القسوة . يقتل أحدهم على الذنب الصغير .

وجاء في كتاب حاضر العالم الإسلامي (٢) : - « وظهر من بنى طغلق هؤلاء سلطان اسمه محمد ، اشتهر بالحنف والعسف ، فغاض بسياسة الهنود والمسلمين معا ، فانتبذ كل أمير في مملكته ، وأعلن انفصاله عن دلهي ، فملك في الدكن ، وملك في مالوا ، وملك في البنغال .. الخ ، وكلهم أصبحوا مستقلين بأنفسهم ولم يبق بيد حكومة دلهي سوى دواب (٣) والبنجاب ، وهذه أيضا تعرضت لفادحة كبرى ، وهي غارة المغول . ويقول المؤرخ فرشته (٤) : إن محمد طغلق ورث ملكا واسعا مستقرا ، واستمر كذلك وهو يحكم البلاد من دلهي مباشرة أو بواسطة الراجاوات ، وكان المال يتدفق كالطر على الخزينة

(١) مثل المسألة الهندية ص ١٢٥ (٢) ص ٢٩٣ ج ٤

(٣) اسم للأراضي الواقعة شرق دلهي بين نهري جينا وكنكا و « دواب » معناها النهران . لأن « دو » معانها اثنتان « وآب » معناها الماء أو النهر . ومثل هذا « بنجاب » أى الأنهار الخمسة . « بنج » معناها « خمسة » . وهو اسم للمنطقة التي تجري فيها الأنهار الخمسة .

(٤) ص ١٢ وما بعدها ملخصا ج ١ .

العامة للدولة ، لكن هذا الملك المستمر اضطربت دعائمه بعد ذلك ، وأخذت الولايات تنفصل عن دلمى وتستقل عنها ، ويذكر أسبابا عدة لذلك . منها : كثرة الإنفاق على الحملات الحربية التي وجهها إلى الأطراف ، وكثرة سفكه للدماء دون مراعاة لخلق أو دين ، ثم كثرة الضرائب التي اضطرت إلى فرضها لمجابهة الإنفاق والمطايا الكثيرة . ثم ما أحدثه من نظام النقد بغير الذهب والفضة .

وبالإضافة إلى هذا تلك المجاعة وهذا القحط الذي حدث في أيامه ، وسبب له وللدولة وللشعب متاعب كثيرة ، وهكذا نجد الملك العريض الذي ورثه لم يستطع أن يحافظ عليه ، برغم ما تصفه بعض كتب التاريخ من أنه كان من الإداريين والقواد العظام .

* * *

والواقع أن شخصية هذا السلطان تتعب المؤرخ الذي يريد أن يصدر الحكم عليه نظرا لأفعاله المتناقضة ، ولا أستطيع إلا أن أقول إنه كان من أصحاب الشخصيات المزدوجة ، يجمع في وقت واحد بين شخصيتين : شخصية متمسكة بالدين متواضعة غاية التواضع ، كريمة غاية الكرم ، وشخصية أخرى بعيدة عن الدين كل البعد ، حين يسرف في سفك الدماء دون رعاية لخلق أو دين أو إنسانية ، لا فرق عنده بين مسلم وغير مسلم ، بل ربما كان نصيب المسلمين من ظلمه أكثر .

وأحب بعد ذلك أن أضع أمامك بعض الحوادث التي ذكرها المؤرخون ، وأولهم ابن بطوطة الذي أعاد عليه وولاه القضاء .

بعد أن سرد ابن بطوطة أخباره الغريبة في البذل والعطاء دون حساب ، ذكر حكايات في تواضعه وتمسكه بالشريعة يتخيل الإنسان منها أنه من طراز الخلفاء الراشدين . قال :

ادعى عليه رجل من كبار الهنود أنه قتل أخاه من غير موجب ودعاه للقاضي :

فمضى على قدميه ولا سلاح معه إلى مجلس القاضي ، وكان قد أمره قبل ذلك ألا يقوم له . فحكم عليه القاضي ، ونفذ حكمه ، وأغرب من هذا ما حكاه عن أمير صبي ادعى على السلطان أنه ضربه من غير موجب . ورفع إلى القاضي فحكم عليه بأن يرضيه وإلا أخذه بالقصاص .

يقول ابن بطوطة : فشاهدته يومئذ ، وقد عاد لمجلسه ، واستحضر الصبي وأعطاه عصا ، وقال له : وحق رأسي لتضربني كما ضربتك ، فأخذ الصبي العصا وضربه بها إحدى وعشرين ضربة ، حتى رأيت السكلا (القلنسوة) قد طارت عن رأسه .

ثم يقول : وكان السلطان شديداً في إقامة الصلاة ، أمرا بملازمتها في الجماعات ، يعاقب على تركها أشد العقاب ، ولقد قتل في يوم واحد تسعة رجال على تركها ، كما أمر أن يطالب الناس بعلم فرائض الصلاة والوضوء وشروط الإسلام ، فكانوا يسألون عن ذلك فمن لم يحسنه عوقب .

ويقتل ابن بطوطة بعد هذا لذكر الجانب المظلم من أعماله فيقول : وكان على ما قدمنا من تواضعه وإنصافه ورفقه بالمساكين ، وكرمه الخارق للعادة - كثير التجاسر على إراقة الدماء ، لا يخلو بابه عن مقتول إلا في النادر ، وكنت كثيرا ما أرى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هنالك ، ولقد جئت يوما فنفرني الفرس ، ونظرت إلى قطعة بيضاء في الأرض ، فقلت ما هذه ؟ فقال بعض أصحابي : هي صدر رجل قطع ثلاث قطع ، وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة ، ولا يحترم أحدا من أهل العلم والصلاح والشرف .

ثم يذكر ابن بطوطة بعض حوادث القتل والتعذيب . ومنها هذه الحادثة التي وقعت للشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراساني . وكان من كبار الصلحاء ، يزوره السلطانان السابقان قطب الدين وطلق ، ويعظمانه ويتبركان به . فلما تولى محمد طلق أراد أن يستخدمه جريا على عادته من استخدام الفقهاء والصلحاء ، محتجا بأن الصدر الأول من المسلمين كانوا يستعملون أهل الصلاح ، وحدث الشيخ في ذلك بمجلسه العام فامتنع ، فغضب عليه ، وأمر الشيخ الفقيه

المعظم ، ضياء الدين السمناني ، أن ينتف لحيته ، فأبى ضياء الدين ذلك . وقال لا أفعل هذا ، فأمر بنتف لحية كل منهما ففتفت ، ونفاهما من دلهي ، وبعد أن ذكر بعض أحوال الشيخ شهاب الدين بعيدا عن دلهي قال : إن الملك عاد بعد سنين وطلب منه أن يلى بعض الأعمال . فقال لا أعمل لظالم . فبلغ الملك ذلك ، فأق به ، فأصر على قوله ، وقال له : أنت تعرف أنك ظالم ، فقيده وغل يديه ، ومكث على ذلك أربعة عشر يوما لا يأكل ولا يشرب . وفي كل يوم يحضره أمام الفقهاء الذين يلحون عليه بالرجوع عن قوله ، فيزداد إصرارا عليه ، فأمر السلطان أن يطعم الشيخ العذرة ، الغائط ، فدوه على ظهره وفتحوا فيه بالكلبتين ، وحلوا العذرة بالماء وسقوه ذلك . ثم ضربت عنقه ، .

* * *

وهكذا كان هذا السلطان يتصرف ، على أن تصرفه لم يقف عند إعدام الأشخاص والقضاء عليهم ، بل تعداه إلى الحكم على العاصمة ، دلهي ، بالإعدام والتخريب . وذلك عندما أمر أهلها بالهجرة منها وتركها . فصارت مسكنا للبوم والغربان والهوم والحشرات بعد أن كانت تزهر على المدن بيهاها ، ونعيم سكانها . يقول ابن بطوطة ، ومن أعظم ما كان يقوم بسببه على السلطان إجلالؤه لأهل دلهي عنها .

وسبب ذلك أنهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه ، ويختمون عليها ويكتبون عليها ، وحق رأس خوند عالم (أى سيد العالم) ما يقرؤها غيره ، ويرمونها بالقصر ليلا . فإذا فضها وجد فيها سبه وشتمه ، فزرم على تخريب دلهي ، واشترى من أهلها جميعاً دورهم ، وأمرهم بالاتقال عنها إلى ، دولت آباد ، فى الدكن فأبوا ، فهددهم فلم يجدوا مناصا من الخروج ، وتركوا المدينة خاوية على عروشها . وصعد السلطان مرة إلى سطح قصره ، ونظر إلى دلهي وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال : الآن طابت نفسى وهذا خاطرى ، وهكذا . وجدناها لما دخلناها خالية ليس بها إلا قليل عمارة ، اه

صور متناقضة من أعمال هذا السلطان لانملك معها إلا أن نقول بأنه كان

ذا شخصيتين متناقضتين .. فكان يقسو إذا اشتد روح الخروج عليه وعلى أمره وهيبته ، لا يراعى دينا ولا خلقا ، بينما كان في الوقت نفسه يبالغ في التمسك بما يظنه هو الدين فقط كالصلاة والصيام ومظاهر التواضع والعدل .

وقد عدد المؤرخ فرشته^(١) أعماله الحسنة والسيئة كما ذكر عليه وفضله والعلوم التي كان يتقنها حتى كان يعرف العربية ويقول الشعر بها ، وقال : إنه حقا كان نموذجا للرجل الصالح والرجل الطالح : ، وقد قضى أيامه التي قاربت الثلاثين عاما في متاعب لاسيما في آخر أيامه ، حتى توفي وهو راجع من إحدى الحروب على نهر السند ، بعد أن أصيب بالحمى في المحرم سنة ٧٥٢ هـ - ١٣٥١ م . ولم يترك ذرية تراث العرش ، فقد كانت به علة تمنعه من النسل كإجاء في نزهة الخواطر .

وقد كان محمد تخلق متيما بحب الخلفاء العباسيين ، مستجلبا رضاهم بعد أن انتقلوا إلى القاهرة . وقد عليه أحد أبنائهم فبالغ في إكرامه بما لم يفعله مع أحد . ويحكى ابن بطوطة عنه ، أنه شعر مرة بعدم رضاه عنه ، فذهب إليه . وأخذ يستعطفه ثم قال له : لا أشعر بأنك راض عني إلا إذا وضعت رجلك فوق عنقي ، ولما تم ذلك بعد إصرار السلطان قال : الآن علمت أنك راض عني .

ومرة حكى له الشيخ عبد العزيز الأردبيلي أحاديث في فضل العباس وابنه وشيئا من مآثر الخلفاء فأنجب به حتى قبل قدميه وأغدق عليه العطايا .

وهكذا كان متطرفا وشاذا في كل ناحية من نواحي حياته ، حتى ليبلغ فيها ما لا يبلغه أحد .. والله في خلقه شؤون .

فيروز شاه الطغلقى

٥٧٥٣ هـ - ١٣٥١ م إلى ٥٧٩٠ هـ - ١٢٨٨ م

، يترك محمد طغلق وارثا للعرش من ذريته ، وكان فيروز وفيا ومخلصا له ، لازمه في أيام مرضه يخدمه ، فأثر ذلك في نفسه فتكلم وهو مريض ، وأشار أن يكون فيروز ولى عهده ، ولكن لم يعلن ذلك رسميا ، ولما مات حدث بعض الهرج ؛ نظرا لعدم وجود ولى عهد معلوم عند الجميع ، وأراد بعض زعماء الجنود الذين أتوا بما وراء النهر وغيرها لمساعدة محمد طغلق أن ينتهزوا هذه الفرصة لإشباع أغراضهم ، إن لم يكن في تولى الملك ، فبالاستيلاء على بعض الخزائن والمجوهرات ، وإزاء هذه الحالة اجتمع كبار رجال الدولة والأمراء والأولياء ، ورأوا أن يكون فيروز ، سلطانا ، ولما أبلغوه قرارهم لم يوافق عليه ، وأظهر لهم أنه يريد الحج ، ولكنهم أصرروا عليه أن يتولى السلطنة ، فقبل أخيرا إزاء هذا الإصرار . ويقول المؤرخ فرشته : إن سنه كانت في ذلك الوقت نيفا وخمسين سنة ، وإن كانت بعض كتب التاريخ الأخرى تفيد أنه كان حول الخامسة والأربعين ، وأياما كان فقد تولى الملك في المحرم سنة ٥٧٥٢ هـ ١٣٥١ م . وقد تربى في حجر عمه غياث الدين طغلق ، وابن عمه محمد طغلق ، وولى الحجابة مدة من الزمان ، ومرت عليه الأحداث التي جرت في عهد ابن عمه ، وكان ذا قاب رقيق ، لكنه لم يكن يستطيع تعديل شذوذ ابن عمه ، فلما ولى الملك جعل همه في إرضاء نفسه وحسه ، وتوحيش الشعب المرهق والتخفيف عنه ، فساس دولته سياسة الحكام العظام الذين يعنون بشعوبهم ، ويسهرون لتوفير الراحة لهم في كل ناحية من نواحي حياتهم .

وقد كان ساعده الأمين وزيره « مقبول خان » الذي كان هندوسيا وأسلم ، وحسن إسلامه وإخلاصه ، مما جعله يثق به ، ويصدق عليه العطايا جزاء إخلاصه وخدماته .

إصلاح الماضي :

رأى السلطان « فيروز » ، كل ما فعله ابن عمه ، ولكن لم يكن يملك له دفعا . رأى الدماء التي سفكت ، والأسر التي نسكت ، ورأى الشعب ين تحت أثقال الضرائب الفادحة التي فرضها عليه السلطان ، وبالغ المحصلون في جمعها ، بل وجمع ما زاد عليها ، لذلك جعل همه حين تولى الملك أن يعمل على إزالة هذه المظالم ، وإصلاح الأخطاء التي ارتكبها سلفه . . فأخذ يواسي المنكوبين ، ويدفع لهم التعويضات لعلها تخفف عنهم ، وقد دفعته رغبته ونيته الطيبة ، ووقاؤه لابن عمه ، وجهه في التخفيف عنه في قبره إلى أن يستكتب المظلومين الذين يسترضيهم إقرارات بأنهم ساءحوه وعفوا عنه ، ثم جمع كل هذه الإقرارات ، وفتح قبر ابن عمه ، ووضعها فيه على ظن أن ذلك يخفف من ذنوبه وحسابه ، ويعفو الله عما اقترفه . . هكذا كان يظن ، وهكذا فعل !!

واتجه إلى الشعب الذي فدحته الضرائب ، وأفقرته المجاعة وأنهكته ، فأعفى المزارعين من الديون التي كانت عليهم ، وأحرق صكوكها التي كانت تحت يد الحكومة ، ثم خفف عنهم الضرائب وشدد في إشرافه على المحصلين لها حتى لا يظلموا الشعب ، كما أنه ألغى نظام الإقطاع الذي كان سائدا في ذلك الوقت ، والذي كان يقضى بإعطاء أراض لرجال الجيش والأمراء ، فجعلها تابعة للحكومة ، بما زاد في دخلها ، وبالتالي في رفاهية الشعب .

مشروعاته العمرانية :

وكان لفيروز اتجاه خاص نحو المشاريع العمرانية ، فأكثر من حفر الترع والأنهار والآبار ، وبناء المساجد والمدارس والحمامات والمستشفيات والمقابر والقصور وإقامة الجسور والقناطر وإنشاء الحدائق . كل ذلك بصورة لم تتوفر لغيره ، وقد ذكر المؤرخون إحصاءات لكل هذا ، وجاء اختلاف بينهم في ذكر الأرقام ، وإن كانوا يجمعون على كثرتها والإشادة بها . يقول صاحب

نزهة الخواطر: (١) ، وبالجملة فإنه حفر خمسين نهراً ، وبني أربعين مسجداً ،
وعشرين زاوية ، ومائة قصر ، وخمسين مارستاناً (مستشفى) ، ومائة مقبرة ،
وعشر حمامات ، ومائة جسر ، ومائة وخمسين بئراً ، وأما الحدائق فإنه أسس
ألفاً ومائتي حديقة بناحية دهلي وثمانين حديقة بناحية سادرة ، وأربعين حديقة
بناحية جتور ، كانت فيها سبعة أقسام من العنب ، وذكر « فرشته » مثل ذلك
وزاد عليه : ثلاثين مدرسة ، ولا ريب أن مثل هذه المشروعات العمرانية
تعود بالدخل الوفير على الشعب والدولة معاً ، مما جعل فيروز يصدق على العلماء
وغيرهم من أرباب الحاجات ، ويرتب الأرزاق للدرسين والأئمة والقائمين
بالعمل في الزوايا والقصور والمستشفيات ، ويستمر في إصلاحاته العمرانية ،
وهذا كله من سمات الدولة الراقية المستفجرة . .

وقد أنشأ مع ذلك مدينة جديدة قرب دهلي سنة ٧٥٥ هـ سنة ١٣٥٤ م
وسماها فيروز آباد ، وحفر لها نهراً من جننا كما أجرى إصلاحات في « منار قطب »
كان يحتاج إليها ، على أن الذي يدلنا أكثر من هذا على رقي الدولة ، وصلاح
الحكم واتجاهه نحو رعاية الشعب هو ما قرره فيروز شاه من ضمان الدولة لمعيشة
المقعدين عاجزين عن العمل ، وكذلك المرضى وعلاجهم ، مما سانه عمر
رضي الله عنه من قبل ، وإن كان العصر الحديث يفتخر بأنه من اختراء .
وكان فيروز شاه مع تسامحه مع الهندوس ، ومعاملته الحسنة لهم ، لا يحب مظاهر
العبادة الوثنية الهندوسية ، ولا التظاهر بها ، كما كان شديد الوطأة على الملحدين ،
وأصحاب المذاهب الإسلامية الشاذة ، حريصاً على نشر دعوة الإسلام ، وجذب
الناس إليه . حتى كان يعفى من الضرائب ، أو يمنح الهدايا لكل من يعتنقه .
كما كان له أثره الطيب في دخول كثير من الناس في الإسلام .

وكان سلفه محمد طغلق يحكم في أول أمره نحو ثلاثين ولاية تابعة له .
ولسكن أمراءها أخذوا يستقلون حتى مات ، ولم يبق تحت حكمه إلا نحو ربعها .
فلما جاء فيروز كان من الصعب عليه أن يسترجع كل ما فقدته سلفه (٢) . استقلت

الدكن فى عهد محمد طغلق على يد علاء الدين بهمنى ، وجاء فيروز ، وكان الطريق إليها محفوفًا بالمخاطر ؛ لأن بعض الولايات التى فى طريقها ليست خاضعة له ، كما أنه جاءته رسالة سنة ٧٥٧ هـ ١٣٥٦ م من الخليفة العباس فى مصر ، الحاكم بأمر الله أبى بكر بن أبى ربيع بن أبى سليمان ، يطلب منه أن يعفو عن حاكم الدكن ويتركه ، وأرسل له مع ذلك خلعة وقرارا بتعيينه نائبا عنه فى الهند ، فلذلك تركه ، وتأسست الدولة البهمنية الإسلامية فى الدكن من ذلك الوقت .

أما البنغال فقد كانت تحت حكم شمس الدين حاجى إلياس ، فذهب إليه فيروز سنة ٧٥٤ هـ ١٣٥٣ م . وبعد حصاره رجع دون أن يخضعه . وبعد حين أرسل له حاكم البنغال كثيرا من التحف والهدايا طالبا منه العفو والصفح ، فعفا عنه وتركه مكثفيا بتقديم الهدايا إليه وإعلان الخضوع له .

ولكنه عاد فى عهد ابنه ، اسكندر خان ، إلى مهاجمة البنغال سنة ٧٦٠ هـ ١٣٥٩ م ولم ينجح بسبب كثرة الأمطار فتركه وعاد ، ثم عاود السفر للمرة الثالثة بقصد إخضاعها ، وبعد حصارها مدة قدم له اسكندر خان الهدايا والتحف وطلب العفو وتركه ، فقبل فيروز شاه وأقره على حكم البنغال ورجع .

ولما قامت الثورة فى السند ذهب بنفسه لإخضاعها ، ولكنه بعد حصار الثوار رجع عنها إلى گجرات دون إخضاعها . وقضى فصل المطر هناك ، ثم رجع للسند ، ولكن حاكمها التاثر بطلب العفو عنه ، فجاء به إلى دلهى مع الأسرى وأكرمه ، وأطلق الأسرى وأرجعهم لبلادهم ، وهكذا تبدو من خلال تصرفات فيروز ميله إلى حقن الدماء والسلم والعفو بقدر المستطاع .

وقد حدث أن ثار عليه أحد الثوار ، فأبعده عن الهند ، ولكن الخليفة العباسى فى القاهرة كتب إليه يطلب الصفح عنه ، فاستجاب له ، وأكرم التاثر ، وخلع عليه الخلع والألقاب .

ولما ذهب إلى قلعة نگر كوت ، حاصرها وفتحها ، وحطم أصنامها ، ووجد فيها مكتبة هندوسية تضم ألفا وثلاثمائة كتاب فى مختلف العلوم ، فأمر

أن تترجم الكتب الثمينة فيها من السنسكريتية للفارسية ، فترجمت عدة كتب في الرياضة والنجوم والأدب والموسيقى . نقل منها الشيخ عبد العزيز بن شمس الدين الدهلوى كتابا كان يشتمل على مائة وأربعة أبواب ، فترجم منها مائة باب في أحكام الكسوف والخسوف وكائنات الجو وعلامة المطر وعلم القيادة والغال وغيرها ، وهذا الكتاب محفوظ في المكتبة الحيدية بقرية « بهيكن بور » من أعمال عليكره . وصنف له علماء زمانه عدة كتب بأمره وتوجيهه فنظم أعز الدين الخالدي كتابا في الحكمة الطبيعية والتفاضل والتطير ، وسماه « دلائل فيروز شاهى » ، وكذلك صنف عن الملك كتباً بأمره ، وصنف القاضي ضياء الدين البرنى تاريخاً أسماه « التاريخ الفيروز شاهى » ، فى تاريخ ملوك دلهى من عهد بلبن إلى أيامه (١) .

على أن الذى يدعو للعجب أن السلطان نفسه كان مشغلا بالتأليف والبحث ، برغم مشاغله العديدة فى إدارة الحكم ، وأمور الحرب ، فألف كتابا فى الرياسة والسياسة رتبه على ثمانية أبواب ، وأمر أن ينقشوها فى الأحجار ، وينصبوها فى المنارة المثمنة من الجامع الكبير بفيروز آباد دلهى ، كما اخترع السلطان ساعة عجيبة يخرج كل ساعة منها صوت عجيب يترنم ببيت من الشعر ، يذكر الملك بأن كل ما دقت الساعة يعلم أنه قد نقص من عمره ساعة ، وكانت تستخرج منها أوقات الليل والنهار ، ووقت إفطار الصائم ، وكيفية الأظلال وزيادة اليوم ونقصانه باعتبار الفصول ، ونصبت تلك الساعة بمدينة فيروز آباد (٢) .

(١) ، (٢) نزهة ص ١١٢ ج ٢ . وهذا البيت هو : —

هر ساعتى كه بر درشه طلاس ميزند نقصان عمرى شود آن يادى دهند
وضياء الدين البرنى كان من مشاهير الفضلاء وأعرفهم بالتاريخ وسياسة المدن وقرض الشعر ، وكانت بينه وبين الأمير خسرو الشاعر الكبير مودة ومبادلة فى قرض الشعر وإنشاده ، كما كان من أصحاب ولى الله الشيخ « نظام الدين » المعروف بـ « الآل باسم قبر » « نظام الدين أوليا » فى دلهى وكان من أعظم الأولياء فى أيامه .

وعلى كل حال يمكن من خلال أعمال « فيروز شاه » التي سردناها أن نكون فكرة عن شخصيته واتجاهه في الحكم ، ذلك الاتجاه الحمود الذي تنشده الرعية في راعيها وحاكمها دائماً ، لقد كان فيروز يحرص باستمرار على أن يسمى نفسه « الحقير المذنب فيروز بن رجب » ، ولم يكن تواضعه هذا يحمل معه جانباً آخر من القسوة والشدّة كما كان ابن عمه محمد طغلق ، بل كان تواضعاً خالصاً ، ورغبة طيبة في خدمة الشعب . وكان يعلن في كل ما يعمل أنه يعمل به عناية الله وتوفيقه ومن أجل عباده لعلهم يذكرونه بالخير ، وقد قص المؤرخ « فرشته » قصة وقعت لابنه « فتح خان » ، وهي كافية لأن تكون عنوان العهد الفيروزي . فقد كان ابنه وولي عهده « فتح خان » ، هذا يتعلم في مدرسة ، وعاد منها متعباً وقت الظهيرة ، فانتهزت فرصة مرور عجز ، واشتكت له ما حدث لزوجها وأولادها التجار الذين أخذ الجيش الفيروزي كل ما كان معهم وقبض عليهم ظناً منهم من الجواسيس ، فقال لها إيتيني بالشهود ، وتعالى إلى القصر ، ولاكنها قالت له : لا أستطيع دخول القصر إن أتيت بالشهود ، فقال لها : حسناً سأنتظرك هنا حتى تأتيني بهم . فوقف وقت الظهيرة ، وفي حردلها مدة ينتظرها حتى طال الانتظار ، وكلما زين له مرافقوه أن ينصرف قال : لا . لا بد أن يكون الأمراء أوفياء لشعبهم ، وجاءت المرأة بمن شهد على صدقها فأخذهم جميعاً إلى القصر ، فوجد أباه نائماً ، فانتظر معهم دون أن يتناول الطعام أو يلجأ إلى النوم حتى استيقظ أبوه ، وعرض عليه القصة ، وعرض الشاكية بما أَرْضَاهَا .

ذلك ما فعله فتح خان بن فيروز . والولد سر أبيه . . وقد عجل الموت باختطافه سنة ٧٧٦ هـ ١٣٧٤ م ، فحزن عليه أبوه حزناً شديداً ألجأه إلى الاعتكاف عن الناس ، ولم يخرج منه إلا بعد أن نصحه خالصاً بأن أمر الملك لا يستقيم مع هذه العزلة ومع هذا الحزن . .

وكان هذا الحزن الدائم مع كبر السن سبباً في ضعفه عن تحمل أعباء الملك

كلها، فجعل ابنه « محمد » يتولى الأعمال عنه ، ولكنه لم يحسن في تصرفاته ، فثار عليه الشعب وغضب عليه أبوه وجعل ولاية العهد لحفيده « طغلق » ابن ولده فتح خان بعد أن فر محمد . وتوفي فيروز سنة ٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م ..

خلفاء فيروز شاه

بعد وفاة فيروز كان حفيده « طغلق » هو السلطان ، وسمى باسم « غياث الدين طغلق الثاني » ، ولم يكن كفئاً للنصب ؛ إذ كان شاباً لاها عن تدبير أمور السلطنة ، وقد كانت عاقبته أن قله « أبو بكر بن ظفرخان بن فيروز » في صفر سنة ٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م ، وتولى « أبو بكر » هذا مكانه ، ولكن عمه « محمد » الذى فر في حياة أبيه بعد الثورة عليه إلى « نكر كوت » أخذ يعمل للاستيلاء على دلهى ، فهجم عليها ثلاث مرات انتهت بانتصاره . فسجن « أبا بكر » فى إحدى القلاع فى ذى الحجة سنة ٧٩٢ هـ - ١٣٩٠ م كما فى تاريخ فرشته ، وإن كان المؤرخ « سيد هاشمى » فى كتابه « تاريخ الهند » يختلف معه فى تحديد التاريخ ..

وتولى « محمد بن فيروز » الملك باسم « ناصر الدين محمد بن فيروز شاه » ، واستمر حتى توفى بمرض السل فى ربيع الأول سنة ٧٩٦ هـ - ١٣٩٤ م ، وجاء بعده ابنه « اسكندر » ، ومكث فى الحكم نحو شهر ونصف توفى بعده ، فاشتد الخلاف بين أركان الدولة على من يستولى السلطنة ، واستمرت دلهى بدون سلطان خمسة وأربعين يوماً ، ثم نادوا بمحمود بن محمد بن فيروز سلطاناً على دلهى ، وكان صغير السن سبقته عهود من الفلاقل التى صاحبت تغير السلاطين واحداً بعد الآخر ، مما كان له أثره الملبوس فى ضعف هبة الحكم ، وقيام كثير من الولايات التابعة لدلهى - على قلتها - بثورات لطلب الاستقلال : قامت ثورة من الهندوس فى شرق الهند ، فذهب إليهم « خواجه

جهان ، على رأس جيش فأخضعهم ، ولكنه طمع في الاستقلال ، واتخذ مدينة « چونپور » عاصمة له ، ولقب بلقب « سلطان الشرق » ، وأخضع قنوج وبهار ، وجاءت له الهدايا من البنغال ، وأسس أسرة حاكمة تعرف باسم ملوك الشرق^(١) ، وفي بنجاب وغيرها قامت الثورات وأخذ سلطان دهلې يتضاءل .

ومن هذا الوقت والهند تموج بالخلافات والثورات ، والهندوس في كل مكان يقومون ضد سلطان دهلې ، وكذلك أمراء المسلمين ، في هذا الوقت هجم « تيمور » على الهند ؛ ليخضعها لسلطانه بعد أن أخضع كثيرا من الممالك الإسلامية ، وكان هجومه سنة ٨٠١ هـ ١٣٩٩ م . فاستولى على دهلې ، وفر السلطان محمود إلى گجرات أولا ، فلم يحسن « مظفر خان » استقباله خوفا على مصالحه السياسية ، فذهب إلى « دلاور خان » حاكم « مالوا » . فأحسن استقباله ، ومكث عنده حتى عاد إلى دهلې بعد خروج تيمور كما سيأتى بيانه . إن شاء الله ..

(١) وكانت هذه الدولة من أفضل الدول ، وسلاطينها من أفضل السلاطين الذين عرفتهم الدول الإسلامية في الهند إسلاما وصلاحا .

تيمور في الهند^(١)

شهدت الهند قبل ذلك عدة غارات من المغول ، كان سلاطين المماليك يتولون ردها ودفع أخطارها عن البلاد ، فلم يتمكنوا من إقامة حكم فيها . وكانوا يخرجون من وسط آسيا كالجراد المنتشر لا يبق ولا يذر ، وكأنهم كانوا في سجن فانطلقوا منه ، وكأن بهم سعارا إلى الدماء والتخريب والتدمير ، كانوا من عباد الأوثان وقوى الطبيعة ، وامتازوا بالقوة والشجاعة . وعدم المبالاة بما اعتاد الناس أن يتحرزوا عنه ، كل همهم السلب والنهب والحصول على الغنائم ، وانحدروا من وسط آسيا إلى البلاد الإسلامية فدمروها ، وأتوا على حضارتها كأن لم تغن بالأمس ..

وكتب التاريخ العربي كثيراً ما تذكرهم باسم « التتار » ، ولكن كتب التاريخ في الهند كثيراً ما تتحرى ذكرهم باسم « المغول » ، وهو أقرب ما يكون إلى الحقيقة .

والمغول والتتار كلاهما من أتراك وسط آسيا ، وكانا أبناء عم ، مثل ربيعة ومضر في العرب ، فالمغول ينتسبون إلى « مغل خان » ، والتتار ينتسبون إلى أخيه « تتر خان » ، وقد وقعت حروب كثيرة بين أبناء العمومة ، فكان يتغلب فيها أحدهما على الآخر ويحكمه ، وظلوا في أراضيهم لا يتعدونها ، حتى وقع خلاف بين ملكهم « جنكيز خان » وبين « خوارزم شاه » ، وكان « جنكيز » من المغول ، فرحف بجيش جرار مكنتسحا في طريقه « بخارى » و« سمرقند » ، منكلاً بأهلها ، ولم يستطع خوارزم شاه أن يقف أمامه أو يقابله

(١) يكتب اسمه دائماً في الكتب العربية « تيمورلنك » وكلمة « لنك » بالكاف الفارسية التي تشبه في نطقها الجيم عند أهل القاهرة معناها الأعرج في اللغة الفارسية ، وكانت تيمور بكسر التاء كما ضبطها بعض المؤرخين أعرج ، فالتصقت الصفة به لكن كثيراً ممن ينطقونها لا يعرفون دلالتها .

وجها لوجه ، حتى استطاع أن يصل إلى حدود العراق ، وتم له ذلك في سنة ٦١٧ هـ — ١٢٢٠ م .

وفي عهد حفيده « هولاكو » ، تم للمغول الاستيلاء على بغداد سنة ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م ، وقضوا على الخلافة والحضارة العباسية فيها ، كازحفوا على البلاد الإسلامية الأخرى ، حتى بلغوا الشام وقصدوا مصر ، ولكن ملكها « سيف الدين قطز المظفر » ، وحد كلمة المسلمين في مصر والعرب ، والنقى للمغول الزاحفين في « عين جالوت » ، ثم في « بيسان » ، وانتصر عليهم بعد معارك عنيفة ، وردم عن مصر ، وقضى على خطرهم الكاسح الزاحف ، حتى أخرجهم من الشام كلها بمساعدة قائده « ركن الدين بيبرس » ، وفي الوقت الذي تم فيه للمغول اجتياح البلاد الإسلامية على هذه الصورة ، لم يستطيعوا دخول الهند كما عجزوا عن دخول مصر ، فظلت الدولة الإسلامية في كل منهما قائمة تحت سلطان المماليك ، تصد غاراتهم ، وتحول بينهم وبين دخول البلاد ، وكان السلطان بالهند في ذلك الوقت الذي سقطت فيه بغداد هو « ناصر الدين محمود بن ألتش » ، فكانت دلهي في عهده وعهد خلفه « السلطان غياث الدين بلبن » ، ملجأ وملأذا الأمراء والكبار الفارين من وجه المغول في بغداد وغيرها من البلاد الإسلامية التي اجتاحتها ، ووجد هؤلاء الفارون من سلاطين دلهي المسلمين كل إكرام وإعزاز ، كما سبق أن أشرنا إليه أثناء الكلام عن « غياث الدين بلبن » .

وكان المغول في ذلك الوقت يعبدون قوى الطبيعة ، فلما اختلطوا بالمسلمين في البلاد المفتوحة بدءوا يعرفون الإسلام ويعتقونه ويتحمسون له . وبذلك دخل في الإسلام عنصر قوي ، ودم جديد متحمس ، سواء في ذلك المغول المقيمون في الهند وغيرها من البلاد الإسلامية ، أم المغول الذين يقيمون في بلادهم بعد احتكاكهم بالمسلمين .

وكان « تيمور » من هؤلاء المغول المسلمين ، أهلته جراته وإقدامه إلى الاستيلاء على « سمرقند » ، وما وراء النهر وتركستان وخوارزم وكاشغر وبلوخرستان

وخراسان والعراق وغيرها من البلاد الإسلامية متخذاً من سمرقند، عاصمة له، وكان يتصل من جهة أمه بالقائدين السابقين العظمين «جنكيز خان» و«حفيدته» «هولاكو»، ولكنه كما يقول المؤرخ الهندي سيد هاشمي: لم يكن من المغول المتوحشين الذين جاءوا للهند في عهد المماليك في جيش غير منظم وغير مهذب، بل كان جيشه منظماً تحت قيادة عليية حكيمة.

ولقد استطاع تيمور أن يستولى على البلاد الإسلامية ويفتحها، حتى بلغ الشام، وطلب من حاكم مصر التسليم وكان السلطان «برقوق»، فأبى واستعد للحرب، ولكنه مات، فقام خلفه ابنه السلطان «فرج»، لقتاله حتى هزمه قرب دمشق^(١) واضطر تيمور أن يطلب الصلح فأجابه إليه، ولكنه الفتنة التي قامت في جيش المماليك جعلت السلطان يترك الشام ويعود إلى بلاده، مما أتاح لتيمور دخول دمشق وتخريبها سنة ٨٠٣ هـ ١٤٠٠ م ولكنه لم يستطع الزحف إلى مصر.

قبل ذلك كان تيمور، قد أغوته الهند كما أغوت سابقيه، وشجعه على ذلك اضطراب الحكم فيها، وقيام الفتن والثورات الداخلية وضعف السلاطين المسلمين، على أنه مع ذلك قد صبغ هجومه عليها صبغة دينية إسلامية، حيث رأيناه يعلن بأن هجومه «لمحض الرغبة في محاربة الكفار»، ونشر الدين الحق طبقاً لما جاءت به تعاليم محمد صلى الله عليه وسلم. ولتطهير البلاد من رجس الكافرين؛ وتحطيم أصنامهم، وهدم معابدهم، ولكي نصير غزاة مجاهدين وقادة لجيوش المؤمنين^(٢).

(١) وهكذا لم يذق المغول طعم الهزيمة إلا على يد الجيش المهرى سواء في عهد هولاكو أم تيمور، وهذا مما تفخر به مصر في تاريخها الجيد وإن كانت الهند قد صمدت طويلاً أمام غارات المغول كما أشرنا من قبل لكنهما أخيراً خرت أمامهم. ومن الموافقات العجيبة أن سلاطين المماليك في مصر والهند هم الذين تصدوا للمغول.

(٢) من مذكرة المرحوم الأستاذ حبيب. ص ٧١

وقد اجتاحت « تيمور » البنجاب ، ونراه في هجومه يحرص على أن يظهر بمظهر المسلم الغيور ، فيزور قبرولى الله الشيخ و فريد الدين شكر گنج ، كما نراه ينتقم لأحد المسلمين الذى قتله الهندوس مع خمسمائة كانوا معه ، فيقتل بهم ألفا من الهندوس ، ولما حاصر إحدى قلاع الأمراء الهندوسيين « راتى جندل » ، وانتصر عليه ، طلب منه العفو فلم يقبل ، فأرسل إليه الراجا الهندوسى رجلا شريفا من السادات ، فقبل « تيمور » وساطته ، وعفا عن الراجا (١)

وتقدم « تيمور » إلى دلهى ، ومعه غنائمه وأسلابه ، وحينما وصل قريبا من دلهى كان معه نحو مائة ألف من الأسرى الهندوس ، فقال له بعض أمرائه إتناخشى إذا تلاقينا مع جيوش دلهى أن ينتهز هؤلاء الفرصة ، ويكونوا حربا علينا ، لاسيما إذا لم نحرز النجاح في هجومنا ، فأمر تيمور أن يقتل جميع الأسرى الذين يزيد عمرهم عن خمس عشرة سنة ، أما الصغار فيظلون عبيدا في خدمة الجنود ، فكانت مجزرة رهيبية ، ثم لم يجد كبير غناء في الاستيلاء على دلهى ، وفر السلطان « محمود » ووزيره « إقبال خان » إلى گجرات ، ثم إلى مالوا ، تاركين العاصمة له سنة ٨٠١ هـ - ١٣٩٨ م ، وحين تم له النصر صلى ركعتين بجوار قبر « فيروز شاه » ، شكرا لله ، وأقام في ميدان المصلى ، فحضر إليه الأشراف والمشايج ، فأكرمهم وأجابهم إلى ملتصقهم أن تسلم بلدتهم من السلب والقتل ، ولكن المدينة تعرضت مع ذلك لأقسى غارات النهب والسلب ، وحملات القتل والتدمير ، ولم يسلم منها إلا حى الأشراف والسادات احتراماً لمركزهم الدينى .

ويفسر المؤرخون ما حصل لدلهى بأن الجنود انتشروا في البلد يبحثون عن المجرمين المختفين ، فأدى ذلك إلى حوادث صغيرة بينهم وبين الأهالى ، كانت سببا في ثورة الجند وقسوتهم على الأهالى في السلب والنهب والقتل ، وكان أمراؤهم يحاولون إيقاف ثورتهم . لكنهم لم يستمعوا ، وكان تيمور في ذلك الوقت محتجبا في قصره لعدة أيام ، فلم يسمع شيئا من ذلك ، ولم يستطع أحد إبلاغه نبأ ما حدث . وأنا أستبعد هذا التعليل الذى يحاول به المؤرخ تبرئة « تيمور » ،

من نقضه لعهدہ ؛ لأنه من البغید جدا أن يحدث مثل هذا فی دہلی ولا یعرفہ . تیمور ، ، ومن البعید أن یظل فی قصره جاہلا بما یجرى حوله ، وهو القائد الفائح الحارب الذی یعرف ما یجب علی القائد من اطلاعه ووقوفه علی الأمور أولا بأول .

وهناک مؤرخون آخرون یعللون هذا تعلیلا أقرب ما یكون إلی القبول فیقولون : إن الجنود انطلقوا فی البلد یحصلون الأموال الّتی فرضت علی الناس ، ولكن الأهالی لم یستجیوا لهم ، وكان فی الجنود غرور وقسوة - كما هی عادة الفاتحین المنتصرین ، ولا سیما إذا كانوا من جنود المغل - فأدى ذلك إلی احتكاك بینهم و بین الأهالی قتل بسببه بعض الجنود ، فبلغ ذلك الأمر إلی « تیمور » ، فاستشاط غضبا ، وأمر بحملة القتل والتأذیب ل هؤلاء المتمردين ، فأعمل الجنود قسوتهم مع الناس جمیعا مسلمین كانوا أم هندوسا ، ولم ینج من انتقامهم إلا الأشراف والسادات والخی الذی یسكنون فیہ (١) .

وقد مكث « تیمور » فی دہلی خمسة عشر یوما ، كانت فی الواقع أفسى آیام عرفتھا ، ثم تركھا بعد هذه الأيام تعاني آلام القتل والتدمیر والفقر ، ولم یترك إلا حامية صغيرة لحراسة الأشراف والسادات ، وسار متجها إلی البنجاب ، فن قدم له الهدایا والخضوع قبل منه ذلك ، ومن أظهر العصیان والتمرد لقی جزاءه . وتعرضت بلاده للتدمیر ، حتی خرج من الهند - دون أن یحكمھا كما كان یعلن - حاملا معه الأسلاب والغنائم من الذهب والفضة والمجوهرات ، متجها إلی البلاد الإسلامیة فی الغرب وأخیرا توفی سنة ٨٠٧ هـ ١٤٠٤ م ودفن فی سمرقند . وقد كان « تیمور » حبا للفنون ، أعجبه مبانی مسجد محمد طغلق وغیره ، وأحب أن یقیم مثلھا فی « سمرقند » عاصمة ملكه ، فجمع أساطین الفن والعمارة من دہلی وأرسلهم إلیھا .

وبخروج تیمور من دہلی ومن الهند أتیح للسلطان محمود ووزیره إقبال

الفارين من وجهه قبل ذلك أن يرجعا إلى عرش السلطنة ، ولكن أية سلطنة كانت ؟

لقد كانت سلطنة إسمية ليس لها نفوذ حقيقى ؛ فقد ضاعت هيبتها ، وأصبح لكل من له غرض أو شهوة فى الحكم والسيطرة أو التردد أن يعلن ما يريد ، ولم يمكث محمود طويلا حتى فقد وزيره « إقبال » فى البنجاب ، ثم مكث بعده نحو اثنتى عشرة سنة ، حيث توفى فى ذى القعدة سنة ٨١٥ هـ - ١٤١٢ م بعد أن ظل على العرش ما يقرب من عشرين سنة ، ملئت كلها بالفتن والأحداث كما رأيت . . وبموته انتهت أسرة طغلق الحاكمة ، وحاول «دولت خان لودى» أن يحكم خلفا له ، ولكن «خضر خان» - وكان حاكم «لاهور» - زحف إلى دلهى ، واستولى عليها ، وقبض على «دولت خان» وسجنه حتى مات فى سجنه ، بعد أن حكم سنة وثلاثة شهور ، واستولى «خضر خان» على الحكم فى ربيع الأول سنة ٨١٧ هـ - ١٤١٤ م .
وبه بدأ حكم السادات فى دلهى . .

حكم السادات

٨١٧ هـ - ١٤١٤ م إلى ٨٥٥ هـ - ١٤٥١ م

أسس «خضر خان» أسرة جلست على عرش دلهى نحو سبعة وثلاثين عاما ، كانت كلها مليئة بالفتن والثورات ، وتقاص فيها نفوذ دلهى إلى خد كبير ، واستقلت الأطراف ، ففى الشرق مملكة «چونبور» ، وفى الجنوب «مالوا» ، وهكذا لم يعد للملك دلهى شئ من السلطان ، حتى على دلهى نفسها ، بعد أن فقدوا هيبتهم ، وضاعت منهم كل أملاكهم . وقد ادعى «خضر خان» حين جلس على العرش أنه نائب عن تيمور ، ولعله أراد بذلك مصانعة المغول أو الاعتراف بجميل تيمور على السادات ، وعلى كل حال تعاقب على دلهى فى هذه المدة «خضر خان» من سنة ٨١٧ هـ ١٤١٤ م - ٨٢٤ هـ ١٤٢١ م ، ثم ابنه

« مبارك شاه » إلى سنة ٨٣٩ هـ - ١٤٣٥ م ، ثم « محمد شاه » ابن فریدخان بن خضرخان إلى سنة ٨٤٩ هـ - ١٤٤٥ م ، ثم ابنه « علاء الدین » إلى ربیع الأول سنة ٨٥٥ هـ - ١٤٥١ م ، وكان مشهوراً بلقب « شاه عالم » ، ولم يمتد نفوذه إلى أكثر من أطراف دلهی ، حتى تنذر الناس والمؤرخون بهذه العبارة ، التي تدل على مقدار سلطنته : « ملك شاه عالم من دلهی إلى بالم » ، وبالم مكان في أطراف نيودلهی يقوم به المطار الآن .

وقد انتهى ملك السادات في زمنه ، حيث استولى على العرش « بهلول لودی » وهو من أسرة أفغانية كانت تحكم لاهور ، وبه بدأ حكم اللوديين في دلهی .

حكم أسرة لودی

٨٥٥ هـ - ١٤٥١ م إلى ٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م

وهذه هي الأسرة الثانية التي بدأ حكمها وسطوع نجمها في لاهور أيضا ، ثم زحفت منها إلى دلهی حيث استولت عليها ، وحكمت منها ، فقد كان خضرخان رأس الأسرة السابقة حاكماً في لاهور ، وفي عهد « شاه عالم » كان بهلول حاكماً على لاهور كذلك ، ولما رأى ضعف العاصمة ، وتعرض نفوذ المسلمين فيها للضياع ، وكثرة الفتن والأحداث ، زحف إلى دلهی واستولى عليها ، وبايعه جميع الأفغان في ربیع الأول سنة ٨٥٥ هـ - ١٤٥١ م ، وفر شاه عالم ، واختفى عن الأعين ، وعاش في « بدايون » كفر بسيط لا يعرف عنه أنه كان ملكاً ، حتى توفي سنة ٨٨٣ هـ - ١٤٧٨ م وكان « بهلول » رجلاً عادياً في أول أمره ، ثم سعى الحظ في ركابه ، حتى صار حاكماً « لاهور » ومنها قفز إلى دلهی .

والمؤرخون يذكرونه بالتقدير من ناحية أخلاقه وسيرته ومعاملته للناس ، ولا سيما العلماء ، وتواضعه مع رعيته حتى كأنه واحد منهم ، وكان عماله من المسلمين والهندوس على السواء .

وقد مكث في الحكم نحو سبعة وثلاثين عاما . حيث أعاد الروح إلى عرش
دهلي . حين جعل لاهور والولايات التي كان يحكمها تابعة له ، ثم حارب
السلطان « حسين شاه الشرقى ، ملك « جونبور ، الذى هجم على دهلي مرات
بقصد الاستيلاء عليها ، فكان نصيبه الفشل . وضياح ملكه ، وضمه إلى ملك
دهلي ، وأقام « السلطان بهلول ، عليه ابنه « باربك ، نائبا عنه ، وفر حسين
الشرقى إلى أطراف بلاده ، وأقام هناك قانعا بقليل من العيش .

وقد وسع بهلول ملكه كذلك من ناحية الجنوب في وسط الهند ، وبذلك
استعادت سلطنة دهلي مكاتها واتسع نفوذها .

وكان بهلول في قومه مثال الملك الصالح ، مقداما شجاعا صادق القول
متورعا ، يجالس العلماء ويذاكرهم في مسائل الشريعة ، ويبدل جهده في متابعة
النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحسن إلى قومه الأفغان ، ويبالغ في إكرامهم ،
ولا يجلس على السرير في حضرتهم ، ويتردد إلى بيوتهم ، ويتناوب الطعام في
بيوت الأمراء ، ويركب أفراسهم عند الحاجة^(١) .

وتوفى بهلول سنة ٨٩٤ - ١٤٨٨ م . وخلفه ابنه السلطان عادل نظام الدين
المشهور باسم « اسكندر شاه اللودى » .

وقد وقع نزاع بينه وبين أخيه « باربك ، حاكم « جونبور ، الذى لم يسلم
له بولاية الملك بعد أبيه ، وانتهز « حسين الشرقى ، الفار الخلاف بين الأخوين ،
فشجع « باربك ، وانضم إليه ، ولكن اسكندر انتصر على أخيه ، وفر حسين
إلى البنسغال ، وخضعت ولاية جونبور لسلطنة دهلي كما كانت ، فاتسعت حتى
وصلت إلى « بندهيل كهند » ، وتجاوزت بنارس .

وفي سنة ٨٩٠ - ١٥٠٣ م ترك « اسكندر شاه ، مدينة دهلي إلى « أگرا » ،
وسكن هناك بناحية منها ، لا تزال تسمى باسمه الآن « سكندر » .
وكان اسكندر من خيرة السلاطين ، تقيا عالما محسنا متواضعا ، يحب العلماء

ويكرمهم ، ويسهر على راحة شعبه ، مجتهداً في تطبيق العدالة بين رعاياه ،
وتوفى في سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م .

وقام بعده ابنه السلطان إبراهيم اللودي ، فلم يحسن تدبير مملكته ،
فقامت ثورات في كل مكان ، كما قامت حرب بينه وبين أخيه ، جلال الدين ،
حاكم « جونبور » انتهت بانتصاره وقتل أخيه ، ولكن كثيراً من الولايات
الناطقة له قد استقلت ، وفر كثير من أتباعه وقواته ، ولحقوا بأعدائه خوفاً
على أنفسهم من القتل وسوء المعاملة ، بعد ما دبر إبراهيم مؤامرة للكثير
من رجاله الذين أساء الظن بهم وقتلهم . . حتى حاكم لاهور « دولت خان
اللودي » أحد أفراد أسرته الذي ثار عليه ، وزحف بجيشه على « دلهي » ، وكاد
يستولى عليها ، لولا أن جنوده شغلت بالسلب والنهب بعد ما تم لهم النصر ،
فهبهم عليهم « إبراهيم » وهزمهم ، واضطر « دولت خان » للفرار من دلهي ،
والاستنجاد بالحاكم التيموري « بابر » الذي كان يسيطر على كابل وما حولها
غربي الهند ، فانتهمز « بابر » هذه الفرصة ، وسار بجيش قليل ، ولكنه منظم
مزود بالأسلحة الحديثة ، فتم له النصر على « إبراهيم اللودي » الذي قتل في
معركة « پانی پت » سنة ٩٢٣ هـ - ١٥٢٦ م ، فدخل بابر دلهي ، واستولى
على عرشها ، وبدأ به حكم دولة إسلامية جديدة هي دولة المغول . .

الدول الإسلامية الأخرى في الهند

ركزت الأضواء كلها للآن على الدولة الإسلامية التي قامت في دلهي ،
وانخذت منها عاصمة ؛ لأنها هي الدولة الكبرى التي كانت تتجه إليها الأنظار ،
وكانت حين قوتها تسيطر وتتسع سيطرتها ، وحين تضعف تستقل بهض
الأطراف عنها ، فكانت لذلك بمثابة القلب في الهند .

وهناك دول إسلامية أخرى كانت تقوم على أنقاض ضعف سلطان
دلهي ، وتعيش مستقلة حتى إذا قوى سلطان دلهي أعادها مرة ثانية إلى سلطانه ،
وقضى على استقلالها فتصير تابعة لدلهي .

من هذه الدول : دولة قامت في السكجرات ، وأخرى في الدكن ، وثالثة
في البنغال ، ورابعة في جوناپور وغامسة في مالوا .

ولا أريد الآن أن أستقصى لك أحوال هذه الممالك ؛ فإن ذلك يستدعي
كتبا مستقلة تتبع أحوال الملوك ، وكيف وصلوا إلى الحكم ، وكيف
حكموا ، وكيف قامت الحروب بينهم وبين غيرهم . . الخ . .

لكن إذا كان المقام لا يتحمل التفاصيل ، فإنه يتسع للأجمال ، لكي نرسم
صورة عامة عن أحوال هذه الممالك وملوكها حسب ما يتسع له المقام .

الدولة الإسلامية في الكجرات (١)

١٤٠٧ هـ ١٨١٠ م إلى ١٠٦٥ هـ ١٥٧٢ م

كانت الكجرات تابعة لدلهي، وحين قامت فيها ثورة أرسل لها سلطان دلهي ناصر الدين محمد الطغلق، أحد قواده وهو ظفرخان، سنة ٧٩٣ هـ - ١٣٩٠ م لإخمادها، فنجح في ذلك، وظل مقيما بها نائبا عن السلطان في حكمها، محافظا على ولائه لدلهي، حتى حين خرج عليها كثير من الولاة، واستقلوا بولاياتهم، ولما هجم تيمور، سنة ٨٠١ هـ ١٣٩٨ م على دلهي فرسلطانها إلى كجرات، واحتوى بها مدة، ثم انتقل إلى مالوا، وظل بها حتى خرج تيمور من الهند، ورجع السلطان إلى عاصمته مرة ثانية، لكن دلهي اعتراها الضعف الشديد، فلم يجد ظفرخان مناصا من الاستقلال بها، فأعلن استقلالها، وسعى باسم مظفر الأول، وكان ذلك سنة ٨١٠ هـ - ١٤٠٧ م. ذكر عنه صاحب نزهة الخواطر (٢) أنه «السلطان الصالح المجاهد في سبيل الله الغازي، كان من أمراء فيروز شاه الدهلوي، وللاه السلطان «محمد بن فيروز» على كجرات سنة ٧٩٣ هـ، فساس أمور الملك بالعقل والدهاء والتدبير والسياسة، وغلب على أرض كجرات كلها، ولما تزلزل بزيان السلطنة بدلهي، وتلاشت أجزاءها استقل بكجرات سنة ٨١٠ هـ، ولقب نفسه «مظفر شاه»، وكان عادلا فاعلا كريما، رحيما شجاعا مجاهدا في سبيل الله، متعبدا حسن العقيدة والفعال، سموه في كبر سنه فمات، وكانت وفاته في سنة ٨١٣ هـ - كما في «مرآة سكندري»، أي ما يوافق سنة ١٤١٠ م.

(١) تقع الكجرات الآن في شمال ولاية بومباي من ولايات الهند. وجنوبها يطل على بحر العرب وأشهر مدنها «أحمد آباد» التي تعتبر عاصمة البلاد الكجراتية، وكانت لها صلات تجارية وثقافية في الماضي مع البلاد العربية، وتكلم اللغة الكجراتية.

أحمد شاه

وقام بعده بالملك حفيده ، أحمد شاه ، بوصية منه ، فساس أمور الدولة بالعدل والإحسان ، ووسع رقعتها ، وأنشأ مدينة جديدة قريبة من سركيچ أو سرغيز ، التي كانت مقر الحكم ، سمي هذه المدينة الحديثة باسمه واسم شيخه ، أحمد السكهتوى ، وكان صوفيا كبيرا ^(١) . وهى مدينة ، أحمد آباد ، الشهيرة فى الماضى والحاضر . والتي صارت عاصمة الكجرات منذ ذلك الوقت .

اجتمع عنده أهل العلم من كافة الأقطار ، لما عرفوه عنه من التدين ، وتشجيع العلم وإكرام العلماء ، وحشهم على التصنيف ، ومن هؤلاء العلماء الشيخ بدر الدين محمد بن أبى بكر الدمامينى ^(٢) الذى صنف له شرح التسهيل لابن مالك ، ومصاييح الجامع فى شرح البخارى . وعين الحياة وهو مختصر حياة الحيوان الكبرى للدميرى ، وتحفة الغريب فى شرح مغنى اللبيب .

وتوفى أحمد شاه فى سنة ٨٤٥هـ - ١٤٤٢م فتولى الملك ابنه محمد شاه إلى سنة ٨٥٥هـ - ١٤٥١م ثم قطب الدين بن محمد إلى سنة ٨٦٢هـ - ١٤٥٧م ثم داود بن أحمد شاه الذى لم يلبث أن عزل وتولى بعده محمود شاه .

(١) هو الشيخ الزاهد شهاب الدين أحمد بن عبد الله السكهتوى السركيچى أحد المشايخ المشهورين فى المهد فى التصوف ، طالب منه مظفر شاه أن يقيم معه فى سركيچ ، فأقام فيها ، وبايحه أحمد شاه ، وأخذ عنه طريقته لشدة حبه وتقديره له . ولد سنة ٧٣٧هـ - ١٣٣٦م وتوفى سنة ٨٤٩هـ - ١٤٤٥م ودفن فى سركيچ بمحوار مقبرة السلاطين ، وقد زرت قبره حين ذهبت لأحمد آباد ، ورأيت آثار هذه المدينة البائدة « سركيچ » فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .

(٢) ولد بالاسكندرية وتلقى العلم بها وبالقاهرة ثم أخذ ينتقل فى البلاد الإسلامية حتى وصل إلى كجرات فى أيام السلطان أحمد شاه سنة ٨٢٠هـ - ١٤١٧م فأكرمه وأغدق عليه ، وأقبل الناس على علمه ، ثم رحل إلى الدكن وتوفى بها ودفن بمدينة سكر ك « إحصان آباد » سنة ٨٢٧هـ - ١٤٢٣م .

محمود شاه

أحد مشاهير ملوك هذه الأسرة وهو المعروف باسم محمود بيگرو،^(١) وبيگرو تتألف من كلمتين دى، ومعناها اثنان، ودگرو، ومعناها قلعة، أى صاحب القلعتين، واشتهر بهذا الاسم لفتحته قلعتين من أمنع القلاع، وهما جيران عامما، كانت كلها حافلة بجلال الأعمال، قام بحروب عظيمة، فتح فيها القلاع والحصون، ووسع مملكته، لكنه تحاشى أن يكون ذلك على حساب جيرانه من المسلمين، فقد كان هذا السلطان تستولى عليه عاطفة إسلامية، مع رجولة نادرة، تجعلنا نقف عندها لنقص شيئا من قصصها. وكان حريصا على أن يسود التوفيق حكام المسلمين جميعا، فلا يطغى منهم قوى على ضعيف، فإذا حدث ذلك من أحدهم هب لنصرة الضعيف فى شهامة تحمده على مر التاريخ.

حدث سنة ٨٦٦هـ - ١٤٦١م أن وصله رسول من أم نظام شاه البهنى صاحب الدكن الإسلامية، يخبره أن «محمود شاه الخالجي، سلطان مالوا» خرج إلى الدكن بعساكره ويستجده، وكان محمود فى رحلة للصيد، فقطع رحلته، وجهز جيشه لينجد الدكن، فلما علم الخالجي بذلك رجع، ثم حدث مثل ذلك فى العام الذى يليه، ولما رجع الخالجي كتب إليه محمود كتابا يقول له فيه: ليس من المروءة قصد طفل لم يبلغ الحلم، وقد التزمت حفظ مملكته، حتى يبلغ مبلغ الرجال، فإن دخلت حده دخلت فى حدى. وفيما يليك من جهات الكفار ما يغنى عنه، ويرفع درجتك بالجهاد.

ومع ذلك لما بلغه أن محمود شاه الخالجي توفى ترحم عليه، وعمل له زيارة، ولما زين له بعض جلسائه انتهاز الفرصة والاستيلاء على مملكته قال لهم: ليس من الفتوة اجتماع مصيبتين على أهل بيته فى وقت واحد: فقد ذاته وخلل جهاته.

(١) كان ماصرا له من سلاطين دلهى السلطان «اسكندر لودى» وكانت بينهما محبة، وأرسل له اسكندر التعف والمهادنة.

ولما سمع بعد ذلك أن ناصر الدين الخلجي سم أباه غياث الدين خلجي قصد تأديبه ، ولم يرجع عنه إلا بعد أن أظهر براءته .
وهكذا تراه من خلال هذه الحوادث رجلا مسلما شهبا ، قل أن يوجد نظيره في الرجال .

وكان بجانب شهامته هذه معنيا بتعمير البلاد ، وتأسيس المساجد والمدارس والحدائق ، والإكثار من الزراعة وغرس الأشجار وحفر الآبار ، ولذلك أقبل عليه أهل الفن والحرف من كل البلاد ، فارتقت كجرات في عهده من النواحي العلمية والزراعية والصناعية ، وكانت تصدر الثياب الذخنة إلى كثير من البلاد حتى أوروبا .

وكان يكرم العلماء ويقربهم ؛ ولذلك اجتمع في بلاطه كثير من علماء الهند والعجم والعرب ، واشتهرت كجرات في أيامه بدراسة الحديث . وفد عليه جلال الدين ابن محمد المالكي المصري فقر به إليه ، ولقبه بملك المحدثين^(١) . كما وفد عليه العلامة مجد الدين محمد الأيحي^(٢) ، فأكرمه وعهد إليه بتربية ابنه « مظفر » الذي ولي الملك بعده ، وصنف له بعض العلماء كثيرا من الكتب ، كما ترجم له أحد العلماء تاريخ ابن خلكان للفارسية^(٣) ، وقدم عليه أبو القاسم بن أحمد المكي المعروف بابن فهد ومعه فتح الباري بخط أبيه وعمه ، وقدمه إليه فأكرمه .
وفي أيامه أخذ البرتغاليون يهاجمون سواحل الكجرات ، فاستعان هو

(١) ولد بمصر سنة ٨٥٦ هـ ١٤٥٢ م وتعلم بها ثم ارتحل إلى مكة ، وقرأ على شمس الدين السقاوي كتب الحديث ، ثم سافر إلى اليمن ، ثم إلى الهند في عهد السلطان محمود ، فأكرمه كثيرا ، حتى إذا مات وخلفه ابنه مظفر حصلت بينهما جفوة بسبب الدس عليه ، وبقي في أحمد آباد حتى توفي سنة ٩٢٩ هـ ١٥٢٢ م ودفن بها .

(٢) من العلماء المشهورين بالحديث ، لقبه السلطان محمود برشيد الملك . ولما تولى « مظفر » الحكم مدحه على جميع الأمراء ، وجعله وزيرا له سنة ٩١٧ هـ ١٥١١ م واستمر وزيرا أربع عشرة سنة ، ثم في عهد ابنه بهادور شاه منحه النيابة المطلقة ، فقام بها خمس عشرة سنة ، ولما جاء حاميون شاه التيموري ، واستولى على كجرات أخذه معه إلى أكرا وفر به إليه ، حتى إذا فر حاميون وتولى سيد شاه السورى أخذ له في الرجوع لكجرات ، فرجع إلى أحمد آباد ، ولما مات دفن بها .
(٣) سماه مظفر الإنسان - ترجمة تاريخ ابن خلكان .

والزامورين ملك المليار الهندوسى بالأسطول المصرى فى عهد « قانصوه
الغورى » ، وكان البرتغاليون كثيراً ما يعتدون على السفن المصرية فى بحر العرب
والبحر الأحمر ، فاستجاب لها سلطان مصر ، وأرسل الأسطول بقيادة الأمير
حسين ، ووقعت بينهم وبين البرتغاليين معركة بحرية أمام « كاليكوت » ، فى
مليبار ، تحطم فيها الأسطول البرتغالى سنة ٩١٤ هـ - ١٥٠٨ م غير أن الأسطول
البرتغالى . جمع شتاته وسار شمالا إلى « ديو » ، فى الكجرات حيث كان الأسطول
المصرى والكجراتى هناك ، وفى هذه المرة استطاع أن يهزم الأسطولين
بسبب خيانة حاكم ديو ، وتواطئه مع البرتغاليين ، ومنعه تموين الأسطول
المصرى ؛ مما جعله يغادر مياه الهند راجعا إلى مصر ، فقوى شأن البرتغاليين
بعد هذه الواقعة .

وفى آخر أيام السلطان محمود توجه إلى « نهر واله » ، وزار أئمة الدين أحياء
وأمواتا ، وعقد مجلسا خاصا لمذاكرة التفسير والحديث ، وأكثر من العطايا ،
ثم رجع إلى سرگيج ، وأكثر من أعمال البر ، والتردد على قبر الشيخ أحمد كتو .
وكان قد أنشأ لنفسه مقبرة ، فذهب إليها وفتحها ، وجلس عند القبر وقال :
اللهم هذا أول منازل الآخرة فسهله لى ، واجعله من رياض الجنة ، ثم ملاه
فضة . وتصدق بها على المحتاجين . .

ثم توفى فى يوم الاثنين الثانى من شهر رمضان سنة ٩١٧ هـ - ١٥١١ م بعد
أن مكث فى الحكم خمسا وخمسين سنة .

مظفر الحليم

وخلفه ابنه ، مظفر ، الذى اشتهر باسم السلطان مظفر الحليم الكجراتى
كان هذا السلطان نموذجا عاليا للبلوك ، جمع الفضل من أطرافه ، ويطيب
لى أن أسترسل قليلا فى ذكر تاريخه الحسن ، فثله قليل فى الملوك ، وبسيرته
الطيبة النادرة يتعطر التاريخ .

عنى والده بترتيته على يد العلماء والمشايخ ، وركل به العلامة الشيخ المحدث
مجد الدين الأيجى ، حتى صار من حفاظ القرآن ، ومن المحدثين الفقهاء . اشتهر
بالتقوى والعفو والتسامح حتى أطلق عليه « السلطان الحليم » ، وكان مع ذلك
عارفا بالموسيقى ، ملما بعلوم زمانه ، ماهرا فى الفنون الحربية وفى الخط بجميع
أنواعه ، كتب مصحفين بيده وأرسلهما إلى الحرمين الشريفين ^(١) .

وقد حدث فى أيامه أن أغار ملوك الهندوس على مملكته ، مالوا الإسلاميه
التي يحكمها آل خلجى ، فاستنجد محمود شاه الخلجى الثانى به ، فصار إليه بحريشه ،
وكانت موقعة جمع فيها الهندوس قوات ضخمة ، فنازلهم جيش « مظفر »
وهزمهم ، ودخل القلعة التي كانوا قد استولوا عليها ، وأعمل فيمن فيها القتل ،
حتى سالت الدماء أنهارا ، وفر من نجا بنفسه ، ودخل مظفر القلعة مع
محمود الخلجى وطافا بها ، وتقدم إليه السلطان الخلجى يقول له : الحمد لله الذى
بهمتك رأيت بعينى ما كنت أتمناه لأعدائى ، والآن لم يبق لى أرب فى شىء
من الدنيا ، والسلطان أولى بالملك منى ، فرد عليه مظفر الحليم وقال له : إن
أول خطوة خطوتها إلى بلادك كانت فى سبيل الله تعالى ، والثانية كانت
لنصرتك ، والحمد لله قد تم لنا النصر ، فبارك الله لك فى ملكك ، ووعد به أن
ينصره ويعينه دائما ، وأبقى عنده بعض جيوشه لمساعدته ..

ومن الحوادث ذات الدلالة على تدين هذا السلطان ، أن الخلجى أخذه

(١) قال الآصنى فى تاريخه : إنه كتبهما بالخط الثالث بماء الذهب ، وخمسهما لإمام الحنفية ،
وجعل لهما وقتا يصرف لمن يقوم على حفظهما ، ومن يدعو له عند ختمهما ، والاستاء الذى
يعنى القراء والفراش كذلك .

وطاف به في أنحاء قصره ؛ حتى وصل إلى مكان خرج فيه نساء متزينات يحملن مختلف الجواهر ، ونثرنهما تحت أقدامه ، فلما رأى ذلك أشار بأن تحتجب النساء ؛ لعدم جواز النظر إليهن ، فقال له الخلجي : إنهن ملكي ، والعبد وما ملكت يدها لسيده . ثم قفل راجعا إلى كجرات ، وكان ذلك في صفر سنة ٥٩٢٤ هـ - ١٥١٩ م .

وهكذا فعل هذا السلطان صاحب النفس الكبيرة التي قل أن يحملها مثله من السلاطين ، فعل ذلك مع أن سلاطين آل خلجي كثيرا ما وقفوا مواقف عدائية ضد كجرات ، متعاونين مع الهندوس ، وفي أول هذه الحرب ، حينما كان الخلجي مشتبكا مع الهندوس ، أشار بعض قواد مظفر عليه أن ينتهز هذه الفرصة ، ويهجم على «المالوا» ويأخذها ، ولكنه أجاب بأنه ليس من الرجولة والشهامة في شيء أن نجتمع مع الهندوس ضد الخلجي ، وننتهز فرصة انشغاله ونأخذ مملكته . ويذكر المؤرخون عن تدبته وتقواه الكثير ، ويذكرون الحكايات التي وقعت له في هذا الصدد .

يذكرون أنه كان شديد التمسك بالسنة في كل قول وعمل ، كثير الذكري للموت ، كثير البكاء كلما ذكره ، محافظا على الوضوء والصلاة في جماعة ، لم يقرب الخمر قط ، وكان شديد العناية بأحوال رعيته ، حتى كان يتنكر ويخرج بنفسه بالليل والنهار ؛ ليقف على شؤون شعبه بنفسه .

وبما ذكره الآصفي في تاريخه^(١) أن تاجر خيل خاصه عند القاضي ، فخرج إليه ماشيا حتى إذا حضر عنده لم يتحرك القاضي من مجلسه ، ونصحه ألا يترفع عن خصمه ويخاص معه ، وهو مطيع لأمر القاضي ، فلما حكم عليه بدفع ثمن الخيول للتاجر ، ودفعها إليه ، قال القاضي للتاجر : هل بقيت لك دعوى عليه ؟ فقال : لا .. وحينئذ قام القاضي من مجلسه ، وسلم على السلطان ، وقدم له فروض الطاعة ، ملتصقا منه العفو عن معاملته في مجلس القضاء .. فقام السلطان ، وأخذ بيد القاضي وأجلسه في مكانه ، وجلس بجانبه وشكره على عدالته ، وعدم تمييزه على

(١) قتلا عن نزهة الخراطر ص ٣٥٦ ج ٤ .

خصمه ، وقال له : لو لم تفعل هذا وراعتني لانتصفت للعدالة منك ، وجعلت لك
كآحاد الناس ، فجزاك الله عنى وعن الحق خيرا ، فثلك يكون قاضيا ، قتل
وجه القاضى ، وأثنى عليه وقال له : ومثلك يكون سلطانا ..

هذه الحادثة تكنى لأن تكون عنوان الحكم فى هذا العهد ، وتكنى
وحدها لأن تكون تاريخا له .

ومن بره لأهل الحرمين أنه كان يرسل لهم العطايا والأقشنة ، وأنشأ فى
مكة رباطا ومدرسة وسبيلا للدم ، وجعل لها وقفا يرسل إلى مكة ينفق منه
على المدرسين والطلبة ومن يقيم بالرباط ..

وقد حدث فى سنة ٩٣١هـ - ١٥٢٥ م أن خرج السلطان لصلاة الاستسقاء ،
فأكثر من الصدقة على المحتاجين ، وتقدم للصلاة وأخذ يدعو ، وكان آخر
ما دعا به : اللهم إني عبدك ولا أملك انفسى شيئا ، فإن تك ذنوبى حبست
القطر عن الناس ، فها هى ذى ناصيتى بيدك ، فأغثنا يا أرحم الراحمين .
قالها وهو واضع جبهته على الأرض يكرر قوله : يا أرحم الراحمين : فأرفع
رأسه حتى هاجت الرياح والبرق والرعد وأمطر الناس ..

وعند ما مرض ، وشمر بدنو أجله جمع عنده كثيرا من العلماء
والصوفيين ، وأخذ يتحدث معهم فيما يصلح أن يكون بلاغا للآخرة ، ويذكر
لهم ما من الله به عليه من حفظ القرآن والحديث ، وقال : ما من حديث
رويته عن أستاذى المسند العالى مجد الدين الأيحيى بروايته له عن مشايخه
إلا وأحفظه وأسنده وأعرف حالة راويه ، وما من آية إلا وقد من الله على
بحفظها ، وفهم تأويلها وأسباب نزولها وعلم قراءتها . وأما الفقه فقد عرفت
منه ما أرجوه أن أكون ممن قال فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم : من يرد
الله به خيرا ينقمه فى الدين ، ، وإنى منذ مدة وأنا أحاول أن أتشبه بعمل
الصوفية ، وأشتغل بتزكية النفس ، عملا بما قيل : من تشبه بقوم فهو منهم ، ،
وإننى أطمع فى شمول بركاتهم متعللا بعسى ولعل .. ثم أخذ يكثّر من النصدق ،

وزيارة الأولياء حتى توفي إلى رحمة الله سنة ٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م ، ودفن في سرگيج بجزوار والده .

وقد زرت هذه المقابر ^(١) ، ويقابلها قبر الشيخ أحمد كتو . شيخ السلطان أحمد ، وهي في مسجد عظيم ، واسع الرحاب فسيح الجنبات متين البنيان ، على بحيرة كبيرة ، كانت بيوت هؤلاء الملوك تقوم عليها ، فأصبحت الآن أثرا بعد عين ، تهدمت البيوت ، وبقى المسجد والمقابر تشهد بعظمة هؤلاء الملوك ، بقدر ما تثير في النفس من ألم دفن ، فقد بقي المسجد وسط خرائب ومزارع ، وخلال من المابدن الساجدين لإلا قليلا ممن يقوم على حفظه ، ولا يتردد عليه إلا طلاب الذكريات ، وقد أقام أمامه بعض الأهالي أكشاك متداعية تحوى بعض الضروريات للزوار . جلست مع أصحابي بعد أن تعبنا من الطواف بنواحي المسجد على شاطئ البحيرة ، بجانب قبور السلاطين العظام ، وأنا أردد النظر في هذه الآثار العظيمة ، التي ظلت بعد أصحابها تقاوم الظروف والصروف . وأذكر عنها ما قاله المولى يحيى في حديث عيسى بن هشام عن الآثار المصرية « خبر صادق ، ولسان ناطق ، تنطق بالعبر ، وتحدث عن غير »

وبعد وفاة مظفر شاه ، قام خلاف بين أركان الدولة على من يتولى الملك من أبنائه ، كان من نتيجته أن قتل « اسكندر » ثم نودي بأخيه الطفل « محمود » ملكا ، ولكن أخاه الكبير « بهادر » سرعان ما عاد من سفره ، ونادى بنفسه ملكا سنة ٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م ، وقتل أخاه « محمود » سرا ، وقع ثورة « لطيف خان » ثم قتله ، فاستقر له الملك ، وسار بجيشه إلى « چتور » وأخضعها وإلى « مندو » عاصمة الدولة الخليجية ، فقاتل ملكها « محمود شاه الخليجى » وأسرته سنة ٩٣٧ هـ - ١٥٣١ م ، ثم توجه إلى « آجین » وسار نكبور ، وبهاسه ، وكاكرون ، وكانور ، وهو شنگ آباد ، وإسلام آباد ، ومندسور ، وفتحها كلها ، ثم عاد إلى « چتور » وسلط مدافعه على القلعة حتى تم فتحها ، وتقدم له « راناسانگا »

بالطاعة ، وأهدى إليه كل ماظفر به من أملاك محمود الخلعى وجواهره ، ثم سار إلى ررتهمبور ، ، وفتحها عنوة ، وعاد إلى وچتور ، مرة ثالثة وأخضعها . وهكذا قضى هذه السنين فى حرب كتب له فيها النصر دائما .

وكانت دولة المغول التى قامت فى دلهى سنة ٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م لم تتعرض للدولة الإسلامية بالكجرات ، حتى طمع همايون بن بابر ، فى ضمها إلى ملكه ، فسار إليه ، والتقى بجيشه ، ودار قتال عنيف انتهى بانتصار همايون ، وفرار بهادر إلى ديو ، سنة ٩٤٢ هـ - ١٥٣٦ م ، ولكن لم يحن همايون ، ثمرة النصر ، فقد خرج عليه شيرشاه السورى ، وهزمه ، وفر همايون إلى إيران ، فانهز بهادر ، الفرصة ؛ وكر راجعا إلى بلاده ، طاردا نواب همايون منها ، لكنه هو الآخر لم يتمتع طويلا بلذة العودة إلى بلاده ، فقد بلغه ان البرتغاليين هجموا على ديو ، فسار إلى ملاقاتهم ، وهناك خدعه القائد البرتغالى ، وادعى أنه إنما جاء لتهنئته بعودته للحكم ، لكنه لا يستطيع النزول إلى البر لمرضه ، فسار إليه بهادر شاه ، ، وركب سفينة ؛ ليصل إلى القائد البرتغالى فى مركبه ، وبعد ما تقابلا عاد بهادر شاه ، ، لكنه وهو فى طريق عودته غدر به البرتغاليون ، وهجموا على سفينته ، فتنبه للخديعة ، وثبت لهم ، وأخذ يحاربهم ، ولكن بدون جدوى ، وسقط شهيدا فى البحر سنة ٩٤٣ هـ ١٥٢٧ م . . .

وقد اتسعت المملكة فى أيامه اتساعا لم تشهده من قبل ؛ لما عرف به من الشجاعة وعلو الهمة ، وكان جوادا معطاء لا يجرى على لسانه فى العطاء أقل من لك تنكه (١) مما جعل وزراءه يغيرون قيمة التنكه .

وبموته قامت الفلاقل فى مملكته ، وظلت كذلك حتى استولى عليها الامبراطور المغولى جلال الدين أكبر ، سنة ٩٧٨ هـ ١٥٧٢ م فى عهد مظفر شاه الثالث ، وانطوت بذلك صفحة مملكة عظيمة جادت على الزمان برجال عظام ، سجلوا لهم فى التاريخ ذكرا ونفرا . .

(١) الك يساوى مائة ألف ، فاضطر وزراءه إلى تغيير قيمة التنكه ، وهى الصفيحة ، كما هو معروف فى المجاز . .

سلاطين مالوا

كانت إمارة «مالوا» تقع في وسط الهند، بين كجرات والدكن وأكرا، وفي عهد محمد شاه بن فيروز شاه تغلق عين «ظفر خان بن وجيه الملك» حاكما لكجرات، و«خضر خان» حاكما على لاهور، و«دلاور خان غورى» حاكما على مالوا، وظلت هذه الولايات تابعة لسلطان دلهى، حتى إذا ضعف عمل كل حاكم من هؤلاء على الاستقلال بحكم ولايته، وكان السلطان محمود قد فر من دلهى حين هجم عليه تيمور سنة ٨٠١ هـ، وتوجه إلى كجرات، ولكن ظفر خان لم يحسن استقباله لاعتبارات سياسية، ولعله خاف من تيمور، فاتجه السلطان محمود إلى «دلاور خان» فى مالوا فأحسن استقباله، وأكرمه، حتى عاد إلى دلهى بعد خروج تيمور، كما سبق، وخيئذ رأى دلاور خان ألا وجه لبقائه تابعا لسلطنة متهاككة تركها تيمور جثة هامدة طمعت فيها النسور، فاستقل بحكم مالوا، وأسس أسرة حاكمة بها هى أسرة الغورى التى يرجع نسبها إلى شهاب الدين غورى فاتح الهند، ولم يمكث دلاور خان طويلا بعد أن استقل بأموره؛ فقد مات سنة ٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م فتولى الملك من بعده ابنه :

هوشنگ

وقد اتهم بوضع السم لأبيه، ولذا غضب عليه السلطان ظفر خان أو مظفر خان كما سمي بعد استقلاله بكجرات؛ للصداقة القديمة التى كانت بينه وبين زميله «دلاور خان»، وسار إلى هوشنگ بجيشه، فانهزم أمامه، والتجأ إلى القلعة، وطلب منه العفو والصفح، ولكن مظفر خان لم يقبل منه، وقبض عليه وسجنه فى القلعة، وبعد سنة فك قيده، وظل فى الحكم حتى توفى^(١)، وخلفه ابنه «غزني محمد شاه» الذى كان آخر أسرة غورى فى

(١) لا تزال إحدى المدن الكبيرة فى وسط الهند تسمى باسمه «هوشنگ آباد»، وهى محطة كبيرة من محطات القطار، سررت عليها حين رجوعى من حيدرآباد لدهلى فى ديسمبر سنة ١٩٥٢.

الحكم ، فإن أحد الأمراء في عهده استطاع بعد موته أن يقبض على الحكم .
ويؤسس أسرة حاكمة أخرى هي أسرة خلجي وهذا الأمير هو :

محمود الخلجي

وقد قبض على الحكم في آخر شوال سنة ٨٣٩ هـ ١٤٣٦ م ، وعمره أربع وثلاثون سنة . وبقى به حتى توفي سنة ٨٧٣ هـ ١٤٦٩ م فيكون قد مكث في الحكم أربعاً وثلاثين عاماً ، قضاها كلها في الحروب ، حتى كأن راحته كانت في الضرب والطعان واقتحام الأهوال . وقد كان محمود من السلاطين العظام الذين اتسموا بحسن السياسة في السلم والحرب ، فوفد على بلاطه العلماء والكبراء من كل البلاد في الهند ، وخارج الهند وكان يكثر العطاء ، ويكرم العلماء ، حتى وفد عليه سنة ٨٧٠ هـ - ١٤٦٥ م رسول الخليفة العباسي في القاهرة ، المستنجد بالله يوسف بن محمد العباسي بخلة الخلافة ، فأكرمه وذكر الخليفة معه في الخطبة . وقد ذكر المؤرخون كثيراً من أحوال هذا السلطان ، وأرى ألا بأس من الاستطراد ولو قليلاً معه .

هاجمه أحمد شاه الكجراتي ، وظلت الحرب بينهما مدة دون أن يظفر أحدهما على الآخر ، حتى نفشى الوباء في جيش أحمد شاه ، فاضطر للرجوع (١) ثم سار محمود إلى ملك گواليار الهندوسي الذي اعتدى على بعض أطراف مملكته ، ففر أمامه واستولى على قلعته .

وأرسل له علماء وكبراء دلهي وميوات أن يأتي إليهم لينقذهم من ظلم سلطان دلهي ، وكان من أسرة السادات التي وليت الحكم بعد انتهاء أسرة طغلق ، فسار إليهم وجرت الحرب بينه وبين جيش دلهي سجالاً ، وفي صباح

(١) يقول المؤرخ فرشته ج : إن أحد الصالحين الذين كانوا يرافقون السلطان أحمد قص عليه أنه رأى الرسول في منامه يقول له : قل لأحمد شاه يرجع عن محاربه المسلمين ولا تقمى الوباء في الهند ، ولكن أحمد لم يسمع إليه ، واستمر حتى أصيب الجيش بالأمراض ومات الكثير منه .

أحد الأيام قام من نومه مذعورا مهموما لرؤيا رآها (١) ، وصادف أن جاءه
رسل سلطان دلهي يطلبون الصلح ، فاستجاب له ورجع سنة ١٤٤٥هـ - ١٤٤١ م .
وفي سنة ٨٥٥هـ - ١٤٥١ م استعان به أحد الهندوس « راجا گنگك داس ،
ضد سلطان الكجرات » محمد شاه بن أحمد شاه ، ، وفي أثناء ذهابه توفي محمد شاه
وخلفه ابنه قطب الدين . فاستمر محمود في حملته ، واستولى على « برودا » (٢) ،
ثم تابع سيره حتى التقى الجيشان في « چانبور » ، وبالرغم من فرار كثير من
أمراء جيشه مع جنودهم ، إلا أنه ظل يحارب ويناوش ، حتى استطاع الفرار
ليلا ، وفي طريقه إلى « مندو » ، أصيب بخسائر كثيرة من المهاجرين الهندوس .
ولعل هذه هي الهزيمة الوحيدة له في حكمه الطويل ، ولما رأى نفسه مشغولا
بحرب الهندوس ، وخشى أن يهاجمه ملك الكجرات كتب إليه أنه لا يليق أن
يحارب المسلمون بعضهم بعضا ، وأمامهم الهندوس عدوهم المشترك ، وطلب
الصلح ، فأجابه قطب الدين إليه .

ولكننا مع ذلك نراه يهاجم مملكة الدكن الإسلامية في عهد علاء الدين
البهمنى الذي تمكن من صدّه ، فرجع ليشغل بالحرب مع الهندوس الذين كانوا
يخرجون عليه ، أو الذين كان يريد ضم بلادهم إليه ، وكان الانتصار حليفه
دائما ، وكان كثيرا ما يهدم المعابد . ويقتل الهندوس حين ينتصر ، حتى يقول
المؤرخون : إنه في ذلك أعاد ذكرى محمود غزنوى .

وفي سنة ٨٦٦هـ - ١٤٦١ م . هجم على مملكة الدكن الإسلامية ، منتزعا
صغر ملكها الطفل « نظام شاه بهمنى » الذي استنجدت أمه بالملك محمود الكجراتي ،
فتجهز لتجديتها . وأندز محمود الخلجي ، فرجع كما سبق أن أشرنا إلى ذلك عند
الكلام عن السلطان محمود .

(١) يقول فرشته إنه رأى أن أحد الهندوس هجم على العاصمة « مندو » واستولى عليها .

(٢) زرت هذه المدينة بصحبة المرحوم مولانا حسين أحمد مدني شيخ الإسلام في ٢٥
أكتوبر ١٩٥٦ وكانت قبل استقلال الهند يحكمها راجا هندوسي ورأيت فيها مظاهر الرق
والعمران والتقدم حيث كانت عاصمة الراجا . وهي على طريق المطار بين دلهي وبومباي .

وهكذا ظل في حرب مستمرة ، حتى توفي سنة ٨٧٣ هـ - ١٤٦٩ م أثناء قيامه بإخماد فتنة في كجوارا ، وكان عادلا منصفًا حازما ، يذكر المؤرخون أن الناس في عهده لم يعرفوا أو يسمعوا عن سرقة . وإذا أتلّف جيشه شيئا للناس عوضهم عنه . وبعده تولى الملك ابنه :

غياث الدين :

وكان قد قضى مع أبيه أكثر من عشرين سنة في حرب وجهاد ، فالإلى أن يستريح ، ويترك الحرب ، وكانت الظاهرة الغريبة فيه أنه يميل إلى جمع كثير من النساء في بيته من مختلف الأجناس ، لكنه كان يعنى بتعليمهن وتثقيفهن ، حتى علمن فنون الحرب ، وألبسن ملابس الرجال ، ووجه كثيرا منهن لحفظ القرآن ، كما عني بتربية الحيوانات والزواحف ، وعين لها الطعام والخدم ، ومع ذلك ظلت أمور الدولة في أيامه مستقرة ، لم يحدث شيء فيها إلا أن بهلول لودى ، ملك دهلي أغار على أطراف المملكة ، فصار إليه ولكن بهلول أسرع بالرجوع ، فأرسل وراءه الجيش ، مما اضطر بهلول معه أن يقدم الهدايا لأمير الجيش راغبا في الصفح والمصالحة ، فاستجاب له القائد ورجع . ولفيات الدين قصص وطرائف أحب أن أذكر بعضها هنا ملخصة لما فيها من الطرافة .

كان غياث الدين مشغولا بجمع النساء من كل مكان وكان لذته في رؤيتهن أمامه ، حتى جمع نحو عشرة آلاف امرأة ، ومع ذلك كان يقول : لم أرفهن امرأة جميلة . ومرة طمع أحد أخصائه أن يقدم له امرأة جميلة فخرج في البلاد وطاف بها ، حتى وقعت عينه على بنت فقيرة لأحد الرعايا ، فاحتال عليها حتى جاء بها إلى القصر ، ولكن أباهما فزع وجاء إلى العاصمة يطلب بقتله . وفي موكب غياث الدين وقف الرجل ، وقال له : إنصف أيها الملك . فوقف غياث الدين ، ونزل عن فرسه ، وقال لأبرح مكاني حتى يفتي العلماء في أمري وتأخذ حتمك ولو بإقامة الحد على ، وإزاء هذا أظهر الرجل سروره بأن تكون

بنته عند الملك ، وجاء العلماء وحكموا بأنه مادام السلطان لا يعلم أنها جاءت بهذه الطريقة فلا حرج عليه .

وجاء رجل بدوى مرة يريد مقابلته ليطلب منه مساعدة فى زواج بنته . ولم يجد حاجبه الشيخ لقمان طريقة لوصول هذا البدوى إلى غرضه إلا أن يدبر حيلة يقول عنها للملك إن بدويا أحضر له هدية ، ويريد مقابلته فأخبره وأذن للرجل ، وأعطى لقمان للبدوى حفنة قمح وعله أن يقول لأعطيها للملك إلا فى المسجد . وتمت هذه الخطة وقام الرجل فى المسجد ، وطلب من الملك أن يتلقى هديته فى حجره ، ثم ألقى فيه حفنة القمح ، وأمر الملك للرجل بعطاء كبير .

ولعل مغزى اتجاه الرجل للملك يطلب مساعدته أكبر من باقى القصة كلها . وكان غياث الدين مع انشغاله بأمور الدنيا كثير التفكير فى أمور الآخرة ، كان كلما لبس ثوبا جديدا أمر النساء الحافظات أن يقرأن القرآن ، وينفثن عليه لحصول البركة ، وكان يأمر خواصه بأنهم كلما رأوه منشغلا بأمور دنياه يحضرون أمامه ثياب الكفن ، فكان إذا رآها انقطع عن أمور الدنيا ، واتجه للعبادة والتفكير .

وقد ضعف غياث الدين فى آخر أيامه ، وقام خلاف بين ابنه وشجاعت خان ، المعروف بعلاء الدين ، و « ناصر الدين » ، حول الاستئثار بالحكم ، انتهت بغلبة ناصر الدين الذى قبض على مخالفيه وحبسهم ، وكان ذلك فى عهد أبيه الذى كان يؤيد « شجاعت خان » . وظل أبوه مقيما فى القلعة حتى توفى سنة ٩٠٦ هـ - ١٥٠١ م واتهم ناصر الدين بأنه دس السم له ..

واستقل « ناصر الدين » بالحكم بعد ذلك وقد حدثت بينه وبين ابنه شهاب الدين حرب انتهت بفراره ، ولكن أباه لم يتعقبه لشغفه عليه ، وكان شهاب الدين يسمى الظن بأبيه ، ويرى أنه دس السم لجده غياث الدين ، وظل ناصر الدين فى الحكم حتى سنة ٩١٧ هـ - ١٥١١ م ، وكانت مدته ١١ سنة و٤ شهور . وقام بالملك بعده ابنه محمود

محمود الثانى الخلقى :

وكان سيم التدبير واقعا تحت تأثير « مدنى راي » ، أحد راجوات الهندوس الذى أفسد بينه وبين إخوته ، مما جعل الفساد يدب فى جهاز الدولة ، وقامت حرب بينه وبين بعض الأمراء انتهت بفرار محمود ، ثم ساعده « مدنى راي » ، على الرجوع للملكة ، وحينئذ أخذ النفوذ الهندوسى يطغى على نفوذ محمود ، فشكا المسلمون إلى سلاطين دلهى وگجرات والدكن ، فهبوا لنجدتهم ، ولكنهم لم يصيخوا نجاحا ، وسارت الأمور هكذا حتى تغلب « مدنى راي » ، الهندوسى على محمود الخلقى نهائيا ، واضطر للفرار بحيلة الاصطياف ، واستغاث بالسلطان « مظفر الحليم الگجراتى » ، فهب لنجدهته وذهب إلى « مندو » ، وطرد الهندوسى منها ، وسلمها إليه ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك عند الكلام على السلطان مظفر ..

وقد ترك السلطان مظفر بعض قواته لمؤازرة محمود خلقى ضد أعدائه ، ولكن هؤلاء الأعداء غافلوا هذه القوات وانقضوا عليها حتى كادوا يفنونها ، وبالرغم من ضعف قوات الخلقى إلا أنه قرر أن ينتقم من هؤلاء الهندوس ، فنارلهم فى حرب عنيفة أتت على كل قواته تقريباً ، حتى لم يبق معه إلا عشرة من الفرسان ، ومع ذلك قرر أن يخوض بهم المعركة ، حتى قتلوا جميعا ، وبقى محمود وحده ، وحينئذ قرر أن يستمر فى القتال وحده حتى يفوز بالشهادة ، وهجم وحيداً دون مبالاة فقتل كثيراً ، وأصابه أكثر من عشرين جرحا ، ومع ذلك استبسل فى الهجوم ، واستمر فى الضرب ، والهندوس من حوله يحاربون وهم فى ذهول مما يفعله هذا الملك الشجاع ، وأخيراً سقط من فوق فرسه ، وهنا يتقص التاريخ أروع ما سجله فى صفحاته ، فقد استولى على الهندوس الراجبوت الإعجاب بهذا البطل الشجاع الذى لم يسمعوأ بمثله فى التاريخ ، وأخذتهم نشوة الإعجاب التى هزت فيهم مخايل الشهامة والمرومة ، فتقدموا للبطل ، وحملوه وأكرموه ، وقدموا له الدواء . وتقدموا بين يديه كما

يتقدم الأمراء الخاضعون لملكهم ، وأحاطوه بكل أنواع التكريم ، حتى
أجلسوه على العرش ، وعاد ملكا كما كان (١) .

هذه حادثة قل أن يكون التاريخ قد ظفر بمثالها . أبطال يكرمون بطلا
عدوا لهم إلى هذا الحد بعد أن حاربهم إلى آخر رمق؟ إن هذا شيء يستحق
الإعجاب حقاً بهؤلاء الأبطال الشجعان ، وبهذا الملك الذي رزقه طلب
الاستشهاد كل هذا التكريم ، وحقا : اطلبوا الموت توهب لكم الحياة ..
وعاد محمود الخلجي للملكة للمرة الثالثة ، وكانت المرة الأولى حين أعانه
مدني راى ، الهندوسى على العودة ، بعد أن غلبه بعض قواده (صاحب خان ،
ومحافظ خان) ، والمرة الثانية حين أعاده مظفر شاه الكجراتى بعد أن تغلب
عليه (مدني راى) كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، ولكنه مع هذا لم يتمتع
طويلا بهذه العودة ، فقد سار إليه بهادر شاه الكجراتى ، وحاصره في قلعة
(مظفر آباد) وقبض عليه سنة ٩٢٧ هـ - ١٥٣١ م ، وعاد به أسيرا إلى أحمد
آباد ، لكنه قتل في الطريق ، وهكذا انتهت الأسيرة الخلجية الحاكمة في
مالوا ، وانضمت هذه البلاد إلى حكم كجرات ..

(١) وردت تفاصيل هذه الحادثة في تاريخ فرشته ج ٤ ص ٥٩٨ .

مملكة الدكن البهمنية

١٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ م إلى ١٧٩٤ هـ - ١٥٢٧ م

كانت المملكة البهمنية في الدكن أسبق إلى الوجود من زميلتها في مالوا وكجرات بنحو ثلاثة أباغ قرن تقريبا ، إذ تأسست هذه الدولة في أواخر عهد السلطان محمد تغلق ؛ وكان بعدها عن دلهي أكبر مساعد لها على الاستقلال ثم الاحتفاظ بهذا الاستقلال مدة كبيرة ، حيث ظل سلاطين دلهي عاجزين عن الوصول إليها بجيوشهم ، حتى قامت دولة المغول وعظم شأنها ، فضمنها إلى سلطانها . وقد أسس هذه المملكة :

علاء الدين حسن كنگو بهمان

ويذكر المؤرخون عنه أنه كان في مبدأ حياته خادما لمنجم كبير ، له نفوذ واسع عند الملوك ، وكان حسن ، ذا طموح عجيب استطاع أن يتقرب إلى شاه محمد تغلق حتى صار من أمرائه والمقرين لديه ؛ وسار معه في حملته لبلاد الدكن ، ولما تم له إخضاعها مكث حسن هناك حاكما صغيرا ، فلما سادت أعمال السلطان ، وضعف نفوذ دلهي على الأطراف استطاع حسن بالاتفاق مع بعض أمراء الجند أن يستقلوا بحكم الدكن ، ثم أتاحت له ظروفه أن يظهر على بقية حكام المنطقة ، ويتولى قيادة الجيش ضد الهندوس ، وينتصر عليهم ، ويصبح الحاكم الفعلي لبلاد الدكن سنة ٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ م ويؤسس بذلك أسرة ظلت تحكم الدكن قريبا من قرنين من الزمان ، وقد اتخذ مدينة كلبيرگه ، المعروفة باسم إحصان آباد ، عاصمة له ، وتوفي في ربيع الأول سنة ٧٥٩ هـ - ١٣٥٦ م بعد أن حكم البلاد حكما ناجحا وقسمها إلى أربعة ولايات^(١) ، حتى يسهل ضبط أمورها ، كما ضم بعض بلاد الهندوس المجاورة إليه بعد أن هزمهم ، وغنم منهم الغنائم الكثيرة ، واستمر في الحكم نحو إحدى عشرة سنة

(١) وهي كابرگه ، ودولت آباد ، وبيرار ، وتاليكاي الإسلامية .

وجاء بعده ابنه : محمد شاه بهمنى

وكان قويا شديد الوطأة على الهندوس الذين غدروا بالمسلمين ، فأقسم لينتقم منهم شر انتقام ، وسار إلى راجا (فيجايانكر) وغيره ، وأعمل فيهم القتل ، حتى قيل إنه قتل منهم مئات الألوف ، واضطروهم لدفع الجزية كل سنة ، وقد أسس محمد في عهده حكومة تشبه حكومات العهد الحالى ، حيث قسم الحكم إلى وزراء كل له اختصاصه ، وجعل لهم رئيسا ، فوزير للمالية ووزير للخارجية ، وهكذا ، كما أعطى لحكام الأقاليم ما يشبه الاستقلال الذاتى فى شؤون ولاياتهم .

وقد عمد فى أيامه إلى سك نقود ذهبية خاصة بمملكته ، ولما أساء المصرفيون الهندوس التصرف بإذابة هذه النقود وتخزينها بإيعاز راجا (فيجايانكر) وراجا فارانكل قام بقتل جميع المصرفيين الهندوس ، مما أفضى إلى حرب عنيفة بينه وبين راجات الهندوس المتقدمين ، وهذه الحرب هى التى ذبح فيها نحو أربعمئة ألف منهم .

وقد أنشأ محمد فى العاصمة مسجدا كبيرا ، ثم توفى سنة ٧٧٦ هـ - ١٣٧٥ م

وجاء بعده ابنه مجاهد شاه

وكان فاتحا مقداما ، قامت الحرب بينه وبين راجا (فيجايانكر) وگشن رانى ، فهزمه ، وغنم الغنائم الكثيرة ، وفى أثناء عودته قتله عمه داود سنة ٧٧٩ هـ - ١٣٧٨ م وتولى الملك بعده ، ولكنه لم يلبث أن قتل وهو يصلى سنة ٧٨٠ هـ - ١٣٧٩ م

وتولى محمود شاه بهمنى

وكان من خيار السلاطين فى هذه الدولة ، عارفا باللغة العربية والفارسية ، قصده العلماء والشعراء من كل ناحية ، وكان الخافظ الشيرازى الشاعر الفارسى المشهور من أقرب الناس لديه ، وأكثرهم نوالا من عطائه ، وقد عنى بأحوال

رعيته ، وتوفير الأرزاق لهم ، كما عني بإنشاء المدارس والتكايا ، وترتيب الأرزاق لليتامى والمقعدين والطلاب والعلماء ، وتوفي سنة ١٣٩٧ هـ - ١٣٩٧ م بعد أن حكم قريبا من عشرين سنة .

ومن أشهر ملوك هذه الأسرة « فيروز شاه بهمنى » الذى اختير للملك بعد فترة قصيرة من القلاقل وأحداث القتل ، تلت وفاة عمه السلطان محمود ، وقد تم اختياره للملك سنة ٨٠٠ هـ - ١٣٩٨ م ، وقد تربى فيروز تربية علمية على يد الشيخ فضل الله الشيرازى ، وكان شديد الذكاء سريع الحفظ ، ولذا لم تشغله أمور الدولة عن الاشتغال بالعلم والتدريس ، فكان يقوم بالتدريس ثلاثة أيام فى الأسبوع وكان من الكتب التى يدرسها شرح المقاصد ، وتحرير اقليدس والمطول ، ونال الطلاب والعلماء كثيرا من عنايته وعطائه ، ولشغفه بالعلوم بدأ فى إنشاء مرصد للنجوم فى « بالاگهات » قريبا من دولت آباد ، وكان مع ذلك ولوعا بالنساء والخمر والغناء ، حتى زين له شيخه الشيرازى حل المتعة ، فوجدها فرصة تحقق غرضه ، فتمتع بمئات النساء ، وقد بنى بلدة سماها « فيروز آباد » .

وبما يجدر ذكره أن « تيمور » قد غزا الهند فى مبدأ أيام فيروز ، فبادر بإرسال الهدايا والتحف إلى فاتح الهند الذى سر بهديته وبروحه الطيبة ، وأرسل له التحف والهدايا مع كتاب رقيق يثنى عليه فيه الشاء الجميل .

وفى آخر أيامه كانت الخمر والنساء قد أضعفت صحته ، وأنهكت قواه ، فتمكن أخوه « أحمد شاه » من الاستيلاء على الملك سنة ٨٢٥ هـ - ١٤٢٢ م ، ولم يلبث فيروز أن توفي بعد ذلك بأيام ، وكان أحمد شاه من كبار القوادى فى أيام أخيه ، ولما تولى الملك قام بحملات تأديبية على الهندوس الذين نقضوا عهودهم ، فذبح منهم الآلاف ، وأرغمهم على دفع مال له كل سنة ، وقد عني بتأسيس المساجد والتكايا كما أسس مدينة سماها « أحمد آباد بيدار » وجعلها عاصمة ملكه ، وتوفي فى رجب سنة ٨٢٨ هـ - ١٤٢٥ م وجاء بعده :

علاء الدين شاه الثانى :

وقد عاصر جلوسه على العرش قيام الدولة الخاجية فى مالوا على يد محمود الخلجى ، الذى طمع فى الدكن وهاجم أطرافها فصدّه علاء الدين ، وقد كثرت فى عهده الفتن والمنازعات بين المسلمين السفين ، وبين الشيعة ، وكان أكثرهم من الأجانب الوافدين على الدكن من الخارج ، ولكن علاء الدين قمع هذه الفتن فى حزم وشدة ، بعد أن قتل كثير من الشيعة الأجانب فيها ، وقد قام علاء الدين بحروب متعددة مع ملوك الهندوس المجاورين له فى فيجاياننجر ، وكوكن وغيرها كتب له فيها النصر ، ويذكر المؤرخون عنه أنه كان عادلا حازما ، لا يتهاون فى إقامة العدل بين الناس لافرق بين كبير وصغير ، ويحكمون عنه أنه كان يخطب على المنبر ذات يوم ، فذكر عن نفسه : أنه السلطان العادل الكريم الحليم الرؤوف بعباد الله .. الخ ، فقام أحد تجار الخيول العرب من أهل الإحصاء فى الجزيرة العربية ، وكان السلطان قد اشترى منه بعض الخيول ، وأبكى الوزراء لم يعطوه الثمن - قام هذا التاجر العربى وباعته بقوله : لا والله لا عادل ، ولا كريم ، ولا حليم ، ولا رؤوف أيها الظالم الكذاب ، تقتل الذرية الطاهرة (لعله يشير إلى ما حدث من قتل الشيعة) ، وتسكلم بهذه الكلمات على منابر المسلمين ، فتأثر السلطان وفاضت عينه بالدمع ، وغضب على وزرائه غضبا شديدا ، ودخل بيته ولم يخرج منه إلى أن مات (١) ، وقد توفى سنة ٥٨٦٢هـ - ١٤٥٧ م ، ودفن فى أحمد آباد الدكن ..

وجاء بعده ابنه « همايون » الذى اشتهر باسم « همايون الظالم » لما عرف عنه من شدته وقسوته ، وكثرة الدماء التى أراقها ، ومعاملته الوحشية لبعض قواده وكثير من جنوده وزوجاتهم ؛ لانها مهم بخيانته .

وبعد أن قتل خلفه ابنه الطفل نظام شاه ثم أخوه « محمد الثالث » سنة ٨٦٧هـ - ١٤٦٢ م ، وكان فى وصاية أمه حتى بلغ سن الرشد ، وقد طمع

الهندوس المجاورون له في مملكته ، لكن وزيره القوى خواجه عماد الدين محمود الكيلاني^(١) تمكن من صدمهم ، والمحافظة على المملكة ، حتى بلغ الملك سن الرشد ، وأمسك بزمام الأمور في يده ، ولكن محموداً ظل مع ذلك حارس الدولة ومدرها القوى ..

وقد خاض محمد شاه مع قواده كثيراً من المعارك العنيفة ضد الهندوس المجاورين ، كتب له فيها النصر ، حتى اتسعت مملكته من ناحية الغرب إلى البحر ، مستولياً على دكوان ، كما استولى على كانشي إحدى المدن السبع المقدسة عند الهندوس ، واتسعت المملكة من الجنوب والشرق ، حيث أخضع أوريسه على الساحل الشرقي على خليج البنغال ، وكان محمد شاه مفرطاً في الشراب ، لم يعمر طويلاً حيث توفي قبل الثلاثين من عمره ، وكان ذلك سنة ٨٨٧ هـ — ١٤٨٢ م .

وخلفه ابنه الصبي محمود ، وبدأت الدولة تضعف في عهده وعهد خلفائه ، وطمع حكام الأقاليم في الاستقلال ، فاستقلوا بولاياتهم وأنشأوا ممالك مستقلة^(٢) بها ، وبقي السلطان في العاصمة لا نفوذ له حتى تولى الملك

(١) مشهور باسم محمود كاوان ، ويقال له ملك التجار وخواجه جهان . كان من أبناء الملوك والوزراء ولد في بلاد العجم سنة ٨١٣ هـ — ١٤١٠ م ورحل إلى القاهرة ، وتلقى عن ابن حجر العسقلاني ثم رحل إلى الشام يطلب العلم والتجارة ، ثم جاء إلى الهند وسنة ٤٣ وقصد بلاد الدكن في عهد علاء الدين الثاني ، وتقرب إلى السلاطين حتى صار وزيراً وكان عالماً بارعاً في المعقول والمنقول كريماً شجاعاً يثق على أهل العلم في كل الأنظار ، وكان مع سعة ثروته لا يدخر منها شيئاً وترك آثاراً خالدة في هذه الناحية منها مدرسة عظيمة في أحمد أباد الدكن اشتملت على مسجد ومكتبة وقاعة للطباعة وأماكن للتسليم . وإلى محمود هذا يرجع الفضل في توطيد المملكة حين هبت عليها الأعاصير ولكن حساده تقموا عليه قربته من الملك فدمسوا عليه خطاباً مزوراً لأحد أعداء الملك الذي تجبل بقتله سنة ٨٨٦ هـ — ١٤٨١ م ثم ندم على ذلك ندماً شديداً — اه نزهة ج ٣ ص ١٦٢ .

(٢) كانت خمس دول مستقلة : الأولى دولة بريد شاه في بيسدار (١٤٩٠ — ١٦٥٧) (الثانية) دولة عماد شاه في بيار (١٤٨٤ — ١٥٧٧) ومؤسسوها كانوا هندوياً أسلموا (الثالثة) دولة نظام شاه في أحمد نكر (١٤٩٦ — ١٦٠٠) ومؤسسوها كانوا كذلك هندوياً وأسلموا (الرابعة) دولة قطب شاه في كوليكنده (١٥١٢ — ١٦٨٧) ومؤسسوها أصلهم فارسي ، (الخامسة) دولة عادل شاه في بيجابور (١٤٨٩ — ١٦٨٦) وقيل إن مؤسسها من أمراء الأتراك العثمانيين الفارين وكان شيعياً (حاضر العالم الإسلامي ص ٢٩٥ ج ٤)

«كليم الله بهمنى» ، وفي أيامه جاء «بابر» إلى الهند ، وفتح دلهى ، فكتب إليه كليم الله أن أمراه غلبوا عليه ، ولم يعد له نفوذ ، وأنه أصبح كالأسير ، وطلب منه أن يحضر لإفقاذه ، على أن يتنازل له عن بعض أجزاء مملكته ، لكن «بابر» كان عنه فى شغل ، فاعطر بعد هذا إلى الفرار والالتجاء عند حاكم «أحمد نكر» ، وكان ذلك سنة ٩٣٤هـ - ١٥٢٧م ، حيث بقى هناك فى رعاية سلطانها حتى توفى ، وبذلك انقضت الدولة البهمنية فى الدكن من الوجود ، أما الدول الإسلامية التى قامت على أنقاضها منذ ضعف شأنها فقد ظلت فى صراع بعضها مع بعض ، وبعضها مع الهندوس أو البرتغال ، حتى ضمت كلها نهائيا للإمبراطورية الإسلامية فى دلهى ، وكان آخر ما ضم منها سنة ١٠٩٨هـ - ١٦٨٦م فى عهد الإمبراطور المغولى «أورنكزيب» ، كما سيقى .

وبجوار هذه الممالك التى قامت فى گجرات ومالوا والدكن وتكلمنا عنها سابقا كانت هناك ممالك إسلامية أخرى ، قامت فى البنغال وجونپور ، والسند ، وغدير ذلك ، وكان ضعف سلطان دلهى يؤذن دائما باستقلال الأطراف ، وقيام ممالك متعددة منفصلة عنها إسلامية وهندوسية ، حتى إذا ردت الروح لدلهى ، وقوى شأنها أخذت تستعيد سلطانها ، وتقضى على استقلال هذه الممالك ، وتضمها إلى مملكتها . كذلك كان الشأن عند ما ضعفت دلهى فى أواخر عهد محمد تغلق ، ثم لما جاء حكم المغول ، وقوى شأنهم أخذوا يوسعون ملكهم على حساب هذه الممالك المستقلة ، حتى إذا ضعف المغول بعد أورنكزيب عاد الأمر كما كان من قبل ، وأصبح فى الهند عدة دول إسلامية وهندوسية متفرقة متحاربة ، مما سهل للغزاة الغربيين التسلط على الهند .

هذه فكرة إجمالية عن الحالة فى الهند ، أما الكلام عن هذه الدول كلها بتفصيل ولا سيما الإسلامية منها فإنه لا يتسع له المقام فى هذا المؤلف . وقد أفرد لها المؤرخ «فرشته» مجلدين كبيرين من تاريخه ، فلنكتف بما قدمنا من الطواف خارج دلهى ، ولنعد إلى حديثنا عن شئون الملك فى عاصمة الهند الكبرى «دلهى» .

دولة المغول

أو : الدولة التيمورية

٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م إلى ١٢٧٣ هـ - ١٨٥٧ م



بابر مؤسس الدولة المغولية التيمورية

تيمور رأس الأسرة التيمورية

سبق أن تحدثنا في اختصار عن استيلاء « بابر » على دلهي بعد أن استعان به حاكم لاهور .

ولما كان « بابر » يعتبر مؤسساً للدولة التيمورية العظيمة فإننا نعيد الكلام عنه هنا في تفصيل ، وفاء بحق هذا المؤسس والقائد العظيم ، وقد اشتهر هذا المؤسس باسم « بابر شاه » (١) ، واسمه الكامل « ظهير الدين محمد بابر » وهو ابن عمر الشيخ ملك فرغانة ابن أبي سعيد بن ميران شاه بن تيمور ، وأمه كذلك من أسرة جنكيز خان ، فهو من جهة الأب والأم ينتمي إلى جنكيز خان ، والانتساب إلى جنكيز هو في العالم التوارني أقصى ما تتخيله الأمانى لملك أو أمير ، كما هو الشأن عند العرب في الانتساب لآل البيت ، (٢) .

(١) وينطق « بر » ومعنى كلمة « بير » في اللغة الهندية النمر

(٢) حاضر العالم الإسلامي ج ٤ ص ٢٩٦ .

ولد بابر في المحرم سنة ٨٨٨ هـ - ١٤٨٣ م وقد نشأ في بيت الملك ، وحرص أبوه على تقيفه ، فتعلم العلوم المختلفة والفنون الحربية ، وتوفي أبوه وهو صغير ، فجلس على العرش ، وسنه اثنا عشر عاما سنة ٨٩٩ هـ - ١٤٩٤ م ، وقد لقي كثير أ من الشدائد منذ صغره ، فبعد أن ضم إليه مملكته ما وراء النهر فقد ملكه ، وسار إلى أفغانستان منهزما أمام ملك بخارى ، ثم استطاع أن يوطد أقدامه في كابل ، بعد ذلك ويؤسس مملكته سنة ٩١٠ هـ - ١٥٠٤ م ، وأخذ يوسع مملكته ، ويقوى حكمه ، حتى استنجد به اللودى حاكم لاهور ضد ابن عمه ابراهيم اللودى حاكم دلهى - ، وكانت الهند وحديثها مما يسيل له لعاب الفاتحين والمغربين بالحروب والغنائم ، لاسيما من الجنود والأفغان ، فاتنزهافرصة باعتباره أحداً أحفاد تيمور أيضا ، وسار إلى الهند باثنى عشر ألف مقاتل فقط ، لكنهم كانوا مزودين بالمدافع الحديثة التي لم يعرفها حاكم دلهى الذى اعتمد على كثرة جنوده . وكانوا مائة ألف من الفرسان مزودين بالفيلة ، والتقى الجيشان في « بانبيت » في رجب سنة ٩٣٢ هـ - إبريل ١٥٢٦ م ، ولم تنفع الكثرة شيئا أمام تنظيم بابر ومدافعه ، لاسيما وقد كان ابراهيم اللودى رجلا متكسلا مترددا ، غير معنى بتنظيم جيشه ، فدارت الدائرة عليه وقتل ، وقتل معه آلاف من جيشه وفر الباقون ، ودخل « بابر » دلهى ظافرا ، حيث نودى به ملكا على الهند في يوم الجمعة ١٥ من رجب ٩٣٢ هـ - إبريل ١٥٢٦ م ، وسار ابنه « همايون » على رأس جيش إلى « أكر » ، فاستولى عليها ، وغنموا من دلهى وأكر الغنائم الكثيرة ، التي حرص بابر على توزيعها على الجنود ، وإرسال بعضها إلى كابل^(١) ، عندئذ دب الذعر في قلوب ملوك الهند

(١) قد أُنقذ بابر على الجنود والقواد تأليفا لهم ومكافأة على شجاعتهم وثباتهم ، وأرسل إلى كل فرد من رعيته في كابل قطعة من الغضة تذكرا لفتح دلهى ، ولما قدم « همايون » لوالده جوهرة « كوهينور » أثنى جواهر العالم المعروفة ردها له متجاوزا عنها ، وقد انقلبت هذه الجوهرة القريفة من مملكة إلى مملكة حتى استقرت أخيرا في ناح ملك الانجيز بصفته امبراطور الهند .

هذا ما جاء في مذكرة الأستاذ حبيب من ٨٩ ولكن جاء في نزهة الخواطر ج ٥ ص ٢٧٢ في ترجمة الأمير محمد بن سعيد الأردستاني أنه جاء من الجنوب إلى « الإمبراطور شاهجهان » وعرض عليه أن يأسس كان وزنه ستة عشر ومائتي حبة . وهى التى يسمونها « كوه نور » وهى اليوم فى إكابل ملك الدولة الانكليزية « وهى « كوه نور » جبل نور لكثرة ما تشبه من نور .

الهندوس ، حيث رأوا في هذا الفاتح قوة إسلامية جديدة ربما تقضى عليهم ، في الوقت الذي اطمأنوا فيه على ملكهم بجانب ملوك المسلمين الضعاف ، فتجمع ملوك الهندوس « راناسنك » ، ملك جيتور ومعه ملوك مارفار وأمير ، وأجمير ، وگوالياروتشنديري « چنديري » ، وانضم إليهم محمود اللودي أخو السلطان المقتول ، ووجد بابر نفسه أمام تكتل عظيم من قوى المسلمين والهندوس معا ، وهنا برزت مواهبه الحربية ، وقدرته في تعبئة قواته نفسيا وحربيا ، فوقف يخطب فيهم مذكرا إياهم بالنصر القريب ، وخوفا لهم عاقبة التخاذل أمام هذه القوى المتجمعة ، وتقدم في التعبئة النفسية خطوة أخرى ، حيث أعلن أمام جنده أنه سيظهر نفسه من شرب الخمر ، وحطم كؤوسها وأراق ما كان عنده منها ، ثم قال لهم : هلموا بنا إذن نقسم بالله وكتابه ألا نبرح مكاننا حتى ننتصر أو نهلك جميعا . وجاوبه جنده ، فرفعوا المصاحف وأقسموا ، وغلت دماؤهم ، ولعب الحماس بنفوسهم ، وتقدموا للقتال ، فكانت الغلبة للدفع والنفس القوية ، والتنظيم المحكم ، وبذلك تشتت شمل هؤلاء المتجمعين ، وأخذ بابر يتعقب من بق منهم حيا ، ويأتى على ملكه ، وبذلك انكسرت قوة المقاومة أمامه ، واستقامت له الأمور ، لاسيما بعد أن طارد محمود اللودي الذي فر إلى البنغال ، وكانت تحكها أسرة أفغانية ، وتابعه بابر حتى استولى على بيهار .

وحينما بدأت الأمور تستقر له اتجه للإصلاحات الداخلية ، فهد الطرق للمسافرين ، وأكثر من حفر الترع ، وغرس الأشجار والبساتين ، كما نظم الضرائب ، وأقام محلات للبريد على الطريق من آگره إلى كابل . .

وقد قام بابر بتلك الفتوحات ، وهذه الإصلاحات في الهند في مدة وجيزة لم تتعد خمس سنوات ؛ إذ توفي في جمادى الأولى سنة ٩٣٧ هـ آخر ديسمبر ١٥٣٠ م ، وهو في السابعة والأربعين من عمره ، وأوصى بأن يدفن في كابل ، فدفن هناك . . كما أوصى بأن يكون ابنه همايون ولي عهده في الهند .

بابر في نظر التاريخ :

وبابر يعتبر في نظر التاريخ أحد العظماء الذين يندر وجودهم لافى الناحية العسكرية فحسب ، بل في كل ناحية من نواحي حياته ، وهذا هو سر عظمته النادرة . فقد تغلب على جيش اللودى باثنى عشر ألفا من الجنود ، برغم خيانة حاكم لاهور له بعد أن استدعاه ، ثم تغلب على الجيوش الكثيرة الجرارة التي جمعها ملوك الهند الخائفين على ملكهم من الضياع ، حتى استطاع أن يؤسس ملكا إسلاميا ، ازدهر أكثر من قرنين من الزمان .

وكان مع نبوغه العسكري نابغة في مختلف العلوم ، حتى ذكر المؤرخون عنه أنه كان حنفي المذهب مجتهدا ، ألف عدة كتب في علوم مختلفة : في العروض وفي الفقه ، وكتابه فيه يسمى « الميّن » ، كما اخترع خطا سمي باسمه كتب به مصحفا وأهداه إلى مكة .

وكان مع ذلك أديبا رقيقا ، يقرض الشعر بالتركية والفارسية ، ومن أهم آثاره التي تركها مذكراته التي كتبها بنفسه عن حياته ، وقد كتبها في صراحة تتجلى فيها شجاعته النفسية أمام كثير من الحقائق التي ذكرها عن نفسه ، وقد كتبها باللغة التركية ، ثم ترجمت إلى الفارسية ، ترجمها عبد الرحيم ميرزا خان في عهد أكبر ، ومن الفارسية ترجمت إلى عدة لغات أوربية ، وإن كنت لا أذكر أنها ترجمت للعربية للآن .

يقول رينان الفيلسوف الفرنسي عنها^(١) : « إن هذا التاريخ تظهر عليه مسحة الصدق في الرواية ، وعند ما يفكر الإنسان أن محرر تلك الوقائع بذلك البيان السليق هو مؤسس دولة من أعظم دول العالم ، لا يعود قادرا على ترك الكتاب من يده ، فتجد في تلك الأسطر كلاما معقولا ، مع أصالة الرأي ، ورقة الطبع وشدة الجلد ، وبالإجمال يتجلى من كلامه حرية الفكر والدهاء والعدل ، وعدم الانقياد إلى الأوهام الخ » .

ولعل الأحداث التي ذكرها في صراحة عن حياته مما تغرى بالمطالعة ، وتعطى هذه المذكرات جاذبية لدى القراء المتعطشين دائما لقراءة خبايا النفوس واعتراقاتها ، مثلها مثل اعترافات « روسو » ، وإن كان هناك فرق كبير بالطبع بين الاعترافين .

يقول جوستاف لوبون عنها^(١) : « فعدت مذكرات بابر التي شبهت بتفاسير يوليوس قيصر نموذجاً حسناً في الآداب ، ولا شيء يشمل النظر أكثر من تجلي حقيقة مؤسس الدولة المغولية بالهند « بابر » ، في مذكراته تلك ، فبابر هذا الجبار الذي هو سليل جنكيزخان وتيمورلنك سار على سنة أجداده ، فأقام أهراماً من الرءوس المقصولة ، ومع تبصره وجبروته هذا كان أديباً رقيقاً يتكلم الفارسية والمغولية والعربية ، وله قصائد بالفارسية ، وكان صبوراً على مطالعة كتب العلوم والآداب والتاريخ — إلى أن قال :

حقاً إن بابر المقدم الموهوب العالم ، الذي يعد من أقوى الفاتحين في العالم ، كان يجمع في شخصه مغامرة عرقه وورقته ومهيجته ، فكان حيناً مات — وهو ابن خمسين سنة (تقريباً) — ملك الهند الذي دوخها باثني عشر ألف مقاتل ، بعد أن ظهر زعيم قرية ، وهو في الثانية عشرة من عمره .. ،

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية^(٢) : « إن شجاعة بابر وإقدامه فوق وصف الواصفين ، وإنه لما فتح سمرقند ثانياً مرة تسلق السور بمائتين وأربعين رجلاً ، وقطع جبال الهند كوش في وسط الشتاء ، وهو أمر خارق للعادة ، وكان شاعراً ، له ديوان باللغة التركية ، وكتب خاطرات حياته « بابر نامه » ، وقد طبعت هذه في قازان سنة ١٨٧٥ م ، وترجمها للفارسية عبد الرحيم مرزاخان ، ومنها نقلت للغات الأوروبية . »

ويذكر المؤرخون عن بابر قوته الجسمية ، حتى كان يستطيع حمل رجلين كل رجل بذراع ، والسير بهما مسافات طويلة ، وأنه عبر كل نهر صادفه ،

(١) حضارة الهند ص ٤٣٥ .

(٢) عن حاضر العالم الإسلامي ج ٤ ص ٢٩٨ .

وعبر نهر گنگا في ثلاث وثلاثين ضربة بذراع ، وكان مشهورا بطول ذراعه ، وكان ينسلق الجبال العالية ، ويستمر على ظهر حصانه لمسافة ثمانين ميلا ، دون أن يدركه التعب ، ويذكر المؤرخون مع هذا أنه كان مفرطا في شرب الخمر ، على عادة أهل زمانه ، وأنه عاد إليها بعد أن أقسم على تركها عند بدء الموقعة بينه وبين جيوش الهندوس المتحالفة ، وكان إدمانه على الخمر مما سبب له ضعفا عاما في صحته في أواخر حياته القصيرة ، فعجلت بشيخوخته قبل الأوان .

ذكر المؤرخ فرشته أنه صنع حوضا من المرمر للخمر ، وكان يجلس على حافته مع ندمائه يشربون ويتبادلون الشعر ، ومع ذلك يذكر أنه كان محافظا على أداء الصلاة ، لم يفته وقت منها ، كما كان محافظا على صوم الجمعة من كل أسبوع !! وما تجدر الإشارة إليه ، أنه في الوقت الذي أسس فيه بابر دولة المغول في الهند ، كانت الدولة العثمانية قد احتلت مصر والشام والبلاد العربية في عهد سليم الأول ، وكان في إيران الدولة الصفوية ، وفي الهند كانت البرتغال قد غزت الشواطئ ، وأسست فيها بعض المستعمرات ، بعد أن كشفوا طريق رأس الرجاء الصالح ، وأخذوا يوطدون سلطانهم على شواطئ بلاد الهند والبحار المؤدية إليها .

كما كان فيها دول إسلامية مستقلة في گجرات ومالوا والدكن وجو نپور ، وبنگال والسند .

همايون شاه

١٥٣٠ - ١٥٣٧ م



همايون بن بابر

ولد همايون في كابل سنة ٨٩١٣ - ١٥٠٦ م، وتربى تربية حربية سياسية، كما تعلم كثير من العلوم المختلفة، وعند ما توجه أبوه افتتح الهند كان ساعده الأيمن، فقد أرسله أولا إلى البنجاب عندما استغاث به حاكم لاهور، ولما نكث هذا عهده سار بابر ولحق بابنه ودخل الهند، ولما استقر في دلهى توجه همايون إلى « أگرا » واستولى عليها، وهكذا ظل في أيام أبيه قائداً مظفراً، ثم لما مرض أبوه واشتد عليه المرض عهد بالملك له، وأوصاه أن يحسن معاملة إخوته على ألا يغفل عنهم .
وكان لبابر أربعة أولاد، كان همايون أكبرهم وأقربهم إلى قلبه^(١) وإذا

(١) هكذا ذكر المؤرخون الهنود: سيد هاشمى وفرشته، وإن كان بعض المؤرخين العرب يذكرون أن « كمران » كان أكبر منه .

عهد إليه بالملك في الهند ، على أن يكون أخوه «كران» ، واليا على كابل وقندهار ، ثم أضاف إليه همايون ولاية شمال البنجاب أيضا ، على أن يكون تابعا لإسمها لدلهي ، وأما أخواه الصغيران «هندال مرزا» ، وعسكري مرزا ، فقد أعطاهما ولايات في الهند ، وكان همايون شديد العطف على إخوته حسن المعاملة معهم ، لكنهم لم يكونوا معه كذلك ، بل ظاهروه بالعداوة ، وتفرق شملهم حتى طمع فيهم أعداؤهم ، وأصبحت حياة همايون سلسلة من المصائب والمصاعب .

وقد ورث همايون من أبيه ملكا قام على الفتح والقهر ، وجروح المنهزمين لم تندمل بعد ، ولذا انتهزوا وفاة بابر ليخرجوا على همايون ويستردوا ملكهم ، وهكذا تسلم مع تاج الملك هذه المتاعب التي أحنت ظهره ، وحملته أخيرا على الفرار من الهند ناجيا بنفسه .

بدأ همايون بمحاصرة قلعة «كالنجر» كوصية أبيه ، وأثناء ذلك علم باعتداء محمود لودي بمعاونة الأفغان في جونيور على ملكه ، فذهب إليه وطرده وأخضع جونيور له ، ثم سار إلى «شيرخان» الذي كان يحكم بهار ، وامتد حكمه إلى البنغال ، فأظهر له شيرخان الخضوع .

وبعد ذلك سار همايون إلى گجرات حيث كان «بهادرشاه» ملكها يحمي الفارين من وجه همايون ، ويعاونهم على الهجوم على ملكه ، وتم لهمايون إخضاع گجرات ومالوا ، وذلك بخيانة أحد قواد بهادرشاه ، واسمه مصطفى بن بهرام الرومي المشهور باسم خان الرومي . وفر بهادرشاه إلى ديوسنة سنة ١٥٤٢ - ١٥٣٦ م ، وفي هذا الوقت انتهز «شيرخان» فرصة انشغال همايون في گجرات وخرج عليه ، واستولى على كثير من بلاده ، فأسرع همايون إليه والتقى الجيشان لكنه انهزم ، وقتل كثير من جيشه وغرق الكثير أيضا في نهر گنگا ، حتى أشرف همايون نفسه على الغرق ، لولا أن أنقذه أحد السقائين الذي أعطاه قربته ، عبر عليها النهر ونجا سنة ١٥٤٦ - ١٥٣٩ م .

وقد ذكر المؤرخون أن شیرخان غافله حين طلب منه الصلح ، ثم صبحه بهجوم عنيف ، كان من نتيجة غرق هؤلاء الآلاف من الجنود . وهذه الموقعة العنيفة التي ذهب ضحيتها الكثير لم تخل من طرافة ؛ فقد ذكر المؤرخون أن « همايون » لما جمع به فرسه نزل النهر وغرق ، وأشرف همايون نفسه على الغرق ، لولا وجود رجل كان يحمل قربة يسمى « نظام » ، فقدم له قربته التي عبر عليها النهر ونجا ، وهنا أحس همايون بفضل السقاء عليه ، فوعده أن يوليه الملك نصف يوم إذا رجع إلى « آگرا » ، وذهب إليه الرجل بعد ما رجع لعاصمته ، فوفى بعهده له ، وولاه الملك نصف يوم ، وقد انتهز السقاء هذه الفرصة فأشبع رغبته وحقق أمله وآمال أسرته في الغنى وكثرة المال ، ونفذ له همايون كل ما أراحه .

وقد عاد همايون إلى « آگرا » لتتجمع على رأسه المتاعب من كل ناحية ، فهو قد هزم أمام « شیرخان » الذي أصبح أكبر منافس له يهدده بضياع مملكة ، ومع ذلك استمر إخوته في العناد والكيد له ، غير مباليين بالموقف الخطر الذي يهدد عرش المغول ، ظانين أنهم يستطيعون أن يجلسوا عليه بدلا من همايون ، وكان هذا وهما منهم ، فقد كانت الحرب في الحقيقة امتحانا لقوة جنسين ونفوذهما : الأفغان الذين يمثلهم شیرخان ، والمغول الذين يمثلهم همايون .

وفي وسط هذه المتاعب ، لم يفقد همايون الأمل في التغلب على خصمه العنيد ، فاستمر نحو سنة يعد جيشا لمنازلته مرة ثانية ، وخرج إليه ، والتقى الجيشان قريبا من مدينة « قنوج » ، ولكنه أصيب أيضا بهزيمة منكره في محرم سنة ٩٤٧ هـ — ١٥٤٠ م ، وفر جيشه ولاذ هو بالفرار ، وتعبه شیرخان إلى « آگرا » ، ثم إلى « لاهور » ، ولم يجد الملك الفار من يعاونه ، حتى إخوته خذلوه وشتتوا فيه وعاونوا عدوه عليه . ويقول المؤرخون : إن همايون صار إلى حالة تعسة حتى دخل السند وهو هائم على وجهه لا يجد من يؤويه ، ولا يملك إلا بعيرا يركبه هو وزوجته وهي حامل ، حتى وصل إلى

قرية « عمر كوت » بالسند ، وهناك ولدت له ابنة « جلال الدين أكبر » ، الذى صار ملكا فيها بعد .

ولما وصل إلى « قندهار » فى أفغانستان سمع أن أخاه خرج إليه لياسره ، ففر بنفسه تاركا ابنه مع أمه فى « قندهار » ، والتجأ إلى امبراطور إيران « طهما سب شاه الصفوى » ، الذى أكرمه وأحسن ضيافته . .

وخلا الجو فى الهند لشير خان ، فدخل دلهى وآگرا ، وصار هو سلطان الهند المعروف باسم « شير شاه السورى » ، سنة ٩٤٧ هـ - ١٥٤٠ م ولنترك همايون فى إيران لاجئا ، لتتابع الحديث عن الهند وعن سلطانها الأفغانى الجديد ، على أن نلتقى بهمايون مرة أخرى حين يسطع نجمة ، ويعود إلى الدائرة التى يعنى بالحديث عنها التاريخ والمؤرخون .

« شير شاه السورى »

٩٤٧ هـ - ١٥٤٠ م إلى ٩٥٢ هـ - ١٥٤٥ م

صبي عادى فر من اضطهاد زوجة أبيه ، فكان امبراطورا للهند كلها . تلك هى قصة « فريد خان » ،^(١) فى اختصار ، وهى قصة حياة نادرة حفلت بالمتاعب والمجازفات التى لم تكن إلا لتلهب فى هذا الإنسان العجيب عزمه وطموحه ، وتجعله نادرة من نواذر الزمان .

ونحن حين نتناول حياة هذا الرجل بالدرس والتحليل نجعل أهم غاية لنا استخراج العبرة ، واستلهاهم العظمة لإحياء موات النفوس ؛ فإن فى دراسة التاريخ درساً للأحياء ، وعبرة لأولى الألباب .

جاء جده إبراهيم إلى بلاد الهند رجلا عاديا ، يلتمس الرزق أيام السلطان « بهلول » اللودى . وهو أفغانى من قبيلة « سور » ، ولذلك سمي « السورى » ،

(١) هكذا كان اسمه أولا .

ثم كان ابنه « حسن » ، واليا على « شهرام وخواص پور » ، عمالتين من عمالات « رهتاس » .

ورزق « حسن » ، بابنه « فريد » ، هذا ، وكان أكبر أبنائه ، ولكن لم تطب له الحياة في بيت أبيه ؛ لأن زوجة جديدة شاركته الحياة فيه ، واستولت على قلب أبيه ، فترك لهما البيت وفر إلى « جونپور » ، واتجه إلى العلم كأقرانه ، فقرأ : « گلمستان و بوستان »^(١) واسکندرنامه ، وكافية ابن الحاجب وشروحا ، وغير ذلك من علوم عصره ، وأراد أبوه أن يرجعه إلى بيته ، ولكن الولد أبى أن يعود إلى جنة زوجة أبيه .

وذهب أبوه بعد أعوام إلى « جونپور » ، وسمع حديث الناس عن ذكاه ابنه ، فدفعه ذلك إلى أن يصير على أخذه معه ، ويولي به بعض شؤونه ، وهنا بدأت مواهب فريد تظهر ، وبدأ الناس يسمعون منه نغمة جديدة لم يسمعوها من قبل ، فقد جمع الفلاحين والعمال عليهم وقال للفلاحين : أنتم عماد الدولة ترتفع وتنحط بكم ، لا سبيل لأحد عليكم بغير حق ، ولكم الخيار في الطريقة التي تدفعون بها الضرائب ، وقال للعمال : إنني سأخذ بالبطش كل من يظلم أحد الفلاحين ، وكان هذا سببا في استقرار الحياة وسعادة الناس ، فارتفع شأن فريد ، وأخذ الناس يتحدثون عنه ، وطار صيته إلى البلاد الأخرى المجاورة .

ولم يكن هذا ليعجب زوجة أبيه ، فدست له ، حتى عزله أبوه بعد مدة يسيرة ، فسافر إلى « آگرا » ، أيام إبراهيم اللودی ، وتقرب إليه وإلى دولت خان ، وظهرت مواهبه عندهم فقدروه ، ولما مات أبوه جعلوه مكانه ، فرجع إلى ميدان عمله الأول ، وأخذ يباشر شؤونه من جديد ، ولكن الأمور سرعان ما تغيرت حيث دخل « بابر » ، الهند وهزم إبراهيم اللودی وبدأ حكم المغول ، فالتجأ فريد إلى والي « بهار » ، محمد خان وخدمه بإخلاص ، وحدث أن هجم عليه أسد وهو في رحلة للصيد ، وكاد يفتك به ، فاندفع فريد نحو الأسد

(١) کتابان لسمدی شیرازی فی الأخلاق والتصوف .

في خفة ، وقضى عليه بضربة سيف سريعة . فأعجب به وسماه « شیرخان » . ومعنى « شیر » أسد ، وجعله مدربا ومربيا لابنه « جلال خان » ، ^(١) لكن الأمور فسدت بينه وبين محمد خان ، فتركه وذهب إلى « جنيد برلاس » ، الذي كان واليا على كره وچونپور من قبل السلطان بابر شاه ، فأكرمه ومهد له الوصول إلى خدمة « بابر » ، فمكث في خدمته مدة ، لكنه توجس خيفة منه فتركه ، وعاد إلى محمد خان والى بهار الذي عفا عنه وأعادته إلى عمله معه ، ولما توفي محمد خان تولى الأمر من بعده ابنه « جلال خان » ، القاصر ، فكان « شیرخان » ، صاحبنا هو الحاكم الفعلي للبلاد ، حتى إن « جلال » ، فر إلى بنگال تاركا له « بهار » ، فعظم فيها أمره ، وأخذ يوسع نواحي بلاده ، فضم إليه قلعة « جنار » ، بدون حرب ، حيث تزوج أرملة حاكمها ، وكانت للقلعة أهمية كبرى في « بهار » ، ^(٢)

ولما توفي بابر سنة ١٥٣٠ م وتولى همايون ، وشغل بالفتوح ، كان شیرخان يوطد ملكه ويوسعه على حساب ملك همايون ، كما ضم إليه البنغال ، فأخذ همايون يتجه لهذا الحاكم العنيد الذي علا شأنه واتسع ملكه ، وأصبح قرينا له يجاذبه العداء ، فسار إليه ، وكانت المواقع التي قدمنا الحديث عنها في تفصيل عند الكلام على همايون ، والتي انتهت بانتصاره واستيلائه على العرش .

وقد أشرت فيما سبق إلى أن الحرب بين همايون وشیرخان كانت امتحانا لقوة الجنسین المتحاربين المتنافسين في حكم الهند : المغول والأفغان . والواقع أن المغول أخذوا الحكم من الأفغان في دلهي ، لكن بعض الإمارات والولايات كانت تحت حكم الأفغان ، وخصوصا في الشرق - في چونپور وبهار وغيرها ، وكان الأفغان يتطلعون إلى استرداد ملكهم الذي فقدوه ، وهم لا يقلون في الحروب وتنظيمها عن المغول ، وكان شیرخان ينظر هذه النظرة منذ أن بدأ نجمه يسطع ، فعند ما كان في خدمة بابر نجده يتحدث مع أصدقائه

حديث نفسه فيقول لهم : « إننى لو ساعدنى الحظ لنفيت المغول من البلاد ، فقد عرفتهم فوجدتهم لا يستطيعون مقاومة الأفاغنة لو اتحدوا ، وإن المغول لا يحسنون إدارة البلاد ولا الاتصال بأهلها ؛ لأنهم يعتمدون على نوابهم ، والنواب لا يعدلون ولا يهتمون بمصالح الأفراد ، وإننى سأعمل على توحيد كلمة الأفاغنة ورفع شأنهم ما دمت حيا^(١) . »

حديث شيرخان يدلنا على النفسية التى كانت تسود المعركة ، لاسيما من ناحية الأفغان على الأقل .

ومما يجدر ذكره لشيرخان أنه حين انتصر على همايون ، وغرق أكثر جنوده فى نهر « گنگا » ، وكاد هو يغرق حين باغتهم شيرخان بالهجوم ، ترك همايون زوجته وراءه ، وفر ناجيا بنفسه ، فلم تجد هذه الزوجة مفرا من أن تذهب إلى شيرخان بنفسها ، ورآها تأتى إليه دون حجاب فى توسل وخضوع ، وهنا تبرز فى القائد الأفغانى صفات الرجولة والشهامة ، ويعلو عن الخوازات والصغائر ، فنزل عن فرسه واستقبلها هى ومن معها بكل إجلال واحترام ، وطمانين وأكد لهن أنه يعرف فضل « بابر » عليه عندما كان يعمل عنده ، وأركبهن إلى « أگرا » فى حراسة ابنه ، وأمره بأن يعمل على راحتهن وإجلالهن طول الطريق ، حتى يصلن آمنا ، كما أمره بأن يقتل كل من تحدّثه نفسه بالاعتداء عليهن . وهكذا يتصرف القواد العظام .

وعند ماتم له النصر على همايون ، وأصبح سيد الهند ، وجلس على العرش أنشد بيتين من الشعر الفارسى^(٢) بقيا مرآة لنفسية هذا القائد المتصر . يقول فيهما « اللهم إنك القوى الغنى ، وأنت العزيز المقيت للفقراء ، وإنك معطى الملك

(١) شيرشاہ لئی القکار .

(٢) ما : خدايا توانا تو نکر توئی توانا و درویش پرور توئی

فرید حسن راتو شاہی دہی سباہ ہمایون ہماہی دہی

لفريد بن حسن ومفوض جنود همايون للأسماء ، وكان جلوس شير شاه على عرش ، أگرا ، في ٤ رجب ٩٤٧ هـ ١٥٤٠ م .

* * *

وهنا تبدأ صفحة أخرى هي من أجد الصفحات في تاريخ ملك من الملوك ، لقد كانت الكلمات التي قالها للفلاحين ولعماله حينما كان يرعى بعض الشؤون في ولاية أبيه ، والتي أشرنا إليها من قبل ، كانت هذه الكلمات تمثل مبدأ راسخا في نفسه لم يحد عنه طول حياته ، وكان نجاحه في تلك الولاية الصغيرة مقدمة لنجاحه حين ولي الحكم العظيم . لقد مر في حياته بشتى أنواع الشدائد والمصائب ، بدأ يجابهها منذ عرف الحياة في بيت أبيه ، ثم تغلب في مختلف الأعمال ، وعند كثير من الولاة ، وقضى عمره إلا قليلا يجاذب الشدائد وينازلها ، حتى تغلب عليها أخيرا ، ولكنها صقلته ، وجعلت منه رجلا ممتازا قل أن يوجد بمثله الزمان ، وكان شير شاه متشوقا إلى العمل ، متشوقا إلى الإصلاح ، متطلعا إلى يوم يتمكن فيه من تنفيذ آرائه ومبادئه وإصلاحاته ، كان كلما تكلم عن آماله وآرائه وما يعده للمستقبل ، ضحك منه أصحابه وظنوه في حلم لذيد ، ولكن الله حقق له أحلامه ، وبدأ عندما ولي أمر الهند يقوم بأعظم إصلاحات قام بها حاكم ، والمهم في هذه الإصلاحات أنها قامت على أساس نظرية من أرقى النظريات في حكم الشعوب ، فالحاكم الذي يقول : إذا لم يستطع الحاكم إصلاح رعيته وإسعادها فلا يستحق أن يأخذ منهم الضرائب ، والحاكم الذي يعتبر الفلاحين عماد الدولة ، ترتفع بارتفاعهم ، وتنخفض بشقيائهم ، والذي يحذر ولااته من بطشه إذا أساءوا معاملة الشعب ، هذا الحاكم صنف نادر من الحكام ، ولعله أرقى صنف فنههم على مر التاريخ حين يوجد في أى زمن من أزمنة التاريخ .

فلا عجب إذن إن رأينا هذا الحاكم الذي جاء إلى الحكم ، وهو مهيا له تمام التهيئة ، ورأسه مليء بالأفكار ، وعزمه مرفف للعمل بدون إبطاء ، لا عجب إذا

رأيناه ينجز في أقل من خمسة أعوام ما يقف أمامه المؤرخون في حيرة وإعجاب ، فقد رأيناه يضع قواعد للحكم والنظام والإدارة تبقى أساسا بعده للحكام ، وهو مع هذا كله يتأسف شديد التأسف ؛ لأنه تمكن من حكم البلاد وهو كبير السن ، وربما لاتسعه قوته ، ولا يسعه عمره من تنفيذ كل ما كان يريد ، ومع ذلك كان مانفذه عظيما ورائعا ونادرا بين أعمال الملوك .

وإذا ألقينا نظرة عامة على أعماله ومشروعاته نجدها تهدف إلى شيء واحد هو رفاهية الشعب ، والرقى بمستواه ، وتخليصه من آثار الظلم والإعنات ، لافرق بين مسلم وغير مسلم .

فقد كانت سياسة الدولة من قبله تقوم على أن الملك هو مالك الأرض كلها ، يقطعها لمن يشاء ، وعلى الفلاحين أن يزرعوها ، ويؤدوا نحو تسعة أعشار المحصول لآسيادهم أصحاب الأقطاع .

لجاء شير شاه ومسح الأرض ، وحدد مقدار ما يؤخذ من الزارعين للحكومة بنحو ربع الحاصلات ، ولهم الخيار في أدائه نقدا أو عينا ، على أن يتمتعوا بثلاثة أرباع محصولاتهم ، ثم شدد مراقبته على المحصلين حتى لا يظلموا الشعب ، وجعل للفلاح الحق في تحطى العامل ، ودفع ما يريد مباشرة لخزينة الدولة ، وبحوار ذلك حدد الضريبة التي تؤخذ من التجار دون إرهاق ، مع توفير الأمن لهم في تنقلاتهم .

وقسم المملكة إلى مديريات ، وجعل لكل مديرية حكامها وعماها ، وحدد لهم اختصاصاتهم ، وجعل فيهم من يراعى تصرفاتهم ويرفعها باستمرار إليه ، وبذلك أقام الحكم على أساس القاعدة الشعبية التي كان دائما شديد العناية بتوفير الرخاء والأمن لها .

وبما يتصل بعمله العظيم لرفاهية شعبه وتنظيم إدارته ، ما قام به من تعبيد الطرق وغرس الأشجار المثمرة والمظلة على جوانبها ، وبناء أماكن متقاربة على طول هذه الطرق ، لينزل فيها المسافرين فيجدوا ما يريدونه من راحة وطعام وأمن ، وتمكن بذلك من تنظيم البريد ووصله بسرعة بين أطراف المملكة .

فقد مهد شارعا أو طريقا واسعا من پنجاب إلى «سنار گاون» في بنگال طوله نحو ثلاثة آلاف ميل ، وطريقا آخر من «أگرا» إلى «برهان پور» ، في وسط الهند ، وطريقا ثالثا من «أگرا» إلى «چونپور» ، وچتور في غربها ، ورابعا من لاهور إلى ملتان في البنجاب ، وعلى كل ميلين بنى رباطا ، ورتب به مائدتين للمسلمين والهنداك ، وأسس به مسجدا عين فيه الإمام والمؤذن ، كما جعل فيه فرسين للبريد^(١) ، تجرى إلى الرباط الآخر حيث يتسلم فارس آخر من راكبيها الرسائل ، ويجرى بها ويسلمها لمن يليه ، وهكذا حتى يصل البريد بسرعة من أقصى البلاد ، وبذلك أتيج له أن يقف على أخبار السلاد أولا بأول ، وقد غرس على جانبي الطرق أشجار المانجو والجامن والكهرمن ، وهى أشجار تثمر وتظلل الطريق حتى يأكل منها المسافر ويتمتع بظلها ، ولا يزال بعض هذه الطرق معروفة للآن ، سرت بها بالسيارات ، ولاحظت أشجارا قديمة لا يزال بها أثر من حياة ، كما لاحظت بعض المباني المتهدمة التي كانت تبنى على كل ميلين ، وقد قال لى صاحبي إنها من عهد شيرشاه السورى ، وقد يكون هذا صحيحا وتكون هذه الأشجار قد عمرت كل هذه المدة ، وإن كان هذا أمرا بعيدا ، لكن المنطوق به أن بعض هذه الطرق من أيام شيرشاه ، ولو أن الأشجار الموجودة وآثار المباني قد تكون من عمل غيره ممن سار على طريقته وهديه ، والمهم في هذا كله أن النازلين في هذه الاستراحات ما كانوا يدفعوا شيئا بل تتكفل الحكومة بنفقاتهم ، وهذا هو الأمر الذى يدعو إلى الإعجاب .

والاعجب من هذا أنه خصص سفينتين كبيرتين لنقل الحجاج كل عام ، من غير أن يدفعوا نظير ذلك شيئا^(٢) ، وكان يقول : لو ساعدنى الزمان أبعث برسالة إلى عظيم الروم (يريد سلطان بنى عثمان) وأسأله أن يركب بعساكره إلى بلاد الفرس ، ونركب نحن من هنا إلى تلك البلاد ، فندفع بمساعدة ملك

(١) ذكر المؤرخون أنه خصص لذلك ٣٤٠٠ من أجود الخيول . .

(٢) تاريخ شاهى .

الروم شر الأوباش الذين يقطعون طريق الحجاج ، ونحدث شارعاً آمناً إلى مكة المباركة ، ولكن الأجل لم يمهل ، فمات قبل أن يحقق أمله^(١) وقد عني بجانب ذلك بأمور العمارة ، فنقل مدينة دلهي على شاطئ جمنا ، لما كانت تعانيه من قلة الماء ، وجعل عمارتها على النهر ، كما عني بإعادة بناء مدينة « باتلي بتر » التي كان قد أسسها الإمبراطور « أشوكا » قبل الميلاد ، ونال الزمان من مبانيها وحولها إلى خرائب ، فعمل شيرشاه على تجديدها ، وهي مدينة « بتنا » عاصمة ولاية « بهار » الآن ، وبني كثيراً من المدارس ، وعين للطلاب والأساتذة فيها الرواتب ، وهياً لغير المسلمين كذلك المدارس ، وجعل أوقافها في يد رجالهم^(٢) .

أما أمر الجيش فقد لقي منه عناية كبيرة . كان هو بنفسه يختبر الذين يريدون الدخول في الجيش ، وينظم شئونه ، فوضع له نظاماً دقيقاً ، وقيد أسماء الفرسان وأوطانهم وخصائصهم في دفاتر خاصة ، ووزع الجيش على مراكز متعددة في البلاد ، على أن تكون دلهي ورهتاس أهم وأكبر المراكز ، وكان هو نفسه قائداً للفرقة مكونة من مائة وخمسين ألف فارس ، وسن قانوناً يقضى بتعويض كل من أصابه ضرر أثناء الزحف من الجيش ، مع التشديد على رجاله في صيانة أموال الشعب ما استطاعوا ، فكان بذلك ثاني رجل يعنى بتنظيم جيشه ، ويضع له الأصول والضوابط بعد علاء الدين الخلجي .

وقد قامت حروب بينه وبين بعض راجوات الهند ، انتهت بنصره وضم بلادهم إليه .

وتسكتب مجلة « ثقافة الهند » التي تصدرها الحكومة الهندية فتقول : كان الناس في غاية الطمأنينة في عهده ، حتى كان المسافرون يتركون أمتعتهم في فناء البيت دون مراقبة ، وينامون نوما هادئاً لا يزعجهم خوف^(٣) ، وكان

(١) نزهة الخواطر ج ٤ ص ١٥٥ . (٢) ثقافة الهند ديسمبر ١٩٥٣

(٣) تاريخ الأفاغنة ص ٢٠٦ .

الآمن كذلك يسود القرى والفلات القفر ، فكان الرحالة ينصبون خيامهم فيها متى شاءوا . ويتركون متاعهم ودوابهم ويغرقون في نوم عميق .

، ولم يتعرض الامبراطور لشعبه الهندي في قضاياها الداخلية ، فكانت ترفع إلى مجالسهم الدينية إلا ما كان منها يمس أمن الدولة وسلامتها ، فما كان هناك فرق بين المسلم والهندوسي في المشاكل الاجتماعية ، وهذا كله إلى جانب ما كان يرسله الامبراطور من جواسيس خاصة لأنحاء البلاد ؛ ليوافوه بأخبار وتصرفات عمالها فيها مع الشعب .

وتقول : وكان لهذا الامبراطور ميزة كبرى لم نرها في غيره . وقد أشرنا من قبل إلى أن فيروز الخلجي قد سن هذه السنة - وهي عطفه على الضعفاء ، حيث خصص للشيوخ والمرضى والعميان والعجزة المقعدين رواتب تقوم بنفقاتهم من المطعم والملبس ، يأخذونها من خزانة بلدهم لا فرق بين مسلم وغير مسلم .

وكتبت تقول : وكان الامبراطور كثيرا ما يقول : على الملك أن يكون قدوة وأسوة لكل ما يطلبه من شعبه . فإن الناس على دين ملوكهم ، وعليه ألا يذهل أبدا عن أن القوة لله القادر القهار ، الذى مكن له فى الأرض وجعل له السلطان ، فالأمر بيده وحده ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ، وعليه أن يذكر أنه ينوب عن الله فى عباده ، فتجدر به الدولة ما دام قائما بالعدل والحق ، ويستحق العقوبة إذا حاد عن ذلك ^(١) .

ومن خلال هذه الكلمات نزداد معرفة بنفسية هذا الامبراطور العظيم . وقد جاء فى نزهة الخواطر ^(٢) ذكر برنامج عمله اليومي ، ويحسن أن نذكره هنا فى اختصار ، لنعرف من خلاله كثيرا من حياة هذا الامبراطور وأعماله .

كان يستيقظ من نومه فى ثلث الليل الأخير ، ليتجهد ويقرأ الأوراد ،

(١) ثقافة الهند ديسمبر ١٩٥٣ .

(٢) ج ٤ ص ١٥١ .

ثم ينظر في حسابات الإدارات المختلفة ، ويعطى تعليماته لكبار رجاله ، وبعد أن يصلى الفجر فى جماعة يتقبل عليه الأمراء فيسلون عليه ، ثم يسأل الناس عن حوائجهم ويعطيهم ما يحتاجون إليه ، ثم يتوجه إلى المظلومين والمستغنين ويجتهد فى إغااثهم ، وبعد ذلك تعرض عليه عساكره ، فينظر إليهم وإلى أسلحتهم ، ويثبت من يراه صالحاً للمعسكرية بعد اختياره ، ثم تعرض عليه الجبايات التى ترد عليه كل يوم ، ثم يقابل الأمراء والسفراء ، ثم يقبل على الطعام مع جماعة من العلماء والمشايخ والأمراء ، ثم يقبل إلى الظهر ، فيقوم ويصلى جماعة ، ويشغل بتلاوة القرآن الكريم . وهكذا يمضى فى أعماله حتى يتم يومه .

كان شيرشاه يتأسف لأنه جاء إلى الحكم وهو كبير السن ، وكان يخشى أن يعاجله الموت قبل أن يحقق ما يريد للهند ، وقد وقع سريعا ما كان يخشاه ، فقد توفى فى ربيع الأول سنة ٩٥٢ هـ - ١٥٤٥ م ولو مد الله فى أجله لحفلت صفحات تاريخه بأكثر مما حفلت به ، ولكن لكل أجل كتاب

قال أحد المؤرخين الأوربيين ، وهو المستر كين : « توفى شيرشاه وتلاشت أسرته ، حتى لا نجد منها أحداً لو قتشنا عنه ، إلا أنه أسس مبادئ الإصلاح العام التى استفيد منها فى العصور التى تابعت بعده ، واهتم برفاهية الجمهور اهتماما يسجل له بالثناء ، (١) » .

وقال مؤرخ آخر ، هو المستر « استافلى » : « إن جودة رأيه وصلاحه لا يحتاجان إلى برهان ، وأما نظم مملكته وإصلاحاته الأخرى فقد ظل معمولاً بها إلى عصر أكبر » .

(١) تاريخ شيرشاه لدى القطار ص ٨٢ (خلا من ثقافة الهند ديسمبر ١٩٥٢) .
(١٣ - الهند)

خلفاء شير شاه

سليم شاه : ترك شير شاه ولدین ، هما : عادل خان الكبير ، وكان ولی عهدہ ، وجلال خان الصغير ، وكان معروفًا باسم إسلام خان ، وحينما توفي شير شاه لم يكن واحد منهما موجوداً معه ، وكان جلال خان ، أقرب إلى العاصمة من عادل خان ، لذلك رأى أمراء شير شاه أن يجعلوه هو الملك ، وانفقوا على إجلالته على العرش ، وجاء جلال وجلس على العرش ، وأرسل إلى أخيه عادل يستدعيه للحضور ، لكن عادل لم يحضر إلا بعد أن أخذ الأمان لنفسه ، وعند وصوله إلى أكره ، مثل الأخوان دوراً طيباً ، فقد ترك جلال العرش وقال لأخيه : كنت أحافظ عليه حتى تحضر ، فلم يقبل عادل . وأصر على أن يبقى أخوه الصغير مسلماً على أن يتولى هو أمر بعض الإقطاعيات ، وهكذا تم هذا الأمر في سلام ، وجلس جلال على العرش باسم سليم شاه ، وانصرف عادل إلى ولايته . لكن للأسف لم يدم هذا السلام طويلاً ، فقد دب فيهم داء الملوك وأبناء الملوك ، وبدأ سليم شاه بالعدوان على أخيه ، وقامت الحرب بينهما ، ومن لطيف ما يرويه المؤرخ « فرشته » ، أن سليم شاه أرسل أحد أمرائه بريد من ذهب إلى أخيه ليأنيه به مقيداً ، ولكن أخاه قبض على رسوله وقيدته ، وراسل بعض أمراء سليم شاه ، وكانوا قد تعهدوا لعادل خان بالأمان ، فغضبوا لنقض سليم شاه العهد ، وانفقوا سرا معه على أن يحضر ويهجم على العاصمة في الجزء الأخير من الليل ، وهم سيمهدون له طريق النصر ، وسار عادل خان بجيشه ، ومروا في طريقهم بالشيخ « سليم سيكرى » ، وكان ولياً متعبداً ، وكانت الليلة ليلة الخامس عشر من شعبان ، فزل بجيشه عند الشيخ لإحياء هذه الليلة ، ثم ناموا ففاتهم الموعد ودخلوا العاصمة نهراً ، ففسد التدبير واضطر الأمراء الموالون لعادل خان سرا إلى أن ينضموا لسليم شاه ، وبذلك انتصر ، وفر عادل إلى الشرق حيث انزوى عن تيار الحياة وجرى التاريخ ، فلم يعرف أحد عنه شيئاً بعد ذلك ، وبعد هذا استقام الأمر لسليم شاه ، فأخذ

في تنظيم شؤون مملكته ، وتابع إصلاحات أبيه في الطرق والتعمير وتنظيم الجيش ، ولست البلاد في عهده نعمة الرخاء والرفاهية والاستقرار ، ثم توفي في سنة ٩٦١ هـ ١٥٤٤ م ، وهى السنة التى توفي فيها سلطان كجرات محمود ابن اللطيف السجراتى ؛ وبرهان نظام شاه البحرى^(١) ملك أحمد نكر إحدى ممالك الدكن .

وبعد وفاة سليم شاه تولى ابنه « فيروز » وكان صغيراً ، فطمع خاله « مبارز خان » ، فى الملك ، فقتله بعد ثلاثة أيام ، وتولى هو الملك باسم « محمد عادل شاه » وكان جاهلاً يتندر الناس بجهله ، متلافاً كثير البذل بلا حساب . يقول المؤرخ الهندى سيد هاشمى سمع « عادل شاه » أن الملوك السابقين كانوا يبذلون للناس ، ويعطونهم ، فقلدهم تقليداً أعمى فى البذل حتى خربت الخزينة ، فاعظم لأخذ أموال كبار الأمراء والأغنياء ، فأسخط الأمراء والكبار ولم يرض أحداً ، وكان له وزير هندوسى الأصل اسمه « هيمو » ، يقول « سيد هاشمى » عنه أيضاً إنه كان فى أدنى درجات الإنسان ، لا يستحق أن يتحدث عنه ، ومع ذلك سلم له عادل شاه الأمور كلها ، فزاد ذلك فى أعدائه والناقين عليه ، ولما قامت الثورة فى البنسجال سافر « هيمو » لإخضاعها ، فانتهر أحد أقارب عادل شاه هذه الفرصة وهو « إبراهيم سورى » ، وقبض على أكراد دهللى ، وفر عادل منهم ما نحو الشرق ، حيث لحق بوزيره هيمو الذى ذهب للبنسجال^(٢) ، فأنار ذلك العمل طمع « اسكندر سورى » ، فى الملك ، وكان حاكماً فى لاهور ، فزحف إلى

(١) جاء فى تاريخ فرشته أن والده (والد المؤرخ) أرخ وفاة هؤلاء بجملة « زوال خسروان » أى زوال الملوك وبحساب جل هذه الجملة يخرج التاريخ ، وتلك عادة مؤرخى الهند وشرايها وعلمائها ، ويعنون بمثل هذا فى إثبات الترايخ - قى نجد أنهم يختارون المولود بحيث يطابق حساب جملة تاريخ ولادته ، ولذا نسمع أسماء غريبة ، وعدة أسماء لشخص واحد ، وكما من أجل حساب تاريخ ميلاده من حروف اسمه .

(٢) سيكون لمادل ووزيره هيمو موقعة مع « أكبر » كاد يتم النصر فيها لهما لولا أن سقط هيمو من فوق جواده فتشتت جيشه وتم النصر لأكبر ووزيره بىم كاسيانى ..

دلى وأكرا ، والتقى بجيش إبراهيم فاتصر عليه وجلس على العرش ، وكان
همايون قد استعد وهو فى كابل ، لغزو الهند ، فزحف إليها بجيش عدده
خمسة عشر ألف محارب ، والتقى مع جيش اسكندر شاه ، وأعاد التاريخ
ذكرى موقعة آيه « بابر » مع الأفغانى إبراهيم لودى ، وتم النصر لهمايون ،
ودخل دلى وأكرا ، واستعاد بذلك ملكه المفقود سنة ٩٦٢ هـ - ١٥٥٥ م
ودخل باب التاريخ مرة ثانية .

عودة همايون شاه

٩٦٢ هـ - ١٥٥٥ م إلى ٩٦٣ هـ - ١٥٥٦ م

اضطر همايون أن يفر من الهند بعد أن هزمه شيرشاه سورى وخذله
إخوته ، ولم يجد مأوى يستقر فيه إلا فى إيران ، حيث استضافه ملكها
« طهماسب شاه الصفوى » وأكرمه . وظل همايون فى ملجئه يرقب الأحوال
فى الهند وفى أفغانستان ، حيث كان يحكم إخوته هناك ، وكان خلفاء شيرشاه
قد أغرقهم النزاع فى دمائهم ، ونسوا أن هناك عدوا يترصد لهم ، فكان
بأسهم بينهم شديدا ، وطمع همايون أن يأخذ ملك إخوته أولا ، فاستعان
بطهماسب شاه فأعانه بجيش صغير زحف به على قندهار ، وكانت فى حكم
أخيه ميرزا كمران ، فأخذها ، وبعد ذلك بنحو سبع سنوات استطاع أن
يستولى على كابل أيضا ويقبض على أخويه كمران وعسكرى ، ولكنه عفا
عنهما ، وأرسلهما إلى مكة بعيداً عنه ، بعد أن ذاق منهما الأمرين ، وهكذا لم
يقتحم منهما وغلب عفوه على انتقامه ، مع أن كثيراً من حوله لم يكونوا
راضين عن هذا العفو ، وكان ساعده الأيمن فى هذا كله هو « بيرم خان » الذى
صاحبه فى منفاه ، وعاش معه طول هذه المدة ، ثم قاد له الجيوش حتى تم فتح
قندهار وكابل ، وأصبح فى مركز آيه « بابر » قبل هجومه على الهند واستيلائه عليها ،
وفى الوقت الذى بدأ فيه خلفاء شيرشاه وسليم شاه يتنازعون ، ويحارب بعضهم

بعضاً أخذ همايون يستعد للهجوم على الهند ، ولم يكن يفكر في عهد شير شاه أو ابنه سليم شاه في ذلك لتماسك الدولة في عهدهما ، وهجم على البنجاب بخمسة عشر ألف مقاتل ، واستولى عليها وعلى لاهور هازماً جيش أميرخان و تترخان ، ثم تابع سيره إلى دلهي ، فالتقى بجيش اسكندر شاه سورى المكون من ثمانين ألف مقاتل وبضع مئات من الفيلة ، وكان التاريخ يعيد نفسه في موقعة بابر مع إبراهيم اللودى ، فقد انتصر همايون بجيشه الصغير على جيش اسكندر الكبير ، ودخل دلهي وأكرا منتصراً مستعيداً ملكه فيهما بعد أن فقدته نحو خمسة عشر عاماً ، حين خرج من الهند ناجياً بنفسه سنة ١٥٤٧-١٥٤٠م ، ثم عاد منتصراً إلى العاصمة سنة ١٥٦٢-١٥٥٥ م ، وفي هذه الحرب التي استعاد فيها همايون ملكه كان يرم خان أكبر عون له فيها ، وحين أتم فتح البنجاب أنعم عليه بلقب خان خانان أى أمير الأمراء ، ثم بعد ذلك عين ابنه أكبر حاكماً على البنجاب ومعه يرم خان خانان مستشاراً له لصغر سنه .

وأخذ همايون في تنظيم أمور دولته من جديد ، لكن القدر لم يمهله طويلاً . كأنه أراد له أن يسترجع الملك الذى تسلمه من أبيه ليسلمه إلى ابنه من بعده . ويصور تاريخ فرشته آخر ساعاته ، فيقول : كان ينزل من المكتبة ، وأثناء نزوله سمع الأذان ، فجلس على السلم يدعو ويردد الأذان ، ثم قام متكئاً على عصاه ، فزالت على السلم ووقع مغشياً عليه ، وأدركه خدمه ونقلوه إلى الحرم الملكى ، وجاءوا له بالأطباء ، ففأفاق قليلاً ، ولكن ساعته كانت قد حانت ، فلم يجد طب الأطباء شيئاً ، وتوفى في ربيع الأول سنة ١٥٦٣ هـ - يناير ١٥٥٦ م وهو فى الواحدة والخمسين من عمره ، ودفن فى المقبرة المعروفة باسمه ، وهى تعد من أغنى الآثار الفنية التى تركها المغول والتى تعجزها الهند الآن ، وقد بنيت على قبره سنة ١٥٧٣ هـ - ١٥٦٥ م فى عهد ابنه أكبر ، وقد تربى همايون فى قصر أبيه « بابر » فى « كابل » ، فتعلم الفنون الحربية والسياسية على عادة أبناء الملوك فى عصره ، كما كان يعرف اللغة التركية والفارسية شاعراً عالماً بالهيئة والهندسة والنجوم ، وتبحر فى علم الاصطراب ،

وكان على العموم بارعا في العلوم الرياضية ، شغوفاً بالكتب و مطالعتها ، محباً لصحبة العلماء . ذا دين وحلم ، فكان يحافظ على الوضوء ، ويكره أن يسمى الله على غير وضوء^(١) ، وكان دائماً يغلبه حله على غضبه ، فيعفو عن أساء إليه ، ولا سيما إخوته ، ولعل هذا الحلم هو الذي أطعمهم فيه ، وجر عليه الكوارث منهم .

ولم يكن همايون مثل أبيه بابر في الشجاعة والصبر والجلد ، ولذا لقي كثيراً من المتاعب بعد موت أبيه ، لأنه لم يكن يقضى على خصومه ويحاربهم حتى النهاية ، بل كان يحارب هنا ، ثم إذا لاحت له مبادئ النصر أسرع إلى مكان آخر ، ولعله كان مضطراً إلى ذلك لكثرة الخارجين عليه في كل مكان . . ولكن همايون حمل من الأعباء ما لم يحمله غيره ، ولقي في أيامه ما لم يلقه ملك . وإذا كان بابر يعد مؤسس الدولة المغولية في الهند فإن همايون يعتبر المؤسس الثاني لها بعد أن استعاد ملكه فيها .

ومما تجدر الإشارة إليه أنه كان لمكثه مدة كبيرة في إيران ، ومعاونة امبراطورها الشيعي له ، وقوة نفوذ يرم خان الشيعي في بلاطه - أثر كبير في وفود كثير من الشيعة من إيران والعراق وغيرهما إلى الهند ، والعمل في حكومته واتساع نفوذهم في البلاط المغولي . . مما سبى آثاره في عهده أكبر ، ومن بعده من الملوك .

(١) مرشته ج ٢ ص ٣١١ وذكر أنه كان من كبار رجاله رجل يسمى عبد الحمى . . فمرة لم يكن متوضئاً فلما ناداه لم يجتزى . على ذكر اسم الله (الحمى) وقال « عبد الله » فقط ، فغضب الماخذرون وسألوه ، فقال : لم أكن متوضئاً فكرهت أن أذكر اسم الله وأما على هذه الحالة .

جلال الدين أكبر

١٥٦٢ م - ١٥٥٦ م إلى ١٠١٤ هـ - ١٦٠٥ م



جلال الدين أكبر

هو جلال الدين محمد أكبر بن همايون بن بابر التيمورى ، كانت أمه حاملا به حين فرت مع أبيه ، حتى إذا بلغت السند وضعت في قلعة وعمر كوت ، حيث نزلا ضيفين عند حاكمها من الراجوات في ربيع الأول سنة ٩٤٩ هـ - فبراير ١٥٤٢ م ، ثم واصل همايون سيره بأسرته حتى وصلوا إلى قندهار التي كانت تحت حكم أخيه ، ولما علم بأن أخاه يريد القبض عليه والفتك به فر بنفسه إلى إيران ، تاركا ابنه مع أمه في قندهار عند أخيه ، ولما عاد بعد مدة إلى أفغانستان ، وفتح قندهار وكابل لحق أكبر بأبيه ، حتى إذا تم فتح الهند جعله أبوه حاكما على البنجاب ، ومعه بيرم خان خانان مستشارا له وموجها ، وعند ما وقعت لهمايون حادثة السلم أرسل الأمراء رسولا إلى أكبر في

بنجاب يخبره بمرضه ، ولكن همايون توفي قبل أن يعود ، فأعلن في البنجاب (١) المناداة به سلطانا على عرش أبيه سنة ٩٦٣ هـ - ١٥٥٦ م ، وكانت سنة في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة وتسعة شهور ، ولذا قام بيرم خان وصيا عليه ونائبا عنه في أمور السلطنة ، وقبض على ناصية الحكم وأدار دفته ، وكان بيرم خان قائدا قويا بصيرا بأمور الملك ، اعتمد عليه همايون في منفاه ، وفي استرداد مملكته ، وقد أبلى بلاء حسنا في توطيد الملك لأكبر ، وقمع الثورات والفتن والغارات على دلهي وغيرها ، حتى استتب الأمر له أو كاد .

لم يمكث همايون طويلا بعد أن انتصر على اسكندر شاه سوري ودخل دلهي ، حتى يتعقب خصومه ، ويقضي عليهم ويقر أمور مملكته ، بل توفي ولم تقم دولته على عمد راسخة . وكان أعداؤه الأفغان لا يزالون يقبضون على أكثر البلاد ، فاسكندر شاه سوري لازال بفلول جيشه ينهز الفرص لينقض على ملك المغول ، وعادل خان سوري مع وزيره هيمو لازالا في الشرق بقوتهم ينهزان الفرص أيضا للاستيلاء على أغرا ودلهي واسترجاع الملك مرة ثانية (٢) ، وكثير من الأمراء والحكام طمعوا أثناء الفوضى هذه وانحلال عقد السلطنة في أن يستقلوا ، وهكذا واجه أكبر كل هذه الصعاب .

أما عادل خان ووزيره هيمو فقد انتهزوا فرصة وجود الملك الصغير في لاهور حين تولى الملك وهجموا على دلهي وأغرا واستولوا عليهما وعلى البلاد المجاورة ، وبذا فقد المغول بلاد دواب (٣) واستعد هيمو لمطاردة أكبر في البنجاب حيث كان قد توج هناك ، ولما علم بيرم خان بذلك أعد جيشه وزحف إلى دلهي ، والتقى مع هيمو في سهول « پانييت » ، وكان مع هيمو .

(١) يقول المؤرخ فرشته ج ٢ ص ٣١٢ : إن الرسول الذي ذهب إليه من دلهي تلاقى معه في « كلانور » وأخبره ب وفاة أبيه وهناك أدبت مراسم التولية له وأعلن توليه العرش ..
(٢) كان عادل قد فر أمام إبراهيم سوري حين كان وزيره هيمو في البنغال كما سبق .
(٢) هي البلاد الواقعة بين نهري جمنا وكنكا شمال دلهي وشرقها ، وهي الآن من ولاية « أوتر برديش » وعاصمتها (لكنو) ودواب معناها النهران : فدو يعني اثنين وآب يعني ماء .

جيش ضخم مؤلف من مائة ألف فارس وخمسمائة فيل ، ولم يكن مع بيرم خان وأكبر إلا عشرون ألفاً ، وكان ذلك في محرم سنة ٩٦٤ هـ - ١٥٥٦ م ، وتدخل القدر في هذه المعركة ، فكانت نهايتها على غير ما يتوقع ؛ إذ سقط هيمو من فوق جواده ، ووقع الذعر في جيشه بعد ملاحته له بوادر النصر ، فلاذ بالفرار وواصل بيرم خان سيره حتى استرجع ما فقده من دلهى وأكرا وبلاد دواب ، بعد أن قبض على هيمو ، وقتله بيده .

أما اسکندر شاه سوری الذى هزمه همايون واسترد منه ملكه فكان لا يزال يتربص لاسترجاع ملكه ، فخاربه أكبر حتى التجأ إلى جبال السوالمك شمالاً ، ثم ضيق عليه الحناق حتى طلب الصفح والأمان والسفر إلى بنغال والإقامة بها ، فأجابه أكبر إلى ذلك .

ولما بلغ أكبر سن الرشده سنة ٩٦٧ هـ ١٥٦٠ م - كان فضوجه العقل مبكراً ، برغم أنه لم يتلق من العلوم والفنون ما يتلقاه أمثاله من أولاد الملوك ، ويظهر أن الحياة التى عاشها ، والظروف التى اكتسفت ولادته ونشأته قد علمته كثيراً ، وكان بيرم خان أستاذه وقائده ونائبه قد حمل عبء الملك عنه منذ أن اعتلى عرش أبيه ، واستطاع أن يوطد دعائمه ، ويطارد أعداءه ، ويقضى عليهم واحداً بعد واحد ، وكان بيرم ، شيعياً متعصباً ، والشعب سنياً . كما كان فى مركز يكثر فيه حساده ومبغضوه ؛ لذلك رأى أكبر حين بلغ رشده أن ينحيه عن العمل معه فى كياسة ولطف ، وقال له إننى قضيت الكثير من عمرى فى الصيد ، وقد تحملت عنى الأعباء الثقيل طول هذه المدة ، ولذلك فإنى أحب أن تستريح من عناء العمل وأحمله أنا عنك .

ولكن هذا اللطف لم يقض فى الأمر قضاءً نهائياً ؛ فإن بيرم خان شعر بالحقيقة ، وحدثه نفسه - وهو القائد العظيم الذى دعم الدولة لأكبر وله الفضل عليه - حدثه نفسه بالخروج عليه ومحاربتة ، فتعقبه أكبر ببعض قواده حتى اضطر لإعلان خضوعه ، وطلب الصفح من السلطان ، فغفا عنه وأشار عليه أن يذهب إلى الحجاز ليقضى هناك ما بقى من أيامه ، وفى طريق بيرم إلى

الحجاز ، وحين وصل إلى بلدة « نين » ، في كجرات قتله بعض الافغان انتقاما منه ، ودفن في مقبرة هناك ، ثم نقلت عظامه إلى دهلي . ثم إلى مشهد الرضا (١) .
وقد واجه أكبر عندما استقل بالأمر عدة مشكلات ، فقد كان صغير السن بما جعل القواد والحكام يستخفون به ، ويحاولون الخروج عليه والاستقلال بأمورهم ، ولكن أكبر كان برغم صغر سنه شجاعا مقداما سريع البت في الأمور ، يعتمد على عنصر المفاجأة والإقدام في حروبه لأعدائه ، فكان يلاحقهم واحدا بعد واحد حتى قضى عليهم .

ثار عليه أحد قواده الكبار « خان زمان » ، واسمه « علي قلي خان » ، وكان من كبار قواد أبيه ، والتف حوله كثير من الجند والقواد والأمراء ، واتهن فرصة ذهاب أكبر لإخضاع ثورة البنجاب وهجوم أخيه حكيم مرزا عليها ، فاستولى على قنوج وأوده ، لكن أكبر رجع بسرعة إلى آگرا ، وجمع جنده وسار إلى خان زمان في سرعة ، وكان الموسم موسم الأمطار والسيول وفيضان الأنهار ، وبرغم ذلك سار أكبر حتى وصل إلى شاطيء « گنگا » ، وكان خان زمان على الشاطيء الآخر غارقا في بحار الأمن ، مطمئنا إلى أن أكبر لا يستطيع أن يصل إليه في مثل هذه الأيام ، ولكن أكبر كانت له همة تتغلب على كل ما أمامه من صعاب ، فعندما وصل إلى الشاطيء ولم يجد سفنا تنقله إلى الشاطيء الآخر ألقى بفيله إلى النهر وهو يركبه ، والأمراء والقواد من حوله يعارضونه في هذه المجازفة الخطيرة ، ولكنه لم يبال بالمعارضة ولا بالخطر ، وأخذ معه عددا قليلا من الجند ، وتعبوا النهر ليلا ، وما إن

(١) نزعة الخواطر ج ٣ ص ٦٥ وتاريخ هند لبيدها شمس ١٨١٠ ، وقد ولد بيرم خان في غزنة ولا أكبر دخل في خدمة همايون شاه حين كان ولدا للمهد ثم لما صار ملكا ، وأخلص له حتى قرب إليه ولما فرهمايون شاه إلى السند لحق به هناك وحرضه على الالتجاء لإيران ، ومكث معه هناك ، وكان شيعيا والدولة الإيرانية شيعية فاستطاع أن يخدم همايون كثيرا ، ثم بعد مدة فتح همايون بمساعدة قندهار وكابل ثم المهد فكان له الميزة الكبيرة عنده حتى جعله حرييا ومشرقا على ابنه أكبر ، ثم صار نائباً عنه ووصيا عليه لما تولى الملك بعد وفاة أبيهمايون . وكن قتل سنة ١٨٨٥-١٥٧٧ م

أصبح الصباح وأشرقت الشمس حتى كانت طبول الحرب تدق على أبواب
مكره مانك پور، التي كان خان زمان يتحصن فيها، فذهل هو وجنده من هذه
المفاجأة، وفقد السيطرة على الموقف، وهجم أكبر بجنده القليلين، فقتل
خان زمان وتفرق جنده، واستولى أكبر على البلدة. وغنم الغنائم وقضى على
خصم عنيد. وقد أرخ بهض الفضلاء - كعادتهم - لهذا النصر الغريب بهذه
الكلمات « مبارك فتح أكبر، سنة ٩٧٤ هـ - ١٥٦٧ م ^(١) ».

وبعد ذلك توجه أكبر إلى قلعة « رته پور »، وفتحها، ثم إلى قلعة « چتور »،
في راجپوتانا أيضا، وكان يدافع عنها « جى مل »، وهى قلعة يضرب بها
الثل في المناعة، ذهب إليها على رأس جيشه، وأخذوا يهدمون أسوارها
بالمفجرات، وفى ليلة أطل « جى مل » من فوق أسوار القلعة، فلبحه أكبر
وسدد إليه رمية أطاحت به، فذب الذعر والخوف فى جنوده وأهله، وأخذوا
يقتلون أنفسهم ويحرقونها، ثم فتحوا أبواب القلعة ووقفوا عندها ليقاتلوا
المهاجرين حتى آخر قطرة من دماهم، وفطن أكبر لهذا فساق إليهم الفيلة
فزقتهم إربا إربا، ودخل المدينة سنة ٩٧٦ هـ - ١٥٦٨ م.

* * *

وبعد أن تم له فتح « چتور »، وضم راجپوتانا إلى مملكته أصبحت
حدودها إلى مملكة كجرات الإسلامية، وكان كثير من أعدائه الفارين قد لجأوا
إليها واستقروا فيها، وأخذوا يغيرون على راجپوتانا ومالوا، فتوجه أكبر
لفتحها وإخضاعها، وقد سبق أن تحدثنا عن فتح همايون لكجرات فى زمن

(١) تاريخ هند لبيد هاشمى ص ١٣٢، ١٣٣ وكان على خان شيبا ومن القواد الذين
أبلاوا بلاء حسنا مع همايون فى توطيد ملكه، ثم اشترك فى قتال « هيمو » وكان له الفضل فى مزيجته
فى أول عهد أكبر فلقبه بلقب « خان زمان » ورفاه وولاه على « جونپور » ونواحيها ثم دب
الحلاف بينه وبين أكبر مما أدى إلى قتاله وقله سنة ٩٧٤ هـ. ويقول صاحب ترجمة الخواطر
إن القرية التى قتل فيها وتم له النصر عليه سميت باسم « فتحپور » ولا تزال معروفة للآن بهذا
الاسم قريبا من إله آباد من مقاطعة « أوتر برديش » أى للناطقة الحالية.

« بهادور شاه ، لكن هذا لم يستمر طويلا ، فقد استرد بهادور شاه ملكه حين هزم همايون أمام شير شاه ، وفر من الهند ، وبقيت كجرات مستقلة ، وكان يحكمها في ذلك الوقت مظفر شاه الثالث حفيد بهادور شاه ، وكان ملكا إسميا ، أما السلطة فكانت في يد « غلام إعتقاد خان » ، وكان قد دخل جديدا في الإسلام ، ولم تكن حالة البلاد مستقرة ، بل كثرت فيها الفتن واختل نظام الملك ، فذهب إعتقاد خان إلى أكبر ، وطلب منه أن يفتح كجرات ، ويتولى حكمها ويقضى على ما فيها من فتن داخلية ، ورآها أكبر فرصة ، فذهب بجيشه وفتحها دون مقاومة من مظفر شاه ، بل رحب به وسلم له أمر كجرات سنة ٩٨٠ هـ — ١٥٧٢ م ، ثم أخذ أكبر يتعقب أعداءه الذين فروا إليها ، وأخذوا يجمعون الناس حولهم لماؤاته ، فتابعهم في سرعته ومفاجأته حتى أخضعهم تماما وطهر كجرات من فسادهم .

ولما زحف أكبر بجيشه لإخضاع مدينة « سورت » ، وكان البرتغاليون قد أسسوا بها مركزا لتجارهم ، وحامية من الجند تحميهم ، هب هؤلاء لمعاونة المدافعين عنها ، لكنهم رأوا غلبة أكبر فالوا إلى الصلح معه واكتساب وده ، وعقدوا معه معاهدة تهدوا فيها بتيسير الحج إلى مكة ، وعدم التعرض في البحر للحجاج المسلمين ، وكانت « سورت » ميناء يبحر منها الحجاج ، ولا زال فيها لأن شارع يسمى « باب مكة » ، وهذا يفسر لنا مقدار سيطرة البرتغاليين على البحار في ذلك الوقت .

وحين عاد أكبر من كجرات اصطحب معه ملكها مظفر شاه الثالث الذي عاش في كنفه مدة ، حتى زين له بعض أمراء كجرات أن يفر ويعود إليها ليسترجع ملكه ، فاستجاب لهم وفر من أكرا ، وحين وصل إلى هناك التف حوله كثير من الأمراء والمحاربين ، فعين أكبر عبد الرحيم خان (١) بن

(١) ولدت سنة ٩٦٤ هـ - ١٥٥٦ م بلامور وأبوه هو يريم خان أستاذ أكبر وقائده الذي انتهى أمره إلى قتله في « فتن » بكجرات وهو ذاهب إلى الحجاز بعد أن نجاه أكبر .. وكانت =

وزيره السابق بيرم خان على رأس حملة لإخضاعه ، فلما وصل إلى كجرات انهمز أمامه مظفر شاه إلى البلاد الساحلية ، ولكنه لم يسلم بل ظل عدة سنين يحارب حرب عصابات ، وأخيرا استسلم سنة ١٠٠١ هـ - ١٥٩٢ م وقبض عليه ، وفي طريقه إلى آكرا مقبوضا عليه قتل نفسه فاستراح وأراح .

بنجاب وكابل : وكان حكيم ميرزا أخو أكبر من أبيه يحكم كابل ، ومنها هاجم البنجاب ، فسار إليه أكبر وهزمه وتعقبه حتى أخذ كابل .

وقد أعاد حكيم مرزا انتقاذه على أخيه ، وهاجم البنجاب مرة ثانية بعد أن استعاد حكم كابل ، فسافر أكبر إلى البنجاب سنة ٩٨٩ هـ - ١٥٨١ م واستخلصها لنفسه ، ثم تعقب أخاه إلى كابل ، ففر إلى الجبال واعتصم بها ، ثم عفا عنه أكبر وأعاد له حكم كابل ، وظل بها إلى أن مات سنة ٩٩٤ هـ - ١٥٨٥ م فضمت للامبراطورية نهائيا ، وولى عليها مان سنگ الهندوسى ، وكان ذلك من دلائل تسامح أكبر وحكمه القومى ، إذ كانت هذه أول مرة يعين فيها هندوسى لحكم ولاية إسلامية كانت الهند تحكم منها قبل ذلك .

وفي البنغال : كان داود خان الأفغانى ملكا عليها ، وكان يخضع خضوعاً لسميا للمغول ، ويدفع الخراج لهم ، حتى إذا شعر داود خان بقوته وانشغال أكبر بحروبه امتنع عن دفع الخراج ، فسار إليه أكبر سنة ٩٨٣ هـ - ١٥٧٥ م ، وعاجله بسرعة برغم المطر والسيول ، حتى وصل إلى شرق بهار فى مدة وجيزة أذهلت أعداءه هناك ، فلم يستطع داود خان مقابله وتجنب الاصطدام

= سن عبد الرحيم حين قتل أبوه أربع سنوات ، فاحتضنه أكبر وترى تحت عنايته وتتف نفقة ممتازة ، وتدرج فى المناصب و صار مؤدبا لابنه جهانگیر وفى عهده تولى قيادة الجيوش ففتح له البلاد ونال لقب خان خانان أى أمير الأمراء . وكان ممتازا بثقافته وكرمه ووجهه الطاهر ومعرفة العربية والفارسية والهندية والتركية ، وصف وترجم كتب كثيرة ، منها ترجمة مذكرات بابر توفى سنة ٩٩٧ هـ - ١٥٨٨ م

به ، فترك أكبر بعض قواده ليموا إخضاع البنغال وعاد ، فأخذ هؤلاء يخضعونها شيئا فشيئا ، وكان داود خان قد ذهب إلى أوريسه في الشمال ، واعتصم بها وأخذ يهاجم منها جيش أكبر ، لكنه كان ينهزم ، ولم يبق في البنغال قائد قوى يقف أمام المغول ، لكنها مع ذلك كانت منطقة نفوذ الأفغان الذين تجمعوا فيها بعد أن وقعت بهم الهزائم أمام المغول ، باعتبارها ملكة يحكمها الأفغان ، وكانت لهم فيها الإقطاعيات الكبيرة والكثيرة بما يصحبها من النفوذ ، ولذلك ظل نفوذ المغول فيها غير مستقر ، ولم تسلم البلاد تماما لهم إلا في عهد جهانكير .

وكانت كشمير تحت حكم الملوك المسلمين ؛ ولكن الفساد والذنوب والمنازعات كانت تسودها ، وقد طمع أكبر في أن يضم هذه الولاية الجميلة الفاتنة بمنظرها ونباتها وبحيراتها وهوائها إليه ، فأرسل قواده إليها ، ولكن الثلوج والبرد عاقهم عن إتمام فتحها ، وإن كان ملكها قد أعلن خضوعه لأكبر ، لكنه لم يكتف بهذا ، فأرسل جيشا أتم فتح كشمير ، ودخل ملكها في حاشية أكبر ، وصارت ولاية من ولاياته سنة ٩٩٥هـ - ١٥٨٦ م .

أما السند فقد ضمها أيضا إلى ملكه سنة ١٠٠١هـ - ١٥٩٢ م ، ويعتبر المؤرخون هذه السنة سنة جديرة بالذكر في تاريخ أكبر ، ففيها تم فتح السند وقندهار التي أصبحت ولاية من ولايات الهند ، وأوريسه ، كما تم فيها القبض على مظفر شاه الكجراتي بعد أن استمر سنين يحارب كما سبق ، وفيها أيضا قدم راجوات الهند طاعتهم لأكبر بعد أن ظلوا مخالفين له .

ونستطيع بذلك أن نقول إن مملكة أكبر اتسعت اتساعا عظيما ، فشملت الهند الشمالية والوسطى بما فيها گجرات ومالوا ، وكذلك البنغال في الشرق وأفغانستان في الغرب .

أكبر يتجه لفتح الجنوب

ولم يكن أكبر قد توجه إلى الجنوب ، حيث الممالك الإسلامية الخمسة التي قامت على أنقاض الدولة البهمنية في الدكن ، وهي دولة بريد شاه في بيدار ، وممالك بيرار ، وگولکنده وبيجاپور ، وأحمد نگر ، وكان ملك أحمد نگر قد أغار على مملكة بيرار وضمها إلى مملكته سنة ٩٨٠ هـ - ١٥٧٢ م ، فتقويت بذلك شوكته ، وأصبح قوة خطيرة ، وكانت الحروب لا تنقطع بين هذه الدول الإسلامية بعضها مع بعض ، وبعضها مع دول الهندوس حولها ، لاسيما مملكة فيجاپانگر التي تقع في أقصى الجنوب في طرف شبه الجزيرة .

وفي شمال هذه الممالك كانت تقوم مملكة أخرى إسلامية هي مملكة خاندیس وعاصمتها برهانپور ، وكانت تشتهر بقلعة عسیرگره الحصينة ، وقد ضمها ملك الگجرات أخيرا إليه ، وصارت تابعة له ، حتى ضمت الگجرات إلى مملكة أكبر ، وبقيت خاندیس تابعة إسميا للبغول ، يدفع حاكمها الخراج لهم ، لكن جاء أحد الملوك وامتنع عن دفع الخراج الذي كان يدفعه الملوك السابقون فلذلك كله اتجه أكبر إلى الجنوب ، فصار إلى أحمد نگر سنة ١٠٠٤ هـ ١٥٩٥ م وكان ملكها في ذلك الوقت الطفل نظام شاه ، ولكن عمته تشاند^(١) وجانديني ، كانت هي المملكة الحقيقية ، فوقفت أمام أكبر ، وجيشه موقفا خالدا ينذر أن نرى في التاريخ مثله لامرأة وربما لرجل من الرجال .

عندما سار إليها أكبر أصدرت نداء إلى الدول الإسلامية المجاورة وإلى

(١) هي أخت برهان نظام شاه البحري ملك أحمد نگر تزوج بها عادل شاه البيجاپوري ملك بيجاپور ، ولما توفي قامت بحضنة ابن أخيه إبراهيم عادل شاه ، وحملت أعباء السلطة عنه بجدارة وكفاءة وصبر حتى بلغ رشده ، فرجعت إلى أحمد نگر وكان ابن أخيها الصغير ملكا غمات أعباء الدفاع عن مملكته حتى أخذته من الوقوع في يد أكبر ، واستمر الحال على ذلك مدة تفرق الأمراء فيها واختلفوا ، حتى دعا بعضهم دانيال بن أكبر لدخول البلاد ، وجاء أكبر وعبد الرحيم خان يجنود كثيرة وحاصروا عسیركره وأحمد نگر وشدوا الحصار فرأت الأبد من الصلح ، فلما عرف الناس منها ذلك اتهموها بتسليم البلاد لأكبر وقتلوا سنة ١٠٠٦ هـ ومع ذلك لم يقدروا على الدفاع عن بلادهم (نزهة ج ٥ ص ١٢٤) ومعنى تشاند باللفظة الهندية « قمر » وبني لقب تعظيم .

أمرائها تنهبهم إلى الخطر الذي يقترب منهم ، وتنبه بهم أن يقفوا صفًا واحدًا معها لمجابهته ، فأسرع لنجدتها ملك بيجاپور ، بينما كان أكبر قد حاصر القلعة ، وأخذ يهدم أسوارها بالمتفجرات كما فعل في قلعة « جتور » ، في راجبوتانا ، فذعر الجنود بداخل القلعة ولاذوا بالفرار ، وهنا حضرت « چاندبى » ورفعت نقابها ، وفي يدها سيفها وعلى جسمها درعها ، وصرخت في جنودها الفارين أنه يعودوا ويثبتوا ، فاستجابوا لها وعادوا يمحطرون المهاجمين بالرصاص والأحجار ، وهى تشجعهم حتى انتهى اليوم ، وكانت بعض أماكن في سور القلعة قد تهدمت من فعل المتفجرات ، فانهزت فرصة الليل ، وأخذت تعيد بناء ماتهم ، وطالت المحاصرة التى كان يتولاها مراد بن أكبر ، ونال التعب والإعياء من كلا الفريقين ، وفى هذا الوقت كان جنود بيجاپور التى هبت لنجدة أحمد نگر قد اقتربت . فال مراد إلى الصلح كما قبلته « چاندبى » ، على أن تكون « بيرار » للمغول ، وبذلك حالت شجاعة هذه المرأة الباسلة دون أن يكسب جيش أكبر نصرا حاسما خاطفا .

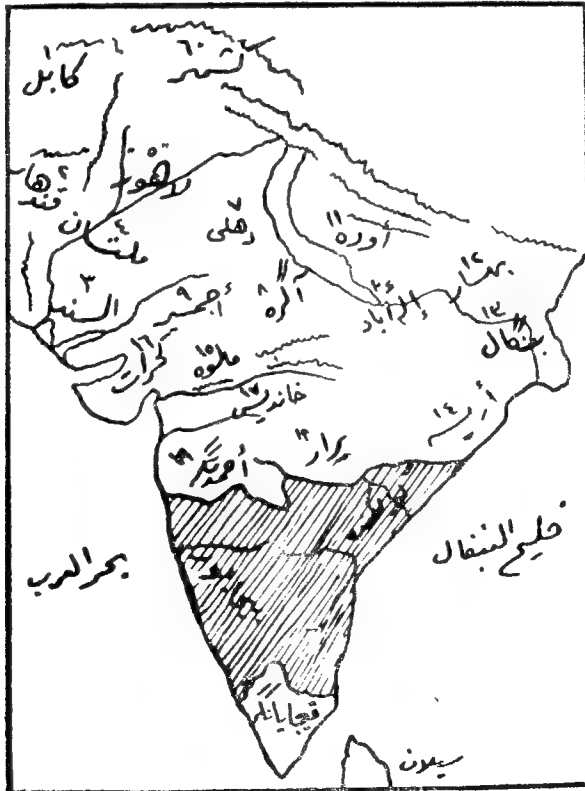
بعد ذلك قامت حرب شديدة بين جنود أكبر وبين مملكة « بيجاپور » ، ولعل ذلك حدث لنجدتها لأحمد نگر ، فوقفت الممالك الإسلامية : أحمد نگر وگولكنده مع بيجاپور واستمرت الحرب مدة لم تنته إلى نتيجة حاسمة ، ثم توفي مراد بن أكبر الذى كان يقود الجيوش ، فأسرع أكبر بإرسال ابنه الثانى « دانيال » ، ثم لحقه أكبر نفسه سنة ١٥٠٨ هـ - ١٥٩٩ م على رأس جيش عدته ثمانون ألفا ، ولكن كان موقف مملكة خاندیس قد تغير بعد وفاة ملكها ، وقيام ابنه « شاه بهادور دل^(١) » بالملك بعده ، ومنا وأته للمغول وامتناعه عن دفع الخراج لهم ، وكانت هذه المملكة تقع فى شمال الدكن ، وتعتبر ممرًا إلى الممالك الإسلامية : أحمد نگر وبيجاپور وگولكنده فى الجنوب ، فاهتم أكبر بموقف هذه الدولة ورأى أن يخضعها ؛ ليفتح الطريق أمامه إلى الجنوب ، فحاصر قلعتها المشهورة « عسیر گره » ، بينما كان ابنه دانيال يحاصر أحمد نگر ، وطالت أيام الحصار حول « عسیر گره » ، ولقى منها عناء أكثر مما لقيه أخيرا من أحمد نگر حتى

(١) معنى بهادور شجاع ومعنى دل بكسر الدال القلب أى شجاع القلب .

جاءته الأنباء بتسليم أحمد نكر سنة ١٠٠٩ هـ - ١٦٠٠ م وهو محاصر لعسير
 كره، ثم ساعدته الظروف فتفشيت الأمراض في القلعة، ووقع ملكها بهادور،
 تحت تأثير الأوهام والخوف فسلمها ودخلها أكبر، وغنم منها الغنائم الكثيرة
 من الذهب والفضة وغيرهما، وبذلك انتهت خاندیس وضمت مع أحمد نكر
 إلى ملك المغول ولم يزل من پیجاپور وگولکنده شیئا وبقیتا مستقلتين .

✽ ✽ ✽

بهذا أصبحت مملكة أكبر من الاتساع بحيث شملت الهند كلها، ما عدا
 الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة الذي كانت تحكمه ممالك پیجاپور وگولکنده
 الإسلاميتين وفيجايا نكر الهندوسية التي كانت تقع في نهاية الجنوب. وكان
 راجوات الهند الذين يحكمون وسطها في راجهوانا وگواليار وغيرهما قد سلخوا



مملكة أكبر وبيان الولايات بها «تقلا عن تاريخ الهند لسيد هاشمي»
 (١٤ - الهند)

نهائيا لا كبر ، إما بالحرب أو بالمصالحة ، بل أصبح هؤلاء الهندوس من أكبر
المعاونين لأكبر والمتحمسين له ، بعد ما رأوا من حسن سياسته نحوهم ، وقيام
المصاهرات بينهم وبينه ، وتألقت بذلك مملكة أكبر من هذه الولايات :

(١) كابل (٢) قندهار (٣) السند (٤) ملتان (٥) لاهور (٦) كشمير
(٧) دهلي (٨) أكره (٩) أجمير (١٠) إله آباد (١١) أوده (١٢) بهار
(١٣) بنغال (١٤) أوريسه على ساحل خليج البنغال (١٥) مالوا (١٦) گجرات
(١٧) خاندیس (١٨) برار (١٩) أحمد نگر .

ثورة ابنه سليم :

عاد أكبر بسرعة من الدكن حينما علم أن ابنه وولي عهده سليم قد قام بثورة
في إله آباد بقصد الاستيلاء على الملك ، وترك دانيال وأبا الفضل يحكمان
الدكن ، وحينما وصل إلى أغرا أرسل لابنه سليم في إله آباد التي كان يحكمها ،
فجاء إليه معتذرا وصفح عنه .

وفي ذلك الوقت رجع أبو الفضل من الدكن وكان بينه وبين سليم جفوة ،
نفشى أن يحرض أباء عليه ، فأشار على أحد أتباعه ، راجارام ، والى د بندهيل
كهند ، أن يقتله قبل أن يصل ، فقتله سنة ١٠١١ هـ - ١٦٠٢ م ، فغضب أكبر
وحزن كثيرا ، وانتقم من القاتل ، راجارام ، شر انتقام .



مقبرة أكبر

وفي سنة ١٠١٣ هـ - ١٦٠٤ م توفي ابنه الآخر ، دانيال ، في الدكن . فاعتم
كثيراً ، ولم يلبث هو أن توفي في جمادى الآخرة سنة ١٠١٤ هـ - ١٦٠٥ م
بعد أن مكث ملكاً على الهند نحو خمسين سنة ، وكان عمره حين توفي نحو ٦٣ سنة
ودفن في اسكندر آباد قريباً من ، أگرا ، .

أكبر في نظر التاريخ :

في كل ما تقدم صاحبنا أكبر في حروبه وفتوحاته . وعرفناه محارباً
شجاعاً لا يعبأ بالصعوبات ، ولا يعرف المستحيلات حتى دانت له الهند كلها
تقريباً ، ولكن لا أكبر جوانب أخرى ، لعلها أكثر أهمية من فتوحاته
وحروبه ، وقد ظفر هذا الامبراطور المغولي باهتمام بالغ من المؤرخين
الهنود والأوربيين لم يظفر به امبراطور سواه ، وكتب عنه الأوربيون
والهندوس كثيراً ، وأشادوا به ، واختلف هؤلاء عن بعض المؤرخين
الإسلاميين في تقدير بعض أعماله والحكم عليها ، ولكل وجهة ، ونحن حين
نكتب هنا عن أكبر نحرص أشد الحرص على أن نضع أعماله أمام القراء ،
ونحكم عليها من الزاوية الإسلامية التي تولى الحكم من ناحيتها وباسمها ، دون
أن نغمطه حقاً في أية ناحية من نواحي نشاطه الأخرى .

ولد أكبر وتربى في ظروف عصيبة سيئة بالنسبة له ، فلم يحظ بعناية من
أبيه البعيد عنه ، ولم يتعلم مثل أولاد الملوك ، وحينما قدر له أن يلى عرش
أبيه - وعمره ثلاث عشرة سنة - لم يتجه إلى تكميل نفسه من الناحية العلمية ،
بل انصرف إلى ما ينصرف إليه أمثاله من عيش القصور ، والخروج للصيد
وغير ذلك . ومع هذا كان أكبر يتمتع بذكاء نادر ، وشخصية قوية ، وكان
يضم إلى هذا جرأة غريبة ، ولقد كانت هذه الجرأة أبرز صفة فيه ، لمسنا
أثرها في حروبه ، وسنلس أثرها كذلك في آرائه وأعماله الأخرى ، بحيث
يمكن أن نقول : إن هذه الصفة - الجرأة النادرة - كانت مفتاح شخصيته .

أكبر وسياسته في الحكم:

وجدت من المناسب ، بل من الضروري أن أخصص لأكبر هذا العنوان ، لأنه هو الآخر قد اختط لنفسه سياسة جديدة في حكم الهند تختلف عن غيره من الملوك المسلمين الذين حكموها ، فقد أقام حكمه على أساس الهند للهند لا للفاتحين ، وحكمها على أساس قومي لا تفريق فيه بين جنس وجنس ، وأهل دين ودين ، وسار في سياسته القومية هذه إلى آخرها ، مضحيا في سبيلها بكل شيء حتى ببعض أوامر الدين ، هادفا من هذه السياسة إلى كسب ود الشعب على اختلاف نزعاته ، وإقامة حكمه على دعائم من رغبات الشعب ومصالحه ، ونظر الشعب فوجد حاكمه يسوسه هذه السياسة القومية الهندية ، ويجعل من كابل وقندهار ولايتين تابعتين للهند ، بدلا من أن تكون الهند محكومة من كابل ، وحينئذ أخلصوا له الطاعة لا سيما الهندوس وراجاواتهم ، الذين لم يروا من قبل مثل هذه السياسة التي تتخذ شعارها عدم التفرقة بين أبناء الوطن الواحد ، وإلغاء ما كانوا يتضايقون منه ويشعرون بالهوان من أجله وهي الجزية ، ومع ذلك ساهموا مساهمة كبيرة في وظائف الدولة الكبيرة والصغيرة ، حتى رأوا كثيرا من الأمور بيدهم ، ورأوا حاكم كابل هندوسيا منهم ، وهكذا وجد الهندوس في أكبر وعهده مالم يجدوه من قبل ، بل وجدوا مالم يكونوا يحملون به أو يتخلون به ، وهو عقد مصاهرات بينهم وبين الملك وأبنائه وأمرائه ، ودخول كثير منهم في حاشيته ، وتغلغل نفوذهم في إدارة الحكم ، كل هذا جعل منهم رعايا مخلصين متفانين ، بعد أن كانوا من ألد أعداء الأباطرة والحكام المسلمين ، وكانت هذه السياسة الجديدة لأكبر تعتبر انقلابا هاما في سياسة حكم المسلمين للهند . فظفرت هذه السياسة بالتقدير من المعاصرين ومن المؤرخين جميعا . . ولا يمكن لأحد من المسلمين الواسعي الأفق أن يعترض على أكبر في سياسته هذه أو معظمها على الأقل . بل إنهم يرون في عدل أكبر وسياسته نحو رعاياه صورة من صور المبادئ الإسلامية

العدالة التي تحرص على العدل بين جميع الرعايا . . .
ويمكن أن تفصل بعض ما اجملناه عن سياسته (١) :

لقد أزال الفوارق بين المسلمين والهندوس في دفع الضرائب ، بل رفع
الضرائب التي كان يدفعها الهندوس عند زيارتهم لأماكنهم المقدسة ، وفتح
بابه للشكاكين ، وجعل على بابه ناقوساً يدقّه كل من أراد أن يقدم شكواه
إليه ، وأعان الزراع وثبت ملكياتهم للأرض ، وتجاوز عن ديونهم المتأخرة .
وله إصلاحات اجتماعية ، وأوامر إدارية إلى حكامه وولاته تدل على مبلغ رقي
الحكم في عهده ؛ فقد منع الزواج قبل سن الرشد ، وأباح للأرامل
الهندوسيات الزواج وكن لا يتزوجن ، كما منع المرأة من إحراق نفسها إذا مات
زوجها ، وامتنع عن جعل أسارى الحرب عبيداً ، وشجع العلماء الهندوس في تعليم
اللغة السنسكريتية . ومن أوامره لحكامه : أن يحيطوا علماً بأحوال رعيتهم
ويعاملوا الناس معاملة حسنة ويحسنوا إلى الفقراء ، ولا يعفوا عن المجرمين ،
ولا يقبلوا الهدايا ، ولا يعترضوا على المخالفين لهم في الدين ، فهم إن كانوا
على الحق فلا يصح الاعتراض عليهم ، وإن كانوا على الباطل فهم مرضى
يجب الرفق بهم ، ثم عليهم أن يلاحظوا دخل الناس وخرجهم ، حتى إذا زاد
خرجهم كان ذلك دليلاً على اكتساب حرام ، ومنع اغتسال النساء والرجال
في الأنهار سوياً ، كما منع شرب الخمر وعصرها ، ومشى النساء كاشفات
وجوههن . ومنع جبر أحد على الإسلام . ومن أجبر فله الخيار ، وجعل
للناس الحرية التامة في اعتناق أى دين يريدون .

وهذه التوجيهات - ومثلها كثير - تدل دلالة واضحة على مبلغ النضج في
الفكر ، وفي تسيير دفة الحكم في البلاد .

أما ما يتصل خاصة بسياسته نحو الهندوس فيجمن أن أثقل هنا ما كتبه
الأمير شكيب أرسلان في كتابه «حاضر العالم الإسلامي» (٢) :

(١) نقلاً عن مجلة ثقافة الهند عدد يونيو ١٩٥٥ باختصار .

(٢) ص ٣٠٠ ج ٤ في فصل عقده عن الممالك الإسلامية في الهند .

• يقول مؤرخو الهند من الأفرنجية أن سلطان دلهي عرف كيف يستولى على راجاوات الهند ويستأسر قلوبهم ؛ لأنه كان شهماً وفيماً على الجنب ، تام المروءة حفيظاً للعهود ، ملاكاً للاقتدة بشرف خصاله ونبل فعاله ، وكانت هذه البيوتات المالكة في آمبر ، ومارفار ، وبيگانير ، الأمثلة العليا في النبالة والأصالة ، وحب المجد ووفاء الذمة ، فلما شاهدوا من السلطان ما شاهدوه من المكارم والمعالى محضوه خالص الود ، وبايعوه من صميم القلب ، وبذلوا من دونه أرواحهم ، ووقفوا على مناصحته غدوهم ورواحهم ، فاستخلصهم لنفسه ، وعول عليهم في مهماته ، وانتدب منهم للمناصب العلية ، وعمر بهم وبأبنائهم الأبواب السلطانية ، ورجحهم على رهط المغول ، وجعلهم ردهاله في المواقف ، لاسيما راجا آمبر المسمى « بهارى مال » ، وولده « باخفان داس » ، وحفيده « مان سينغ » ، الذى كان أخاً لأكبر في الرضاع ، وكان راجا آخر اسمه « تودار مال » ، اليد اليمنى لأكبر في أعماله ، فقلده نظارة المالية ، ثم ولاية البنغال ، ولما مات بكاه بقاء الأخ لآخيه ، ولأجل زيادة التأليف بين الهنود والمغول أشار أكبر بزواج بعضهم من بعض ، وبدأ فى ذلك بنفسه ، فعقد نكاح أخت الراجا « باخفان داس » ، ولولده « جهانگیر » ، على حفيدة « راجا مارفار » ، وأزوج كثيرين من أمراء المغول أميرات من الأسر المالكة في بيگانير وأجمير ، ووشح بذلك علائق النسب بين الدولة التيمورية والدول البرهمية ، فتوطدت دولته وأمن شر العواقب .

وجاء فى مجلة ثقافة الهند^(١) عن أكبر من هذه الناحية :

• كان أكبر فى أول أمره ميالاً إلى العلماء والصلحاء ، وكان يتبع أحكام الشريعة ويحترم الصوفية ، ويحضر بنفسه فى مجالسهم ، وكان للعلماء الكلمة النافذة فى سياسة البلاد وشئون العباد ، وكانوا لا يعاملون من خالفهم فى دينهم معاملة العدل والمساواة^(٢) ، ولكن كان أكبر لا يجب أن يعمل بهذه الخطة ،

(١) عدد يونيو ١٩٥٥
(٢) هكذا فى نظر المجلة ، ولعله يشير مثلا إلى فرض الجزية على الهندوس ، وكان ذلك أبغض شئ لهم . والمجلة تصدرها حكومة الهند .

فأخذ يتبرأ منهم ، فلم يبق عنده من العلماء إلا من كان يوافقه على سياسته ،
ويحذو حذوه في إدارة شئون المملكة التي كان أكثر أهلها من غير المسلمين .
« اختار أكبر كثيرا من عادات الهندوس . وشاركهم في أعيادهم وترك
زى الآباء وتزيا بزيمهم (١١١) وتزوج بنات الأمراء والقواد من الهندوس ،
فتزوج بنت راجا « جيپور » ، بهار مال ، سنة ١٥٦٢ م فولدت له ابنة سليم
الملقب بجهانگيت ، وتزوج ببنت راجا بيگانير وجيسلير في سنة ١٥٧٠ م ،
وزوج ابنة سليم « بمان بائي » بنت راجا بهگوان داس ، فاشتدت بذلك العلائق
الودية بين الهندوس والمسلمين ، لا سيما بينهم وبين فرق الراجپوت . وكانت لهم
إمارات كبيرة في جهات مختلفة من الهند ، وكانوا بواسل محبين لوطنهم أولى
بأس شديد ، وقرب إليه كثيرا من علماء الهندوس وأمراءهم ، قال إليه
الهندوس ، وحسبوه كواحد منهم ، وقاتلوا عنه ، وأعانوه على الثائرين ،
ولو كانوا إخوانهم في الدين . »

وجاء في كتاب حاضر العالم الإسلامي أيضا عن سياسة أكبر :

« كانت نهاية أكبر سنة ١٠١٤ هـ - ١٦٠٥ م بعد أن ملأ الهند مآثر
ومفاخر ، وأدار السلطنة إدارة قل من سدد لمثلها في الأوائل والأواخر ؛
لأنه إلى زمانه هو كانت سلطنة الهند غير مرتسكة على قواعد ثابتة وأنظمة
مقررة ، بل كان السيف وحده حكما ، وكانت الثورات متصلة . وأهواء
الأشخاص هي الغالبة ، ففسر أكبر دولته هذه على أصول إدارة جديدة :
فارسية مغولية ، غاية في الضبط والدقة ، ورفع استبداد الأمراء والملوك ،
فأرضاهم ، وأراح الرعايا من ضررهم - صنع لويس الرابع عشر في فرنسا -
وشكل الدولة على النسق الحالي المتبع في هذا الوقت في العالم . . الخ . »

ويقول جوستاف لوبون (١) :

« وبعد عهده الذي دام خمسين سنة من أنضر العهود الجديرة بأطيب

الذكر ، ونرى النظم التي انتحلها من أكثر النظم ملائمة للشعوب التي ملكها ، وكتب لكثير من هذه النظم البقاء بعده ، وقلدها الانكليز في الغالب .

وفي عهد أكبر بدأت اللغة الأوردية المكونة من الهندية والفارسية والتركية والعربية تبرز إلى الوجود ، وكانت التركية لغة الأسرة المالكة ، والفارسية لغة الدولة ، والعربية لغة الدين الإسلامي .

ومما يذكر لأ أكبر أيضا عنايته الكبيرة بجيشه وتنظيمه ، حتى إنه أعطى أسماء معينة لمدافعه ، وكتب لها تاريخا دون فيه ما أدته هذه الأسلحة من خدمات ، وكان تابعا في علم الحركة ، وله عدة مخترعات ، منها اختراعه ما سوره للبندقية من الحديد لا تنفجر ^(١) .

وفي أواخر عهد أكبر تألفت شركة الهند الانجليزية سنة ١٠٠٩هـ - ١٦٠٠م ، وبدأ عملاؤها يتصلون بأ أكبر ، وينالون منه بعض الامتيازات التجارية ، كما أنه استقبل أول سفير للملك جيمس الأول في بلاطه وهو السير « توماس رو » .

عقيدة أكبر وموقفه من الإسلام

كان لا بد لنا ونحن نتحدث عن أكبر أن نعقد له هذا البحث مادام هو قد شغل نفسه وعصره بعقيدته الدينية ، وأثار حوله كثيرا من الكلام ، بل كثيرا من الثورات ، و « أكبر » هو امبراطور إسلامي من أسرة مسلمة ، حكمت باسم الإسلام ، وأسدت إليه كثيرا من الخدمات ، لذلك كان أي انحراف عن هذا الطريق لا فتا للأنظار ، ومثيرا للجدال والقلق ، ولو ظلت لأ أكبر عقيدته الدينية سرا بينه وبين الله لم تنسرب آثارها إلى أعماله السياسية والحكومية ، ودون أن تتأثر الدولة بها لكان من الممكن أن نتركها له كما هي بينه وبين الله ، ولكن الأمر كان على عكس ذلك ؛ فإن ما طبع عليه أكبر من

الجرة والمجازفة في حروبه ، وفي مصاهرته للهندوس جعلته يحجر بعقيدته التي خالف فيها شعبه المسلم ، وخالف بها ما جرت عليه أسرته الملكية من محافظة على الإسلام ، واجتهاد في دعم تعاليمه بين الناس ، فعل ذلك دون خشية من الله أو من شعبه المسلم ، ولعل الذي ساعده على اتخاذ هذه الخطوة الجريئة هو اطمئنانه إلى الهندوس الذين أصبحوا عوناً في الملقات ، والذين يسرهم منه بلا شك أن يخطو هذه الخطوة .

وشيء آخر ألمسه من تصرفاته دفعه إلى ما فعل ، وهو ميله لأن يكون حكمه قائماً على نظرياته السياسية ، بعيداً عن التقيد بأمور دينه وتعاليمه ، ورغبته بأن يكون حكمه للهند حكماً قومياً ، أو إن شئنا تعبيراً حديثاً قلنا حكماً لادينيا ، وإن كان هذا جره إلى خطوة أخرى أجراً من سابقتها ، حين دفعه الغرور لأن يخترع ديناً جديداً مزيجاً من الأديان التي عرفها ليكون دين دولته ، وليصبح هو بعد ذلك صاحب دين جديد ، يتمتع بالتقديس الذي يحظى به واضعو الأديان - وما أكثرهم في الهند ، وما أكثر ما نالوا من تقديس الملايين وتفانيهم - أعنف إلى هذا أن أكبر لم يتلق تعليماً دينياً في صغره يعصمه من مثل هذا الزلل ، وأن الذي قام على إرشاده وتوجيهه ، وكان له أكبر الأثر والفضل عليه هو بيرم خان الشيعي المتعصب ، وكان لهذا أثره فيما بعد حين قرب إليه كثيراً من علماء الشيعة وجعلهم مستشارين له ، مثل فتح الله الشيرازي وأبي الفضل الناگوري وأخيه أبي الفيض ووالدهما مبارك ، بل كان كثير من العلماء يرمونهم بالإلحاد والزندقة . وكان لهؤلاء بلا شك أثرهم في توجيه أوبر وتشجيعه حتى أثبت كثير من المؤرخين أنه كان شيعياً .

ولنذكر لك في تفصيل ما قدمناه في إجمال :

ذكرت بعض كتب التاريخ عن أكبر أنه في أول عهده حرص على تقريب أهل العلم والصلاح ، حتى كان يذهب بنفسه إلى بيت الشيخ عبد النبي أحمد

الكنسكوهي^(١) لاستماع الحديث . ويسوى نعله بيده ويضعهما قدماه ، وكان يرحل إلى أجمير لزيارة قبر الشيخ معين الدين حسن السجزي الجشتي^(٢) راجلا في كل سنة ، وكان يتبرك بالشيخ سليم بن بهاء الدين السيكروي^(٣) وزاد اعتقاده فيه لما بشره بثلاثة بنين ، فرزق بهم بعد أن كان محروما منهم ، ولذلك سمي ابنه هذا الشيخ «سليم» على غير عادة المغول في تسمية أبنائهم ،

(١) ولد ببلدة «كنكوه» التابعة لسهارانپور من مديريات المقاطعة الشمالية ، وتعلم على أبيه ، ثم رحل إلى مكة وسمع الحديث عن ابن حجر المكي وغيره ، وسار على مذهب المحدثين حين رجع إلى الهند ، تخلف كثيرا من الصوفية ومنهم والده في مسألة السماع ووحدة الوجود والموالد وغيرها ، فنار العامة عليه وطردوه من بلاده ، وسمع عنه «أكبر» فطلبه سنة ٩٧١هـ ١٥٦٣م وبالق في إكرامه ، وأغدق عليه المناصب والأموال ، فأقبلت عليه الدنيا ، واستمر على ذلك سنين حتى دخل أبو الفيز وأخوه أبو الفضل في خدمة أكبر ، ففسا عليه ، ودبرا له المكائد حتى غضب عليه أكبر ، وأمر بطرده من الهند ، فسافر إلى الحجاز ، ومكث بهامدة ثم طلب العفو للرجوع إلى وطنه فأذن له ، ولكنه حين عاد أمر بالقبض عليه وفوض أمره لوزير الهندوسي «تودرمل» وللشيخ أبي الفضل فمذباها حتى مات ، وقيل قتل مخنوقا سنة ٩٩١هـ - ١٥٨٣م . ١٠ من نزهة الخواطر ج ٤ ص ٢١٩ وما بعدها بصرف .

(٢) هو الحسن بن الحسن السجزي ولد سنة ٥٣٧هـ - ١١٤٢م في سجستان وتوفي أبوه وسنه خمسة عشر عاما ، وترك له بستانا ورحى فعاش منهما ثم أخذته الجذبة الربانية ، وترك كل شيء ، وسافر إلى سمرقند وحفظ القرآن ودرس بعض الكتب ، ثم أخذ الطريقة عن بعض رجال الطرق ، وأخذ ينتقل في البلاد حتى وصل إلى لاهور بالهند ، ثم إلى دهلي ثم إلى أجمير واستقر بها ، وأظهر من الكرامات ، والوفائع الغريبة ما جعل الملايين يدخلون الإسلام ، وقد سميت من المرحوم شيخ الإسلام مولانا مدني أن تسعة ملايين دخلوا الإسلام على يديه ، ولأجل كراماته ، ويقول صاحب نزهة الخواطر : إن الحديث عن كراماته تقتصر عنه الأقلام ويعتبر منيع الأولياء في الهند وله مولد في كل عام يحج إليه مئات الآلاف مسلمون وهندوس ، وتعتبر أجمير لدى العامة في الهند من المدن المقدسة تقريبا ، حتى إن الجهال ربما يكتفون بالحج إليها ، ويعتبرونها المدينة الثالثة بعد مكة والمدينة ، وكل ذلك من أجل ولي الله الشيخ معين الدين الجشتي ، هذا وقد توفي سنة ٦٢٧هـ - ١٢٢٩م وله من العمر خمسة وتسعون عاما . رضى الله عنه وجزاه عن الإسلام خير الجزاء - نزهة الخواطر ج ١ ص ١٣٥

(٣) ولد سنة ٨٨٤هـ - ١٤٧٩م وقرأ على العلامة مجد الدين السرهندي وغيره من العلماء ، ورحل إلى الحجاز ، وكان بعد الحج يطوف بالبلاد العربية المجاورة ، ثم يرجع للحج . وهكذا ، حتى حج اثنين وعشرين حجة ، وقد اشتهر بالولاية في الهند ، وكان يقيم على جبل قريبا من سيكرى على بعد ١٢ ميلا من «أكرا» واعتقد فيه «أكبر» فكان يتقرب إليه ويسأله الدعاء وتوفي سنة ٩٧٩هـ - ١٥٧١م

وبنى مدينة في المسكان الففر الذي كان يقيم فيه الشيخ قريباً من « أگرا » ، وجعلها عاصمة بلاده مبالغة منه في تكريمه ، وسميت هذه المدينة « فتح پور سيكرى » ، وهكذا نرى أكبر مسلماً خاضعاً متديناً ، يحترم العلماء ويحلمهم ويتقرب إلى الأولياء منهم ، وهذه بداية استمرت نحو عشرين سنة من حكمه ، ثم مع الأسف لم تتفق مع النهاية ؛ فقد تحول أكبر عن هذه الروح المسالمة الخاضعة إلى إنسان آخر ملأه الكبر والغرور ، ونفخ فيه من حوله من الشياطين ، فزينوا له أنه ظل الله في أرضه ، وأنه لذلك لا يصح أن يستمع هؤلاء العلماء ، ولا أن يقلد هم ، بل الرأى ما يراه هو ، وهو مجتهد ، بل إن مرتبته باعتباره إماماً وخليفة فوق مرتبة المجتهدين - وهذه الفكرة قريبة جداً من فكرة الشيعة عن الإمام واجتهاده إن لم تكن هي - وكان هؤلاء الذين زينوا له ذلك هم المشايخ مبارك^(١)

(١) قال عنه صاحب نزهة الخواطر ولد سنة ٩١١ هـ - ١٥٠٥ م . وكان مفرط الذكاء . دخل أكبر آباد سنة ٩٥٠ هـ - ١٥٤٣ م وانتهت إليه الإمامة في العلم والفضل ، وقال عنه صاحبه البدايوني إنه كان ذا أطوار مختلفة ، لحق بالهدوية ثم بالطريقة النقشبندية ، ولما رأى أن أهل إيران تغلبوا ونالوا في الدولة أعز منال صرف لإيهم عنان العزيم ، وهلم جرا ، توفي سنة ١٠٠١ هـ - ١٥٩٢ م ودفن بلاهور . أما ابنه الكبير أبو الفيض فقد ولد بمدينة أکرا سنة ٩٥٤ هـ - ١٥٤٧ م تصفه نزهة الخواطر بأنه لم يكن له ظفر في الشعر والعروض والقافية واللغة والتاريخ واللغز والانشاء والطب وكانت له قدرة عجيبة في الشعر والنثر الغير المنقوط المكون من الحروف المهملة ، وألف كتاباً في التفسير سماه « سواطع الالهام » من الحروف المهملة أيضاً قال في مقدمته من قصيدة طويلة مدحا له :

أنواح سحر أم طاسم مكرم لأسرار روح السواطع ما هم

وكان يرى بالزندقة والإلحاد قال البدايوني عنه : إنه مخترع الجد والهزل والعجب والكبر والحقد جمع فيه من الخصال الغير المرضية ما لم يجمع في غيره من التفاق والحث والرياء والخيلاء والرعونة ، وكان غاية في الفساد والعداوة لأهل الإسلام ، والظعن في أصول الدين والصحابة ، وكان يحل الحرمات ويحرم الفرائض والمباحات ، صنف تفسير القرآن لتطهير عرضه عن ذلك بمشهد من الناس ، لكنه كان يصنفه في حالة السكر ، وكانت الكلاب تلعأ أوراقها . ذهب إليه السلطان أكبر ليعوده في مرضه فخرج يقول إنه كان يعوى عليه كالكلاب ، ومن عجب أمر الناس وكرهم له أنهم أرخوا لوفاته جرياً على عادتهم بهذه الكلمات « فيض ملعدى » ، « خالد في النار » توفي سنة ١٠٠٤ هـ - ١٥٩٥ م ودفن بأکرا أو لاهور .

أما أبو الفضل أخوه الصغير ، فقد ولد سنة ٩٥٨ هـ - ٥٥١ م وتعلم على أبيه وأخيه ، وتضلّع في العلوم المختلفة ولا سيما العلوم الحسكية . ودعا أكبر مع ولده إلى أكبر آباد =

ابن خضر الناكورى وولده : أبو الفيض . وأبو الفضل وغيرهم ، وقد ذكرت بعض كتب التاريخ عنهم أنهم كانوا من الشيعة وأن التحول فى عقيدة أكبر حدث بعد انصاهم به ودخولهم فى حاشيته ، وقد كانت نفس أكبر مستعدة لمثل هذا التغيير . مباله إلى التحرر من قيود الشريعة وإلى الاستماع للأديان الأخرى : اليهودية والمجوسية والنصرانية والوثنية ، وقد بنى فى مدينته الجديدة مكانا سماه « عباد تخانه » أى مكان العبادة التى اخترعها أكبر ومن حوله ، وهى عبادة متحررة من مراسم الإسلام . ومقتبسة من الأديان كلها ، وكأنه أراد بذلك خلق دين جديد يجمع عليه شعبه المتعدد الأديان كما جمعهم حكمه وسلطانة ، وسماه « الدين الإلهى » ، ونادى أكبر بأن الدعوة الإسلامية قد مضى زمنها بمرور ألف سنة عليها ، وأنها أصبحت لا تتفق مع زمانه ، ولا يتعين أن يكون الحق معها ، بل يكون دائرا بين الأديان والمذاهب كلها ، ولذا فلا بأس من أن نقتبس منها كلها طريقة العبادة الجديدة . وانساق أكبر فى هذه الطريقة ، فأنكر الوحى والجن والملائكة والحشر والفجر وسائر المغيبات ، وأنكر المعجزات ، وجوز الناسخ ، وحرم ذبح البقرة ، وأحل الخمر^(١) والميسر والمحرمات الأخر

= العاصمة فى ذلك الوقت ، فأخذ يتقرب إلى أكبر مع أبيه حتى صار من أقرب الناس إليه وعينه فيما يشبه رئيس وزرائه ، آثم مع أخيه وأبيه بأنهم الذين زينوا لأكبر ما صنع من الخروج عن الإسلام ، وكان أعلم وزراء الدولة التيمورية وأكبرهم فى الحرس والفراصة وإصابة الرأى وسلامة الفكر وحلاوة النطق وبراعة الإنشاء ، له مصنفات كثيرة فى التاريخ وغيره أشهرها « أكبر نامه » فى تاريخ أكبر « وآئين أكبرى » أى قوانين أكبر ونظمه ، كما ترجم حياة الحيوان للدهيرى ، وكلمة ودمنه ؛ وكثيرا من الكتب الأخرى . لما قتله « راجا نرسنك ديو » بتدبير « جهانكير » لسوء العلاقة بينهما حزن أكبر عليه كثيرا وانتقم من الراجا شر انتقام ، وكان قتله سنة ١٠١٦ هـ - ١٦٠٢ م (نزهة الخواطر ج ٥ ص ٢٤ وما بعدها . ملخصا) .

(١) هكذا ذكرت بعض كتب التاريخ التى نقلنا عنها هذا كما ستعرفها فى آخر هذا الكلام ، وقد مر فيما نقلناه عن مجلة ثقافة الهند أنه حرم الخمر .. ولعل هذا الخلاف ناشىء من حب بعض المؤرخين له أو تحاملهم عليه ، أو لعل ذلك كله حصل فى أوقات مختلفة فى حكمه الذى بلغ أكثر من خمسين سنة .

وأمر بإيقاد النار في حرمه الخاص على طريقة المجوس^(١) ، وأن تعظم الشمس حين طلوعها على طريقة مشركي الهند ، وبذل الكلمة الطيبة ، « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، إلى « لا إله إلا الله ، أكبر خليفة الله ! فلما رأى الفتنة العظيمة بإشاعة تلك الكلمة أمر أن يتفوه بها في بلاطه ، وكان يسجد للشمس والنار في كل سنة يوم النيروز ، مع العناية بالاحتفال به في أنحاء المملكة ، ورسم القشقة على جبينه^(٢) كما اتخذ كثيرا من العادات الخاصة بالهندوس وأشاعها بين شعبه ، وكان يحث أتباعه على ترك التقليد ، يعنى به دين الإسلام قائلا : إن واضعه من فقراء الأعراب ، وأمر ألا يقرأ من العلوم العربية إلا النجوم والحساب والطب والفلسفة^(٣) . ويقول الأمير شكيب أرسلان في كتابه حاضر العالم الإسلامي : بعد أن سرد مثل ما تقدم ص ٣٠٧ ، ولم يغفل أكبر عن النصرانية ، ففي سنة ١٥٨٠ م أرسل إلى رهبان البرتغال الذين كانوا في « جوا » يستقدم منهم من يفقه في عقيدتهم . فلبوا دعوته وأرسلوا إليه «نجيلا» أمر بنقله إلى الفارسية ليفهمه ، وبعد ذلك عهد إلى الرهبان اليسوعيين بتقريف ابنه مراد ، ثم أذن للجزويت بفتح مدارس في أغرا ولاهور وغيرهما وكان يذهب إلى كنائسهم . ويقول مؤرخوهم إنه كان يحشو على ركبته ،

ثم نقل عن دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية بشأن عقيدة أكبر ما يأتي :
مما لا مشاحة فيه أنه ترك الإسلام ، ووضع عقيدة سماها «التوحيد الإلهي»
وهي اعتقاد مجرد بالإله ، مما انفقت عليه كل المذاهب ، ولكن لما كان الناس يريدون رمزا ، وتحقق أكبر أنهم يريدونه ، فقد أوصاهم بأن يجعلوا الشمس

(١) ذكر المؤرخ الفرنسي «رينيه غروسه» أنه جرى له بالنار المقدسة من إيران ، ولهيها محفوظ من عصر إلى عصر منذ أيام رعاة الإيرانيين القدماء ، فاستقبلها بالتهظيم الفائق في بلاطه .
(نقلا عن حاضر العالم ص ٣٠٩ ج ٤) .

(٢) اعتاد الهنود حتى الآن أن يضعوا على جبينهم نقطة ملونة من الزعفران وغيره حتى أصبح ذلك شعارا لهم ، ورأيت غالبهم يخططون جبينهم بخطوط أفقية حول النقطة هذه ، معتقدين أن ذلك للحصول البركة ، وتسمى هذه النقطة عندهم «قشقه» وتختلف حسب أتباع كل مذهب كما سبق في الكلام عن المذاهب الهندوسية .

(٣) نزهة الخواطر بصرف ، نقلا عن تاريخ البداوي المعاصر لأكبر في كتابه «المنتخب»

رمزا للإله . وكذلك النار التي هي من طبيعة الشمس .
وقد كان لهذه الضجة التي أثارها أكبر بدينه الجديد آثار بالغة المدى في دولته ؛ فقد خرجت عليه بعض الولايات ، وحاربتة ، كما ناصبه كثير من العلماء العداوة وهاجموه ، وهاجموا آراءه ومؤيديه . فشتتهم ونفى بعضهم إلى الحجاز ، مثل الشيخ عبد الله السلطانپوری^(١) والشيخ عبد النبي السکنکوهی الذي كان يتبرك به من قبل ، وذلك بعد أن امتنعوا عن التوقيع على بيان حرره الشيخ مبارك بن خضر الناگوری وولده ، وفيه يشهد العلماء بأن أكبر ظل الله في أرضه ، وأن له أن يشرع . الخ . ووقع عليه نحو ثمانية عشر علما بعضهم بالرضا ، وبعضهم بالإكراه ، ورأينا المؤرخين له ، يبرر بعضهم عمله ، وبعضهم يحمل عليه وعلى مؤيديه حملة عنيفة متهمًا إياهم بالخروج عن الإسلام .

وأعتقد أن القارئ بعد ما عرف كل هذا عن أكبر لا يشك في أنه انسلخ عن الإسلام ، وأصبح تائها شريدا بين الأديان لا يستقر على دين ، ذلك حكم لا يحتاج إلى جدال ؟ ولا أدري كيف برر بعض العلماء الذين وقفوا بجانبه سلوكه المخالف للإسلام ، وعلى أي أساس إسلامي أزروه وعاونوه ؟ إن للمؤرخين الذين اتهموا رموس هذه الحركة بالزندقة والإلحاد كل العذر في هذا الاتهام ، فما كان لمسلم أن يقر مثل هذه التصرفات ، فما بالك بعلماء كانوا أكبر سند لها ، وفي مقدمتهم كما سبق : الشيخ مبارك بن خضر وولده . قال الأمير شکیب بعد أن سرد كثيرا من أعماله المخالفة للإسلام : « عند

(١) ولد في سلطانپور في البنجاب ، واشتغل بالعلم من صباه ، ثم لما شب اشتهر أمره فؤلاده هايون شاه شياخة الإسلام ، كما كان شير شاه وابنه سليم بطلانه ، وتلقيا إشارة بالقبول ولقباه بصدر الإسلام ، ولقبه أكبر بمخدوم الملك ، وعظمه غاية التعظيم ، ثم دس له الشيخ مبارك بن خضر كما دس للشيخ عبد النبي السکنکوهی زميله عند أكبر ، فغضب عليه وأخرجه إلى الحرمين سنة ٩٨٧ هـ - ١٥٧٩ م ، فاستقبل في مكة استقبالا طيبا من جميع العلماء وعلى رأسهم ابن حجر المكي ، ثم بعد مدة عاد إلى الهند فأمر أكبر بوضع السم له حين وصل إلى كبريات فتوفى مسموما سنة ٩٩٠ هـ - ١٥٨٢ م اه (نزهة ج ٤ ص ٢٠٦ باختصار) .

ما يقرأ الإنسان أعماله هذه يعرف أن الرجل قد تمجس ، وانتهى النزاع وقضى الأمر ، ولكن حين تجده معجبا بالبوذية والبرهمية والنصرانية والتصوف والتشيع ، تعلم أن الرجل وإن كان ساعيا بزعمه وراء الحقيقة فهو يختلط العقل في المسألة الإلهية . والجنون كما قيل فنون ، ثم علق الأمير على تأييد ثمانية عشر شخصا من حاشيته له تعليقا لطيفا يستحق أن نسجله هنا ، قال : لقد ذكرنا ذلك بالذي روى عنه الشهير ستاني في « الملل والنحل » ، أنه انفرد بمذهب وتبعه سبعة أشخاص لا غير ، فبينما كان يجادل ويناضل مرة عن مذهبه ، قال له مناظره : « أترى البارئ تعالى خلق جنة عرضها السموات والأرض لك ولهؤلاء السبعة الذين تبعوك ؟ » .

وقد كان لموقف « أكبر » هذا من الدين صدى طيب في نفوس المؤرخين الأوربيين وغيرهم ممن لا يدينون بالإسلام ، ويسرهم دائما مثل هذا السلوك من المسلم ، لا سيما إذا كان في مقام أكبر وخطره . حتى افتنخر بعض الكتاب الأوربيين بأنه كان أكثر ميلا إلى الكشاكشة منه إلى أي دين أو مذهب آخر . ونحن بالطبع لا نجاريهم في هذا ، وإنما نأسف لأن ملوكا عظيميا مثل أكبر قد قام بخدمات عظيمة في الهند لا تزال محل إعجاب وتقدير ، ومع ذلك لم يقدم أية خدمة لدينه ، بل كان على العكس هادما له ، وإن كان ذلك لا يمنعنا من تقديره كملك سياسي عظيم ، يعتبر نحر الملوك المغول ، أو ملوك الشرق في عظمتهم وقدرتهم كحاكم قوى . شهدت الهند على أيامه عهدا من الأمن والاستقرار والازدهار الفكري والعلمي والفني قلما شهدته في عصر من العصور .

أكبر والحركة العلمية والفنية

نشأ أكبر نشأة لم يتح له فيها أن يتعلم كما يتعلم أمثاله ، وحين ارتقى العرش لم يتجه إلى تحصيل الضروري من التعليم ، فكان كما قال مؤرخوه : جاهلا بالحروف !! لكنه مع ذلك كان على قدر كبير من الذكاء والنبوغ وقوة الشخصية ، والرغبة في الاستماع إلى العلماء والاستفادة منهم ، فكان مجلسه يحفل

دائماً بالعلماء من كل مذهب ودين ، يتحدثون ويتجادلون في كل ناحية من نواحي العلم ، وهو يستفيد منهم ، ويستمتع لهم ، وقد أتاح لمجالسه العلوية حرية البحث مهما كانت نتيجته ، فشهد مجلسه مناظرات ومحاورات دنيّة وفلسفية وتاريخية ، واستمع هو إلى علماء الأديان كلها ، يحاول كل منهم إظهار دينه بمظهر القائم على الحق وحده ، ثم أرسل لعلماء المسيحية الذين هبطوا الهند للتبشير في ظل القوات الغربية البرتغالية وغيرها ، لكي يشرحوا له دينهم وطريقتهم ، ففرحوا بهذا الاتجاه ، واتصلوا به وأعطوه إنجيلاً ، أمر بترجمته إلى الفارسية حتى يفهمه ، وهكذا استمع لكل الأديان ، ولعل ما سمعه من الحديث المنق عن كل منها ، مع فقدانه الحصانة الإسلامية لعدم التعليم في صغره جعله يتذبذب بينها جميعاً ، ويقبل ما زينه له المغوون من حوله .

ولم يكن من الغريب وهذه روجه العلوية أن تنشط في عهده وبأمره حركة التأليف . وقد عني المؤرخون الذين أرخوا له بذكر هذه الكتب ومؤلفيها ، ونحن هنا نذكر بعضها منها ؛ لنعطي القارئ صورة من تنوع الثقافة ، والتأليف في هذا العهد . . . فنّها :

١ — ترجمة حياة الحيوان للدميرى بالفارسية ، ترجمها أبو الفضل بن المبارك سنة ٩٨٣ هـ - ١٥٧٥ م .

٢ — و ترجمة الإنجيل بالفارسية ، ترجمه أبو الفضل أيضاً سنة ٩٨٦ هـ ١٥٧٨ م .

٣ — و ترجمة كليلة ودمنة من الفارسية الغير المتعارفة للفارسية المعروفة لأبي الفضل .

٤ — « آئين أكبرى ، أى قواعد ونظم الحكم الأكبرى ، ألفه أبو الفضل سنة ١٠٠٤ هـ .

٥ — « أكبر نامه ، أى تاريخ أكبر ، ذكر فيه تاريخ الهند في أيام ملوك المغول حتى أكبر .

٦ - ترجمة « ليلالوني » في الحساب والمساحة من السنسكريتية لأبي الفيض ابن المبارك .

٧ - ترجمة « اتهرين فيدا » من الكتب المقدسة الهندية ترجمه من السنسكريتية للفارسية عبد القادر البدايوني^(١) وبهادر الهندي ، وأبو الفيض وإبراهيم السرهندي .

٨ - ترجمة « مها بهارت » المقدس عند الهنود للفارسية ، ترجمه البدايوني والقزويني وسماء السلطان « رزم نامه » .

٩ - ترجمة « رامائن » أحد الكتب المقدسة التاريخية عند الهنود ترجمه البدايوني سنة ٩٩٧ هـ - ١٥٨٨ م .

١٠ - تاريخ الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين في مصر والشام وبغداد للبدايوني بالفارسية .

١١ - ترجمة « تزك بابري » أي مذكرات بابر التي كتبها عن يومياته ترجمها من التركية للفارسية عبد الرحيم بن بيرم خان سنة ٩٩٧ هـ - ١٥٨٨ م .

١٢ - ترجمة معجم البلدان من العربية للفارسية ، قسمه السلطان علي اثني عشر رجلاً منهم البدايوني .

١٣ - التاريخ الألفي في تاريخ ألف سنة . أمر السلطان أصحابه بتصنيفه ، واختار منهم سبعة رجال : فتح الله الشيرازي ، وغيث الدين القزويني ، وهمام الكيلاني ، والحكيم الكيلاني ، وإبراهيم السرهندي ، ونظام الدين

(١) من مفاخر العلماء في أيامه ، ولد سنة ٩٤٧ هـ - ١٥٤٠ م ودرس علوم زمانه ونفع فيها وأكثرها قرأها على الشيخ مبارك بن خضر الناكوري وصحب أبا الفضل وأبا الفيض من أبناء أستاذه نحو أربعين سنة . اتصل بأبي كبر شاه فقربه إليه واتخذة إماماً لصلواته وأغدى عليه وأمره بتأليف وترجمة كتب كثيرة تعتبر من أمهات الكتب فقام بها على خير وجه ، ويعتبر كتابه في التاريخ « منتخب التواريخ » من أهم المؤلفات التاريخية وأصدقها وقد نقد فيه أكبر ومن حوله تبدأ مرأ دون أية مراعاة أو خوف وتوفي سنة ١٠٠٢ هـ - ١٥٩٥ م وستة سبع وخمسون سنة .. اه من نزهة الخواطر .

الأكبر أبادى ، والبدايوني ، وأمرهم أن يكتب كل منهم في أسبوع أخبار سنة . ثم أمر السلطان أحمد بن نصر التتوى بإتمامه ، فكتب إلى أيام جنكيز خان ، ولما قتل أمر جعفر بيك بإتمامه فأتمه إلى أيام أكبر ، وكتب الخطبة له أبو الفضل .

١٤ - الطبقات الأكبرية في التاريخ لميرزا نظام الدين الهروى .

١٥ - منتخب التواريخ للبدايوني في ثلاثة مجلدات : الأول في أخبار الملوك من سبكتكين إلى همايون ، والثاني في أخبار أكبر إلى أربعين سنة من جلوسه على العرش ، وهو الكتاب الذى هاجم فيه أكبر وأبا الفضل وعقيدتهما دون أى خوف ، والثالث في ذكر من عاصره من الشيوخ والعلماء والشعراء والأطباء .

١٦ - حل لنظم الشاهنامه للفردوسى نثره تقي الدين التستري بأمر أكبر ، وعدا هذه ألفت وترجمت كتب كثيرة أخرى من الهيئة والنجوم والموسيقى وغيرها ، وإن الإنسان ليعجب لهذه الحركة العلمية الواسعة التى بعثها أكبر حوله . وإن كان هو فى عرف رجال التعليم جاهلا بالقراءة والكتابة .

* * *

وتتصل الحركة أو النهضة الفنية بالحركة العلمية التى رعاها أكبر ونماها ، وليس من الغريب على امبراطور واسع الأفق مثله أن يعنى بالفن حتى يزدهر فى بلاطه ازدهارا لم يشهده من قبل فى بلاط الملوك المسلمين بالهند ، وقد كان لآباء أكبر وأجداده عناية ملحوظة بالفن . رأينا ذلك عند ما جاء تيمور إلى الهند وأعجب بفن العمارة فيها ، فأخذ الفنانين معه إلى سمرقند ، ليشيدوا بها مسجده المشهور ، وكذلك رأينا بابر رجلا فنانا معجبا بالطبيعة ومظاهرها ، وإن كان اشتغاله بتأسيس الدولة فى الهند لم يتح للفن ازدهارا وسط المعارك والدماء ، ولما جاء ابنه همايون شغلته الحروب التى انتهت بفراره من الهند إلى إيران . وهناك تعرف على كثير من رجال الفنون الذين كانوا يعملون بالبلاط الإيرانى ، وفى تبريز التقى بالمصور عبد الصمد الشيرازى ومير سيد على ، واستدعاهما سنة ١٥٤٩ م إلى بلاطه فى كابل حين استولى عليها ،

وهناك صورا له قصة الأمير حمزة الخيالية ، وهى قصة إيرانية مشهورة اشتملت على ألف وأربعمائة صورة على القماش ، وتحفظ متاحف فينا ولندن بأكبر عدد منها ، ولما جاء أكبر وتميز عهده بالهدوء والاستقرار والطول أيضاً لقي الفن أكبر رعاية عنده ، لاسيما فن التصوير ، فلما أنشأ مدينة « فتح پور سيكرى » ، وجعلها عاصمة له زين قصورها برسوم حائطية جميلة ، عملها له فنانون من إيران والهند ، وخطا أكبر خطوة أخرى فى تشجيع التصوير ، فأنشأ لذلك معهدا حكوميا التحق به حوالى مائة فنان ، كانوا يعملون تحت إرشاد المصورين الإيرانيين ، وجمعت لهم الصور الفنية الرائعة من إيران ليحاكوها ، فأتجوا كثيرا منها ، كما تم فى عهده ما بدأ فى عهد أبيه من تصوير قصة الأمير حمزة السابقة ، ويوجد بعض هذه الصور فى متاحف أوروبا وأمريكا ، على أن فن التصوير الأوروبى الحديث الذى وصل أكبر عن طريق إرساليات الجزويت قد حاز إعجابه ؛ ففي سنة ١٥٨٠ م أهدته نسخة من الإنجيل مزينة برسوم ، كما أهدته صورا للسيد المسيح وأمه العذراء . « و بمتحف المتروبوليتان بأمريكا عدد من صور المخطوطات الجميلة من عصر « أكبر » ، وتحمل إضاءات مشاهير الفنانين حينذاك ، وأجدرها بالذكر ثلاث صور فى مخطوطة « رزم نامه » ، وهى الترجمة الفارسية للبلحمة الهندية « مهابهارات » ، وأكثر هذه الصور الثلاث إبداعا صورة تمثل « كرشنا » وهو يحاول أن يرفع أحد الجبال فى سيلان .

ذلك باختصار ما كتبه المؤلف الأمريكى « ديماندا » ، وترجمه الأستاذ أحمد محمد عيسى^(١) عن عناية أكبر بالتصوير ، وهذا يعطينا فكرة عامة عن عنايته بنواحي الفنون الأخرى تغنيا عن الكلام عنها . إذ المهم أن نعطي القارئ صورة عن هذا الامبراطور العظيم ونواحي نشاطه وعنايته بمختلف أنواع الثقافات .

ولعل بعد هذا الحديث الطويل عن أكبر أكون قد وفقت فى تصوير شخصيته العظيمة التى لا تقل فى نظر التاريخ عن أعظم الرجال فى العالم ..

(١) فى كتاب الفنون الإسلامية ص ٦٩ وما بعدها .

جهانگیر^(١)

حكم من ١٠١٤ هـ - ١٦٠٥ م إلى ١٠٣٧ هـ - ١٦٢٧ م



كتب جهانگیر فی یومیّاته الّتی کتبها بخطه والمسماة «توزک جهانگیری»^(٢) .
يقول :

« بفضل الله وعونه جلست على عرش الملك في دار الخلافة ، أکرا ،
يوم الخميس الثامن من جمادى الآخرة سنة ١٠١٤ هـ (١٧ أكتوبر سنة ١٦٠٥ م)
وأنا في الثامن والثلاثين من عمري ، وكان لا يبقى لوالدي أحد من الأولاد
حيا ، إلى أن بلغ الثامن والعشرين من حياته ، فكان يتوجه إلى الصالحين من
عباد الله ، ويلتمس أولياءه ليدعوا له بولد ، وقد عاهد نفسه ونوى لورزق
غلاما يعيش فإنه يزور قبره معین الدين چشتی ، منبع الأولياء في الهند - ماشيا .

(١) اسمه محمد سليم واما تولى العرش تلقب بلقب « نور الدین محمد جهانگیر » ومعنى
جهانگیر آخذ الدنيا أو مالکها .

(٢) قلا من مقال لولانا عبد الحمید نعمانی فی ثقافة الهند سبتمبر ١٩٥٠ .

على رجليه ، قطعاً مسافة مائة وأربعين فرسخاً من العاصمة أكره إلى أجمير بكل إجلال واحترام ، فولدت ظهيرة يوم الأربعاء في السابع عشر من ربيع الأول سنة ١٩٧٧ هـ - ١٥٧٠ م .

وكان هناك جبل « سيكري » على مقربة من « أكره » ، اتخذ الشيخ سليم سفحه سكناً له ، وكان معمرًا مرتاضاً ؛ بلغ في الورع والصلاح ما بلغ ، والتف حوله من أهالي سيكري كثير من الناس مسترشدين به ، فلما سمع والدي عن الشيخ وعن كماله في أحواله - وكان في تلك الأيام أشد ما يكون رغبة في الولد - أفبل على الشيخ ذات يوم ، وسأله مذهولاً : كم يكون لي من الأولاد أيها العارف الجليل ؟ فأجاب الشيخ : إن الله يهب لك ثلاثة أولاد . فقال أبي : إني نذرت أن أفوض الأول منهم إليك ليتربي تحت نظرك وعنايتك ، فتقبل الشيخ سليم وقال : قد جعلناه لنا سميًا ، فلما حان أوان الوضع أرسل أبي أمي إلى دار الشيخ في قرية « سيكري » ، فسماني بعد ميلادي « محمد سليم » ، ولقبني بالسلطان ، وقد جعل مولدي فيما بعد دار الحكومة (العاصمة) ، تبركاً به فبدلت أرض سيكري غير الأرض ، وانقلبت غاباتها التي كانت تسكنها السباع والأسود والحشرات جنات وروضات ، ذات شوارع جميلة ، ومبان ضخمة وسمماها « فتح پور » ، بعد ما فتح « كجرات » .

وأُم سليم هي بنت راجا چيپور « بهاري مل » الهندوسي تزوجها أكبر سنة ١٩٧٠ هـ - ١٥٦٢ م ، وقد تربى تربية طيبة « فسمع الحديث من الشيخ محمد سعيد الهروي الشهير بـ مير كلان ، وقرأ عليه شيئاً من العلم بأمر والده ، كما سمع من المفتي صدر جهان الپهانوي ^(١) ، ولعل هذه التربية مع تأثير الشيخ سليم فيه قد وجهته وجهة غير وجهة أبيه ، فكان صحيح العقيدة في الإسلام يحترم العلماء ويكرهم .

كان أكبر من أخويه : مراد ودانيال : وزوجه أبوه يا حدى بنات

(١) نزعة الخواطر ج ٥ ص ١٢١ .

راجوات الهند - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - ، وكان بينه وبين أبيه شيء من الجفاء ، حيث كان يحس بعدم حبه له كما يجب أخويه ، كما اعترف بذلك في مذكراته ، وقد ولاه أبوه ولاية « إله آباد » ، ولعل شعوره من أبيه بهذا الجفاء جعله يخرج عليه حينما كان مشغولا بحرب الدكن ، وإن لم يسر في هذا الخلاف إلى نهايته ، وقد خلا له الجو من أخويه : مراد ودانيال ، حيث ماتا في الدكن ، فلم يبق إلا هو وارثا للعرش ، وهذا هو الذي جعل أباه يتجه إليه ويصفح عنه ، ويزوده بنصائح قبل وفاته ، ولكن ظهر له منافس صغير في الحكم ، وهو ابنه الأكبر « خسرو » الذي كان يطمع أن يلي الحكم بعد جده ، وربما كان يستغل ثورة أبيه على جده ، ويعرف الجفوة التي بينهما ، فأداه ذلك إلى الطمع في الحكم متخطيا أباه ١١ وإن كان ذلك لم يتم له ، إلا أننا رأينا في عهد أبيه يخرج عليه وتقع الحروب بينهما حول الحكم ، وحينما ورث « نور الدين جهانگیر » الملك من أبيه - وهذا هو الاسم الذي اختاره لنفسه عندما ولي الحكم - ورث ملكا واسعا ثابت الدعائم ، موطن الأركان ، ساعدت السنون الخمسون التي قضاها أبوه في الحكم مع حسن سياسته على توطيده ، ومع ذلك فإن حكمه لم يخل من بعض المتاعب التي أثارها ابنه خسرو في البنجاب ، و « راناسنگ » الراجبوتي في « أودى پور » ، وقد ظل منذ أيام أبيه متمردا ، وكذلك القائد عنبر في أحمد نگر بالدكن وكما حدث في كابل وقندهار .

ففي الدكن قامت ثورة في « أحمد نگر » بقيادة « عنبر الحبشي » (١) ، بعد

(١) كان عنبر من العبيد الحبش الذين يجلبون إلى الهند ، ودخل في جيش عادل شاه البيجاپوري ولكنه تركه بعد حين ، وضاق به الخلد حتى عثر على أحد السكوز ، فأخذ ينفق عن سعة ويجمع الناس حوله فاستدعاه حين نظام شاه ملك أحمد نگر فارتفعت منزلته عنده وأصبحت السلطة بيده ، ولما مات الشاه وخلفه ابنه الصغير كان عنبر هو الملك الحقيقي الذي ساس البلاد سياسة حكيمة حازمة حتى ازدهرت في أيامه ، وأكثر من شراء العبيد الأجانب وعلمهم ، فصاروا قوة كبيرة في الدولة بعلومهم وشجاعتهم . وكان كثير الإحسان إلى العلماء والصوفية والفقراء . شجاعا استطاع أن يقف أمام المغول ويصدم ويحفظ لبلاده باستقلالها مدة كبيرة ، وقد توفي سنة ١٠٣٥ هـ - ١٦٢٥ م ، ودفن قريبا من دولت آباد ، وبني على قبره قبة عظيمة الملمح من نزهة المواطنين . ص ٢٩١ .

ما خضعت للمغول في أيام أكبر بعد حروب طاحنة ، فأرسل جهانكير إليها خان خانان لإخادها ، ولكنه لم ينجح ، وكان عنبر قد اتخذ مقرا له في مدينة «أورنگ آباد» ، وامتاز بحسن التدبير والشجاعة والنشاط ، فرأى أنه لا يستطيع مواجهة جيش المغول ، فلجأ إلى حرب العصابات ، واعتمد في إضعاف عدوه على المباغتات ، حتى اضطره الانسحاب من أحمد نگر إلى برهانپور في ولاية خاندیس ، وبذلك ضاعت أحمد نگر من المغول ، ولما وصلت هذه الأنباء إلى جهانكير سنة ١٠١٨ هـ - ١٦٠٩ م أعد جيشا عظيما ، وجهره بكل ما محتاج إليه ، وجعل على رأسه «بروز» و «خان جهان» ، وعاونهم «راجا مان سنگ» من ولاية برار في الدكن ، وعبد الله خان أربك من كجرات على أن يلتقوا جميعا في أحمد نگر ، ولكن اتفق أن عبد الله خان أسرع إلى هناك قبل أن يصل الآخرون ، فباغته «عنبر» بطريقته حتى اضطره إلى الرجوع ، وكان لذلك تأثيره في الجيوش الأخرى التي كانت تتقدم إلى أحمد نگر ، حيث جذبت عن التقدم ، وأقام «بروز» في «برهانپور» واستمر عنبر مسيطرا على أحمد نگر يوطد أركان المملكة ويدعم فيها سلطانه .

ولكن جهانكير لم يسكت طويلا على هذا ، فأعد ثانيا جيشا كبيرا ، وجعل على رأسه ولده «خرم» ^(١) القائد الشجاع ، وذهب السلطان إلى «مالوا» في وسط الهند ليكون قريبا من الدكن حيث تدور المعارك ، ومن حسن حظ «خرم» أن الأمور حول «عنبر» قد تغيرت ، ودب في البلاد الفساد والافتن ، فسهل ذلك مهمته حين رأى عنبر أن يتنازل عن بعض البلاد ، ويعقد الصلح ، وتم ذلك في سنة ١٠٢٥ هـ - ١٦١٦ م .

وفي «أودی پور» «راجپوتانا» كان «رانا سنگ» لا يزال متمردا على الدولة ، مسييا لها بعض الاضطرابات في تلك الناحية ، فأرسل له السلطان جيشا بقيادة «مهابت خان» ، وكان الرانا يحارب ويفر إلى الجبال ، ويعتصم بها وبقلعه المنيع فيها ، فلم يصب مهابت خان نجاحا فظف من الدولة إليه ، فأرسل السلطان ابنه «خرم» سنة ١٠٢٣ هـ - ١٦١٤ م ، فاستطاع أن يدخل «أودی پور» ، وبضيق

(١) ضم الحاء وتشديد الراء ومعناها «سرور» .

الخنق على الرانا والطرق المؤدية إليه ، ودام الحصار عليه مدة اضطر فيها للتسليم وتقديم الطاعة ، فعامله السلطان معاملة حسنة حين قدم إلى دهلي ، وانتهى أمره .

أما « خسرو » ، ابنه فقد عرفناه طامعا في الملك منذ أيام جده بدلا من أبيه ، وكان بعض الأمراء الكبار يُريدونه ، ولما صار الملك إلى أبيه دفعه ذلك إلى الخروج عليه ، ففر إلى پنجاب معلنا الثورة ، فأُسرع جهانگیر يتعقبه ، وأرسل له جيشا بقيادة الشيخ فريد بخارى الذى عينه وزيرا للجيش ، فسار إلى لاهور ، وأخذ يتعقب « خسرو » ، حتى فر إلى أفغانستان ، وهناك قريبا من كابل اعترضه نهر « چناب » ، ولما أراد أن يستخدم السفن لعبوره أبى الملاحون عليه ذلك ، فاعتصب سفينة وقهر ملاحها على العبور هو ومن معه ، ولكن في وسط النهر غافلهم الملاح ، وألقى بنفسه في النهر ، وسبح بعيدا عنهم وتركهم وهم لا يحسنون الملاحة ، فظلت سفينتهم تتأرجح في الماء حتى تمكنت قوات جهانگیر من القبض عليهم ، وسيقوا إلى كابل مقيدين بالأغلال ، وانتهى أمره بالبقاء في سجنه حتى مات ، وقيل إنه مات بالسّم .

جهانگیر بنزوج :

لم تكن نغنى كثيرا بأمر زواجه هذا لولا أنه كان بما صاحبه وما أعقبه من من أحداث ذا أثر كبير في سياسة الدولة ، فقد أحب جهانگیر زوجة أحد رجاله ويسمى « شير أفغن » ، أى صائد الأسد ، وقد التحق بخدمة أكبر ، ثم بخدمة جهانگیر ، فولاه في « بنگال » ، ولكنه كما يقول جهانگیر في مذكراته علم ما يأتى به من فساد لا تحسن مغبته ، فكتب إلى أحد قواده أن يبعث به إليه ولو بالقوة ، فلما وصل إليه رسول جهانگیر واسمه « قطب الدين » ، وأبلغه رسالة السلطان . أدرك نواياه وما يخبأ له ، فغافله بضربة قضى عليه ، ولكن

ربال قطب الدين عاجلوه هو الآخر وجعلوه جزاذا^(١) .
بعد ذلك ، أبدى السلطان رغبته في الزواج بأرملته واسمها «مهر النساء»^(٢) .
بنت غياث الدين الطهراني ، وكان واقعا في حبها من قبل ، ولكنها رفضت
أولا ، ثم قبلت أخيرا فتزوجها ، وسماها «نورجهان» ، أى نور الدنيا ، وهنا



نورجهان

دخل في بلاط السلطان عامل جديد ، أو عنصر جديد كان له أثر كبير في
توجيه سياسة الدولة ، وما حدث فيها من كثير من الفتن والأحداث .

(١) هكذا روى جهانكير نفسه . أما الروايات الأخرى فتقول إنه أرسل قطب الدين ليقنع
«شيراكن» بتطليق زوجته الجميلة ليتزوجها السلطان ، فلما سمع هذا الكلام رفض وتآمر وقتل
قطب الدين ، وهذه الرواية أقرب إلى التصديق للظروف التي صاحبها ، ولتزوج جهانكير
بزوجته بعد قله

(٢) جاء أبوها إلى الهند من طهران ، وعرفت في أكبر آباد العاصمة بالجمال البارع ففتن بها
جهانكير وكانت من خيار النساء حسنا وعلما وعتلا ، اخترعت أمورا كثيرة في الزى والحلى والطور ،
وكانت ماهرة في الرمي والسياسة ، شغلت لدولة بأطماعها وأغراضها ، وأثارت الخلاف بين أبناء
زوجها ، وانتهى أمرها بأن قبض عليها أخوها «آصف» حين مات جهانكير في لامور فكثت فيها ،
وأكرمها شاهجهان طول حياتها حتى توفيت سنة ١٠٥٥ هـ - ١٦٤٥ م ، ودفنت قريبا من
مقبرة زوجها (نزهة ج ٥ ص ٣٠٢)

كان جهانكير يحب نورجهان ، وكان جماعها ساحراً ، فأصبح أسيراً لها منذ تزوجها وأصبحت هي وكأنها الملك الحقيقي ، تصدر الأوامر بتوقيعها مع توقيع الملك ، وضربت النقود باسمها واسمه معاً ، وجلست في شرفة قصرها تستقبل الأمراء والأعيان والأشراف كما يفعل الملك ، وأصبح لأهلها والمتصلين بها النفوذ الأكبر في المملكة . فصار أبوها رئيساً للوزارة بلقب « اعتماد الدولة »^(١) ، وأخوها « آصف » رئيساً لتشريفات الإمبراطور ، فانتقلت السلطة الحقيقية إلى نورجهان وأهلها والمقرين إليها ، بينما كان جهانكير متيماً في حبه غارقاً في شرابه ولهوه . فأتبع لها بذلك أن تتدخل في ولاية العهد ، وأن تعمل على تفضيل أحد أبناء جهانكير على إخوته الآخرين . فترتب على ذلك فساد وحرب بين الإخوة .

كان « خرم » ابن الملك قائداً مظفراً ، وشخصية ممتازة بين أبنائه ، وكان أكبرهم وأقوام نفوذاً لدى الأمراء والجيش ولدى أبيه أيضاً ، فعملت نورجهان على أن تستولى عليه فزوجته بابنة أخيها « آصف » وكان لها بنت من زوجها الأول الذي قتل ، فزوجتها لابن جهانكير الأصغر « شهربار » ثم بدأت تعمل على أن يكون زوج بنتها ولياً للعهد ، فثارت خصومة عنيفة بينها وبين « خرم » الذي رأى أنها تنتزع حقه الطبيعي في الملك بعد أبيه . باعتبارها أكبر أبنائه والقائد الذي أخضع الثورات ووطد الملك لآيئه ، على أن جهانكير تركهم في نزاعهم ، وأوصى بالملك من بعده لابن آخر هو « برويز » الذي لم تكن له كفاية بجانب أخيه ، فثارت ثائرة « خرم » وخرج على أبيه سنة ١٠٣٢ هـ - ١٦٢٢ م ، وحاول أن يستقل بولايتي بيهار وبنغال ، ثم ترك ذلك بعد ثلاث سنين ، واصطلح مع أبيه سنة ١٠٣٥ هـ - ١٦٢٥ م ،

(١) هو غياث الدين الطهراني الشيعي ولد ونشأ بایران وقدم الهند في أيام أكبر ، فنقرب إليه وتدرج في المناصب ، ثم لما تزوج جهانكير بنته هذه جعله وكيلاً عنه وأطلق يده في كل أمور الدولة ، توفي سنة ١٠٣١ هـ - ١٦٢١ م ودفن في لاهور .. (نزهة ج ٥ ص ٣٠٢) .

وإن كان ذلك قد ترك أثرا في نفس السلطان ، ثم نرى أن أحد القواد العظام «مهابت خان» - وكان قد تعقب خرم حتى قضى على ثورته وتولى أمر بنگال - كان محبوبا من الجيش ومن «برويز» ابن الملك بنوع خاص ، فساء ذلك نورجهان لأنها تحب «شهریار» زوج بنتها ، ونسبت إليه خيانات في عمله ببنگال ، فاستدعاه جهانگیر وكان في طريقه إلى كابل لإخضاعها فحضر مع بضعة آلاف من جنوده الشجعان ، وهناك في كشمير كانوا يعدون للجيش جسرا يعبر عليه ، ومر عليه أكثر جنود الملك ، وبقي منهم القليل ، فاتهمز «مهابت خان» الفرصة وهجم في جراءة على الملك وأسره سنة ١٠٣٦ هـ - ١٦٢٦ م وصار واقعا تحت سلطانه ، وإر كان قد أدى له ما يجب من التوقير والاحترام ، وظل شهورا على ذلك حتى استطاعت نورجهان بسياستها وبما انضم للملك من جنود أن تخلص الملك من سيطرة مهابت خان ، ففر إلى الجبال وطلب العفو ، فرأت نورجهان أن تعفو عنه لتسعمه أداة ضد «خرم» الذي كان يريد الفرار إلى إيران ، ثم رجع إلى الدكن حيث مزارعه وإقطاعه ، فذهب إليه وبدلا من تعقبه انضم إليه ، وأصبح من أنصاره وفي هذه الأثناء توفي «برويز» في «برهانپور» ، وقام بعد عنبر الحبشى في الدكن «ياقوت الحبشى» فأعلن الحرب على المغول ، فأرسل له جهانگیر جيشا وذهب هو إلى كشمير ليقضى فيها بعض الوقت كما هي عادة السلاطين ، وهناك عاوده مرض «ضيق التنفس» وكان شديدا ، فعادوا به ولكنه اشتدت به العلة وتوفي في الطريق في صفر سنة ١٠٣٧ هـ - ١٦٢٧ م^(١) .. ودفن في لاهور . وهكذا كان زواجه من «نورجهان» ذا أثر فعال في حياته وفي الأحداث والحروب التي منيت بها الدولة نتيجة لأطماعها وأهوائها .

جهانگیر فی نظر التاریخ

ذلك الذى قدمناه يكشف لنا جانبا من حكم جهانگیر، وما قام فى عهده من مشكلات وحروب .

وهناك جانب آخر يستحق أن نقف عنده طويلا حتى نرسم صورة كاملة له ولعهده من جميع نواحيه ..

جاء « جهانگیر » إلى الحكم بعد أبيه أكبر ، فوجد ملكا مستقرا ثابتا واسع الأرجاء ، لكنه وجد أيضا ما أثاره أبوه من أبحاث وأعمال وتناليد من الناحية الدينية كانت موضع غضب الكثير من رعيته .

ولم يكن جهانگیر على شاكثة أبيه من هذه الناحية ، فقد كان سليم العقيدة محترما للدين وتعاليمه وعلمائه ، فسارع بإبطال ما أثاره أبوه خلافا للشرعية الإسلامية ، فالغى فكرة الدين الإلهي والأفكار التى قامت حوله ، فهدأت بذلك نفوس المسلمين ، وإن كان لم يبلغ التقليد الذى يقضى بالسجود وتقبيل^(١) الأرض تحية للسلطان .

ومن المسلم به بين المؤرخين أن جهانگیر لم يكن فى عزم أبيه وقوة شخصيته ، بل كان يغلب عليه التردد والاستسلام لمن يثق به ، وكان مفرطا فى شرب الخمر وتعاطى الأفيون حتى أفسد صحته فى أواخر حياته ، كما كان مغرما بالصيد وتتبع الحيوانات ، وبحث خواصها واقتناء الغريب منها ، وكان مولعا كذلك بالتصوير بارعا فيه مشجعا عليه ، وكان حريصا على كتابة يوميات سجل فيها ما كان يمر به من حوادث فى صراحة ، وتسمى « توزك جهانگیرى » أى يوميات

(١) مماثراته فى تاريخ الشيخ أحمد السرهندي المشهور فى الهند بأنه مجدد الألف الثانى للشرعية أن بعض الحاقدين عليه وشوابه عند جهانگیر : أنه ما سجد للسلطان تكبرا ، فغضب عليه وسجنه فى قلعة « كوالبار » وكان شاهجان بن جهانگیر مخلصا للشيخ ، فأرسل له بعض خاصته يزيرون له أن يسجد للسلطان إذا حضر عنده ، وهو بضمن الأعراس بدو بعد ذلك . ولكن الكج أبى السجود فلبث فى سجنه ثم أخرجه السلطان بعد ذلك على أن يظل ملازما لمكره ، فلبث كذلك ثمانى سنوات حتى إذا نول شاهجان ترك له الحرية فماد لوطه (نزهة الخواطر ج ٢) .

جهانگیر ، ويتمثل فيها أدبه وبراعته في الكتابة ، إذ كان أدبياً شاعراً ، وقد ترك كذا كتاباً بالفارسية ضمنه نصائح لابنائه ، ويسمى « بندگانامه » ، لا زال معروفاً للآن ، كما أمر الشيخ محمد بن الجلال الكجراتى بترجمة القرآن للفارسية ترجمة متقنة لا تصنع فيها ولا زيادة .^(١)

وتعتبر يومياته من أهم ما تركه ، فإن مذكرات يكتبها الملك يوماً فيوماً ، يدون فيها حوادثه وخوافره ، ويكشف للناس ما استتر عنهم وراء الحجب الملكية لتعتبر من أمتع ما يقرأ ، كما تعتبر من أهم المصادر لمعرفة اتجاهات الملك ونفسيته ، ومن خلالها يمكن للقارىء أن يعيش معه في حربه وسيله ، في قصره الخاص ومع الناس ، في لحوه وجده ، في مجالس الحكم وفي ميادين الصيد يطارد الطيور والوحوش ، ويدون ملاحظاته عليها ، وما يزيد هذه اليوميات قيمة مادونه فيها من أشياء تؤخذ عليه ولم يحاول إخفاءها ، لذلك رأيت أن أضع أمام القراء نماذج منها في موضوعات متفرقة ليروا كيف كتب هذا الملك يومياته^(٢) :

« أول ما أمرت به بعد جلوسى على العرش تعليق سلسلة العدالة ، لأطلع بنفسى على شكاوى المظلومين .

« نهيت عن أخذ الجباية على الشوارع والأنهار باسم «تمغا» و «ميربحرى» نظراً إلى ضعف الناس وعجزهم ، وخشية من أن يدخل بعض الجنود دور الأهالى قهراً ويؤذوهم ، ويلين القاضى وأمير العدل جوانبهما للمعتدين ، .

« عملت من أول يوم نزلت فيه مدينة « أحمد آباد » على الجلوس كل يوم مع شدة الحر والسموم - بعد الفراغ من صلاة الظهر - فى شرفة على جانب البحر ساعتين أو ثلاثة ، لا يحول بينى وبين الناس باب ولا جدار ولا حارس ، وما تخلفت يوماً - حتى أيام ابتلاى بالوجع الشديد - عن حضور الشرفة ،

(١) نزهة الخواطر ج ٥ ص ١٢٢ وتاريخ هند لسيد هاشمى

(٢) نلا من مقال مترجم عنها فى مجلة ثقافة الهند سبتمبر سنة ١٩٥٠ م

ولو كان في ذلك حرمان لنفسي من الراحة والهناء .

• بفضل الله اعتادت نفسي السهر ، فلا أدع النوم ينهب أوقاتي إلا ساعتين أو ثلاث ساعات في اليوم غالباً ، فأفضي ما بقى من اليوم في الوقوف على أحوال الملك ، وذكر الله تعالى .

• لما توالى على الأنباء باعتداء بعض الموظفين والأغنياء على بنات بعض الضعفاء ، دعوت الشيخ بنارسي وغيث الدين خان وغيرهما من الأمراء الذين قهروا في حفظ الأمن ، فلما حضروا إلى « أكره » ، أمرت بحلق رؤوسهم ولحائم ، وإركابهم الحخير والطواف بهم في أزقات البلد وشوارعها ، .

ولم يخف جهانكسر شيئاً مما يفعله ، فتجده يدون في تفصيل مؤامره مع « راجا نرسنگ ديو » ، لقتل الشيخ أبي الفضل كبير وزراء أبيه أكبر ، خوفاً من أن يفسد بينهما مما سبقت الإشارة إليه ، ونراه يكتب في تفصيل طويل كذلك شربه للخمر ، وكيف زينها له أحد حاشيته بعد أن امتنع عنها حتى بلغ الخامسة والعشرين ، وكيف صار بعد ذلك مدمناً إدماناً أتلّف صحته وعقله ، وهو لا يستطيع التخلص منها حتى إذا ما ارتعشت يده من أثر الإفراط في الشرب تولى غيره رفع الكأس إليه ، ثم كيف أدمن على الأفيون بعد ذلك حتى مات . ومن يومياته التي تلفت النظر ما دونه عن رحلاته للصيد وملاحظاته الدقيقة لأنواع الطيور ، وعنايته بتدوين خصائصها الغريبة ، وتصويرها ورعايته لفن التصوير بوجه عام .

ويحسن أن نضع أمامك هنا بعض هذه اليوميات والملاحظات ، يقول :
• خطر بيالى مرة وضع قائمة لما صدته منذ بدأت الاصطياد إلى اليوم ، فأمرت بذلك مسجلى الأحوال وكاتبى الأخبار ، فوضعوا قائمة علمت منها أن مجموع ذلك ثمان وعشرون ألفاً وخمسمائة واثنتان وثلاثون رأساً من الحيوانات ، منها سبعة عشر ألفاً ومائة وسبع وستون رأساً من « صائدَى المختصة بى » . ثم ذكر بعد ذلك عدد كل نوع من الحيوانات المصيدة .

• أخبرنى الصيادون بأربعة أسود ، فقمّت إليها ومعى النساء و ، استأذنتنى

« نورجهان » بعد ما رأت الاسود ، فأذنت لها فأسقطت أسدين ، ورثما نحن كذلك إذ أطلقت على الباقيين وأردتهما في طرفة عين ، وما رأيت إطلاق الرصاص من الهودج وإصابة من غير خطأ كما رأيت ؛ فإن الهودج ينصب على الفيل ، والفيل لا يقيم ساكنا عندما يشعر بوجود الأسد بل يتحرك ، فطربت لذلك ، وأنعمت عليها بألف أشرفي ، وسوار من الماس يبلغ ثمنه مائة ألف أشرفي .

« أتوا بطائر ، من إحدى مزاياه أنه عندما يقبل الليل ينوط رجله بفرع أو بخشبة تنصب لجلوسه ، فيبيت معلقا مقلوبا مغردا طول الليل ، ويستوى عندما يطلع الفجر ، ولا يغترف من الماء شربة أبدا ، فإن الماء يفعل به فعل السم .

« أهدى نجل الملك « داور بخش » أسدا تآلف مع شاة ، فكانا في قنص واحد ، وكان الأسد يعاشرها معاشرة الحب ، ولما احتجبت عنه مرة عز عليه وازداد قلقه واضطرابه .

« ألفت الاسود وأنست حتى أصبحت تختلف إلى الناس من غير سلاسل ، وهم يأمنون إذاها ولا يحفلون بقربها .

أما براعته في التصوير وولعه به وتشجيعه له فيتين مما كتبه عنه . يقول عن دقة إدراكه للصور :

« لو كانت هناك صورة رسم وجهها مصور ، ورسم العين والحاجب مصور آخر فإنني أفطن للذي رسم هذا وذاك .

وأهدى إليه مرة صورة تيمور في مجلسه ومعه أولاده وحاشيته فسر بها كثيرا ، وقال عن مهديها « خان عالم :

« من حسن الحظ لخان عالم وسعاده أن وفق لهدية ثمينة كهذه تعد من نفائس الدهر ونوادره ، ثم كتب يقول :

« أرسلت « بشن داس » المصور - وكان وحيد عصره في صناعته - إلى

العراق مع خان عالم ليرسم صورة الملك . وصورة الأعيان والأمراء في دولته . وكانت الصورة التي وصلت منقوله عن أصل في العراق .

وهذا يعطينا فكرة عن مدى عنايته بهذه الناحية ، وقد جاء في كتاب الفنون الإسلامية^(١) « اعتاد هذا الامبراطور أن يصحب في رحلاته اثنين أو ثلاثة من مصوري البلاط ، لتسجيل ما يعرض أثناء الرحلة من الحوادث الهامة . ثم ذكر أسماء الفنانين الممتازين في عصره وإعجابه بفنهم .

ويقول « أصبح رسم الصور الشخصية في عصر جهانكير شاهاً إلى حد كبير ، وكثيراً مارسه الامبراطور ، إما بمفرده أو بين رجال حاشيته ... ومن بين الصور التي ترجع إلى عهده صورة رائعة بمتحف المتروبوليتان ، بأمريكا تمثل الامبراطور يراقب معركة بين فيلين ، كما يحتفظ بصور تمثل المتصوفين والزهاد وهم يتحدثون مع الأمراء والأشراف ، وبصورة أخرى تمثل جهانكير أثناء زيارته لأحد النساك ،

وتقول مجلة ثقافة الهند^(٢) عن تدوين هذه اليوميات :

« إنه سجل فيها مالا يستطيعه كاتب بخفة الفكر وخطف النظر مهما يكن مقتدرا ، فهو يكتب عن الولايات : طول البلاد وعرضها ، ويكشف عن مساحتها بالضبط ، وعن البلاد ومواقعها وطقسها ، منتجاتها وحاصلاتها ، وعن أثمارها وفواكهها وأشجارها وغدرانها وبحارها وأنهارها ، ثم عن عوائد الناس ومعاشرتهم مسبها مطبناً ملتقطاً من هنا وهناك ،

« وقد أكسبته هذه الرحلات الكثيرة التي اختلط فيها بشعبه عن قرب بصراً بأمور رعيته ، ومعرفة بدقائق أحوالها ، ووقفاً على أمثل الطرق في سياستها التي كانت تدعياً لسياسة أيه في عدم التفرقة بين رعاياه ، فكان الجميع يتمتع برعايته وعدله وعطفه . »

(١) تأليف . م . س . ديماند ، تعريب أحمد محمد عيسى ص ٧٢ باختصار .

(٢) سبتمبر سنة ١٩٥٠

جهانگیر والاجانب الاوریون

تولى جهانگیر الحكم، وقد ظهر على رقعة الهند ثلاث دول أوربية تتناحر من أجل السيطرة على البلاد صراحة أو باسم التجارة .

كانت هذه الدول هي البرتغال التي مضى على عملها في الهند أكثر من قرن، وطدت فيه أقدامها وصار لها مستعمرات، وانجلترا ممثلة في شركة الهند الإنجليزية، وهولاندا ممثلة في شركة الهند الهولندية، وقد تأسست هاتان الشركتان: الأولى سنة ١٦٠٩-١٦٠٠ م، والثانية سنة ١٦٠١-١٦٠٢ م، وبدأتا تنازلا ن البرتغال وتنافسناهما، وكل شركة تحاول أن تحظى بأكبر نفوذ عند الحكام، وأوفر قسط من التجارة، وإقامة المراكز لها داخل البلاد، وقد بدأ الإنجليز والهولنديون عملهم بغاية الخضوع، متخذين أساليب التجار في الحصول على أكبر نجاح في عملهم، وقد فتح أكبر بلاطه لهم، شأنه مع كل الناس، ولم يكن هؤلاء السلاطين يظنون مطلقا أن هؤلاء التجار سينزعون الحكم منهم يوما من الأيام، وكانوا لا يلقون بالا إلیهم، فها هم في ظاهر الأمر لإتجار بلبتمسون الرزق .

فلما جاء جهانگیر نظر إلیهم هذه النظرة، وكان ملك الإنجليز، جيمس الأول، قد عين سفيرا له عنده هو، هوکینز،، وحين ظهر هذا السفير ممثلا لملك انجلترا، وشركة الهند الإنجليزية معا لدى بلاط جهانگیر المغولى، قال له وزراء هذا الملك: إن ملك انجلترا ليس غير سيد جزيرة صغيرة، يسكنها صيادون بئسئون، فلما مضت سفتان ونصف على إقامته هنالك من غير أن يظفر بطائل عند الملك المغولى ضرع إلیه أن يعطيه كتابا لمولاه، فقال له الوزير الأول: إن مما لا يناسب قدر ملك مغولى أن يكتب إلی أمير صغير كملك انجلترا . بيد أن تلك الشركة الانجليزية لم تقنط، فالت بالدسائس براءة من الملك المغولى سمح لها فيها بأن تتاجر في سورت، فالتسعت أعمالها بالتدريج^(١).

(١) حضارة الهند لجوستاف لوبون ص ٢٤٢ .

وكان قد تغير سفير الانجليز و أصبح «توماس رو» بدلا من «هركينز» ، فاستطاع أساليبه أن يحظى بثقة السلطان سنة ١٠٢٤ هـ - ١٦١٥ م ، وكتب يقول : إنه اختلط مع عساكر الملك نحو ثلاث سنوات ، وكان يحظى بعناية خاصة من الملك ، وظل يسعى عنده لعدم فرض ضرائب على التجارة الانجليزية حتى فاز بمسعا ، فوق أنه في سنة ١٦١٦ م سمح لهم بتحسين ثغر سورت .

وفي عهده أيضا سنة ١٦١٦ - ١٦١٨ م افتتح الهولنديون مراكز تجارية في سورت وأحمد آباد ، وبعض مواقع على ساحل الدكن وفي أكرا ، أما البرتغاليون فقد ركبهم الغرور حتى جرت الحرب بينهم وبينه سنة ١٠٢٢ هـ - ١٦١٣ م فأصيبوا بهزيمة ساحقة ، مما اضطرهم لتحسين أساليبهم ؛ فتحسن حالهم واستفحل أمرهم .

وهكذا بدأ الأخطبوط الأوربي يمد خيوطه في عهد جهانگیر . ولذلك يأخذ المؤرخون عليه أنه رفع الضرائب عن تجارة الأوربيين ، مما سهل لهم التغلغل في البلاد ، ولم يكن أحد يظن في ذلك الوقت أن الهند ستقع في قبضة الانجليز في النهاية .

« شاهجهان » (١)



ممتاز محل



شاهجهان

توفي جهانگیر دون أن يستقر الأمر على خليفته من بعده ، وقد ترك ولدين يتنازعان الملك : « شهربار » الذي تؤيده « نور جهان » لأنه زوج بنتها ، وخرم ، الذي كان الجيش وأكثر الأمراء يؤيدونه ، وعلى رأسهم « آصف خان » (٢) أخو نور جهان ووالد زوجة خرم ، وكان هناك عدا هذين بعض الأمراء كابن خسرو وابن دانيال .

(١) هو الذي عرفناه سابقا باسم « خرم » بضم الحاء وتشديد الراء ، ومعناه سرور وقد ورد ذكره باسم « كرام » في مذكرة الأستاذ حبيب ، وهو خطأ أوقفته فيه الترجمة عن الإنجليزية . ومعنى شاهجهان أي ملك الدنيا ، وهو لقب أعطاه له أبوه بعد انتصاراته في الحروب .

(٢) هو الأمير أبو الحسن بن غبات الدين ، نشأ في بلاد الفرس ثم انتقل مع أبيه إلى الهند أيام أكبر . قربه جهانگیر وولاه « جونپور » بعد أن تزوج بأخته ، وهو أبو « أرجند بانو » أو ممتاز محل التي تزوجها شاهجهان والتي اشتهرت باسم « تاج محل » والتي بنى لها شاهجهان المقبرة الخالدة التي عرفت باسمها في « أكرا » وكان له أثر في تولية شاهجهان بعد أن قبض على أخته وعلى الأمراء . ولذلك قربه السلطان كثيرا حتى كان يحذنه « بالعم » وفوض إليه أموره . وكان عالما بارعا شجاعا كريما ، توفي سنة ١٠٥١ هـ - ١٦٤١ ودفن بلاهور .

وكان « خرم » في الدكن شبه منفي ؛ فقد كانت هناك جفوة بينه وبين أبيه ،
وحينما وصله خبر وفاة أبيه بالبريد السريع عجل بالعودة إلى « أگرا » ،
في الوقت الذي قام فيه آصف خان بالقبض على أخته « نور جهان » ، في لاهور
بعد احتكاك بينهما ؛ بسبب سعيها لتولية شريار ، كما قبض على شريار وأبناء
خسرو ودانيال حتى خلا الجو لختنه « خرم » .

وكان خرم أو شاهجهان كما لقبه أبوه قائدا ممتازا . قال عنه السير « توماس
رو » السفير الانجليزي في بلاط المغول « إنه لم ير شخصية أثبت ولا أشد رزانة
من شخصيته ، وكان دائما عابس الوجه ، ولم يشاهد مرة مبتسما ، ولم يكن من
المستطاع قراءة وجهه ، وكان له أنصار كثيرون في حاشية أبيه وفي الجيش
كذلك ، وهذا كله مهد له السيل للوصول إلى العرش برغم مكاييد « نور جهان »
وطمع ختنها « شريار » ، ولما وصل إلى « أگرا » نودي به ملكا على الهند ،
وتسمى باسم « محمد شهاب الدين شاهجهان » ، وذلك في جمادى الآخرة سنة
١٠٣٧ هـ - ١٦٢٨ م .

ولم تخل أيامه من المتاعب والحروب برغم ما كان يعم الدولة من الرخاء
والرفاهية ، فقد خرج عليه « خان جهان » ^(١) في أول أيامه بالحكم ، وقام بثورة
عليه في مالوا وشمال الدكن ، فخاربه حتى اضطر للتسليم وطلب العفو ، فعفا عنه
وولاه أمور الدكن ، وبعد مدة ألحقه بمجلسه وقربه إليه ، ولكنه برغم ذلك
لم تطمئن نفسه إلى الملك وكرمه . ففر وأعلن العصيان في الدكن ، وأصبح
مصدر قلق للدولة ، استعان بملوك الدكن المستقلين ، وأخذ يحرضهم على
حرب المغول ، فاستجاب له مرتضى نظام شاه ملك بيجاپور ، فذهب
شاهجهان على رأس حملة إلى هناك ، فلم يثبتوا أمامه ، ولجأ خان جهان إلى
الفرار ، وكان معه قلة من الفوارس الشجعان الذين ما فتئوا يحاربون معه

(١) هو « خان جهان » بن دولت خان اللودي تقرب إلى دانيال ثم إلى جهانكير ، وتدرج
في المناصب ، وكان جهانكير يعتمد عليه ، ويحبه حبا مفرطا لا يتصور فوقه وبعد وفاته وتولى
شاهجهان توجس منه خيفة فخرج عليه ١٠ هـ من نزعة المواطن ج . هـ ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

أينما سار حتى قتل في إحدى المواقع سنة ١٠٤٠ هـ - ١٦٣٠ م ، وكان يريد الذهاب إلى غربي الهند والاستعانة بالآفغان هناك .

في بيجاپور وكولكنده

احتفظت هاتان المملكتان الإسلاميتان باستقلالهما في جنوب الدكن ، بعد أن ضم السلطان أكبر إلى ملكه ممالك : برار وبيدار وأحمد نگر ، وإن كانت الأخيرة قد انتقضت على المغول مرارا ، وكبدتهم خسائر كبيرة حتى استقر فيها الأمر لشاهجان تماما ، وأصبحت قاعدة قواته في الجنوب سنة ١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م ، وقد مر بنا ما قامت به بيجاپور من مساعدة للنائر خان جهان ، بل لغيره أيضا من الهندوس ضد شاهجهان ، مثل ما فعلت مع أحد المراهة الذي لم يعجبه تسليم أحمد نگر ، فقام ضد المغول بمساعدة بيجاپور . أما كولكنده (١) فقد كان ملكها شيعيا يسب الخلفاء الراشدين ويتبرأ منهم ، ويذكر اسم شاه إيران في خطبته ويناوي المغول ، لذلك قرر شاهجهان تجريد حملة كبيرة لاختضاع هاتين الدولتين ، فذهب الجيش أولا وحاصره بيجاپور ، ولكن القحط والوباء جعلتا الجيش المحاصر يفك حصاره عنها ، ورجع شاهجهان ، وترك محله في القيادة . مهابت خان ، الذي قام باختضاع فتح خان . في أحمد نگر نهائيا كما سبقت الإشارة إليه .

ولما توفي مهابت خان ، وقام أحد المراهة بالثورة على المغول قرر شاهجهان الذهاب بنفسه على رأس الجيش ، لعدم كفاية ابنه . شجاع ، للوقوف أمام هؤلاء الأعداء ، وكان ذلك سنة ١٠٤٦ هـ - ١٦٣٦ م ، واتخذ من دولت آباد في مملكة أحمد نگر مقرا لقيادته ، وأرسل الرسائل للملكي بيجاپور وكولكنده ، حيث طلب من الأول . عادل شاه . عدم مساعدة المفسدين والنائرين وإبعادهم عن مملكته ، وطلب من الثاني أن يؤدي له الخراج ، ويذكر اسمه في الخطبة بدل شاه إيران ، ويمتنع عن أعمال الشيعة من سب الخلفاء

(١) مكانها : في مملكة جيمر آباد السابقة .

الراشدين والتبرؤ منهم ، فاستجاب له هذا الملك ، أما عادل شاه البيجاپورى فلم يستجب ، فاجتاح بلاده ، وقضى فى طريقه على المراهتى الثائر ، واضطر عادل شاه إلى الخضوع وتعهد بدفع الخراج للغول . وبذلك بدأت سيطرة شاهجهان على ما بقى من الدول الإسلامية فى الجنوب ، حيث أصبحتا شبه تابعتين له واقعيتين تحت نفوذه . وبعد أن أنتم شاهجهان ذلك رجع إلى أكرا ، وترك أمور الدكن فى يد ولده ، وأورنگزيب ، سنة ١٠٤٧هـ - ١٦٣٧م .

مع البرتغال :

كان البرتغال يقيمون مراكز لتجارهم فى أماكن مختلفة ، وكان لهم مركز فى « هوگلى » ، بالبنغال قريباً من كلكتا ، وانهزوا فرصة تسامح ملوك المغول معهم ومع غيرهم من الإنجليز والهولنديين فأخذوا يحصنون مركزهم فى « هوگلى » ، ويتدخلون فى شئون الحكم ، وحارل والى البنغال أن يذهب عن عملهم ، ويردهم عن غيرهم ، ولكنهم استمروا فى غوايتهم مفترين بما دفعهم وأسلحتهم الحديثة ، فأمر شاهجهان واليه أن يهجم عليهم ويتزعزق القلعة منهم ، ويحرمهم من امتيازاتهم التجارية ، فنفذ الوالى أمر شاهجهان ، وأسر أربعائة من رجالهم ، وأراح البلدة من شرورهم وغرورهم ، وكان ذلك سنة ١٠٤٢هـ - ١٦٣٢م ، وقامت بعض ثورات أخرى كما حدث من « راجا بندهيل كهنده » ، وقد انتهت بقتله وخضوع بلاده . وكما حدث من سكان التبت الذين سبوا بعض المتاعب لكشمير ففضى على متاعبهم .

أما قندهار فى أفغانستان فكانت قد خرجت من يد المغول إلى شاه إيران ، وظلت تابعة لهم حتى قام سوء تفاهم بين واليها « على مردان »^(١) ، وبين

(١) هو الأمير على بن على الشيعى تولى أمر قندهار بعد والده من قبل الدولة الصفوية فى إيران سنة ١٠٣٤هـ - ١٦٢٤م فى أيام عباس شاه الصفوى ومثل ١٢ عاماً حتى إذا تولى عباس شاه وقام بالملك حفيده - وكان ظالماً توجس منه على شراً فأنهم إلى شاهجهان بولايته فقدره وولاه على كشمير وتوفى بها سنة ١٠٦٧هـ - ١٦٥٤م وقيل جثته إلى لاهور اه . (نزهة ج ٥) .

شاه إيران أدى إلى أن ينضم على مردان إلى شاهجهان ، وبذلك عادت قندهار إلى الهند دون أن تراق فيها قطرة دماء ، وقد كان لهذا الرجل ، على مردان ، أثر كبير في فن العمارة وتنسيق الحدائق وحفر الترع في الهند ، مما لا يزال يذكره التاريخ بالإعجاب ، وكانت لا تزال في دلهي قناة تحمل اسمه إلى عهد قريب ، وكان انضمام قندهار سنة ١٠٤٨ هـ — ١٦٢٨ م على أنه فقدتها بعد ذلك في سنة ١٠٥٩ هـ — ١٦٤٩ م .

عصر شاهجهان

كان عصره عصر رخاء ورفاهية لم تشهد الهند له مثيلاً من قبل ، وساعد على ذلك ما تجمع في خزائنه من الثروات الضخمة التي خلفها أبوه وأجداده . وشاهجهان عملاق في التاريخ ، وسيظل عملاقاً ، لا بحروبه وانتصاراته ، ولكن بآثاره الفنية الرائعة التي ظلت وستظل عنوان صدق على الرقي الذوقي والفني ، والازدهار المالي في عهده ، مما لم تره الهند من قبله ولا من بعده .

وإن الإنسان لينظر إلى هذه الآثار والمباني الكثيرة فتروعه ضخامتها وكثرتها ، ولكن حينما ينظر إليها نظرة دقيقة ويتفحص الفن الرائع الذي قامت عليه ، والذي يراه ماثلاً في كل كبيرة وصغيرة وعظيمة ودقيقة فيها ، فإنه يقف حائراً مذهولاً أمام القدرة المالية والفنية التي خلفت لنا هذه الآثار التي تعد حقاً من معجزات الفن والزمان .

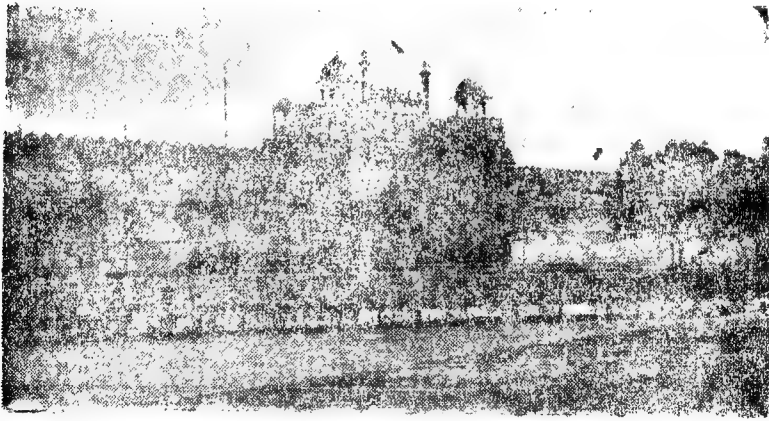
وإن القلم مهما كتب وأجاد . وأنفق من الزمان والقرطاس في تصوير هذه الآثار وعظمتها ، فإنه لا يمكنه أبداً أن ينقل الإحساس الصادق الذي يغمر الإنسان حين يرى هذه الآثار ، ويمشي بينها ويمجمل طرفه بين آياتها ، بل يتعقد لسانه ، ويمجمل بيانه عن أن يتناول فيحاول أن يحدث الناس عنها حديث حسه ونفسه .

ذلك كان إحساسي حين شاهدها ، وقضيت وقتاً بسيطاً بينها بعد أن قرأت

عنها .. برغم أنني لم أملك من الوقت ما يتيح لي تماما الوقوف عليها كلها أو على دقائقها .

تلك كانت نظرتي ، ولو أن رجال الفن والعمارة وقفوا موقفي ، ونظروا ما نظرت لأحسوا أكثر مما أحسست ، وقدروا أكثر مما قدرت ، ودهشوا أكثر مما دهشت ؛ ذلك لأن إرهاب حسهم في فهمهم ، وعمق تقديرهم ومعرفتهم يجعلهم أكثر إعجاباً وتقديراً لهذا السلطان الفنان الذي ارتفع بذوقه إلى هذا الحد ، وهؤلاء الفنانين والمهندسين الذين بلغوا في إبداعهم إلى هذا السمو ، ولا يعرف الفضل من الناس إلا ذروه ...

هذه الآثار تتمثل في القلعة الحمراء في دلهي ، أو دلال قلعة ، كما يسمونها هناك ، والمسجد الجامع المقابل لها ، ومقبرة تاج محل في « أكر » .

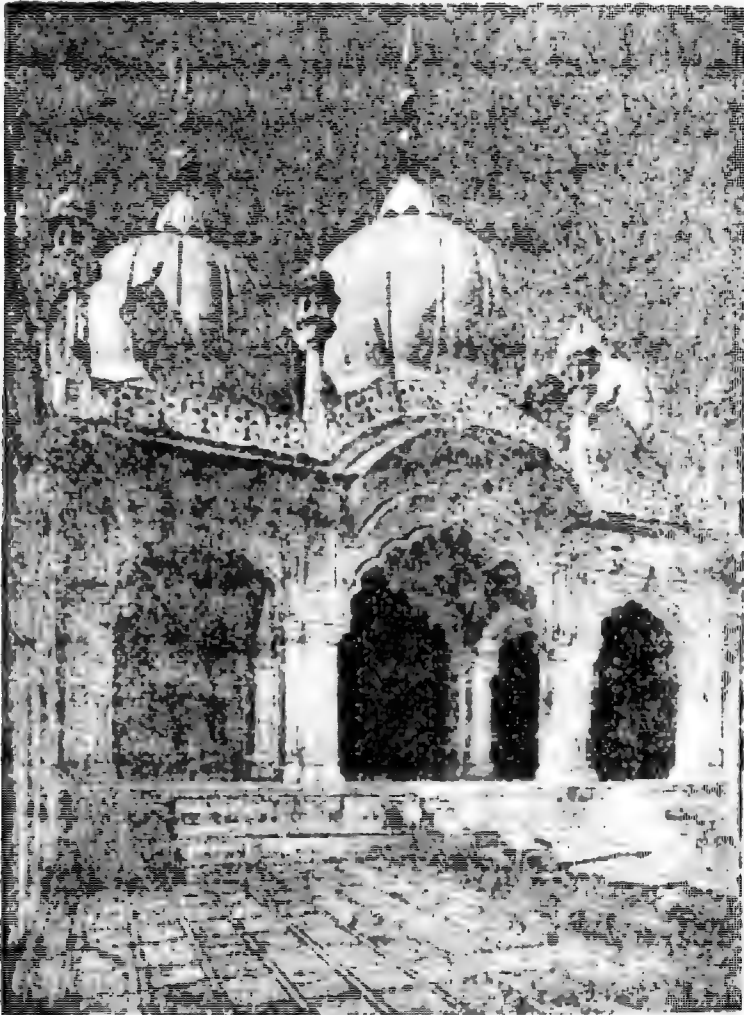


القلعة الحمراء بدلهي

أما القلعة الحمراء فهي ذلك البناء الضخم الفخم الذي بناه لسكانه ، وبني سورته من الحجارة الحمراء ، والذي اشتمل على أمكنة متعددة لقيام الملك ونسائه وحاشيته وجنوده ، ومجلسه الخاص العام ، وعلى مسجد يعتبر تحفة في عالم البناء ويسمى « مسجد اللؤلؤة » من الرخام الخالص ، وإن كان صغيراً . وقد زرتها فتعبت من التنقل فيها وراغني ذلك التفنن في البناء وفي الترف . والقلعة تقع على شاطئ نهر جمنا مثل القلعة الحمراء التي بناها أكبر في « أكر » .

حتى في شكلها الخارجى . كانت دائما مقر سلاطين المغول في دلهى . نزع
الإنجليز منها آخر ملك مغولى « بهادور شاه » واحتلوها ، وظلوا بها حتى
خرجوا من الهند فتركوا بها كثيراً من مظاهر التخریب والنهب حيث أخذوا
كل ما بها من أشياء وأحجار ثمينة . يقول جوستاف لوبون (١) :

« وفى سنة ١٦٣٧ م استقر شاهجهان بدلهى ، وأنشأ فيها القصر الفخم



مسجد الأول داخل القلعة الحمراء

(١) فى كتابه حضارة الهند ٢٢٤ ص .

الذى لم يسمح الإنجليز بغير بناء جزء منه ، فيعد مع ذلك من أجمل مباني الدنيا ، وقد أقامت فيها الحكومة الهندية متحفا يضم بعض آثار وصور الملوك المغول ، وفي فناء القلعة الواسع تقيم الحكومة الآن حفلاتها الرسمية لكبار زوارها من الخارج . وفي المناسبات الرسمية كذلك .

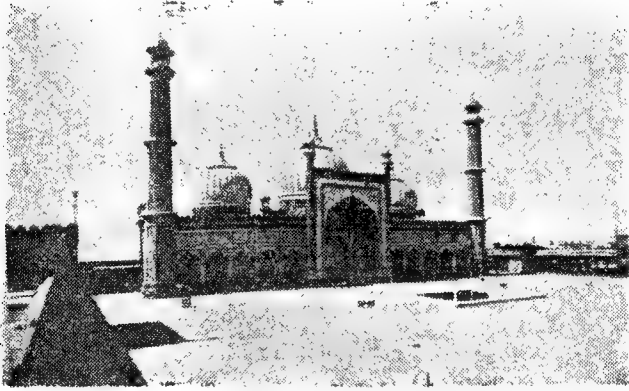
أما المسجد الجامع أو جامع مسجد ، كما يسمونه في الهند فيعتبر أنفم مسجد بناه سلطان في الهند كلها ، يقوم على مرتفع من الأرض عما حوله ، وأكبر مساحته غير مسقوف ، يقوم وسطها حوض كبير للرياء ، والجزء الغربى منه هو المسقوف ، يقوم سقفه على أبنية معقودة ضخمة ، أرضه من المرمر والجدران مكسوة بالمرمر كذلك إلى ثلاثة أذرع ، ومنبره كله من المرمر الأبيض الناصع ، وعلى جدرانه وأعمدته الضخمة يتجلى الفن الرفيع والمجود الجبار الذى بذل فى تحليته .

أمر شاهجهان ببنائه سنة ١٠٦٠ هـ - ١٥٦٠ م ، وعند البدء فى تأسيسه أعلن الملك فى الناس أن الذى يتقدم لوضع الحجر الأساسى له هو الذى لم تفته التكبيرة الأولى فى صلاة الجماعة ، ولا صلاة التهجد . فسكت الناس جميعا ، ثم تقدم الملك وقال : الحمد لله ، فإنى لم يفتنى من ذلك شىء طول العمر ، ولكنى أسف لإذاعة سرى المكتوم ، وقد تم بناؤه فى ستة أعوام ، وتنافس أمراء الأقاليم فى إرسال الأحجار والمرمر لبنائه .

وقد افتتح أول مرة بصلاة عيد الفطر فيه فى موكب ملكى حافل ، ثم توالى التحسينات فيه بعد ذلك ، وله ثلاثة أبواب : الباب الكبير الشرقى المواجه للقلعة وباب شمالى يقابله ثالث جنوبى ، يصعد إليها بدرجات كثيرة .

وكان المسجد فى أيام الثورة سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م مثابة النابض ومجتمعهم ، يخطبون فيه ويثيرون الشعب ، ويعلنون القرارات عند الإنجليز ، ولذلك احتله الإنجليز بعد أن انتصروا على النابض فى دلهى ، ومنعوا الصلاة فيه ، وظل كذلك حتى عام ١٢٧٩ هـ - ١٨٦٢ م . وهو الآن ينص بالمصلين كل وقت لا سيما فى آخر جمعة من رمضان ، ويسمونها جمعة الوداع ، فى الهند ، ويقع

حول جدرانها من جميع النواحي دكاكين صغيرة ، أكثرها إنه لم يكن كلها من الخشب تشوه منظر المسجد ، ولذا أرادت حكومة الهند إزالتها ، لولا أن اعتراضها أمر تدير العيش لمئات من التجار المسلمين الذين يقيمون متاجرهم البائسة حوله ، ومن الناحية الشرقية بينه وبين القلعة فضاء كبير يمتد مئات الأمتار ، زرع بالحشائش الخضراء ^(١) ومن الناحية الجنوبية من هذا الفضاء تقع حديقة وادوارد ، الكبيرة التي لا يزال اسمها والتأثيل فيها تذكر الناس بعمود الإنجليز السوداء ، وظلمهم للشعوب وسيطرتهم على الهند .



المسجد الجامع بدهلي

وحين زرت المسجد عقب وصولي إلى دلهي في يناير سنة ١٩٥٦م مع صديق الأستاذ محمود فهمي زكي المذيع المصري بالإذاعة الهندية ، والأستاذ محي الدين ألواني الهندي المتخرج من الأزهر والمذيع بالإذاعة الهندية العربية كذلك ، أخذنا يدي وسرنا إلى الزاوية الشمالية الشرقية من المسجد حيث تقوم هناك حجرات تضم بعض الآثار ، منها - كما يقولون - شعرات من الرسول ، وأوراق من مصحف يقولون إنه بخط الإمام علي ، وغير ذلك . فرأينا هذه الأشياء وأخذ بعض الخدم يشرحون ويبالغون ، وكلامهم مثل كلام بعض

(١) وقد دفن في هذا الفضاء الواسع مولانا أبو الكلام آزاد وزير معارف الهند والمكان الذي كان يحط فيه قبل وفاته بأسبوع في مؤتمر شبلي بطال بجبل الافة الأوردية لغة رسمية ثانية ، وعلمت أن الذي اختار له هذا المكان هو صديقه رئيس الوزراء جواهر لال نهرو .

الناس في مصر وغيرها عن هذه الأشياء ، لذلك استمعت إليهم ، ثم انصرفت وأنا أقول : هنا مثل ما هناك ، والله أعلم بحقيقة الحال .

وبما لفت نظري هذه الكثرة من أسراب الحمام التي تغطي صحن المسجد والمتشابهة في اللون ، فذكرتني بحمام الحرمين الشريفين . والناس يتصدقون على هذا الحمام مثلما يتصدقون على حمام الحرمين . بالحبوب يبذرونها له تقرباً إلى الله . وقد شاهدت بعض العمال يقومون فيه ببعض ترميمات ، فسألت أحد الأصدقاء الذي كان يرافقتي ، فأخبرني أن الحكومة الهندية اعتمدت مبلغاً كبيراً لإجراء إصلاحات وترميمات به تشمل تغيير حجارة الأرض كلها ، وبعض الحدران ، وهذا المسجد من أغخم الآثار الإسلامية . ويزوره كل مسلم يأتي إلى دلهي ، ويصلي فيه ولا سيما ملوك ورؤساء الدول الإسلامية ، ولهذا كله عذبت الحكومة به ، وخصصت له هذا المبلغ الضخم الذي قيل لي عنه إنه ٦٠٠ ألف روبية على عدة أعوام .

أماناج محل : فهو الأثر الفني الرائع الذي خلفه شاهجهان ليكون أعجوبة الدنيا من بعده ، هو ذلك البناء الذي أعده لتدفن فيه زوجته المحبوبة أرجمند بانوا^(١) .

أقامه خارج مدينة « أكرا » في الناحية الشرقية منها على شاطئ نهر « جهنا » وأول ما يلتفت نظرك حين تترك الباب الخارجي ، تلك المباني التي أقامها على الجانبين للعمال الذين اشتغلوا في إقامته ، حتى إذا مرت قليلاً وملت إلى اليسار

(١) أرجمند : اسم فارسي معناه جدير كف . لائق . وبانوا : لقب يضاف لأمراء مثل : بيكم ، خاتون : وهي بنت أمراء خان شقيق نورجهان كانت نادرة الحدوث والجلل تزوجها في عهد أبيه وسنها عشرون سنة ، فولدت له أربع أبناء وثلاث بنات ، وتوفيت سنة ١٠٤٠ هـ - ١٦٣٠ م وسنها سبع وثلاثون سنة في مدينة برهانپور شمال الدكن فدفنوها في بلدة « زين آباد » ، ثم نقلوا جثمانها بعد ستة أشهر إلى « أكبر آباد » في ضواحي « أكرا » وبني شاهجهان على قبرها هذا الأثر الذي تحدث عنه ، ثم دفن بجوارها بعد وفاته ، وسببت المتبرة باسمها جدهم يعرف بسيط فاشتهرت باسم « تاج محل » .

متجها للشمال رأيت بوابة كبيرة كسيت بالمرمر وكتب على جانبيها وأعلامها



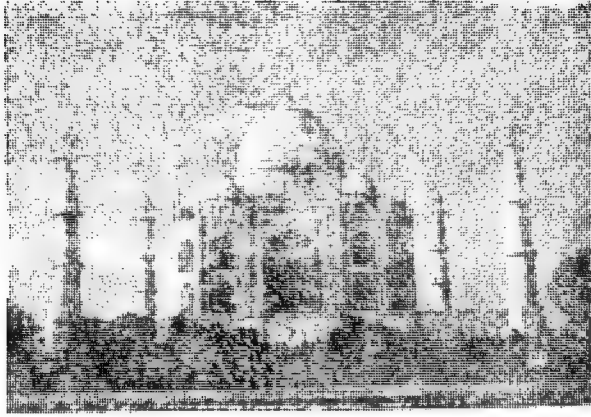
المؤلف باللباس الهندية عند زيارته لتاج محل
في ديسمبر سنة ١٩٥٦

سورة الفجر ، وانتهت بقوله تعالى
فادخل في عبادى وادخل جنتى ،
وقد نحتت الحروف من حجر أسود
يسمونه حجر موسى ، وهى آية فى حسن
الخط الثلث ، أعجبت به أيما إعجاب ،
وزاد عجبى حين لفت نظرى المرشد
الذى تولى لنا الشرح إلى أن الكاتب
راعى فى كتابته خداع النظر الذى يرى
الأشياء البعيدة صغيرة نوعا عما
تكون عليه وهى قرية ، فكان كلما
ارتفع مكان الخط كبره قليلا ، وهكذا
يكبره شيئا فشيئا بحيث يناسب
فى رأى العين مع الحروف القريبة ،
لتبدو كلها صورة واحدة غير متفاوتة
فى الصغر والكبر ، وحول ذلك

فحوش بدبعة على شكل أشجار وأوراق ؛ فإذا خطونا خطوات
داخل البوابة رأينا على بعد قريب باب المقبرة المرتفعة عن الأرض يسامت
للبوابة الخارجية تماما ، وتم رقعة صغيرة بينهما ، قامت فى وسطها تماما فوارات
متوازية البعد والارتفاع ، عددها أربع وعشرون ، كانت فى أيام السلاطين
تقور بماء الورد الذى يمداه من القلعة القائمة قريبا منها ، فيعطر الجو ويكسوه
منظرا رائعا ، ولا تنطلق فيها المياه الآن إلا يوم الأحد وهى مياه عادية طبعا ،
وعلى جانبي القناة عمران ومنزهان عن يمين وشمال امتاز بحسن التنسيق ، وسلامة
الذوق ككل شيء فى هذا المكان .

فإذا سرنا فى أحد الممرين ، واجهنا بناء المقبرة ورأينا على اليسار مسجدا

من المرمر هو مسجد اللؤلؤة ، وعن اليمين بيتا للضيافة ، ورأينا جنوبهما قليلا مبنيين للموسيقى عن اليمين والشمال أيضا ، وكل هذه المباني متناسقة متشابهة ، ولا عجب فقد كان عنصر التنسيق والتشابه هو الأساس الذي قام عليه بناء هذا الأثر الخالد الممتاز .



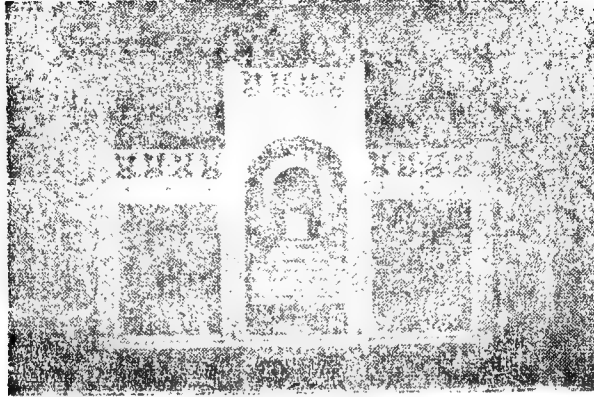
تاج محل

وبعد أن سرنا نحو مائة متر صعدنا درجات ، وخلعنا أحذيتنا ، فرأيت أن المبنى العام للقبرة يأخذ شكل مصطبة واسعة مربعة أقيم البناء في وسطها وبقي حوله من جميع الجهات فضاء ، وفي كل زاوية من زوايا المصطبة الأربعة قامت منارة عالية مكسوة بالمرمر الأبيض ارتفاع كل منها ١٩٠ قدما ، وقد منعت الحكومة صعود الزوار عليها ؛ لتكرر حوادث الانتحار من الراغبين في الموت سريعا .

والبناء تتوسطه قبة كبيرة تقوم فوق القبر . وكان يعلوها هلال وحلية من الذهب زتهما كما سمعت ٣٢ منا ، والفكرة السائدة بين الناس الذي سمعتهم هناك أن ذلك كان من ذهب ، فأخذه الانجليز ووضعوا بدله نحاسا وطولوا الهلال بحليته نحو ٣١ قدما .

والمدخل الرئيسي للضريح يتخذ شكل قبو مرتفع يمشى تحته الإنسان خطوات ، فيجد الباب الذي ينفذ بنا إلى الداخل ، وقد كتب على واجهة القبر

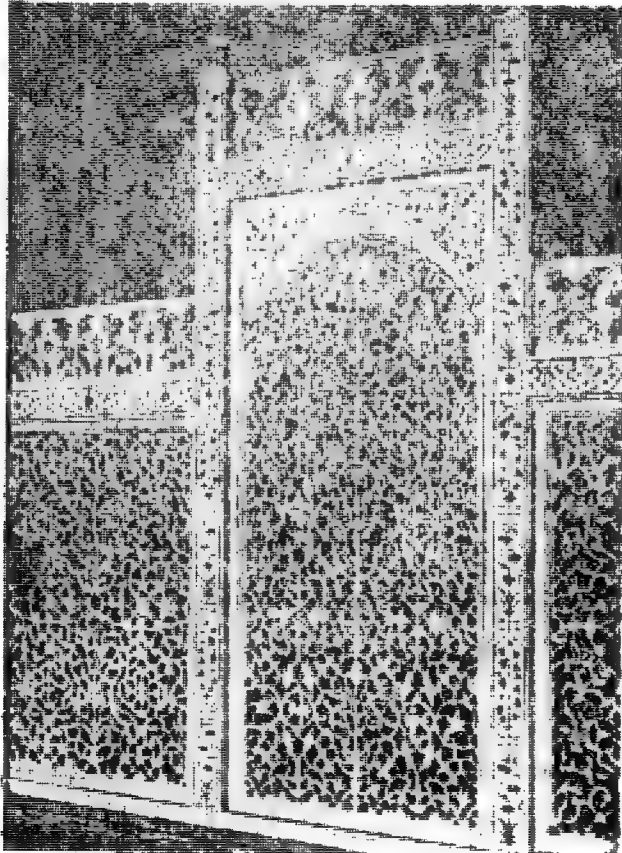
وجانبه أيضا سورة يس والقرآن الحكيم ، وعلى الباب الصغير كتبت سورة
« إذا الشمس كورت » بنفس الخط والنظام والحجر الذى وصفناه سابقا على
الباب الخارجى .



باب مقبرة تاج محل من الداخل

وحين تركنا الباب وجدنا أمامنا فتحة بها بضع درجات تنزل إلى الطابق
الأرضى ، فنزلنا فى انحناء كأننا أمام الملك والمملكة الراقدين ، نحيمهما كما كانا يحبان
فى دنياهما ، وتفادينا بهذا الانحناء أن تصطدم رءوسنا بالمرمر الذى كسيت
به أرضية الطابق الثانى . . فوجدنا أمامنا قبرين ، على كل منهما تركيبة جميلة
من المرمر من قطعة واحدة ، إحداهما كبيرة فوق قبر الملك ، وعلى يسارها
تركيبة أصغر منها على قبر زوجته ، وقد زينت كل منهما بنقوش من الأحجار
الثمينة الملونة فى غاية الإبداع على شكل الأزهار والأوراق . وقد وضع على
ضريحه مقلة ودواة من المرمر المنقوش وكتب عليه « مرقد مطهر أعلى حضرت
فردوس آشياني صاحب قران ثانى شاهجهان بادشاه طاب ثراه توفى سنة
١٠٧٦ هـ . أما قبرها فقد كتب عليه من فوق قوله تعالى « قل يا عبادى الذين
أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . الآية » ، وقوله تعالى « كل نفس
ذائقة الموت » ، وعلى الجوانب كتبت أسماء الله الحسنى . وعلى واجهة المقبرة كتب
عليها « مرقد منور أرجمند بانويگم مخاطب بممتاز محل توفيت سنة ١٠٤٠ هـ » .

وصعدنا بعد ذلك الدرجات التي نزلناها ، فوجدنا في الطابق الذي يعلو هذا تركيبين يحاكيان التركيبتين الموجودتين تحت ، ويسامتاها ، يحيط بهما سور من المرمر اللامع المشبك البديع والدقيق الصنع . قيل لنا إنه من صنع الفنين الصينيين . كما قيل لنا إن شاهجهان صنعه أولا من ذهب . ثم عاد فرفعه ووضع بدله المرمر خوفا عليه من السرقة ، وقد تدلى من سقف القبة قنديل فوق القبرين ، قيل لنا إنه من صنع مصر أهدها ، لورد كيرزون . . أما الأبواب فقد حليت بنقوش معدنية ، قيل إنها كانت من الفضة فأخذها الإنجليز ، ووضعوا بدلها المعدن الخالي ، وقد حليت التركيبتان كما حليت الجدران بأشكال الزهور والأوراق بأغصانها وألوانها ، حتى لتجد في الزهرة أو الورقة عدة ألوان ، بل



جزء من المقصورة الرخامية في تاج محل بمدينة أجرة

تجد في الورقة تلك العروق التي تمتد فيها ، وقيل لنا إن كل هذه الأزهار والأوراق قد صنعت من الأحجار الكريمة ذات الألوان الطبيعية التي تحاكي لون الورقة والزهرة . وعدد الأحجار الموجودة في الورقة نحو ستين حجرا من صنع الإيرانيين ، وبعضها جاء من إيران أيضاً ، وعددها في الزهرة نحو ثلاثين .

وفي أعلى تركيبها كتب « يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث . إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . . الآية » .

وفي الجوانب كتب « إن الأبرار لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون . الآيات . . . » . وقيل لنا إن الذى قام بكتابة الخط هو « أمانت خان شيرازى » ، وعلى جوانب القبرين ثمانى حجرات مئمنة الشكل متشابهة ، خصصت لقراءة القرآن والأوراد والأدعية ، ولا حظت كسرا بأحد الجدران ظهر منه الآجر الداخلى للجدران بعد أن زالت عنه قشرة المرمر ، قيل إن أحد المهندسين الإنجليز فعله حتى يتبين ما وراء المرمر ، وظل كذلك حتى الآن . . ورأيت عمال الحكومة يقومون ببعض إصلاحات وترميمات حرصوا على أن يرمزوا لها بحرف N الإنجليزى حتى يتميز الأصل من الترميمات الحديثة .

وكان المرمر الذى استعمل فى تشييد هذا الأثر الرائع يأتى من بلاد مختلفة أهمها « مكران » ، التابعة لـ « جيپور » فى راجبوتانا ، قدمه الأمراء والحكام هدية للسلطان ، وحملته الفيلة من أماكنه البعيدة .

وقد أنفق على بنائه ما يوازى ٢٢٠ كرور روبية أى ٣٢٠ مليون روبية ، مع ملاحظة أن أجرة العامل فى أيامه كانت توازى قرش صاغ مصرى ، وظل العمل فى هذه المقبرة وتوابعها اثنتين وعشرين سنة ، رمزوا لذلك بعمل قباب صغيرة فوق الأبواب ، يميزن السنين التى استغرقها العمل بالمقبرة بقباب بيضاء عددها سبع عشرة قبة ، وتوابعها بخمس قباب حمراء .

والبناء يقع على شاطئ نهر جمنا ، لذلك نجد كثيرا من الصور التى تؤخذ

له تبدو منمكسه على صفحة الماء ، ورأيت قريبا منه على حافة الماء تقريبا مبعدا للهندوس صغيراً لأدرى لماذا ومتى أقيم في هذا المكان ؟ والصورة العامة للمقبرة بيضاء ناعسة ، ويبدو رونقها وجمالها على أتم ما يكون في الليالي المقمرة حين تنعكس عليها أشعة القمر النضية ، فيأخذ جمالها بالآلآباب . أما بقية المباني التي أقيمت حولها فتبدو حمراء ، سواء في ذلك دار الضيافة ومباني الموسيقى ، أم المباني الأخرى التي يشغل بعضها الآن بعض تجار الصور والتماثيل المرمرية الدقيقة الصنع ، وعلى بعد قريب من تاج محل نرى القلعة الحمراء التي بناها أكبر على نهر دجونا ، وأكمل شاهجهان بناءها .

ذلك وصف عام لهذه التحفة الفنية الرائعة التي لا يوجد لها نظير في العالم ، والتي تنطق برقي الذوق والفن وهندسة البناء في ذلك الزمان ، مما يجعلها مفخرة الهند ، لا يستغنى أى سائح أو زائر عن زيارتها ، وإرواء نفسه من متعتها ، والوقوف أمامها في خشوع وإعجاب بعظمة هذا الملك المسلم ، وعظمة الفن في عهده ، وعظمة نفسه التي حملت هذا الوفاء النادر لزوجته المحبوبة ، وفاء ترك العالم يتمتع بهذه الدرة العظيمة في عالم الفن والبناء . وهذا هو الذى يجعل الحكومة تحرص على المحافظة عليه ، وترميم بعض ما يحدث فيه من خلل .

نقول بجملة ثمانية الهند^(١) الرسمية وتجري الآن بعض الترميمات والتحسينات في " تاج محل بأگرا " ، وهو الأثر الذى تفخر به الهند . ويعتبر إحدى عجائب الدنيا السبع ، وقد قادم هذا الضريح الأثرى العتيق الذى يعود تاريخه إلى ثلثمائة سنة مضت . والمبنى من الرخام الأبيض ، عوامل الزمن فلم يتأثر إلا قليلا ، وكانت آخر مرة أصلح فيها سنة (١٢٩١هـ - ١٨٧٤م) ، ومنذ سنة (١٣٥٩هـ - ١٩٤٠م) حتى يومنا هذا يعكس مهرة الصانع بأگرا على ترميمه ، ولا غرو فقد عاون أسلافهم منذ أجيال " شاهجهان " امبراطور المغول في بناء هذا الأثر التذكارى الذى تكلف نحو ثلاثة ملايين جنيه لزوجته المحبوبة ، وقد اعتمدت وزارة المالية الهندية ٤٠٠ ألف روية نفقات إصلاحه .

(١) في عددها الصادر في مارس سنة ١٩٥٣ .

« والضريح نفسه يتألف من بناء مرمرى أبيض يقوم على شرفة عالية ، وتعلوه قبة ضخمة في وسطه ، تحيط بها أربع قباب أصغر حجماً ، وترتفع عند زوايا الشرفة أربع منارات دقيقة ، وتبلغ مساحة الضريح ١٨٦ قدماً مربعاً ، وقطر القبة الداخلى ٥٨ قدماً ، ويحترق ضوء النهار ستاراً مزدوجاً من الرخام المشغول فتسقط أشعته على قبرين تحت القبة تماماً للإمبراطور وزوجته المحبوبة ، أما الزخارف الداخلية المطعمة بأحجار شبه نفيسه فتمتاز بألوانها الزاهية ، ورسومها الأخاذة . »

« والتاج مزار لايسع أى سائح أن يتخلف عن زيارته ، ويقع في حديقة فسيحة الأرجاء ، تزينها شجار السرو الباسقة وتكسو أرضها الخضرة اليانعة ، وتجرى خلالها المياه الرائعة الهادئة ، فإذا ما جن الليل وسقطت أشعة القمر الفضية على القبة اللازولية البيضاء شاهد الرأى أمامه منظراً يسلب اللب ويغلب الأبصار ، اهـ »

وتحدث كتاب « بين الآثار الإسلامية في العالم » (١) عن تاج محل فقال : « وهذا الأثر يعد أجمل العاثر الإسلامية على الإطلاق في القرن الحادى عشر الهجرى ، ولذلك سنقف عنده قليلاً نتأمل في روعة قصته وبهاء طلعتة ، وجمال تكوينه ودقة تصميمه . أمر بتشييده الملك « شاهجهان ، ابن الملك أكبر (٢) ليضم بهرات زوجته ورفاهه بعد مماته ، ولإنشائه قصة لحنها الإخلاص ، وسداها الوفاء ؛ إذ تزوج الشاه بالأميرة (٣) « ممتاز محل ، التى حرف اسمها فأصبح تاج محل . وقد رزقت منه بأربعة عشر (٤) ولداً ، ثم توفيت على أثر الوضع ، فحزن عليها حزناً عميقاً ، وواصل البكاء ليلاً ونهاراً ، وعقد العزم على أن

(١) للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة الاسكندرية ص ٥٣ .

(٢) خطأ تاريخى وصححه شاهجهان بن جهانكير .

(٣) لم تكن من الأميرات . كما يتوهم ، بل هى بنت أحد الإيرانيين الذى قدم من إيران وخدم في قصر الملك .

(٤) جاء في نزهة الخواطر ج ٥ ص ٨٧ أن شاهجهان تزوجها وعندها عمرون سنة ، وتوفيت وسنها تسع وثلاثون ، وولدت له أربعة أبناء وثلاث بنات منهم الملك أورغزيب عالمكير .

يخلد هذا الحب ، فشيء هذا البناء النخم ، ونقل رفات زوجته إليه ، وقد استغرق البناء اثنتين وعشرين سنة ، وكان يعمل فيه عشرون ألف عامل . . . إلى أن قال : ويتجلى في البناء سمو الذوق واتزان الأبعاد ، والتناسب بين الأجزاء والتناسق في الزخارف والألوان ، فهو بحق أجمل عمائر الهند ، ومن أروع الآثار الإسلامية في الشرق والغرب .

تلك هي أنغم الآثار التي خلفها شاهجهان ، والتي تعتبر أهم وأروع ما تركه ملك في الهند من آثار ، ولعله يتبادر إلى الذهن حين النظر إليها وإلى ما أنفق عليها من مبالغ ضخمة أن هذه المبالغ إنما ابتزها الملك من الشعب ، وأن هذا الثراء الذي يبدو في مظاهر هذه الآثار إنما قام على حساب الشعب وإفقاره .

ولكن الواقع يسارع بنى هذه الفكرة ؛ إذ أن استقرار الدولة ورفاهية الشعب ، وما ورثه شاهجهان من الملوك السابقين ، كان أكبر معين له على إقامة هذه البازارات دون أن يظلم ، أو يبتز المال من الشعب . قال المؤرخ الهندي سيد هاشمي (١) : إن ميزانية الدولة في عهده بلغت مبلغا لم تبلغه من قبله ولا من بعده ، حتى في أيام حكم الانجليز الذين حكموا مملكة أوسع من مملكته ؛ فقد كان يحصل من ضريبة الأرض ٢٧ كرور روبية أي ٢٧٠ مليون روبية (٢) . غير ما يحصل من كابل وقندهار ، وكان يأتيه هذا المال دون ضغط أو ظلم ، وهذا المبلغ لم يحصله الانجليز مع كثرة تعسفهم مع الناس ، وكان الشعب يعيش في عهده عيشة طيبة ، متمتعاً بعطف الملك وعدله ، حتى قال سائح انجليزي عنه ، إن الملك كان شديد العطف على رعاياه كما يحنو الأب على أبنائه .

وكان الملك مشهوراً بكرمه وكثرة عطاياه ، وأكبر دليل على رفاة الشعب وغناء الدولة في عهده ، أنه بعد أن أنفق كل هذه النفقات في المباني وفي إقامة عرش الطاووس من الذهب الذي تكلف عشرات الملايين من الروبيات ،

(١) مع تصرف من كتابه تاريخ الهند ص ٢٢٢

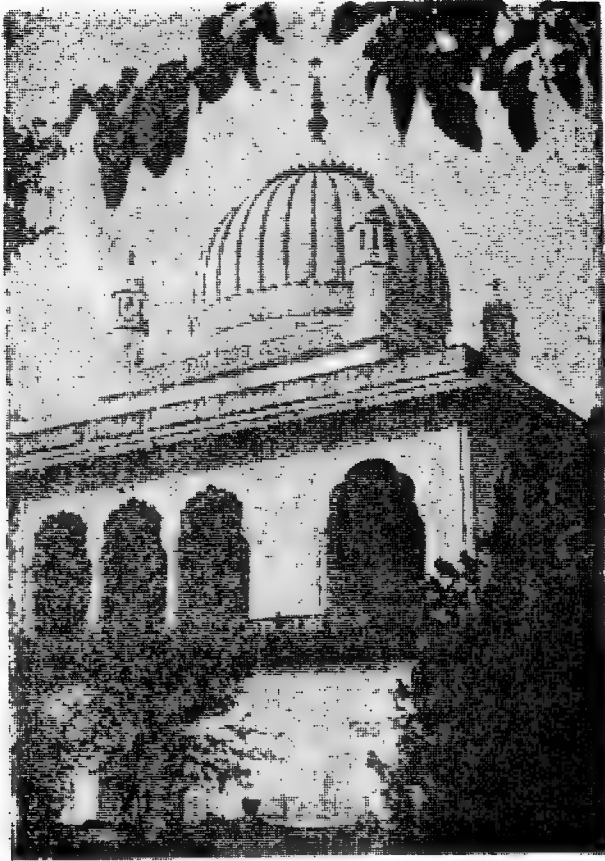
(٢) الجنيه المصري يساوي نحو ١٣٠ روبية .

وجد في خزائنه بعد وفاته ٢٤ كرور روبية أى ٢٤٠ مليون روبية . وكان الذهب والفضة والمجوهرات التي تركها تساوى ١٥ كرور أى ١٥٠ مليون روبية ، وذلك كله يدل على أنه ما كان محتاجا إلى زيادة الضرائب على الشعب حتى يجابه اللفقات الكثيرة التي ينفقها ، ولذلك يسميه المؤرخون بالملك المحظوظ ؛ لما أتيج له من الغنى والاستقرار واتساع الملك مما لم يتح لغيره من الملوك .

ولقد كانت الزراعة والصناعة مزدهرتين في عهده أيما ازدهار ، حتى كانت الهند تصدر من منسوجاتها الجيدة إلى أوروبا كميات وافرة ، ١٠

وكان شاهجهان بروحه ونزعتة محافظا على تعاليم الإسلام وآدابه ، فقد أبطل عادة تقبيل الأرض أمامه تحية له ، وكانت هذه التحية المعتادة للبلوك ، حتى إن جهانگیر حبس زعيم العلماء في الهند ، مولانا أحمد السرهندى ، (١) مجدد الألف الثاني لأنه لم يسجد له ، ففضى شاهجهان على هذا التقليد السيئ ، كما قضى على كل مظهر من المظاهر المخالفة للإسلام بما تركه جده أكبر من بعده ، ولم يبطله أبوه جهانگیر . وكان كثير الإكرام للعلماء حتى قصده من جميع الجهات . وقد مر بنا في قصة بناء المسجد الجامع في دلهى صورة طيبة من حياته ، ومن المعروف عنه أنه بعد أن تاب من الخمر في شبابه لم يرجع إليه .

(١) قال عنه صاحب نزعة الموطأ ج ٥ ص ٤١ إنه « الإمام العارف بمرالحقائق والأسرار على السنة النبوية . برهان العارفين والمحققين وحجة الأولياء والنفين . آية من آيات الله العظيم ونادرة من نوادر الأيام ، أخذ به العلم لما زلت به القدم ، وكاد بهوى فيهماوى الدمفـ كان مجدد الألف الثاني برهانا ساطعا على أشرفية النوع الإنساني . وهو أحمد بن عبد الأحد السرهندى ، ولد في بلدة « سرهند » في شوال سنة ٩٧١ هـ - ١٥٦٣ م وأخذ العلم عن مشايخ زمانه ولاسيما علوم الحديث ، ثم قد للتدريس وهو ابن سبع عشرة سنة ، كما أخذ الطريقة عن مشايخها وبهر في علوم الصريمة والحقيقة مما . ولما توفي والده سنة ١٠٠٧ هـ - ١٥٩٨ م ارتحل إلى دلهى واشتهر أمره فوثق به عند « جهانگیر » فحبسه كما سبق الإشارة إلى ذلك ، وقد صنف كثيرا وقضى عمره في إحياء السنة وإماتة البدعة حتى استحق لقب مجدد الألف الثاني من الهجرة وأصبح مشهورا به في التاريخ ، وقد توفي في سرهند في آخر صفر سنة ١٠٣٤ هـ - ١٦٢٤ م فدفن بها ولا زال قبره مشهورا يزار هناك للآن . ١٠ مختصرا . ومن سبعة المرجان في آثار هندستان لمولانا غلام آزاد .



مقبرة مجدد الألف الثاني الشيخ أحمد السرهندي في مدينة سرهند
وكان شاهجهان محبا للعلم مشجعا على التأليف ، ويذكر المؤرخون أن العلامة
عبد الحكيم السالكوتي^(١) ألف بأمره كتباً كثيرة ، وكان يعطيه في العام مائة
الصدروية . وقد اتخذ اللغة الأوردية اللغة الرسمية في عهده ، وعمل على نشرها

(١) معروف في مصر بأشبهته على المتأند النفية التي تدرس بالأزهر في علم الكلام ، وله
في قرية سيالكوت بالبنجاب ، واشتغل بالعلم وصار من نواحي زمانه ، قدره شاهجهان حتى التقدير
وقربه إليه وأخذ برأيه وكافاه على تأليفاته مكافآت ضخمة ، حتى قلل منه وزنه مرتين بأفضة ومنحه
قيمتها ، وكان كل مرة سنة آلاف من نقود زمانه ، وأعطاه قرى متعددة يعيش فيها ،
ويصنف في هده ، وتوفي نحو ستين سنة يدرس وؤلف - حتى ترك وراءه مؤلفات وحواشي على
العروض متعددة في مختلف العلوم . وتوفي في ربيع الأول سنة ١٠٦٧هـ - ١٦٥٦م ودفن في
سيالكوت اه نرمة وسبعة المرجان .

بوسائل مختلفة ، حتى إنه أنشأ سوقا للرجال وآخر للنساء ، وفرض التسليم والتخاطب فيهما بالأوردية حتى تنمو وتزدهر .

شاهجهان فى أواخر حكمه

كان هذا الملك المحظوظ كما سماه المؤرخون سيىء الحظ فى أواخر أيامه ، فقد أصيب بمرض أقعده عن مباشرة أمور الحكم ١٠٦١ هـ - ١٦٥٧ م ، وكان له أربعة أولاد : أورنگزيب ، ودارا شكوه ، ومراد ، وشجاع ، وكان لكل منهم ولاية يحكمها . فلما مرض استدعى ابنه دارا شكوه ^(١) بجانبه ليأمر شؤون الحكم ، وكان أكبر إخوته ، فأخفى نيا المرض عنهم ، وأخذ يصرف أمور الدولة ، فظن شجاع ومراد أن أباهما توفى ، واتهما دارا شكوه بقتله ، وأراد شجاع أن يذهب إلى أكراميشه لينتقم لأبيه ، ولكن أورنگزيب نصحه بالتريث ، وأكد له أن أباه حى ، وانفق الإخوة الثلاثة على إبعاد دارا شكوه ، والحيلولة بينه وبين الملك بمجة أن ذلك يقوض عرش المغول . ولما أفاق شاهجهان من مرضه ، ووقف على ثورة أبنائه على دارا شكوه ، غضب عليهم ، وأرسل يصحبهم بالمدوء والخضوع .

لكن دارا شكوه لم يكتف بهذا ، بل جرد حملة بقيادة ابنه سلمان لتأديب أخيه شجاع ، وكذلك أرسل الجيوش لتأديب بقية إخوته .

أما شجاع فقد التقى بجيش سلمان عند بنارس ، فانهزم وفر إلى بنسكال ، وفى ذلك الوقت كان « أورنگزيب » قد تحرك بجيشه من « برهان پور » ،

(١) ولد سنة ١٠٢٤ هـ - ١٦١٥ م وقرأ العلم على بعض العلماء وتلمذ للفنون الحربية ، وباح أحد الصوفية ، وصنف الكتب فى سير المشايخ وغيرها ، منها سفينة الأولياء وسكنية الأولياء ، والسر الأكبر والأعظم الخ .. وبعض الناس يراه صوفيا صالحا المقيدة ، ويستشهدون بمؤلفاته فى هذه الناحية ، والآخرين يرون أنه كان مثل جده أكبر فاسد المقيدة مستهدين بعض مصنفات أخرى ، منها ترجمة كتاب هندوسى نقش فيه صور عظماء الهند يمكن بسم الله الرحمن الرحيم وقال فى خطبة الكتاب إنه لب القرآن ، وسر مكتون لا يسم إلا الظاهرون ، وكذلك كتابه فى التوفيق بين الإسلام والهندوسية اه نزهة باختصار ج ٥ ص ١٤٣ .

في الدكن متجها إلى « أگرا » ، وانضم إليه أخوه « مراد بخش » ، في « مالوا » ، وفي الطريق أرسل « أورنگزيب » إلى « جسونت سنگ » ، القائد الراجپوتي الذي أرسله « دارا » لتأديب أخويه ، وقال له : إنني أريد زيارة أبي لا الحرب ، فإما أن تصاحبني ، وإما أن تتنحى عن طريق بدلا من سفك الدماء ، ولكن القائد الراجپوتي لم يستجب له ، ف وقعت الحرب بينهما في رجب سنة ١٠٦٧ هـ - ١٦٥٧ م ، وانتهت بهزيمة « جسونت » ، وفراره بعد القضاء على كثير من رجاله الراجپوت .

وتابع « أورنگزيب » سيره نحو العاصمة « أگرا » ، في الوقت الذي بدأ العرب والاضطراب يدب فيها بعد أن وصلتهم أنباء انتصاره ، ومتابعة زحفه نحو العاصمة ، حتى أراد شاهجهان أن يفر إلى دلهي ، ولكنه أثر البقاء لعله يستطيع الصلح بين أبنائه وإنهاء الحرب بينهم ، ولكن « دارا » كان مغترا بقوته ، وبالإمكانات التي تحت يده ، معتقدا أنه سيقبض على إخوته بكل سهولة ، ولذلك كان يثور على فكرة المصالحة ، ويصر على الحرب والانتقام . وحقا كانت القوتان غير متعادلتين ، فقد كان جيش « داراشكوه » الذي يزيد عن المائة ألف ينتظر جيش « أورنگزيب » ومراد البالغ ٢٥ ألفا فقط ، والذي قطع مئات الأميال وأنهكه التعب .

وتلاقت القوتان في رمضان جنوب شرق « أگرا » ، على بعد ٣٠ ميلا ، وبدأت المدافع عملها ، ثم هجمت قوات « داراشكوه » على جنود الدكن ، فوقع الخلل في صفوف الدكنيين ولكن « أورنگزيب » ومراد ، صمدا للبركة صمودا عجيبا ، فقد كانا يعرفان مصيرهما لو لحقت بهما الهزيمة ، وتدخلت الأقدار في المعركة لتصل بها إلى نهايتها لمقدرة « فلق » رام سنگ ، قائد الراجپوتيين في صف دارا حقه ، حين هجم على « مراد » ، يريد القضاء عليه ، ففرق جنوده الراجپوت ، ووقع الخلل في صفوفهم ، وفي ذلك الوقت وقعت الكرة الملتهبة التي كانوا يستعملونها في الحرب على رأس الفيل الذي يركبه « دارا » ، وانفجرت ، فتركه واستقل فرسا ، ورأى جنوده هذا فظنوا

أنه يتأهب للفرار سريعا من المعركة ، فخارت قواهم المعنوية ، وأخذوا يفرون من المعركة ، ولحقهم دارا ، يساقهم في الفرار حتى وصل إلى دأگرا . ولكنه لم يذهب إلى أبيه خجلا لما أصابه ، بل أخذ بعض المال والمجوهرات وزوجته وأولاده ، وتابع فراره إلى دهلې .

وفي ثلاثة أيام كانت الجنود الظافرة أمام العاصمة معسكرة . واستقبل أورنگزېب في طريقه وفي معسكره كبار رجال الحاشية والقواد والأمراء . مهتئين مقدمين خضوعهم له ، ولم يفت شاهجهان أن يشترك كذلك في تكريم ابنه المنتصر ، فأرسل إليه سيفا مرصعا بالجواهر ، وقد نقش عليه اللقب الذي منحه إياه ، وهو لقب د عالمگیر ، أى أخذ العالم وسيدّه ، ولكنه لم يخذع ، ولم يترك الأمر في يد أبيه المريض ، لئلا يستعيد دارا شكوه ويمكن له في الملك ، ولذلك دخل العاصمة وقبض على أبيه واعتقله في القلعة ، وأحاطه بكل أنواع التكريم ، حتى لم يفقد شيئا من أبهة الملك اللهم إلا السلطة التي كان قد فقدّها من قبل ، وقد قضى شاهجهان في هذا الاعتقال نحو ثمانى سنوات حتى توفى سنة ١٠٧٦ هـ - ١٦٦٦ م ، وهكذا كانت نهاية هذا الملك للذى أعلّق عليه المؤرخون اسم الملك المحظوظ . رأى بعينه القتال الدامى بين أبنائه على الكرسي الذى يشغله . وهو مريض لم يستطع أن يوقف هذا القتال ، وعاش حتى أفعم قلبه بالألم للآسى الذى خلفها هذا القتال ، أفتراه ملكا محظوظا حقا ۱۱۹

فرد دارا ، إلى دهلې منهزما ، فكان على أورنگزېب ومراد أن يتعقباه بعد أن خلا لهما الجوفى دأگرا ، حتى يقضيا عليه نهائيا ، ولكن خلو المجال لهما جعل كلا منهما يطمع فى الملك ، وبدأت حاشية كل واحد تزين له أنه الأجدر والاحق ، وتعمل لذلك ما استطاعت ، ولم يكن مراد بالرجل الذى يوضع فى كفة أمام أورنگزېب ، ولكن المطامع كثيرا ما تنسى الناس أقدارهم والحقائق البارزة أمامهم .

وأحس أورنگزېب بهذا الذى يدبره أخوه وحاشيته ، وفى ليلة كان

مراد مخمورا فأركبه على فیل ، وساقه إلى قلعة سلیم فی دلهی ، ثم نقله إلى سجن قلعة كواليار ، المعروفة بسجن الامراء ، وبذلك انتهى أمر مراد .

وفی ذی القعدة سنة ١٠٦٧ هـ - ١٦٥٧ م أعلن أنه صار ملكا على الهند خلفا لأبيه ، ولكنه أجل الاحتفال بذلك حتى يفرغ من مشاكله مع دارا الذى فر إلى لاهور ، ومع شجاع الذى عاد من بنگال إلى بنارس ، وبدأ يعد العدة هو الآخر للاستيلاء على العرش .

تعقب دارا شكوه فى لاهور ، ثم فى ملتان حتى فر إلى السند ، فأرسل بعض قواته لمطاردته والقبض عليه ، ورجع هو إلى دلهی ليحل مشكلته مع شجاع الذى أعد عدته للهجوم على أخيه ..

وكان السادات حكام إله آباد وبنارس يعاونونه ، وأمدوه بفيلة مدربة على القتال بسلاسل زنة الواحدة ٢٤٠ رطلا ، تحركها فى الهواء وتضرب بها ذات اليمين وذات الشمال فلا يبقى أمامها جندى واحد ، وحين تلاقى الجيشان وهجمت هذه الأفيال وهى مخمورة حدثت الفوضى فى صفوف أورنگزيب ، حتى اضطر هو للنزول إلى قلب المعركة ، وقيد فيلة حتى لا يفر ، وأمر بضرب النار على ركاب الفيلة ، فسقطوا وفرت فيلهم ، وأخذت الدائرة تدور على شجاع وجنوده فلاذ بالفرار ، وتعبه بعض القواد حتى بنگال فأسام ، وهناك اخفت آثاره . واستراح أورنگزيب منه .

ولكن لازال أمر دارا معلنا لما ينته بعد ، وقد عاد من السند إلى أجمير وأخذ يعد عدته للهجوم ، فخرج إليه أورنگزيب وهزمه ففر ، وخلا الجو أو كاد من المنافسين له ، ولذا بدأ يعد العدة للاحتفال بجلوسه على العرش . وكان ذلك فى رمضان سنة ١٠٦٩ هـ - ١٦٥٩ م ، وكان احتفالا رائعا عم خيره الناس جميعا : الكبار والصغار ، وزاد من روعته وبهاته وصول الأنباء إلى الملك بالقبض على داراشكوه فى السند وإرساله إليه ، وانتهى الأمر بنقله بعد أن اعتمد الملك على فتوى من العلماء بخروجه على الدين ، ومحاربته الحاكم

الشرعى ودفن فى مقبرة همايون^(١) ، وبذلك صفالجو لأورنكزيب ، وكانما
ساقته العناية الإلهية ليكون حاكما فذا ، ويصبح على عمر التاريخ مثالا طيبا
للك المسلم الذى يعتز المسلمون به وبسيرته الصالحة ، وذلك على الرغم مما
صاحب اعتلاءه للعرش من سفك للدماء .



شاهجهان فى متصورته الملكية يستقبل الزوار

(١) قض عليه « ملك جيون » أحد أمراء السند بعد أن استضافه أياما وتقرب به إلى
المجبر . ولكنه حين ظهر فى شوارع دلهى تاق غضب الشعب عليه فى قذائف لمباراة حتى كاد
يقتل ، وحينما قتل داراشكوه وطانوا به فى الشوارع للتشهير به كانت دموع الناس تجري أنهارا
عليه ، وثانى يوم قتل الذى قام بهذه المظاهرة بفتوى من العلماء كذلك . أما تاريخ الهدى
حاشى ، ولعل ثورة الشعب كانت لجه داراشكوه ول هذه الانتهازية التى دفعت « ملك جيون »
إلى القدر بضيقة ثمنا للزنى عند اللاك

أورنگزيب - عالمكير^(١)



هو أبو المظفر محيى الدين محمد أورنگزيب الامبراطور المغولى المسلم ،
الذى يعتبره المسلمون المثل الطيب للحاكم المسلم الزاهد المتسك بالشريعة
وآدابها ، العامل على إحيائها ، وقد ولد في بلدة دوحه ، شمال برود في كجرات
بنحو ٧٠ ميلا في ١٥ من ذى القعدة سنة ١٠٢٨ هـ - ١٦١٩ م وأمه أرجندبانو ،
المشهوره باسم « ممتاز محل » المدفونه في مقبرة « تاج محل » ، وقد ولد في عهد
جده « جهانكير » وتربى تربية دينية على يد كبار العلماء ، حتى أصبح متبحرا
في العلوم الدينية ، متعبدا على نسق الصوفيين برغم اشتغاله بأمور الملك ، لم
يشرب الخمر قط ، ولم يسمع الغناء مع مهارته في الإيقاع والنغم منذ صغره ،
ولم يستعمل الذهب والفضة ، وأمر أن يستعاض عنهما بغيرهما ، وتزهد

(١) معنى « أورنگزيب » زينة العرش : فأورنج معناها : عرش ، وزيب معناها : زينة .
ومعنى عالمكير : آخذ الدنيا وسيد العالم .

وتكشف طول مدة حكمه . ويعتبره المؤرخون أعظم امبراطور مغولى بلغت الدولة فى عهده الذروة التى لم تبلغها قبله أو بعده ، وإن كان بعض المؤرخين الهندوس والغربيين ومن له اتجاه أو مذهب خاص من المسلمين يأخذون عليه أنه كان مسلما متعصبا ، ولكننا نعرف أن كلمة متعصب هذه فى نظر هؤلاء تساوى فى نظر المسلمين معنى : المامل بدينه ؛ لأن هؤلاء لا يروقهـم المسلم المتمسك بدينه ، وإنما يعجبهم رجل مثل « أكبر » ، يرفعونه إلى السماء . . . ولعل مثل هذا الحكم من المسلمين - أعنى أنه المثل الصالح للملك المسلم - يبدو غريبا بعد ما عرفنا من الحروب التى خاضها عالمـالـكـير فى سبيل الوصول إلى الملك وقتله لإخوته ، ولكننا نعلم أن مثل هذه الحروب لا تحكم على الرجل بقدر ما يحكم عليه عمله وسيرته فى الحكم بعد أن يستقر فيه ، وتستقيم له الأمور ويأخذ على عاتقه مسئوليتها . ونحن من خلال هذه النظرة نقدم لك هذا الامبراطور . . .

حكم عالمـالـكـير نيفا وخمسين سنة لم تخل من المتاعب والحروب ، بل كانت سلسلة متتابعة من الحروب هنا وهناك ، وكثيرا ما كان الملك على رأس جيشه يباشر تأديب أعدائه بنفسه ، ويضم ممالك جديدة إلى رقعة مملكته ، حتى إنه لم يعرف طعم الراحة والإقامة الهنيئة فى عاصمة مملكته ، وقد سبقت حكمه فترة من الزمن ، وجهاز الدولة مرتبك ، والمسؤولون فيها مشغولون بأنفسهم والحروب بينهم ، فأتاح هذا لمن يريد الخروج على سلطانها أن يخرج ، فلما استقر الأمر له بدأ يتجه إلى تسكين الفتن وفتح الممالك .

كان قائده « مير جملا » يقود جيشه فى الشرق ففتح « كوج بهارى » ، الذى كان مستعصيا على أبيه ، ثم تابع زحفه نحو الشرق يتبع شجاع ، حتى وصل إلى أسام فأخضعها للملك المغول ، وكذلك ولاية آرا كان على حدود بورما ، ورأى نفسه قريبا من الصين فأراد أن يمدفوحه إليها ، ولكن الأمطار حالت دون ذلك ، فرجع إلى « داكاه » فى بنگال وتوفى فى رمضان سنة ١٠٧٣ هـ - ١٦٦٣ م .

وبعد ذلك بنحو ستين استفحل أمر القراصنة واللصوص على الشاطئ الشرقى والشمالى لخليج البنغال ، فقام واليها بالقضاء عليهم وضم ولاية جانتام ، الخصة إلى ولايته .

وفى ذلك الوقت كان أهل التبت يسيون القلاقل والمتاعب لوالى كشمير ، كما قامت قبائل الأفغان فى مناطق الجبال الشمالية الغربية بثورات على حكم المغول ، أما أهل التبت فقد تولى والى كشمير إخضاعهم ، وصاروا تابعين للدولة المغولية . وأما قبائل الأفغان فقد قام الملك بنفسه على رأس جيشه لإخضاعها سنة ١٠٨٠ هـ - ١٦٧٠ م . وعين قائده العظيم « آغر خان » لإخمادها ، وكان « آغر خان » من نوادر الرجال والقواد ، أبلى بلاء حسنا فى جيش عالمگیر فى حروبه فى بنسگل والدكن . وخصه الملك بعناية لم يظفر بها قائد من القواد . وقد كتب بعض المؤلفين كتاباً عن حروبه وسماه « آغر نامه » ، وقد استطاع هذا القائد الباسل أن يقضى قضاء نهائياً على تحركات الأفغان ، ويخمد أنفاسهم ويثير الرعب فى نفوسهم ، حتى كان الآباء يخوفون أولادهم بذكر اسمه ..

مع ستامى :

بعد ذلك فى سنة ١٠٨٢ هـ - ١٦٧٢ م شغل الملك بحرب - لم تكن متوقعة - مع طائفة من فقراء الهندوس تعرف باسم « ستامى » ، تسكن فى ناحية « نازول » على بعد ٦٠ ميلاً من دلهى . بدأت بصدام بسيط بين البوليس وأحد هؤلاء ، ولما هب رجال البوليس لنجدة إخوانهم تجمع هؤلاء وهزمهم ، فاستفحل أمرهم وقوى نفوذهم ، وزحفوا إلى دلهى حتى أصبحوا على بعد ٣٥ ميلاً منها ، وشاع فى الناس أنهم ينتصرون بقوى السحرا ، وفى هذا فى عضد جيش عالمگیر وبث الرعب فيه ، فرأى الملك أن يحارب سلاح هؤلاء الفقراء الفتاك بسلاح من جنسه - ولا يقل الحديد إلا الحديد - فكتب تعويذة - وكان مشهوراً بالصلاح - وأعطاهم لقائديه راجاشن سنك

وحامد خان ، فقريت روحهم المعذرية ، وهجموا على الفقراء المشعوذين فأبادوهم وأخذوا ثورتهم ، بعد أن بدأت تمتد السنة لديها إلى أكرا وراجپوتانا .

فرض الجزية :

وفي هذا الوقت - أعني سنة ١٠٨٢ هـ ١٦٧٢ م - اتجه الملك إلى إعادة فرض الجزية على الهندوس تنفيذاً لتعاليم الإسلام ، وهي تؤخذ من غير المسلمين نظير ما يفرض على المسلمين من زكاة وجهاد ، في مقابل قيام الدولة بحفظ الأمن وتوفير الضرورات لهم ، وكان أكبر ، قد ألغاها عن الهندوس تمشياً مع سياسته التي أبعداها عن دائرة الدين ، وفرح بذلك الهندوس واطمأنوا ؛ إذ كانوا ينظرون إليها على أنها شعار الذل والقهر ، واستمر إلغاؤها بعد أكبر أكثر من مائة سنة في عهدي جهانگیر وشاهجہان ، ومدة كبيرة من عهد عالمگیر ، لذلك كان لفرضها من جديد وقع سيئ في نفوس رعاياه الهندوس ، وثاروا وتجمعوا أمام القلعة حتى سدوا الطريق بينها وبين المسجد الجامع المقابل لها ، ولم يستطع الملك الخروج لصلاة الجماعة ، ولم تجد الوسائل السلبية لصرفهم ، وحينئذ أمر الملك بأن تتولى الفيلة تفريقهم وتشيتهم ، وأصر على تنفيذ الشريعة في هذه الناحية ، ولم يكن في ذلك متعناً أو قاصداً إهانة شعبه ، لأننا نجده من ناحية أخرى قد ألغى بعض الضرائب التي لم تفرضها الشريعة وأعفى الهندوس وغيرهم منها .

لكن الهندوس وغيرهم من المؤرخين الأوروبيين لم يهضموا فكرة الملك واتجاهه لتنفيذ شريعة الإسلام في هذه الجزئية ، وإن كانوا بالطبع قد قبلوا بمرور إلغاء بعض الضرائب التي لا تتفق مع الإسلام ، وكانت الجزية قبل المغول تؤخذ على الرجل من ١٠ إلى ٤٠ من السكة الموجودة حينذاك ، ولكن في عهد عالمگیر كانت ١٣ روبية سنوياً ، فكانت من جملة الأسباب التي دفعت الهندوس في راجپوتانا وغيرها على الثورة .

نورة الراجبوت :

منذ عهد أكبر ، وبعد الصلات الطيبة التي قامت بينه وبين الراجبوت خصوصاً والهندوس عموماً ، والدولة لم تشهد حرباً مع هؤلاء الأقوياء في عهد جهانگیر وشاهجهان ، بل كانوا أداة في يد الحكومة والجيش ، وتعاونوا في خدمتها والدفاع عنها ولو ضد أبناء جنسهم ، وكان منهم القواد والحكام والموظفون الكبار والصغار .

من هؤلاء القواد : چسونت سنک ، وكان في جيش شاهجهان الذي وجهه داراشكوه لتأديب أورنگزيب في الدکن ، ووقعت بينهما موقعة انهزم فيها چسونت ، وفر ، ثم عاد فقدم الولاء لأورنگزيب حين انتصر على دارا ، فعفا عنه وأعادته إلى منصبه ، وجعله قائداً على الجيش الذي وجهه لحرب أخيه شجاع ، ولكنه خان وانضم إلى شجاع ، ثم فر بعد هزيمته . ومع ذلك عاد وطلب العفو ، فعفا عنه وأعادته إلى مركزه . ومرة وجهه إلى كابل على رأس جيش من الراجبوت ، ولجأة علم الملك أنه جاء من كابل مع جيشه دون إذنه ، وأنه حارب أميراً من أمراء السند حين اعترض عليه وقته ، فغضب الملك عليه لكل هذا ، وحين وصل بجيشه إلى دلهي أمر ببقائه خارجاً ، وحجزه مع أهله وأولاده هناك .

ولكن بعض الجند العائدين إلى راجپوتانا استطاعوا أن يأخذوا معهم أحد أولاد چسونت ، خفية ، حيث وصل إلى رانا^(١) أودي پور ، وقص عليه قصة حجز چسونت ، وأولاده ، وكان هذا الرانا مع راجا جوديپور الراجپوتی أيضاً يتكاملان ويتلاعبان في أداء الجزية ، ويعاوانا الخارجين على الملك ، فرأى الملك بوادر الفتنة في هذا ، وذهب بنفسه إلى أجدير ، ثم أرسل إليهم إنذاراً بسرعة أداء الجزية والامتناع عن مساعدة الخارجين ، وأرسل جنوده سريعاً إلى هناك ، فاضطروا إلى طلب العفو ،

(١) لقب مثل (راجا) لكنه أعلى منه

وتعهدوا بعدم حماية ابن دجسونت سنك ، ، ومكث الملك في هذه المهمة شهوراً ورجع سنة ١٠٨٨ هـ - ١٦٨٨ م ، ولكن لم يلبث هؤلاء أن نقضوا عهدهم ، وأعلنوا الثورة جهرا على الملك ، فرجع سريما إلى دأجمير ، بجيشه ، وعين ابنه محمد أكبر ، ومعه دتهور خان ، للقيادة ، وأمرها بالذهاب لتأديب العصاة ، في الوقت الذي أمر فيه والي الدكن ووالي كجرات بالمهجوم من ناهيتهم على الراجپوت ، فاضطر الرانا للفرار ، إلى الجبال بجيشه الذي اتحد مع جيش جوديبور ، فحاصرتهم جنود الملك ، وخرّبوا الأراضي الخصبة حولهم حتى لا تصلهم مئونة ، وهنا لجأ النازرون إلى الحيلة ، وأخذوا يغرون محمد أكبر ومحمد معظم ابني الملك ، ويستميلونهما ويمنونهما حتى انضم إليهم محمد أكبر وخان أباه ، وأعلن أنه الملك ، وبدأ في الزحف بجنوده ومعه الراجپوت إلى أبيه ، ولكن أمراء جنده حينما قاربوا مكان الملك أخذوا يفرون إليه واحدا بعد الآخر ، وعلى رأسهم دتهور خان ، ، فقررت حماسة الجند وانقضوا من حوله وتركوه ، فأسقط في يده وسارع فالتجأ إلى المراهتا في الجنوب (١) . أما الراجپوت فلم يجدوا بدا من التسليم والخضوع ، حتى رانا أوديبور استشفع بمحمد معظم ابن الملك ، فعفا عنه وقرّبه إليه ، وأعطى له منصبا في حاشيته ، وبقي كذلك حتى مات ، فخلع الملك على ابنه دجى سنك ، وأخويه الخلع ، وأعطاهم المناصب العالية ، ففازوا في خدمته والإخلاص له حتى مماتهم ، وبهذا انتهت فتنة الراجپوت سنة ١٠٩٠ هـ - ١٦٧٩ م ، وتفرغ الملك لعدو آخر ذي بأس وشدة ، أخذ يقلق الدولة في الجنوب ويغير على المسلمين في الدكن وهو سنبهاجى بن سيواجى المراهتى .

حروب المراهتا :

المراهتا قوم يمتازون في الهند من قديم بلغتهم وحضارتهم الخاصة ويسكنون في شمال بومباى وجنوبها ، ويشتهرون بشدة بأسهم مثل الراجپوت ، وهم

(١) بعد ذلك فر إلى إيران واتهم أمره سنة ١٦٨١ .

جنس من الأجناس المتعددة التي تسكن الهند^(١)، يبدأ حديثنا عنهم هنا من عهد سيواجى أو سيناجى أو سهواجى كما ينطق أحياناً وهو والد سينهاجى . بدأ سينهاجى حياته فى قرية صغيرة ، ثم التحق بجنود عبر الحبشى الذى سبق الحديث عنه حينما تحدثنا عن أحمد نكر والمغول ، واهتاز بشجاعته ، فأخذ يتدرج فى مناصب الجيش حتى احتل مكاناً رفيعاً ولقى إعزازاً وتكريماً ، وكان المراهتا بحكم وجودهم فى مملكة كنى أحمد نكر وبيجاپور يقاتلون المغول فى صف هاتين الدولتين ، وأخذ سينهاجى يقوم بحملاته لحسابه هو لا لحساب هاتين الدولتين . وحينما رحل أورنكزيب من الدكن تاركاً حصار بيجاپور سنة ١٠٦٦ هـ - ١٦٥٦ م ، وأسرع إلى أغرا ، ودارت الحرب بينه وبين إخوته من أجل الملك انتهز سينهاجى الفرصة . وأخذ يستعد ويهجم على أماكن متعددة ، ويوسع ولايته على حساب المسلمين ، سواء فى ذلك المغول أم بيجاپور ، فأرسل أسكندر شاه ملك بيجاپور جيشاً بقيادة أفضل خان لتأديبه سنة ١٠٦٧ هـ - ١٦٥٧ م ، ولم يكن من القوة بحيث يستطيع مجابهة جيش بيجاپور ، فاعتمد على الحيلة والغدر ، وظلت الدولة مشغولة به عدة سنين حتى تم الصلح بينه وبينها .

وحيث أنجه للإغارة على أملاك المغول ، فهجم على أورنكزيب آباد ، سنة ١٠٧٢ هـ - ١٦٦٢ م ، ونهب عدة أمكنة ، فأرسل له أورنكزيب أحد قواده على رأس جيش استطاع أن يأخذ پونا ، عاصمة سيفاجى الذى لاذ بالجبال ، ولم يستطع مجابهة المغول ، ولكن ساعده الحظ حين نقل الملك قائده إلى بنغال ، وعين مكانه ابنه « محمد معظم » ، فاستطاع أن يعود ويقوى نفسه حتى ضرب النقود باسمه ، وكانت هذه من سمات الاستقلال . وزاد على ذلك فأخذ

(١) اشتق اسم المراهتا من كلمة « مهارا شترا » التى تعنى « الملكة الكبرى » فهذا الاسم والعرق الذى يدل عليه قديمان فى الهند إلى الغاية ، فلا نستطيع أن نعين بالضبط حدود مهارا شترا القديمة ولا أصل الشعب الذى كان يسكنها ، فى القرن السابع عشر فقط ظهر المراهتا على مسرح التاريخ فنلوا دوراً مهماً ، وفتحوا قسماً كبيراً من الهند ، وأقاموا دولة أهلية ، وعدادهم الآن (فى القرن التاسع عشر) عشرة ملايين ، ويمتثلون الديانة البرهمية (حضارة الهند ص ١٤٧) وهم الآن يتلون الأغلبية فى ولاية « بومباى » .

يهاجم قراقل الحجاج في «سورت» حيث كانوا يبحرون منها للحجاز قبل أن تنشأ ميناء بومباي، واستفحل شره، وأخذ يهدد حركة الملاحة على الشواطئ، فأرسل له الملك جيشا كبيرا استولى على «بونا» مرة ثانية سنة ١٠٧٥ هـ - ١٦٦٥ م، وأخذ يتعقبه حتى حاصره، واضطره للتسليم، وشدت المراهتا وأذلهم، وتقدم «سيناجي» خاضعا للقائد «جي سنجك»، ثم عفا عنه الملك وأحسن إليه، وعين ابنه «سنهاجي» في إحدى الوظائف الكبيرة تكريما له، ولما توجه الملك إلى «بيجاپور» سار «سيناجي» في ركابه وعاوناه، فأرداد الملك رضا عنه، وسلمه وثيقة يسجل فيها هذا الرضا.

وفي سنة ١٠٧٦ هـ - ١٦٦٦ م، توجه إلى آگرا للاشتراك في إحدى الحملات الملكية حاملا معه الهدايا للملك، فقبل مقابلة كريمة، وأعطاه الملك مناصبا كبيرا، ولكنه استصغره وفر راجعا إلى الدكن، وهناك استعان بملك گولكنده «أبي الحسن تانا شاه»^(١)، فأمدّه بالسلاح الذي استعمله في الهجوم على بيجاپور وأملاك المغول معا، وكان جيش المغول في ذلك الوقت مشغولا بحصار بيجاپور، فأنجحت له الفرصة كي يستعيد أملاكه التي اضطُر من قبل للتنازل عنها للمغول، ولكنه لم يلبث أن اضطُر إلى الصلح وطلب العفو من «محمد معظم» فعفا عنه، وأقطع بعض الأراضي في «برار» فاستقر بها، وأخذ ينظم إقطاعيته الصغيرة بما استفاده من أنظمة المغول، فقوى جيشه وأخذ يعتدي على گولكنده، كما أعد أسطولا نازل به الغربيين الذين جاءوا للهند ينازعون أبناءها السيطرة عليها، واستمر كذلك حتى توفي سنة ١٠٩٠ هـ - ١٦٧٩ م وترك رياسة قوية للمراهتا في الجنوب خلفه عليها ابنه سنهاجي.

(١) يعرف بأبي الحسن تانا شاه الحيدر آبادي لأن حيدر آباد كانت عاصمة له، وكان حصن گولكنده قريبا منها، وكان شعبا تولى الحكم سنة ١٠٨٣ هـ - ١٦٧٣ م، وترك الحكم في يد الهندوس بينما كان منهمكا في ملذاته فدأبوا في الدولة الفساد. ولد في حيدر آباد وتعلم علوم عصره وتصف وسطع نجمه حين قربه الملك «عبد الله قطب شاه» وزوجه بابنته، ثم اعلی العرش بعد وفاة صهره، وكان عالما متجعرا، قبض عليه أورنجزيب في قلعة «دولت آباد» وظل بها حتى مات، وانقرضت الدولة بموته في ربيع الأول سنة ١١١١ هـ - ١٦٩٩ م.

ويذكر المؤرخون أن سيواجي لم يكن في حروبه مدفوعا بعامل التعصب الديني، بل بالعوامل السياسية، ولذا كنا نراه يتفق مع المسلمين أحيانا، ويحارب في صفوفهم، وكان يحترم المصحف ويعظم المساجد - هكذا يذكر المؤرخ الهندي سيد هاشمي - وقد قيل: لي إن الهندوس يعتبرون سيفاجي من كبار المجاهدين ويحتفظون بصورة في بيوتهم تكريما لذكراه^(١) وقد أقامت له الحكومة الهندية أخيرا تمنا لا باعتباره من الأبطال الوطنيين.

سنهاجي

لم يكن سنهاجي منذ صغره مثل أبيه، بل كان نزاعا للشر والظلم للمسلمين والهندوس على السواء، حتى عزره أبوه كثير السوء سلوكه، وكان أبوه يتحفظ من الهجوم على المدن الهامة للمسلمين، لكن هذا بدأ فأغار على «برهانپور» وسلب ونهب، فاستغاث الأشراف وغيرهم بالملك، وكان في ذلك الوقت قد فرغ من حربه مع الراجپوت واستقر له الأمر كما قدمنا، فتوجه بنفسه على رأس جيش عظيم إلى الدكن، ليقتضى على هذا المشاغب. ويصفي حسابه معه ومع الدولتين الإسلاميتين بيچانپور وكولسكنده.

أما سنهاجي فلم يقو على مواجهة جيش الملك، وداخله الرعب حين توجه الملك بنفسه للجنوب، فأنكمش وانصرف إلى لوه وترفه، وتقدم المغول فأخذوا بعض مقاطعاته التي ورثها من أبيه، ثم زحف جيش مغولي آخر بقيادة «مقرب خان» واستطاع القبض عليه، وسيق مقيدا على فيل يشاهده

(١) يقول عنه جوستاف لوبون في كتابه حضارة الهند ص ١٤٨: والأفاق سيواجي هو الذي أسس دولة المراتها وجعل من تلك البلديات الزراعية الصغيرة المجهولة الأمر أمة مجاربة مرهوبة في القرن السابع عشر، وهو الذي ألف عصابات ذات بأس شديد فارت في الدكن وألقت الرعب في المدن حتى هدمت الدولة المغولية.

وقد مرتت ببلدة تسمى gosty في ولاية «اندرابديش» شمال مدراس في ١٦٥٧/١٢/٣ وقال لي مولانا الدكتور عبد الحق مدراسي أنها كانت مركز سيواجي وله فيها قلعة ظلت حتى حياها السلطان «حيدر علي» حين استولى عليها من المراثنا.

الناس ويشمتون فيه ؛ لما أصابهم منه من ظلم وعدوان ، وفي مجلس الملك أساء وزيره الذى كان معه إلى المسلمين ، وأخذ يهاجمهم بما جعل الملك بغضب ويعاملهما بالقتل ، لكنه فى نفس الوقت احتضن ابنه « ساغو » ، ورباه وقربه إليه ؛ مما جعله دائما يذكر هذا العطف بكل إخلاص ووفاء حتى مات .

ولكن الأمر مع ذلك لم ينته ؛ فقد قام « رام راجا » أخو سنبهاجى خلفاله ، واعتمد على الإغارات والسطب والنهب هنا وهناك ، فتعقبته جيوش الملك بقيادة « سردار ذى الفقار خان » حتى اضطرت له للفرار إلى « برار » سنة ١١٠٩ هـ - ١٦٩٨ م ، وانتهى أمره ، وتفرق أمر المراهة ، لكنهم كانوا لا يزالون يغيرون ويلجئون للجبال فى كوكن وغيرها ، وكان الملك قد تجاوز سنه الثمانين ، ومع ذلك صمم على قطع دابر هؤلاء وإخادهم ، فظل فى الدكن عدة سنوات حتى قضى على كل حصن لهم ، وخضد شوكتهم تماما وأقر الأمر فى الجنوب كله ، وكان ذلك سنة ١١١٦ هـ - ١٧٠٥ م . لكن عمالاشك فيه أن القوة الغلابة هى التى أسكتتهم ، ومثل هؤلاء يفتنون أول فرصة لضعف المسلكة ، ويهبون للهجوم عليها والاستقلال عنها .

فلترك هؤلاء إلى حيث انتهى أمرهم ، ولعد إلى أمر بيجاپور وگولكنده .

الاستيلاء على مملكة بيجاپور وگولكنده :

كانت فى الجنوب - كما ذكرنا من قبل - خمس دول إسلامية ، قامت على أنقاض الدولة البهمنية ، وقد أخذ المغول يقضون عليها الواحدة بعد الأخرى ويضمونها إلى ملكهم ، ولكن بقيت دولتان تتمتعان باستقلالهما ، وفى عهد شاهجهان هاجمها ابنه أورنگزيب ، وأرغمهما على تأدية الخراج ، وعدم معاونة الخارجين على سلطان المغول فى الجنوب ، ولكنهما لم يوفيا بعهدهما ، فتباطأ فى أداء الخراج ، وأخذا يعاونان سينا جى ثم سنبهاجى وغيرهما على المغول فكانا مع المراهة جرحا كبيرا فى جسم الدولة يحتاج إلى علاج حاسم وسريع ، ولذلك سافر الملك للجنوب بعد أن انتهى من أمر الراجپوت - كما

قلنا من قبل - وأخذ يعالج هذه الأمور جميعها ، وقد ذكرنا أمر المراهنة ونهايتهم ، وبقى أن نذكر أمر هاتين الدولتين .

حينما ذهب الملك للجنوب أخذ يرأسلها بشأن الخراج ، وإعائتهما لأعدائه وتواطئهم مع الهندوس ضده ، وأرسل ابنه ، محمد معظم ، بجيش صغير إلى « بيجاپور » ، لكنه لم يحرز نجاحا ، فأرسل له مددا آخر بقيادة « غازى خان » ، فاتقى بجنود بيجاپور فى « إندى » ، وانتصر عليها وزحف إلى العاصمة وحاصرها سنة ١٠٩٤ هـ - ١٦٨٣ م ، وطالت المحاصرة حتى وقع الخلاف بين قواد المغول ؛ بسبب ما علوه من تأمر « معظم » مع البيجاپوريين ضد أبيه ، وتعاونيه معهم سرا ضد القواد الذين معه ، فاضطر الملك للذهاب إلى هناك ، والإشراف على الحرب بنفسه ، مما أرغم الملك إسكندر شاه على التسليم فى ذى القعدة سنة ١٠٩٦ هـ - ١٦٨٥ م وأصبحت بيجاپور من أملاك المغول ، وقد أحاط أورنگزيب الملك اسكندر شاه وحاشيته بكل أنواع التكريم وأعطاهم الإقطاعات الواسعة .

أما كولاكند فقد كانت أشد عداوة للمغول من بيجاپور ، كان ملوكها من الشيعة ، وقد سبق أن أجبرهم شاهجهان على التعهد بدفع الخراج ، وعدم سب الخلفاء الراشدين والتبرؤ منهم ، وعلى ذكر اسمه فى الخطبة بدل اسم شاه إيران ، ولكن ملوكها لم يخلصوا فى تعهدهم ، لاسيما « أبو الحسن تانا شاه » الذى تأخر فى دفع الخراج ، وأمد سيفاجى بالسلاح ، وعاونوه ضد المغول ، وأكثر من ذلك ، كان قد أعد جيشا كبيرا لمساعدة بيجاپور حين حاصرها الملك ، وزحف جيشه فعلا إلى هناك فى الوقت الذى كانت بيجاپور قد انتهت ، وشرع المغول فى الزحف إليه لتصفية الحساب معه هو الآخر .

كان أبو الحسن شاه منصرفا إلى لوهه ، تاركا أمور الحكم كلها فى يد وزيره الهندوسى « مادانا بانديت » ، وقد نصحه كثير من الأمراء بعدم معاداة المغول ، وبوجوب الوفاء لهم بالتزاماته ، لكنه لم يستمع لنصحهم واستمر فى عناده .

كان جيش المغول الزاحف بقيادة محمد معظم ، سنة ١٠٩٦ هـ - ١٦٨٥ م وكان في حاشيته وأمراء جنده كثير من الإيرانيين الشيعة الذين يتلاقى هوام مع أبي الحسن ، أو على الأقل يعطفون عليه لاتفاقهم جميعا في المذهب ، وكان معظم نفسه متشجعا من هؤلاء بالعطف على الشيعة وعلى أبي الحسن بنوع خاص ، وقد أدام ذلك إلى أن أرسلوا لأبي الحسن ببعض شروط كانت خفيفة ومقبولة ، ولكن روحه العدائية جعلته يرفضها ويخرج بجيشه للحرب ، فلم يستطع أكثر الناس عطفًا عليه أن يقف بجواره ، فوقع الحرب وانتصر المغول ، ودخلوا بلدة حيدر آباد ، عاصمته فالتجأ أبو الحسن إلى حصن كركندة ، قريبا منها ، ثم اضطر أخيرا إلى التسليم بالشروط المفروضة عليه ، ومنها حبس مادانا بانديت ، رئيس وزرائه ، وأداء الخراج ، وتسليم الأرض التي أخذها من المغول من قبل ، وكانت شروط خفيفة بتأثير معظم الإيرانيين الذين معه أيضا ، لكن أورنگزيب رضى بها على ما فيها . وانتهى أمر مادانا ، بأن قتله بعض الخدم تخلصا منه . أما أبو الحسن فقد عاوده داؤه القديم ، ولم يوف بالشروط واستعد للحرب ، فارتحل الملك إلى حيدر آباد ، وأعاد حصار حصن كركندة - وكان منيعا - فطال الحصار ، واكتشف الملك أن ابنه معظم ، والإيرانيين معه يتآمرون مع أبي الحسن على سلامته ، فحبسه مع من معه ، وثبت مع جيشه برغم المطر وقلة المونة حتى بدأ الفرق في صفوف المحاصرين ، وتقدم أحد قواد أبي الحسن ، وفتح باب القلعة فدخلها المغول ، واستولوا عليها وعلى ما فيها من أموال ومجوهرات واعتقلوا أبا الحسن سنة ١٠٩٨ هـ - ١٦٨٧ م بعد ثمانية أشهر من الحصار ، وبذلك انتهت كركندة المستقلة ، وأصبحت هي الأخرى ضمن أملاك أورنگزيب ، ولم يبق في القارة الهندية كلها خارجا عن أملاكه إلا المملكة الهندوسية في الطرف الجنوبي للهند ، فيجايا نكر ، ، فالتسعت مملكته اتساعا لم يشهده ملك من قبله أو من بعده ، حيث ضمت الهند وآسام وأراكان في بورما ، وكذلك أفغانستان . وكانت تلك هي الذروة التي وصل إليها ملك المغول

وسبق أن ذكرنا أن جيش الملك ظل معنيا بعد ذلك بالقضاء على الجيوب التي كان يؤلفها المراهتا في جسم الدولة حتى انتهى من أمرهم تماما سنة ١١١٦ هـ - ١٧٠٥ م ، ولكنه لم يعمر بعد ذلك طويلا ؛ فقد توفي في ١٠ أحمد نكره بالجنوب في ٢٨ ذى القعدة سنة ١١١٨ هـ - ٢٠ فبراير سنة ١٧٠٧ م بعد أن حكم ٥٢ سنة ، وعمره نحو تسعين سنة ، ودفن في ١٠ أورنگك آباد ، ولا زال قبره هناك يزار ويتبرك به .

وقد رأينا كيف قضى هذا الامبراطور حياته محاربا يتخذ من ميادين القتال سكنه الدائم ، وكأنما خلق هو لحياة النضال ، لا لحياة القصور ، وما فيها من متاع . لم يمنعه من ذلك عمره الذي بلغ التسعين ، ومات وهو في ميادين القتال بعيداً عن عاصمة ملكه ١٠ دهل ، .. لقد كان أعجوبة من أعاجيب الزمان في مختلف نواحيه .

أورنگزيب في نظر التاريخ

ينظر المسلمون في الهند إلى أورنگزيب نظرهم إلى أولياء الله الصالحين ، ولم تستقر هذه الفكرة في أذهان المسلمين على مر القرون عبثا ؛ فإن ما عرف عنه من تدينه وورعه وزهده وتمسكه بتعاليم الشريعة يرتفع به إلى هذا المقام بلا شك ، وهذا هو الذي دفع المؤرخين الهندوس والأوربيين إلى التهجم عليه ، وتشويه سمعته ورميه بالتعصب ، ومشى معهم في هذا الموكب بعض المؤرخين المسلمين من الشيعة ، لأنه قضى على ملك الشيعة في الجنوب فأصبح مذنباً في نظرهم كذلك ومتعصباً .

ولا شك أن كلمة «متعصب» هذه كثيرا ما سمعناها من الأوربيين ، يرمون بها كل مسلم عامل بتعاليم دينه السمحة التي تكره التعصب وظلم الغير مهما كان دينه ، وهي كلمة تجرى كثيرا على لسانهم ، يخوفون بها المسلمين الذين ضعفوا أمام هجمات الغرب الحارة والباردة ، حتى أصبح من السهل على المسلم الضعيف إن يتنازل عن كثير من تعاليم دينه وشعائر عقيدته في سبيل ألا يرميه هؤلاء

بالتعصب ، وهم في ربههم المسلمين المتمسكين بدينهم بهذه التهمة متلبسون بها ؛ لأنهم ما دفعهم على هذا إلا تعصبهم ضد المسلمين ، وحقدهم على كل مسلم صحيح العقيدة سليم العمل بها ، ولذا وجدناهم يؤلفون مركبا يزفون فيه ، أكبر ، الذي خرج على دينه ، وتاه بين الأديان ، وسموه متساحا ، فأصبحت كلمة التساح عندهم تساوى تنازل المرء عن عقيدته ، وتلاعبه بما تفرضه عليه من واجبات ، ونحن لا نزال نرى الآن كلمة « تعصب » هذه يرمى بها ساسة الغرب وكتابه وصحافته كل مسلم مخلص لوطنه ودينه ، وكل جماعة إسلامية تحاول إعادة المسلمين إلى تعاليم دينهم ، فإذا نحن قرأنا في كتب التاريخ وصف أورنكزيب بالتعصب فتحن ندرك تماما معنى هذه الكلمة ونقرؤها على أنها أكرم وصف لهذا الملك ، راجين أن يكون كل ملوك المسلمين ورؤسائهم على نفس أورنكزيب فهماء لدينهم ، وعملاء بتعاليمه السمحة ، التي يلقي المخالفون لها في ظلها كل أمن ودعة واستقرار ، ما داموا لا يعتدون عليها ولا على معتنقيها . لقد أراد أورنكزيب أن ينفذ الإسلام في ملكه ، وهذا ليس عيا يعاب عليه ، ولم تكن تعاليم الإسلام في يوم من الأيام ظلمة أو ممتنة ؛ فإن الكثيرين من المسلمين دخلوا الإسلام بعد أن أحسوا حسن معاملته ، وحرصه على إقامة العدل والحرية بينهم ، وإن المنصفين لا يمكنهم أن يجدوا في أعمال أورنكزيب انحرافا أو إكراها لأحد على اعتناق الإسلام ، أو تعصبا دينيا حمله على ظلم غير المسلمين . فإذا كان قد حارب الزاجير والمراهنة وأخضعهم فقد حارب ملكي بيجاپور وگولكنده المسلمين وأخضعهما ، بل حارب إخوته من أجل استقرار الحكم له . ومن الممتنع به تاريخيا أنه كان يحسن لهؤلاء بعد أن يستسلموا له ، ويغدق عليهم ويعطيهم المناصب ، وكثيرا ما كانت تتكرر منهم الإساءة ونقض العهد ، ولكنهم كانوا يلقون منه صدرا رحبا ، واستعدادا للعفو في كل مرة . وما قتل سنهاجي ووزيره إلا لما بدا من الوزير من تهجم على الإسلام والمسلمين في مجلس الملك حين أتى بهما مقيدين ، وما كان لتبجح المغرورين إلا السيف ، ومع ذلك احتضن الملك ابنه « ساغو » . وأغدق عليه النعم التي ظل يذكرها ويثني بها حتى مات .

ولقد كان كثير من قواده من الراجپوت ، وكان يستعين بالمراهتا ، وكذلك جميع الهندوس . فالأمر إذن لم يكن أمر دين يتعصب له تعصبا أعمى ، وإنما كان أمر حكم يجب أن يستقر ، وسياسة يجب أن تنفذ ، ولو كان متعصبا لما سلم قيادة جيوشه لقواد من الهندوس ، ولما وضع في يدهم أمور الناس ، ولو كان متعصبا يهدم المعابد بتعصبه لما بقى في الهند على الأقل هذه المعابد الكبيرة القديمة التي نراها الآن في دلهى وأكرا ومترأ وأررنكك آباد وغيرها من المدن الكبيرة في الهند ، حقيقة إنه هدم بعض المعابد ، لكن ذلك كان لضرورة حرية أو وقتية ، ولم يكن لسياسة مرسومة في الهدم ، ومن المعلوم كذلك أنه أقام وسمح بأقامة بعض المعابد ، فلا يتصور إذن أن يكون التعصب الأعمى هو الذى دفعه إلى هدم بعض المعابد (١) .

وحين فرض الجزية لم يكن هدفه الإذلال لبعض رعاياه ، بل كان يرمى إلى تنفيذ جزئية من التعاليم الإسلامية . والجزية ليست إلا ما لا يؤديه غير المسلمين للدولة نظير ما يؤديه المسلمون من واجبات الدولة خاصة بهم ، كالزكاة والجهاد ؛ لى تقوم بواجباتها نحو الشعب من حفظ الأمن وتنفيذ المشروعات العامة ، وليس من العدل أن يفرد المسلمون بأداء هذا الواجب للدولة دون أن يفرض نظيره على غيرهم ، وفى الوقت الذى فرض عليهم فيه الجزية أعفاهم من بعض الضرائب ، لأنه وجدها مخالفة لتعاليم الإسلام ، فلم يكن الغرض تعصبا أو أخذ مال وكفى ، ولكن كان الغرض صبغ دولته بالصبغة الإسلامية التى تحترم حقوق الآخرين وحرىاتهم فى حدود القانون .

جاء فى كتاب « باكستان ماضيا وحاضرها » (٢) عن أرنگزيب ، كان

(١) ملخصا من تاريخ الهند لسيدها شمسى ص ٢٥٩ . ومن كتاب الأستاذ حبيب أحمد . وقد جاء فى نزعة الخواطر ج ٦ ص ١٣٠ فى بيان مآثره « من ذلك أنه وقف خانقا كثيرا من العلماء والمشايع ليشغلوا بالعلم والعبادة متطولين فارغى القلوب عن كل هم ولم يفرق فيها بين أهل الإسلام وكفار الهند ، وتوجد منشيره عند أخبار الهند وفى « بنارس » وغيره حتى اليوم . ١ هـ (٢) من مجموعته اخترنا لك ص ١٦ .

من أهدافه أن يجعل من بلاد الهند وحدة إسلامية ، فتخلى عن سياسة جده ، وفرض الجزية على غير المسلمين من الهندوس . وليس معنى هذا أنه كان متعصبا ، دينيا ، بل كان يريد دولة إسلامية لحما ودما ، تتبع التعاليم الإسلامية في العدالة والمساواة دون تعصب يضر بمصلحة غير المسلمين ، فحين أشير عليه بفصل الموظفين الذين لا يدينون بدين الدولة من المناصب العامة كتب يقول : « إن الدين لا علاقة له بالمسائل العلمانية ، وهذه المسائل التي نحن بصدد حلها لا مجال فيها للتعصب » .

فالتعصب الذي يدفع المسلم إلى الظلم لم يكن موجودا قطعا عند عالميغير ، ولكن التعصب بمعنى الإخلاص للدين الذي يحرم الظلم والذي لا يؤدي إليه كان مستوليا عليه حقا .

وبما لا شك فيه أن فرض الجزية قد خلق له متاعب شتى ، كان في غنى عنها لو ترك الأمور تجري كما هي منذ عهد أكبر ، ومن هذه الناحية يمكن أن ينقده المؤرخ كرجل سياسي كان عليه أن يغلب الحكمة السياسية على بعض تعاليم دينه ، ولكن عالميغير لم يكن قطعاً من هذا الطراز ، بل كان الإخلاص للدين مستوليا عليه ، فجعل الحكم وسيلة لخدمة الدين ، ولم يجعل الدين مسخراً لأهواء الحكيم . وكفاه بذلك - في نظر كل منصف - فخرا وشرفا .

ومن الأشياء التي يتهمة بها مؤرخو الفرنجة ، أنه بدأ يخطط الأهالي بعضا عسفه ويفحش في الجبايات والمكوس ،^(١) .

ونحن نضع بجوار هذا الادعاء ملخص ما جاء في كتاب المسألة الهندية^(٢) . ولما كانت المجاعة وضعف الرياح الموسمية قد أجذبت البلاد فقد ألغى ثماني ضرائب ، وإن كان حكام الأقاليم قد استمروا في تحصيلها لأنفسهم ليعاجروا بها نفقاتهم الكثيرة . إلا أن أورنگزيب لم يفتأ يصدر التلميحات إلى

(١) نقل عن حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ٣١١ (٢) للاستاذ عبد الله حنين ص ١٨٧

نقل عن كتاب حكم المغول في الهند ص ٢١٢ وكتاب « من أكبر إلى أورنگزيب » ص ٢٧١ .

الموظفين لتخفيف الأعباء عن الأهليين ، فهو إذن كان يحمي الشعب من عسف الموظفين .

ويقول المؤرخ الهندي الكبير مولانا شبلي نعماني في كتابه عن أورنگزيب بالأوردية ما ترجمته : « كان في سابق عهده يؤخذ كثير من المحاصيل التي لأصل لها في الدين فأبطلها ، وجعل أساس التحصيل متمشيا مع تعليم الشريعة ، ولم تخسر الدولة بذلك شيئا ، وجاء في زهرة الخواطر أنه « أبطل ثمانين نوعا من المكوس سنة ١٠٦٩ هـ وكانت تحصل له من تلك الأبواب ثلاثون لكا (ثلاثة ملايين) كل سنة » .

ولاشك أن هذا يبعد الاتهام المذكور عن أورنگزيب . لاسيما إذا لاحظنا ما عرف عنه من تورع عن مال الرعية ، وحرص زائد على إنصافها كما سيأتي تفصيله . فلا يعقل أن يتورع الملك عن الإتيان من بيت المال ، ويقوم بعمل الطواقي وبيعها والأكل من ثمنها ، لا يعقل أن مثل هذا الملك يرضى بأى ظلم يقع على رعيته ، وقد علم مرة أن أحد عماله حصلوا بعض الأموال من رعاياه بعد أن ألغاه ، فغضب وعاقبه ، ورد الأموال إلى أهلها . فهل مثل هذا يقال عنه إنه كان ظالما متعسفا في تحصيل الضرائب من رعاياه ؟

ومن الأشياء التي أخذها عليه المؤرخون أنه قضى على المملكتين الإسلاميتين : بيجاپور وگولكنده ، وكانت سدا بينه وبين المملكة الهندوسية في الطرف الجنوبي ، فيجايا نگر ، مما جعل حدوده تتصل بها ، وتصبح أداة تهديد للدولة المغولية ، ثم يزيدون بأنه ما كان يصح أن يجارب دولتين إسلاميتين في سبيل أن يضمهما إلى ملكه .

ولعل القارىء حين يرجع إلى ظروف الحرب بين هاتين الدولتين وبين أورنگزيب يعرف إلى أى حد كان معذورا في هجومه عليهما ؛ فلقد اشتركتا مع الهندوس المراهتا في النهجم على أراضيه ، وقد كانت قبل هاتين الدولتين دول إسلامية ضمت إلى المغول قبل عهد عالمگیر منذ عهد أكبر نفسه مثل

كجرات وأحمد نكر، وبرار وخانديس وغيرها ، فلم نسمع صوتا من المعجبين
بأكبر أو من بعده يعترض عليهم لهذا العمل كما يعترضون على عالمكير ١١
واعتقد أنه لو ظل المغول أقرباء لما كان لهذا الاعتراض وجود ، وعالمكير
القوى لا يسأل عن ضعف خلفائه ، وتفریطهم في صيانة الملك الواسع الذى
تركه لهم ..

حضا . ما كان يصح أن تراق الدماء بين دولتين إسلاميتين لافى الهند ولا فى
غيرها ، لافى عهده ولا فى عهد غيره ، ولكنه لا يسأل وحده عن الأسباب
التي أدت إلى هذه الحرب ، وقد ذكرنا أسبابها وظروفها سابقا . مع أنها كانت
امتدادا لحروب من عهد أسلافه .

وقد ذكر مولانا شبل النعماني فى تاريخه عن أورنگزيب تفردات انفرد
بها بين الملوك لا بأس أن نذكر طرفا منها فى اختصار :

فنها : تنظيماته المالية والاقتصادية فيما يختص بالحراج والضرائب هادفا منها
إلى تحقيق العدالة والرحمة .

ومنها : أنه عين فى كل ولاية نائبا له وأعلن فى الناس : من كان له حق
على السلطان فليرفعه إلى النائب ، وأمر النائب أن يؤدى كل ما يثبت على السلطان
(أى الحكومة) من حقوق ..

ومنها : أنه خصص موظفين يكتبون كل ما يقع من أحوال رعاياه ،
ويرفعها إليه ، فكان بذلك يقف على أحوال رعاياه أولا بأول ، وكان
لا يكتفى بذلك ، بل يختبره ويفتش عنه حتى لا يخدعه الموظفون ، وكان
يعلن للناس دائما أنه ينصفهم ولو من نفسه ، وأنهم جميعا عنده سواء ..

ومنها : أنه أبطل عادة تقديم الهدايا إلى الملوك ، كما كان يفعل من قبل ،
لا سيما من الأمراء وحكام الولايات الذين كانوا يشتطون فى تعريض ذلك
من الرعية ..

ومنها : أنه كان يجلس للناس ثلاث مرات يوميا دون حاجب حتى يستطيع
كل واحد أن يصل إليه ويرفع شكواه .

وأهم من هذا كله من الناحية الاجتماعية والشعبية أنه جاء إلى الحكم والناس ينظرون إلى الملك على أنه فوق الطبيعة البشرية ، وأنه ظل الله في أرضه ، وكان الملوك يغذون هذه الفكرة ، بل يفرضونها على الشعب فرضاً ، وكان على الناس في كل صباح أن يقبلوا على القصر لمشاهدة طلعة الملك قبل الفطور ، وكانوا في زمن أكبر يعتبرونها نوعاً من العبادة ، ويسجدون للملك وإلا عدوا خارجين عليه ، حتى أنه في عهد جهانگیر سجن الشيخ أحمد سرهندي مجدد الألف الثاني كما يسمونه في الهند ؛ لأنه امتنع عن السجود للملك - كما سبق ذكر ذلك - وجاء شاهجهان ففنع هذا ، ولكن بقيت تقاليد أخرى متناهية في إذلال الشعب ، فجاء أورنگزيب وألغى كل المظاهر الممانيّة لروح الإسلام ، وأمر أن يحويه فقط بتحية الإسلام ، السلام عليكم ، وقضى على الآبهة والفخامة التي كانت تحيط بالملك في قصره ، حتى المحبرة الفضة تركها ، واستعمل المحبرة الصيني ، وبلغ من حسن خلقه وتدينه أنه عفا عن بعض الذين اعتدوا عليه مرة في الطريق ، بل ورتب لهم منحة يومية ، أما الأراضي التي كانت خاصة بالملوك قبله ، يستغلونها لنفقاتهم الخاصة فقد جعل ربعها الضخم لبيت المال ، ولم يأخذ منه إلا القليل ، وعاش طول عمره عيشة الزهاد . يقول المؤرخون الأوروبيون (١) : « كان مع قسوته هذه وسفكه للدماء بعيداً عن الضعف البشري ، فاطماً للشهوات ، يصوم ويتقشف ويعيش معيشة الزهاد ، ويراقب آخرته ، ولعل سفك الدماء الذي يشير إليه المؤرخون الأوروبيون هو ما حدث بينه وبين إخوته حين كانوا يتنافسون على الحكم ، ولا شك أن الحوادث التي وقعت إبان هذا التنافس لا يمكن أن نعتمد عليها بصورة عامة لتكوين حكم تاريخي على الرجل ، بل الذي يصح أن نعتمد عليه حقاً في هذا هو تصرفه بعد أن استقر له الأمر ، كما سبق أن أشرنا إلى هذا .

وأما الحروب فكان فيها مثل غيره . على أن الذي يراقب آخرته - كما يقولون - لا يمكن أن يكون سفاكاً للدماء اللهم إلا إذا اضطر إلى

ذلك اضطراراً محافظة على سمعة الحكم واستقراره . لقد طلق ملاذ الحياة فكان يكثّر من الصيام ، ويصلي التراويح بالناس ، ويجعل طعامه في رمضان من خبز الذرة ، ولا ينام إلا على الأرض ، ويصنع الطواقي بنفسه ويبيعها لياكل من ثمنها - والدنيا كلها بين يديه -- كما كان يكتب المصاحف لهذا الغرض - وكان معروفاً بحسن الخط - وقد أهدى نسخة من المصحف بخطه إلى مكة المكرمة ، كما كتب ألفية ابن مالك في صباه وأرسلها إلى مكة للانتفاع بها .

أما التلميم فقد ازدهر في عهده أيما ازدهار ، ولم يكن ذلك عجيباً ؛ فقد كان هو عالماً محباً للعلم والعلماء ، فكثرت المدارس في عهده كثرة لم يسبق لها مثيل ، وأجرى الأرزاق على العلماء والطلاب ليتفرغوا لدراساتهم ، وأنشأ المساجد الكثيرة ورتب الأرزاق للفقهاء بها ، كما أصلح الشوارع والطرق ، وأكثر من إنشاء الرباطات والحمامات والاستراحات لأبناء السبيل ، وكذلك أنشأ دوراً للمجزرة والمستشفيات في أكثر البلاد . وكانت عنايته بالثقافة والآداب والتعاليم الإسلامية ، وسيرته الدينية وزهده وتقواه وتصوفه مما بعث روح الحمية الإسلامية في النفوس ، وأحيا فيها ما كاد يندرس على يد أكبر من قبل ...

ومما يذكر له بالخير أنه عمل على تدوين الأحكام الشرعية للعمل بموجبها ، فجُمعت الفتاوى المشهورة بين العلماء باسم الفتاوى الهندية أو العالمكيرية ، وهي فتاوى لها قيمتها العلمية بين المشتغلين بالفتوى في العالم الإسلامي ، وقد أنفق عليها مائتي ألف من النقود المعروفة في زمنه ، وقد وضع بنفسه كتاباً في الحديث وشرحه بالفارسية جمع فيه أربعين حديثاً ، كما حفظ القرآن بعد توليته العرش (١)

(١) أرخ أحد الفضلاء لبدء حفظه بقوله تعالى : سنقرئك فلا تنسى : ولاتنهان من الحفظ بقوله « لوح محفوظ » وذلك جرباً على العادة التي لاتزال مشهورة في الهند من استخراج الناريخ من عبارات ذات دلالة أو اختيار أسماء تؤدي لذلك .

ذلكم هو أوردنكزيب أو عالمكبير الامبراطور الذي لم تشغله دنياه
وحروبه المتوالية عن دينه وآخرته ، فكان امبراطورا لم تشهد الهند مثله في
اتساع ملكه وصلاح خلقه ، وحسن سيرته وسريته .



أوردنكزيب الملك الصالح يزور مع أولاده أحد الأولياء الصوفيين
ومجلس إمامه في غاية الخضوع وقد لبس عباءته وترى الكتب بجانب الصوف

خلفاء أورنگزيب لكل شيء إذا ما تم نقصان . . .

كان عهد أورنگزيب هو القمة التي ارتقى إليها سلطان المغول في الهند ، وكانت قمة شاهقة تحتاج إلى كثير من قوة الأعصاب وضبط النفس ، لكي يظل ذلك السلطان محتفظا بتوازنه فوقها ، لكنه للأسف لم يجد ما يحتاج إليه فهو ، وأخذ يتدحرج في طريته إلى الهاوية ، وكلما قطع شوطا بهرت أنفاسه وزاد لهته ، وتضاعفت عليه علله وجروحه ، وهو يرتطم في صخرة بعد صخرة حتى وصل إلى الهاوية ، وقد فقد كل شيء من أمارات الحياة فتلفته الأيدي القاسية الغربية لتلغه في كفنه ، وتضعه في قبرة بعيدا عن أرضه ووطنه - لتبدأ هي عهدا جديدا هو عهد الاستعمار الإنجليزي الثقيل . لقد حكم المغول الهند حكما قويا قوميا قرابة قرنين ، وكان حكما أشبه ما يكون بالعملاق الضخم القوى ، لذلك لم يقض عليه سريعا ، بل ظل ينتقل من ضعف إلى ضعف أشد منه ، حتى قضى عليه نهائيا في مدة قرن ونصف ، حيث ابتداء بعد وفاة أورنگزيب ، وانتهى سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م تلك كلمة إجمالية تصويرية تحتاج إلى تفصيل . فإليك هذا التفصيل :

شاه عالم بهادر شاه الأول

١١١٨ هـ - ١٧٠٧ م إلى ١١٢٣ هـ - ١٧١١ م



هل عرف محمد معظم بن أورنگزيب الذي ولاه أبوه قيادة جيوشه
لحصار بيجاپور فبدأ يتآمر معها ضد أبيه ١٤ وهل عرفته هو أيضا حين توجه
بجيشه للاستيلاء على گوالكنده ، فتآمر هو وبعض قواده الإيرانيين الشيعة
مع ملكها ضد أبيه ، وانكشفت مؤامراتهم فحبسهم الملك جميعاً ، ثم أطلق
سراح ابنه ، وأرسله إلى شمال الهند ، وأعطاه لقب « بهادر شاه » ، أي
الشجاع الباسل ١٤

إنه هو « بهادر شاه » (١) الملك الذي ولي الحكم بعد أبيه باعتباره ولياً
لامه ، ولعل أورنگزيب الرجل الصالح قد أصيب في أبنائه ، فقد خان ابنه
« محمد أكبر » ، من قبل ، وتعاون مع الراجپوت ضده ، وكان ذاهباً لمحاربتهم ،

(١) ولد في رجب سنة ١٠٥٣ هـ - ١٦٤٤ م في أيام جده شامبهان ، وحفظ القرآن
وقرأ العلم وتدرّب على الفنون الحربية .

وكانت نهايته أن التجأ إلى المراهتا ، ثم إلى إيران حيث اختفت أخباره ، وربما كان الجرح الذي أصاب قلب الملك الوالد من هذا هو الذي جعله ينفو عن ابنه الخائن الثاني ويوليّه العهد ...

ومع أن بهادر شاه كان ولياً للعهد فإن أخويه - محمد أعظم ، وكام بخش - لم يسلبا له بالملك ، فلم يستقر له إلا بعد حرب عنيفة معهما - منه شأن أبيه من قبل مع إخوته - فقبل أن يموت أورنگزيب أوصى أن يكون ابنه محمد أعظم والياً على مالوا وكجرات وشمال الدكن ، بينما أعطى لابنه الآخر كام بخش ، الولاية على بيجاپور وحيدر آباد ، على أن يخضعاً لأخيهما محمد معظم بهادر شاه ، حتى يظل ملكه متماسكاً ، ولكن الأخوين لم يقنعا بهذا النصيب .

كان بهادر شاه في شمال الهند ، بشاور أو كابل على خلاف بين المؤرخين . حين مات أبوه في ، أحمد نگر ، بجنوب الهند ، فسارع بالسفر إلى العاصمة ، وتولى أمر الملك ، وفي نفس الوقت أعلن محمد أعظم أنه ملك خلنا لآبيه ، فكتب إليه بهادر شاه أن والده أعطاه الولاية على مالوا وكجرات وشمال الدكن ، وإن كان ذلك لا يرضيه زاده حتى يرضى بدلاً من الحرب بينهما ، وكان أعظم فظاً جريئاً يتحدث على بهادر شاه ، فحين وصلته رسالة أخيه قال متمكماً : كان هذا الأب له - يقصد بهادر شاه - لم يقرأ قول سعدى الشيرازى الصوفى : « إن غطاء واحداً يتسع لعشرة من الفقراء ، ولكن ملكاً واسعاً لا يكون ملكين ، وتحرك بجيشه نحو الشمال ، كما تحرك بهادر شاه من أكبر آباد نحو الجنوب لمقابلته ، وفي « سراى جاجو » جنوب أگرا بنحو ١٥ ميلاً التقى الجيشان ، وسالت الدماء ، وأصيب أعظم وتفرق جيشه . وكان ذلك في ربيع الأول سنة ١١١٩ هـ - يونيو ١٧٠٧ م .

وبدأ بهادر شاه بعد ذلك ينظم شؤونه . فحمل أحد قواده الشيعة أميراً للأمرام بمثابة رئيس الوزراء وهو « منعم خان » ^(١) ولعلنا نذكر حين حملة گولكنده

(١) هو الأمير منعم بن سلطان الأكبر أبادى ، تولى عدة مناصب ، وتقرّب إلى مالگیر ، =

كيف كان بهادور يظهر الميل الكثير للشيعية ويعطف عليهم^(١) ، ولذا سلم أمور الدولة لهذا القائد الشيعي ، الذي بدأ في صبغ البلاد صبغة شيعية ، مما جعل أهل السنة يشعرون ، وكادت تكون فتنة ، لو لا أن تداركها الملك ، وأزال ما يشكو منه السفيون . .

مع الراجپوت :

كان الراجپوت قد اضطروا للسكون والخضوع أمام قوة المكيير ، فلما توفي وقامت الحرب بين الآخرين انتهزوا هذه الفرصة ، وتجمع راجا جوديبور مع راجا أوديبور ، وأعلنوا العصيان على سلطة الملك . فذهب الملك لأجمير ، وأرسل ابنه عظيم الشأن مع منعم خان على رأس جيش لإخضاعهم ، وتم لهم ذلك ، ولكن شفع لهم منعم خان فعفى عنهم ، ثم أرسل إليهم قاضى القضاة لتعيين الخراج وتحصيله ، ولكنهم عادوا بعد ذلك للثورة ، حينما كان الملك فى الجنوب ، وقتلوا قائد قلعة أجمير ، فسارع الملك إليهم ، ولكنهم أسرعوا فطلبوا العفو ، فعفا عنهم أيضا .

مع أخيه كام بخش :

وحين رجع بهادور شاه من أجمير إلى العاصمة كتب لأخيه الذى بدت بوادر الثورة والعصيان منه فى الجنوب يذكره بوصاية أبيه ، التى يلتزمها على أن يخاطب باسمه ، ويؤدى له المال كل سنة ، ولكن كام بخش ، كان متسرعاً سىء العمل والرأى ، فرفض أن يستجيب لأخيه ، فذهب إليه بهادور شاه ، ومن سوء حظ كام بخش أو قل من سوء تدبيره أن حاشيته كانت ناقصة عليه ؛ أسوء معاملته ،

= وتدرج فى المنصب ، ثم تقرب إلى ابنه «شاه عالم بهادر شاه» هذا ، وعاونته فى حروبه ضد إخوته فتربه إليه وولاه رئاسة الوزارة ، وكان شيعياً علانياً تقياً كثيراً المطب على الرعية توفى سنة ١١٢٢ هـ - ١٧١٠ م ، ١٠ باختصار من نزعة الحواطر ص ٣٧٥ ج ٦ .

(١) جاء فى نزعة الحواطر ج ٦ ص ١٠٤ أنه كان شيعياً ، أمر أن يدخل فى خطب الجمع والأعياد لفظ الوصى عند ذكر سيدنا على رضى الله عنه ، ولما ثار الطلاء والعامة اجتمع بالعلماء وأخذ يناقشهم ، دافعاً عن تشيعه ، ولكنه اضطرب أمام ثورة الشعب إلى الرجوع عن ذاته والموودة بالخطب لما كانت عليه ١٠ باختصار .

ولعدم دفعه رواتب الجند ، مما جعلهم يتركونه حينما علموا بتحريك بهادور شاه نحو الجنوب حتى لم يثبت معه إلا ٤٠٠ أربعمائة محارب ، فكان من الطبيعي أن ينهزم ، وقد جرح هو وابنه وجى بهما إلى الملك ، فأخذ في العناية بهما وبملاجئهما ، ولكنهما لعنادهما أصرا على رفض كل رعاية منه ، حتى ماتا متأثرين بجراحهما ، وكان ذلك في ذى القعدة سنة ١١١٩ هـ - فبراير ١٧٠٨ م .

مع المراهتا :

لم يظهر من المراهتا أى عداء ظاهرى فى عهد بهادور شاه ويظهر أن ما أصابهم من الإرهاف فى عهد أبيه من ناحية ، وما تمتع به بعضهم من عطفه الكبير من ناحية أخرى جعلهم لا يرفعون رءوسهم بحرب . كان « ساغو » أو « ساهو » كما تذكره بعض الكتب قد عاش فى كنف اورنغزيب بعد أن قتل أبوه « سنهاجى » ، وظل وفيا لنعمة الملك حتى مات ، وحين وقعت الحرب بين أبنائه : بهادور شاه وأخويه : اسناذن ساغو أن يستقر فى بلاده فأذن له كبير القواد « ذو الفقار خان » ، وعينه واليا على « كوكن » من قبل المغول ، على أن يقوم بتحصيل الخراج ويسلمه للدولة نظير نسبة يأخذها منه ، كما تعهد بإصلاح بعض الأراضى ، وكان هذا العمل هو اللبنة الأولى فى بناء قوة المراهتا ودولتهم التى صارت أكبر خطر على دولة المغول بعد ذلك ، مما جعل المؤرخين يأخذون على بهادور شاه هذه الغلظة .

مع السيك :

أول مرة تظهر فيها هذه الطائفة على مسرح السياسة ، وتدخل من باب التاريخ ، ولذا يناسب أن نعطي عنها فكرة ولو موجزة للقارىء .

امتاز القرن الخامس عشر بقيام طائفة من المصلحين الهندوس بعد اختلاطهم بالكثير بالمسلمين ، وكان غرضهم إصلاح الهندوسية وما يخالفها من عبادة الأوثان والتفريق بين الطبقات ، مثل « بابا كبير داس » ، « سوامى ولب » ، « أجاريا » ، « مهاتما جيتيه » ، « كروناتك » ^(١) ، « NANK » . وهذا الأخير هو الذى أسس مذهب « السيك » .

(١) معنى « كرو » عظيم . قديس .



جرو نانك

ولد في سنة ٨٨٧٤ هـ - ٦٩، ١١ م، بالقرب من مدينة لاهور، وسلك طريق
الصوفية، كما يقال إنه استرشد بطريقة الصوفي الكبير بابا فريد الدين
شكر گنج، المشهور بالهند، وقرأ القرآن وذهب إلى مكة للحج، وكانت
دعوته تقوم على التوحيد والمساواة، وإن كان يقول بالتناسخ كهندوس،
وقد لقيت هذه الدعة نجاحا في البنجاب وسمى أتباعه بالسليك، أو السيخ
أي المریدين.. وأتباعه الآن لا ينكرون استرشاده بطريقة ولي الله بابا
فريد الدين، كما لا ينكرون ذهابه لمكة، بل سمعتهم يذخرون بذلك،
والمسلمون يقولون إنه كان مسلما حقيقيا، وأخذ يدعو إلى مذهب وسط
حتى لا يفر منه الهندوس، ولكنه مات قبل أن يكشف لأتباعه عن
حقيقته، فبقى مذهبه مستقلا..، وكانوا في مبدئهم جماعة صوفية يعبدون الله
على طريقة الصوفية. وإن كان مظهر حياتهم العامة كهندوس، وكان شعارهم
المحبة والتسامح والتطهر من الآثام، ولا يهاجمون الرسول صلى الله عليه وسلم
بل يعتبرونه مرشدا عظيما وتوفي... نانك، سنة ٩٤٥ هـ - ١٥٣٨ م.

وقام بعده بالإرشاد ، وكروآنكد ، وهو الذى أسس لغتهم المعروفة باسم
كرونيكى ، (١) وتوفى سنة ٨٩٦٠ - ١٤٥٢ م وخلفه ، كرو أمرداس ، وهو
الذى أسس مدينة ، أمرتسر ، عاصمتهم الروحية فى قطعة أرض أعطاهما لهم
الامبراطور المسلم ، أكبر ،

وخلفه صهره ، كرورام داس جى ، الذى توفى سنة ٩٨٩ - ١٥٨١ م ،
بخلفه ابنه ، أرجن ديو ، الذى جمع كتابهم المقدس ، كرات صاحب ، (٢)
وفى أيامه كان حاكم البنجاب من قبل ، جهانگیر ، هو ، جندو شاه ، الذى
أراد أن تقوم مصاهرة بينهما ، ولكنه أنكر ذلك ، فنشأت العداوة بينه وبين
الحاكم ، مما جعله يتمه بالثورة ضد الملك وبقته سنة ١٠١٥ - ١٦٠٦ م فخلفه
ابنه ، هر كوبند ، الذى أخذ يبيت فى مريدبه الروح العسكرية ، فبدأت الدعوة
تتحول تدريجيا إلى دعوة مسلحة .

ولما مات سنة ١٠٥٤ - ١٦٤٤ م خلفه ، كروهر رانى ، ثم ، هر كرشن ، ،
ثم ، تيغ بهادور ، الذى توفى سنة ١٠٨٦ - ١٦٧٥ م ، وخلفه ابنه ، كرو كوبند
سنگ ، الذى صرف همه فى تدريب أنبائه تدريجا عسكريا ، ومكث نحو
عشرين سنة بهم بين جبال الهملايا ليعودهم حياة الحشونة والحرب ، وقد بدأ
بعد ذلك يستعمل القوة الحربية ، فاستولى على البلاد الجبلية ، وسلب ونهب
مافيها ، ثم تقدم للبنجاب ينهب ويقتل ويدمر ، وكأنه يستعرض قوته الحربية ،
فقصدي له حاكم البنجاب ، وظلت الحروب بينهما قرابة اثنتى عشرة سنة هلك
فيها آلاف من زهرة أنبائه السيك .

ثم حل الصفاء محل الحرب ، وذهب مع ، بهادور شاه ، المغولى إلى الدكن
ليحارب فى صفه ، ولكنه قتل هناك ، وقيل إنه غرق ، فقام أحد أنبائه
واتهم المسلمين بتدبير قتله ، وادعى أنه هو ، كوبند سنگ ، نجاه الله من تدبيرهم ،

(١) وهم الآن يقومون بحركة كبيرة فى البنجاب لجل هذه اللغة لغة رسمية للناطقين بها أدى
الى صدام بينهم وبين الهندوس .

(٢) جمع فيه أقوال المرشدن السابقين ، وسميت أنه يتضمن كثيرا من معاني الآيات القرآنية .

ورجع إلى البنجاب ليث الحقد والكرهية في نفوس أتباعه للمسلمين ، ولىشن حربا متواصلة بينه وبينهم فهاجم قلعة « سرهند » بقوة عظيمة ، وقتل قائدها واستولى عليها سنة ١١٢٠ هـ - ١٧٠٨ م ، ثم سيطر على المناطق الشمالية كلها حتى امتد نفوذه قريبا من دلهي ، وقتل الآلاف من المسلمين والهندوس على السواء ، فجرد لهم « بهادور شاه » جيشا تحت قيادة ابنه « عظيم الشأن » واستعد له السيك بجيش عظيم ، لكنهم انهزموا هزيمة نكراء ، وطاردهم الجيوش الملكية ، وحاصرتهم في حصن « لوكره » ، واستطاع قائدهم « بندا » الذي ادعى أنه « كوبندسنگ » أن يفر من الحصار ، بينما تقدم أحد أتباعه المخلصين وسلم نفسه على أنه النائد ، وبذلك أخمدت هذه الثورة ، ورجع الملك إلى « لاهور » ، وتوفي بعد ذلك بعدة شهور (محرم : سنة ١١٢٣ هـ - ١٧١١ م) .

وقد كان مايقه « السيك » على أيدي المسلمين في هذه الموقعة وما تلاها من التنكيل والانتقام سببا في ازدياد العداء وتمكنه في قلوب السيك للمسلمين ، حتى استمر العداء بينهم على مر الأيام ، برغم أنهم أقرب الطوائف بعضها لبعض من الناحية المذهبية ، وقد تجلى ذلك بشكل واضح في أيام التقسيم سنة ١٩٤٧م وما حدث فيها من مذابح ، حيث كان السيك أسرع الناس إلى قتل المسلمين والمسلمات والتنكيل بهم والتمثيل بجثثهم ، لإشباع ما في نفوسهم من حقد تاريخي على المسلمين ، وقد زرت معبدكم الكبير في دلهي في شارع « جانني چوك » ، وكانوا مجتمعين فيه للعبادة ، فأحاطوا بي مرحين حينما عرفوا أنني مصري ، وسألتهم عن يعبدون ولمن يسجدون ؟ فقالوا الله الواحد ، وكان واعظهم يعظمهم ، وبعد ما انتهى من وعظه أخذ يعطى كل واحد منهم شيئا من الطعام للبركة ، وحاول أن يعطيني ، ولكني اعتذرت ، لأنهم يأخذونه في أيديهم ، وبه السمن أو الزيت الكثير ، ثم أخذوا يطلعونني على الحجرة التي كان محبوسا فيها أحد زعمائهم في أيام الملوك المسلمين .

وقد أفيم المعبد في نفس المكان منذ خمسين سنة ، وقبل أن أخرج جاءوا

بعقود الورد. ووضعوها في عنقي على طريقتهن في تكريم ضيوفهم ، وأعطوني بعض الكتب عن مذهبهم ، وقد زرت أيضا معبدهم الصغير في مدينة ديوبند ، التي كنت أفيم فيها ، ورأيت كتابهم المقدس محفوظا في مكان بالمعبد ، وحينما يحضرون للعبادة - وغالبا ماتكون في الصباح الباكر - يضعونه على منضدة وسطهم ويتعبدون ويرتلون شيئا منه ، ورأيت في جانب آخر للطبول الخلفة الأحجام مع الزامير التي يستعملونها عند ترانيلهم ، وقد تقابلت مع كثير منهم من مختلف الطبقات ، وتحدثت معهم فكانوا في غاية الرقة ، وعرفت منهم أن لهم لوازم خاصة يمتازون بها عن غيرهم ، ويعتبرونها من شعار دينهم ، فهم يطلقون شعورهم لا يعتدون على أيه شعرة في جسمهم^(١) ، ولذا تجد شعورهم وطويلة يلفونها تحت عمامة يتميزون بها حتى الأطفال في المدارس ، وتبع ذلك ميزة ثانية هي ، المشط ، الذي يلازمهم دائما لتشط شعورهم ، ومنها الأسورة الممدنية الخفيفة في اليد كالغويشة ، سألت أحدهم ولماذا هذه ؟ - وكان ضابطا فقال : لأنها من تعالينا ، وتذكرني بالله . ومنها الخنجر ، فكل منهم لابد أن يحمل خنجرا صغيرا أم كبيرا ، ومنها اللباس القصير تحت الملابس كما تفعل نحن عادة . وعامة أهل الهند لا يلبسونه ويكتفون بلبس السراويل الطويلة البيضاء مثل البنطلون وإن كانوا لا يثنون طرفها ، وهم يحرمون الدخان على أنفسهم ، بل ويتضايقون من رائحته . وقد لاحظت أن بعضهم كان يترك مكانه إذا دخن أحد بجواره ، وهم شديدو التمسك ببعاليمهم ، مقبلون على التلميم أكثر من غيرهم ، وكثير منهم يفضلون العمل في الجيش ، وهم الآن يطالبون بولاية خاصة لهم واعتبار لغتهم لغة خاصة ، وإن كان عددهم قليلا لا يصل إلى عشرة ملايين ، لكنهم نشطون ومتعاونون وأكثرهم مثقفون .

(١) والمسلمون في الهند يحافظون على إعفاء الأعي وطلوبتها كذلك حتى يكاد مظهرهم ينفق مع مظهر البك ، لولا أن المدين يتصون شر اشارت ، وهذون لحم وهذا محرم عند البك ذلك هو الفارق في النظر ، وقد غنى على كثير من زوار الهند .

جهان دار شاه ، وفروخ سير^(١)



فروخ سير

كان عظيم الشأن بن بهادر شاه خيرا بشؤون الحرب والإدارة ، تربى في رعاية جده أورنگزيب ، ورائق أباه في كثير من الحروب ، وقاد بنفسه بعض الحملات التي كتب له فيها النصر ، وكان من حسن حظ الدولة أن يتولى أمورها بعد أبيه ، لكنه أصيب في الحرب التي دارت بينه وبين إخوته من أجل العرش ؛ ففضى عليه قبل أن يستقر على العرش ، وبعد ذلك استطاع « جهان دار شاه » بمساعدة « ذى الفقار خان » أكبر القواد أن يقضى على منافسة أخويه ويتولى العرش ، وكان لاهيا عابثا منصرفا عن شؤون الدولة ، جعل همه أولا في القضاء على منافسيه من إخوته وأبنائهم .

في ذلك الوقت كان « فروخ سير »^(١) - أى محمود السيرة - في بيهار ،

(١) ورد ذكره في بعض الكتب التاريخية باسم « فاروق سير » وهذا خطأ لأنه نشأ عن الترجمة من الإنجليزية مع عدم معرفة معنى « فروخ » بتشديد الراء واسم فروخ كثير في الهند ومما هنا عمود السيرة والبقية .

فأخذ يعمل لجمع الحكام حول أبيه عظيم الشأن ، عندما علم بوفاة جده .
 لكنه أذاه نبا قتل أبيه سريعا ، فأخذ يعمل على الانتقام له مستعينا بما كم عظيم
 أباد - بتنا ، الشريف حسين وأخيه ^(١) عبد الله حاكم إله آباد ، وزحف بـيشه
 إلى العاصمة ، وفي الطريق تقابل الجيشان عند كجرا ، التي تقابل عندها من
 قبل أورنگزيب وشجاع من أجل الخلاف على العرش أيضا ، وكان السادات
 من قبل يعارنون وشجاعا ، وإذا كانوا قد هزموا حينذاك فإن من جاء بعدهم
 استطاعوا أن يكسبوا المعركة مع فروخ سير ، ، وقد ساعدتم على ذلك
 الخلاف الذي دب بين صفوف الجيش الملكي حتى مزقه ، وجعل جيش
 فروخ سير ، يتقدم سريعا نحو العاصمة دون مقاومة تذكر ، وهناك تقابل
 الجيشان مرة أخرى ، وكان يمكن للجها ن دار شاه أن ينتصر بـيشه لولا أنه
 كان عاكفا على اللهو والشراب مع عشرات من النساء والمغنيات والرافعات
 اللاتي جئن معه إلى ميدان القتال ، وقد استطاع الشريف عبداقه أن يصل إلى
 الخيمة الملكية ، ويهجم عليها ، فأوقع الذعر بالملك ومن معه ، فلابوا بالفرار
 ووقع الخلل في صفوف الجيش ، فانتصر فروخ ، وجلس على العرش
 سنة ١١٢٤ هـ - ١٧١٢ م .

وأخذ بعد ذلك في تطهير الحاشية ، والانتقام من أعوان الملك السابق شرانتقام ،
 وحدثت ثورة في دلهي فأرسل لقمعها الشريف عبداقه ، وأعطاه لقب قطب الملوك
 الصديق الوفي ، كما أعطاه منصب الوزارة وأعطى أخاه الشريف حسين لقب أمير
 الأمراء ، وكان هذان الشريفان هما الحاكمان الحقيقيين ، فقد كان فروخ مدينا
 لهما بنصره ، وكانا قويين فلم يستطع أن ينفذ أمام أية رغبة من رغباتهما ،

(١) من السادات الحسينيين . وقد لعبا دورا هاما في التغلب على حكم النغول ، وصار الملوك
 في أيديهما ، وكان الشريف حسين عالما فاضلا شجاعا كريما محبا لطلابه وكن أحسن من أخيه
 عبداقه الذي كان مع شجاعه جاملا مقرا مشغلا بالنساء تاركا أموره إلى أحد المندوس ، واسمه
 المنفق حسن . تقرب إلى عالمكير ولحق جاء بعده من الملوك ، وتول على « أجير » ثم على
 « إله آباد » .

فسكان من الطبيعي أن يصبح الأمر كله بيد السادات ، وأن يشعر الملك وحاشيته بالمضايقة منهم والرغبة في التخلص من سيطرتهم ، وكان في حاشيته القاضي عبد الله^(١) فأعطاه لقب « مير جملة خان خانان » ، وولاه على « عظيم آباد » تنفيذ لرغبة السادات ، كما أعطى « قليج خان^(٢) » بهادور ، لقب نظام الملك فتح جنك ، وولاه على الدكن وكان كلاهما من بكرهون السادات ويعتمد عليهم الملك . ولذا عملوا على إبعادهما عنه . إلى عظيم آباد والدكن .

ومما يجدر ذكره أن نظام الملك هذا هو رأس الأسرة المالكة التي حكمت في حيدر آباد الدكن حتى انتهت سنة ١٩٤٧ م بضم المملكة إلى الهند حين التقسيم ..

* * *

(١) هو القاضي عبد الله الخراساني نواب مير جملة . معظم خان خانان مظفر جنك قُرب إلى عالمكير فولاه القضاء ، ولما تولى فروخ مير الملك سار الله من بتنا إلى دهل ، وصار من أقرب الناس إليه ، وكان معاديا للسادات فعلا على إبعاده عن دهل فولاه ولاية « عظيم آباد » ، ثم دسج بعد مدة وتقرّب إلى السادات ونال تقديرهم حتى توفى .

(٢) اسمه قمر الدين بن غازي الدكني المعروف واشتهر باسم « نواب نظام الملك آصف جاه » عاش من عهد عالمكير إلى عهد محمد شاه . ولد سنة ١٠٨٤ هـ — ١٦٧٣ م ، ولقبه عالمكير بلقب « جين قليج خان » وولاه « بيجاپور » ، وفي أيام شاه عالم بهادور الأول ولاه على « أوده » ، ثم تضايق من الجوار حول فلزم بيته ، ثم عاد لمنصبه في عهد « جهان در شاه » ، ولما تقلّب « فروخ سير » قرّب إليه وأعطاه لقب « نظام الملك فتح جنك » . مع ولاية الدكن ، وفي عهد رفيع الدرجات ولاه على « مالوا » ، ولكنه بعد مدة سار الدكن ، وقام بالأمر فيها هنوة ، ولما تولى محمد شاه استقدمه لدهل وولاه الوزارة مع ولاية الدكن ، وظل مدة متمكناً من الفرد والسلطان ، ثم أحس بتدبير المؤامرات حوله من حشاده ومن الملك نفسه لأن نظام الملك كان يخف في سبيل شهبواته حتى انتهى الأمر بيزله عن الدكن أو بالأحرى بأخذ ولاية الدكن منه ، فاستأذن الملك في الخروج إلى ناحية الشمال « مراد آباد » ، ولكنه توجه إلى الدكن وقتل واليها ، وهزمه واستولى عليها ، ثم استرضاه محمد شاه حين جاء نادر شاه الهند ، ولقبه بأبي الأمراء ، وأقام بدهل راغياً في إصلاح أداة الحكم ، لكنه رجع لما يئس من الإصلاح ، وظل حاكماً على الدكن حتى توفى ، وظلت مملكة حيدرآباد في ذريته حتى انتهت سنة ١٩٤٧ م ، ودفن بمنابور .

وقد انتهز الراجپوت فرصة الخلاف والحرب بين الطامعين في العرش وثاروا وأسلنوا استقلالهم ، فسار إليهم الشريف حسين على رأس جيش وتمكن من هزيمتهم وفر الراجا البائر إلى الجبال ، وطلب الصفح والعفو عنه وفي هذا الوقت وصل إلى الشريف حسين كتاب من أخيه ينبئه بازدياد الخلاف مع الملك ، ويأمره بالرجوع حالا ، فرأى أن يقبل الصلح والعفو ، عن الراجا على أن يكون ابنه مع بعض الجنود الراجپوت في جنده ، ورجع إلى دلهى ، وهنا طلب الأشراف من الملك أن يعهد مير جملة ، من القصر ويوليه ولاية بهار ، وأن يتولى الشريف حسين حكم الدكن ، فقبل الملك هذه الشروط ولم يكن بد من قبولها ، وفي الوقت نفسه أرسل سراً إلى داود خان حاكم كجرات أن يتربص في طريق الشريف حسين إلى الدكن ويقضى عليه ، ولكن كتب على هذه المؤامرة الفشل ، وقتل داود خان ، وأصبح الشريف حسين سيد الدكن ، وأخذ في تقريب السادات وتوليئهم المناصب .

* * *

مع السيك:

وفي هذا الوقت قام السيك في الشمال بثورة جائحة ، وأخذوا كعادتهم في الاعتداء على المساجد والمقابر ، وقتل آلاف من المسلمين والهندوس دون تفرقة بين الصغير والكبير ، حتى كانوا يبقرون بطون الحوامل ، كما أخذوا في تدمير البيوت وإحراقها ، ونهب كل ما تصل إليه أيديهم .

وكان على رأس هذه الثورة « بندا » الذى ادعى من قبل أنه « كوبند سنك » ، وثار على المسلمين واستطاع الفرار من الحصار في عهد بهادور شاه ، فوجه لهم الملك جيشا بقيادة عبد الصمد خان فتعقبهم حتى حاصرهم في قلعتهم ، وأخيراً اضطروا للتسليم سنة ١١٢٦ هـ - ١٧١٤ م فقتل منهم نحو ثلاثة آلاف ، وقبض على ثمانمائة من كبارهم ، وعلى رأسهم قائدهم « بندا » ، وساقهم إلى العاصمة ، وسار بهم في الشوارع تشهيراً بهم ثم قتلهم .

ويقول المؤرخ الهندي سيد هاشمي (١) : إن الناس يتناقلون قصصا غير صحيحة عن هذه الواقعة ويقولون إن الملك وضع جثثهم أحياء ، وبنى عليها الجدران .. الخ . ولكن ذلك كله غير صحيح ، ولذا فإن المؤرخ ، الفيلسوف ، الذى كتب عن الهند لم يجد رواية تؤيد هذه الأقوال . كما أن المؤرخ الهندي ، خافى خان ، الذى عاصر هذه الواقعة وشهدها كتب يقول : « إن الملك انتقم من « بندا ، شر انتقام لاعتدائه على الناس وتقتيله الآلاف من الأبرياء ، وزيادة فى تعذيبه أجبره على أن يقتل ابنه يديه ، ثم قتل هو بعد ذلك .. » ولم يذكر المؤرخون أكثر من هذا ولو حدث شيء مما يتناقله الناس لكتبه خافى خان كما كتب هذه الواقعة ...

وهذه الواقعة من الحوادث التى يتناقلها السيك ويعلمونها لأبنائهم ليشيروا فيهم الحفيظة دائما على المسلمين ، ولذا نجد من أشد الناس عداوة للمسلمين . فى هذا الوقت ظهر الخلاف شديدا بين الملك وبين السادات ، وكثرت المؤامرات من الملك عليهم ، مما اضطر عبد الله أن يطلب من أخيه حسين فى الدكن أن يرجع سريعا إلى دهل ، فاستجاب له ورجع معه بضعة آلاف من جنود المراهتا ، فانزعج الملك من ذلك ، وكان جبانا مترددا ، بينما ثار الشعب على السادات ، وهاجم جنود المراهتا ، حتى فروا أمامه تاركين أسلحتهم وملابسهم ، ويقول المؤرخ « خافى خان » وهو شاهد عيان لهذه الحالة : إن المنبوذين اشتركوا فى الهجوم على جند السادات الذين فروا هلعين ، والشعب بمجرد حتى من ملابسهم ، وكان الملك يستطيع فى هذه الحالة أن ينزل ضربته القاضية بالسادات ، معتمدا على من معه من الجنود وعلى الشعب الثائر الناقم عليهم ، ولكنه لم يتحرك ولم تكن فيه نخوة الملوك التيموريين كما يقول المؤرخون ، وبذلك ضاعت الفرصة من يديه ، واغتنمها السادات ، فقبضوا عليه وحبسوه ، وجاءوا بحفيد بهادور شاه من السجن وكان اسمه « رفيع الدرجات » وأجلسوه على العرش فى ٩ من ربيع الأول سنة ١١٣١ هـ -

١٧١٩ م وبعد أيام قتلوا فروخ سير ، فثار الشعب عليهم حتى لم يستطيعوا أن يظهروا في الشوارع ..

وكان رفع الدرجات مسجونا منذ صغره ، وقد أصابه مرض العظام ، فلم يمكث طويلا في الحكم ، إذ مات في رجب من هذه السنة .

رفع الدولة :

فأجلسوا مكانه على العرش أخاه الأكبر رفيع الدولة : ، وفي ذلك الوقت كان الشعب غائبا هائجا فهجم على أكرا ، وأخرج نيكوسير ، حفيد عالمكير من سجنه ، وأجلسه على العرش بمساعدة راجا جى سنگ ، بينما كان الملك رفيع الدولة مريضا ، فأسرع السادات بجيشهم إلى أكرا ، حاملين معهم الملك ، ولكنه مات في الطريق بعد ثلاثة شهور وأيام من توليه الحكم .

محمد شاه : (١)

ورأى السادات أن الموقف يكاد يفلت من أيديهم ، فأسرعوا في طلب الشاب «روشن أختر» حفيد بهادر شاه ، وأجلسوه على العرش بعد ما قضاوا على المعارضين ، ونادوا به ملكا على البلاد باسم «أبي المظفر ناصر الدين محمد شاه» في فتحپور سكري في ١٥ ذى القعدة سنة ١١٣١هـ - ١٧١٩م ، وقبضوا على «نيكوسير» الملك الذى أقامه الشعب ، وتقدم راجا جى سنگ ، بطلب العفو فعفوا عنه ، وصفا الجو بذلك للسادات ليتصرفوا كما يشاءون ، ويتلاعبوا بأمور الملك كما يريدون ، دون أن يكون للملك أى أثر فى شؤون الملك ، ومع ذلك كان الأشراف يحسون بعدم الاطمئنان ، ويدركون أن لهم بعض الخصوم الأقوياء الذين لا بد من القضاء عليهم ، وكان «نظام الملك» أحد هؤلاء

(١) حصل لبس فى كتاب المرحوم الأستاذ محمد حبيب « بين الهند وباكستان » حيث ذكر أن رفيع الدولة اسمه محمد شاه وأنه عاش مدة كبيرة حتى جاء نادر شاه لغزو الهند . والواقع أن رفيع الدولة مات بعد شهرين كما نقول بعض الكتب أو ثلاثة كما نقول كتب أخرى ، وتولى بعده «روشن أختر» المسمى «محمد شاه» وهو الذى عاش حتى غزوة نادر شاه .

الخصوم ، فقد كان قائدا ذكيا قويا ينال تقدير الأمراء والحاشية . وكان بعيدا عن العاصمة خلال هذه الحوادث التي مرت بها .. كان في دمالوا ، حاكما عليها بعد أن أخذ الأمير حسين حكم الدكن .



محمد شاه

الصراع مع السادات :

في هذا الوقت وصلته رسالة سرية من قدسية بيكم ، أم الملك الشاب تقول فيها : « إن ملك التيمورية صار لعبة في يد الأشراف ، وإنقاذه متوقف عليك بعد الله سبحانه وتعالى ، وأن الملك أصبح دمية يحركها الأشراف ، حتى لم يعد يخرج للصيد إلا بأذنهم ، وهذا فوق أنهم الآن يدبرون الأمر لاستئصالك والقضاء عليك ، فافعل ما ترى لإنقاذ الموقف ... »

وكان نظام الملك في دمالوا ، محصورا بين نفوذ السادات في الشمال والجنوب حيث كان في الدكن حاكم من قبل الأشراف ، فرأى أن يتوجه بضربته أولا للجنوب ، وسار بجيشه سريعا إلى هناك ، واستطاع أن يهزم قوات السادات ، ويصبح سيد الدكن بغير منازع ، وكان ذلك سنة ١١٣٣ هـ -

١٧٢٠ م ، وبلغت هذه الأخبار ، أكر ، فطار صواب السادات ، وقرروا أن يقوموا بعمل سريع لإيقاظ الدكن .

وسار الشريف حسين مع الملك الشاب على رأس جيش عظيم نحو الجنوب ، وفي الطريق دبر الملك مؤامرة ، وقضى على خصمه الشريف حسين وعلى كثير من السادات ، وارتد بالجيش نحو الشمال ليقضى على الشريف عبد الله الذي أظهر الجلد والشجاعة تجاه هذه الأنباء المفجعة ، وأخذ واحدا من أبناء الأسرة المالكة ونادى به ملوكا بدلا من ناصر الدين محمد شاه ، الملك الثائر عليهم . وتلاقى الجيشان بين دلهي وأكرا ، واستمرت الحرب عنيفة يومين ، دارت الدائرة بعدهما على الشريف الذي قبض عليه ، وانتهت بذلك سيطرة الأشراف ، وتحلص الملك من تسلطهم ، واستعاد نفوذه كاملا . وكان ذلك في صفر سنة ١١٢٣ هـ - ١٧٢٠ م .

□ □ □

نظام الملك :

وكان من الممكن حينئذ أن يقوم الملك بعمل يحدد به شباب الدولة الهرمة ، ويعيد إليها ما فقدته من قوة وهيبة ، ولكنه كان عن ذلك مشغولا بلموه وعبته ، فظالت الأمور تسير في مجراها الطبيعي ، فزادت الدولة ضعفا على ضعفها ، ثم رأى أن يستدعى نظام الملك من الدكن وأنعم عليه بقلب آصف جاه ، وأعطاه الوزارة سنة ١١٣٥ هـ - ١٧٢٢ م ، وكان نظام الملك رجلا مجربا قد حنكته الأيام ، ويمكن أن يقدم للدولة الكثير من الخدمات لو تمكن له في ذلك ، ولكن القدر كان يترص بهذه الدولة ، ويحول بينها وبين أيدي المصلحين حتى تصل إلى نهايتها المحتومة . قدم اقتراحات لإصلاح حال الدولة تدور حول منع الإقطاع الذي يسبب الكثير من الفساد والظلم للشعب ، ومنع تقديم الهدايا للملوك والرؤساء لما يترتب عليها من فساد في جهاز الدولة ، وأيضا وجوب فرض الجزية من جديد بعد ما ألغيت في عهد رفيع الدولة

بمعاونة بعض راجوات الهندوس ، وأخيرا وجوب مساعدة إيران في حربها ضد بعض الأمراء الأفغان ، ردا لجميل إيران عند ما ساعدت همايون في العودة إلى العرش .

ولم ترق هذه الإصلاحات الجديدة في نظر الحاشية التي يهملها اللهو ومجالس الشراب مع الملك ، فرفضت . ففكر نظام الملك في الرجوع إلى الدكن .

وكانت هناك ظروف تضطره إلى هذه العودة بجانب رفض اقتراحاته ؛ فإن المراهتا الذين أصبحوا ذوى شوكة قوية في الجنوب بدءوا يرفعون رءوسهم ضد المسلمين في الدكن ، وبجوار هذا - تلك المؤامرة التي دبرها بعض رجال القصر ضده في الدكن ، حيث أوعزوا إلى أحد القواد « مبارز خان » في حيدر آباد أن يهجم على « أورنگ آباد » ، مركز حكم نظام الملك .

فلهذا كله عاد سريعا إلى الدكن ، وقضى على مبارز خان وقتله بعد حرب بينهما ، كما قضى على المراهتا بعد حروب عنيفة ، وأصبح نظام الملك سيد الدكن المرهوب الجانب ، لاسيما بعد أن تم الصلح بينه وبين المراهتا ، الذين انصرفوا بعد ذلك إلى جهات أخرى من أجزاء الدولة الإسلامية المنفككة ، فأغاروا على مالوا وكجرات ، ونهبوا وقتلوا ودمروا ، ولم يكن في هذه البلاد حاكم قوى يردعهم ، فأشاعوا الرعب والفرع مع سيطرتهم عليها . وكان سلطان دلهي عاجزا ضعيفا غارقا في ملذاته ومزماراته ، فزاد جهاز الدولة اختلالا وزاد طمع الطامعين فيها .

وإزاء هذه الحالة اضطر الملك مرة ثانية أن يستعين بنظام الملك سنة ١١٥٠ هـ - ١٧٣٧ م ، فاستجاب له وذهب إلى دلهي ليقف بجواره ، ولسكنه لم يمكث عدة شهور حتى هجم « نادر شاه » ملك إيران على الهند . .

غزو نادر شاه للهند

يعتبر نادر شاه مجدد شباب الدولة الإيرانية بعد ما رزحت كثيرا تحت حكم الأفغان ؛ فقد استطاع أن يرجع حكمها إلى يد أبنائها ، وأن يزحف على ما جاوره من البلاد في العراق وأفغانستان وغيرهما ويضمها لحكم إيران . . أما سبب اتجاهه للهند ؛ فقد اطلعت على روايتين مختلفتين : رواية تقول : إن بعض وزراء الملك المغولي بالاتفاق مع شاه ولي الله الدهلوي العالم الكبير لما رأوا فساد الأمور يستفحل ، وطمع الهندوس فيها ، وهجومهم عليها دون أن تستطيع ردها عنهم ، طلبوا منه أن يسير إليهم ليقضى على فساد الملك وحاشيته ، ويصد عن المسلمين عدوان الهندوس ، فاستجاب لهم وسار نحو الهند بجيوشه . .

ورواية أخرى تقول : إن بعض الأفغان الذين كانوا يحاربهم نادر شاه فروا إلى الهند ، وطلب تسليمهم فلم يستجيبوا له ، فرأى هذه فرصة لمتابعتهم والهجوم على الهند والتمتع بما فيها من أموال وخيرات ، وهذه رواية كتب التاريخ الهندية ، وأيا ما كان السبب - أحدهما أو كلاهما - فقد بدأ نادر شاه بالهجوم على قندهار وكابل ، وكانت تحت سلطان الهند فضمها إلى ملكه ، ثم تابع هجومه على الهند الشمالية حتى وصل إلى لاهور وقبض عليها وعلى البنجاب . وظلت دلهي تغط في نوم عميق حتى كان على بعد ١٢٥ ميلا منها . . حيث أعد محمد شاه جيشا سار نحو الشمال ، وتلاقى الجيشان في رمضان سنة ١١٥١ هـ - ١٧٣٨ م عند دكرنال ، في البنجاب ولم يكن الجيش المغولي بحالة تسمح له بإحراز النصر لتفرقه وتخاذله ، حتى إن القتال لم يستمر طويلا حتى انضم حاكم أوده « برهان الملك سعادت خان » إلى نادر شاه ، ولم يجد نظام الملك آصف جاء بدا من طلب الصلح ، الذي تم على أن يدفع لنادر شاه ٢٠ مليون روبية . . ولكن نادر شاه بعد ذلك اعتقل الملك محمد شاه بحيلة من حيله ، ووصل إلى دلهي منتصرا ، وأمر بذكر اسمه في الخطب ، وإزاء هذا العمل الذي اعتبره الشعب غدرا للعهد لقي نادر شاه من الشعب معارضة وثورة

اضطر إلى أن يطفئها ، فأباح المدينة لجنوده ، فعاثوا فيها الفساد ، حتى تركوها أثرا تنعى من بناها . نهبوا وقتلوا ودمروا ، فشهدت دهلي من البأساء ما لم تشهده من قبل ، فقد قتل من أهلها أكثر من مائة ألف ، وسلب منهم نحو ١٥٠ مليون روبية ، هذا فوق عرش الطاووس الثمين الذى أسسه شاهجهان من الذهب الخالص ، وكانت قيمته تساوى ستة ملايين من الجنيئات ، والجوهر النادرة فى العالم التى كان شاهجهان اشتراها من أحد التجار ، وزين بها تاجه وتوارثها الملوك ، حتى وقعت أخيراً فى يد نادر شاه . ويقال إنه حين رآها لأول مرة ، وأضاءت أمامه ذهل ، وقال فى دهشة : « كوهى نور ، أى جبل نور ! » فصارت هذه الكلمة التى أطلقها نادر شاه وهو فى حالة ذهول عليها ، وقد تنقلت هذه المسألة من يد إلى يد حتى استقرت فى تاج ملك انجلترا . . .

وعاد نادر شاه بعد ذلك إلى إيران ، ولكنه ترك الملك وملكته جثة هامدة لا حراك فيها ، تتوابع عليها النسور ، وتنخطفها الجوارح ، ويركلها كل من يقرب منها ، لم يعد للملك هبة ، ولم يعد له نفوذ حقيقى على بلاده ، بل ولا على امرأته وقواده ، فأخذوا يتصارعون .

ومن الأسف أن ذلك كله كان يحصل وأعداء المملكة حولها ينهشون جسمها من كل جانب ، سواء أكانوا من أهل الهند نفسها ، أم من الانجليز الذين ثبتوا أقدامهم فيها ، وأخذوا يعملون حسب خطة مرسومة للاستيلاء عليها . .

وشغل الملك عدة سنين مع أمرائه المختلفين ، ومع المغيرين على مملكته من المراهتا والسيك ، والراغبين فى الاستقلال من الولاة المسلمين ، على أنه لم يوفق طويلا من ضربة الغزو الخارجى حتى كان يطرق أبواب الهند غاضبا ويدا قوى هو أحمد شاه الأفغانى .

أحمد شاه الأبدالي^(١)

أو أحمد شاه الدراني الأفغاني : هجم على الهند من الشمال ، واستولى على « لاهور » ، فأرسل له محمد شاه جيشا بقيادة ابنه « أحمد » ، وتلاقى الجيشان قرب « سرهند » ، وتمكن المغول من هزيمة الأبداليين ، فرجعوا إلى كابل في ربيع الأول سنة ١١٦١ هـ - ١٧٤٨ م . وفي الوقت الذي كان فيه أحمد بن الملك يتعقب الأبداليين ويظهر البلاد منهم جاءه نبأ مرض أبيه ، فسكر راجعا إلى دلهي ، وانتهر الأبداليون الفرصة فرجعوا إلى الهند واستولوا على لاهور وتوفي محمد شاه سنة ١١٦١ هـ - ١٧٤٨ م ، وخلفه على العرش ابنه أحمد شاه ، ولم يرث إلا ملكا مريضا تجتمع عليه العلل من كل جانب ، فغرق هو الآخر في المؤامرات والدسائس والخلافات ، ومضت عليه عدة سنوات ثم كانت نهايته مؤلمة ، فقد قبض عليه أحد القواد ، وأخرج عينيه ، وأجلس مكانه على العرش « عالمگیر الثاني » ، سنة ١١٦٧ هـ - ١٧٥٤ م ..

وكان هذا القائد هو غازي الدين حفيد نظام الملك آصف جاه الذي عين وزيراً للپنجاب بعد ذلك ، وكان الأفغان يسيطرون على لاهور ، فسار إليهم وانتزع لاهور منهم ، ولما علم أحمد شاه الأبدالي بذلك تقدم بجيشه من أفغانستان إلى الهند . واضطر غازي الدين إلى الخضوع وطلب العفو منه ، فعفا عنه ، وتقدم إلى دلهي ، وكانت لا تزال عامرة بالخراب والبؤس منذ غزوة نادرشاه ، فدخلها وقضت جيوشه هو الآخر على ما كان قد بقى بها من أمارات الحياة ، ثم تقدم إلى « أگرا » وحاصرها ، ولكن الوباء تفشى في جنوده فاضطر لتركها والرجوع إلى أفغانستان سنة ١١٧١ هـ - ١٧٥٧ م .

وقبل رجوعه طلب منه عالمگیر أن يساعده على تثبيت سلطته ضد الثائرين عليه من كل جانب ، فاستجاب له وأبقى جيشا في دلهي بقيادة نجيب الدولة ليساعده على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الحطام المتناثر .

(١) سمى كذلك نسبة إلى قبيلة كان أبوه حاكما عليها ، وهو أفغاني الأصل ، كان في جيش نادر شاه ، ولما قتل قام لأخذ تاره مستعينا بالجنود الأفغان وأخذ يؤسس له ملكا ضد الفرس . وجعل عاصمته ، (كابل) .

ومن العجب أن في هذه السنة التي دخل فيها الأبدالي دهلي فاتحا منتصرا
كان الإنجليز في الشرق .. في بنگال ، يحاربون سراج الدولة حتى تمسكوا
من التغلب عليه والسيطرة على البنغال كلها ، بينما هؤلاء في دهلي مشغولون
بالحرب فيما بينهم !!

رجع الأبدالي وترك نجيب الدولة نائبا عنه ، ولكن غازي الدين الذي
استخذى من قبل أمامه لم يركن إلى الاستسلام النهائي ، فأخذ يدبر المؤامرات
ضد نائبه نجيب الدولة وضد الملك ، وبلغ به العناد غاية حين استعان بالمراهما
لتنفيذ أغراضه !! وجاء معهم إلى دهلي واستولوا عليها ، وفر نجيب الدولة
مع ولي العهد ، شاه عالم الثاني ، إلى المشرق ، تاركين الملك في قبضة الفاتحين
الذين أبقوه رمزا ، وتابعوا سيرهم نحو البنجاب ، فطردوا منها الموظفين
والأمراء الأفغان ، وبذلك سيطر المراهما على أكثر أجزاء الهند ، وعلم أحمد
شاه الأبدالي بذلك فجهز جيشه وسار إلى الهند ثانيا ، وحين علم غازي الدين
بتحرك أحمد شاه اتهم عالمگیر بالتواطؤ مع أحمد شاه ونائبه ، وقتله سنة
١١٧٣ هـ - ١٧٥٩ م ، وأجلس مكانه على العرش ابنه كام بخش ، ولكنه
لم يكده بفرغ من ذلك حتى كان الأبدالي قد وصل إلى شمال الهند ، واستولى
على لاهور ، وطرد المراهما منها وتقدم إلى سهارنپور ، ففر غازي الدين
من دهلي .

موقعة پانی پت :

وتقدم الأبدالي ، ولكنه لم يستقر بجيشه للجب في دهلي ، فقد خربها
المراهما عند انسحابهم منها بعد ما نالها من تخريب سابق متكرر ، وأقام في
« دواب ، منطقة ما بين النهرين : جمنا وكنغا .

وحدثت عدة مواقع بين الأبدالي والمراهما انهزموا فيها شر هزيمة ،
وقضى على عشرات الألوف منهم ، وكان ذلك في سنة ١١٧٤ هـ - ١٧٦٠ م .
ولما وصلت هذه الأنباء المحزنة إلى ملكهم وزعيمهم في الجنوب اضطرب

وغضب ، فقد كان يظن أنه بعد سيطرة المراهتا على الهند لن يقف أمامهم أحد ، وأنهم قد قبضوا على زمام الأمور فلم يعد لهم منازع ، وأن سطوة المسلمين قد قضى عليها نهائيا ، وهذا الخطر الجديد جاء ليعيد لهم ذكرى محمود الغزنوى ومحمد الغورى والأفوياء من المغول التيموريين ، وقد يتمكن الأبدالى من أن يحدد شباب الدولة الإسلامية ، ويركز سلطانها من جديد فى الهند ، بعد ما أمل المراهتا وغيرهم من الهندوس أنها قد زالت ، وأن السلطة رجعت لهم ، لهذا كله عمل هؤلاء على أن يثيروا الهندوس كلهم ضد هذا الغزو الجديد ، فجمعوا جيشا ضخما مكونا من ثلثمائة ألف مقاتل ، تسنده مدفعية قوية ، كان على رأسها « إبراهيم خان گاروى » المسلم الذى تعلم فنون المدفعية الحديثة من الفرنسيين فى الدكن ، وكانت فرقة المدفعية مكونة من ١٢ ألف رجل و ٢٠٠ مدفع ، وعلى رأس الجيش كله القائد المراهتى « سدى شيوكو » المشهور باسم « بهاو » ، وتحرك هذا الجيش الضخم ليقضى على الأبدالى والخطر الذى يسير فى ركابه ، وكان جيشه مكونا من أربعين ألفا ، ومدفعية صغيرة مكونة من ٤٠ مدفعا ، ووصل المراهتا إلى دهلى ، وتجاوزوها إلى الشمال الغربى قليلا . وفى « بانى پت » التى شهدت أكثر المواقع الحربية فى الهند تقابل الجيشان فى جمادى الآخرة سنة ١١٧٤ هـ - يناير سنة ١٧٦١ م ، وضغطت مدفعية المراهتا على الأبدالى فتقهقر ، ثم فى سرعة خاطفة ، وتنظيم جيد كر عليهم كرة أذهلتهم ، وأوقعت الذعر والخيال فى صفوفهم ، بينما أخذ الجيش الأفغانى يعمل فىهم القتل ، حتى قتل فى ميدان المعركة نحو مائتى ألف مقاتل ، ولاذ الباقون بالفرار . وتعقبهم الأبدالى وخرج عليهم أهالى القرى ينتقمون منهم ، لما أصابهم من تعسفهم ، فوقعوا بين خطرین حتى قتل الكثير منهم ، وقد قضى على أمرائهم وزهرة رجالهم ، وغالب قوتهم فى هذه المعركة ، فكانت الموقعة الفارقة التى كسرت ظهرهم وقضت على غرورهم .

شاه عالم الثانى :

وقد مكثت دهلى مدة بدون ملك ، ولما انتصر الابدالى نادى بشاه عالم الثانى^(١) سلطانا على دهلى ، وكان فى بنگال ، فأقام الابدالى مقام شاه عالم ابنه « جوان بخت » ، ورجع إلى أفغانستان بعد أن أبقي له نوابا فى دهلى ، ولكن جسم الدولة كان مريضا ، فلم يجد فيه هذا الدواء - وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ١٩ - ولو أن الابدالى مكث فى دهلى وأعلن حكمه فيها ، وقبض على ناصية الأمور لكان من الممكن أن يتغير مجرى التاريخ .. ولكن هكذا أراد الله .. وتوفى أحمد شاه فى سنة ١١٨٧ هـ - ١٧٧٣ م .



شاه عالم الثانى

ظل « شاه عالم » بعيداً عن دهلى عدة سنوات ، وملكها تتلاعب به الأيدي ، وقد اشتد أزر المراهتا من جديد على يد ملكهم « مادها فاراو » ، ونظم جيشه لتنظيم حديثاً على النسق الأوروبى ، ثم زحف على دهلى واستولى عليها وأعاد شاه عالم إليها وولاه السلطة ، فعينه شاه عالم إمارة الجيوش كلها ، وأصبحت امبراطورية المغول فى كفالهته^(٢) .

(١) تذكره بعض الكتب باسم (عالم الثانى) . (٢) حاضر العالم الإسلامى ج ٤ ص ٣١٢

وكان شاه عالم قد أراد أن يسترد البنغال من الإنجليز بالاتفاق مع بعض الأمراء المسلمين ، ف وقعت بينهما حروب انتهت بانتصارهم في « بكسر » ، سنة ١١٧٨ هـ - ١٧٦٤ م ، مما اضطره إلى أن يترك لهم السيطرة على بنغال وأوريسا وبهار ، مكتفيا منهم بخراج يؤدونه إليه قيمته مليونان و ٦٠٠ ألف روبية ، ثم حدث بعد ذلك أن اعتدى عليه أحد القواد « غلام قادر خان روهلا » ، وكان قابضا على زمام الأمر في دهلي من قبل قتل عنيه ، مما أفقده كل هيبة كان يتمتع بها .

والحق أن شاه عالم لم تكن له أية شخصية في الحكم ؛ فقد كان يعيش في كفالة المراهتا ، وأخيرا تدخل الإنجليز ، وجعلوه تحت حمايتهم ، ودفعوا له مرتبا شهريا قيمته تسعون ألف روبية ، على أن يتولوا إدارة شؤون البلاد نيابة عنه ، وكان ذلك سنة ١٢١٩ هـ - ١٨٠٤ م ، ولم يمكث طويلا حتى مات سنة ١٢٢١ هـ - ١٨٠٦ م .

محمد أكبر الثاني :

وتولى الملك من بعده ابنه « محمد أكبر الثاني » ، وعاش كوالده في كفالة الإنجليز الذين قد بلغوا من السيطرة حدا شمل الهند كلها تقريبا ، ومكث مدة طويلة في الحكم حتى توفي سنة ١٢٥٣ هـ - ١٨٣٧ م .

بهادور شاه :

وتولى بعده ابنه « سراج الدين أبو ظفر بهادور شاه » ، وعين له الإنجليز مرتبا سنويا قدره مليون ومائتا ألف روبية ، وكان ظلا فقط لا نفوذ له ، حتى في القلعة الحمراء التي يسكنها في دهلي ١١ وكان الحاكم الإنجليزي في ذلك الوقت « لورد كاينسك » ، والقائد العام « دلهوزي » ، وقد وجه الإنجليز إلى بهادور شاه إنذارا بأنه آخر ملك يسكن القلعة ، وأنها ستكون بعده ثكنة عسكرية ، وأن المخصصات التي يأخذها منهم ستنتهي بانتهاء حياته ، وكان معنى ذلك القضاء على ملك المغول ، وبالرغم من ضعف الملك كما رأيت ، فقد



زینت محل شریکته فی اللقی

سراج الدین أبو ظفر بہادر شاہ

وقع هذا الخبر على الشعب ولا سيما المسلمين وقع الصاعقة ، فقد كانوا — المسلمون منهم والهندوس — ينظرون إليه مهما كان ضعيفا على أنه حاكمهم الوطني ، أما الإنجليز فغزاة أجانب معتدون ، لا سيما وقد ضجت الهند كلها من مظلهمهم ، وأخذ أحرارها يستعدون للثورة عليهم ، وفي هذا الوقت أيضا اخترع الإنجليز الخراطيش المدهونة بشحم الخنازير والبقر ، وكانوا يجبرون جنودهم على كسرها بأسنانهم بدل السكين . والبقر محرم على الهندوس تحريم الخنزير على المسلمين ، فولد هذا العمل تبعا عاما في الجنود انقلب إلى ثورة جاحقة ضد الإنجليز للتخلص منهم ، وجعل الثائرون الملك بهادر شاه قائدا عليهم ، فلما فشلت الثورة قبض عليه الإنجليز ونفوه إلى رانگون في بورما مع زوجته « زینت محل » ، وبعض أولاده ، وظل هناك حتى مات ، فكان آخر ملك مسلم تولى ملك الهند مما سيأتى تفصيله بعد إن شاء الله .

حضارة المسلمين في الهند

من الواجب علينا بعد أن انتهينا من عرض التاريخ الإسلامى فى الهند أن نقف وقفة قصيرة ، لتحدث حديثا إجماليا عما خلفه هؤلاء المسلمون من حضارة فى الهند . بعد مامر من حديث مشاع عنها يستشفه القارىء من تاريخ السلاطين . وكلية حضارة تمثل فى أذهاننا نواحى متعددة من النشاط الإنسانى ، وتعنى إنتاجه فى العلم والأدب والفن والمباني ، وأنظمة الحكم والحياة والصناعة والتجارة . الخ . . فإذا كان نصيب المسلمين فى الهند من ذلك كله ؟ إن الحديث عن ذلك يقتضى جهدا ، ويحتاج إلى بسط ربما يصل إلى كتاب مستقل ، ولكن إذا لم نستطع ذلك الآن فلا بأس من أن نعطى فكرة إجمالية عنه .

كان الفاتحون الأول للهند من المسلمين العرب ، ولاشك أنهم نقلوا إلى البلاد التى فتحوها واستقروا فيها دينهم ، وكثيرا من تقاليدهم وعاداتهم ولغتهم ، وقد انحسر الفتح الإسلامى العربى ، وانحصر على نقطة صغيرة فى غرب الهند وهى السند ، فلم يكن لهذا العهد ملامح كبيرة ، وإن كان لا يمكن أن ننكر أثر ذلك فى نواح متعددة ومنها لغتهم مثلا ، فاللغة السندية لا تزال للآن تكتب بالحروف العربية وتضم كثيرا من اللغة العربية . كما أن المسلمين فيها يمثلون الأغلبية الساحقة . وبعد ذلك بقرون جاء المسلمون فاتحين على يد محمود الغزنوى ، ثم توالى فتح المسلمين ، واطرد حكمهم للهند حتى انتهى باتهاء حكم المغول بعد نحو ثمانية قرون ونصف قرن . .

ولم يكن هؤلاء الفاتحون عربا ، ولكنهم كانوا - بلاشك - مسلمين متحمسين للإسلام ، يحملون حضارة بلادهم فى أفغانستان وفارس وما وراء النهر ، وهى حضارة يمكن أن نقول عنها فى عمومها إنها حضارة فارسية ، ولو أن الحضارة الفارسية قد اندمجت فى الحضارة الإسلامية العامة ، لكن هؤلاء كانوا فارسى

اللغة والثقافة ، لأن اللغة الفارسية كانت هي لغة المسلمين السائدة في تلك البلاد، هذا بجانب لغتهم الأصلية التي عرفوها من بيئاتهم الخاصة .

لذلك كانت اللغة الرسمية لهؤلاء الحكام هي اللغة الفارسية ، حتى بعد أن ولدت اللغة الأوردية وتكونت وأصبحت لغة رسمية كذلك ، فلم تنزعح اللغة الفارسية عن مكاتها كثيرا ، إذ ظلت لغة الحكام والأرستقراطيين ، والعلماء والأدباء والشعراء من المسلمين وغيرهم ، والتتاج الذهني الإسلامي في الهند في تلك العهود إنما عبرت عنه اللغة الفارسية ، حتى لنجد الكتب التي ترجمت من الفلسفكريتية والعربية في عهد هؤلاء الحكام ترجمت للفارسية ، والكتب التي ألقت لهم وفي عهدهم لغتها فارسية ، ولا عجب في ذلك ؛ فاللغة الأوردية هي لغة حديثة العهد بالوجود عمرها نحو أربعائة سنة ، وبما لاشك فيه أنها لم تبلغ درجة النضج أو الكمال إلا بعد ذلك بكثير .

وكان هؤلاء الفاتحون مسلمين ، وبعضهم كان حديث العهد بالإسلام مثل المغول ، لأنهم أسلبوا بعد أن فتحوا البلاد الإسلامية ، وأزالوا الخلافة العباسية ، وقد حكموا في الهند بلادا واسعة تدين بالوثنية منذ آلاف السنين ، وكانت لهذه البلاد حضارة قديمة حافلة بأنواع المعارف والتقاليد ، والمسلمون فيها كانوا قلة ولم يكن عندهم بلاشك - ما كان للعرب الفاتحين دائما من الحماسة لنشر الإسلام ولغته ، لذلك لم يكن لهؤلاء الحكام من الأثر في نشر الإسلام ولغته وتقاليده مثل ما كان للعرب المسلمين ، ولم يلجئوا إلى القوة في جبر الهنود لاعتناق الإسلام ، وهذا حسن ومطابق للإسلام ، إلا أنهم لم يكونوا - في جملتهم - يسلوكمهم ولا بمرغباتهم ودعائهم ذوى أثر كبير في جذب الهندوس للإسلام ، ومن هؤلاء الحكام من شذ عن الإسلام وتعاليمه مثل أكبر ، لذلك نرى الأغلبية في البلاد التي كانت عاصمة الحكم الإسلامي غير مسلمة كما في دلهي وأكرا ، ونرى أغلبية سكان الهند غير مسلمين بالرغم من طول مدة الحكم الإسلامي لها ، إذ ظل نحو ثمانية قرون ونصف قرن متتابعة .

ولكن بما لا جدال فيه أيضاً أن المسلمين أثروا بدينهم وأدابهم وتقاليدهم في المجتمع الهندي في كل ناحية من نواحيه ، وهذا أمر طبيعي في شعب يعيش عيشة واحدة ، ويختلط عن قرب اختلاطاً كبيراً .

كتبت مجلة (ثقافة الهند) التي تصدرها الحكومة الهندية في عددها الصادر في ديسمبر سنة ١٩٥٦ مقالا تحت عنوان «آثار الإسلام في الهند» ، نفتطف منه ما يأتي لمناسبته لهذا الموضوع :

«لقد كان أكبر أثر لفكرة الإسلام الأخلاقية على المثقفين من الهندوس في تلك الحقبة هو عن طريق الفارسية ، كواسطة تفاهم تأثرت هي الأخرى بدورها إلى حد كبير بالعربية ، وعن طريق كتب التعاليم المقدسة التي ظهرت في عهد الإسلام ، والنتيجة العظمى لهذا الأثر هو النمو التدريجي للاعتقاد المتسع في وحدانية الله ، ونمو العقائد التوحيدية المحلية ، والنتيجة الثانية هو خلق لغة جديدة هي الأوردية التي أصبحت أكثر اللغات شيوعاً في الهند ،

«وهناك آثار أخرى أكثر من أن تسرد بالتفصيل ، إذ أنها تشمل دائرة بالغة الاتساع ، فأنت تراها في طراز المباني والبيوت والموسيقى والرسم والحرف والفنون وفي الهندام والألقاب والرياضة ، وبالاختصار في حياة البلاد بأسرها ، ثم أخذ يسرد في تفصيل أثر المسلمين في هذه النواحي مما أكتفى هنا بإثبات فقرات منه حتى لا يطول بنا الحديث :

«أما فن البناء فكان أكثر فروع الفن اجتذاباً لاهتمام المسلمين ، فكان بناء المساجد والمقابر والقصور من أعظم مميزات عهود الحكام المسلمين الأوائل ، وتمثل النبوغ الفني للعمل في رسم الأشكال البديعة على الجدران ، وتنمية التناسق والتناسب في الأبنية ،

«وقد عرض «بابر» ذو قار فيعاً في الرسم ، ويقال : إنه أحضر إلى الهند معه تحفا مختارة من الرسوم التي استطاع جمعها من مكتبة أجداده من سلالة تيمورلنك ، وقد نقل بعضها إلى إيران «نادرشاه» بعد غزوه الهند ، ولكنها

طيلة بقائها في الهند تركت أثرا عظيما وخلقت دافعا جديدا للفن الرسم في الهند .
وقد برهن أكبر حفيد بابر على أنه راعية عظيم للفن من كل فروعه ، وكان
له أكثر من مائة مصنع للفنون والحرف ملحقه بالقصور الملكية ، وكل
منها كدينة .

وقد بنى مصنعا قرب القصر حيث كانت الاستديوهات والغرف الخاصة
بالفنون الأرفع والأكثر شهرة ، مثل الرسم والصياغة وصناعات الأقمشة
والسجاجيد والستائر والأسلحة ، وكان أكبر يتردد عليها كثيرا ويراقب أعمال
الذين يمارسون تلك الفنون .

يوجد عدد كبير من النماذج الهندية البديعة في مختلف المتاحف الأوربية ،
ففي المكتب الهندي بلندن والمتحف البريطاني وبودليان في أكسفورد تحف
بديعة نادرة للفن ، يصعب على العالم الغربي إعطاؤها حقا من التقدير البالغ الروعة .
ويتصل بهذا الفن فن تزيين المسلمين للمكتب الدينية والأدبية القديمة
بحواش ذهبية مزخرفة ، مما جعل الهندوس يقتبسونه أيضا ، وكان المسلمون
هم الذين أحضروا الورق للهند .

وقد ساهم المسلمون كذلك في الرقي بالفن الموسيقي ، حتى كان سلاطينهم
يخترعون بعض النغمات الجديدة ، واستحدث المسلمون عددا من الأدوات
الموسيقية الجديدة ، واطلقوا على بعضها أسماء فارسية .

وكذلك أدخل المغول فن تفسيق الحدائق والعناية بها ، مما لا يزال نرى
أثره في ، لاهور وسرى نگر ، في كشمير ، وقد كان لهم ولع بجمال الطبيعة ،
حتى كانوا يسافرون المسافات الطويلة إلى پنجاب وكشمير ؛ للتمتع بالمناظر
الطبيعية الخلابة ، ولذلك كانوا يجتهدون دائما في إيجاد مثل هذه المناظر في
قصورهم وبساتينهم الخاصة والحدائق العامة .

وبجوار ذلك بلغ الرقي في تنظيم الإدارة وضبط أداة الحكم حدا بقى
الكثير منه معمولا به إلى عهد الإنجليز .

، أما المكتبات وتنظيمها والعناية بها فقد كان للمسلمين شغف خاص بذلك ، وعلى رأسهم ملوكهم وحكامهم ، ولقد مات همايون على إثر إصابة حدثت له على السلم وهو نازل من مكتبته التي كان يحب أن يقضى فيها كثيرا من وقته ، كلما خلا من مشاغل الحروب وتنظيم الدولة .

وهكذا كان للمسلمين أثر وأى أثر على رقى الحياة في الهند في جميع مظاهرها خلال القرون التي تولوا الحكم فيها . اهـ .

ويقول جوستاف لوبون في كتابه (حضارة الهند)^(١) : « مارس المسلمون في الهند مثل النفوذ العميق الذي مارسوه في جميع أقطار العالم التي فتحوها ، ولأمة - كالمسلمين - تم لها من النفوذ البالغ ما تم للمسلمين كما أثبتناه في كتابنا « تاريخ حضارة العرب » ولا تستثن الرومان من ذلك . ففي مدة سلطان المسلمين الذي دام في الهند سبعة قرون^(٢) غير فريق كبير من الشعب الهندوسي دينه ولغته وفنونه تغييرا عظيما ، وظل هذا التغيير باديا بعد زوال ملكهم ، ويقول الأستاذ مسعود عالم الندوى^(٣) :

« كان أهل الهند يعبدون ثلاثين مليوناً من الآلهة منذ قديم الزمان ، فلما خالطوا المسلمين ، وقرع سمعهم صوت الحق ترقى فكرتهم الدينية ، وجعل مصلحوهم يغيرون شيئا فشيئا . »

« وأول من قام بالإصلاح ، شنكرا جورج ، المولود سنة ٧٨٦ م والذي دعا إلى وحدة الوجود وعبادة معبود واحد هو « شيفا » (وهو إله الموت عندهم) وكان ذلك زمن قدوم المسلمين في « مليار » .

ثم يليه « رامانج » الذي دعا إلى عبادة « شُشو » (وهو إله الحياة عندهم) وقد ولد هذا المصلح في القرن الحادى عشر .

(١) ص ٢١٧

(٢) بل ثمانية قرون ونصف من سنة ١٠٠١ م إلى ١٨٥٧ م حيث زال حكم المغول وبدأ عهد الإنجليز

(٣) في مقال له بمجلة الضياء العربية التي كان يصدرها في لكونو بالهند عدد رجب ١٣٥٤ هـ تحت عنوان (المسلمون في الهند وتأثيرهم في دينها وحضارتها) . وقد أهدت لى دار العلوم ندوة العلماء في لكونو بعض أعداد الضياء القديمة مشكورة .

وتم نهض رجال مثل (كبير)^(١) و «كرونانك» و «جيتن» الذين اقتسوا من تعاليم الإسلام السامية ما يلائم هوائهم وأسسوا ديناً جديداً . ولا يزال دين «نانك» - وأتباعه يدعون «بالسيك» ، لا يزال هذا الدين القائم على التوحيد منتشرًا في البنجاب على الخصوص ، وأتباعه من أشجع الهنود ، وهم أقرب إلى الإسلام منهم إلى الوثنية ، لكن السياسة جعلتهم منحازين إلى الهنادك ، و «نانك» هذا قرأ القرآن وزار بيت الله الحرام .

وقام في القرن السالف مصلح كبير في «بنغال» اسمه «رام موهن راني» قرأ القرآن وتعلم العربية والفارسية والسنسكريتية وبرع فيها ، ولما شاهد أن دين البراهمة لا يتمكن من مقاومة تيار التعليم الحديث الذي يكاد يحرف البقية الباقية من حضارتهم أسس ديناً جديداً سماه (برهمو سماج) ، وأكثر تعاليم هذه الطائفة من التوحيد والمساواة ونكاح الأيامي وغيرها مقتبسة من الإسلام ، وقد مات سنة ١٨٣٣ م وبدينه يدين (طاغور) ، فيلسوف الهند ، وأكثر كبار رجال الهنادك في بنغال .

وكذلك قام مصلح آخر «ديانند»^(٢) في شمال البنجاب ، ودعا بنى قومه إلى التوحيد والمساواة ، وأسس طائفة «آريا سماج» التي هي أشد أمم الهند عداوة للذين آمنوا . لكنهم مدينون للإسلام ، ولو أنكر الجاحدون ، اه . وقد كان تأثر الهندوس بالمسلمين في شمال الهند أكثر منه في جنوبها ؛ لأن الحكم الإسلامي لم يصل للجنوب إلا متأخراً ، وكان الحكم الإسلامي يتبعه حتما الاختلاط الكثير بالمسلمين ، وتأثر الهندوس تبعاً لذلك . لذلك تجد جنوب الهند أعرق في عبادة الأوثان من شمالها . قال الميجر «ج . د . باسو» ، وهو من كبار مؤرخي الهنادك في العصر الحاضر (٣) :-

(١) كان شاعراً ومن الدين مسلياً ، وكان صاحب فكرة ترى إلى المزج بين الإسلام والهندوسية ولا يرى فرقاً بين (براهم) و (رحيم) وبين السكبة وكبلش وبين القرآن وبوران (ثقافة الهند ديسمبر ١٩٥٦) (٢) في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .
(٣) في كتابه ارتفاع القوة المسيحية في الهند ج ٢ ص ١٠٦ (تقلاعن الضياء) .

، هذه الوثنية الشنيعة والاعتقاد بالخرافات الضاربان أطنا بهما في جنوبي الهند ، إنما يرجع سببهما إلى انعدام نفوذ الحكومات الإسلامية لا غير ، .

وقال مؤرخ آخر هندوكي (السير ب . س . راني) :
، أثرت روح الإسلام الديموقراطية أيما تأثير في تقليل مفساد نظام الطوائف بين الهنادك ، فذب بذلك ديبب التساخ والتور في حياة البلاد الاجتماعية ، .

وبجوار ذلك تأثر الهندوس بعادات المسلمين وتقاليدهم ، بل وملابسهم ومعيشتهم ، فن المعروف عن الهندوس البساطة التامة في معيشتهم بخلاف المسلمين الذين يعنون بالمظاهر كثيرا ، وإن كان ذلك الأثر لم يخرج الجميع عن البساطة التي هي شعار سكان الهند ، وقد أدى طول حكم المسلمين إلى مشاركة الهندوس لهم في بعض مظاهر أعيادهم وفي بعض كلماتهم الدينية مثل : بسم الله - الحمد لله - إن شاء الله - السلام عليكم . الخ .

وحين انتشرت اللغة الأوردية أصبحت لغة المسلمين والهندوس على السواء ، وفيها كثير من الكلمات العربية .

* * *

وحين استقر الحكم للمسلمين في الهند على مر القرون ، أخذوا يعملون على توسيع رقعة مملكاتهم ، وتوحيد البلاد تحت سلطانهم ، وبذلك رأت الهند نوعا من توحيد الحكم والسياسة ربما لم يعرفوه من قبل .

وبجوار هذا انصرف المسلمون إلى الرقي بالبلاد من الناحية العلمية والأدبية والفنية والصناعية والمعمارية .

فشهدت الهند عهدا زاهرا في هذه النواحي كلها لم تشهدهما من قبل ، وكانت في ذلك تضارع أرقى البلاد في عصورهم ، بل ربما كانت تفوقها . فكان بلاط الملوك المسلمين ملتحق العلماء والأدباء والفنيين من كل الأقطار ، حيث يلقون العناية والأكرام ، فبرز في العهود المختلفة علماء فطاحل ، كانوا ولا زالوا

نغر الهند بل نغر البلاد الإسلامية كلها ، كالإمام حسن محمد الصغاني^(١) ومجدد الألف الثاني أحمد بن عبد الأحد السرهندي^(٢) والشاه ولي الله الدهلوي^(٣) وفطاحل العلماء من أسرته ، والسيد أحمد^(٤) الشهيد والسيد مرتضى الزبيدي^(٥)

(١) سببه إلى « صاغان » مغرب « جاغان » قرية بجمرو . أتى آباؤه منها . ولد بمدينة لاهور شمال الهند سنة ٥٥٧ هـ أو سنة ٥٧٧ هـ على خلاف بين مؤرخيه ، وتعلم بها ثم رحل إلى « غزنة » ثم إلى بغداد ، ثم إلى مكة وعدن ثم عاد لبغداد ، وتتمتع بأنعامات الخليفة وأرسله إلى سلطان الهند « شمس الدين ألتمش » سنة ٦١٧ هـ - ١٢٢٠ م ثم خرج من الهند سنة ٦٢٤ هـ - ١٢٢٥ م ثم عاد إليها في عهد السلطنة رضية بنت ألتمش ، ورجع منها إلى بغداد حيث توفي سنة ٦٥٠ هـ - ١٢٥٢ م ، ثم نقل إلى مكة حسب وصيته . قال عنه السيوطي « إنه كان حامل لواء اللغة » وقال القهبي « كان المنتهى إليه في اللغة » وقال الدمايطي : « إنه كان إماماً في اللغة والفقه والحديث . ومن مؤلفاته « مشارق الأنوار النبوية في صحاح الأخبار المصطفوية » وله شروح كثيرة ، ومنها الباب الزاخر في اللغة في عشرين مجلدات قبل أن يجه ، ومنها مجمع البحرين في اللغة أيضاً والنوادر في اللغة والتراكيب وله عدا ذلك كثير من الكتب في الحديث واللغة . ١٠ ملخصاً من ترجمة ١٦ ص ١٣٧ .

(٢) سبقت ترجمته .

(٣) هو شيخ الإسلام وإمام المجددين في الهند قطب الدين أحمد ولي الله بن عبد الرحيم ، ابن وجيه الدين العمري الدهلوي ولد سنة ١١١٤ هـ - ١٧٠٢ م في أيام السلطان طالكبير كان والده من كبار المشايخ في عصره بدهلي ، فرغ من تحصيل العلوم في الخامسة والعشرين وتصف وباب علي يد والده فجمع بين العلم والتصوف ، وبلغ في كل منهما شأواً عظيماً ، حتى أصبح رأس مدرسة كبرى في الهند للان ، وكان فصيحاً في العربية والفارسية ، وله عدة تصانيف تعتبر الغاية في سمو العقلي والديني ، وأهمها كتاب « حجة الله البالغة » المعروف . عاش حرباً على البدع والتقليد الأعمى ، وكان ينجح إلى الاجتهاد والترجيح بالرغم من أنه حنفي ، فكان يضيف بعض آراء الحنفية أحياناً تبعاً لقوة الدليل . وقد ترجم القرآن للفارسية ولم يباله بالمارضين ، وله عدة كتب في الفقه والحديث والتفسير تعتبر من أمهات الكتب ، كما أن له ديوان شعر بالعربي ، جمعه ابنه الشاه عبد العزيز وبعض مؤلفات في التصوف . وقد حاول إلتقاذ حالة الحكم الإسلامي من الضعف ومن تلاعب الملوك والهجوم . وتوفي سنة ١١٧٦ هـ - ١٧٦٢ م وعمره ٦٢ سنة ، ودفن في دهلي مع والده . ١٠

(٤) سنأتي ترجمته .

(٥) هو السيد محمد مرتضى بن محمد الحسيني البجراي ثم الزبيدي علماً وشهرة ثم للصرى وفاقه ولد بالهند في بلدة « بلسكرام » سنة ١١٤٥ هـ - ١٧٣٢ م وتلمذ على شاه ولي الله الدهلوي وغيره من مشاهير العلماء بالهند ، وأجازوه في رواية الحديث ، ثم ارتحل لطلب العلم فدخل زبيد باليمن وأقام بها مدة طويلة ، فاشتهر بالزبيدي ، ثم ارتحل إلى مصر سنة ١١٦٢ هـ - ١٧٥٢ م ومكث بها حتى توفي ، وكان تادرة عصره بارعاً في علم اللغة والأنساب والحديث والتصوف ، =

صاحب تاج العروس في شرح القاموس ، وغيرهم كثير من فطاحل العلماء الذين أفرد لهم بعض المؤلفين كتباً خاصة ، بسيرهم وأعمالهم^(١) ، وقد كان الملوك يتنافسون في إنشاء المدارس والإغداق على العلماء ، وترجمة الكتب الثمينة ، كما كان للعلماء مركز مرموق عند الملوك ، فكانوا يعظمونهم ويقدمونهم على أنفسهم ، ويذهبون إلى زيارتهم في بيوتهم ، وربما كان بعض العلماء يمتنع عن مقابلة الملوك أحياناً برغم إلحاحهم في طلب الزيارة ، فرى السلطان شمس الدين ألتش يستأذن على الشيخ بختيار الكعكي في بيته ، ويدخل خاضعاً ويسلم عليه كما يسلم المملوك على الملك ، ثم يجلس عند رجله ويدلّسهما ، ويذرف الدموع أمامه ، حتى يدعو له الشيخ ثم يأمره بالانصراف .

ونجد السلطان جلال الدين فيروز خلجى وخلفه السلطان علاء الدين ، يحاولان زيارة الشيخ نظام الدين البدايوى ، فيمتنع عن استقبالهما ويقول : إن لبيتى بابين لو دخل هو من باب خرجت من الآخر . والسلطان « أكبر » كان في مبدأ حكمه يذهب للعلماء في بيوتهم ، ويوزرهم ويستمع إليهم ، وكان يمشى عشرات الأميال لكي يزور « ولى الله » معين الدين الجشتى ، في أجمير ، كما أنه كان يعظم « ولى الله » الشيخ سليم مسكرى ، وبنى مدينة في مكانه القفر الذى كان يقيم فيه واتخذها عاصمة مدة من الزمن ، وسمى ابنه « سليم جهانگیر » باسمه ، ولقد كان بعض الملوك من العلماء المؤلفين ، والآداء الفنانين البارزين ، مثل بابر وجهانگیر وأورنگزيب وفيروز شاه ملك گولكنده الذى كان ماهراً في علم النبات والهندسة . وغيرهم ، وقد سبق الحديث عن ازدهار الفن في عهد المغول . في عهد أكبر وخلفائه ، فلا حاجة لإعادة الحديث عنه هنا .

= ومن أهم مؤلفاته تاج العروس شرح القاموس ، وإعفاف السادة الذين في شرح إحياء علوم الدين ، وغير ذلك من أمهات الكتب ، ولغز شهرة كتبه ملوك النواحي من الترك والبن والحجاز والهند والفرب والسودان وفزان والجزائر . وكان يعرف التركية والفارسية فوق معرفته بالعربية والأردية ، ومن تلامذته الجبرقى المعروف الذى أفاض في الحديث عنه ومن مؤثره بين الحكام والمسلمين عامة في كتابه « تاريخ الجبرقى » وكتب عنه باستفاضة تحت وفيات ١٢٠٥-١٢٩١ م .

(١) سبعة المرجان في آثار هندوستان لعلام على آزاد البلجراى ، نزعة النواظر للسلامة عبد الحمى الحسنى .

أما أنظمة الحكم فبالرغم من أنها كانت قائمة على أساس جمع السلطة كلها في يد الملك ، كما كان سائداً في العالم في ذلك العصر ، إلا أن الهند في ظله قد بلغت من الرقي مبلغاً سعدت به بين الدول الأخرى وربما سبقتها في ذلك .

ومن المهم أن نشير إلى أن الحكم الإسلامي لا سيما في عهد المغول كان قائماً على أساس حكومة وطنية تعمل لصالح الوطنيين ، فلم يكن الحكام يعدون أنفسهم غرباء عن الشعب ، خصوصاً بعد أن اندمجوا فيه وتصاهروا معه ، وكان الحكم متجهاً دائماً لخدمة الشعب والرقي به في جميع النواحي الزراعية والصناعية والتجارية ، ويتمثل ذلك في إقامة المستشفيات والحمامات ، وحفر الترع والأنهار والآبار ، وبناء الجسور والمدارس ، وإنشاء الحدائق والمتنزهات العامة والأحواض المائية الواسعة ، وضمان الدولة للعجزة عن العمل والمرضى ، وإنشاء الطرق القصيرة والطويلة ، حتى ربطوا أجزاء الهند الشاسعة بعضها ببعض ، ونظموا البريد تنظيمياً يضمن وصول الرسائل بسرعة ، وعنوا بإنشاء الاستراحات على طول الطرق . بحيث يضمن فيها المسافرين ما يحتاج إليه من راحة وماء وغذاء ، وغرسوا الأشجار المثمرة ، وغيرها على الطرق ، وعملوا على إقرار العدل ووصول الشكاوى للملك ، فوق أنه كان يجلس للشعب دون حاجب يستمع لشكاواه ولو ضده ، ورأينا فيما سبق كيف كانوا يحرصون على إنصاف الرعية بتعليق أجراس على أبواب القصر ، يستطيع أى مظلوم أن يدقها ليعلمن الملك بشكواه ، كما كان بعضهم يجلس أمام القاضى فيحكم عليه دون تمييز بينه وبين أفراد رعيته ، وقد وضعوا أنظمة مالية وأخرى إدارية وزراعية ، وظل بعضها أساساً للعمل به حتى في عهد الإنكيز .

* * *

أما المباني وما وصلت إليه من رقي ، فقد سبق الحديث عنها مفصلاً في مناسباتها ، وكذلك فن الرسم والتصوير .

وبجوار ذلك قامت الصناعات المختلفة في الهند ، ولا سيما صناعة الأقمشة

الحريرية وغيرها ، وكانت تصدر إلى مختلف الأقطار حتى تصل إلى أوروبا نفسها ، وكانت الشركة الإنجليزية في بدء عهدها تصدر منها البفته وغيرها إلى إنجلترا ، وكان الأوربيون يفضلون الثياب الزاهية المصنوعة في الهند عن صناعة بلادهم . ومن المعلوم أن خيرات الهند ومحصولاتها الوفرة هي التي أطمعت الغرب فيها ، فجاءوا إليها من كل أمة حتى استقر الأمر فيها للاستعمار الإنجليزي .

وأحب في هذا المقام أن أضع أمام القارئ بعض ما كتبه المؤرخون عامة عن حضارة المسلمين في الهند ، ولا سيما المؤرخون الغربيون الذين تعودنا منهم غالبا ألا يثبتوا حسنة للمسلمين إلا إذا كانت واضحة لا سبيل إلى إنكارها أو الشك فيها .

وأبدأ أولا بما قاله المؤرخ المسلم الأمير شكيب أرسلان^(١) :

« إن المدينة الإسلامية في الهند كانت خلاصة مدنيات عديدة : إذا جمعت فيها عناصر الحضارات العربية والفارسية والتركية والمغولية والصينية والهندية والبوذية وغيرها ، ولكن الحضارة الفارسية كانت فيها ذات الشقة الصافية الأوفر ، حتى صارت الهند بواسطة الإسلام كأنها قطعة من إيران ، واشتهر في الهند كثير من الشعراء الفطاحل الذين كانوا يتحدثون عظماء الشعراء الفارسية ، حتى إننا لا نجد بعد العرب في العالم الإسلامي ، لغة وثقافة تضارعان الفارسية وثقافتها ، .

ويقول المؤرخ والفيلسوف الفرنسي الكبير جوستاف لوبون^(٢) :

«والمسلمون حين أدخلوا إلى الهند حضارة العرب أدخلوا معها رغبة كبيرة في العلوم والآداب والفنون ، وما شادوه في عواصمهم : أحمد آباد ، آگرا ، دهل ، بيجابور وغيرها من المباني ينطق بعظيم حمايتهم للفنون ، وما انتهى إلينا

(١) في كتاب حاضر العالم الإسلامي ج ٤ ص ٣١٩

(٢) في كتابه حضارة الهند ص ٤٢٣ .

من تراجم ملوك المسلمين يثبت لنا أن هؤلاء الملوك كانوا يشجعون الأدب والعلوم أيضاً ، وأنهم كانوا يتعهدونها بأنفسهم ، وليس ذلك في كبرى الممالك وحدها ، بل في صغرها أيضاً ، ومن ذلك أن ملك مملكة گولكنده الصغيرة « فيروز شاه » كان يزاول علم النبات والهندسة والشعر ، ولا يحيط نفسه بغير العلماء والشعراء والمؤرخين مع أشاغله في الحروب ، وعلى تلك السنة سار ملوك المغول التي كانت حضارتهم أكثر هذه الحضارات ازدهارا ، ا هـ

ويقول عن الامبراطور « أكبر » (١) :

فترى أنه أحصى الأراضي ومسحها وقدر أنواع تراب الولايات ، وفرض الخراج على حسب الخصب ، فجعل ثلث الغلات للدولة ، وثلثها للزارعين ، وألغى كثير من الضرائب ، وصار يدفع إلى ضباطه رواتبهم نقدا بدل الإقطاعيات ، وداومت دولة المغول على الازدهار في عهد خلفائه : جهانگیر وشاهجهان وأورنجزيب ، - ويقول أيضا (٢) :

« وقد حفزت ضرورة اطلاع الملوك على ما يحدث في الولايات إلى تنظيم شؤون البريد ، لتسير بسرعة وانتظام في كل ناحية ، فلا تزال تجري في كثير من الجهات ، فالبرد (بضم الباء والراء) كانوا سعاة مشاة (٣) يتناوبون أعمالهم بين مسافة ومسافة في الطرق العامة . وكانت تنصب على جوانب الطرق حجارة بيض ترى ليلا ، حفظا للسعاة من الضلال ، ويظهر أن الطرق كانت جيدة في عهد المغول ، فقد زعم « تافرنيه » الذي ساح في الهند أواسط القرن السابع عشر أن طرق الهند خير من طرق فرنسا وإيطاليا ، وكان خفراء من الجنود يحافظون على السياح ، فكانوا مسئولين تجاه قادتهم المقيمين بالمدن الكبرى عن كل ما يصاب به من يرافقونهم منهم ، ا هـ .

(١) ص ٤٢٤ المصدر السابق . (٢) ص ٤٢٨

(٣) بل كانوا أيضا يركبون الخيل المخصصة لذلك .

ويقول عن نخامة الملك أيام الامبراطور د أورنگزيب ، (١) :

« كان الملك إذا حط رحله في مكان نصبت له فيه الخيام بسرعة عجيبة ، فيخيل إلى الناظر أن مدينة خرجت من الأرض ذات شوارع وميادين ومفارق وحصون حسنة التخطيط ، وكان لكل خيمته من تلك مكان معلم من قبل على خريطة مرسومة ، فتبدو قصور الملك المتحركة مشتتة على ما في أروع المباني من وسائل الراحة ، ا هـ .

ويقول (٢) :

« وسار المغول على غرار المسلمين الآخرين ، فأداموا حضارة هؤلاء ، يحين للآداب والعلوم والفنون حبا جما ، فرحبوا بالعلماء والشعراء ورجال الفن مهما كان جنسهم ، ولا تزال المباني التي شادوها - فلم يصنع الغرب ما هو أروع منها - تثير العجب ، ولم تكن العلوم دون الفنون حظوة في دولتهم ، فأنشئوا المدارس وأقاموا المراصد ، وحب المغول لعلم الفلك ورثوه كابرا عن كابر ، وفي التعاليق على هذا كتب يقول :

« لا يزال يرى في دهلي مرصد أنشئ في العصر المغولي قد أقامه راجا جيبور ، د جى سنك ، لملك المغول محمد شاه سنة ١٧٢٠ م الخ ، ويعرف بين الناس بالهند باسم د جنتر منتر ، باللغة الهندية أى آلة الرصد . ثم يقول بعد ذلك : ولم يبد المغول حماسة للآداب والعلوم وحدها ، بل ترى الكثير منهم قد حذقوها أيضا ، فالحق أن حب الآداب ولا سيما الشعر كان ناميا عندهم ، فآلف بعضهم كتباً مهمة فيها ، ا هـ .

وقد سبق الحديث عن عناية بابر وأكبر وجهانگير بالعلوم والآداب والتأليف والتصوير فلا حاجة لتكرار الحديث هنا .
وقال اللورد د ما كولي ، (٣) :

(٢) ص ٤٣٤ .

(١) ص ٤٣١ .

(٣) عن مجلة الضياء عدد شعبان ١٣٥٤ .

وإن الفتيات الأوريات يلبسن ويتزين بثياب ثمينة تنسج بالهند ، ولا
يختزن عليها أبدا ثياب بلادهن .

وقال اللورد كلايف مدير عام شركة الهند الانجليزية أمام اللجنة النيابية
سنة ١٧٧٦ م .

« إن بلدة مرشد آباد ، ^(١) تداني لندن ، في بهائها وجمالها ، وإنما
الفرق بينهما أن الأولى يملك أهلها المزارع الخاصة بهم أكثر مما تملكه الثانية ،
ويبلغ عمرانها عدة ملايين (لعله أراد المقاطعة كلها) حتى لو أرادوا إبادة
الانجليز لكشفتهم العصي والحجارة في طردهم ، ولورد كلايف ، هذا هو
الذى انتصر على حاكم مرشد آباد ، «مراج الدولة» سنة ١١٧١ هـ - ١٧٥٧ م ،
واستولت الشركة عليها وعلى البنغال كلها .

وقال المؤرخ الانكليزي « ونسنت » وهو شديد التعصب ضد المسلمين ^(٢) :

« بما لا ريب فيه أن مدينة أحمد آباد ، كانت تعد من أجمل مدن العالم
من بدء عمرانها إلى القرن الثامن عشر للميلاد أى زهاء ثلاثة قرون . »

أما ابن بطوطة فيصف مدينة دهلي ويقول :

« وهى المدينة العظيمة الشأن الضخمة ، الجامعة بين الحسن والحصانة ،
وعليها السور الذى لا يعلم له فى بلاد الدنيا نظير . وهى أعظم مدن الهند ، بل
مدن الإسلام كلها بالشرق . »

وكان ابن بطوطة قد جاء إلى الهند فى عهد السلطان محمد تغلق ، وذلك
قبل أن يمر على دهلي مدة كبيرة تحت حكم المسلمين ، ولا شك أنها ازدهرت
أكثر من ذلك فى عهد المغول ، وقد كانت الهند الإسلامية مهوى أمدة
المسلمين ، وملاذ الخائفين الفارين منهم ، بعد اجتياح المغول للبلاد الإسلامية
أمام هولاء ، كما قامت السفارات بينها وبين الممالك المختلفة حولها .

(١) من مدن بنغال .

(٢) فى كتابه تاريخ اكسفرورد ص ٢٧١ قولا عن الضياء .

- ويجمل بي أخيراً أن أضاع أمامك ملخص مقال كتبه أحد المؤرخين الهندوكيين عن أثر الإسلام في الهند وقد عدد تلك المنن العظيمة بعشر (١) :
- ١ - وصل الإسلام الهند بالبلدان الخارجية ، حتى ازدهرت فيها الملاحة والتجارة البحرية التي كانت منقودة فيها منذ قرون .
 - ٢ - بسط الأمن جناحيه في أكثر بقاع الهند ، ولا سيما أقطارها الشمالية وذلك لم يكن متيسراً قبل ملوك المسلمين .
 - ٣ - تكونت وحدة سياسية بتأسيس قسم واحد من الحكومة في جميع أقسام الهند .
 - ٤ - اتحدت الأوضاع والملابس في الطبقات العالية والمتوسطة من غير مافرق بين المسلمين والهنداك .
 - ٥ - نشأ فن جديد يمزج من الفنون الهندية والصينية ، وكذلك تكون فن حديث بديع في البناء ، وترقت صناعات حديثة أخرى من الطراز العالي .
 - ٦ - ظهرت لغة مشتركة مسماة بالهندوستانية (وهي الأوردية) ، وكذلك راج أسلوب خاص في الإنشاء بالدوائر الرسمية أنتجه الكتاب الهنداك العاملون فيها ، وازداد هذا الأسلوب رواجاً ، حتى استعاره كتاب اللغة المرهية في كتاباتهم ونسجوا على منواله .
 - ٧ - تمكنت اللغات الأهلية من الذبوع والانتشار تحت ظلال الحكومة المركزية في دلهي ولم يتيسر ذلك من قبل .
 - ٨ - التجديد الديني ، وظهور المتصوفة أيضاً مدين لقدوم المسلمين ، ورسوخ أقدامهم في الهند .
 - ٩ - ازدادت الكتب التاريخية واتسع نطاقها حتى أصبح التاريخ فناً مستقلاً .
 - ١٠ - كل ما حصل من الرقي في فنون الحرب وأدوات الحضارة يرجع الفضله إلى الحكومات الإسلامية .

(١) لحصه الأستاذ مسعود عالم الندوى في مجلة الضياء .

وخير الكلام وأوجزه في ختام هذا الموضوع ما قاله أمير البيان شكيب أرسلان في كتابه ، فقد قال بعد أن سرد الكثير عن هذه الحضارة (١) :

« وبالأجمال فمن شاهد تلك الآثار ، وقرأ هاتيك الأخبار يعلم أن الإسلام تحقق بحضارة باهرة ، وعاش أعصرها زاهرة ، واحتوى على مآثر صورية ومعنوية ، وفضائل باطنة وظاهرة ، يحق للمسلمين أن يباهوا بها سائر الأمم على شرط أن يقتدوا بأوائلهم ، اهـ »

تلك هي الحضارة الإسلامية التي قامت على أرض الهند ، وظلت مئات السنين يغذيها أصحابها ويزيدون فيها ، ويدعمون قواعدها ويعلمون بنائها ، ويفرسون في كل ناحية بذورها ، فتتمو على مر الأيام ، وتمتد فروعها وأغصانها ، ويتمتع الناس بثمارها وظلالها .

ظلت هكذا حتى أراد الله أن يقضى على الملك الإسلامي في الهند ، وأن يغير الحال بعد ما تغيرت النفوس ، وأن يزيل هذا الملك العظيم على يد الإنجليز - والإنجليز دائماً في كل مكان - فأخذ وجه الحياة يتبدل ، وتنكرت الظروف للمسلمين ، فأصبحوا عبيداً بعد أن كانوا أسياداً ، واشتد ضغط الإنجليز عليهم في كل ناحية من نواحي حياتهم ؛ خوفاً من أن يرفعوا رؤوسهم ، ويستعيدوا سلطانهم ، وأخذ الإنجليز ينشرون لغتهم وثقافتهم ، وعكف المسلمون الذين خافوا على دينهم وثقافتهم من الفاتحين الغاشمين . عكفوا على حفظهما بما استطاعوا أمام التيار الغربي الجارف .

وتطورت الحياة في الهند ، وتطور أكثر الناس فيها ، ولكن بقي أكثر المسلمين ، وعلى رأسهم العلماء - ينظرون إلى هذا التطور نظرة مريبة ، فبشوا الألائم في طريقه ، وملثوا عقول الناس بأن كل حديث بدعة ضلالة ، وكانوا في ذلك - على ما أعتقد - مدفوعين بالنية الطيبة ، مع الخوف من الفساد الغربي

الذى يفد مع الاستعمار فى كل مكان ، فاربوه وحاربوا معه كل جديد تقريبا^(١) وعكفوا على علوم الدين يفهمونها على قدر استطاعتهم ويفهمونها للناس ، وذلك فى نظرهم هو الطريق الصحيح لكسب العلم فى هذه الحياة ، وما عدا ذلك فرجس من عمل الانجليز ، لابد أن تسد أمامه الأبواب والمنافذ ، حتى لا يتطرق إلى نفوس المسلمين ، فيخلخل فيها عقائدهم وإيمانهم ، ويضعف عنايتهم بأمور دينهم .

وهكذا أصبح عامة المسلمين فى الهند حينذاك محصورين بين ضغط الحكومة واضطهادهم وإفقارهم ، وتهيئة كل سبل الجهل والضعف لهم ، وبين فكرة العلماء فى محاربة كل جديد ، ولو علما نافعا من علوم الطب والهندسة والكيمياء وما على شاكلتها ، فتأخر المسلمون ، تأخروا عن الركب كثيرا ، ومن تعلم منهم تعليما حديثا فقد تعلم بعد أن حطم القيود من حوله ولم يبال بسخط العلماء ، بل تقم على مر الأيام منهم ومن أفكارهم ، وتبع لهذا نشأ خصام عنيف بينهم وبين العلماء وأتباعهم ، كما حدث بين متخرجى جامعة عليكرة مثلا وبين العلماء الديوبنديين وغيرهم ، وكانت النتيجة على كل حال تأخر ركب المسلمين ، وانزواءهم قليلا أو كثيرا عن إخوانهم فى الوطن من الهندوس .

وبقيت بالرغم من كل هذا آثار آبائهم وأجدادهم تشير إلى عظمة الماضى وتنفض فيهم أن يهبوا ليصلوه بحاضرهم ، إن لم يكن فى ميدان الحكم فى ميدان التقدم والعلم .

تلك هى الآثار والحضارة التى لا تزال الهند الحاضرة تعتر بها لآن ، كما سيعتر بها كل من يأتى من سكان هذه البلاد إذا حماها الله من التعصب الهدام .

(١) ولا زلنا نرى ذلك الآن حتى فى كراهة كثير من المسلمين للباس الإفرنجية (البدة وتوابها) حتى فى حلاقة الرأس يكرهون التدريجة المعتادة عندنا فى مصر ويسمونها انجليزية ، حتى إن بعض العلماء يعيب لبس المذاء الذى الرباط لأن الانجليز كانوا يلبسونه ، ويكرهون الأكل بالمائدة والشوكة والسكين لذلك أيضا ، ويتعاشون - فى اختصار - النشبة بالانجليزية فى أى شئ ، وهذه روح فى أصلها طيبة لكن المبالغة فيها وقياس دين الله على أساسها شئ يضايق كثيرا .

الغرب يتحرك نحو الهند

البرتغال

تحدثت في مبدأ هذا الكتاب عن علاقة الهند القديمة بغيرها من الدول الواقعة على الغرب منها ، سواء أكانت دولا عربية أم غيرها ، وكيف كانت تجارتها ومحصولاتها تنقل إلى ذلك العالم الغربي منها بواسطة التجار والبحارة العرب ، وقد ظل الأمر كذلك ، بل ازداد على مر الأيام نتيجة للحكم الاسلامي وتقدم البلاد ، وازدياد حاجات العالم لتجارة الهند وخيراتها ، وكانت هذه الخيرات تصل إلى أوروبا عن طريق مصر والبلاد العربية ، وكانت تصل مصر إما عن طريق بحر العرب ، ثم البحر الأحمر إلى السويس ، ومنها تنقل برا إلى الاسكندرية ، وإما عن طريق الخليج الفارسي فنهر الفرات ، ثم تنقل الملع برا إلى موانئ الشام ، ومن هذه الموانئ في الشام أو من الإسكندرية كان التجار الأوروبيون وبجارتهم يتولون نقلها وتصريفها في أوروبا ، وكانت الضرائب تجبي على هذه السلع ، تتولى جبايتها الدول التي تمر بها ، ولقد جاء على مصر وقت امتد فيه نفوذها على الشام فكانت تسيطر على الطريقتين ، وتجيبي الضرائب منهما ، وكثيرا ما تكون مرتفعة نظراً لحاجات الملوك للبال . . .

وقد كان الغربيون يجدون حرجا من ارتفاع الضرائب ، ومن تحكم المسلمين في تجارتهم ، ولا سيما ملوك مصر الذين تولوا طرد الصليبيين من الشرق ، وكان هناك بحوار ذلك مناسبة بين تجار البندقية وتجار جنوا ، في احتسار السلع الآتية من الهند لبيعها في أوروبا بالثمن الذي يريدونه .

وقد استطاع تجار البندقية أن يسيطروا على نقلها ، ويحتكروا التجارة فيها ،

وكانت تدر عليهم الأرباح الوفيرة التي يسيل لها اللعاب ، وتنتج من ذلك تغيظ أهل جنوا وبحشم عن وسيلة ينتصرون بها على البندقية .

وكان هناك حالة نفسية في أوربا عقب الحروب الصليبية ، وعقب حروب الأندلس وطرد المسلمين منها ، وكانت البرتغال هي التي تتولى هذه الحركة في الأندلس ، إذ كانت تعد نفسها حامية العالم المسيحي ومنقذة الأندلس من المسلمين ، كما كانت تعتبر من الواجب المقدس عليها أن تعمل للقضاء على نفوذ الإسلام في أى مكان كان :

وكان المسلمون يسيطرون على طرق التجارة البرية والبحرية منها ، ويتحكمون في فرض الضرائب ، فتتج عن هذا وذاك رغبة في التخلص من حكم المسلمين ، بل والقضاء على سيطرتهم على البحار ، بل والقضاء عليهم في الهند نفسها . وفي العالم الإسلامى ما أمكن .

ووجد أهل « جنوا » شريكا لهم يرغب في التخلص من هذا الاحتكار وإن اختلفت الأسباب ، وبذلك تلاقى جهود جنوا والبرتغال .

وكان هذا التلاقى بدء مجهود جبار ظل يبذل عشرات السنين للوصول إلى الهند عن طريق آخر غير الطريق الذى يسيطر عليه العرب ، وهو طريق رأس الرجاء الصالح ..

وقد بدأ العمل لتحقيق هذا الهدف « الأمير هنرى ، ابن الملك يوحنا الذى تولى طرد العرب من الأندلس ، والذى اشتهر فيما بعد باسم « هنرى الملاح » .

هنرى الملاح : (١٣٩٤ هـ - ١٤٦٠ م) .

كان هذا الأمير متشعبا بكرة المسلمين وبالرغبة في نشر المسيحية والقضاء على الإسلام ، وكان رئيسا لطائفة تدعى « فرسان يسوع المسيح » .

وقد غفل بعض المؤرخين عن بواعثه في العناية بحركة الكشف ، فادعوا أنه كان يعنى بها لذاتها ، ولكن الواقع الصحيح يدل على أنه انبعث لهذا العمل

برغبة دينية قبل كل شيء ، وهى إضعاف المسلمين بكل الوسائل التى يستطيعها . وكان أول شيء فى نظره هو القضاء على نفوذهم فى البحار الشرقية ، والتخلص من سيطرتهم على تجارة الشرق فى مصر والبلاد العربية ، ولتحقيق هذه الغاية استغل مالية الجماعة المسيحية التى كان يرأسها ، وبدأ يرسل البعثات البحرية لكشف سواحل أفريقيا الغربية لقصد الوصول إلى الهند ، وكانت هذه السواحل بمجولة تماماً فى ذلك الحين .

وقد حصلت هذه الحملات الكشفية على نجاح إثر نجاح شجعه على مواصلة العمل ، لكنه مات سنة ١٨٦٥ هـ - ١٤٦٠ م قبل أن يحقق هدفه .

ولكن النجاح الذى لقيته هذه البعثات فى معرفة البلاد الغنية ، واستغلال ثروتها على الساحل الأفريقى الغربى ، جعل البرتغال تتابع العمل الذى بدأه هنرى الملاح ، حتى اكتشف « بارتولوميدياز » سنة ١٨٩٣ هـ - ١٤٨٧ م رأسى للعواصف فى طرف أفريقيا الجنوبى ، وهو الذى سمي - تفاؤلاً - رأس الرجاء الصالح ، ولأنه كان مفتاح الرجاء للوصول إلى الهند .

وفى سنة ١٥٩٣ هـ - ٨ يوليو ١٤٩٧ م خرج « فاسكودى جاما » على رأسى حملة يريد الوصول بها إلى الهند عن هذا الطريق ، فوصل إلى رأس الرجاء ، واستدار شمالاً على الساحل الشرقى ، وقد فطن التجار العرب الذين كانوا يسيطرون على التجارة فى مدن الساحل الشرقى لأفريقيا إلى هدف البرتغال من هذه الرحلات ، وعندما وصل إلى « موزمبيق » وأخذ يستطلع الأنباء عن الطريق للهند ، خشى العرب أن يكون هذا بدء صراع معهم بقصد انتزاع التجارة من أيديهم ، فخنقوا عليه وأحجموا عن مده بأية معلومات ، وهكذا لقي من العرب فى كل ثغر مر به .

لكنه استطاع بمداونة أحد الربابنة الهنود أن يعرف معلومات عن الطريق ، بل أخذه معه ليدله عليه ، حتى وصل إلى « كاليكوت »^(١) ، فى ٢٠ مايو

(١) تقع كاليكوت جنوب الهند فى ملابار على شاطئ بحر العرب ، وهى من البلاد التى =

سنة ١٤٩٩ م - ١٥٠٥ هـ ، وكانت مركزاً هاماً من مراكز التجارة العربية في الهند ، كما كانت دملقا ، أهم المراكز العربية في الجزائر الشرقية للتجارة معها ، ومع الصين واليابان ، وكان العرب هم أصحاب التجارة وأسياد البحار في هذه المناطق من قديم ، ومع أنه كانت تقوم بينهم وبين الهنود والصينيين منافسات شأن التجار دائماً ، إلا أن الملاحة والتجارة كانت حرة لا يتدخل ملك ولا جماعة في القضاء على جماعة ، وكانت سفنهم الصغيرة أو الكبيرة خاصة بالتجارة ، ولا تعرف الحرب ولا تستعد لها ، لذلك كان وصول المراكب البرتغالية الكبيرة حادثاً جديداً لهم ..

وعندما وصل دى جاما ، إلى كاليكوت ، كانت في حكم الزامورين ، أو السامري ، الهندوسى ، وكان للعرب عنده مكان ملحوظ ، فأخذوا يغرونه بالطاريء الجديد ، وينهونه للخطر الكامن وراء بحيته هكذا مدججا بالأسلحة ، مما جعل الزامورين ، يستريب فيه ، ويقبض عليه أولاً هو ورجاله ، ثم أطلقه بعد مدة تمكن فيها دى جاما ، من إظهار نواياه الحسنة ، وعقد معه معاهدة تجارية ، وحمل مراكبه بمختلف السلع والأحجار الكريمة وعاد إلى لشبونه ، في سبتمبر سنة ١٤٩٩ م - ١٥٠٩ هـ .

وقد استطاع دى جاما ، في رحلته هذه أن يجمع معلومات عن التجار العرب والبحرية العربية ، فلما رجع أخذ يهون على الملك البرتغالى أمر القضاء على العرب أعداء دينه ، فإن سفنهم الصغيرة لا تستطيع الثبات أمام السفن للبرتغالية الكبيرة المسلحة ، كما أخذ يبشره بإمكان تكوين مستعمرة برتغالية كبيرة في الشرق ، ويجب أن نشير إلى أن هذا الوقت الذى وصل فيه

= وصلها الإسلام مبكراً على يد التجار والبحارة العرب ، وقد زرتها في نوفمبر ١٩٥٧ م فوجدت بها جالية عربية للتجارة ، وللسلدين فيها نشاط وحرية وعدة مدارس صغيرة وكبيرة ، ولا تزال ميناء ومركزاً للتجارة مع العرب .

البرتغاليون إلى الهند كانت تقوم في شمالها ووسطها عدة دول إسلامية قوية بجانب حكومة دلهي في عهد «اسكندر اللودي» فكان في «ججرات» دولة إسلامية قوية ، وفي «مالوا» كذلك ، كما كان في الدكن أربع ممالك إسلامية قامت على أنقاض الدولة البهمنية الإسلامية ، هذا عدا الممالك الإسلامية في شرق الهند .

ولكن كان يجاور الممالك الإسلامية في الدكن بعض الممالك الهندوسية ، وأهمها في الطرف الجنوبي مملكة «فيجايانجر» وكانت الحروب والعداوات دائمة بين الهندوس والمسلمين في هذه المنطقة .

وكانت مصر في حكم المماليك الشراكسة ، وقد تولى السلطان الغوري حكم مصر بعد وصول «دي جاما» للهند بنحو سفتين ، كما كان في تركيا السلطان سليم الأول ، وقد كان اكتشاف الطريق الجديد للهند أكبر ضربة وجهت لمصر والبلاد العربية الإسلامية التي كانت تمر منها التجارة ، وتمتلي خزائنها بالمال ، ولا سيما مصر التي كانت تملك كل الطرق التجارية في ذلك العهد ، وذلك بما كانت تجنيه من الضرائب وما يدخل في جيوب أهلها من المال ، نظرا لقيامهم بنقل التجارة وغيره ، إذ أن ذلك كله قد انتهى بتحول التجارة عن بلادهم إلى الطريق البحري الجديد .

كبرال :

بعد «فاسكودي جاما» خرج «كبرال» سنة ٩٠٦ هـ - ١٥٠٠ م متجها إلى الهند من الطريق الجديد على رأس أسطول مساح بالمدافع ، وبدأ الاحتكاك بينه وبين العرب التجار منذ وصل إلى ميناء «كاليكوت» ، فدمر بعض سفنهم كما دمروا له المركز التجاري البرتغالي فيها ، وانضم «الزامورين» للعرب ، فأخذ «كبرال» يستغل الخلاف الذي بينه وبين الأمراء المجاورين له

في كتشن،^(١) وكانافور، فانضموا إليه وساعدوه، ولكنه أخيرا اضطر أمام قوة الزامورين البحرية إلى العودة للبرتغال، ولكن عملا بالبضائع والنفائس الشرقية ..

ولإزاء هذا العداء الذي بدا من الزامورين وانحيازه للعرب، أعدت البرتغال حملة قوية تحت قيادة «دي جاما» ليقضى على العرب ويجبر الزامورين على الانصياع له، وسار «دي جاما» إلى الهند يعترض كل سفينة عربية ويحطمها، حتى نشر الرعب في البحر العربي، وبلغت هذه الأنباء المزعجة أسماع الزامورين فاستعد له، ولكن سفنه كانت غير مزودة بالمدافع مثل السفن البرتغالية، مما أوقع بها خسائر كبيرة في إحدى المعارك كما أنه قتل أيضا، وقام خلفه من بعده على خطته، ولكنه رأى الأقبل له بمنازلة هذا العدو وحده، فاستعان بملك مصر «قانصوه الغوري» - وكلاهما في الهم شرق - فكتب السلطان الغوري للبابا يتوعده بتخريب الأماكن المقدسة ببيت المقدس إن لم يستدع البرتغاليين من الهند، ويأمرهم بالكف عن عدوانهم على البحار، ولكن البرتغال لم نعبأ لهذا، واستمرت في عدوانها للقضاء على العرب المسلمين، وأرسلت حملة بقيادة «فرنسيسكو ألميدا»، وكانوا قد وضعوا خطة لذلك : أن ينزعوا «ملقا» في الجزائر الشرقية من العرب، كما ينزعون شاطئ أفريقيا الشرق منهم، ثم يستولون على «عدن» و«هرمز» مفتاحي البحر الأحمر والخليج الفارسي، وبذلك يتمكنون من استئصال شأفة المسلمين نهائيا في البحار وفي التجارة ..

ولو أن المسلمين في جميع الدول تنهوا لهذا، وتركوا خلافاتهم ليقابلوا عدوهم لأمكن لهم أن يقضوا على البرتغال، ويرجعوها إلى رقعتها الصغيرة

(١) في الجنوب من كاليكوت، وقد زرتها في نوفمبر سنة ١٩٥٧ أما «كانافور» في الشمال منها وقد زرتها كذلك، والمدن الثلاثة تقع على بحر العرب .. ولكن كوتشن مينائها أكبر من كاليكوت بكثير.

في أوربا ، ولكنهم للأسف قد أهملتهم أنفسهم ولم يتعد نظرهم مواقع أقدامهم ، لذلك اتيح لهذه الدولة أن تسيطر على الشرق ، وأن تهزم البحرية الإسلامية ، وتقضى على النفوذ العربي في البحار .

استجاب ، قانصوه الغورى ، لطلب الزامورين الذى انضم إليه في الوقت نفسه ملك الكجرات السلطان محمود بيگرو ، وجاءت السفن المصرية بقيادة الأمير حسين وكان مزودا بأحدث الأسلحة ، وانضم إلى الأسطولين ، واستطاعوا أن يهزموا البرتغال أولا أمام سواحل ملابار بكاليكوت سنة ٩١٤ هـ - ١٥٠٨ م ، وكاد أمل البرتغال يقضى عليه ، لولا أن تشبث ، الميدا ، بالأمل ، وأعاد تجميع ما بقي من أسطوله ، واتجه به نحو الشمال ، حيث كان الأسطول المصرى بقاعدته في « ديو » من موانئ « كجرات » ، وهناك ساعدته الخيانة في التغلب ، فقد كان حاكم « ديو » من قبل السلطان محمود من أصل أوربى ، فانضم سرا للبرتغاليين ، ومنع تموين الأسطول المصرى ، فاستطاعوا بذلك هزيمة الأسطول المصرى والهندى سنة ٩١٤ هـ ٢ فبراير ١٥٠٩ م . وإزاء هذه الحالة ، وإزاء الظروف الجديدة في مصر ، حيث كان الأتراك بقيادة سليم الأول يتحرشون بها للقضاء على سلطان الممالك وضمها إليهم ، إزاء هذه الظروف وجع الأسطول المصرى ، وبذلك انفتح الباب الواسع للنفوذ البرتغالى في الشرق وفي البحار ، وكان ذلك بدء استعمار الغرب للشرق مئات السنين التى قلت هذه الواقعة ، ولو قدر للأسطولين المصرى والهندى هزيمة البرتغاليين ، والسيطرة على البحار ، وطردهم منها إلى الغرب لكان من الممكن أن يتحول مجرى التاريخ ، وتخلص الدول الشرقية من استعمار طال أمده ، ولا زالت تعاني للآن أثره .

ومن المهم أن نشير مع ذلك إلى ما فعله البرتغاليون تطبيقا لخطتهم في القضاء على العرب في شرق أفريقيا ، فقد هجموا على الموانئ التى يسود فيها النفوذ العربى فأحرقوها ونهبوها ، وقتلوا الآلاف من سكانها ، حدث هذا في « كوره » ، وفي « موزمبيق » ، بقيادة « الميدا » ، وهو في طريقه للهند ..

وقد قتل « ألميدا ، أثناء رجوعه في جنوب أفريقيا ، فتولى أمر القيادة « البوكيرك ، سنة ١٥٠٩ هـ - ١٥١٥ م ، وهو أعظم قائد برتغالي متعصب وطد نفوذ البرتغال في الشرق .

فقد استطاع الاستيلاء على « جزيرة سقطرة » ، واتخذها قاعدة بحرية له ، ثم طلب من ملك هرمز ، على الخليج الفارسي الخضوع له ، ودفع الخراج بعد أن هزمه وأغرق ٤٠٠ سفينة له ولغيره ممن تجمعوا لخربه فاستجاب له ، ومع ذلك لم يستطع إخضاع « الزامورين ، في « كاليكوت ، بالرغم من الهجوم المفاجئ عليه ، فإنه استطاع أن يتصدى للعدو ، وينزل به هزيمة شديدة حتى قتل أحد القواد ، وحمل « البوكيرك ، نفسه مجروحا إلى سفنه . بعد ما حاول محاولة يائسة الاستيلاء على كاليكوت واتخذها قاعدة له ، ومات في « جوا ، سنة ١٥١٥ م ، وكان البرتغاليون قد استطاعوا بمساعدة الهندوس المراهتا ، وفي مملكة فيجايانكر أن يستولوا على « جوا ، سنة ١٥١٠ م ، وكانت في آخر أملاك عادل شاه ، وقد انضم الهندوس للبرتغاليين مدفوعين بعامل الكراهة للمسلمين ، والرغبة في القضاء على نفوذهم ، كما منحهم بعض القواعد في بلادهم لتوطيد أقدامهم . وهكذا جمعت هؤلاء الرغبة في القضاء على النفوذ الإسلامي ، وقد استطاع « البوكيرك ، أن ينشئ قواعد برتغالية في : ديو ، وجوا ، وملقا - التي استولى عليها من العرب - وهرمز ، وسقطرة .

وبذلك وطد نفوذ البرتغال في الشرق ، وأصبح مرهوب الجانب صاحب نفوذ واسع ، فقد كانت الملاحة في البحار تحت رحمته ، وإن كانت قواعده في الهند لم تتعد عدة بلاد اتخذها مراكز لتجارته ، وحصنها للدفاع عنها .

وظلت البرتغال في الهند حوالى قرن أصابها في نهايته الانهيار . حيث استولى عليها الملك « فيليب الثاني ، ملك أسبانيا ، وضمها إلى أملاكه وأصبحت مستعمراتها في الهند تحت حكم الأسبان ، وذلك سنة ٩٨٨ هـ - ١٥٨٠ م ، وبالرغم من أن البرتغاليين هم الذين فتحوا الطريق لأوربا إلى الهند ، وسبقوها إلى استغلال خيراتها ، والسيطرة على بعض بلادها ، فإنهم لم يستطيعوا الثبات فيها كثيرا ، وربما كان

للمنافسين الذين ظهروا بعد ذلك من الهولنديين والانكليز والفرنسيين، والذين استقبلهم الهنود استقبالا حسنا ليخلصوهم، أو على الأقل ليقضوا بهم على البرتغاليين الذين لم يفتأوا منذ نزولوا الهند يسيثون إلى دولها ، ويتدخلون في المنافسات بينها ، ويعملون على التبشير بالدين المسيحي - ربما كان ذلك من أهم الأسباب في القضاء على النفوذ البرتغالي في الهند ، حيث لم يبق لها إلا «جوا» و «دمن» ، و «ديو» ، وهي مدن صغيرة حولها بعض قرى على الساحل الغربي من الهند ، وهذه هي الولايات الصغيرة التي تتمسك البرتغال بها للآن ، برغم إلحاح الهند عليها بتركها كما فعلت إنجلترا وفرنسا^(١) .

هولندا

بدأت خيرات الشرق تتدفق على أوروبا بكثرة بوساطة البرتغاليين ، وبدأت الأموال تتدفق على البرتغال من وراء ذلك ، وكان الهولنديون باعتبارهم أمة بحرية يتولون نقل التجارة الهندية من الموانئ الأسبانية والبرتغالية إلى أوروبا الشمالية ، وكانوا في ذلك الوقت تابعين لاسبانيا ، ولكنهم قاموا بثورة أدت إلى إعلان استقلالهم سنة ١٥٨١ م ، فحرّمهم الملك «فيليب» لذلك من نقل التجارة إلى الشمال ، ولم يسكت الهولنديون على هذا الحرمان ، بل إنه دفعهم إلى المجازفة - وكانوا أمة بحرية - فغاضوا البحار التي خاضها البرتغاليون من قبل ، ووجدوا في ذلك عنقا شديدا ، لأن البرتغاليين جعلوا سر البحار والطرق التي اكتشفوها خاصا بهم ، وتآلفت الشركات الهولندية من أجل التجارة الهندية ، ثم اندمجت هذه الشركات في شركة واحدة باسم شركة الهند الهولندية ١٠١١ هـ - ١٦٠٢ م . ونزلت هولندا ميدان المنافسة مشبعة بالعداء للبرتغاليين ، والرغبة في القضاء عليهم في الهند .

(١) كانت فرنسا تسيطر على بعض مدن على الساحل مثل نيوماي شمال كاليسكوت وغيرها فتركها بعد النجاح الإنجليزي . وقد زرت نيوماي في رحلتها الجنوب في نوفمبر سنة ١٩٥٧

وكانت خطة الهولنديين في الشرق هي السير في هدوء مع أهل البلاد للحصول على أكبر قدر ممكن من التجارة ، غير متدخلين في مسائل التبشير بالمسيحية، وإن كانت أساليبهم قد اعتمدت على القوة فيما بعد ، وقد استطاعوا أن يهزموا الأسبان والبرتغال. ويؤسسوا محطة تجارية في «جزيرة جاوا» باندونيسيا عام ١٥٠٧-١٥٩٨ م ، وبدءوا من ذلك الوقت يتوسعون في جزر الملايو بعقد المعاهدات تارة ، وبالقوة تارة أخرى ، واستولوا على ملقا من البرتغاليين سنة ١٥١٥-١٦٠٦ م ، ثم أسسوا عاصمة لهم في «جاوا» تسمى «بتافيا» سنة ١٥٢٩-١٦١٩ م ، ومنذ ذلك الوقت وهم يستعمرون أندونيسيا حتى بعد الحرب العالمية الأخيرة ، حيث استطاعت أندونيسا أن تخوض معهم حربا بعد جلاء اليابانيين ، انتهت بإعلان استقلالها وتكوين جمهورية مستقلة بها .

أما في الهند فقد استولوا على «سيلان» ، ثم عقدوا معاهدة مع الزامورين ضد البرتغال سنة ١٥١٣-١٦٠٤ م واستولوا على «كوتشن» سنة ١٥٧١-١٦٦٠ م ، وأنشأوا مراكز تجارية في سورت وأحمد أباد وأكرا ، ولم تتوسع هولندا كثيراً في الهند ؛ إذ لم تستطع منافسة الإنجليز ، فوجهت كل نشاطها إلى الجزر الشرقية الغنية بالمحصولات . وفي سنة ١٢٤٠ هـ - ١٨٢٤ م تنازلت عن أملاكها في الهند لانجلترا مقابل استيلائهم على أملاكها في «سومطرة» .

انجلترا وشركة الهند الشرقية الانجليزية

بلغ التنافس بين الدول الغربية حد السعار في الاستيلاء على أراض جديدة ، والحصول على مغانم وفيرة من خارج بلادها ، فانجبت في اكتشافاتها واستعمارها نحو الغرب ونحو الشرق ، واصطدمت بعضها بعض ، واستطاع الأسطول الانجليزي أن يقهر «الارمادا» الأسباني سنة ١٥٧٧ هـ - ١٥٨٨ م وفتح هذا النصر الباب للسيادة البحرية الانكليزية .

وفي ذلك الوقت كانت البلاد الشمالية الأوربية تشكو من الشكوى من

ارتفاع أسعار التوابل التي تستوردها البرتغال وأسبانيا من الشرق ، وبدأت روس تفكر في عمل ما تعمله هذه الدولة المحتكرة ، وتذهب بنفسها لطلب التجارة من هذه البلاد الشرقية ، واجتمع بعض زعماء لندن ليبحث هذه الفكرة ، وشجعهم على ذلك ما حصلت عليه بعض السفن البريطانية من جواهر و بهارات ، وعقاقير ومنسوجات من سفينة هولندية استولت عليها ، حين كانت قادمة من الشرق محملة بخيراته ، فأسال ذلك لعاب الإنجليز ، وجعلهم يقررون تأليف شركة تجارية تقوم بهذه المهمة ، وتقدموا بطلب للملكة إليزابيث ، لتأليف هذه الشركة ، فصدر المرسوم بتأليفها في سنة ١٠٠٩ هـ ٣١ ديسمبر ١٦٠٠ م . وقد ساعدت الدولة على ذلك مدفوعة بعاملين : أولهما سياسى ، وهو العمل على كسر شوكة أسبانيا ،^(١) وثانيهما تجارى ، وهو حرمان الأسبان من احتكار التجارة الهندية العظيمة الأرباح ، وتحويل جانب منها إلى أيدي الإنجليز ،^(٢) .

وكثير من المؤرخين يقولون : إن غرض الشركة أولا كان تجاريا بحتا ، ولعلمهم في هذا يأخذون بظاهر ما أعلنته الشركة عند قيامها ، ولاكنى أخالف هؤلاء وأستريب في نية الشركة ؛ فإن ذلك الزمن كما قلت سابقا كان زمن تسابق بين الدول في كسب مستعمرات جديدة في الغرب والشرق ، والإنجليز حين ألفوا هذه الشركة كانوا يعلمون جيدا ما فعلته البرتغال في الهند في مدى قرن من الزمان ، من تأسيس مستعمرات بها ، وبسط نفوذها عليها بجانب التجارة ، فلا بد أنهم حين هموا بتأليف الشركة وضعوا أمام نظرهم هذه الحقيقة ، إن لم يكن من الأهالي فن الحكومة على الأقل ؛ فقد تعلمنا من خطط الانجليز أنهم يخفون دائما مآربهم الحقيقية وراء مظاهر مختلفة ، ونحن المصريين قد أخذنا درسا منهم في هذه الناحية ، حينما تستروا وراء المال لاحتلال مصر واستعمارها ، فلا يمكن لنا الآن أن نتخددع بمظاهر أقوال

الشركة دون أن تنظر إلى الحقائق التي كانت تخفى وراء هذا القول وهذا العمل ، وإن أعمال الشركة فيما بعد كفيلة بأن تؤيدنا ، وتجعلنا نخالف هؤلاء المخدوعين ، لا سيما وتلك السياسة الخفية كانت سياسة فرنسا وهولندا في الهند وفي الجزر الشرقية ، فلا يعقل أن تكون انجلترا أم الاستعمار بريئة من هذه النية .

بدأت الشركة ضعيفة في أول الأمر كشأن كل مولود ، واعتمد الانجليز على الحيلة والتودد إلى حكام الهند وتقديم الهدايا المختلفة لهم ، وكان الحكام متضايقين من البرتغال ، وسلوكها الخشن معهم ، فقبلوا الانجليز بقبول حسن ، وربما فكر بعضهم في استغلالهم لضرب البرتغاليين ، وكسر شوكتهم ، وتقرب الانجليز إلى الملك « أكبر » المغولي الذي كان يفتح بابه لكل طارق من هؤلاء ومن المبشرين أيضا ، وكان ظاهر هؤلاء التجارى مع قوة ملوك الهند باعنا لهم على ألا يفكروا في العواقب ، فما كان أحد يظن أن هؤلاء الذين جاءوا يلتمسون الرزق ، ويقفون بباب الأمراء والحكام وأصحاب التجارات ينقلبون يوما من الأيام إلى سادة يتحكمون ، فلم يكونوا في نظر الحكام إلا تجارا مرتزقين ، من أجل هذا لم يعطهم الحكام أية عناية من الناحية السياسية ، وأحيانا كانوا يعطفون عليهم ويمنحونهم بعض التسهيلات ، كرفع الضرائب عنهم ، وإعطائهم إذنا بإنشاء مراكز تجارية لهم ، ولم يكن المركز إلا قطعة أرض يقام في ناحية منها بعض أكشاك خشبية للموظفين ، يحيط بالجميع سور من الأسلاك أو من غيرها ، شأنها شأن مراكز « بنك التسليف » المعروفة في مصر ، وكان يقوم بحراسة هذه المراكز حراس وطنيون ، ثم تدرجوا فجعلوا الحراس أيضا من أبناء جنسهم ، وأخذوا يسلحونهم بحجة الحراسة ، ومن هنا نبت الجيش الإنجليزي - المكون من الإنجليز ومن أبناء البلاد الذين انخرطوا في سلكهم - تكون الجيش الذي أخضع الهند لسلطان الإنجليز فيما بعد ، وقد رأت الحكومة الإنجليزية أن تعين لها معتمدين لدى حكام الهند ، فإن ضرورة وجود الانجليز والتجارة الإنجليزية أصبحت تقضى

بانصال حكومى على أى نوع كان ، ولم يكن ذلك الاتصال موجودا من قبل ،
فعين الملك « جيمس الأول » ، ممثلا له فى بلاط الملك المغولى ، جهانگیر ، .

« وحين ظهر هذا السفير ممثلا للملك انجلترا وشركة الهند الانجليزية معا
لدى بلاط « جهانگیر » ، المغولى قال له وزراء هذا الملك : إن ملك انجلترا
ليس غير سيد جزيرة صغيرة يسكنها صيادون بئسون ، فلما مضت سنتان
ونصف على إقامته هناك دون أن يظفر بطائل عند الملك المغولى ضرع إليه
أن يعطيه كتابا لمولاه ، فقال له الوزير الأول : إن مما لايناسب قدر ملك
مغولى أن يكتب رسالة إلى أمير صغير كملك انجلترا ، بيد أن تلك الشركة
الانكليزية لم تقنط ، فالت بالدسائس برامة من الملك المغولى سمح لها فيها
بأن تتاجر فى « سورت » ، فانسعت أعمالها بالتدريج^(١) ، وكان قد تغير
السفير وأصبح « توماس روى » ، فتقرب إلى الملك ، واختلط بحاشيته ، واستطاع
أن يحصل على إذن بمعاونة التجارة الانجليزية من الضرائب ، فاستطاع هذا
أن ينشئ محطات تجارية للشركة فى « سورت » ، سنة ١٠٢١ هـ - ١٦١٢ م
ثم فى « برهانپور » ، و « أجمير » ، و « أگرا » ، بعد ذلك بسنين قليلة .

واشتدت المنافسة بين الشركات الانجليزية والهولندية والبرتغالية ، ولكن
انتهجهم الانجليز أكثر إلى الشركة الهولندية الجديدة ، أما البرتغاليون فلم
يعد لهم خطر كبير ، وباسم المنافسة بينها وبين الهولنديين أخذت تحصن مراكزها
لحماية تجارتها ، وقد استطاعت سنة ١٠٤٣ هـ - ١٦٣٣ م أن تحصل على إذن
بإنشاء مركز تجارى لها فى البنغال ، وفى سنة ١٠٤٩ هـ - ١٦٣٩ م أقامت أول
حصن لها فى الهند وهو حصن « سنت جورج » فى مدراس - وقد تحول الآن
إلى متحف زرته فى ديسمبر ١٩٥٧ م ويقع على شاطئ البحر - على أنها كادت
تصاب بالإفلاس حين اشتدت منافسة الهولنديين من جهة ، وحين أصدر
« كرومویل » ، سنة ١٠٦٦ هـ - ١٦٥٥ م أمرا بمنع احتكار الشركة للتجارة

الهندية ، ولكن ذلك لم يلبث طويلا ، فعند ماتولى « شارل الثانى » أعاد لها مكائنها واحتكارها ، ووسع نفوذها ، وجعل لها الحق فى إعلان الحرب على من يقف فى سبيل مصلحتها ، وعظمت أرباح الشركة حتى كانت تتراوح ما بين ١٠٠ ، ٢٠٠ ٪ ^(١) .

وقد اشترت سنة ١٠٧٢ هـ - ١٦٦١ م مدينة « بمباى » من البرتغاليين ، واتخذتها مركزا للشركة ، وأصبح لها فروع فى كل مكان بالهند تقريبا . بعد أن نفذت إلى داخل البلاد ، ولم تقتصر على السواحل ، وذلك حسب ضرورة الشراء والبيع فى مراكز التجارة المختلفة .

فرنسا تدخل ميدان المنافسة فى الهند

وفى سنة ١٠٧٥ هـ - ١٦٦٤ م تآلفت شركة فرنسية سميت : شركة الهند الشرقية الفرنسية ، وكان قيامها مختلفا فى ظاهره عن قيام الشركة الانجليزية ، فقد تآلفت برأى الوزير الفرنسى « كولبير » ، وأعانها بقرض حكومى وضمان حكومى أيضاً ، والحق أن فرنسا تأخرت كثيرا عن زميلاتها فى العمل بالهند ، ولكن ذلك كان لظروفها الداخلية ، فلما تولى « كولبير » عمل على إقامة هذه الشركة ، وكان مقصدها مرسوما من أول الأمر ، ليس التجارة فحسب ، بل السيطرة أيضاً ، وبذلك دخل ميدان المنافسة عامل جديد قوى ، له أغراضه الواضحة فى التحكم ، وبسط النفوذ على الهند وطرده الغربيين منها .

واستطاع الفرنسيون أن يتخذوا لهم مركزا تجاريا فى « سورت » سنة

(١) هكذا يقول كتاب تاريخ أوروبا الحديثة من ٢٩٢ ، ولكن ما اطلعت عليه من كتب التاريخ الهندية تفيد أن شارل الأول سنة ١٦٤٥ - ١٦٤٩ طلب من الشركة مالا (١٠ آلاف جنيه) على سبيل القرض فامتنعت الشركة فغلت بها المصائب ، ولما جاء « كرومويل » ببدء بنظام الجمهورية قدمت له الشركة ٣٠ ألفا من الجنيهات قرضا ، فعاونها حتى انتشلها من الحراب ، ولما جاء « شارل الثانى » ببدء لقيت منه الشركة مآونة أكثر حتى رحبت أرباحا عظيمة ، فقدمت له هدية أربعمائة ألف جنيه ، وبهذا يكون « كرومويل » قد فسخ الروح فى الجسد الميت و « شارل الثانى » قد أعاد إليه شباباه - هكذا جاء فى كتاب (نقش حياة ..) ص ٦٦٠ ، ٦٦٢ .

١٨٠٥-١٦٧٤ م ، وأخذوا يعملون على التودد للأهالى واكتساب ثقتهم ،
وفى نفس هذا العام أنشأوا مركزا تجاريا لهم فى « بوند شيرى » على الساحل
الشرقى جنوب مدراس بنحو ٨٠ ميلا ، وأسسوا بها قلعة حصينة ومدينة
حديثه ، وأخذوا يدربون الأهالى على الدفاع عن القلعة والمدينة معا .

وفى الوقت الذى كانت المنافسة بين الانجليز والفرنسيين على أشدها
أصيب الانكليز بضربة قاصمة من « الامبراطور أورنگزيب » ، حين حدثتهم
ففسهم بفرض سلطاتهم على بعض أملاكه فى البنغال ، فاضطروا لطلب
الصلح ، ودفع غرامة مالية كبيرة ، وذلك سنة ١١٠١ هـ - ١٦٨٩ م ، على
أنه سمح لهم فى السنة التى تليها بإنشاء مركز وتحصينه فى كلكتا سمي « حصن ولیم »
سنة ١٦٩٠ م وقد تأثرت الشركة بتلك الضربة ، وبما كانت تنفقه على تحصين
مراكزها للدفاع عنها ضد الفرنسيين وغيرهم ، ثم زادت نكبتها حين سمحت
الحكومة الانجليزية بإنشاء شركة أخرى تجارية ، فاضطرت تلك لإيقاف
أعمالها لمدة ثلاث سنين ، ثم اتحدت الشركتان تلافيا للخسارة الفادحة التى
أصابتهما ، وسميت الشركة الجديدة باسم « الشركة المتحدة » سنة ١١١٤ هـ -
١٧٠٢ م .

وإلى هذا الوقت لم تستطع شركة من هذه الشركات أن تفرض نفوذها
على جزء من أراضى الهند التى كانت فى حكم الإمبراطور القوى « أورنگزيب » ،
لكن بعد وفاته سنة ١٧٠٧ م بدأت الدولة القوية فى الضعف والتفكك ،
وأخذت الحكومات المستقلة تتكون فى المناطق المتعددة ، وتقوم الخلافات
والحروب بينها ، فكان ذلك من حسن حظ المتنافسين على الصيد ، فقد بدءوا
عملياتهم الحقيقية فى السيطرة ، وكسب الزمن والبلاد إلى جانبهم ، وانقضت
النسور الجائعة على الجسم المريض تنهشه وتزيده ضعفا من كل جانب ، وهو
لا يرحم نفسه ، بل يهيم لآكله أحسن الفرص لأكله والقضاء عليه .

وقد بلغ التنافس بين الانجليز والفرنسيين ذروته حين قامت الحرب بين

انجلترا وفرنسا في حرب الوراثة النسائية التي بدأت سنة ١٧٤٠ م في أوروبا وانتقلت هذه الحرب بطبيعة الحال إلى مثلبيها في الهند .

دوبليكس :

وكان على رأس الشركة الفرنسية في ذلك الوقت قائد ماهر ، ومجرب حكيم وسياسي قدير هو « دوبليكس »^(١) ، فصمم على أن يجلي الانكليز من الهند ، وينفرد هو بجسم الدولة المغولية المريض ، وقد وفق كثيرا في مهمته ، وأجلى الانكليز عن مدراس سنة ١١٦٠ هـ - ١٧٤٧ م ولكنها ردت إلى الانجليز بعد ذلك حينما عقد الصلح بينهما .

وقد خرجت فرنسا من الحرب في أوروبا منهزمة ، وكان موقف « دوبليكس » حينذاك حرجا ، إذ أصبحت دولته عاجزة عن مده بمال أو رجال ، ولكنه كان رجلا قديرا ، فقرر أن يعتمد على نفسه في القيام بمهمته في الهند ، وأخذ يتدخل في الخلافات الناشبة بين الأمراء المتنازعين على الحكم في الجنوب ، واستطاع أن ينصرف ريقا على آخر ، ويكتسب من ذلك منفعة ونفوذا واسعا ، فوقف بقوة الشخصية أمام الانجليز الذين يخشون سطوته في الهند .

« وهكذا استفحل أمر « دوبليكس » ، وعظم نفوذه من غير أن يكلف فرنسا شيئا ، فلما رأى الانكليز أنهم كادوا يجلون عن جميع ما يمتلكون في الهند تذرعوا بحوك الدساتيس في « قصر فرساي » ، فاستطاعوا بوسائل لا يزال أمرها سرا غامضا أن يحملوا لويس الخامس عشر على استدعاء « دوبليكس » ، وعلى ترك جميع ما فتحه ، فكان هذا أخزى عهد قطعه ملك فرنسي ، ويش « دوبليكس » ، وعاد إلى فرنسا ليوت فيها يائسا^(٢) ، وكانت عودته سنة ١١٦٨ هـ - ١٧٥٤ م .

كان هذا العمل أشد ضربة وجهت لنفوذ فرنسا في الهند ، فلم تقم لها قائمة بعد ذلك ، ولم يستطع من جاءوا بعده أن يحافظوا أو يسترجعوا شيئا من نفوذ فرنسا الذي اضمحل بعد استدعائه .

(٢) حضارة الهند ص ٢٤٤ .

(١) ورد اسمه أحيانا « دوبليه » .

وبذلك كسبت الشركة الانجليزية كثيرا ، واستطاعت أن توطد أقدامها ، لاسيما وقد تولى أمرها « مستر كلايف » سنة ١١٧٠ هـ - ١٧٥٦ م ، بعد أن أظهر مواهبه في استرداد أحد المواقع من حلفاء دوپليكس ، وظهر الانجليز في الهند بمظهر القوى النفوذ ، المتفوق على منافسيه الغربيين ، لاسيما بعد أن انتزعوا « بوند شيرى » من أيدى الفرنسيين ، وأخذوا يتدخلون في شؤون البلاد لفرض سيطرتهم عليها ..

موقعة بلاسى سنة ١١٧٠ هـ - ١٧٥٧ م

ورأى حاكم البنغال ، الأمير سراج الدولة ، أن الانجليز أصبحوا لا يكفون عن التدخل في شؤون الحكم ، وكان رجلا مخلصا لبلاده ، غيورا عليها من التدخل الأجنبي ، ففكر في أن يوقف هذا التدخل ، ويقضى على الشر قبل أن يستفحل ، فهاجم حصن « وليم » ، في « كلكتا » ، واستولى عليه من الانجليز ، واعتقل عددا من رجالهم الذين ماتوا في معتقلهم الضيق ، ولكن الانجليز سرعان ما استعانوا بقوتهم البحرية التي جاءتهم بالمدد من مدراس ، فاستردوا الحصن وعقدوا صلحا معه .

وقد تفادى سراج الدولة بعد ذلك الدخول معهم في حرب ما أمكنه ذلك ، وكان من الجائز أن يقف الأمر عند هذا الحد ، لكن الانجليز لم يربدوا ذلك ، لاسيما بعد أن لاحت لهم الفرصة للتخلص من « سراج الدولة » ، الحاكم الوطنى ، وكانت هذه الفرصة تتمثل في اتصال بعض الخونة من جيش « سراج الدولة » بالانجليز ، وكان على رأسهم أحد قواده وهو « مير جعفر » ، وأخذ الانجليز يتصلون به سرا ، وكانوا يذهبون إلى بيته في زى النساء المحجبات ، حتى إذا وثقوا من مساعدته نقض « كلايف » المعاهدة ، وهاجموا سراج الدولة بجيش عدته ثلاثة آلاف تقريبا ، منه نحو ٩٠٠ جندي انجليزى ، أو ٦٥٠ كما جاء في حضارة الهند ، والباقي من الهنود ، وكان جيش سراج الدولة مكونا من ٦٠ ألفا ، لكن عدم التسليح الجيد مع خيانة بعض القواد أضعفا مركزه .. وعند ما تقابل الجيشان قرب « بلاسى » سنة ١١٧٠ هـ - ٢٣ يونيو ١٧٥٧ م ،

فقد الخائنون خطتهم ، وتراخوا عن القتال ، ولكن « مير مدن » ومهر ارجا موهن لال ، القائدين الوفيين ثبتا بمن معهم من الجنود ، وهجموا على الانجليز ، حتى اضطروهم إلى الفرار والهرب بين الأشجار ، وكان على رأس مدفعيتهما أحد الضباط الفرنسيين . ثم تدخلت الطبيعة في المعركة ، فأمطرت السماء وفسدت أكثر الذخيرة التي في أيدي الجيش البنغالي ، واستوفت المعركة بعد الظهر ، ورغم فساد كثير من الذخيرة ، وتوقف المدافع ، فقد هجم « موهن لال » ، ومير مدن ، وأحدثوا الرعب في صفوف الانجليز ، وأخذ « كلايف » يستنجز الخائن « مير جعفر » ، ما وعده به ، وفي هذه الحالة أصيب « مير مدن » ، فذب اليأس في نفس سراج الدولة ، لكنه مع ذلك أصر على الاستمرار في الحرب ، وأمر « جعفر » بالهجوم لمساعدة « موهن لال » ، الذي أصر على متابعة الهجوم مهما كلفه الأمر ، وكان قائدا وفيا قل نظيره بين القواد ، وحينئذ رأى « مير جعفر » الفرصة قد سنحت لتنفيذ خيائته ، فاشترط على سراج الدولة أن ينسحب « موهن لال » أولا ، ويترك له الميدان ، واستجاب له سراج الدولة في براءة ، وأرسل إلى قائده الوفي أن يتخلى عن القيادة ، ولكنه أبى أولا ، ثم خضع لإزاء إصرار سراج الدولة ، وفي الوقت الذي أخذ فيه « موهن لال » ، ينفذ أوامر الانسحاب أرسل « مير جعفر » لأصدقائه الانجليز أن يهجموا سريعا ، في الوقت الذي حدث فيه الاضطراب والعصيان في صفوف الجند ، وانصرفوا من الميدان ، وبذلك تحقق سراج الدولة من الفشل الذريع وفر من الميدان ، وذهب لعاصمته « مرشد آباد » متكررا في زى الشحاذين ، ولجأ إلى قصره . . أما « موهن لال » ، القائد الوفي الشجاع فقد أسر في ٢٥ يونيو بعد ما أنكر على « مير جعفر » خيائته وموقفه المزرى ، فمذبه جعفر وقتله وصادر أملاكه .

وفي ٢ يوليو قبض على سراج الدولة في « مرشد آباد » وقتل بأمر « كلايف » ، وعندما تقدم قاتله نحوه سجد لله شكرا ، وأخذ في الاستغفار ، فهاجله بضربة خربها صريعا شهيد الدفاع عن بلاده وشرفه . .

وقد كان جزاء خيانة « جعفر » ، أن ولاه الانجليز حكم البنغال ^(١) ، كان هذا جزاءه عند الانجليز ، وما أقسى جزاءه عند الله والناس .

فقد ظل الناس يذكرون هذه الموقعة ، ويحتفلون بذكرها الحزينة كل عام ، وهذا الشاعر الفيلسوف محمد إقبال يسجل على « جعفر » ، وزميله « صادق » ، الذى خان المجاهد العظيم « سلطان تيبو » ، وانضم للإنجليز فى ميسور يسجل عليهما هذا العار فى بيت من الشعر الأوردى يردده كل متعلم فى الهند :

جعفر أزينگال صادق أزدكن تنگ دين تنگ ملک تنگ وطن
ومعنى هذا البيت الأوردى أن جعفر من بنگال وصادق من دکن عار الدين وعار الملة وعار الوطن .. نعم .. ولعنة الله على الخائنين ..

وقد كانت هذه الموقعة مفتاح تحول فى تاريخ الهند ، فبدأ النفوذ الانجليزى يسيطر على بنگال ، فلم يكن الخائن « جعفر » سوى ظل أسود ودمية قبيحة يلعب بها أسياده الانجليز ، ومنذ ذلك الوقت دخلت بنگال فى حكم الانجليز ، وأخذ شبحهم ونفوذهم الخفيف يزحف على ولايات الهند المتفرقة المتخاذلة ، لا سيما بعد أن حاول « مير قاسم » - الذى خلف جعفر على حكم بنگال - أن يسترد النفوذ الوطنى ، ويطرد الانجليز بمساعدة « شاه عالم » ، الذى كان قد ولاه « أحمد نادرشاه » ملك المغول ، وشجاع الدولة ^(٢) ، ولكنهم هزموا جميعا فى موقعة « بكسر » سنة ١١٧٨ هـ - ١٧٦٤ م ، واضطر « شاه عالم » أن يتنازل للانجليز عن حق الإشراف المالى على بنگال وأوريسه وبيهار ، على أن يأخذ

(١) ومع هذا فقد جاء فى كتاب قصة الحضارة ج ٣ لمؤلفه (ديورانت) وترجمة الدكتور زكى نجيب محمود أن جعفر دفع إلى الورد (كلايف) مبالغاً يعادل ستة ملايين ربال نظير تولىه الإمارة . (عن الهند والغرب ص ٧٦)

(٢) هو جلال الدين بن أبى المنصور التركمانى حكم فى بلاد (أود) بعد وفاة أبيه ولما انهزم مع زملائه فى (بكسر) أشار عليه بعض أصدقائه بالالتجاء للانجليز فالتجأ إليهم فولوه الحكم فى (أوده) تحت سيادتهم وتوفى سنة ١١٨٨ هـ - ١٧٧٤ م (نزهة ج ٦ ص ٥٧) .

منهم مليونين و ٦٠٠ ألف روبية ، وبذلك توطد نفوذ الانجليز أكثر مما كان ، وأقاموا حكما وطنيين يتلاعبون بهم كما يريدون .

واجتازت الشركة بعد ذلك دورا من الاختلال والضعف الإدارى ؛ لانتشار الرشوة بين رؤسائها وموظفيها ، وسعيهم إلى جمع المال بكل وسيلة ، بعد أن توطدت أقدامهم وانتشر نفوذهم ، فأرسلت الحكومة الانكليزية اللورد كلايف ، إلى الهند بعد أن كان قد غادرها ، فعمل على القضاء على الرشوة وإصلاح الإدارة والجيش ، وحسن العلاقات بين الشركة وأمراء الهنود ، ثم عاد إلى لندن سنة ١١٨١ هـ - ١٧٦٧ م .

وقد كان من الممكن أن تسير الأمور سهلة لينة أمام الشركة ، فإن سلطان المغول قد ضعف ، وأصبح فعلا فى حماية الشركة ، فلم يكن هناك خوف من جانبه .. لكن كان أمام الانجليز منافسهم من الفرنسيين الذين كانوا لا يزالون يهددون نفوذهم فى الهند ، وكان أمامهم أيضا قوتان جديدتان : إحداهما قوة المراهتا ، الذين سيطروا على أغلب أجزاء الهند ، وأنشأوا لهم دولة مرهوبة الجانب ، وثانى القوتين : قوة حاكم ميسور ، الجديد ، حيدر على ، ومن بعده ابنه ، سلطان تيبو .

وقد تولى أمر الشركة فى ذلك الوقت « ورن هستنجز » ، وكانت الشركة فى حالة من الاضطراب والضعف ، جعلت الحكومة الانكليزية تمددها بقرض كبير ، على أن تصبح خاضعة تماما لإشراف الحكومة ، وأن يعين حاكم عام للهند يكون مسؤولا أمام الحكومة عن شئون الإدارة فى الهند ، وأن تكون محكمة عليا فى كل ما كتبتشرف على أمور القضاء فى البلاد الخاضعة لهم .

وكان على الحاكم الجديد أن يتغلب على المصاعب الكثيرة التى تحيط بالشركة . وحدث أن قامت الحرب بين فرنسا وانجلترا سنة ١١٩٢ هـ - ١٧٧٨ م ، فامتدت هذه الحرب إلى مملكتيهما فى الهند ، واجتهد كل منهما للقضاء على الآخر قضاء تاما حتى يخلوله الجو فيها . رأى « هستنجز » أن ينازل المراهتا للقضاء

عليهم ، وكانوا قد هزموا قبل ذلك هزيمة منكرة ، كادت تقضى على شوكتهم تماما في موقعة « باني پت » سنة ١١٧٤هـ - ١٧٦٠م على يد « أحمد نادر شاه » ، حيث قتل أكثر من مائتي ألف ، فأضعف ذلك من قوتهم ، لسكنهم أخذوا بعد ذلك يستعيدون هذه القوة ، فعاجلهم الانجليز بالحرب للقضاء عليهم ؛ فهم حلفاء الفرنسيين ، ويخشى أن يؤدي هذا التحالف إلى طرد الشركة الانجليزية ، وتمكن « هستجز » من هزيمة المراهتا ، والاستيلاء على « كواليار » ، أ منع معاقلمهم ، ثم اضطر لعقد صلح معهم حينما جاءته الأنباء بقيام سلطان ميسور « حيدر علي » بالإغارة على أملاك الانجليز في « مدراس » سنة ١١٩٤هـ - ١٧٨٠م . فتم الصلح سنة ١٧٨٢م مع المراهتا ، وتفرغ بعد ذلك إلى حاكم ميسور . ومن الواجب أن نقف هنا قليلا مع حاكم ميسور الذي شكل خطرا كبيرا على الانجليز في الجنوب وكاد يقضى عليهم ويطردهم من الهند .

حيدر علي

كان جنديا في جيش ولاية « ميسور » الواقعة على الشاطئ الغربي في جنوب الهند ، ويبلغ عددها نحو ستة ملايين أغلبهم من الهندوس ، وأخذ يترقى في الجيش ، لما أبداه من الشجاعة والبسالة في هزيمة أعداء الراجا الهندوسي ، ولاسيا المراهتا سنة ١١٧٣هـ - ١٧٥٩م ، فسمي حينئذ « بفتح حيدر بهادر »^(١) . ثم صار صاحب الكلمة العليا في الولاية والوزير الأول للراجا الذي كان منصرفا للتعبد والتصوف . وبعد موت الراجا كان ابنه الذي خلفه في قبضة « حيدر » ، حتى أصبح هو الملك الفعلي ، وضرب النقود باسمه .

(١) هو حيدر علي بن فتح علي خان ولد سنة ١١٥٠هـ - ١٧٣٧م وكان أبوه في خدمة راجا ميسور الهندوسي « ناندرام » فتدرب حيدر علي الفنون الحربية ودخل في خدمة الراجا سنة ١٧٤٩م وظل يترقى حتى صار قائدا . ثم تخلص من وزير الراجا وصار هو الوزير الحاكم الفعلي ثم صار ملكا على ميسور .

وقد خشي الإنجليز من ظهور هذه القوة الجديدة ، وتحالفوا مع المراهتا ونظام الملك في حيدر آباد ، ثم هجموا من مدراس على « ميسور » بقيادة « أيركوت » ، القائد الإنجليزي ؛ فاستطاع حيدر أن يردهم سنة ١١٧٩ هـ - ١٧٦٥ م . وفي سنة ١٧٦٩ م هجم بستة آلاف من الفرسان فجأة على « مدراس » فأحدث الارتباك في صفوف الإنجليز ، واضطروهم لطلب الصلح بالشروط التي يملها عليهم ، مع عقد معاهدة دفاعية معه ، وقد رضى « حيدر علي » بهذا الارتباط الدفاعي مع الإنجليز ، نظرا لقوة جيرانه « المراهتا » الذين أصبحوا أكبر خطر في الهند في ذلك الوقت ، وقد كان لهزيمة الإنجليز في « مدراس » أثر سيء في انكلترا ، فانحطت قيمة أسهم الشركة ، وازداد خوف الانجليز من المستقبل بالنسبة لها .

وقد حدث بعد عقد هذه المعاهدة بسنة أن هجم « المراهتا » على « ميسور » بجيش جرار ، فقام « حيدر علي » لصددهم ، وانتظر أن يهب حلفاؤه الإنجليز لمساعدته ، ولكنهم ترددوا ، ثم أحجموا عن الوفاء بالعهد ، وادعوا أنهم على الحياد ، وانهمزم « حيدر » أمام « المراهتا » ، فحفظها في نفسه للانجليز ، وازداد حنقه عليهم ، وكانت حالة الشركة السيئة من الأسباب التي حملت الإنجليز على عدم دخول الحرب مع « حيدر » ، ومنذ ذلك الوقت قرر هذا الرجل العظيم أن يعتمد على نفسه ، فعنى بتكوين جيش قوى من الجنود المدربين ، كما أنشأ بحرية قوية ، وأخذ يستعين بالفرنسيين في تكوين هذا الجيش وتسليحه ، ثم هجم على « المراهتا » وهزمهم ، واسترد البلاد التي فقدتها ، وزاد عليها حتى وصلت حدود بلاده إلى نهر « كرسنا » ، وفي سنة ١١٩٢ هـ - ١٧٧٨ م قامت الحرب بين فرنسا وانكلترا ، حينما أعلنت الأولى الانضمام مع الأمريكيين علنا في حرب الاستقلال ضد الإنجليز ، فعمل نواب فرنسا في الهند على تضيق الخناق على الشركة الإنجليزية حتى تجلو عن الهند ، وأخذوا يستميلون إلى جانبهم الحكومات الهندية ، ويمدونهم بالسلاح والفنيين لتدريب جيوشهم ، فاستطاعوا بذلك أن يكونوا قوة هددت الانجليز في الهند ، وفي الوقت نفسه

أخذ القائد الإنجليزي يعمل على إضعاف فرنسا في الهند وطردها منها ، فأعلن
« حيدر علي » ، أن الهجوم على أملاك الفرنسيين يعتبر هجوما عليه ، ولم يبال
الإنجليز بهذا ، وهجموا على الموانئ الفرنسية ، فهاجمهم « حيدر علي » ، في
« مدراس » ، وهزمهم في عدة مواقع ، واستولى على أسلحتهم . مما جعلهم
يستعجلون « هستنجز » ، في إرسال مدد إليهم ، فجاءهم المدد من بنگال ، وفي
الوقت نفسه أعانهم نظام حيدر آباد ، وسمح لجنودهم بالمرور في أراضيه ،
وكذلك راجاهونسلابعد أن أخذ مليوناً وستمائة روبية . وكان الإنجليز في
ذلك الوقت في حرب مع المراهتا ، فعقدوا معهم صلحا لكي يتفرغوا
لحيدر علي كما سبق .

وكان هذا المدد بقيادة « أيركوت » ، ولكن حيدر حاصرهم مع الفرنسيين ،
وفي أثناء المعركة تراجع الفرنسيون ، وتركوا الحصار البحري ، وبذلك انفتح
الطريق البحري أمام الإنجليز لتكوين جيوشهم ، وإمدادها بالرجال والسلاح ؛
فهمجوا عليه هجوما عنيفا بمـ. افهمهم ، وثبت لهم حيدر ، ثم اضطر للتراجع
وترك السواحل في سنة ١١٩٥ هـ - نوفمبر ١٧٨١ م ، ومع ذلك ظلت الحرب
الداخلية التي كان يقودها ابنه « فتح علي » ، المشهور فيما بعد باسم « تيبو سلطان » ،
وفي منطقة « الكرناتك » ، غربي مدراس قضى على أكثر من ألفين من جنودهم ،
ثم جاءه المدد من الفرنسيين ، ولكن « حيدر علي » ، لم يمهله القدر حتى تتم هذه
المعركة ، فمات سنة ١١٩٦ هـ - ١٧٨٢ م واضطر ابنه « فتح علي » ، أن يرجع
للعاصمة ليتم فيها مراسم الملك .

تيبو سلطان :

وكان « فتح علي » ، « تيبو سلطان »^(١) قد عرف بالشجاعة والبسالة في الحروب
التي خاضها ضد الإنجليز والمراهتا في أيام أبيه ، فلم تلن قناته حين تولى الملك ،

(١) هكذا ينطقونه في الأوردية ، أما في العربية فينطق « السلطان تيبو » ويطلقون عليه في
الهند السلطان المجاهد الشهيد .

بل كان أصلب عودا، وأشد خطرا على نفوذ الانجليز حين واصل الحرب ضدهم . وفي الوقت الذي كانت فيه ربح الحرب لاتزال دائرة في الهند انتهت الحرب بين فرنسا وانجلترا بماهدة « فرساي » (٢٠ يناير سنة ١٧٨٣ م) ، وبذلك أصبح « تيبو سلطان » وحده في الميدان ضد الانجليز . ومع هذا فقد قابلهم حينما هجموا عليه من الشمال على الساحل ، وهزمهم شر هزيمة ، وأخذ أسلحتهم وأمر الكثير من جنودهم ، ثم استولى على « منگلور » وفيها مثل بين يديه مثل فرنسا وانجلترا . أما مثل فرنسا فقد حضر ليعلم أنهم وقعوا صلحا مع الانجليز ، فهم بعد ذلك لا يدخلون ضدهم في حرب ، وأما مثل انجلترا فكان لتوقيع صلح معه ، تعهد فيه كل من الطرفين بإنهاء الحرب وإطلاق الأسرى ، ورد ما أخذه من أملاك الآخر ، وكان ذلك في سنة ١١٩٨ هـ - مارس ١٧٨٤ م .

وفي فبراير سنة ١٧٨٥ م عاد هسټنجز إلى لندن وجاء بداه « كورنواليس » ، وقد أعلن أن الشركة لا تتدخل في الخلافات الداخلية بين الولايات ، وبرغم ذلك فإن خطابه في يوليو ١٧٨٩ م إلى نظام حيدرآباد ، ووعده له بمساعدته ضد أعدائه ، كان فيه وعد أو على الأقل شبه وعد بوقوفه مع حيدرآباد ضد ميسور ، فاعتبره « تيبو سلطان » موقفا عدائيا ضده ، وقد حدث أن هاجم « تيبو » راجا زافكور الهندوسي المتحالف مع الانجليز ، وذلك لمنازعات بينهما ، مما زاد الحالة توترا ، وعمل الانجليز على الاتفاق سرا مع نظام حيدرآباد والمرهتا ضد « تيبو سلطان » سنة ١٢٠٤ هـ - ١٧٩٠ م ، على أن تقسم ميسور بينهم عند الاستيلاء عليها ، ثم هجموا في فبراير من نفس السنة على ميسور من عدة جهات . فقاتل « تيبو » قتالا نادر المثل في البطش والمهارة ، وكسر السكاوونل و فلويد ، الانجليزى . واجتاح المنطقة الانجليزية حتى وصل إلى جوار مدراس . مما اضطر الانجليز أن يسوقوا عليه جحشلا جرارا تحت قيادة « كورنواليس » ونفسه . فردوا « تيبو سلطان » للوراء ، حتى دخلوا « منگلور » على شاطئ بحر العرب وغیرهما من المركز الحصينة ، فالتس « تيبو » الصلح . فأجيب إليه على شرط أن يتخلى عن قسم من بلاده ،

ويُدفع غرامة قدرها ٧٥ مليون فرنك (٣٠ مليون روبية) وتم ذلك في سنة ١٢٠٧ هـ - ١٧٩٢ م ^(١) .

* * *

بعد ذلك عاد « كورنفاليس » إلى لندن وجاء بدله « سيرجون شور » ، فشى على سياسة عدم التدخل ، والمهم أنه لم تحصل حرب بينه وبين ميسور في مدته ، ولما اشتعلت الحرب بين نظام حيدر آباد والمراثا لم يتدخل بينهما ، مع أن الشركة وعدت نظام حيدر آباد من قبل بمساعدته ضد أعدائه ، وقد هزم النظام أمام المراثا ، مما خلف في نفسه مرارة من الانجليز ، فبدأ يميل لأعدائهم الفرنسيين ، ويستقدم ضباطا منهم لتدريب جنوده ، وأخذت تتكون في الجنوب شبه جبهة معادية للانجليز ، على رأسها « تيبو سلطان » القوي العنيد الذي لا تزال مرارة الهزيمة تحز في نفسه ، ويتربص بالانجليز الدوائر ، وكانت الحرب قد بدأت بينهم وبين الفرنسيين في أوروب سنة ١٧٩٣ م ، فاشتد النزاع بينهما أيضا في الهند ، وأخذ الفرنسيون يستميلون المراثا ، ويرسلون إليهم الأسلحة والضباط ، وكانت الحكومة الانجليزية نظرا للفساد الذي عم إدارة الشركة وموظفيها قد اصدرت عدة قوانين لإصلاحها جعلتها تحت إشراف الحكومة المباشر ، بحيث تختار هي الحاكم العام .

وفي سنة ١٢١٢ هـ - ١٧٩٨ م اختارت (ولزلى) حاكما عاما ، وكان الخلاف بين الشركة و « تيبو سلطان » قد بلغ أقصاه ، بينما كانت خطة نابليون لغزو الشرق قد أصبحت معروفة ، وحينما جاء إلى مصر أخذ يستعد للتحرك نحو

(١) حاضر العالم الإسلامي ج ٤ ص ٣١٩ . وقد رأيت في متحف سانت جورج بمدراس في ديسمبر سنة ١٩٥٧ صورة لتيبو وهو جالس ومعه ولده الصغيران اللذان أصر الانجليز على أخذهما رهنا عندهم حتى لا يعود إلى محاربتهم ، وكان يودعهما في هذه الصورة المؤثرة للغاية .. ورأيت بالمتحف صورة كبيرة للقائد « كورنفاليس » الانجليزى وهو يتسلم الولدين الصغيرين !!! وكان يتولى شرح الصور لى العالم والزعيم المسلم الكبير الدكتور عبد الحق مدراسى وكان ضليعا في عدة لغات منها العربية ، وقد توفى عليه رحمة الله في مارس ١٩٥٨ .

الشرق ، ويرسل رسله إلى شريف مكة وإمام مسقط ، يفاضلهما في المحافظة على طريق مواصلاته ، كما أرسل إلى تيبو سلطان ، في الهند ، وقد استغل تيبو ، هذا الخلاف ، وأخذ يستفيد من الفرنسيين ، ويتحالف معهم ، ويستعين بجنودهم وأسلحتهم ، حتى أنشأ جيشاً قوياً وبحرية عظيمة ، كما أجرى عدة إصلاحات في مملكته جعلها من أقوى الممالك في ذلك الوقت ، وهذا ما جعل ولزلى ، يحسب حساباً كبيراً لهذه القوة ، ويجعل أهم أعماله في الهند القضاء عليها قبل أن تقضى هي على الشركة ، وعمد إلى الحيلة والدس ، فاتصل بنظام حيدر آباد ، الذى كان قد استقدم بعض الضباط الفرنسيين لتدريب جنوده بعد انهزامه أمام المراهتا وعدم معاونة الإنجليز له ، واستطاع « ولزلى » بالحيلة والتهديد أن يضمه إلى صفه ، ويحمله على طرد الضباط الفرنسيين ، والاستعاضة عنهم بضباط الإنجليز .

وعندئذ أخذ « ولزلى » يحثك بحاكم « ميسور » فأرسل له لى يتخلى عن محالفة الفرنسيين وعن الموقف العدائى ضد الإنجليز ، ولكن « تيبو » لم يعبأ بهذا الإنذار ، فهجم الإنجليز عليه بجيش جرار يقوده مشاهير القواد ، كان منهم شقيق (ولزلى) الذى صار فيما بعد (دوق أف ولنجتون) ، وحاصروا « تيبو » فى العاصمة (سرنگا پتم) ، ولكنه استبسل فى الدفاع ، وحاربهم بكل شجاعة ، وفى الوقت الذى كان فيه مستبسل فى الدفاع تقدم أحد قواده الذى كان يعتمد عليهم ، وهو (مير صادق ^(١)) ففتح القلعة للإنجليز فتمكنوا من الاستيلاء

(١) و « مير صادق » هذا هو الذى دفعه الشاعر لإقبال مع الخائن الآخر (جعفر) فى بيت من الشعر سبق أن ذكرته عند الكلام عن موقعة « بلاسى » فى (بنغال) ، ولا زال اسمها يتردد على الألسنة بكل احتقار ولعنات لا تنسى فى هذا المقام أيضاً موقف حكام حيدر آباد وارتعائهم فى أحضان الإنجليز منذ أن وطئت أقدامهم أرض الهند حتى خرجوا منها ، وانتهى حكمهم حين ضمت الهند هذه الولاية إليها بعد حرب مع حكومة الهند عقب الاستقلال أريق فيها دماء الآلاف من المسلمين ، وقد مزقت هذه الولاية الآن بين ولايات متعددة ، حتى لا يظل اسمها عالماً بالأذنان ولا يغتنا إنكارنا على هؤلاء موالاتهم للإنجليز من أن نشيد بعبائهم بالعلوم الإسلامية واللغة الأوردية والنهوض بها ، كما شاهدت آثار ذلك بنفسى حين زيارتى لحيدر آباد فى ديسمبر ١٩٥٧ م ؛ فقد كانت مظاهر النهضة فى جميع مرافق الحياة بارزة شاهدة بفضل ملوك حيدر آباد السابقين .

عليها ، وخر دتيو ، المجاهد شهيدا في ساحة المعركة . ودفن في « سرنگاپتم »
ولازال قبره هناك يذكر الناس بعظمته وجهاده لتحرير الهند وطرده الانجليز منها .
وقد انتهت ميسور ، وأصبحت تحت حكم الإنجليز ، فجاءوا بطفل من
الأسرة الهندوسية التي كانت تتحكم من قبل ، وعينوه حاكما إسميا تحت لجنة
وصاية تشرف عليه ، بينما قبضوا على أسرة (تيبو) ونقلوها إلى (كلكتا) ،
وجروا لهم بعض الأرزاق لمعيشتهم ، وأعطوا نظام حيدرآباد بعض الأطراف
لضمها إلى ولايته ، جزاء له على موقفه معهم ، بينما أنعمت الحكومة الانجليزية
على (ولزلى) ؛ انجازه في القضاء على أكبر عدو لهم في الهند .

وبذلك انطوت صفحة حياة هذا المجاهد ، بينما بدأ التاريخ ينشر له صفحة
مشرقة الجلال ، لن تنطوى على مر الأيام ، وسيبقى هو وأبوه « حيدر علي »
مثلين حين على الجهاد والاستبسال في سبيل الدفاع عن الحرية والكرامة ..
ومن العجب أن الانجليز بعد أن تمكنوا من الهند ، وأخذوا يفرضون
عليها ثقافتها لم يتورعوا عن الإساءة للأموال احتراماً لبطولتهم بعد أن
انتهت عداوتهم في حياتهم ، فأخذوا يشوهون سمعة هذا البطل . وبلغ بهم
الحقد والإسفاف إلى الحد الذي جعلهم يسمون كلاهم باسم « دتيو » ، وتابعهم
مع الأسف الشديد بعض الهندوس ، مما أثار غضب أحد الكتاب الهندوس
وهو الأستاذ « فتح چند نسيم » فكتب في صحيفة « الجمعية »^(١) يندد بعقلية
بعض إخوانه الهندوس الذين تابعوا الانجليز في الإساءة إلى بطل عظيم دافع
عن بلاده ، وبذل الغالي والنفيس في سبيل تخليص الهند من الاستعمار الانجليزي ،
ولو قدر له الانتصار لما شهدت الهند الاستعمار الانجليزي ، الذي ظل يمتص
دماءها أكثر من مائة عام .

وبالقضاء على « دتيو » استراح الانجليز من أخطر عدو لهم ، وأصبح

(١) التي تصدرها جمعية العلماء في دهللي ، وقد استمعت لترجمة هذا المقال في شوال ١٣٧٦
وأعجبت بروح الكاتب وإضافه ، لا سيما وهو شديد العناية بإبراز مواقف البطولة التي وقفها
للمسلمون ضد الإنجليز ..

من السهل لهم السيطرة على الجنوب ، بعد أن يقهروا المراهتا الذين كانوا يمثلون القوة التي يخشاها الانجليز بعد « تيبو » ، ولذلك أخذ (ولزلى) يعمل على بث الفرقة فيما بينهم مستغلا أطماع بعضهم ضد بعض ، وبذلك استطاع أن يدخل معهم في حرب هدت من كيانهم ، لكنها لم تقض عليهم تماما ، ثم عقد معهم (ولزلى) صلحا قبل رجوعه إلى (لندن) ، لوقوع خلاف بينه وبين المشرف على الشركة هناك حول خطته الاستعمارية في الهند ، والشطط الذى يرتكبه فى سبيل ذلك ، على أن الانجليز بعد ما انتصروا على (نابليون) توطد مركزهم فى الهند والشرق كله ، وتخلصوا من منافسة الفرنسيين ، واستولوا فى سنة ١٨١٥م على رأس الرجاء الصالح وميلان وجزيرة مورنياس وجزائر سيشل وغيرها .

بعد ميسور

من الممكن أن نقول بسهولة إنه بعد القضاء على حاكم ميسور القوى تنفس الإنجليز الصعداء ، فقد تخلصوا من حاكم قوى عنيد ، وانفتح أمامهم المجال للسيطرة على باقى أجزاء الهند حسب الخطة التى وضعوها .

حقيقة بقى أمامهم المراهتا ، فى الجنوب ، وهم قوة لا يستهان بها . لكنها تضععت أولا بعد موقعة « بانى پت » ، سنة ١٧٧٢ م مع أحمد شاه الأبدالى ، ثم لاحقهم الإنجليز ثانيا بضربات جريئة هدت من قوتهم أيضا ، ثم أعملوا فيهم حرب التفرقة ، فجحوا أيما نجاح - وهى وسيلةهم دائما فى التسلط على الشعوب - . فنجده « ولزلى » بعد الانتهاء من ميسور يستولى على مقاطعات « كرناتك » ، وتانجور فى الجنوب ، ويرتب لحكامها مرتبات ، ثم ينشئ أظفاره فى مملكة « أوده » فى الشمال (١) ، فقد كان بها بضعة آلاف من جنود الشركة بحجة معاونتها ، فطلب من حاكمها أن يزيد العدد ، وأن يتنازل للشركة فى الوقت

(١) وكانت عاصمتها لكنو وحكامها مسلمون

نفسه عن مقاطعتي «دوابه» وروهيل كهند» نظير مصاريف هؤلاء الجنود ، ولم يكن الحاكم من القوة بحيث يستطيع أن يرد أى طلب من هذا القبيل . . ولما عاد «ولزلى» حل محله «كورنواليس» لكنه مات بعد شهرين من وصوله إلى كالكوتا سنة ١٢٢٠ هـ - ١٨٠٥ م .

ثم جاء بعده سير جورج بورلو ، وفي سنة ١٢٢٢ هـ - ١٨٠٧ م جاء «لورد منتو» وعقد صلحا مع السيك وأمراء الهند ، وازدهر الحكم الانجليزي وقوى في عهده ، وبعده عاد لورد «هستنجز» سنة ١٢٢٨ هـ - ١٨١٣ م ، وقامت في عهده حرب بين الشركة وبين نيبال انتهت بسيطرة الانجليز عليها ، حتى وصل نفوذهم إلى الهملايا ، على أن المهم أن هذا الرجل توجه إلى المراهتا ، الذين كانوا لا يزالون يقضون مضاجع الانجليز فقضى عليهم ، وأصبحوا خاضعين تماما لحكم الشركة ، وقد اعتقل ملكهم في كانپور وأجرى عليه الأرزاق وذلك سنة ١٨١٨ م ، وأظن أنه بعد القضاء على المراهتا لم يعد في الهند من يرفع رأسه أمام الانجليز ، ولذا أخذ الحكم يتقاطرون لإظهار جهم ومودتهم وتحالفهم معهم ، وكان كل من يخالف الشركة أو يبدي أى تباطؤ في الاستجابة لها يخلع من الحكم وبولى بدله ، وكانت الهند أشلاء ممزقة ، فسهل على الانجليز السيطرة على هذه الأشلاء ، حتى ملك المغول نفسه في دهل كان يتقاضى منهم مرتبا تاركا كل الأمور يدهم .

وفي سنة ١٢٣٩ هـ - ١٨٢٣ م . استولى الانجليز على آسام وأراكان وتناصرم في بورما ، فاتسعت حدود مملكتهم من الشرق ، ولكن بقيت من الناحية الغربية مفتوحة ، أعنى الناحية التي كان الغزاة يتدفقون منها دائما إلى الهند من جهة أفغانستان والسند ، وكانت هذه الناحية تقلقهم ؛ فإنه من الممكن أن يأتي للهند غاز جديد يضيع على الشركة كل جهودها في السيطرة على الهند ، لاسيما والروس في ذلك الوقت كانوا يهددون إيران وأفغانستان بجيوشهم ، ومن الجائز أن تنحدر هذه الجيوش بعد ذلك إلى الهند ، وفي البنجاب والسند كان الأمراء

لا يزالون متمتعين بنفوذهم ، بعيدين عن نفوذ الشركة التي حصرت مهمها في الجنوب والبنكغال والوسط .

لذلك حاول الانجليز أن يخضعوا أفغانستان لهم حتى تكون سدا بين الهند والروس ، وكان ملكها في ذلك الوقت « دوست محمد خان » ، فهاجموا عليها من ناحيتين ، وفي طريقهم إليها استولوا على بعض الحصون لأمراء السند ، وتلاقى الجيشان الزاحقان في « قندهار » ، ثم ساروا إلى « غزنة » واستولوا عليها ، وأخذوا منها أبواب « معبد سومنات » ، التي كان قد أخذها الغازي « محمود الغزنوي » ، عند هدمه لهذا المعبد سنة ١٠٢٦ م ، ويقول بعض المؤرخين إنهم أرجعوها للهند ، على أن مولانا حفظ الرحمن مدير جمعية علماء الهند وعضو البرلمان المركزي ، أكدلي أنهم أخذوها إلى لندن وليس لها وجود بالهند . وبعد الاستيلاء على « غزنة » ، زحفوا إلى العاصمة « كابل » ، وما كان ملكها في ذلك الوقت مستعدا لمنازلتهم ، فتركها وذهب إلى الشمال ، فدخلها الانجليز ، وأجلسوا على العرش « شاه شجاع » ، ولكن رجال القبائل الأفغانية المشهورة بقوتها وشدة مراسها وكرها للأجنبي ، شقوا عصا الطاعة عليه ؛ لأنه وصل إلى العرش عن طريق الأجانب ، فاستعان الانجليز بالرشوة ليشترؤا سكوتهم ، وأنفقوا في ذلك كثيرا ، مما أوقعهم في أزمة جعلتهم يسكنون بعدها عن الرشوة ، فعادت القبائل للثورة على الانجليز الذين لم يثبتوا أمام هؤلاء الأفغان في كثير من المواقع ، وبالرغم من أن الملك « دوست محمد خان » الذي فر وترك عاصمته من قبل عاد فسلم نفسه للانجليز الذين أرسلوه بدورهم إلى كلكتا محاطا بمظاهر الاحترام سنة ١٢٥٦ هـ - ١٨٤٠ م ، وبالرغم من أن الانجليز قد قوى ساعدتهم بهذا التسليم ، فإن رجال القبائل لم يهنوا ولم يستكينوا ، وكان (محمد أكبر خان) ابن الملك المستسلم يقود هذه الثورة ، فزحف إلى (كابل) ، وحاصر الانجليز فيها ، ومنع الطعام والمؤن حتى دب في قلوبهم اليأس ، واضطروا للتسليم والخروج من أفغانستان ، على شرط أن يتركوا مدافعهم وبعض رجالهم رهائن في (كابل) ، وكان ذلك سنة ١٢٥٧ هـ -

١٨٤١م ، وخرج الجيش المنكسر في طريقه إلى الهند ، ورجال القبائل الأفغانية تهاجمه من كل مكان ، حتى أفتته عن آخره ، ولم ينج منه إلا شخص واحد ، رجع إلى المعسكر الانجليزي في (جلال آباد) ، بالهند ، وكان هذا الجيش مكونا من خمسة عشر ألفا ، وتم ذلك في سنة ١٢٥٨ هـ - ١٨٤٢ م .

وإزاء هذه الكارثة التي أصابت الانجليز تجرأ أمراء السند ، فاحتجوا عليهم لاختراقهم أراضيهم ، فكان الرد على هذا الاحتجاج أن استولوا على السند وضموه إلى أملاك الشركة .

وبعد ذلك قامت حرب بين السيك وبين الانجليز من سنة ١٨٤٥ هـ - ١٨٤٩ م انتهت بانضمام السيك وضم البنجاب التي كانت تحت حكمهم إلى الشركة ، وكان آخر حكام السيك ومهاراجه رنجيت سنگه ، وقد استولى الانجليز على أملاكه ونقوده ومجوهراته ، وكان منها الماسة المشهورة « كوه نور »^(١) التي كانت أولا في عرش الطاووس الذي أخذه « نادر شاه الإيراني » من دلهي بعد غزوها سنة ١٧٣٩ م ، ويقال هنا في الهند أن « نادر شاه » قتل الأفغانيون عند عودته ، وربما انتقلت هذه الماسة إلى يدهم ؛ لأن المعروف أن السيك استولوا عليها من بعض الزوار الأفغان ، وظلت في يدهم حتى أخذها الانجليز ، ووضعوها في تاج الملكة في ذلك الوقت وظل به ، وقد سمعت أن الهند طالبت به الانجليز كما طالبت بالمسكبات التي نقلوها من الهند إلى لندن ١١ .

وبعد الاستيلاء على البنجاب وصلت حدود أملاك الشركة إلى الحدود الطبيعية للهند فأصبحت آمنة من هذه الناحية .

مملكة حيدر آباد وأود :

سيطر الانجليز على كل أجزاء الهند فعلا ، وشمل حكمهم ونفوذهم كل مملكة أو إمارة فيها ، وأصبح من فيها من الملوك والأمراء دمي يلعب بها الحاكم

(١) تاريخ الهند لسيد هاشمي ص ٣٩٨ قلاعن المؤرخ « كين » في كتابه تاريخ الهند ج ٢ ص ٢٠١

للعام للشركة كما يريد ، لكن بقيت مملكتان إسلاميتان واسعتان هما مملكة
حيدر آباد ، في الجنوب ومملكة أوده في الشمال ، وهما وإن كانتا خاضعتين
للإنجليز فعلا ، إلا أن مظهرهما باق برغم انهيار كل ماحولهما من الإمارات
والممالك ، ويظهر أن هذا الشكل وحده لم يعجب السادة الإنجليز في لندن ،
فأصدروا تعليماتهم للحاكم الإنجليزي في الهند دلهوزى ، بإزالة مابقى لهما من
هذا المظهر ..

وكان في حيدر آباد ، جيش إنجليزي تحت اسم حمايتها ومعاونتها ضد
أعدائها ، وكان فيها رؤساء وقواد إنجليز يشرفون على جيشها أيضا ، وكانت
مصاريف هؤلاء جميعا تدفعها الشركة وتحسب دينا مؤجلا على المملكة ، وهى
طريقة اتبعتها في كثير من الممالك والإمارات الهندية ؛ لتتخذ هذا الدين وسيلة
بعد ذلك إلى التدخل في شؤونها والاستيلاء عليها ، وهذا مااتبعته مع مملكة
أوده ، من قبل حين ضمت بعض مقاطعاتها نظير الدين الذى لها ، ثم كان
وسيلة للقضاء عليها نهائيا كما سيأتى ..

أما حيدر آباد ، فقد أخذ الإنجليز يتعللون معها بأن أمور الحكم فاسدة ،
وأن الملك يترك الحكم لوزراء فاسدين يستدينون بالربا ، مما سيجر على الدولة
الخراب ، وجعلوا هذه التعللات مقدمة لإلحاق حيدر آباد بأملأكمهم ،
ولكن لأمر بالم يقدم دلهوزى ، على هذه الخطة ، واكتفى بأن يعقد معاهدة
مع حيدر آباد ، تقضى بضم إحدى مقاطعاتها « برار » إلى الشركة نظير الدين
الذى عليها . وكان ذلك سنة ١٢٧٠هـ - ١٨٥٣م - وبقيت حيدر آباد بمملكتها ،
وإن كان للإنجليز النفوذ الفعلى عليها . بعد ذلك اتجه دلهوزى ، إلى « أوده ،
التي كانت تتخذ ولكنو ، عاصمة لها ، وقد تكونت هذه الدولة في القرن الثانى
عشر الهجرى حين استقل بأمورها « سعادت خان ، الذى كان واليا عليها من
قبل حكومة دلهى ، وبعد وفاته تولى « شجاع الدولة ، فكان مملكا عليها حين
غزا « أحمد شاه الأبدالى ، الهند ، وقد تحالف مع شاه عالم ملك دلهى ومير قاسم
حاكم البنغال ليخلصوا الهند من حكم الإنجليز ويستردوا البنكال منهم ، ولكن

قوة الانجليز المنظمة استطاعت أن توقع الهزيمة بالمتحالفين في « بكسر » سنة ١٧٦٤م واضطر شجاع الدولة أن يعقد صلحا معهم .

وبعده تولى ابنه « آصف الدولة » وكان كريما سخيا كثير الإنفاق ، شيد البناء الضخم المعروف في لكنو باسم « إمام باره » ، وقد زرته في التاسع من المحرم سنة ١٢٧٦ هـ - ١٩٥٦ م ، فدهشت لفخامته وضخامته كأنه قد حفر في جبل ، ويعتبر مركز الشيعة في لكنو . رأيهم يستعدون فيه للاحتفال بيوم عاشوراء الموافق ذكرى استشهاد الحسين في كربلاء ، ولهذه الذكرى في الهند أهمية بالغة بحيث يشترك فيها السفنيون والشييعون على تفاوت بينهم في هذه المشاركة ، فالشيعة قد اعتادوا أن يصنعوا من الخشب ما يشبه « النعش » أوقبة الحسين ، ويسرون بها في الشوارع في أشكال مختلفة كبيرة وصغيرة يحملها جماعة أو واحد ، ثم يسرون خلفها في بكاء وحزن ويسمونها « التعزية » ، ويضربون خدودهم وصدورهم بالحديد والحجارة حتى تسيل دماؤهم ، ويسقطون صرعى وتحملهم عربات الإسعاف لعلاجهم ، وذلك حزنا على ماجرى للحسين رضي الله عنه ، وتتجمع في « إمام باره » هذه « التعزيات » ، وفيها يكون الاحتفال الرسمي ، حيث يجلس زعماء الشيعة يستقبلون المعزين ، كأن جثة الحسين بجانبهم ، وكأنه قتل منذ لحظات ، والحكومة الهندية تعطل الأعمال الرسمية في جميع أنحاء الدولة ثلاثة أيام بهذه المناسبة ، مع أنها تعطل أعمالها يوما واحدا بمناسبة عيد الفطرويومين في عيد الأضحى . وهذا التقليد من أيام الانجليز الذين كانوا يجاملون الحكام السابقين لهذه الدولة من الشيعيين ، وجميع الشيعة في الهند ، وكل القرى والمدن هناك تجد فيها هذه الظاهرة يفعلها الشيعة ، ويجاريهم بعض العوام من السفنيين ، وإن كان العلماء والعقلاء السفنيون يحاربون هذه العادة ، ويمنعون السفنيين من الاشتراك فيها ، حتى رأيت دار العلوم ديوبند الدينية وهي أكبر معهد ديني في الهند ، تبالغ في المنع وعدم المشاركة في أى مظهر من ذلك ، فلا تعطل أعمالها في ذلك اليوم برغم أنه عطلة رسمية .

وبعد آصف الدولة تولى أخوه « سعاد علي خان »

وبعده ، غازى الدين حيدر ، ثم ، نصر الدين حيدر ، الذى ارتقى العرش بمساعدة الانجليز ، وبعده ، أجمد على شاه ، ثم ، محمد على ، ، وبعده ، واجد على شاه ، وقد رأيت صورهم وآثارهم فى متحف كبير فى لكنو ، وفى عهد هذا الأخير أراد دهلوزى أن ينحيه عن العرش بحجة الفساد فى أعمال الحكومة ، برغم أنه كانت هناك معاهدة عقدت سنة ١٨٣٧ م تمنعه من ذلك ، وإن كانت تبيح للشركة إدارة الأعمال والإشراف عليها ، ولم يستمع دهلوزى لنصيحة ، لورنس ، وقبض على ، واجد على شاه ، ، واعتقله فى ، كلكتا ، سنة ١٢٧٣ هـ - ١٨٥٦ م ، ويقول المؤرخ ، كين ، : « إن الشركة خالفت المعاهدة ، وأجبرت الأهالى على تنفيذ قوانين الشركة التى لم تكن متفقة والوضع فى البلاد ، وهى تظن أنها فعلت ما تستحق عليه الشكر ، وفعلت تلتقت هذا الشكر بعد ذلك فى ثورة جاححة سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م ، » (١) ..

بعد ذلك تقدم ، دهلوزى ، خطوات نحو واقع الأمور فى الهند ، فقد أصبحت الألقاب فيها كما يقول أحد الشعراء ، ألقاب مملكة فى غير موضعها ، ، فالغى هذه الألقاب التى يحملها الملوك والأمراء فى الوقت الذى يتقاضون فيه مرتبات من الشركة ، وكأنهم موظفون على المعاش ، مثل حاكم ، أركات ، وتانجور ، كما حرم ، نانا صاحب ، وارث ملك المراهتا ، باجى راو ، من المرتب ، وأكثر من هذا وجه إنذارا للملك المغولى ، بهادور شاه ، القابع فى قلعته بدھلى بأنه سيكون آخر رجل يحمل لقب الملك من أسرته ، وأن القلعة ستؤخذ منه ، وتحول إلى ثكنة للجيش الانجائزية . وهكذا خلا جو الهند كلها من منافس أو مقاوم للإنجليز ، وأصبحوا فيها الأسياذ المطاعين ، وانحسر النفوذ الوطنى وحل محله النفوذ الأجنبى ، ولم تقف هذه الكثرة الهائلة من الهنود أمام الشركة ، وتتغلب عليها أو تحمى من نفوذها .

وإن المرء ليتساءل كيف يتم ذلك ؟ وكيف استطاعت الشركة تدريجياً التسلط على الهند والتغلب على كل سكانها ؟

لقد بدأ الانجليز عملهم في الهند خضعا متملقين تحت ستار التجارة ، حتى إذا حانت لهم الفرصة للعمل عملوا ، واعتمدوا على مبدئهم المعروف ، فرق تسد ، ولم تكن الهند في الحقيقة في حاجة إلى عناية كبير لبث بذور التفرقة ؛ فقد كانت من أخصب البذرات لنمو أساليب التفرقة فيها ، بل كانت هي نفسها متشعبة متطاحنة ، طحت بها خلافات الدين واللغة والجنس ، هذه الخلافات التي أضيفت إليها الخلافات حول العروش المتعددة في الهند ، ولسنا نجد كالهند بلدا تحمل اسما واحدا ، ثم نجد الشعب الذي يسكنها عدة شعوب متباعدة تمام التباعد ، فاقدة تماما كل مقومات الشعب الواحد ، فاللغة مختلفة ، والأصل مختلف ، والأديان مختلفة ، والطبائع والعادات والآمال متباعدة ، فإذا أضفت إلى كل هذا تلك الحروب التي لم تنطفئ على أرض الهند ، وما كانت تتركه من حزازات ومرارات بعيدة الغور في النفوس ، أدركت كيف كان من السهل على الانجليز أن يستفيدوا من كل ذلك ، وأن يستولوا على الهند بحفنة قليلة من جيشهم ، مسخرين أبناء الهند ومالية الهند للوصول إلى مآربهم ..

وإن ما تراه في الهند الآن من قيام حكومة واحدة مركزية تحكم شعبا متحدا ليعبد من معجزات الزمان ، ولعل الاستعمار له الفضل في ذلك حين جعلهم جميعاً هدفاً لضرباته وسهامه مدة كبيرة من الزمن جعلتهم ينسون فروقهم في سبيل التخلص من آلامهم ، ومع هذا فلا تزال هذه الفروق تعمل عملها - وإن كان محدودا - في بناء الدولة الهندية .

واسمع ما يقوله المؤرخ والفيلسوف الاجتماعي الفرنسي جوستاف لوبون^(١) : « قد يعجب الإنسان لأول وهلة من قهر تلك الملايين الكثيرة بسهولة ، مع أنه يجب أن تكون جيوش الفاتحين مؤلفة من جنود كثيرين لا من بضعة آلاف من الجنود ، ولكن عجبه يبطل إذا عرف أن كلمة الهند ليست سوى تعبير جغرافي ، وأن الهند بلاد وشعوب مختلفة أشد الاختلاف ، وأنها لا تحتوى على ما تعرفه أوروبا من معنى الأمة الواحدة ، أى وحدة العرق واللغة

والمشاعر المؤدية إلى وحدة المصالح . وأنها لا تشتمل على قومية هندية كالقومية الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية ، الخ ، وإن بعض شعوب الهند المختلفة أجنبي عن بعض ، وأن نظام الطوائف الذى يفرق بين مختلف طبقات العرق الواحد يوجب نظر أى هندوسى إلى أكثرية أبناء قومه الساحقة كغرباء مثل الأوربيين ، ويقول : « والإنكليز توصلوا إلى فتح الهند برجال الهندوس وأموالهم ، وإن شئت فقل بجنود غير جنودهم ، ونفود غير نفعهم ، فالحق أن الهند دانت للإنكليز بجيوش مؤلفة من الهندوس ، وبأموال أدتها حكومات من الهندوس » .

ويقول الأستاذ سيل ، الإنجليزى ^(١) : « فتحت الهند بجنود ثلاثة أرباعها من الهنود ، والربع الآخر من الإنكليز ، وحينما كنا مشغولين بفتح بلاد يعدل عمرانها عمران أوربا كلها وجدنا السبيل ممهدة ، والعقبات مذللة ، وما اضطر قاطنو انكلترا إلى أداء ضريبة ، أو استقرار لأجل تحقيق هذا المطلب ، وما تكبدوا أى عناء ، ولا مست حاجة إلى تجنيد . وصفوة القول أن فتح الهند لا يحسبه فتحا فى الحقيقة ، إذ لا فضل فيه لانكلترا ودولتها وجندها ، . »
ويقول « جون ميكوم » : « لولا مساعدة أبناء الهند لما غلبت على أمرها ، ويقول الأمير شكيب أرسلان فى هذا المعنى ^(٢) : -

« لما كانت البلاد زاخرة بمختلف من الأقوام المتحدرة من الأروم المتنازعة ، والعروق المتناطعة فى كل عصور التاريخ ، كان ذلك مذهبا لحولها وقوتها ، فعبزت عن صد الفاتحين ، ولم تقو على الوقوف فى وجه أهل الغلب والاجتياح الذين توالوا عليها دورا بعد دور ، وليس هذا بالأمر الغريب ، وأهل البلاد متباينون لم يختلطوا بعضا ببعض ، بل ظلوا منقسمين انقسامات لا تحصى ، يتعادون ويتنازعون ، وهم على ما لا نهاية له من الفوارق دما ولغة وتهذبا ودينا ، هذه الحقيقة الواقعة التى يلاحظها كل مؤرخ للهند هى التى جعلت من الصعب تكوين أمة متحدة المشارب والآمال ، بحيث تترابط للدفاع عن آمالها إذا تعرضت لأذى فى أية منطقة من المناطق التى تسمى الهند .. »

وقد أدرك الباحثون والمفكرون والحكام من الانجليز هذا المعنى فاستغلوه لمصالحهم وتثبيت مراكزهم ، وعرفوا أن بقاءهم في الهند مرتبط ببقاء هذه الحالة ، فأخذوا يزيدون في عوامل التفرق ، ويذكرون نار الخلافات حتى طحنت الهند طحنا ، مما جعل عقلاء الهنود يدركون هدف الانجليز ، ويحسون ثقل المظالم التي تنصب عليهم جميعا ، والتي صهرتهم في نارها ، فالتجھوا إلى التعالٰى عن هذه الاختلافات وتناسيها بقدر ما يمكن حتى يستطيعوا أن يتخلصوا من العذاب الذي يصبه المحتل فوق رؤوسهم ، فكانوا كما يقول الحكيم العربي « إن المصائب تجمع المصابين » ، فأخذوا يتعاونون ، ومن هنا عرفوا الطريق إلى الحرية وطرّد الأجنبي ، فساروا عليه حتى وصلوا إلى نهايته ، فكان أمرهم مع الانجليز كما قال أحدهم وهو الأستاذ «سيلي» (١) : تغيب امبراطوريتنا الهندية عن الوجود عند ما يبدأ الشعور القومي ينمو فيها ، وعندما يشعر الناس فيها بأن من العار مساعدتنا على دوام سلطتنا .

ويمكن القول بأن هذا الشعور القومي المشترك بدأ في الهند مصغرا عندما أحس الشعب - المسلم والهندوسي على السواء - بما أصابه من أرزاء ، وما صار إليه من فقر واضمحلال على يد الشركة الانجليزية ونظامها الذي كانت تحرص على تنفيذه كلما استولت على ناحية من نواحي الهند ، وكانوا لتفرقهم لا يشعر أحدهم بما أصاب زميله على يد الانجليز بل ربما أعانهم عليه ، حتى إذا تم للانجليز أكل جميع الأجزاء سقط في يد الهنود ، وعرف آخر واحد منهم ختمت به بريطانيا غذاءها الهندي الدسم أنه أكل - كما يقول المثل العربي - يوم أكل الثور الأبيض .

و حين أطبق الانجليز قبضتهم على الهند ، وأحسّت بقسوتها ، وظهر لهم الأسد الانجليزي على حقيقته ، بدءوا يفكرون في التخلص منه ، ويحاولون فك رقابهم من قبضته ، فكانت المحاولة الأخيرة اليائسة التي تمثلت في ثورة سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م . هذه الثورة التي امتزج فيها دم المسلم بدم الهندوسي دفاعا عن وطنهم .. وأخرجت لنا مثلاحية عالية في الفداء والتضحية ، كما أرتنا مثلاحية سافلة في الإجرام والاعتداء .. كما سنرى في الصفحات الآتية .

الثورة الهندية

أسبابها - حوادثها - نتائجها

سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م

كان الغرور يدفع بالإنجليز إلى الظن بأنهم كلما استولوا على جزء من الهند وأدخلوا فيه نظمهم كأنهم دفعوا بالحياة في شرايينه ، وأن الناس لا بد أن يندروا لهم هذا ويقبلوا أيديهم - الأيدي التي صفعتهم ١١ ، والغرب كله غارق في هذا الغرور ، حتى سعى احتلاله لبلاد غيره ، ونهبه أرزاقه وتخريبه لمراقبه وحيويته . سمي هذا (استعمارا) من التعمير ، ونحن جاريناه في ذلك في كل كتاباتنا العربية ، لكن انقلبت الكلمة من معناها الذي أراده الغربيون المحتلون إلى لفظ فقد كل معناه الأول ، وحمل معنى جديدا مغايرا كل المغايرة له ، وهو الظلم والاستبداد والتخريب لكل حيوية الأمة .

ومن العجيب ونحن بصدد الكلام عن الثورة الهندية أن الانجليز أطلقوا على أهل البلد الذي احتلوه ونهبوه واغتصبوه ، فقام أحراره يمنعونهم من السلب والنهب والاعتصاب ، ويطالبونهم بالعودة إلى جزرهم ، وترك البلاد لأصحابها الشرعيين ، سمي الانجليز أهل البلاد الذين يقفون ضد الغاصب الناهب . بغاة ، هكذا بلا حياء ١١ - وسرت هذه الكلمة مع سريان حكمهم في البلاد فاستعملها أهل الهند وسموا أنفسهم ، بغاة ، كما سماهم الانجليز ١١ والثورة تحمل معنى كريما هو غليان العواطف ، والتهاب الشعور ، والقيام ضد الظلم والطغيان طلبا للحرية والاستقلال ، أما البغاوة فهي الخروج على الساطان الشرعى بدون وجه حق . وهى التعدى والظلم على صاحب الحق . . . فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تنفي إلى أمر الله . (١)

وقلب الحقائق بهذا الشكل هو ما رأيناه ونراه دائما في سلوك المحتلين للغاصبين الغربيين ، الذين يسمون أنفسهم العالم الحر ، ويدعون أنهم ينشدون الحرية . فى الوقت الذى يثدون فيه حريات الشعوب ، ويصبجونهم أحرارا حقا ، لكن فى قتل حريات الآخرين ١١ وهم يخنقون أنفاس الشعوب ، ثم يسمون اليد التى تمتد لفك الخناق بدا إرهابية باغية يجب قطعها ١١ وهكذا

والتورة الهندية حين أشعلها الأحرار الهنود أرادوا أن يحرقوا بلهبها الخيل الذي أحاط بعنقهم ، وأرادوا أن يستردوا النعم التي كانوا يتمتعون بها من قبل ثم فقدوها على أيدي . الاستعمار !!

والتأثرون حين يقدفون بأنفسهم في المهب . لا يختارون هذا الوضع إلا بعد أن يحسوا بلهب أشد منه . وحين يقبلون على التضحية باسمي الثغور ، لا بد أنهم قد تركوا وراءهم جحيما لم يعد لأنفسهم به طاقة ، فأقبلوا على الموت فراراً من الحياة ، وكأنهم مقبلون على حياة النعيم .

فهل بلغت الحالة في الهند هكذا على يد السادة الانجليز !! وماذا كانت الحياة إذن قبل أن بدوس الانجليز بأقدامهم هذه الأرض ؟ .

هذا ما يحتاج لتفصيل . ربما لا يتسع له كله المقام ، وإذا فعول على التركيز بقدر الإمكان ، مراعين أن نعطي للقارئ صورة وافية على كل حال .

الهند بين عهدين

عهد الحكم الإسلامي ، وعهد الشراكة

كانت الهند طوال القرون التي مرت بها تنعم في ظل الحكومات الإسلامية بكثير من الأمن والاستقرار والرفاهية ، سواء أكانت الحكومة المركزية في دهلئ أم حكومات الولايات المستقلة . وكان الجميع يتنافسون في الرقي بالشعب وتوفير حاجاته . ونشأت حضارة ظلت تنمو وتزدهر في ظل رعايتها بالحكام . وكان أبناءها يتولون أمورها ، سواء منهم المسلمون أم الهندوس . وكانت خبراتها تستقر فيها . وتداول في أراضيها ، ولا تذهب بعيداً عبر البحار ، لتعش عليها شعب آخر حرم من الخصب ومن وسائل النعيم والحياة .

والحكام المسلمون وإن كانوا قد انحدروا إلى الهند من خارجها . لكنهم كانوا يحكمون الشعب لصالح الشعب . فقد أصبحوا على مر الأيام من أبنائها ، وأصبحت الدماء الهندية الأصلية تجري في عروقهم ، لا سيما بعد أن تزوج

الملوك والأمراء مع الأسر الهندية العريقة ، فارتبط العرش بالشعب برابطة الدم والنسب . ولم يعد هناك الفارق الذي يفرق بينهما . .

فلم يكن الملوك إذن ينظرون إلى الشعب على أنهم غرياء عنه ، مستعبدون له . بل كانوا ينظرون إليه على أنهم من صميمه . كما كان الشعب ينظر إليهم هذه النظرة . ويجد فيهم دائماً صدى آلامه وآماله . حين يراهم يهبون للتخفيف عنه كلما وجدوه مثقلاً بالضرائب والكوارث . وكما كان يجد فيهم صدى أفراحه حينما كانوا يشاركونه أعياده . فكان الحكم لذلك حكماً وطنياً . حتى لو صدر عنه أى ظلم أو عسف فهو كما يصدر من أية حكومة وطنية على شعبها . وفي ظل هذا الحكم انصرف الشعب إلى الإنتاج والعمل واستغلال خيرات بلاده ، لصالحه هو للمصلحة شعب آخر . فازدهرت الزراعة . وارتقى العمران . وتقدمت الصناعة . ونمت حتى كانت الهند تصنع ما يكفيها ويفيض عن حاجتها ، فتصدره للخارج ويتهافت الناس على تجارة الهند وصناعاتها ، لاسيما الملابس ؛ فكانت تسبق انجلترا فيها بمراحل ، فتوفرت الخيرات ، وتكدست في الخزائن ، حتى أصبحت الهند مضرب الأمثال في الغنى والثروة وخزائن الذهب والفضة والأحجار الكريمة . .

وكان كثير من الناس ينعمون بخيرات الحكم الوطني ، ويتمتعون بعطايا الملوك والأمراء . وما أكثرها . سواء من الأراضي أم المال . والجميع منصرفون إلى أداء واجباتهم الدينية . وواجدون من المدارس ودور العلم الكثيرة المنتشرة في كل مكان ما يقدم لهم عذاهم العلى والدينى . سواء أ كانوا من المسلمين أم الهندوس . وكان المسلمون على الخصوص مطمئنين إلى أن الحاكم مسلم ، مهما خرج على تعاليم دينه أحياناً فهو في روحه مسلم ؛ فكانت القافلة تسير في طريقها مهما أصاب الرأس الحاكمة من ضعف . ومهما قامت في البلاد من حرب تسلم الحكم من رجل إلى رجل آخر . .

وهكذا كانت الهند سعيدة ، وأعلى الأقل مستقرة آمنة راضية بماهى فيه

ومع ما سبق أن ذكرناه في حديثنا عن المدينة والحضارة في العهد الإسلامي في فصل سابق . فإني أراي في حاجة لأن أضيف إلى كلامي هناك كلاماً آخر كتبه المؤرخون . ولا سيما الغربيون والانجليز منهم على الأخص ، فهم إن لم يَكُونُوا متعصبين لأقوامهم فإنهم لا يظلمونهم . ويحابون الشرق على حسابهم . وهذا الذي أنقله هنا يلقى مزيداً من الضوء على الهند في ظل الدولة الإسلامية قبل العهد الانجليزي وبعده .

قال المؤرخ الانجليزي ، ألفنستن ، > ٢ :

كانت بنغال تفوق جميع البلاد في خصبها وحسن موقعها ووفرة إنتاجها ، وكثرة محصولاتها ، فهي بقعة تغني الإنسان عن جميع الحاجات في معترك الحياة ، إذ كانت مشبع الجائع ، ومروى الظمآن . ومقضى ذوى الحاجات . يوجد بها من القماش ولاسيما الحرير ما لا يدانيها فيه أى مكان من الأرض (١) .

ويقول المؤرخ ، بيتر ولدويل ، :

كان سكان هذه المنطقة (الهند) في رغد من العيش . وسعة من الرزق يقضون حياتهم مطمئنين آمنين من الخطر والخوف على النفوس والنفائس . إذ لم يكن الملوك يتحينون الفرص لحرمان رعاياهم مما يتمتعون به من الحياة الطيبة ، وما يزرقوه من الأموال الطائلة ، وما منحوه من العظمة والأبهة (٢) .

ويقول المؤرخ الدكتور « روبرتسن » ، :

حاصلات الذهب والفضة في الهند كانت تجارتها كثيرة الربح في كل عصر من عصور تاريخها ، فلانكاد نجد قطراً من الأقطار المسكونة يغني أهله ويكفيهم مثلها ، فهوؤها الملاثم لهم . وأرضها الخصبة ، وبراعة ساكنيها وكفاءتهم كل ذلك هباً لهم ما كانوا في حاجة إليه لبقائهم .

وقال لورم . كلايف ، أحد مديري الشركة الذي سبق الحديث عنه مراراً

(١) ، (٢) عملاً عن مجلة الضياء المصرية عدد شعبان ١٣٥٦ . وكانت تصدر من آكهنو .

• إن بنگال تصلح بذخائرها لأن تجعل أهلها أكثر أهل الأرض سعة ونعيا .
وقال في شهادته أمام اللجنة النيابية التي كانت تحاكمه سنة ١٧٦٦م :

• إن بلدة « مرشد آباد » تدافى « لندن » في بهائها . الخ ما نقلناه سابقا .
وقال « مستردار » :

إن سواح بنگال شهيدين لها على أثر وفاة « سراج الدولة » (الذي قتله
الانجليز بعد انتصارهم عليه في موقعة بلاسى سنة ١٧٥٧م) بأنها أغنى بلاد العالم
ثراء ، وأكثرها عمرا ، وأوفرها إنتاجا وزراعة ، فالتجار والأغنياء يقضون
أعمارهم في خفض ودعة . والصناع يعيشون عيشة رغدة وحياة طيبة .

ويقول « لورد ماكولى » :

• إن الفتيات الأوريات يلبسن ويتزين بثياب ثمينة تفسح في الهند .
ولا يخترن عليها أبدا ثياب بلادهن .^(١)

ويقول المؤرخ الإيراني^(٢) : « أحمد آباد » عاصمة الكجرات ، ولها فصل
كبير على سائر مدن الهند من حيث العمران والمدنية . ولا نبالغ إن قلنا إنه
لا يوجد مثلها في جميع أنحاء العالم ، وأسواقها واسعة بخلاف المدن الأخرى .
ويأتى المؤرخ الانجليزى المتعصب ضد المسلمين « فلسفت » فيؤيد هذا
القول ويقول : « مما لا ريب فيه أن مدينة (أحمد آباد) كانت تعد من أجل
مدن العالم من بدء عمرائها إلى القرن الثامن عشر ، أى إلى عهد الانجليز .

ويقول جوستاف لوبون^(٣) : « بلغت « أحمد آباد » ذروة عظمتها في العصر
المغولى ، فبنت أجمل مدينة في الهندوستان وفي العالم على ما يحتمل . فكان عدد
سكانها يزيد على المليونين . وكان لمصانع ديباجها ومخملها وحريرها وطيلسانها
وورقها شهرة في كل مكان . »

ويقول الكسندر هملتون : « إن صناعة النسيج كانت رائجة في الهند .

(١) كل هذه الأقوال عن الناصر السابق . (٢) أمين الرازى في كتابه مفت أظم .

(٣) ص ١٧ من كتابه حضارة الهند .

حتى إنه كان يوجد في مدينة واحدة خمسون ألف عامل (في عهد أونغريب) وكانت تصدر الثياب إلى الخارج وخاصة أوروبا ، وفي سنة ١٧٩٤ استوردت الهند ، من شان ، فقط من الثياب ولم تكن جيدة ،^(١) : والمن ثمانون رطلا .
ويقال : فير و فيسر ولسن : وكانت صناعة الحديد في إنجلترا حديثة . بينما كانت في الهند أقدم منها بمئات السنين ،^(٢) .

ويقول سير هنري مدير الشركة : إن الهند كانت قارة صناعية ، ولكنها الآن جعلت قارة زراعية^(٣) .

ويقول ، روبرت تايت ، : لما قدمنا إلى كجرات أول مرة سنة ١٨٠٧ م كان فيها العبي والثرثرة . والآن نرى الكثير من أهلها لا يجدون ما يسترون به أجسادهم . والإقطاعيون يؤدون إلينا ثلاثة أضعاف ما كانوا يؤدونه لمن قبلنا . ولذا اضطررنا أن يستدينوا بالربا من طائفة ، البنيا ، (وهي طائفة مالية تجارية كاليهود في جمع المال) . فإذا عجزوا عن سداد ديونهم استولى الدائنون على أملاكهم وقراهم . ولو استمر الحال على ذلك فلا تتصور كيف يكون المستقبل^(٤) .

ويقول سير بارتر قرير^(٥) :

« كان مجلس ابن الملك يجتمع فيه كل الناس ، ويتحدثون له بما يريدون ، وبذلك كان الملك يعرف حال الرعية . ومدى تنفيذ القوانين عليها ، .
ويقول « ستر » برينير فرانسيس ، في كتابه عن أحوال الهند^(٦) :

(١) ، (٢) من ٩٣ من كتاب حكومة خود اختياري « أي الحكومة المختارة الحرة » بالأوردو مؤلفه المؤرخ الهندي الكبير سيد طفيل أحمد .

(٣) كتب ذلك سنة ١٨٢٣ (نقلا عن من ٩٣ من المصدر السابق) .

(٤) المصدر السابق ص ٤٨ .

(٥) من كتاب مسلمانون كاروشن مستقبل (أوردو) ص ٩٩ « أي المستقبل المضي . للشيخ محمود (سيد طفيل) أيضاً .

(٦) عن كتاب (نقش حياة) لشيخ الإسلام في الهند المرحوم مولانا حسين أحمد مدي آي - كراته من حياة ص ١٥٧ .

• يحافظ الملك على رعيته كما يحافظ على أسرته وأعزته . ولا يصبر على ظلم يصيب الشعب من الأحكام أو الجنود .

ويقول • مستر توماس منرو • يصور حالة الهند قبل الإنجليز (١) :

• ما كان هناك نظير لفلاحة الهند وصناعاتها وعمالها ، فقد كان لهم السبق الأعلى في كل ذلك ، وكانت توجد المدارس في كل قرية ، وكل الناس يحبون الضيافة والبر ، وأفضل من هذا أنهم كانوا يكرمون المرأة ويحافظون على عفتها محافظة تامة ، فكانوا بذلك مهذبين حقا ، وإني أعتقد أن الاتجار بين الهند وأوربا والإنجليز على الخصوص ، سبّيح لهم (الإنجليز) فائدة كبيرة من هذه الناحية .

هكذا يعترفون بأنهم سيستفيدون من أخلاق أهل الهند .
ويقول • لورد ولیم بنتسك • - وكان حاكما في الهند - في تحقيق أجرى سنة ١٨٨٢ م (٢) .

• إن أكثر الأشياء كانت في عهد الحكومات الإسلامية أحسن منها في عهد السيطرة الإنجليزية ، فالمسلمون سكنوا في البلاد التي فتحوها ، واختلطوا مع أهلها وتزاوجوا معهم ، والمسلمون أعطوا الحقوق كلها لأهل الهند ، وكان الفاتح والمفتوح سواء في المزاج والعواطف والمودة . وما كانت بينهم تفرقة بآية حال ، وعلى عكس ذلك كانت سياسة الإنجليز في الهند ، فإنهم لم يشركوا معهم الهنود في أي أمر من أمور الحكومة ، ومن جانب آخر أنشؤا أطفارهم في خيرات البلاد ، وقبضوا على كل شيء .

ويقول المؤرخ الهندي • بانديت سندر لال ، في كتابه • السيطرة الإنجليزية على الهند • :

(١) من المصدر السابق ص ١٥٧ أيضا .
(٢) قلا عن كتاب (نقش حیات) مولانا مدني ص ١٥٨ قلا عن سيجر باسوفي كتابه حكمه
المسيحيين في الهند ص ٤٤٦ ج ٤

« في عهد جهانگیر وأورنگزیب ومن جاءوا بعدهما كانوا يعززون المسلمين والهندوس على السواء . ولا يفضلون بعضهم على بعض ، وكانت جميع المذاهب سواء في الحقوق وفي الحرية . كما أعطيت المقاطعات الكثيرة لكثير من الهندوس ، فلما جاء الإنجليز وقبضوا على الولايات الهندية أخذوا يهينون الشعب ومذاهبه الدينية ، وجعلوا التفرقة على أساس اللون بين الأوربيين والهنود ؛ بقصد إذلال الهنود ، مع أن الإنجليز جاءوا تجاراً وضيوفاً ، فوجدوا من الملوك والشعب كل إكرام ، ثم جلسوا في مجالس الملأ ، ثم بالتدريج سيطروا على الهند ، وعزلوا حكام الهند ، وأحلوا بدلهم حكاماً منهم . »

ويكتب السيد طقیل أحمد المؤرخ الهندي في كتابه « روشن مستقبل » (١) « كانت الحالة العامة في زمن المسلمين أن الملوك والأمراء يهتمون بأمر التعليم . ويوقفون لذلك المقاطعات الكثيرة . وبعد انتهاء نفوذ حكومة المغول في دهلي كان في « روهيلسكند » ونواحها « من مملكة أود » خمسة آلاف من العلماء يدرسون في المدارس المختلفة ، ويدفع لهم مرتباتهم حافظ رحمت خان . ويكتب « الكبين الكسندر هملتون » في مذكراته عن الرحلة الهندية فيقول : « في عهد « أورنگزیب » كانت الكليات أربعائة في بلدة (نانا) في السند : « فإذا كان هذا عدد المدارس الكبيرة في بلدة بعيدة عن العاصمة فما عدد مدارسها الصغيرة . وما عدد المدارس الكبيرة في المدن الهامة ، مثل دهلي وأغرا وغيرهما ؟ »

« ويكتب المقریزی في خطه : أنه كان في عهد محمد تغلق ألف مدرسة في دهلي . »

ويكتب « مستر لدلو » (٢) فيقول : « في العصور الماضية كانت المدارس

(١) قلا عن كتاب « حياة حافظ رحمت خان » ص ٢٧٤

(٢) (نقش حياة) لشيخ الإسلام ص ١٨٥ قلا عن تاريخ باسوج ص ٤ وروشن مستقبل ص ١٢٤

الكثيرة في كل قرية ، وأبناءؤها كانوا يتعلمون فيها . ولكن بعد ما سيطرنا عليها أغلقنا المدارس فأصبحوا جهالا ،

وكتبت « إندين ريفورم سوسائتي » سنة ١٨٥٣ م في رسالة لها تقول (١) :
« كانت المدارس في كل مرزعة بالهند ، لكننا حرمانهم من التعليم بعد أن ألغينا اللجنات القروية التي كانت تقوم به . وما أقنأ بدورها شيئا ، »

ويقول تيلر : « بما لا يختلف فيه اثنان أن الهند كانت مركزا علميا كبيرا يتفجر نور العلم من عقولها ، وكانت الأمم الأوروبية القديمة المتحضرة تروى من ذلك المنهل العذب . وتحلى بما فيه من علم وأدب وصناعة » (٢).

هذه حالة التعليم المزدهرة في عهد ملوك المسلمين . ولا شك أن ذلك كان راجعا إلى عنايتهم بالشعب وتعليمه ، كما كان راجعا إلى كثرة المال الذي ينفقونه وينفقه الشعب في أمر التعليم . وكانت الهند في هذه العهود مضرب الأمثال في الغنى والثروة .

يقول الامبراطور « جهانكير » ، في مذكراته :

« كان ملوك الهند يوزنون بالذهب في الأعياد ، ويوزعون مايساويها من المال على الفقراء والمساكين ، وأول ماوزنت كان وزني ثلاثة من وعشرة سير ثم زاد وزني ، وكنت أوزن في السنة مرتين : مرة في أول السنة الشمسية ، ومرة في أول السنة القمرية ، وأنفق مايساوي وزني على الفقراء والمساكين ،

وكان الملوك يخرجون للتنزه مساء كل يوم ، فيأخذ الواحد منهم كيسين من المال . فيهما نحو آلاف الروبيات ، وفي الطريق يبذلون هذا المال على الفقراء . فكان الشعب ينعم بالخيرات من كل ناحية ، وكان كل دخل الهند لأهلها لا يخرج منه شيء ، حتى تكدست الأموال في الخزائن ، وصارت مضرب

(١) نقل عن (روشن مستقبل من ١٢٤)

(٢) عن الضياء

الأمثال في العبي ، وهذا هو ما أسال لعاب الغرب ، وأغراه بالتجارة معها وسلب خيراتها ، حتى نصبت هذه الخيرات من أيدي أهلها ، وبدأت تندفق على الغرب ليعيش عليها أهل أوروبا - ولا سيما الإنجليز - في رغد وأمن وسعة ، بينما أهلها يموتون جوعا . ويشقون من الفقر والجهل والذل .

يقول جوستاف لوبون^(١) : « ظلت الهند أغنى بلاد العالم آلاف السنين ، وازدهرت الفنون فيها على الدوام ، وما فتئت الأمم تبحث منذ أقدم أدوار التاريخ عن أدوات الهند الفنية وحليها ووسائلها ، حتى صار من الممكن أن يقال إنها استنزفت ما في الدنيا في ألوف السنين . أجل - إن الثروات وتبدل الأسر المالكة - ما كان يؤدي إلى انتقال الثروات بين حين وحين ، بيد أن هذه الثروات كانت تبقى في الهند ، فيستعملها مالكوها الجدد كأسلافهم في تشييد المباني والقصور ، واقتناء النفائس ، وتشجيع الفنون . واليوم صارت بلاد الهند أفقر بلاد العالم بعد أن كانت أغناها ، وبلاد الهند قد هزلت بعد أن خضعت منذ قرن لنظام مؤد إلى امتصاصها ، وقد بينا أن فن البناء شرح يغيب عن الهند منذ رسوخ الإنكليز فيها ، وسيكون مصير الفنون الأخرى مثل ذلك بعد زمن قليل . »

ولقد حرصت فيما سبق على أن أدع الأعلام الأوربية - وخاصة الانجليزية منها - تصور نعيم أهل الهند في ظل ملوكها المسلمين . حتى لا يكون هناك مجال للشك في هذا التصوير . فقل هؤلاء لا يكتبون الحق الذي يصور هذه الحالة الطيبة إلا إذا كان واضحا لا يمكن إنكاره ، وكان عندهم شيء من الإنصاف العلمي للتاريخ الذي يكتبونه الأجيال المقبلة ، وهذا الذي نقلته هو قليل من كثير مما كتبوه ، ونقلته كتب التاريخ الهندية ، ونشرته في عهد السيطرة الانجليزية على الهند ، وأعتقد أنه أيضا قليل من كثير مما يجب أن يكتب .

(١) ص ٥٥٣ من كتابه حضارة الهند وهذا الكتاب ألف أثناء الاحتلال الإنجليزي للهند

وكانت الظروف تحول دون كتابته خوفا من بطش السلطة القائمة (١). ولعل مؤرخي الهند يقومون بواجبهم إزاء تاريخها حين يكتبونه الآن في حرية ، فقد سمعت الكثير من هذا الذى يؤمله المثقفون فى مؤرخيهم المعاصرين ، وهم يعيدون كتابة تاريخ الهند فى حرية وطلاقة .

لقد كتب المؤرخون الهنود كثيرا من أعمال الانجليز السيئة فى الهند ، ولكنهم جميعا كانوا يحرصون على نقل أقوال الانجليز التى دونوها فى كتب نشرت وتبوعات فى انجلترا ، حتى لا يكون هناك مجال للسلطة الانجليزية فى الهند ، أن تحول بين هؤلاء وبين نشر ما ينقلون ، ولكنهم مع ذلك لم يسلموا من مطاردتها ..

وها أنذا أنقل لك فيما يأتى بعضا من أقوال هؤلاء الذين يصورون لنا ما فعله الانجليز فى الهند ، بما دفع أهلها دفعا إلى الثورة عليهم للتخلص منهم ، بعد ما أحسوا بقبضتهم تضيق وتشد على أعناقهم ، فبدأ الانجليز يسيطرون ويحكمون ظهرت نواياهم ، وأخذوا يفرضون على الشعب قوانينهم الجائرة التى ترمى إلى إفقاره ، وامتصاص دمه وتجهيله وزلزلة عقائده .

ومن العجب حقا أن الشعب الهندى الكبير لم يفتن إلى ما كان يفعله الانجليز بالولايات التى استولوا عليها ، حتى يأخذ حذره ويحاصر الخطر ، ويقضى عليه قبل أن يستفحل ، وتثقل عدواه إلى بقية أجزاء الهند !!

ولعل التفكك والتناحر اللذين كانا يسردان الولايات الهندية فى ذلك الوقت ، ولا سيما بعد موت أورنگزيب ، هما اللذان ساعدا الانجليز على بلوغ ما يريدون ، وجعلوا الهنود لا يحسون ما يقع فى جوارهم ، بل ربما كانوا يساعدون الانجليز أحيانا ضد إخوانهم .

(١) لما كتب مولانا محمد ميان نازم جمعية علماء الهند كتابه التاريخى (ماضى الحاضر المجيد) وهل فيه مثل هذه الأقوال قبضت عليه حكومة الانجليز فى الهند ، وحاولت مصادرة الكتاب ، ولكنه كان قد نقل من المطبعة إلى مكان آخر ، وعاقبت صاحب المطبعة ، وقد سمعت ذلك من المؤلف الفاضل . والآن يعيد كتابة تاريخه من جديد به جلاء الانجليز .

كتب « مستر ميكلم لوينس » أحد القضاة الانجليز في مدراس يقول ^(١) :
 نحن أذلنا الذوات من أهل الهند ، ومسخرنا قانون وراثتهم ، وغيرنا قواعد
 الأعياد وعقود المكاح ، وما قرنا شعائر مذاهبهم ، بل كنا نضحك عليهم ؛
 ونجعل شعائرهم سخرية . وأخذنا أرقاف المساجد ، وزورنا في الدفاتر ،
 وأخذنا جميع ولاياتهم ، وخربنا جميع البلاد بالسلب والنهب والقتل ،
 وآذيناهم . وفرضنا عليهم الضرائب الباهظة ، وجعلنا أعزة أهل الهند أذلة
 بتيهون في الأرض . .

ويقول « لورد ماكولى » في رسالته إلى الحاكم العام « لورد هستنجن »
 بصدد القوانين التي سنوها في الهند ^(٢) :

« إننا نجبرهم على القسم حتى في صغائر الأمور ، ولم يكونوا متعودين
 ذلك ، وشرفاؤهم يعدون القسم شكا في شرفهم ، وهذا عار عليهم ، وفضلا عن
 ذلك فإنهم يعدون الحجاب أهم شيء ، فلو دخل أحد بيوتهم ورأى السيدات فإنه
 عار لا يغسل إلا بالدم . ومع ذلك فإن أهل « بنگال وأوريسه وبهار » كانوا
 أهدافا لهذه الغلطات ، وقد اجتمع حول الإنجليز جماعة هم أسوأ أهل الهند
 من الخلافة الكذابين النهابين ، في الوقت الذي قبضنا فيه على الشرفاء ، وملأنا
 بهم السجون ، ثم دخلت الجنود الإنجليزية والموظفون بيوتهم ، يفعلون
 بنسائهم ما يريدون . مع أننا رأينا الأشراف يقتلون على أبواب بيوتهم
 دفاعا عن حرمتهم ، وأنهم لم يجزعوا من السلب والنهب الذي وقع من
 المراهتا ، مثلما جزعوا من فعل الإنجليز وهتكهم للأعراض . .

ويقول « لورد ماكولى نفسه » ^(٣) : « إن أنهار الثروة في الهند كانت
 تنساب إلى انجلترا . .

(١) في كتابه في السياسة الهندية ص ٧٦ .

(٢) ص ٦٣٠ تلامن « روشن مستقل » ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) تلامن كتاب حكومة بنود اختياري أي الحكومة المختارة ص ١١٢ لبيد تلمبيل
 أيضاً بالأوردية .

ويقول « مستر بروكس إيدسن ^(١) » :

« إن المال الذي جمعه الملايين من الهنود في عدة فروع أخذناه نحن إلى إنجلترا ، .

ويقول « لورد ما كولي أيضا » : « كما كانوا سابقا يخدرون الرجل القوي الشجاع بالأفيون ليذهب عقله وقوته ، فمكثا قام نظام حكمنا على جعل الهنود جبناء ، .

وقد لاحظ المؤرخون أن أخلاق الهنود تغيرت وانحطت كثيرا ، نتيجة لعمل الشركة الإنجليزية في الهند ، فإن أعمال الموظفين والجنود الإنجليز ومن التف حولهم من أراذل الناس كانت ذات أثر سيء في أخلاق الشعب ، ثم كان الفقر الذي أصاب الكثيرة من أهل الهند ذا أثر كذلك في تحويل أخلاقهم الحسنة إلى أخلاق وعادات سيئة ، فبينما كانوا يحرصون على الصدق والأمانة حتى ليقول « جنرال سبلمان ، الذي وكل إليه حفظ الأمن : « إنني رأيت كثيرا من قطاع الطرق يحرصون على الصدق ، ولو كان فيه هلاكهم ، إذا بهم يتحولون في أخلاقهم إلى الكذب والسرقة والغش والخديعة ، بحيث أصبح ذلك مظهرا عاما للناس ، وذلك أثر لما ذكرته من قبل من أخلاق الموظفين الإنجليز ومن التف حولهم من أراذل الناس ، ثم من الفقر الذي يضطر الناس إلى ارتكاب ذلك ..

وقد كتب أحد القسيسين الإنجليز في مدراس إلى مديري الشركة سنة ١٠٨٧ هـ - ١٦٧٦ م يقول : « إنكم تسيئون إلى إلهكم وإلى دينكم بأعمال موظفيكم ولو تعلمون ما يعملون لجرت دموعكم أنهارا ، ^(٢) ،

وقد كانت الشركة تحرص على هذا النوع من الموظفين الذين يشكو منهم القسيس ، كي يحققوا لها أهدافها في السلب والنهب ، دون مراعاة لضمير أو

(١) المصدر السابق ص ١١١ ، ١١٢ نقلا عن كتابه قانون التدن والانحطاط .

(٢) روشن مستغل ص ٣٤ نقلا عن كتاب أوراق قديمة عن الهند البريطانية مؤلفه « وجرل » ص ٧٠ .

شرف أو قانون ، وهذا يظهر لنا بجلاله من رد الشركة على الحكومة الانجليزية حين طلبت منها تعيين أحد الأشخاص ، سيرادورد مائكل بورون ، في إحدى وظائفها بالهند ، فقد كان ردنا غريبا يستوقف النظر حقا ، ويربنا إلى أي حد بلغ استهتار هؤلاء . قالت الشركة في ردها :

« لا يمكن أن يتحمل المسؤولية في الشركة رجل ، جنتلمان » . وإننا نلتبس من الحكومة أن تترك لنا حرية اختيار الموظفين ، حتى ننتخب من يتناسب مع عملنا وهدفنا وبينة موظفينا ، فنحن نخشى أن يدخل في الشركة رجل مثل « مستر ادورد » من الشرفاء ، فيفسد علينا عملنا ، ونقضى تجارتنا إلى الإفلاس » (١) . ويقول (هستنجن) الذي كان حاكما عاما للشركة في أواخر القرن الثامن عشر عدة مرات (٢) : « الانجليزي بعد ما يجيء إلى الهند يصبح إنسانا آخر يرتكب الجرائم ، متحميا في كلمة (انجليزي) ولا يخطر بباله أنه يعاقب على جريمته » . ونحن في مصر نعرف مدى صدق هذا القول .

وقد اعتمد الانجليز على جماعة من التجار . وجد كل في الآخر فرصته التي يبتغيها ، وهؤلاء التجار يعرفون في الهند باسم (البنيا) (٣) ، وهم في الحرص على المال والمهارة في ابتزازه بأي طريق كاليهود . فسولوا للانجليز وسملوا لهم كل سوء . كما ساعدوا الانجليز على كسب الثروات الطائلة ، حين كانوا يعتمدون عليهم في تحصيل الأموال . وهؤلاء كانوا يقرضون أصحاب الإقطاعيات الذين يضطرون أمام الضرائب الباهظة التي كانت تفرضها الشركة عليهم إلى الافتراض بالربا بالفاحش منهم ، ثم يعجزون عن سداد الديون . فيتولى (البنيا)

(١) روشن مستقبل ص ٣٥ نالغن كتاب برتش انديا ، أي الهند البريطانية مؤلفه جيمس مل ص ٢٢ (٢) من كتاب علم العيشة لبرن ص ٨٥ . (٣) ويرفون أيضا باسم « الماروارية » نسبة إلى منطقة «ماروار» من راجبوتانا . يقول جوستاف لوبون ص ١٣٤ « كلمة « مارواي في الهند مترادفة وكلمة اليهودي في البلاد الأخرى وينقل عن المؤرخ الهندي سيد ملامباري « لا يقوم المارواي بعمل لا يدر عليه وبمعاينة في المائة . وللوروي مع كونه من أتباع وبنو لايعظم الآلهة ، ويحصل دينارا حلالا صورة المسكة على أكثر هذه الآلهة حرمة » .

على أملاكهم بمساعدة الانجليز الذين يشاركونهم مكاسبهم ، وهكذا فتح الباب واسعا لثراء هؤلاء مع الانجيز على حساب إفقار الأهالى .

وبهذا عمت البلاد التى تحت سيطرة الشركة روح من الانتهازية البغيضة التى لا تبالى بخلق أو شرف ، أبطلها الانجليز وطبقة من التجار ، وضحاياها أهل البلاد المساكين ، والخلق الكريم الذى عرفه الهنود قبل مجيء الانجليز . ولقد شكّا حاكم (كرنات) فى مدراس إلى مديرى الشركة وقال : « إن عمالكم يجيئون وليس لهم عمل هنا ، ولا أتم تدفعون لهم المرتبات التى تكفيهم ، ولكنهم حين يرجعون بعد سنوات يرجعون بألاف الجنيهات ، فن أين لهم هذه المبالغ الكبيرة ؟ » .

نعم من أين هذه المبالغ الكبيرة للموظفين حين يعودون ، حتى لاحظ الشعب الانجليزى وحكومته هذا ، فكانوا يضجون من أفعالهم ويحاكونهم ويدينونهم - الكبير والصغير منهم على حد سواء - ولكن من أين للشركة أيضا هذه المبالغ والأرباح الكثيرة ، فقد كانت أرباحها أكثر من ٢٠٠ ٪ أحيانا .

وقد أعطت (كرومويل) حين تولى الحكم بعد شارل الأول سنة ١٦٥٦م - مبلغ ستين ألف جنيه لمساعدته لها ، ثم أعطت شارل الثانى الذى تولى بعده ، ما يصل إلى أربعائة ألف جنيه ليساندها ويساعدها^(١) ومعلوم أنها بدأت التجارة فى الهند بعشرات الآلاف من الجنيهات ، وأصبحت بصدمات عدة مرات ، وكما أنفقت الكثير فى المنافسة مع البرتغال والهلاندين وغيرهما ، فن أين لها كل ذلك حتى ترشو الملك بأربعائة ألف جنيه ١٢ فقط !! إن الأمر حقيقة كما قال لورد ماكولى : « إن انهيار الثروة فى الهند كانت تنساب إلى انجلترا » .

ولهذا أصبحت الهند كما قال سيرجون لورنس سنة ١٨٤٤م - ١٨٤٤م

• إن الهند أصبحت مفلسة ، حتى إن أكثرهم قد هاموا على وجوههم ،^(١)
لقد كانوا يفرضون ضرائب باهظة على الشعب ، بلغت أضعاف ما كان
يؤخذ منهم في عهد ملوك المسلمين باعتراف الإنجليز أنفسهم ، وبحوار ذلك
حاربوا الصناعة الهندية حتى قضوا عليها تماما ، وتحولت الهند من قطر صناعي
زراعي إلى قطر زراعي فقط ، وذلك ليخلوا الجو للصناعات الإنجليزية ، وكانوا
يجبرون العمال على العمل في الشركة بأجور زهيدة والسياسة مسلطة على ظهورهم ،
وبذلك فرضوا الإفلاس على الشعب تماما .

يقول مستر هنتر : « لقد أوجب أعضاء الدولة على الزراع خراجا أكثر
 مما يستطيعون ، فربما لا يبقى لهم ولا ولاءهم من الزرع ما يقتاتون به ، »
ويقول سير هنري سذت جورج مدير الشركة^(٢) : إن الهند كانت قارة
صناعية ولكنها الآن جعلت قارة زراعية .

وقال ستر إندريوسيم أمام لجنة سيمور سنة ١٢٧٥ هـ - ١٨٤١ م : لما
أغلقت الصناعة على أهل الهند تحولوا للزراعة^(٣) .

وجاء في تقرير مصلحة التجارة (١٧٦٦ - ١٨١١ م) ما يأتي :
كان الصناع والمحترفون يكرهون على العمل للشركة ، ويؤخذ منهم ميثاق
غليظ لا يزيدهم إلا خسارا ، ولا يجدون بجانبهم وليا ولا نصيرا ، يستغيثون
ولا مغيث ، ويجبرون على عمل لا تشتهيه نفوسهم ، وكثيرا ما اضطروا إلى دفع
غرامات لإعراضهم عن العمل ، وكان الحائكون يعاقبون عقوبة هائلة تكون
فيها عبرة لغيرهم ، وكانت تنتهي عادة بتركهم العمل^(٤) .

ويقول بولتس ص ٧٣^(٥) :

كان يصب على أبدان الصافعين البائسين من المظالم والعقوبات ما لا يتصوره

(١) خود اختياري ص ٤٣

(٢) خود اختياري ص ٩٣ (٣) المصدر السابق

(٤) ، (٥) قلا عن مجلة الضياء شعبان ١٣٥٤

العقل ، كأنهم جعلوا عبيدا للشركة ، فإن الغرامة والحبس والتعهد الجبرى والضرب بالعصا ، كل ذلك أبادهم وقطع جبلهم ، وأتى على حرثهم ونسلهم . ويقول جيمس تيلر (١) :

كان من نتائج كساد سوق التجارة والصناعة أن انحطت (دهاكة) - عاصمة بنغال - عمرانها ، فإن عمرانها الذى كان يضم مائتى ألف قد صار إلى ثمانية وستين ألفا فقط ، وأسرع الفقر إلى ازدياده أكثر مما أسرع العمران إلى انتقاصه .

ويقول كارل ماركس فى كتاب " حكومة الإنجليز فى الهند " (٢) :

لقد حلت الحملة الأوربية آثارا المنازل ، وما أبقى لها عينا ولا أثرا ، ولم يصبح للصناعة الهندية من أسواقها نصيب ، وأخذت أوربا ترسل خيوطها إلى تلك البلاد بقدر ما يمكنها ، حتى انعدمت الخيوط الأهلية ، ولم يبق فيها شئ ، فتلك البقعة التى كانت مركز القطن مستها الحاجة إلى خيوط خارجية ، فبدأ ورودها إلى الهند من سنة ١٨١٨ م ، ووصل مقدارها سنة ١٨٣٧ م - أى بعد تسع عشرة سنة - إلى خمسة آلاف ومائتى ضعف ما كان أرسل فى أول الأمر . وقال ميجر وينجت ، بصور مقدار ما أمادته بريطانيا من الهند (٣) :

، فى القرن التاسع عشر للميلاد أعطت الهند لـانجلترا من النقود ما ينيف على ألف ألف مليون ، وقد أنفق أبناء وطننا فى سبيل التجارة الهندية والقيام بها مائة وثلاثين مليون روبية ، فالتجارة فى الهند أهم منها فى جميع الممالك الأخرى ، فكثير من شبابنا وفقرائنا يطعمون فيها ويرزقون ، ولا يزيد دولتنا قوة ومنعة فى بقاع الأرض إلا سيطرتها على الهند ، .

وهذا الذى يتحدث عنه الميجر فيما أعطته الهند لـانجلترا فى القرن التاسع عشر غير ما أخذته منها من قبل ، طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

عاهد كانت الشركة تتصرف في الهند تصرف (الخواه) ، لا تراعى أى شرف أو ضمير في سبيل المال . وهذه حادثة مع حاكم الكرنات ، في مدراس مذكورها على سبيل المثال (١) : فقد احتاج ملك الكرنات إلى مال ليصرف ممرقات الجنود ويهدى ثورتهم . وندخل الانجليز وعرضوا عليه قرضا ، فقبله نظير إعطائهم بعض المقاطعات على سبيل الرهن ، وتسلموا الرهن واستولوا على خراجها . وماطلوا في الدفع وهو يطالبهم ، والجنود تنتظر حتى مضت سبتان ، ثم بدءوا يدفعون له من محصول الأرض التي استولوا عليها ، وبذلك لم يخسروا شيئا ، ولم يدفعوا فلسا نظير الأرض التي أخذوها . وهكذا كانوا يفعلون في الهند لكسب الأموال الطائلة بطريق الحيلة والغدر . حتى كانت موقعة بلاسي ، في البنغال سنة ١٧٥٧ م ، التي انتصروا فيها ، فبدأت تجارتهم تتخذ رجها جديدا فيه ملامح القوة والبطش ، ثم أضافوا إلى تجارتهم في الأموال تجارة أخرى درت عليهم المكاسب الخيالية ، وهي التجارة في العروش والحكام ، فكانوا كلما ساعدوا حاكما على أن يصل للحكم تنهال عليهم الثروة من الحاكم الذي ساعدوه ، فوجدوها طريقة أكثر ربحا ، وأوفر دخلا فتعاملوا بها أيضا !!

بعد انتصارهم في بلاسي ، وإجلاسهم الأمير جعفر ، الخائن الذي غامر معهم ضد مبراج الدولة ، أخذت تنهال الأموال على قلعة ولیم ، في بنغال فدفعت مير جعفر ثلاثين مليوناً من الروبيات عطية ، لكلايف ، وأعطاه مقاطعة في جنوب كلكتا . خراجها السنوي مليون روبيه . ودفعت لأعضاء مجلس الشركة في بنغال ستائة ألف ، وهذا شيء خاص بالأفراد ، وهو غير المصاريف التي تتقاضاها الشركة منه نظير مساعدتها له ، والتي لم يستطع دفعها كلها ، فدفعت بعضها نقدا وأعطاه (٢٤) مديرية نظير الباقي لها تستولى على دخلها ..

يقول لورد ماكولى (١) :

« كان الذهب والفضة ينهالان على الشركة وعمالها كالمطر ، وصل ثمانية ملايين روبية إلى كلكتا من « مرشد آباد » ، (في قلعة ولیم التي بنيت حولها كلكتا الحالية) عن طريق البحر ، وكانت المراكب أكثر من مائة ، والأعلام ترفرف عليها ، وفيها المزامير وآلات الطرب ، وكانت كلكتا والحالية خرابا لم تبين بعد . »

وهذه المبالغ التي أمكن حصرها غير المبالغ التي استولى عليها الانجليز بالسلب والنهب . وفي هذا يقول لورد كلايف ، نفسه ، الذي كان مديرا للشركة في ذلك الوقت ، وتمت على يده موقعة « بلاسي » : « جمعنا الثروة العظيمة بالنهب من سكان بنگال البالغ عددهم في ذلك الوقت ثلاثين مليونا (٢) . »

ويقول « بروكس إيدسن » ، في كتابه « قانون التدب والانهطاط » (٣) :
« أرسل الانجليز الخزائن المملوكة بالمسال إلى لندن ، كما أرسل الرومان خزائن اليونان إلى « روما » ، ولقد كانت الخزائن التي أرسلت من الهند ثمينة لا يستطيع الإنسان تقديرها ، ويمكن أن أقول إنها كانت أكثر من الأموال الموجودة في أوروبا كلها . »

ويقول أيضا : « بعد حرب « بلاسي » ، ووصول أنهار الثروة إلى « لندن » ، ظهر أثرها حالا في رقي البلاد ، وإنشاء الصناعات المختلفة ، ونشاط الأسواق التي كانت من قبل جامدة خامدة . »

ومثل هذا يقول « سير ولیم دييجي » ، وكل الذين أرخوا لانجلترا والهند .

(١) في كتاب تاريخ كلايف ص ٥١٧ قلا عن (نقش حياة) لشيخ الإسلام ص ٢١٥ .
(٢) نقش حياة ص ٢١٥ قلا عن جريدة « تنظيم أمرتسر » الصادرة في ٢٨ أغسطس ١٩٢٨ .
(٣) المصدر السابق ص ٢١٦ وحكومة خود اختياري ص ٧٩ قلا عن كتاب « unhappy india » ص ٣٢٣ .

ويذكر كتاب « روشن مستقبل » ص ٤٧ المبالغ التي استولى عليها الإنجليز من حكام بنگال نظير مساعدتهم في حكم البلاد فيقول :

في سنة ١٧٥٧	دفع الأمير جعفر	٣٠,٦١٠,٧٥٠	روية
في سنة ١٧٦٠	الأمير قاسم الذي جاء بعده	٢,٦٢٧,٦٩٠	•
في سنة ١٧٦٣	الأمير جعفر ثانيا	١٤,١٨٤,٩٩٠	•
في سنة ١٧٦٥	الأمير نجم الدولة	١,٩٧٦,٩٠٠	•

وهكذا كان سلوك الإنجليز في الهند واستيلاؤهم على المال بشتى الطرق . فقد كانوا كلما استولوا على ولاية وضعوا أيديهم على أموالها وخزائنها ومجوهراتها ، ونقلوها إلى لندن ؛ كما حدث في ميسور بعد قتل تيبو سلطان ؛ وفي كرناتك وأود ، وبمالك المراهتا والبنجاب والسند وغيرها ، وكان حكام الشركة يمثلون مع الملوك في الهند ما نعرفه عن « البلطجية » في مصر . فقد طلب « هستنجز » من « راجا بنارس » - وكان من أتباعه - مالا ورجالا ، فلما شكوا الراجا من كثرة ما يطلب منه عزله ، وولى بدله آخر استجاب له ، وفي « مملكة أود » لم يتورع عن محاصرة أم الملك وجدته في قصرهما بجيوشه لينهب منهما مليوناً من الجنيهات ، لا لشيء إلا لأنه يريد ما لا ، وأنها تملكان هذا المال (١) .

ويذكر المؤرخون بجانب ذلك حيلة أخرى من حيلهم . وصلت إليها الشركة بواسطة أحد الأطباء الإنجليز ، الذي استدعاه « فروخ سير » ملك دهلي لعلاج بنته ، بعد ما استعصى علاجها ، وكان يدعى الدكتور « هملتن » . ولما نجح في علاجها فرح الملك ، وأراد أن ينعم على الدكتور بمال كثير جرياً على عادة الملوك . ولكن الدكتور تصرف حسب الخطة الموضوعة التي تطلبها الشركة ، فلم يقبل المال ، واتمس شيئاً آخر . ربما بدا بسيطاً في نظر الملك ومستشاريه في ذلك الوقت . فلم يفتنوا إلى ما يترتب عليه من نتائج

وخيمة ، وهو إعفاء تجارة الشركة من الضرائب . فاجابه الملك إلى ما طلب ، وكان صدور القرار بذلك بمثابة أمر صدر بإعدام التجار الهنود وإفلاسهم ، في الوقت الذي فتحت فيه أبواب الثروة والتحكم والسيطرة للإنجليز .

فقد بدأ الإنجليز يتاجرون أفراداً وجماعات في كل شيء صغير وكبير ، في القصب والأرز والبان والسمن ، وكل ما يحتاج إليه أهل الهند . وأخذوا ينزلون الأسواق عارضين تجارتهم بثمان أقل مما في أيدي التجار الهنود . فلم يستطع هؤلاء منافستهم ، فخل بهم الخراب والإفلاس . وسيطر التجار الإنجليز على الأسواق والمكاسب ، وأخذ بعض التجار الهنود يحتمون بهم . ويشترون منهم هذه الحماية بمبالغ ضخمة يدفعونها لهم . على أن يقيدوا تجارتهم . باسئهم ليعفوا من الضرائب مثلهم . وبدأ شبح الخراب يحجم على البلاد ، ويحل ضيفا ثقيلا عليها فوق ما هي فيه . واضطر الأمير قاسم ، حاكم بنگال وقتئذ أن يشكو إلى الشركة . ويقول لها : « في كل قرية ، وفي كل مدينة يذهب الإنجليز ، ويتاجرون في كل شيء حتى السمك والتبناك ، ولم يتركوا لأهل البلاد شيئا ، وهم يأخذون الأشياء من الألهالي جبرا بأرخص الأثمان . ثم يبيعونها للذاس بأسعار غالية ، وبمثل هذا وإعفائهم من الضرائب تحل الخسارة والخراب بالبلاد » (١) .

ولم تعر الشركة هذه الشكوى شيئا من الاهتمام ؛ لأن الطريقة التي يشكو منها الأمير هي الخطئة المرسومة لها للرج ، مما اضطر معه الأمير قاسم أن يعفى الألهالي من الضريبة على تجارتهم كذلك ، وكان هذا تحديا منه للشركة . وقضاء على أرباحها التي أحست لذتها ، وإهدارا للمعنى الامتياز الذي حصلت عليه من الملك . فروخ سير : ، ولم تنظر طبعاً إلى أن هذا حاكم من حقه أن يعفى أبناء البلاد ، كما أعفاهم الملك الآخر وهم أجانب . طبعاً لم تنظر الشركة إلى هذا ، ولما نظرت إلى مكاسبها وأرباحها فقط . ولذا غضبت على الأمير ، وأساءت

إليه . حتى اضطر لترك الحكم والفرار لشمال الهند . والاتفاق مع « شجاع الدولة » ملك « أود » ، و « وشاه عالم » ملك « دهلي » ، للوقوف في وجه النفوذ الإنجليزي . فكانت موقعة « بكنسر » سنة ١٧٦٤ م التي انهزموا فيها أمام تنظيم الإنجليز . وأساحتهم الحديثة ، ثم عقدوا صلحا مع « شاه عالم » ، وبمقتضاه أشرفوا على تحصيل الأموال . والتصرف فيها . وهو ما يسمى بالإشراف على « الديوان » ، فكانوا يحصلون أموالا كثيرة . وينفقون قليلا ، ويأخذون لأنفسهم الكثير . معتمدين على نفوذهم . وعلى المعاهدة التي أعطتهم حق الإشراف ، بعد أن لم يكن لهم أى حق من قبل . وهكذا أخذوا يزحفون ، وأخذ البلاء والخراب يرحفان معهم على شعب الهند أينما حلوا ، بينما أخذت أنهار الأموال تتدفق على لندن ، كما قال لورد ما كول .

لقد كانت البنغال أول مقاطعة هندية تلقت ضربات الإنجليز وأنواهم مفتحة . وأيديهم ممتدة للسلب والنهب ، كما كان في الجنوب ، ولذلك ظهر فيهم أولا آثار هذا البلاء الذي لازم ظل الإنجليز أينما ساروا ، فتبدل رخاؤهما فقرا . وأمنهما خوفا ورعبا ، وسعادتهما شقاء ونصبا . حتى يقول لورد كلايف نفسه (١) :

« كفى أن أقول في مظالم بنغال بأننى ما سمعت وما شاهدت مثل هذه المظالم والأعمال السيئة والفساد وأخذ الرشوة » .

فتحويلات « مرشد آباد » التي كانت تضاهى لندن - كما قال أحد الإنجليز - إلى أطلال وخرائب . بعد أن فر منها أكثر سكانها ، وأصبحت بنغال التي كانت جنة الهند - كما قالوا - موطن الشقاء والبؤس والخراب ، وكذلك كان الحال في الجنوب .

يقول فرانسيس براون (٢) :

(١) في كتاب تاريخ كلايف مصنفه « ميلكم » نقل عن خود اختبارى ص ١٠

(٢) عن مجلة الضياء

« إنى أعلن أن (مليار) درست معالمها ، وانحط شأنها ، وباد كل من فيها من سكانها ، بما صبت عليهم بريطانيا من أنواع المظالم والعقوبات ، وبما ضربته عليها وعلى أهلها من الذلة والمسكنة .

وهكذا وبمثل هذا زحف الخراب على الهند كلها ، حتى ليقول سرفريدرك ترويس في سنة ١٨٢٠ م يصور حالتها (١) :

« إن منظر الهند يكدر قلب كل ناظر إليها ، ويمكن الألم في دماغه ، وكذلك أهلها أكثر منها خسرا ، كأنه ما بقيت فيهم نسمة من الحياة ، ويخيل للناظر إليهم أنهم خامدون . أبدانهم ملفوفة في ثياب رثة وسخة بالية ، أثر الفقر ظاهر على وجوههم ، كل منهم أن يحصلوا على كسرة من الخبز يسدون بها ريقهم ، ويقاسون ما يقاسون من نصب وعرق من أجلها فقط ، لهم أجسام هزيلة ووجوه مصفرة .

وفي كتاب بنگال في عهد الشركة الهندية الشرقية (سنة ١٧٨١ م) جاء ما يأتي (٢) :

« قد هلك الممالك بعد أن شد على أهلها الخناق بكل ما يمكن من الأساليب ، واجتبح نحو نصف أملاك الأعيان الأباة في زمن أقل من ستة أعوام ، فدمرت أخصب الأراضي . وغرب خمسة ملايين من الرجال الجادين الأبرياء وأودى بهم .

ويقول «ولسن» (٣) : « إن جلب المال من الهند لانيجلترا جعل الهند جسما بلا روح ، فإن استنزاف الدم من رجل مريض بفقر الدم يقضى عليه . وهكذا تجمع أقوال الانكليز أنفسهم على شناعة ما فعلوا بالهند وما آل إليه أمرها على أيديهم ، وهم لا يزالون يزحفون في عهد الشركة .

ويلاحظ أنهم بعد أن تمسكوا من الهند ، وفرضوا سيطرتهم عليها .

وأخذوا في تنظيم شؤونها بقوانين يصدرونها ، كان هدفهم تنظيم سيطرتهم
ونهبهم ، وإفقار أهل الهند وإذلالهم . وتحويل البلاد إلى بقرة حلب لأهل
بريطانيا لأهل الهند ، فالهندود - في نظرهم - أراذل متأخرون لا يصلحون
لعمل إلا أن يكون تافها وحقيرا ، وهم لا يعاشرون ، ولا يختلط بهم .

يقول مستر توماس منرو في تقريره عن القوانين التي وضعوها للهند :
« لاحظ ولا نصيب لأهل الهند ، ولا دخل لهم في الحكومة ، ولا يوجد
أحد منهم في قيادة الجيش ، ولا في الضباط ، ولكن في بعض الأعمال الحقةرة ،
وفي كل مكان يحتقرون ، ظننا أنهم من أراذل الأمم ، وجميع الأمور المهمة
في الجيش وفي الدواوين في يد الانجليز ، ولذلك تذهب جميع الأموال من
الهند إلى أوروبا . » (١) .

ويكتب مستر كنزى في مذكراته :

« هذا العمل محير جدا : إن شرفاء الانجليز ورحماءهم يحتقرون أهل الهند ،
ويعملون على إذلالهم وتحقيرهم ، وفي الحقيقة أنهم لا يستحقون ذلك لأنهم
شرفاء ، » (٢) .

ويكتب مستر دالو ، في كتابه « برتش لنديا ، أى الهند البريطانية :
« إن الانجليز لو فتحوا جميع الهند ، وقبضوا عليها فتكون النتيجة أن
يصير أهلها أذل الناس . »

وهذا ما حدث فعلا بعد أن تسلط الانجليز عليها كلها ، فصاروا أذل
الناس وأفقر الناس ، وأكثرهم جهلا حتى صار يضرب بهم المثل في هذه
الأمور كلها بين الأمم ، وإذا تواطا الفقر والجهل على أمة أورثاها الذل ، وكان
الموت أولى بها من الحياة .

ولقد وجدت أثناء مطالعتي إحصائية عاريفة ، أو قل إنها مذبذبة

(١) من تاريخ « دت » ص ١٦٦ ج ٢ .

(٢) خود اختياري ص ١٨ .

لو أردنا الحقيقة ، ففلها مولانا مدني في كتابه ونقش حياة (١) تبين ما حدث من المجاعات والقحط في كل من إنجلترا والهند في الآلاف الثاني المسيحي ، أردت أن أضعها هنا لتبين منها مقدار ما جنته إنجلترا من الهند ، ومقدار ما جنت عليها :-

من سنة	إلى سنة	كان في إنجلترا	كان في الهند	حالة القحط
١٨٠٠ م	١٨١٠ م	٢٠ قحطاً	٢	عام
١٨١٠ م	١٨٢٠ م	١٥	١	محلي في نواحي دهل
١٨٢٠ م	١٨٣٠ م	١٩	٣	محلي
١٨٣٠ م	١٨٤٠ م	١٦	٢	،
١٨٤٠ م	١٨٥٠ م	٩	٢	،
١٨٥٠ م	١٨٦٠ م	١٥	٣	،
١٨٦٠ م	١٨٧٠ م	١٦	٣	غير معين

ومعنى هذا أنه في سبعة قرون وقع القحط في إنجلترا مائة مرة - مع ملاحظة انخفاض نسبته في القرن الذي نزلوا فيه إلى الهند - بينما وقع في الهند سبعة عشر فقط ، وكان ذلك قبل سيطرة الانجليز على الهند واستغلالها خيراتهم ، لكن هذه الحالة تبدلت تماماً بعد ما حل الانجليز بالهند وتمكنوا منها ، فمن سنة ١٧٠٠ إلى سنة ١٨٠٠ م وقع القحط في إنجلترا سبع مرات أى في مدة قرن ، ولكن في الهند من سنة ١٧٠٠ - ١٧٤٥ م وقع أربع مرات ، ومن سنة ١٧٦٩ إلى سنة ١٨٠٠ م وقع القحط سبع مرات ، فالجموع إحدى عشرة مرة ، ومن سنة ١٨٠١ م إلى ١٩٠٠ م وقع قحط واحد في إنجلترا ، أما في الهند فوقع إحدى وثلاثين مرة .. هكذا :-

من سنة ١٨٠٠ إلى سنة ١٨٢٥ م خمس مرات مات فيها ٥ مليون هندي أى
فى ربع قرن

من سنة ١٨٢٦ إلى سنة ١٨٥٠ م اثنان مات فيهما مليون فقط فى ربع قرن
من سنة ١٨٥١ إلى سنة ١٨٧٥ م ٦ مرات مات فيها ٦ مليون أو عشرة
عند بعض المؤرخين فى ربع قرن أيضا .

من سنة ١٨٧٦ إلى سنة ١٩٠٠ م ١٨ مرة مات فيها ٢٦ مليونا .

وهذا الإحصاء يبين للقارىء فى جلاء ووضوح كيف أخذت حالة الهند
فى التدهور . حتى صار أهلها فرائس الجوع والمرض ، ثم الموت فى عهد الانجليز
الذين أخذت بلادهم ترقى وتساعد على حساب هذا الشعب المسكين ، وغيره
طبعاً من الشعوب المماثلة له .

بلاد عاشت ولا تزال تعيش على السلب والنهب . وحرمان أهل البلاد
الشرعيين من الضروريات لتنعيم هى بلذة الحياة !!

ومن العجيب أن يحاول بعض المؤرخين الانجليز أن يعللوا ما حدث فى
الهند من القحط بأسباب طبيعية محلية ، من كثرة الأمطار والحرارة وغير ذلك .
كان هذا لم يكن يحدث من قبل . وكان الطبيعة تغيرت سنفا عند ما حلوا هم
فى الهند . . ربما !!

وقد قلت فيما سبق : إن الانجليز لما بدوا فى تنظيم سيطرتهم على الهند منذ
أوائل القرن التاسع عشر كان أمامهم أهداف ، هى التى عملوا لها من قبل ذلك ،
ولكنهم أخذوا يضعونها فى قوالب براقة ، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب .
وكان من أعمالهم ثم من خططهم المنظمة ، أن يقضوا على التعليم الوطنى الحر الذى كان
يقوم به الملوك السابقون ، والأغنياء من الشعب . وكان تعليمهم مدخول ،
يهدف إلى تربية النفس وتقويمها ، وإعدادها لخدمة دينها وبلادها ، وطبعاً وجد
الانجليز فى هذا التعليم خطراً عليهم ، فقصوا عليه ، ثم لم يقيموا بدله شيئاً
يشكر ، فقد كانت خطتهم أن يعصبوا عيون الشعب حتى لا يرى مهازلهم .

ويحس مفاسدهم ، ويقوم في وجههم كما حدث في أمريكا . . وكانوا يعلمون ذلك تماما ، ويعملون بما قاله أحدهم وهو مستر سميدى : « إنه إذا غلب شعب أرقطر على أمره ، فلا بد أن القوة العاتية تفسد على المفتوحين تعليمهم . وتأخذ زمامهم بأيديها طوعا أو كرها ، فما لا ريب فيه أن العلم لا يمكن أن يرضى بالعبودية طويلا . »

ولهذا وجدنا أحد أعضاء المجلس التعليمي الإنكليزي في الهند يقول سنة ١٧٩٣م : « ما فقدنا أمريكا إلا لاسفاهتنا ، وإذنا في قيام المدارس والكلية هنالك ، ويجب ألا نعيد هذه السفاهة في الهند . »

هكذا أراد الإنجليز ، وهكذا فعلوا ، حتى إذا ظهر خطوهم وتذمر الشعب منهم ، اضطروا لأن يقوموا بشيء من التعليم ذرا للرماد في العيون ، ولكن بطريقة تقضى على خلق المتعلمين ، وعلى الروح الدينية والوطنية فيهم ، وعلى قدر ما ينتفعون بهم في الوظائف ، وكانت خطتهم كما قال أحدهم : « ينبغي أن نعلم الهنود ونربيهم بقدر ما ينفعنا في تجارتنا وحكومتنا ، وعلى أساس أفكارهم الإنجليزية وأذواقهم ومشاربهم كما قال لورد ماكولى : « علينا أن نعد من أهل الهند جماعة تشبه الهنود في اللون والدم . وتماثل الإنجليز في الفكرة والعقيلة . » وهذه هي خطتهم العامة في مستعمراتهم حتى تبقى في قبضتهم ، كما كانوا في مصر .

الإنجليز والدين :

وبجانب ما فعله الإنجليز في إذلال الشعب وإفقاره وتجهيله - كما رأيت - أضافوا عملا آخر كان له أثر خطير ، بل ربما كان أخطر مما تقدم كله في إثارة النفوس ، وإهاجة حقدها وغضبها .

فلقد حرصوا على أن يستقدموا معهم طوائف المبشرين ليقوموا بواجبهم المعروف في خدمة الاستعمار ، والمبشرون دائما كانوا طلائع الاستعمار وعمده ، وقذائفه اللينة الملبس لهدم معنويات الأمم ، وتمهيد الطريق أمام المستعمرين ،

فلا عجب إن اعتمد عليهم الإنجليز في العمل بالهند ، وساعدوهم بشتى الوسائل على أداء رسالتهم الخيرية !!

وحين نظر الشعب بمختلف أديانه إلى يد المستعمر الدخيل الذى أفقرهم وأذلهم تمتد إلى أقدس شيء لديه ، وهو عقيدته ، مستعملا في ذلك كل إمكانياته ، ازداد غضبه وحنقه ، وربط بين أساليبه في الإفقار والتجويع ، وأساليبه في رعيعة العقائد ، وفهم أن ذلك يجرى حسب خطة موضوعة ، لتبديل عقيدة الشعب إلى المسيحية البروتستانتية التى تحميها بريطانيا ، والإنسان قد يصبر على الفقر ، وقد يتحمل الضغط والعسف ، ولكنه يتحول إلى أسد هائج إذا خدش في دينه وعقيدته ، ومن هنا ازدادت ثورة العلماء ، واشتد حنقهم على الإنجليز ، ووجدوا الدلائل القوية لشحن النفوس بالثورة ضد الدخلاء ، واستجاب لهم الشعب فى سهولة ويسر .

ونحن نضع أمامك مآقرره ، سير سيد أحمد خان ، أحد رجال الهند البارزين فى كتابه « أسباب ثورة الهند » ، وهو رجل معروف بميله الإنجليزية ، فلا يمكن أن يكون متحاملا عليهم ، يقول (١) :

« لقد يقن أهل الهند أن الإنجليز سيحولونهم إلى النصرانية ، متخذين من التجويع والإذلال وسيلتهم إلى ذلك ، كما فعلوا مع الينامى الذين فقدوا آباءهم فى مجاعة سنة ١٨٣٧ م ، وكان القسيسون المشرون يتقاضون مرتباتهم من الشركة ، وكبار الموظفين من الإنجليز يستغلون مراكزهم فى تحسين المسيحية لصغار موظفيهم الواقعين تحت سيطرتهم ، كما كانوا يجمعونهم فى بيوتهم بالقسس يحاولون التأثير عليهم وجذبهم للدين المسيحى ، ويأتون بالشبهات والشكوك ليزلزلوا عقائدهم ، وبلغت هذه الدعاية أقصى حد ، حتى لم يعد الموظفون الهندو يأمنون على دينهم .

(١) ننلا عن كتاب « شندروماضى » أى « ماضى علماء الهند المجيد » نولانا محمدميان ص ١٧ - ١٨

وكان المبشرون يوزعون الكتب مجاناً ، وهي محشوة بالطعن على أديان
أهل الهند وزعمائهم الدينيين ، كما كانوا يذهبون إلى اجتماعات المسلمين
والهندوس في حماية البوليس ، يأخذون في تحقير عقائدهم دون مبالاة ،
والناس يسمعون كل هذا وتثور نفوسهم ، ولكنهم يخشون سطوة البوليس

ونشط المبشرون كذلك في فتح المدارس التبشيرية بعون الشركة . يعملون
فيها الدين المسيحي ، حتى اعتقد الناس أن الغرض من فتح هذه المدارس أن
تكون شبكة لاصطياد أولادهم وتنصيرهم . وكانوا يمتحنون الطلاب في
الكتب الدينية المسيحية ، ويسألون الصغار : من ربكم ؟ ومن ينجيكم ويهديكم ؟
ولا ينجح إلا الطالب الذي يجيب حسب عقائدهم ، ثم يعطونه الجوائز !!
ثم فتحوا - بجوار ذلك - مدارس للبنات ، وزادوا على طريقة تعليمهم
توجيهاتهم الطالبات برفع الحجاب ، وهو شيء حساس بالنسبة للمسلمين في
الهند ، وربما الهندوس أيضاً ، فاعتقد الناس أن الإنجليز يجتهدون من كل
سبيل للقضاء على دينهم وثقافتهم . حتى إنهم سموا الهنود الذين اشتركوا
مع الإنجليز في هذا الأمر « بالفسس السود » ، وقد كانت الوظائف الصغيرة
التي تركت للهنود لا يمكن الحصول عليها إلا بشهادة من هؤلاء الفسس .

وفوق ذلك تلقى موظفو الحكومة خطابات - ولعلها منشورات - من
أحد الفسس الكبار ، يلح فيها عليهم باعتماد الدين المسيحي . ولهذا كله فهم
الشعب أنها خطة موضوعة لتنصيره . وأن اللورد كينزنگ ، جاد في ذلك ،
وأنه أخذ على نفسه عهداً أمام الحكومة أنه في مدى الثلاث السنوات الباقية
له سيتم هذه المهمة !!

وكان هذا مما أثار حقن دهنه وأثار تأثيره على الإنجليز (١).
وكان عمل الإنجليز في الهند نحو زعزعة العقائد وتنصير الشعب قائماً
على خطة موضوعة حقاً ، ربما افوها في ستائر مختلفة ، ولكنها لم تخف عن

الشعب ، ومع ذلك لم يستطع الانجليز أن يستمروا في نفاقهم طويلا ، فقد وقف أحد أعضاء البرلمان سنة ١٨٢٧٤ - ١٨٥٧م يقول في صراحة :
والحمد لله الذى أرانا هذا اليوم الذى أصبحت فيه الهند تحت سيطرة انجلترا ، وأمكن أن يرفرف علم المسيح عليها كلها ، وعلينا أن نجتمع قواما ونبدل جهدنا فى تنصير شعب الهند ، ولا نترك الكسل يستولى علينا ،^(١)
ذلك كلام صريح أمكن لهم أن يقولوه بعد أن أصبحت الهند فى قبضتهم ، وتمكنوا من هزيمة الثوار ، وإن كانت خطتهم قد سارت عليه منذ وطئت أقدامهم أرض الهند ، وبدءوا يتدخلون فى شئوننا ..

فهذا لورد ما كولى يكتب إلى أبيه رسالة من الهند يقول فيها : عن التعليم الذى أقاموه فى الهند : ، لقد أثر هذا التعليم فى الهند كثيرا ، حتى لا يوجد واحد منهم يعرف الانجليزية وبقى على صداقته لدينه ، وإلى متيقن بأننا إن صابرنا على خطتنا التعليمية التى وضعناها فسوف لا يبقى هندوسى على دينه فى مدة ثلاثين سنة ، وكان لورد ما كولى معنيا بوضع أنظمة التعليم الجديدة فى الهند . وبالطبع لم يكن هجومهم على الدين الهندوسى فقط ، بل كان هجومهم أقوى مايكون على الإسلام ، باعتباره الدين السماوى الذى كانت تسير عليه الهند فى نظمها باعتبار حكومتها الإسلامية ، ولكنه ربما قال ذلك لاعتقاده أنه من السهل التأثير على الهندوس .

وقال العالم الانجليزى مونييه وليامز عن أثر التربية الانكليزية فى الهنود^(٢) :
« إنهم يميلون لنتمهم ، ويزدرون آدابهم وفلسفتهم ودينهم ، من غير أن يكسبوا شيئا من صفات الأوربيين »^(٣) .

ثم قال جوستاف لوبون : « يضاف إلى ذلك الارتباك الهائل لدى الهندى المثقف ، وتجريد التربية الأوربية له من أى خلاق ، فإما كان يستند إليه فى سيره

(١) تاريخ الماضى الماضى لبلقاء الهند ص ٢٦ نقلا عن خود اختياوى ٩٦ .

(٢) نقلا عن حضارة الهند ص ٦٩٣ .

من الأسس الدينية المتينة قد زال إلى غير رجعة ، فهو قد خسر إيمان آباءه من غير أن يستبدل به مبادئ سير الأوربي ، ثم قال : « ذلك هو أثر التربية الأوربية في شعب غير ناضج ١١ ويمكن تقدير ذلك بأحسن مما تقدم عند المقايسة بين أولئك المثقفين ، وبين من تخرج في المدراس المحلية الخالصة . فهؤلاء يظهر من متزني مهذبن محترمين ، جديرين بأن يتبوءوا مقاعد في أرقى مجالس أوربا العلمية على خلاف أولئك المثقفين . »

ويقول : « قد أدى تطبيق التربية الأوربية على الهندوسى إلى تقويض ثقافته السابقة التى نمت له مع الزمن ، وإلى إحداث مالم يعرفه من الاحتياجات من غير أن تمن عليه بوسائل قضائها ، (١) . »

وأحب أن أضع أمامك أيضا تصوير هذه الحالة بقلم زعيم من زعماء الثورة وهو « مولانا فضل حق خير آبادى » الذى خاض غمارها فى دهللى ، وتزعم العلماء ، وأصدر الفتاوى ، وخطب وحض على الثورة فى كل مكان ، ثم لما انتصر الانجليز اعتقلوه ، ونفوه إلى « جزائر أندمان » فى خليج البنغال حتى توفى هناك ، ولكنه ترك تصويرا قيما صادقا باللغة العربية نثرا ونظما للثورة وأدوارها ، ثم ما أصابه فى منفاه ، وقد امتاز أسلوبه بالسجع والتركيز ، وهذا هو ما قاله عن موقف الانجليز من أديان الهند ، حين أخذ فى سرد أسباب الثورة « هذه الواقعة ، الفازعة الفارقة ، التى جعلت الأمراء فقراء صعايلك ، والملوك ممالك » :

« من قصتها : أن النصارى البراطنة ، شحوا صدورهم بالشحناء الباطنة ، بعد ما تسلطوا على ممالك الهند وأقطارها ، وقرأها وأمصارها ، وأذلوا أعزة رؤسائها بالاستقصاء ، ولم يذروا فيها من يبدى لهم قرنه بالاستعصاء ، هموا بأن ينصروا كلا من قطانها وسكانها تنصيرا ، ظنا بأن هؤلاء الضعاف لا يجدون ولما ولا نصيرا ، ولا يستطيعون سوى الانقياد محيصا ومصيرا ، ليصير الناس

كلهم ، كمثلهم ، من ملاحظة ، متوافقين على ملة واحدة ؛ لتخليهم أن اختلاف الثلل (١) والملل ، من أقوى العلل ، لتطرق الخلل ، في بقاء التسلط والعمل . فجدوا كل جد ، وبذلوا كل جهد ، لرفع هذا الاختلاف ، بابتداع الحيل ، فبنوا لتعلم الأطفال والأغفال ، وتلقينهم كتب لسانهم ودينهم في القرى والبلاد مدارس ، وصيروا معالم العلوم والمعارف والمدارس التي بنيت في العهود السوالف دوارس ، (٢) .

ويقول في هذا من قصيدته الدالية التي نظمها في منفاه عن ملكة بريطانيا :

همت بتنصيرهم قبلا وهم شيع من مسلمين ومن عباد أبداد (٣)
أى عن عباد أصنام . يريد الهندوس .

وقد كان موقف الإنجليز نحو أديان الهند هذا الموقف من الأسباب القوية في توحيد الشعور بين المسلمين والهندوس ، ضد عدوهم المشترك ، فتناسى كل منهم ما كان يتمسك به من عدم الاختلاط ، ولا سيما الهندوس الذين يعتقدون أن لمسهم للمسلمين ينجسهم ، ويوجب عليهم أن يتطهروا من ذلك بالاغتسال ، تناسوا كل ذلك في سبيل تخلص أعناقهم من الغل الذي وضعه الإنجليز في أعناقهم ، فحاضوا الثورة جنبا لجنب ، وإن كان حظ المسلمين من ذلك قد فاق حظ الهندوس ، وكان ذلك أمرا طبعيا ؛ لأن السكوارث التي نزلت بالمسلمين لم ينزل مثلها على زملائهم الهندوس .

تعنت الإنجليز مع المسلمين

حكم المسلمون هذه البلاد منذ فتحها محمود الغزنوى في أول القرن الحادى عشر ، وظلوا يتداولون حكمها دولة بعد دولة ، حتى جاء الإنجليز إليها

(١) جم ثلة وهى الفرقة والجماعة .

(٢) ملخصا من كتاب « الثورة الهندية » ص ٥٥ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق ص ٤٦٢ .

تجاراً ، فأكرمهم وأتاحوا لهم فرصة المتاجرة ، ومنعهم كثيراً من الامتيازات ، فكانت الباب الذى دخلوا منه إلى السيطرة شيئاً فشيئاً ، حتى تم لهم القضاء نهائياً على الحكم الإسلامى فى سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م ، ومعنى ذلك أن هذا الحكم ظل فى الهند ثمانية قرون ونصف ، كان المسلمون فيها هم السادة والحكام ، وكانت الشريعة الإسلامية هى الأساس العام لحكم البلاد .

وهذه مدة ليست قصيرة فى نظر التاريخ ، وهى كفيلة بتثبيت دعائم المجد للمسلمين ، فقد ظلوا فى هذه القرون يجمعون خيوط السيطرة فى أيديهم ، فمنهم الملوك والأمراء ، ومنهم الحاشية والقواد والضباط إلا قليلاً من الهندوس الذين كانوا يحوزون ثقة الملوك ، ومنهم حكام الولايات ، وحكام المدن والقرى ، إلا قليلاً من الهندوس أيضاً كانوا يشتركون فى حكم المدن والقرى تحت إشراف الحكام المسلمين ، ومنهم القضاة الذين يحكمون فى المسائل المدنية والجنائية حسب أوامر الشريعة الإسلامية ، وكل هؤلاء كانوا يتمتعون بالرواتب والعطايا من الملوك ، فيصبجون من ذوى الثروات الكبيرة أو الصغيرة ، ومن أصحاب النفوذ والجاه فى البلاد ، ويرثهم أبناؤهم فى مناصبهم أحياناً وفى ثرواتهم .

كان هذا يتمتع به المسلمون بجانب اعتزازهم بشيء أهم ، وهو أنهم الحاكمون ، وأن شريعتهم نافذة يسرى سلطانها على الكبير والصغير ، وملوكهم يوقرون علماءهم ، ويوفرون لهم أداء رسالتهم الدينية ، بما يعطونهم من مال ، وبما ينشئون من معاهد ، لدراسة الشريعة والتفقه فيها ، وما يوقفونه هم والأمراء والأعيان على هذه المدارس ، وعلى المساجد أيضاً من إقطاعات وعقارات توفر للطلاب والعلماء التفرغ لمهمتهم ورسالتهم فى خدمة دينهم .

وقد جاء الملوك والأمراء وبعض هؤلاء الأعيان والأهالى من خارج الهند حقاً ، لكنهم اتخذوا منها وطناً لهم هم وذرياتهم ، ونسوا أوطانهم الأصلية ، وتضافروا على النهوض بالبلاد والرقى بها ، ودفع الأعداء عنها ،

حتى أصبحت جنة ، ذكرها المؤرخون باسم « جنة آسيا » تمتع بخيراتها
سكانها جميعا ، كما تمتعوا بعدل الملوك والحكام وعطفهم دون تفرقة بينهم .

وكان أكثر الهندوس منصرفين للتجارة والزراعة والصناعة ، مشاركين
مع ذلك في وظائف الدولة الكبيرة والصغيرة ، لكنهم لم يكونوا معتمدين
على الوظائف ، ولا سيما الكبيرة منها اعتماد المسلمين .

فلما جاء الإنجليز ، وبدأ نفوذهم يتسع ، وبدأ الملوك يكلون إليهم
الإشراف على بعض الأعمال في الولايات ، كانوا يتعمدون للحكام المسلمين
بإبقاء كل وضع على حاله ، دون المساس بنظم الشريعة ولا بنظام الوظائف ،
ولكنهم كانوا حين يأنسون من أنفسهم القوة ، ومن الحاكم الضعف ، يعمدون
إلى نفوذ تعدهم ، وإلى الحد من نفوذ المسلمين وعزل موظفيهم ، وإحلال
الإنجليز أو الهندوس أحيانا محلهم ، ثم يعمدون إلى تغيير القوانين الإسلامية
كلية ، وعزل القضاة المسلمين ، وتعيين قضاة منهم يحكمون على أساس القوانين
الجديدة التي وضعوها ، بدلا من الشريعة الإسلامية ، كما حدث في بنغال بعد
سنة ١٧٦٤ م ، وهكذا أخذ الإنجليز يزحزون المسلمين عن أماكنهم التي
احتلوها منذ ثمانية قرون ، ويقضون على أمجادهم شيئا فشيئا ، ويحيلون عزهم
إلى ذل ، وغناهم إلى فقر ، وسعتهم إلى ضئف ، فتحمل المسلمون من عسف
الإنجليز الذي نزل بالهند ما لم يتحملة زملاؤهم الهندوس .

وكان هؤلاء الإنجليز يتصرفون مع المسلمين هذا التصرف مدفوعين
بعاملين : أولهما : روح التعصب ضد الإسلام الذي لم ينسه الإنجليز منذ الحرب
الصليبية ، حتى جاءوا للهند ، بل لم ينسوه بعد ذلك حين احتلت جنودهم مدينة
القدس ، في الحرب العالمية الأولى ، فهتف قائدهم حين دخلها .. « اليوم انتهت
الحروب الصليبية » فكان لهذا التعصب أثره بلا شك في كل مواقفهم
مع المسلمين .

وثانيهما : إدراكهم أنهم يسلبون الحكم من أيديهم ، وأنهم يحرمونهم

مجدا ظلوا يتوارثونه مدى هذه القرون ، وأيس من السهل على المسلمين أن يسلموا في يسر بالقضاء على هذا المجد ، لذلك ركز الإنجليز سهامهم على المسلمين في كل أنحاء الهند ، حتى تركوهم جسدا بلا روح ، وعزلوهم تماما عن تيار الحياة بجميع أنواعها ، فلا سلطان ، ولا غنى ، ولا نفوذ ، ولا وظائف ، ولا تعليم ، وأصبح ملوك الآمس وسادته أذلة فقراء ، ربما لا يجدون ما يأكلون ، وأصبحت قصورهم العامرة خرابا .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر وصار الذين كانت الدنيا في أيديهم يسعون إلى لقمة يأكلونها ، أو رقعة من الثياب يلبسونها ، فتسخر الدنيا منهم ، وتولى ظمرها لهم ، والناس ينظرون إلى هذا ويتحسرون ، وتفيض قلوبهم من الدمع حزنا ألا يجدوا هم الآخرون ما ينفقون . جذب ، وذلة ، وحسرة ، اشترك فيها سيد الآمس والمسود . ولم يكن ذلك كله إلا على يد الشياطين البيض الوافدين من الغرب . فلم يكن عجبا إذن أن نرى أناسا من هؤلاء المعضومين المظلومين يهبون كالأسود ، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من هيبتهم الضائعة ، ودنياهم المدبرة ، ودينهم المعتدى عليه .

أريد بعد تقرير هذه الحقائق أن أترك الحديث عنها أيضا للوثائق التاريخية التي دونها مؤرخون إنجليز ، لم يمنهم تعصبهم من ذكر الحقائق أحيانا . هذه الحقائق التي لم يكن من السهل على متعصب إنكارها .

أرسل اللورد دالهور ، حاكم الهند العام دوق ولنجتن ، سنة ١٢٥٩ هـ - ١٨٤٣ م ، كتابا جاء فيه :

« إنه لا يمكن الإغضاء عن حقيقة جليلة ، وهي أن الأمة المسلمة معادية لنا بعقيدتها ، فالبرناج الحقيقي عندنا أن نبتغي مرضاة الهناك ، ^(١) .

فعلى أساس هذه الحقيقة الجليلة تصرف الإنجليز مع المسلمين تصرف

العدو الخائن القادر على عدوه ، فعملوا بكل ما يمكنهم على خنق أنفاس عدوهم ، بينما عملوا على استرضاء الهنادك ؛ لأنهم في رأيهم ليسوا أعداء لهم بحسب عقيدتهم كالمسلمين ؛ ولأمر آخر يثق به الإنجليز ، وهو العمل المتقن على التفرقة بين السكان ، وإرضاء الكثرة الهندوسية على حساب المسلمين .

وكثيرا ما كانوا يستولون على أملاك المسلمين ، ويعطونها للهنادك ، وكثيرا ما كانوا يعزلون الموظفين المسلمين ، ويعينون بدلا منهم الهنادك ، وهكذا كانوا يحققون هدفين بعمل واحد ، أو يضربون عصفورين بحجر واحد - كما يقال .

ويدون أحد الموظفين الكبار الإنجليز في البنسغال مشاهداته لأحوال المسلمين ، ومعاملات الإنجليز لهم وذلك في كتاب له . سماه «مسلمو الهند»^(١) ، وهو «w.w. Hunter» ونشره لأول مرة سنة ١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م ، وقد كتب فيه : «إنني قضيت في البنسغال مدة كبيرة ، وشاهدت أشياء كثيرة ، أكتبها كما عرفت ، وأقدمها للإنجليز الذين لا يعرفون حقيقة الحال في هذه البلاد ، وما طرأ على أهلها من انحطاط ، كما قرر في مقدمة كتابه : أن الإنجليز الآن لم يفهموا عقلية الشعب الذي يحكمونه ، ولذا تجيء تصرفاتهم بعيدة عن الصواب ، كما أنهم يفصلون أنفسهم عن الشعب بهوة واسعة ، وهو كثيرا ما يتحامل على المسلمين وشريعتهم ، لكنه مع ذلك يذكر كثيرا من الحقائق التي تدمغ قومه بالعار .

يكتب ليصور لنا الطريقة التي وصلت بها الشركة إلى السيطرة فيقول : «إننا ما قبضنا على الهند مثل الفاتحين ، ولكن الشركة اعتمدت على الحيلة والمعاهدات ، حيث تقدمت للدلوك ، فأخذت منهم الإذن بالإشراف الإداري على بعض ولاياتهم ، وتعمدت ألا تمس النظم القائمة ، وكان عمالها يعرفون

(١) اسمه بالأوردو (هاري هندوستاني مسلمان) وترجمتها الحرفية (مسلمو هندا)

وهو مترجم للأوردية

أنفسهم حق المعرفة ، ويتصرفون في حذر ، معلنين أن الشركة نائبة عن الملك في الإدارة ، ولذلك أبقت العمل بالنظم الإسلامية ، وعينت القضاة والعلماء المسلمين في المحاكم ، وهذه حقيقة غابت عن كثير من الكتّاب الإنجليز الذين يكتبون عن الشركة ويعيبونها ، ولو أننا قبضنا على كل شيء دفعة واحدة ، وأخذنا في بدنا الحكومة والملك لوقعنا في ورطة عظيمة ، وجابهنا ثورة عاتية ، إذ أن المسلمين كانوا يهبون للجهاد الذي يعتبرونه في هذه الحالة فرض عين على الذكور والإماء . ولكنتنا تحاشينا ذلك ، فأبقينا اسم الملك ، وحكمنا باسمه على الولايات . وكانت النقود والأوامر تصدرها باسمه ، وإن لم يكن له أى نفوذ ، وأخذنا بالتدريج تغيير شيئا فشيئا ، حتى تغيرت الهند من دار الإسلام إلى دار الحرب ، دون أن يحس أحد بوقع هذا التغيير ، حتى إننا لا نعترف تماما متى بدأ ؟ .

حين تمسكنا من السلطة أقدمنا على التغيير ، ووضعنا القرانين الجديدة ، وأبطلنا العمل بالشريعة الإسلامية ، وعزلنا القضاة والعلماء المسلمين ، وكذلك الموظفين المسلمين^(١) .

وينقل مولانا مدنى هذا الكلام فى كتابه « نقش حياة » ، ويعلق عليه فيقول :

« هكذا فعل الإنجليز الذين أكرمهم الملوك المغول ، أكبر ، وجهانگیر وشاهجهان ، ومن بعدهم ، ، وقد أخطئوا خطأ كبيرا ، إذ أكرمهم ومنحهم الامتيازات التى مكنت لهم فى الهند ، حتى قبضوا على كل شيء ، ثم صاروا يعاملون المسلمين معاملة « الضرة » ، وأخرجوهم من القضاء ، ومن جميع الأعمال الكبيرة ، وكان هذا جزاء الإحسان عند الإنجليز . . . »

ويقول « هنتر » أيضا :

حينما قبضنا على الهند كان المسلمون فيها أرقى السكان عقلا وسياسة وعملا وعلميا ، وكانوا يمتازون بقوة الجسم والشجاعة ، ولكننا مع ذلك أغلقنا جميع أبواب العمل بالحكومة في وجوههم ، بعد ما كانوا يتولون المناصب الكبيرة والصغيرة ، وكان الهندوس يتقبلون كل ما يحصلون عليه من الوظائف بالشكر ، والإنجليز في ذلك الوقت يشتغلون كتبة وملاحظين للأعمال ، ولكن تغير الحال بعد ما قبضنا على السلطة ، بحيث لا نجد من المسلمين ضباطا أو قوادا أو قضاة في المحاكم العالية ، ثم يذكر أنه كان في بنگال من القضاة في المحاكم العالية ٢١ قاضيا ، منهم هندوسيان ، والباقي من الإنجليز ، ولا يوجد فيهم مسلم واحد . . . (١)

ويذكر هذا الكاتب الإنجليزي اعتراضات المسلمين على حكم الإنجليز وتصرفهم فيقول :

« إنهم يتهموننا اتهامات لم توجه إلى أية حكومة في العالم ، ولا يصح أن نفرض النظر عنها بحال من الأحوال ، فهم يتهموننا : (١) بأننا أغلقنا عليهم أبواب المعيشة الطيبة التي كانت توفر لهم الحياة السعيدة ، (٢) وبأننا قضينا على تعليمهم الديني ، وروجنا فيهم التعليم الذي لا يخدم دينهم ولا ينشط روحهم ، (٣) وبأننا ضيقنا الحياة على القضاة المسلمين ، حين عزلناهم من مناصبهم التي كانوا يؤدون فيها بجانب عملهم المدني والجاني عقود النكاح والطلاق ، وأحكام الدين الخاصة بهم ، (٤) وبأننا حللنا بينهم وبين أداء واجبات دينهم ، (٥) وهذا عندهم جرمنا الفظيع - أننا أخذنا الأوقاف الإسلامية التي وقفها كبار المسلمين للإنفاق منها على التعليم والمساجد ، وصرفنا ريعها في غير ما جعلت له (٦) ، وغير هذه توجد اتهامات كثيرة ، ومن السهل أن تثبتوا علينا كل

(١) ملخص من ص ٢٣٧ من كتابه « مسلمو الهند »

(٢) ذكر الكاتب في ص ٢٥٥ وما بعدها أنهم لما أشرفوا على بنغال وجدوا أنفسهم محرومين من ريع دخل المقاطعة بسبب الأراضي الموقوفة على المساجد والمدارس ، وكانت موقوفة من الضرائب ، فوضع « ورن هستنجز » مشروعا للاستيلاء عليها سنة ١١٨ هـ ، - ١٧٧٢ م =

ذلك بسهولة ؛ إذ أنهم صادقون في دعواهم ، وهم يرددون ذلك جهرًا ويقولون : إنكم أيها الإنجليز أخذتم الديوانى (أى إدارة أعمال الدواوين) ، والمحاكم نيابة عن ملوك المغول ، لتحافظوا عليها وتنموها وترتقوا بها ، وكنتم فى ذلك الوقت الخدام والعمال عند ملوك المغول بمقتضى العهود التى أخذت عليكم ، ولكنكم تمردتم ، ونسيتم إحسان المحسنين ، بعد أن أنستم فى أنفسكم القوة . وقبضتم على الحكم ،^(١)

ومن اللازم أن نفسر هذا الوضع الذى يتحدث عنه هذا المؤرخ الإنجليزى ، فعند ما بدأ نفوذ الإنجليز يسرى فى البلاد نشأت فكرة تقوم على جعل أعمال الحكومة فى يد الإنجليز ، على أن يبقى الحكم باسم الملك ، ويذكر اسمه فى المساجد ، وتضرب النقود باسمه ، وهكذا ، يعنى يفصلون بين الحكم وبين الملك .. ويجعلون الملك رمزا للحكم الإسلامى ، أما إدارة الأعمال كلها فتكون بواسطة الإنجليز على أنهم نواب الملك . وهذا ما يعبرون عنه دائما باسم (أعمال الديوانى) ، وهذه الفكرة هى التى عارضها العلماء وقاموا فى وجهها وقالوا : لا يتصور أن يكون هناك ملك إسلامى بدون حكم إلا إذا تصورنا الشمس بدون ضوء ، وقام جهاد العلماء وصدرت فتاويهم من أجل هذا الوضع الشاذ ، وأعلنوا حين صار هذا الوضع سائدا فى الهند أنها أصبحت دار حرب ، ويجب على المسلمين أن يهبوا للجهاد ضد المتسلطين الإنجليز ، حتى يردوا الحكم إلى يد الملك ، ويصبح هو الحاكم الفعلى لا الإنجليز . .

ولقد كان من نتيجة تغت الإنجليز مع المسلمين ، وتشريدهم وسد سبل الرزق فى وجوههم ، وانزعاع أراضى الأوقاف منهم أن تحوات حالهم من اليسر إلى العسر ومن العز إلى الذل .

= ولكنه فشل ، فهاود الكرة لورد كورنواليس سنة ١٢٠٧ هـ - ١٧٩٣ م فشلت أيضا . وكذلك سنة ١٢٢٩ هـ - ١٨١٥ م فاجأت إلى المحكمة وكان قضاتها من الإنجليز ، فسكت بها الحكومة ، فزاد دخلها ثلثمائة ألف جنيه من الضرائب عليها ، ثم يقول : من الحقائق التى لا يمكن إنكارها أننا لو لم نجاف الأمانة والتدين حين استولينا على الأوقاف الإسلامية لما حرم مسلمو الهند اليوم من معادهم الدينية وأظلمت العالية . (١) ملخص من كتاب « مسلمو الهند » ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

و يصف « هنتر » هذه الحالة التي شاهدها بنفسه - بعد أن وصف حالهم أيام أن كانوا هم السادة والحكام - فيقول : « هذه حقائق عن بنگال التي عشت فيها زمنا طويلا ، أكتبها كما شاهدهتها عن حالي اليسر والعسر للأسر الملكية وغيرها ؛ ليعرف الشعب الإنجليزي ما عرفتته في هذه البلاد ، ومع ذلك فإن ما أذكره عن بنگال يمكن أن يصدق أيضا على كل مقاطعات الهند التي وقعت في قبضتنا ، ثم يقول بعد هذا :

« إن في مرشد آباد ، وما حولها كثيرا من الأمراء الذين كانت لهم سطوة في الماضي ، مما لانزال نرى آثاره في قصورهم التي تدهش الإنسان حين يرى فيها آثار المجد السابق ، ومع ذلك فقد تحولت هذه القصور التي يسكنها هؤلاء الأمراء إلى خرابات ، فسقفوها قد خربت ينهمر منها المطر على سكانها الأمراء ، كأنه لافرق بين داخل القصر وخارجه ، وقد تحولت الحدائق التي كانت ممتلئة بالورود المتنوعة إلى أرض جدياء ممتلئة بأشجار الشوك ، وأصبحت الأحواض الجميلة التي كانت تحوطها الورود ، وتسبح في مياهها الأسماك الملونة ، أصبحت حفرا ممتلئة بالقاذورات . »

« ولقد شاهدت كثيرا من هذه الأسر وزرتها في بيوتها ، ورأيت كثيرا من الأولاد والأحفاد من الذكور والإناث ، وليس لهم باب الرزق ، فيقترضون ولا يستطيعون سداد القروض ، فيتجمع عليهم الدائنون في منازعات تصل إلى القضاء ، وتنتهى بالحكم عليهم . . إلخ » (١)

ويقول أيضا : « في كل مكان تذهب إليه في البنگال حتى في الغابات تشاهد المسلمين قصورا عظيمة بحدائقها وأحواضها ، ولكنها صارت كلها خرابا الآن ، وتجد بجانب ذلك مساجد للعبادة ، مما يدل على إخلالهم في نشر الإسلام ، ثم يستطرد فيقول : « وفي الحق إنهم اعتمدوا في نشر دينهم على الفطرة البسيطة ، وعلى المساواة التي جعلها الإسلام من أهم أسسه ، حيث

أعطوا البراهمة حقوقا متساوية مع المسلمين سواء بسواء ، وكان ذلك أهم سبب في انتشار الإسلام في بنغال .

هذا تصوير لحالة الأسر التي كانت لها السيادة في الماضي ، وهو تصوير مؤلم ومفزع ، تنفتت له القلوب ، فبالك بالأسر الأخرى التي كانت أقل منها ، أسر الموظفين الذين طردوا ، أسر أصحاب الأراضي الذين نزعت منهم أراضيهم ، نتيجة للضرائب الباهظة ، أسر القضاة ، أسر العلماء المدرسين ، أسر الضباط والجنود المسلمين الذين طردوا من عملهم ، هذه الأسر التي أصبحت أحق الناس في العالم بالعطف والرحمة كما يقول « هنتر » نفسه ..

لا شك أن هذا التصرف الجائر مع المسلمين خاصة يعتبر وصمة عار على الإنجليز ، وهو بما يحيل الجبان إلى أسد هصور ، وكان هذا مما دفع بالمسلمين إلى الثورة ، كي يتخلصوا من البلاء الذي نزل بهم .

موقف العلماء من الإنجليز وأثرهم في الثورة

كانت العوامل السابقة تفعل فعلها في نفوس أهل الهند جميعا ، وتشحنها بالثورة والغضب على الإنجليز ، وكان هناك بجانبها عامل هام آخر ، لعله أهم من كل العوامل السابقة ، لأنه عامل روحاني نفساني . والعوامل الروحية تتقدم دائما العوامل المادية ، وتعلو عليها ، وكان يقوم بهذا الجانب علماء المسلمين الذين وجدوا في تسلط الإنجليز وضعف السلاطين قضاء على الدين وعلى الحكم الإسلامي معا ، فهبوا يدفعون هذا الخطر ويذهبون الناس إليه بمختلف الوسائل .

ويعتبر العالم الكبير « شاه ولي الله الدهلوي » رأس هؤلاء العلماء ، وذلك لما قام به من مجهود عظيم في تنبيه المسلمين والحكام منهم كذلك إلى الخطر المقبل عليهم ، وإلى التمسك بدينهم .

ومن واجب كل مؤرخ للهند أن يقف ولو قليلا مع هذا المصلح الكبير

الذى يعتبر صاحب مدرسة فكرية عظيمة ، لا يزال لها الآن أتباع
ومريدون فى الهند يفتخرون بنسبتهم إليها ..

شاه ولى الله ومدرسته

اسمه أحمد بن عبد الرحيم بن وجيه الدين ، واشتهر باسم شاه^(١) ولى الله
الدهلوى . ولد بدهلى فى ١٤ من شوال سنة ١١١٤ هـ - ١٧٠٤ م ، وقدا اعتادوا
فى الهند أن يسموا المولود اسما يوافق حساب جملة سنة ميلاده ، وكان اسمه
على هذا الأساس . عظيم الدين ، ، وكان أبوه - عبد الرحيم - من العلماء
المتازين الذين راجعوا الفتاوى العالمكيرية ، الشهيرة ، ويذكر مؤرخوه
أن اسم ولى الله لصق به منذ ولادته ، حين بشر أبوه مرارا فى الرؤيا بولادة
ولد صالح له ، ومن بشره من الأولياء كذلك قطب الدين بختيار كعكى وطلب
أن يسمى باسمه ، ولذا سمي بقطب الدين أحمد واشتهر بولى الله ، وإن كانت
سيرته المباركة تجعله جديرا بهذه الشهرة .

تعلم فى كنف أبيه ، حفظ القرآن فى السابعة ، ثم أخذ يدرس علوم زمانه
على والده وعلى كثير من المشايخ ، فآتمها وهو فى سن الخامسة عشرة ، وحينما
توفى أبوه سنة ١١٣١ هـ - ١٧١٩ م ، قام بالتدريس ، واشتهر بالتفوق ، فوفد
عليه الطلاب من كل ناحية ، ثم رحل إلى الحرمين للحج ، وللزود من العلم على
رجال الحديث المعدودين هناك سنة ١١٤٣ هـ - ١٧٣١ م فقرأ كتب الحديث
عليهم ، وأخذ منهم الأجازات فى روايته . وأدى فريضة الحج وعاد فى أوائل
سنة ١١٤٥ هـ - ١٧٢٢ م ، ليستأنف حياة الجهاد فى سبيل الدين والوطن ،
وأصبح علما ومرجما فى علوم الحديث والتفسير على الأخص ، واشتغل
بالدراسة والتأليف فى بيت أبيه أولا ، ثم لما كثر طلابه واشتهر أمره أعطاه
السلطان محمد شاه بناء كبيرا للمدرسة ، وافتتحها بنفسه ، واشتهرت باسم

(١) كلمة شاه تضاف إلى بعض الأسر للتمشريف فقط .

دار العلوم ، (١) . فخرج علماء ممتازين على غرارهِ في الفهم وحرية البحث ، كما أخرج كتباً عدة باللغة العربية والفارسية تعتبر من أمهات الكتب في أبوابها ، وأهمها في العربية : كتاب « حجة الله البالغة » المشهور ، كما قام بترجمة القرآن إلى الفارسية ، وقد بلغت كتبه ٤٥ كتاباً بالعربية والفارسية .

وقد توفي أورنگزيب وعمر الشيخ أربع سنوات ، وعاش حتى عاصر بعده تسعة ملوك آخرين : بهادور شاه ، جهاندار شاه . فروخ سير ، رفيع الدرجات ، رفيع الدولة ، محمد شاه . أحمد شاه ، عالمگیر الثاني . شاه عالم الثاني . وقد بلغت الدولة في عهد هؤلاء مبلغاً من الضعف جعلها مطمعاً للطامعين في الداخل والخارج ، فأغار عليها المراهتا والسيك ، واستقل كثير من الأمراء عن دهلِي ، وغزاها من الخارج نادر شاه الإيراني ، ثم أحمد شاه الأبدالي الأفغاني ، وخربت دهلِي مرتين أثناء غزوهما ، وطمع الفرنسيون والهولنديون والبرتغال والإنجليز في البلاد ، وتنافسوا في اغتنام خيراتها حتى انفرد بها الإنجليز ، وتحكموا فيها وأذلوا أهلها .

وكانت البلاد ضائعة بين ملوك وأمراء وطامعين في الحكم ، يتعاركون ويتفنون في القتل والانتقام ، كما يتفننون في اللهو والشراب ، وبين رعية ضل رعاتها ، فراحت ترعى كالسائمة ، منصرفة إلى اللهو والفساد ، وبين علماء جامدين مقلدين مزمتمين ، وصوفيين خرجوا عن حقيقة التصوف إلى العبث بالدين .

ونظر الشيخ فرأى البناء ينهار على يد أصحابه ، فقام وشمّر هو وتلامذته لينقذ ما يمكن إنقاذه ، وركز جهاده في التدريس والتأليف ، والنصح لعامة الناس وملوكهم ، وكان بروحه الصوفية وآرائه الجديدة في فهم القرآن والحديث ، وحملته على التقليد الأعمى والتزمت والجود صاحب مدرسة

(١) وقد سألت في دهلِي عن هذه المدرسة فقالوا لم يعد لها أثر ، وإن كان يوجد هنا حي يسمى باسم شاه ولي الله .

عظيمة . كان لها أثرها في تطور الفكر في الهند ، حتى إن أولاده وتلامذته ساروا على نهجه ، وانتسبوا إلى مدرسته ، وظل كثير من العلماء ينتسبون إليها الآن ، ولما كان كثير من هؤلاء العلماء المنتسبين إلى مدرسته الفكرية الصوفية قد أثروا تأثيرا كبيرا في مجرى الحياة ، وفي حوادث الهند وثورتها ، فإن شاه ولي الله قد عد رأس هؤلاء المجاهدين في سبيل دينهم ووطنهم .

وبعد حياة حافلة بالعمل توفى في ٢٦ محرم سنة ١١٧٦ هـ - ١٧٦٣ م ، وكان له من الأولاد شاه عبد العزيز ، شاه رفيع الدين ، شاه عبد القادر ، شاه عبد الغنى ، وكانوا حقا أولاد أبيهم في العلم والجهاد في سبيل الدين والوطن ، قام شاه عبد العزيز مكان أبيه ، وخلفا له على مدرسته وفكرته ، فنهض بالعبء . وكان عبئا ثقيلا يتطلب رجالا ، فبعد موت الشاه ولي الله بسنة واحدة انهزمت جموش الملوك المسلمين أمام الإنجليز في «بكر» سنة ١٧٦٤م ، وبذلك فقدوا الأمل في أى انتصار بعد ذلك ، ودب اليأس في قلوبهم ، وطمح الإنجليز وسيطروا ، وأصبح شاه دلهى كموظف لديهم ، ليس له نفوذ على ملوكه ، وصدق عليه المثل الذى كان يقال سابقا عن أحد الملوك المسلمين في الهند «شاه عالم من دلهى إلى بالم» ، يشير إلى أن نفوذ الملك لم يتجاوز حدود دلهى (١) .

أما النفوذ الفعلى فكان للإنجليز ، إلى حد أنهم كانوا يتحكمون فيمن يدخل دلهى ومن يخرج منها ، حتى منعوا «شجاع الدولة» ملك «أود» من دخولها ، وكشروا عن أنيابهم ، وبدت نواجد الشر من أفعالهم ، حتى تجرأ مندوب الشركة سنة ١٢١٨ هـ - ١٨٠٣م على إجبار الملك على توقيع قرارات قدمها إليه ، ثم أعلن في غير خوف أو حياء أن «الخلق لله ، والملك للملك ، والحكم للشركة» . يشير بذلك إلى الفصل بين الملك وبين القوة التنفيذية ، حيث يبقى ملكا بدون ظل ، واسما بلا نفوذ ، أما النفوذ والسلطة والحكم الفعلى ففي يد الإنجليز ،

(١) و «بالم» اسم قرية في ضواحي دلهى بها المطار الآن المسمى بهذا الاسم .

وكانت هذه الخطوة الثانية في سيطرتهم على الهند ، فهم إلى الآن لم يجروا على خلع الملك ، بل أعلنوا أنهم يحافظون على بقائه ، وإن كانوا يأخذون سلطة التنفيذ في أيديهم ، بحجة إصلاح الأمور ١١

ولكن الشعب - وعلى رأسه العلماء - لم يستسيغوا هذه الخطوة ، فماذا يعملون باسم الملك ؟ وماذا تستفيد البلاد من شخص جرد من سلطانه ؟ لقد عارض الشاه ولي الله من قبل مثل هذه الفكرة ، وقال : إنه لا يتصور وجود ملك مسلم بدون نفوذ إلا إذا تصورنا الشمس بدون ضوء ، وأن معنى الإمام أن يرعى مأموميه ويقيم العدل بينهم .

لذلك هب الشاه عبد العزيز^(١) يستثير الشعب لحماية سلطانه ، والجهاد في سبيل إبقاء الحكم الإسلامي في يد أصحابه ، بعد أن عجز الملوك والأمراء عن كبح جماح الإنجليز ، فأصدر فتواه المشهورة بأن الهند الآن أصبحت دار حرب لا دار إسلام ، وعلى المسلمين أن يهبوا جميعاً للجهاد ، وقال^(٢) : إن إمام المسلمين الآن أصبح لا حول له ، ولا تنفذ أحكامه ، والحل والعقد صار بيد المسيحيين الإنجليز ، حتى لم يعد أحد يستطيع دخول دلهي إلا بإذنه ، وهم يحصلون الخراج ، ويعينون الموظفين ، ويدفعون المرتبات ، ويشرفون على القضاء والأمن وتنفيذ الأحكام ، وهم وإن كانوا لا يتعرضون للشعائر الدينية مثل الصلاة والأذان والذبح والأعياد ، إلا أن الأمور الأساسية في الإسلام لا يحترمونها . ولا يدعونها في يد أصحابها ، فوق أنهم يهدمون المساجد بغير اكتراث ..

(١) هو الإبن الأكبر للإمام ولي الله الدهلوي ولد سنة ١١٥٩ هـ — ١٧٤٦ م وتلمذ على والده وكثير من مشاهير العلماء حتى أصبح من أفذاذهم ، لاسيما في علم الحديث ، بحيث لا تجد واحداً الآن من علماء الحديث بالهند إلا وهو متصل بالسند بشاه عبد العزيز ، وهو صاحب كتاب « التحفة في الرد على الشيعة الاثني عشرية » ، التي ترجمت للعربية وطبعت بتعليق الأستاذ محب الدين الخطيب ، وغير ذلك من الكتب القيمة ، وتوفي سنة ١٢٣٩ هـ — ١٨٢٣ م في دلهي .

(٢) نص الفتوى موجود في كتاب « فتاوى عزيزية » للشاه عبد العزيز باللغة الفارسية طبع دلهي ص ١٦ ، ١٧ .

من أجل هذا تصير كل بلاد يقبض عليها الإنجليز بهذا الشكل قد انتقلت من دار الإسلام إلى دار الحرب . ثم أخذ يذكر أدلة ذلك من فعل النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه الراشدين .

وعلى هذا الأساس انتشرت الدعوة في طول البلاد وعرضها بأن واجب المسلمين الآن أن يهبوا للدفاع عن بلادهم ذكورا وإناثا ، وأخذ العلماء يطوفون بالمدن والقرى يفهمون الناس ذلك ، ويستثيرونهم ، وعلى رأس هؤلاء العلماء أبناء الشاه ولي الله وتلامذته .

وبما يثير الإعجاب حقا أن العلماء لم يقتصر دورهم على الكلام ، بل إنهم كونوا الجيوش ، وخاضوا الحروب لإنقاذ المسلمين من الإنجليز وغيرهم من أهل الهند ، كالسيك الذين انتهزوا فرصة ضعف ملوك دهلي فعاثوا في پنجاب مفسدين ، يقتلون المسلمين ويهدمون دورهم ، وينهبون أموالهم ، ويهتكون أعراضهم ، وينزلون بهم من البلايا والمصائب ما تقشعر منه الجلود . .

وهذا هو الذى دفع سيد أحمد عرفان بريلوى ، أحد تلاميذ مدرسة شاه ولي الله ، والسالكين على طريقته إلى أن يهب لإنقاذ إخوانه المسلمين من يد هؤلاء السيك ، وأعتقد أن المظالم الشديدة والإبادة التى كان السيك يقومون بها تجاه المسلمين ، هى التى جعلت هذا المجاهد يتجه أولا وفى سرعة إلى پنجاب ، وكان إقداما منه لم يسمع بمثله ، ولذا يعتبر من أبرز العلماء فى حركة الجهاد التى قامت فى الهند ، وكان لإقدامه أثر كبير فى بعث الهمم فى النفوس ، حتى اقتنت أثره فى الجهاد والفداء ، ولذا نحب أن نعطيه حقه ، ونقف معه وقفة تليق بموقفه فى الدفاع عن المسلمين .

سيد أحمد بريلوى

الشهير باسم « سيد أحمد الشهيد »

ولد فى قرية « راي بريل » من أعمال لكنو فى غرة المحرم سنة ١٢٠١ هـ - ١٧٨٦ م من أسرة كريمة ، اشتهرت بالعلم والتقوى ، وينتهى نسبها إلى سيدنا الحسين بن على رضى الله عنهما^(١) ، ولم تتجه نفسه إلى التعليم برغم حرص والده ومعلميه على تعليمه ، حتى إذا توفى والده وهو فى السابعة عشرة من عمره ترك بلدته ، وسافر إلى لكنو ، وانخرط فى ملك الجنود عند أحد الأمراء المسلمين .

ولم يمكث طويلا ، ثم توجه إلى دهلى سنة ١٢٢١ هـ - ١٨٠٦ م ، حيث جذبته مدرسة شاه ولى الله ، فتنبذ على شاه عبد القادر ، وتلقى الصوفية من أخيه شاه عبد العزيز ، حتى أتى من العلم والمعرفة ما تدهش له العقول ، وهو فى الحادية والعشرين ١٢٢٢ هـ - ١٨٠٧ م ، ثم حن إلى حياة الجندية والجهاد ثانية فذهب إلى معسكر « أمير خان » فى « تونك » بإقليم راجستان ؛ وأخذ يحثه على الجهاد والقتال فى سبيل الله ، ويشجعه فى حربه للإنجليز ، ثم رجع إلى دهلى بعد أن اصططح أمير تونك معهم ، وأخذ يدعو المسلمين إلى التمسك بدينهم ، وترك البدع والخرافات الشائعة فى أوساطهم ، متعاوناً فى ذلك مع العالمين الجليلين ، الشيخ عبد الحى والشاه إسماعيل من أسرة شاه ولى الله ، وقد بايعاه على الدعوة والجهاد ، ثم رحل إلى « بتنا » واتسع نفوذه ، وكثر أتباعه ومريدوه ، ومن هناك رحل إلى الحجاز للحج سنة ١٢٣٧ هـ - ١٨٢٢ م ، وكان ذلك بعد أن هزم محمد على الوهايين وأجلاهم عن الحجاز ، ورجع بعد سنة ليستأنف حياة الكفاح والجهاد والدعوة إلى الله ، حتى صار له أتباع

(١) وهى الأسرة التى ينتسب إليها الأستاذ أبو الحسن الندوى العالم الهندى المعروف والذى يصرف على دار العلوم فى لكنو ، وقد أصدر جزأين فى تاريخ السيد الشهيد بالأوردية ..

ومريدون في كل نواحي الهند ، يبايعونه على التطهر والجهاد ، وأخذ يعد العدة لإنقاذ المسلمين من براثن «السيك» في پنجاب ، وبدأ فراسل الأفغان بمقصده ، وطلب منهم العون والمساعدة ، فاستجابوا له ، وانتشرت دعوته للجهاد في إيران وأفغانستان ، وتحمس الجميع شعوباً وحكومات لإنقاذ المسلمين من السيك والإنجليز معاً ، ولما وثق من مساعدة الأفغان له كون جيشاً من أتباعه المجاهدين في الهند ، وسار به نحو الحدود الشمالية الغربية ، وعسكر هناك سنة ١٢٤٠ هـ - ١٨٢٤ م ، ثم أرسل إلى حاكم السيك «رانجيت سنگ» ، يدعوه إلى الإسلام أو الجزية ، فاستشاط الحاكم غضباً ، وزحف بجيشه لقتال المسلمين ، ووقعت بينهم عدة معارك كان النصر في أكثرها للمجاهدين المسلمين.

وقد كان السيد المجاهد يحرص في دعوته على شيئين : أولهما - تطهير الدين من البدع والخرافات الفاشية في العوام ، وثانيهما - الدعوة إلى الجهاد . فظن بعض العوام والعلماء أن هناك صلة بين دعوة المجاهد والدعوة الوهابية التي شوهت سمعتها في الهند ، نظراً لقيامها بهدم القباب في مكة والمدينة وغيرهما ، مما جعل الرأي العام الإسلامي يكرها ، ويكره كل من يتصل بها ، ومن الأسف أن العوام في الهند وبعض العلماء انساقوا وراء عواطفهم ، وتأثروا بدسائس الإنجليز والسيك ، ولم يفرقوا بين دعوة المجاهد لتطهير الدين من البدع ، والدعوة الوهابية التي يكرهونها ، بل ربطوا هذه بتلك ، ثم لم يراعوا الظروف الخطيرة التي يمر بها المسلمون ، والتي تستدعي التكاتف العام ، وعدم الالتفات إلى مثل هذه التفاهات الشكلية ، والعواطف الذاتية ، والدعايات التي يروجها الإنجليز كذلك ، فطعنوا المجاهدين من الخلف ، وأشاعوا بين العوام أن هؤلاء المجاهدين ورثسهم من الوهابيين ، فنفروا منهم بعض الناس ، وأتاحوا للأعداء أن يستفيدوا من هذه الخلافات ، بل إنهم بالفعل أعانوا الأعداء على إخوانهم المجاهدين - ويابئس ما صنعوا - ففسد بعضهم السم للسيد المجاهد في عشائه ، وأراد الله أن ينجي منه - بعد ما ظل مغنى عليه بضعة أيام - ليوصل الجهاد في سبيل الله والمسلمين ، وقد بويع السيد المجاهد

بالإمارة للمسلمين ، ونودى باسمه في الخطب ، ثم زحف على مدينة « بشاور » ، وهزم حاكمها من قبل السيک ، « سلطان محمد خان » ، واتخذها عاصمة له ، وأقام الحدود وعين القضاة ، ونفذ شرع الله ، ويظهر أن الظروف اضطرت له لذلك ، لأنه لم يكن يطمع في يوم من الأيام في إمارة أو رياسة ، بل كان كل همه أن يستخلص الهند من يد الانجليز والسيک المفسدين ، ويتركها لحكامها الأصليين .

وأقضت هذه الانتصارات مضاجع « السيک » ، وأراد « رنجيت سنگ » أن يخرج لقتال المجاهدين ، لكنه لم يستطع لتغلغل السيد في الجبال ، وبثه الدعوة في القبائل وقوة نفوذه فيها ، وإذا كان « السيک » لم يستطيعوا منازلة السيد المجاهد في هذه النواحي فإن المتزمتين من علماء الدين ، والصوفية المزييفين استطاعوا أن ينفروا بعض العوام والأمراء منه كما قلت ، بدعوى أنه وهابي ، وحينما رأى السيد ذلك ، بادر بترك البلاد مرتحلا إلى « مظفر آباد » ، في نواحي جبال « كشمير » ، ووقعت بينه وبين « السيک » مناوشات كتب له فيها النصر .

ولما علم أن قائد السيک « شيرسنگ » توجه بجيشه إلى « بالاكوت » ، سبقه إليها وحصنها ، ولكن بعض جنوده خانوه ، وأخذوا الرشوة من « السيک » ، وتواطؤوا معهم ، فهجموا على المسلمين بغتة ، ووصلوا إلى مكان رئاسة المجاهدين الذين استمانوا في الدفاع عن أنفسهم حتى استشهد الكثير منهم ، وعلى رأسهم المجاهدان : سيد أحمد ، وشاه إسماعيل الدهلوى اللذان اشتهرا فيما بعد باسم السيد أحمد الشهيد ، والسيد إسماعيل الشهيد وذلك سنة ١٢٤٦ هـ - ١٨٣١ م ، ولقيا ربهما ^(١) ، بعد أن أديا رسالتهم الدينية والوطنية على خير

(١) وقد دفنا في « بالاكوت » حيث استشهدا ، ولم يصدق كثير من أتباع السيد أحمد أنه استشهد وظنوا أنه اختفى ، وسيعود إليهم ، وظلوا على هذا الاعتقاد مدة حتى بسوا من عودته ، وقد أخبرني الأستاذ أبو الحسن الندوى أنه رأى « وثائق » في متحف لاهور كتبها لـ « انجليزى » كان نائبا عن حكومته عند « السيک » وقتذاك ، ويقول فيها : إنه بعد دفن السيد الشهيد أخرج المتعصبون من « السيک » جثته وأحرقوها ، وقد اطاعت وأنا في مدراس عند =

ما يؤديها مجاهد مخلص ، ولم يكن استشهادهما ليفل من عزيمة أتباعهما ، فقد حمل اللواء بعد السيد خلفاء له ، أخلصوا لله عملهم وحملوا أرواحهم على أكفهم ، واستمروا في كل مكان بالهند يدعون الناس إلى الجهاد ، جهاد السيك وجهاد الإنجليز معا ، وقد كان لهذه المواقع الجربية ، واستشهاد من استشهاد فيها دوى عظيم ، استيقظ عليه النائمون ، وتحمس بعده الكسالى الخاملون ، وسرت الدماء في العروق تطلب الثأر للدماء المرافقة ، وتشد بالأرواح الكرامة المضاعة ، وكان الإنجليز بعد ذلك الوقت قد استولوا على پنجاب ، وأصبح «السيك» في حمايتهم ، فأنذروا المجاهدين أن الحرب مع «السيك» حرب معهم ، ولم يبال المجاهدون بالطبع بهذا الإنذار ، فقد كان من أهدافهم حرب الإثنين معا ، وبدأ الجهاد العنيف ضد الإنجليز في النواحي الجبلية الغربية على الخصوص ، حيث كان الجبلدون الأشداء المتعصبون من أتباع الشهيد ، فأخذ هؤلاء يقضون مضاجع الإنجليز ، وينازلونهم في حروب عنيفة كلفت أعداءهم الغالى من المال والرجال .

ومع تلامذة الشاه ولى الله وأتباع السيد الشهيد المنتشرين في الهند قام

= العلامة الدكتور عبد الحق على كتاب ظهر حديثا باسم المهديوة في الإسلام للأستاذ سعد وطبعته لجنة النشر والتأليف الأزهرية ، فوجده قد عد السيد أحمد الشهيد من الذين ادعوا المهديّة وأن شيخه بصره بذلك الخ . . والعارف بحقيقة تاريخ السيد الشهيد ينفي تماما هذه الفكرة المقترة عليه ، فهو لم يدع ذلك مطلقا لنفسه ، وكان في إخلاصه وحماسه الديني وشدة في محاربة البدع والخرافات بعيدا عن مثل هذه الادعاءات ، وقد سألت الأستاذ أبا الحسن الندوى الذى كتب تاريخه مطولا عن ذلك ، فغناه نفيًا قاطعا ، وقال : ليس في تاريخه أية حادثة تشير إلى أنه ادعى شيئا من ذلك ، وإن كان بعض أتباعه قد افتتنوا بعد وفاته بفيل لهم أنه لم يمت ولكنه اختفى وسيرجع إليهم ، ولكنهم سرعان ما رجعوا عن خيالهم بعد ما مضت مدة على استشهاد . أما زميله السيد اسماعيل الشهيد فهو حفيد الإمام ولى الله الدهلوى وابن الشاه عبد الغنى الدهلوى (وكلمة شاه هنا تضاف لبعض الأسرى في الهند على سبيل التكريم) ، تلمذ على أعمامه الأفاضل بعدما توفي أبوه وهو صغير ، ونبغ في علوم الدين والرياضة وفي الفروسية والزراعة ، وكان دائما يدعو الناس إلى التمسك بالسنة والقيام لجهاد الإنجليز ، وانضم إلى السيد أحمد وساروا معا إلى حرب السيك حتى لقي ربه شهيدا ، وله مؤلفات عدة قيمة بعضها بالعربية .

غيرهم من العلماء - وإن كانوا يخالفونهم في بعض الآراء - ليستثيروا الشعب ضد العدو ، ولم يقتصرُوا في استئثارهم على المسلمين ، بل كانوا يثيرون الهندوس أيضا لتخليص الوطن من عدوه ، ومن الواجب أن نشير إلى أن السيد أحمد الشهيد وإن كان قد حارب السيک لمظالمهم الفظيعة على المسلمين ، فإنه كان يرمى من وراء حركته العامة إلى تحرير البلاد كلها من أيدي الإنجليز ، حتى إن بعض أمراء الهندوس انضم معه حين حربه للسيک ، وكان دائما يرسل رسائله إلى الأمراء الهندوس يستحثهم على الاتحاد معه لحرب الإنجليز ، وهكذا لم تقتصر دعوة المجاهدين - وعلى رأسهم السيد الشهيد - على المسلمين ، بل شملتهم مع الهندوس ، لغاية واحدة وهدف مشترك ، هو تخليص البلاد مما تعانيه من ظلم الإنجليز .

ومن الحق علينا أن نذكر أن الشعب - في جملة - تجاوب مع الداعين ، وأخذ الخطباء والشعراء يخطبون ، وينشدون الشعر لإثارة الحماس والدعوة إلى الفداء ، وكان كثير من الأمراء الهندوس قد أصابهم الغنت على يد الإنجليز ، وكثير منهم أدرك الخطر على حقيقته ، وعرف أن النار ستحرق البيت كله ، فبادروا إلى الاتفاق مع المسلمين ، فأسين الفروق التي كثيرا ما عملت عملها في التفريق والنشيت بينهم وبين المسلمين .

لقد أصبحت نعمة الجهاد ضد الإنجليز على كل لسان ، وشغل كل عالم ، وأصبحت المنشورات تكتب وتوزع ، والناس يطوفون - علماء وغيرهم - بالمدن والقرى لهذا الغرض ، وكان بعضهم يتزيا بزي السائلين الرث . وبلغ بهم الأمر إلى حد أنهم اخترعوا مسألة توزيع الأرزقة على حراس المدن والقرى ، وكل من يأخذ رغيفين عليه أن يصنع ستة أرغفة ويوزعها - وهكذا ، وكان أحد العلماء - أحمد على شاه ، يوزع الخبز مع زهر النيلوفر ، على المسلمين والهندوس ، وانتشرت هذه العملية في طول البلاد وعرضها ، ولا بد أنهم كانوا يرمون من ذلك إلى هدف تجميع الناس على الثورة ، باسم الخبز المشترك حتى لا يخونود ، وفي الهند يرمزون إلى كل خائن بقولهم « نمک حرام » ، أي ملح

حرام لم يؤثر فيه ، كما نقول عندنا (خائن العيش والمال) ، هذا ما أراه ، ولو أن لمؤرخي الهند تعاليات أخرى اختلفوا عليها على قرب العهد ، فقال بعضهم : إن ذلك كان يرمز إلى الثورة من أجل الخبز ، وبعضهم يرى أن ذلك كان رمزاً للإفلاس لإهاجة الخواطر ، ويرى المؤرخ الهندي المعاصر ، سندر لال ، أن الخبز كان رمزاً للحرب من أجل الحياة ، والزهر كان رمزاً للحرب من أجل الدين^(١) .

وهذه المسألة في ذاتها تدل على مدى اشتغال الشعب بالاستعداد والتهيؤ للثورة ضد الانجليز ، حتى أصبح كل واحد يستطيع الاستيلاء على قلوب الناس حين يقف ويعلن عداوته للانجليز ، ودعوتهم للوقوف في وجوههم ، فقد ذكر أحد العلماء أن أحد كبار الموظفين في المحاكم لقيه في ذلك الوقت وسأله عن حاله ، فأجاب : أنه سيء جداً ، فقال له : أنت رجل عالم ، وعليك أن تأخذ القرآن المجيد ، وتذهب إلى القرى ، وتعظ الناس وتحثهم على الجهاد ، ففعلت كما أشار على ، فتلقيت من الشعب الكثير من الروايات^(٢) .. وهكذا انتشر الداعون للثورة والجهاد باسم الدين يلهبون الشعور ، حتى كان جناء البنغاليين يتحولون إلى أسود فتاكة مثل الأفغانيين ، بمجرد ما يسمعون الداعين للثورة ..

يقول مستر د اى . سى . بيلي ، سكرتير حكومة الهند :
« إن الجنون الديني المستمد من القرآن الكريم قد اشتعل إلى أقصى حد ، وبدأ الخطر الأكبر من ثورة المسلمين التي ألهمها العلماء المتعصبون الغاضبون على الانجليز ؛ بما لهم من أثر كبير على العوام الجاهلاء ،^(٣) .
ويقول مستر هنتر :

(١) كتاب « ماضي العلماء المجيد » ج ٤ ص ٢١ مولانا محمد ميان .

(٢) المصدر السابق ص ٤ .

(٣) روشن مستقبل ص ١٠٨ قلا عن كتاب « مساهمة الهند » لمستر هنتر .

« كان علماء شمالي الهند أول من أفتى بوجوب الجهاد ضد الانجليز ، ثم سرت هذه العدوى إلى مسلمي البنغال الذين أصدروا منشورات تحض على الجهاد ، حتى أن الشيعة الذين يعادون هؤلاء العلماء لم يستطيعوا أن يخالفوه ، فأصدروا هم كذلك منشورات مثلهم » (١) .

وقد زاد النفوس اشتعالا ما أقدم عليه « دلهوزى » من اعتقال « واجد على شاه » ملك « أود » وضم بلاده للشركة سنة ١٢٧٣هـ - ١٨٥٦م ، وكذلك إلغاؤه كثيرا من الألقاب والمرتبات التي كان يتمتع بها بقايا ملوك الولايات التي ضمت للشركة من قبل ، مثل حاكم « أركان » و « تانجور » ومثل « نانا صاحب » وارث ملك المراهتا ، وأكثر من ذلك كله هذا الإنذار الذي وجهه هو « واللورد كينج » إلى ملك المغول « بهادر شاه » المسن القابع في قلعته ، بأنه سيكون آخر ملك يتمتع باللقب والمرتبة وسكنى القلعة التي ستصير بعده ثكنة للجيش الانجليزي ، وقد كانت من قبل مهوى الأئدة ، ومحط الرجاء ، ومسكن الملوك العظماء ، فأى غم أصاب الهنود ولا سيما المسلمين ؟ فلئن كان ملكهم قد بلغ من الضعف إلى نهايته ، لقد كان الأمل أن يقوى هذا الملك بواسطة الشعب الذي يسنده ، حتى يبقى حكم الهند في يد أبنائها ، ولقد رأينا الشعب بمختلف دياناته يقف خلف « بهادر شاه » يسنده ويقوى ظهره ، وتقدم المراهتا وغيرهم ممن عاشوا كثيرا محاربين لملك المغول ، تقدموا مختارين ، فأعلنوا طاعتهم له ، ووضعوا نفوسهم وما يملكون رهن إشارته ، في سبيل طرد الانجليز من البلاد . فلك المغول - إذن - على رغم ضعفه كان رمز الشعب على اختلاف طبقاته ، والقضاء عليه وعلى مركزه ملكه . وتحويله لثكنة يسكنها صعاليك الانجليز ، هو قضاء على أمل للشعب ظلوا متعلقين به ، ومن شأن هذا التصرف أن يزيد في غضب النفوس ، بل إنه ليلبغ بها إلى غايتها في الغضب ، وفي الاستبسال من أجل الإبقاء على أملهم .

(١) روشن مستقبل ص ١٠٨ نقلا عن كتاب « مسلمو الهند » لستر هنتر .

ومن أجل هذا أخذت الجهود المبعثرة تتحد ، والغضب الذي يجرى كالسيل هنا وهناك بدأ في التجمع والتنظيم ، وقام جماعة يدبرون ويضعون الخطط للقيام بثورة جماعية في الهند كلها ، بحيث لا يستطيع الانجليز مجابتهها ، فيضطرون لترك البلاد والرحيل عنها لأهلها ؛ هكذا قدر المدبرون ودبروا - المسلمون منهم والهندوس - حتى قيل إنهم عينوا ١١ مايو سنة ١٨٥٨ م موعدا لقيام الثورة في جميع أنحاء الهند ، وكتبت المنشورات ، وتفرق الخطباء يخطبون ، ويجهزون لذلك اليوم . ولكن هل أحكموا التدبير وأنقنوا تنظيم الثورة في جميع النواحي ، وفي وقت واحد كما ينبغي ؟ ، وماذا كانت نتيجتها ؟ كل هذه أسئلة تجد الجواب عنها فيما يأتي ..

الثورة أدوارها ونهايتها

كان من المصادفات العجيبة أن تندلع الثورة من الجنود في ثكناتهم العسكرية في «ميرت»^(١) ، وفي اليوم الذي قيل إنه حدد لقيام الثورة ، ولأسباب داخلية تتصل باستهتار الإنجليز بعقائد الجنود من الهند ، وتعسفهم في معاملاتهم . .

فقد جلب الإنجليز « خراطيش » كانوا يدهنونها بشحم الخنازير والبقر ، وكان يتعين على الجنود قطع هذا الشحم المتجمد قبل استعمال هذه الخراطيش ، ولتغنت الإنجليز واستهتارهم كانوا يأمرون الجنود بقطعه بأسنانهم ، وكان فيهم كثرة من الهندوس وقلة من المسلمين ، والبقر محرم أكله على الهندوس تحريم الخنزير عند المسلمين ، فتذمر الجنود وعصوا الأوامر الصادرة لهم في هذا الشأن استجابة لعقائدهم الدينية ، وطلبوا إعفائهم من هذه العملية ، ولكن الإنجليز في نوبات غرورهم أخذتهم العزة بالإثم ، ورأوا في عمل الجنود ذنباً لا يغتفر ، وعصياناً لا بد أن يقابل بالقمع ، حتى لا تحدث أحد نفسه بالخروج على أوامرهم ، وحتى يذلولوا الجنود ، وبالتالي من كان وراءهم من الأهالي في ناحية حساسة وهي عقائدهم ، واستمروا في غرورهم ، وأنزلوا بالجنود العصاة عقاباً قاسياً ، حيث حكموا على ٨٥ منهم بالسجن عشر سنوات ، وتفننوا في إذلالهم بشتى الوسائل ، وأدع هنا وصف هذه المحاكمة لمؤرخ أمريكي هو « إدورد تومس »^(٢) يقول :

(١) شمال دلهي بنحو ٥٠ ميلاً لا يزال الآن فيها معسكر كبير للجيش الهندي . . وهي من مدن الولاية الشمالية (يو. بي) الهامة .

(٢) في كتابه The ather Side of medal ترجمة مجلة الضياء عدد ربيع الأول سنة ١٣٥٤ وقد عني المؤرخ الأمريكي باظهار الجانب الذي حرص الإنجليز على إخفائه من حوادث الثورة ، ويعتمد عليه المؤرخون المسلمون والمنصفون من غيرهم في إبراز مقام الإنجليز وفظائعهم في الهند .

• سيق ٨٥ جنديا إلى المحكمة العسكرية تحت مراقبة الحراس ، وحكم عليهم بهذا الحكم الفظيع ، ثم عريت أجسامهم من ملابسهم العسكرية ، ولبسوا بالحديد ، وكان منظراً مؤلماً تسيل له قلوب رفقائهم ، إشفافاً عليهم ورحمة بهم ، وكان في المحكوم عليهم من خدم الإنجليز خدمات جليلة ، وحارب في صفوفهم ، ولقى الشدائد والأذى في سبيل مرضاتهم ، وشكى جميع الأسرى إلى القائد سوء حالهم ، وتذرعوا إليه بكل ما يمكن من الكلمات الرقيقة ، والدموع المنهمرة ، حتى لا يبتليهم بهذا الذل والهوان ، لكنه لم يصغ إليهم ، فلما ينسوا من رؤسائهم شخصوا بأبصارهم إلى زملائهم قائلين : ما لكم تشاهدون كل ما نحن فيه من الذل والخزي وأنتم ساكتون ؟ ألا تحسون المذلة ؟ أم انطفأت أرواحكم ؟ ما بالكم لا تحركون ساكناً في شأنا ؟ . فوجدت هذه الكلمات سيلاً إلى قلوب أصحابهم ، ونزلت عليهم كالصاعقة ، فاعتزموا شيئاً أسروه في أنفسهم ، ولولا الجنود المدججة بالسلاح والآلات النارية لو ثبوا عليهم ، وأطلقوا سراح إخوانهم ، لكنهم كظموا غيظهم ، وانطوت صدورهم على الحقد والعداء للظالمين ، وأصبح الذين كانوا يضجون بالنفوس والنفائس لنيل مرضاة رؤسائهم ، يتربصون بهم الدوائر ويقعدون لهم بالمرصاد .

وهكذا صارت قلعة « ميرت » ، بركاناً يغلي بالغضب على الإنجليز جزاء تعنتهم وظلمهم الذي لم يستطيعوا التبرؤ منه .

يقول القائد العام للشركة في ذلك الوقت « أنسر » (Anser) (١) :

« قد شاهدت بنفسى الخراطيش التي كانت مبعث الريبة ، فوجدت أن الجنود كانت على حق في امتناعهم عن استعمالها ، وما كنت إخال أن هذه الخراطيش تدهن بشحوم البقر والخنزير ، فالحق أنهم لم يحفلوا بعواطف الجنود الأهلية . »

ويقول حاكم الهند العام وقتئذ ، لورد كينسنگ ، عن هذا الحكم (١) :
« بلغ هذا الحكم من السفاهة مبلغا لا يوجد له نظير في تاريخ الهند ،
وبذلك اضطرت نار الثورة وشب لهيها . »

كانت هذه المحاكمة في ٩ مايو سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م ، ولم يأت اليوم
الثاني حتى وثبت الجنود في معسكر «ميرت» على رؤسائهم الإنجليز ، يقتلون
ويدمرون ، ومنها بدءوا زحفهم إلى العاصمة «دهلي» .
يقول مولانا فضل حق خير أبادى في كتابه «الثورة الهندية» عن هذه
الواقعة (٢) :

« فعمدوا - أى الإنجليز - بادىء بدء بمكائدهم إلى أن بذلوا جنودهم ، من
مسلميهم وأهاندهم ، عن رسومهم وقواعدهم ، ويضلوهم عن أديانهم وعقائدهم ،
لزعيمهم أن الجنود من الأبطال ، إذا ارتضوا لأديانهم بالأبدال ، وتلقوا
أحكامهم بالقبول والامثال ، لا يكون لغيرهم مساغ ومجال للنكول ، مخافة
النكال ، فكلفوا الأهاندهم منهم - وهم جم غفير وجمع كثير - بإذابة شحوم
البقير ، والمسلمين - وهم قليل نزير - بإذابة شحوم الخنازير ، فأنحرف كل من
الفريقين عن الطاعة والانقياد ، حفظا لما لهم من الدين والاعتقاد ، فأخذوا
يقتلون فريقهم ، ويقطعون طريقهم ، ويغتالون طرقاتهم وبطريقهم (٣) ، ومنهم
من اعتدى وأساء ، وارتكب الفظاظة والقساء (القسموة) ، فقتل الولدان
والنساء ، فاستحق الخذلان والهوان ، من اغتيال النسوان ، واستوجب الخزي
والصغار ، من قتل الصبية الصغار ، ثم إن كلا من الجنود المنحرفة قد انتهضوا
من معسكرهم ومقامهم ، بعد الفتك بأمرائهم وحكامهم ، فسار كثير منهم إلى

(١) المصدر السابق .

(٢) ص ٢٥٩ وكان من زعماء المجاهدين ونفى بعد فشل الثورة إلى (جزائر أند مان)
في خليج البنغال ، وكتب عنها هذا الكتاب الذى يعد أصدق تصوير لها .

(٣) ألقاب لرؤساء الفرق : الطرخان يكون على رأس خمسة آلاف والبطريق على رأس
عشرة آلاف جندي ..

إلى دار الملك «دهلى» التى هى مصر مشهور، وبلد مغفور، ومشوى لجمع كثير من آل تيمور.

كيف دخل الثوار الجنود «دهلى» :

زحف الجنود الثائرون إلى دهلى فى صباح الحادى عشر من مايو، وكان من الطبيعى أن يقوم الجيش الإنجليزى فى دهلى بصددهم عن دخولها، ولكنهم هزموه وعبروا «كوبرى» نهر «جنا» ودخلوها، ويحسن هنا أن أنقل شيئاً من مذكرات امرأة إنجليزية عاشت فى المعركة، ووصفت أهوالها^(١)، قالت بعد أن تحدثت عن بلبلة أفكار الإنجليز، وخوفهم من أبناء الثورة المقبلة؛ واعتقادهم أن قائد الإنجليز فى «دهلى» - جنرال كراؤ - كفيل بالقضاء على أية ثورة بما لديه من أسلحة، قالت: بينما كنا نتحدث فى بيتنا الذى كان يقع على الطريق الآتى من «ميرت» إذ رأينا الغبار قد ارتفع من جانب «ميرت»، والجنود الإنجليزية - الفوارس منهم والمشاة - يستقبلوننا تارة، ويستدبروننا تارة أخرى، ثم علمنا بعد حين أن الجنود الهنود فى الجيش الإنكليزى قد فروا وانضموا للثوار، والذين بقوا يحاربون حرب الفرار، وجنود الثوار تهاجم عليهم من كل جانب كالبحر، فأقام الجنرال «كراؤ» مدفعاً على تل كان هناك لدفعهم، ولكنهم لم يبالوا بهذا المدفع، وتقدموا إلى «دهلى» تاركين جرحاهم وقتلاهم بجوار حائطنا.

ولما تركت بيتنا خارج أسوار دهلى، وأرادت الاحتماء داخلها، وسارت متخفية. استطاعت أن تشاهد كثيراً من أدوار الثورة. فتقول «وكان على الجسر والكوبرى، زحام من أهل البلد، قد خرجوا لاستكشاف الحادثة، فلما سمعوا خبر هزيمة «جنرال كراؤ»، وأن جنده يفرون من الثوار. أخذتهم الذشوة، وكانوا ينظرون إلينا - ونحن نسير أمامهم - بالازدراء والاحتقار، لكننا

(١) وهى مسز هورتست ترجمت مذكراتها للفارسية ومنها ترجمها العربية السيد على الزينى بجامعة لىكنو، ونشرت بالضياء عددى رجب وشعبان سنة ١٣٥٤ تنقلاها على علاتها.

ما أظهرنا شيئاً من الكبر والزهو ، وإلا لقتلنا جميعاً ، وباليك ذلك قد كان ، ولم نر ماراً بناه بعد من شدائد الحياة ، فلما وصلنا إلى أبواب دهلي (وكان عليها سور يحيط بها مثل كل المدن في الأيام الماضية) وجدناه منسداً بالازدحام ، وكان الناس يخرجون من داخل البلد ويصيحون : اقتلوا الانجليز حيث وجدتموهم ، ولا تبقوا منهم رجلاً أو امرأة ولا ولداً .

وتقول : « فلما وصلنا عند حصن سليم الغورى ، رأينا أهل المدافع قد وقفوا مستعدين ، ينتظرون الأوامر لإطلاقها على الثوار ، ولكنهم كانوا من الأهالي ، فألقوا القنابل فى الخندق ، ونهبوا السلاح ، ولحقوا بالثوار ، فتقويت بذلك روحهم المعنوية ، وجاء الثوار يتعقبون جند جنرال كراؤ ، الفارين ، وأخذوا فى قتل الانجليز ونهب أموالهم ، ووقع الشغب فى كل مكان . »

وتقول حينما نظرت من مخبئها إلى الخارج : « رأينا جماعة من الانكليز يقتلون ويحرقون بأيدي الهنود ، وحينما انتقلت من مخبئها إلى مخبئ آخر تقول : « ومشينا فى البيت فرأينا فى كل جانب وزاوية جثث القتلى والمضروبين الذين كانت لا تزال أجسامهم حارة ، والدم كان يسيل فى كل مكان ، حتى كانت الأقدام تزل فيه ، كما كانت الحيطان ملطخة بالدم كذلك . »

وحينما جاء لهم خادمهم الفيال المسلم ، الذى كان يرعى فيلهم سألوه عن الأخبار . فقال لهم : « إن البلدة كلها فى يد الثوار ، وأنهم اختاروا ملكهم الشيخ المهتمد للجلوس على عرش الحكومة (أى حاكماً وقائداً للثورة ، ومن قبل لم يكن له أى نفوذ لأن الحكم كان بيد الإنجليز) ، ونهبوا كل بيت انكليزى ، وقتلوا كل من وجدوه من الانكليز ، والجنود الانكليز ، الذين اجتمعوا فى المعسكر قد تفرقوا ، ولو أن مخزن الذخائر لا يزال فى يد الجنرال كراؤ . »

وتقول معلقة على حديث زوجها لها ، وهم فى مخبئهم يطمئنهما إلى انتصار الانجليز :

وكانت هذه الكلمات لتسليتنا فقط ، وإلا فإن زوجي كان عارفاً أن الجنود الأهلية إنما بغوا ؛ لأنهم لا يريدون سيطرة الانجليز عليهم ، للتباين الموجود في القومية والوطن والدين والعادات والتقاليد ، ويريدون إعادة الدولة المغولية ، لأن الانكليز قد أهانوا في المعاشرة ، وأفسدوا عليهم دينهم ، حتى أجبروهم على عض الخراطيش ، وكسرها ، وهي مدهونة بشحوم الخنازير والبقر .

وبينما نحن في هذا الكلام ، إذ سمعنا صوتاً مدوياً زلزل بنا الأرض فوقنا كلنا من شدته ، وعلمنا أن ذلك أثر تفجير الانجليز لذخائرهم ، خوفاً من استيلاء الثوار عليها ، حين عجز الضباط عن المقاومة ، وقد فنى البارود والضباط إلا قليل منهم ، وكان هذا في اليوم الثالث عشر من مايو .
وتقول : « إن خادمنا الفيال جاء وأخبرنا أنهم شالوه عنا ، وأن رئيس الشرطة قد قرر جائزة ثلثمائة روبية لكل من يأتيه برأس رجل من الانجليز ، ومائتين وخمسين لرأس المرأة ، وللطفل مائتين . فارتعدنا من هذه الأخبار ، ونسينا ما كنا فيه من الجوع » .

وتقول حين خرجوا وراء زوجة الفيال ، وقد ارتدوا جميعاً الملابس الهندية للتخفي والذهاب إلى مخبأ آخر : « فخرجنا لابسين الملابس التي أتت لنا بها ، نقفوا أثرها مارين بشوارع وسكك دهلي التي كانت ملطخة بالدماء ، وما رأينا في الطريق أحداً إلا الكلاب والأغربة والنسور التي تنهش أجسام الموتي » .
ثم تقول : « وبعد ذلك بأيام خفض الهنود من ثورتهم ، وكانوا يقتلون ذكور الانجليز بعد التحقيق معهم والمرافعة عنهم ، وكانت الأوامر تصدر من ملك الهند « سراج الدين محمد بهادر شاه » ، ويستحيون النساء ، وكانوا أولاً يعرضون الإسلام عليهم ، فكثير من الانكليز دخلوا في الإسلام وخلصوا أنفسهم من أيدي الظلمة » ^(١)

(١) لما قضى الملك على السلطة أصدر أوامره بعدم الاعتداء على النساء والأطفال والإنجليز غير المحاربين ، وظهر أن ما قوله الكاتب كان بعد صدور هذه الأوامر ، أما قبلها فكانت الثورة بلا عقل تسيرها رغبة الأهالي في الانتقام .

ثم تقول : « وبعد هذه الشدائد عزمنا على الخروج من دهلي إلى دأكرا ، وأخذ فيا لتأنيبه لنا أسباب السفر ، لكن أخباره وصلت إلى رئيس الشرطة فشنقه ، لأنه من المسلمين الذين يعينون الكفرة المسيحيين ، وعلقه في جزع شجرة كانت في فناء دارنا ، ولكن ما كانت عندنا فرصة لنقضى حق الجزع عليه ، ونقيم المأتم حزنا على هذا الرفيق الوفي . »

تلك صورة خاطفة آثرت أن أعجل بها هنا قبل الكلام على التفاصيل ، وهى على كل حال ليست صورة غريبة عما يلازم هذه الثورات من حوادث ، تأتى نتيجة لاشتعال عواطف الحقد والكراهية على قوم معتدين متعنتين .

* * *

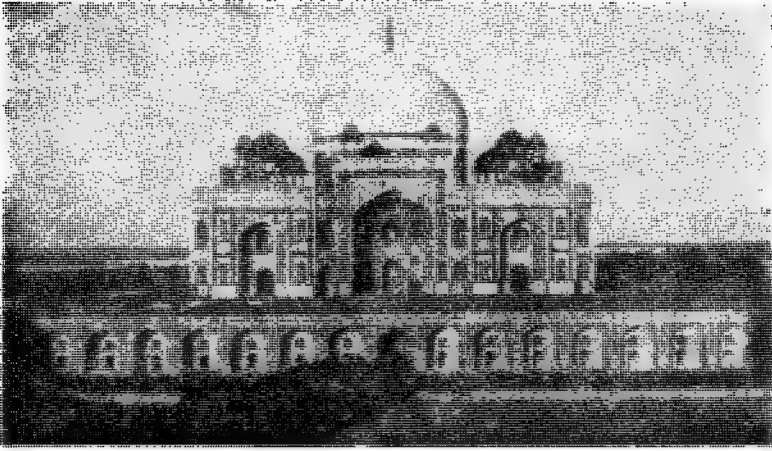
نرجع بعد ذلك للوراء لنذكر أن العلماء دعوا لاجتماع عام فى المسجد الجامع بدلهى ، وأعدوا فتوى بإعلان الجهاد وقمها كثير من العلماء البارزين ، ولما شاعت هذه الفتوى فى هذا الوقت ثار كثير من الناس ، وتجمع فى دهلي عشرات الآلاف من الجنود الثائرين ، وفى الوقت نفسه أصدر الثائرون من المسلمين والهندوس إعلانا مشتركا ، يقضى باختيار الملك المغولى المسن بهادور شاه ، قائدا أعلى للثوار ، وانضوى المراهتا - الذين كانوا دائما محاربين للملك المغول - انضوا تحت حكمه راضين مختارين فى سبيل جهاد مشترك لأخراج الإنجليز ، وكان اختيار الملك المسن رمزا لرضاء الجميع عن الحكم الوطنى المغولى ، وإن لم يكن الملك فى شيخوخته قادرا على قيادة ثورة عارمة كهذه الثورة ، فوق أنه لم تكن هناك شخصية قوية يتجه إليها الثائرون تقودهم فى هذه الظروف الحرجة . .

وقد جعلت القيادة العامة على الجنود الثائرة لبعض أبنائه مثل « ميرزا مغل » و « خضر سلطان » ، ولم تكن لهم تجربة فى مثل هذه الشدائد ، وكان على المدفعية رجل شجاع ماهر هو « بخت خان » ، وانقض الأهالى مع الجنود على الإنجليز فى كل مكان ، وهزموا قراهم التى تعرضت لهم ، وأخذوا

يقتلون كل من يروونه من الانجليز ، رجلا كان أم امرأة أم طفلا . كانت ثورة النفوس جارفة ، وانطلق كل نائر بنفس عما في نفسه من غل وحقد على هؤلاء الذين أذلّوهم ، وكادوا لدينهم وسلطانهم ، وسبّطوا الثوار على الموقف في « دهلي » ، وجرت دماء الانكليز أنهارا في الشوارع والبيوت ، وكان القتل مصير أى فرد يتواطأ مع عدو البلاد ، أو يخفيهم في بيته ، وكان من الممكن أن تنجح هذه الثورة في دهلي ، وفي غيرها لو وجدت القيادة الرشيدة الحازمة ، والتنظيم الذى يعرف كيف يستغل العواطف المشتعلة ، والإخلاص الذى ينبغى خبث الخبثاء ، والخائنين الجبناء ..

ولكن ما أَرَادَهُ الله كان ، وهو لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ولا يمكن للشجرة التى ظل السوس ينخر فيها طويلا أن تثبت أمام العواصف العاتية ، وكانت الثورة تحمل في طياتها كثيرا من عوامل الضعف ، وعدم الاستعداد لمجابهة القوة المنظمة بمثلها ، كما أن كثيرا من المحيطين بالملك كانوا على صلة بالانجليز ، وبجانب هذا كان كثير من التجار الهندوس قد وجدوا الثراء والانتعاش على يد الانجليز ، مما جعل الانجليز يجدون أسنادا لهم وأعوانا في كل ناحية ..

وفي أثناء الثورة وبعد ما ظهرت بوادر الفشل ترك الملك - الذى جعله الثوار قائدا عاما لهم - قلعته مع أهله وأولاده ، والتجأ إلى مقبرة « همايون » خارج البلد ، بعيدا عن مركز الخطر ، فكان لهذه الخطوة أثرها السيئ جدا في نفوس الثوار ، حيث بعثت في قلوبهم الذعر والخوف ، وتفاعل هذا العامل مع العوامل الأخرى ، فلم يلبث الانجليز أن سيطروا على الموقف في دهلي بعد أن استمرت الثورة أربعة شهور أى في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٥٧ م . ولعل خير ما تقرؤه في وصف هذه الثورة وأدوارها ، هو ما دونه أحد زعمائها وهو مولانا فضل حق خير أبادى الذى أشرت إليه مرات من قبل ، والذى اشترك في إيقاد اللهب وعاش وسطه حتى انطفأ . كتب يقول (١) :



مقبرة همايون في نيودلهي الآن وهى من الآثار الإسلامية الخالدة

وذهب كثير من الجيرش إلى دار الملك دهلى ، فأمرُوا بها من كان من قبل من بينهم رئيساً^(١) ، وقد رد إلى أرذل العمر ، وهو فى الحقيقة لزوج^(٢) ووزيره مأمور ، وكان عامله الذى كان فى المعنى واليا عاليا ، للنصارى مواليا ، وفى حبهم غاليا ، ولمن عداهم مبغضا قاليا ، وكذا بعض عشيرته الأفريقين^(٣) يفعلون ما يشاءون ، ويعملون بأرائهم وفى طاعته يرامون ، وهو إمر لا يعلم أمرا ، ولا يأمر برأيه أمرا ، ولا يفقه خيرا ولا شرا ، ولا يحكم بشيء جهرا وسرا ، ولا يملك نفعا ولا ضرا ، هذا وقد انتفض من بعض القرى والبلاد ، جمع من المسلمين الجلاء ، للغزو والجهاد ، بعد الاستفتاء والاستشهاد ، من العلماء الزهاد ، وإفتائهم بوجوب الجهاد ، وقد أمر ذلك الأمر على الجيوش ، بعض من له الأحفاد والأبناء - يريد ميرزا تغل وخضر سلطان وغيرهما - ، وكانوا من السفهاء الخوان الجبناء ، والمتنفرين من العقلاء الأمناء ، لم يشهدوا ملحمة وحربا ، اختاروا للعاشرة والمشاورة سرقة من أهل السوق ، وانغمروا

(١) يقصد بهادور شاه .

(٢) يقصد الملكة زينب محل وحكيم أحسن الله خات كما جاء بهامش الكتاب .

ل وغيره .

في الترف والفسوق ، وكانوا يأخذون من الناس بحيلة تزويد الجيوش وتجهيزهم مالا جما ، ثم يأكلون كل ما يأخذون أكلاما ، ألهمهم ملاهيهم في رخاء العيش . فأخرتهم عن مقدمة الجيش ، يبيتون نياما ، ويظنون سكارى ، وإذا انتبهوا وصحوا فهم أغفال حيارى ، هجمت عليهم بالجنود النصارى ، وقد عسكروا على جبل شاهق ، ونصبوا عليه مجانق^(١) يرمون بها المساكن والدور ، كأنها شهب وصواعق . والجنود المنحرفة (التائرون) أشتات مختلفة ، صاروا طرائق قددا ، بعضهم لا يطيع أحدا ، والبعض لا يجدون ملتحدا ، منهم من وثق لفقره طاقته ، وأقعدته عن القيام بالحرب فاقتته ، ومنهم من عوقه عن الحرب ما نهى ، ومنهم من هرب وقلبه رهب ، ومنهم من طفي وبغى ، ومنهم من يستنكف بلبس الشفوف ، عن الدخول في الصفوف . ومنهم من كان يجالذ ويحارب ، والنصارى بعد ما وهنوا ، استمدوا في الحرب هناك الغرب ، فأمدوهم بكثير من العدد والعدد ، وأعانوهم بمدد بعد مدد ، في أقصر المدد ، فجمع النصارى على ذلك الجبل كثيرا من الأعوان . فمن جنودهم أشياعهم البيض ، ومنهم أجراؤهم من أراذل الهنادك ، والمسلمين الذين ارتدوا بولاء النصارى عن الإيمان ، وباعوا دينهم ببخس من الأثمان ... ، وقد ائتلف بالنصارى من سكان البلد آلاف ائتلافا ، فالهنادك كلهم معهم وأما المسلمون فقد اختلفوا اختلافا ، فبعضهم للنصارى قالون ، وبعضهم لهم موالون ، في حبهم غالون ، يجدون لكسر الجنود النائرة بالحبل والمكائد ، ويجهتدون في فل شوكة المجاهدين ، وتبديد شملهم ، وتفريق جمعهم . ،

« وطلق النصارى يحملون على البلد وأبوابه ، والمجاهدون وفريق من الجنود ، يعوقونهم عن البلد ، يتجالد الفريقان ليلا ونهارا ، ركبانا ورجالا ، وكانت الحرب بينهما أربعة أشهر سجالا^(٢) ، فذاق كثير منهم شهد الشهادة ، وسعدوا إذ صدوا معارج المعادة ، وللذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ،

(١) لا بد أنها الدافه ، لكن يظهر أن السجعة حكمت عليه .

(٢) من ١١ مايو إلى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٥٧ م .

وما بقي من المجاهدين إلا قليل ، يبيتون جياعا ، ويصبحون إلى الغزو سراعاً ، فسكانوا مع جمع من الجيش يحفظون السور ، ويسدون الثغور .

ثم وصف بعد ذلك كيف انتهز الإنجليز فرصة نوم حراس إحدى المواقع واستولوا عليها ، ثم أخذوا منها بضربون البلد والسور المحيطة بها^(١) ، حتى هدموا بعض أجزائه ، وسيطروا على القلاع المشرفة عليه ، وبجيلة حربية دخل فريق من النصارى وجنودهم من باب أو هنوه ، وسور هدموه ، فلم يجدوا مزامحا ولا مقاوما ، ثم استمالوا أهل الجهة التي دخلوا فيها وحصنها ومنها أخذوا يزحفون ويستولون على بيت بعد آخر ، ويتحصنون فيه ، ويضربون من يظهر من الثوار ، وفي ذلك الوقت خرج الملك مع من له من آل وعيال ، إلى مقبرة هي من البلد على ثلاثة أميال ، (مقبرة همايون) ، وكان مطيعا لزوجته وعامله الخوان . مغترا بما كان يختلقه من الكذب والبهتان ، ويسول له أن النصارى بعد تسلطهم يتبعونه بإحسان ، ويمكنونه في الملك بأبهة وسلطان ، وكان مغرورا مسرورا ، وخرج مع الملك من له من الأمراء والأجراء ، تاركين في بيوتهم أمتعتهم ، وبخروجهم من البلد استولى الرعب على كثير من سكانه ، فخرج كل من مكانه ، فلما خلت الديار من أهلها ، دخلت النصارى وجنودهم فيها ، فمالوا على ما وجدوا فيها من المال ، واغتالوا من بقي في الدور من النساء والأطفال ، والضعفاء من الرجال . . .

وكان وقتا تشيب لهوله الولدان ، ومع ذلك ثبت فريق من المجاهدين ، يقاتلون هنا وهناك ، ولكن البدالين من الهنادك بالاشتراك مع مرزا إلهي بخش منعوا كل قوت عن المجاهدين ، وحالوا بينهم وبين ما كان يجي إليهم من ثمرات القرى حتى ظلوا وباتوا جياعا ، والتاعوا التباعا ، فاضطروا أشد اضطرابا ، وفروا أشنع فرار ، فاستولى النصارى على البلد وأبوابه ، وقلعته وسوره ، وأسواقه ودوره .

(١) وقد دلى بعض الزملاء على آثار الضرب في السور عند بوابة كشمير في دلهي ويسمونها (كشميرى جيت) .

ومن المؤسف حقا أن تقوم الخلافات الكثيرة بين زعماء الثوار ، وأن تسول للأمرء وبعض حاشية الملك نفوسهم خيانة المجاهدين ، وطعنهم من الخلف ، وأن يشتغل أبناء الملك بالخلاف فيما بينهم من أجل العرش في هذا الوقت ، وأن يعملوا على إضعاف المجاهدين وقوادهم الأجداد ، مثل جنرال بخت خان ، ، وقد كانوا يظنون بعقولهم الساذجة أنهم بما يقدمونه للإنجليز ضد إخوانهم سيقربهم لديهم ، ويجعل لهم الخطوة عندهم ، ولكن خيب الله ظنونهم ، فكانوا ضحايا غدرهم مثل غيرهم . . . وهكذا تمكن الإنجليز من الانتصار على الثائرين بعد أربعة أشهر ، ولم يساعدهم على ذلك إلا حسن تنظيمهم وثباتهم ، في الوقت الذي اشتغل فيه أكثر الثائرين ، ولا سيما بعض رؤسائهم بأنفسهم ومطامعهم ، فجرت عليهم سنة الله ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

الثورة في المناطق الأخرى

ولنترك دهلي الآن - بعد أن وقعت في قبضة الإنجليز - لنعرف أخبار الثورة في المناطق الأخرى .

فمن المؤسف حقا أن الثورة لم تقم كلها في وقت واحد ، كما كان منتظرا ، وقد أتاح ذلك للإنجليز فرصة التفرغ لمنطقة بعد أخرى ، كما أن مناطق الثورة قد انحصرت في وسط الهند : في دهلي ، وكانپور ، وجهانسی ، ولکنو ، وتھانہ بہون ، وبعض مناطق الحدود التي كانت من قبل في ثورة ضد الإنجليز .

ففي البنغال مثلاً قامت ثورة على يد « منگل باندي » في ٢٢ مارس سنة ١٨٥٧ في منطقة دمدم ، ، ولكنها أخذت بسرعة ، قبل أن تبدأ الثورة في المناطق الأخرى ، وأعدم هذا الرجل في ٨ مايو . .

ولما قامت الثورة في دهلي لم تقم في لکنو ، وكانپور ، وجهانسی إلا متأخرة ، بعد أن وصلهم أخبارها بأسابيع . .

ففي ١٤ مايو وصلت أخبار الثورة إلى «كانپور» فقام «نانا صاحب» المراهتي بالثورة فيها ، وكان يسكن في «ديتهورا» ، ولكنه لم يشرع في هذه الثورة إلا في السابع من يونيو ، أى بعد مضي نحو شهر على الثورة في «دهلى» ، وكان «نانا صاحب» متفقاً مع ثوار دهلى على الثورة ، وأعلن معهم خضوعه للملك «بهادر شاه» ، وقد هاجم الإنجليز في كانپور بالمدافع ، وقاتل قتال الأبطال هو وقومه من المراهتا ، وفتك بهم فتكا ذريعاً ، ولما يش من النصر قضى على كل من كان تحت يده من الإنجليز نساء وصبياناً ، وألقى بجثثهم في بئر ، اتخذ منه الإنجليز مزاراً بعد أن انتصروا ، أما هو فبعد هزيمته ترك كانپور واختفى ..

أما لـكنو : فقد قامت الثورة فيها أيضاً متأخرة مثل كانپور . وكان الأهل ساخطين على الإنجليز ، لاسيما بعد اعتقالهم ملكهم «واجد على شاه» ، وكانت زوجته وتسمى «حضرت محل» لا تزال في لـكنو العاصمة ، هى وابنها الصغير «مرزا رمضان على» الذى عرف باسم «برجيس قدر» ، فقام الثوار والزوجة الباسلة على رأسهم ، لتنتقم لزوجها ووطنها ، وكان بعض رؤساء الثوار في دهلى مثل «جنرال بخت خان» ، ومولانا «أحمد الله شاه مدراسى» المعروف باسم «دلاورجنك» وغيرهما قد فروا منها ، وتركوها بعد أن لعبت بالثورة الأغراض والأهواء والدسائس ، وانضموا للثوار في لـكنو ، وقام أحمد الله شاه بتنظيم الحركة ثم في ٥ يونيو سنة ١٨٥٧ م ، أعلنوا جلوس «برجيس قدر» على العرش ، وانتزاع أمر الحكومة من يد أحمد الله شاه ، وكان ذلك بمساعدة نواب أحمد على خان المعروف باسم «موخان» الذى يقول فيه مولانا فضل حق «إن الملكة فوضت الأمر كله ، حله وعقده ، إلى عامل خامل ، لم يكن للأمر أهلاً ، يستصعب كل سهل ، وبحسب كل صعب سهلاً» ثم مضى يصف فساد وسوء اختياره لرجاله وقواده ، وكان من نتيجة ذلك أن غضب عليهم مولانا أحمد الله شاه «مدراسى» ثم تنحى عن العمل .

وعندما أحس الإنجليز بالثورة تحصنوا هناك في قصور حصنوها ، وجاءهم المدد ، وكان الثائرون قد هجموا عليهم هجمات متوالية ، وأحرقوا بعض هذه القصور ، التي لا تزال للآن في لكنو ، كما رأيتها - وفيها آثار التخریب والحريق ، وقد حولها الإنجليز بعد انتصارهم إلى متحف حربى ، عرضت فيه أسلحة ذلك الوقت ، ونسقرا الحديقة التى أمامه ، وأقاموا فيها تمثالا لأحد القواد ، المهم أن اثنتين فشلوا ، فاضطروا إلى تسليم لكنو للإنجليز ، وخرجوا هائمين على وجوههم وفى الوقت نفسه تقدم الإنجليز ، وحاصروا قصر بيگم حضرت محل وولدها الملك برجيس قدر ، وكل من كانوا معها وقد فروا من مرادهم فراراً ، لم يستطيعوا معه قراراً ، وتركوها وابنها وحيدين فى قصورهما ، وخانهما كثير من أولياء دولتهما ، وأركان سلطنتهما ، ونكشوا الموائيق والأيمان ، واستبدلوا الكفر بالإيمان ، فدخل النصارى البلد ، فوجدوا بيوتها خالية ، وحاصرت جنودهم وأعوانهم مقصورة كانت فيها الولاية ، فخرجت مع ابنها وامرأتين من صواحبها متخفية راجلة ، ودخلت محلة أخرى عاجلة ، ومكثت فى تلك البلدة ثلاثة أيام تستعد ، وتستنفر الناس ولكن دون جدوى ، فلما استقيأست من الأعوان نفرت مع ابنها وعدة من الأنفار ، للسفر إلى القاع والقفار ، فاجتمع لها جماعات من الفرسان والرجال ، بل وربات الحجال ، وهم حفاة عراة ، وقد كانوا قبل من السراة ،^(١)

ولما أحست الملكة حضرت محل ، أن معها جمعا تستطيع به منازلة الإنجليز ، عسكرت فى إحدى البلاد ، واستعدت للحرب والجلاد ، ولكن للأسف لم يستطع من معها الثبات أمام الإنجليز ، ففر الكثير وبقي قليل يحاربون حتى استشهدوا فى بلدة نواب گنج ، قريبا من لكنو .

وعند ما انهزم الثوار فى لكنو ذهب بعض رؤسائها إلى مدينة

«شاهجهانپور» الواقعة على الغرب منها ، وأقاموا حكومة إسلامية في مركز «محمدي» التابع لها ، وكان من هؤلاء مولانا أحمد الله شاه مدراسي وجنرال بخت خان ، واتصل بهم «نانا راؤ المراهقي» الذي قاد الثورة في كانپور هو ومولانا عظيم الله كانپوري وغيرهم ، واستطاعوا أن يهزموا الإنجليز أولا ، ولكن النصر انقلب بعد قليل إلى هزيمة استشهد كثير منهم فيها .

أما الباقون فقد فروا إلى «نيبال» . في أقصى الشمال ، وقد قتل مولانا أحمد الله بواسطة خيانة دبرها له الراجا الهندوسي «بلديو سنگ» ، حيث دعاه إلى مائدته ، وأظهر له حمايته ، ثم غدر به وقتله .

أما «حضرت محل» فقد ذهبت مع ابنها «برجيس قدر» إلى «نيبال» وعاشا هناك حتى ماتت ، وبعد ذلك رجع «برجيس» إلى «كلكتا» ، حين اطمأن إلى عفو الإنجليز عنه ، لكن دبرت له مؤامرة لقتله بواسطة السم ، ومات وانتهى .

وفي «جهانسي» جنوب دلهي قامت الثورة بقيادة «راني لكشمي باي» (١) الهندوسية ، وكان الإنجليز قد وضعوا يدهم على ولايتها قبل ذلك بسنوات ، فأرادت هذه المرأة الباسلة أن تنتقم لنفسها منهم ، فوقعت بينها وبينهم عدة معارك ، انتهت بانتصارهم أيضا كما انتصروا في المواقع الأخرى .

موقعة شاملي وتهانه بهون

عندما قامت الثورة شارك العلماء فيها مشاركة فعلية في كل ناحية ، وحملوا السيف والبندقية مع إخوانهم ، ولكن هناك موقعة يستحق أن نقردها لها مكانا خاصا ، وهذه هي الموقعة التي دارت رحاها في هذه المدن التابعة المديرية «مظفر نگر» شمال «ميرت» بين العلماء والإنجليز ...

(١) وقد عنيت الحكومة الهندية بإخراج طوابير برید تفكارية لها ١٩٥٧م، وهي راكبة فرسها تقود الثورة ضد الإنجليز بمناسبة مرور مائة عام على الثورة وإن كانت زميلها في الثورة ضد الإنجليز في لکنو «حضرت محل» زوجة واجد على شاه» لم تحظ بهذه العناية !!

فعند ما قامت الثورة في دهلي كان تلامذة مدرسة شاه ولي الله وأتباع السيد أحمد الشهيد المسترشدين بطريقته يفكرون في القيام بعمل إيجابي ، وأتباع السيد الشهيد لم يكفوا عن الحرب والجهاد منذ استشهاد ، فلا عجب أن يتنهزوا هذه الثورة العامة ويخوضوا غمارها .

اجتمع من هؤلاء العلماء الصوفيين الكبار: الحافظ ضامن ، والحاج إمداد الله ، ومولانا محمد .. وبحوثا في أمر قيامهم بثورة ضد الانجليز ، لكن رأى مولانا محمد كان يقضى بالامتناع عن ذلك ؛ لعدم الاستعداد ، وعدم وجود أسلحة توازن مافي أيدي الانجليز ، وإزاء هذا الاختلاف استدعوا مولانا محمد قاسم نانوتوى^(١) ، ومولانا رشيد أحمد گنگوهي^(٢) ، وكانا من تلامذة مدرسة شاه ولي الله أيضا ، ومن كبار العلماء الصوفيين كذلك ، ولما قال مولانا محمد لا توجد عندنا أسلحة ترازى ما عند الانجليز قال مولانا قاسم : ألا توجد معنا أسلحة مثل ما كانت في يد أهل بدر ؟ قالوا : نعم كني ، ولنا في رسول الله أسوة حسنة ، وشمروا عن سواعدهم ، ودعوا الناس للجهاد ، وجعلوا إمامهم مولانا الحاج إمداد الله ، ومولانا قاسم قائدا عاما ، ومولانا رشيد قاضيا

(١) ولد في قرية «نانوتا» التابعة لسهارانبور سنة ١٢٤٨ هـ - ١٨٣٢ م ودرس في دهلي وظهرت عليه علامات النبوغ منذ سفره وتثبج بروح مدرسة الشاه ولي الله وأولاده ، وصار من الأفاضل وهو شاب ، واشترك في الثورة وسنة ٢٥ سنة ولما فشلت اخفى مدة حتى أعلن الفو العام وكان يقضى أكثر مدة اختفائه في ديوبند . ثم عمل مع جماعة من المخلصين على تأسيس مدرسة عربية دينية تقوم على صيانة التعاليم الإسلامية من فساد الغرب ونوايا الانجليز فأسسوها سنة ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٧ م في مسجد صغير لا يزال للآن وقد كبرت مدرسته وصارت أعظم معهد ديني في الهند وما حولها وقد فلت بالتدريس فيها سنتين وثلاثة شهور . وله مؤلفات أوردية قيمة في غاية التركيز وسمو العبارة وحفيدة الآن مولانا محمد طيب مدير دار العلوم بديوبند . ويعتبر مولانا قاسم من نوادر العلماء في عصره وبعد عصره وتوفي سنة ١٢٩٧ هـ - ١٨٧٩ م ودفن بديوبند .

(٢) ولد سنة ١٢٤٤ هـ - ١٨٢٨ م في بلدة كنيكوه التابعة لسهارانبور ، وتعلم في دهلي على علماء من أبناء وأحفاد شاه ولي الله ، وأخذ الطريقة عن الحاج إمداد الله ، ثم اشترك في الثورة وقبض عليه واستمر في السجن ستة أشهر ، ثم خرج واشترك في تأسيس دار العلوم بديوبند والتدريس بها وظل قائما بالتدريس وهداية الناس حتى أصبح له أتباع كثيرون وتوفي سنة ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م ودفن في بلدته وأحفاده للآن معروفون في كنيكوه وله عدة مؤلفات قيمة بالأوردية .

ومولانا محمد منير النانوتوى والحافظ ضامن قائددين على الميمنة والميسرة ، وكان هؤلاء جميعا محل اعتقاد من العامة ، فتجمع المجاهدون حولهم من كل ناحية ، وأتوا بأسلحتهم ، وكانت كلها من الطراز القديم حتى البنادق ، وكانوا يعنون بالتدريب من قبل .

وبدءوا في دتهانهيون ، التابعة لمظفر نگر قريبا من ديوبند - فاستولوا عليها وعلى ما حولها ، وأقاموا فيها الحكم الإسلامى ، وأخرجوا منها الحكام الانجليز ، فلما وصلت هذه الأنباء إلى الانجليز تحركوا من « سهارانپور » ومعهم مدافعهم ، متجهين إلى بلدة « شاملى » ، وعلم العلماء بذلك ، ففكروا كثيرا : كيف يقابلون المدافع بالسيوف والبنادق القديمة ؟ ولم يلبثوا كثيرا حتى رأى مولانا رشيد أن يقوم بعمل جرىء ضدهذه القوة الزاحفة ، وأسرع فأخذ كتيبته المكونة من أربعين مجاهدا ، وكمن بين الأشجار فى طريق هذه القوة ، حتى إذا مرت بهم أمطروها برصاص بنادقهم ، ففر الانجليز وتركوا مدافعهم وأسلحتهم ، واستولى عليها مولانا رشيد وحملها إلى إمامهم ، الحاج إمداد الله ، فأثار هذا شعلة الحماس فى نفوس المجاهدين ، وقد ألقوها أمامهم فى المسجد .

ثم تقدموا فقبضوا على مديرية « شاملى » بعد معركة حامية بينهم وبين الانجليز استشهد فيها الحافظ محمد ضامن قائد الميسرة ، وبرغم استشهاد فان انتصارهم وما كان يترامى إليهم من أنباء انتصارات إخوانهم فى دهلى وغيرها شد من أزرهم وأزر العوام ، حتى كانوا يطاردون الانجليز بالعصى والحجارة ، يشترك فى ذلك كل الأهالى حتى النساء والصبيان ، ولكن بعد فترة جاءت الاخبار المؤسفة من دهلى حين هزم الثوار واستولى الانجليز عليها ، وأخذوا ينكلون بأهلها ، ففت هذا فى عضد المحاربين ، وخمدت فيهم روح الحماس ، فلم يعد مفر أمامهم من إلقاء السلاح ، والنجاة من أيدي أعدائهم الذين أخذوا يطاردونهم لينتقموا منهم ، فهاجر مولانا إمداد الله إلى مكة . وسطع نجمه هناك ، وأصبح يدعى شيخ العرب والعجم ، وكان من كبار الصوفيين ، وقبضوا

على مولانا رشيد وظل في السجن ستة أشهر حتى صدر قانون العفو العام ، فأخرج عنه . أما مولانا قاسم النانوتوى فقد اختفى حتى صدر قانون العفو فسلم من السجن .

وهؤلاء العلماء المجاهدون هم الذين قاموا بإنشاء دار العلوم ديوبند التي صارت أكبر معهد ديني عربي في الهند والبلاد الآسيوية الشرقية ، وقد واصلوا جهادهم في سبيل حماية المسلمين وأخلاقهم وعقيدتهم من شرور المستعمرين ، وتشددوا في ذلك حتى خاصموا كل ثقافة انجليزية ، بل كل ملابس ومظهر انجليزي ، ولا زال هذا المبدأ سائدا في هذه المدرسة وأمثالها الآن ، ويعتبر ذلك مثالا حيا في المحافظة على كيان المسلمين ، ولو أنه حمل في طياته بعض العيوب والمضار .

ونعود بعد ذلك إلى أخبار الثورة فلا نجد منطقة غير هذه المناطق السابقة قد قامت فيها ثورة تذكر ، ففي جنوب الهند لم يتحرك أحد ، وكان نظام حيدر آباد على رأس المعاونين للانجليز . وفي الشمال الغربي حيث البنجاب ، وحيث الرجال المحاربون الأشداء لم يحدث فيها إلا ثورة خفيفة لم تدم طويلا ، وكان السيك فيها أكبر حرب على الثائرين ، متفنين في تعذيبهم : مسلمين أم هندوسا ، وفي الحدود الشمالية حدثت بعض ثورات أو على الأصح ، استمر أنباع المرحوم سيد أحمد الشهيد في حربهم للانجليز الذين وجهوا لهم قوات حربية كثيرة ، ذاقت الشدائد على يد هؤلاء المجاهدين الذين لم يلقوا سلاحهم حتى بعد أن انهزمت الثورة بل ظلوا شوكة قوية في ظهر الانجليز لمدة طويلة . وكذلك قامت ثورات في بعض مدن مقاطعة « يوبى » مثل إله آباد ، وفتحپور ومراد آباد ، وبنجور ، وغيرها ، ولكنها كانت في عمومها ثورات خفيفة ، تمكن الانجليز من إخمادها والتكيل بالأهالى فيها ، والانفراد بالسلطة العامة التامة في الهند .

أسباب فشل الثورة

وهكذا فشلت الثورة التي كان منظر لها أن تنجح ، ومن الأسف أن الفائمين على أمرها لم يحكموا تدييرهم ، ولم يجمعوا شهوراتهم ، إلا قليلا من المخلصين الذي آثروا الجهاد والاستشهاد ، ومن يقرأ مظالم الإنجليز وتعنتهم مع الهند في كافة نواحي الحياة يعتقد أن الشعب كان سيعصف بهم بين يوم وليلة ، ولكن حين جد الجدل لم نجد إلا بعض النواحي تتحمل عبء الثورة وحدها في غير تنظيم واستعداد ، ولذا أشك كثيرا في رواية التاريخ التي تقول إن الثوار حددوا وقتا معيناً هو ١١ مايو ؛ فإن هذا الوقت قد جاء ولم تقم ثورة في أية ناحية من نواحي الهند ، أما دهلي فأعتقد أن الثورة فيها قامت نتيجة ثورة الجند ، وقدمهم إليها من «ميرت» ، فقام الأهالي معهم في هذا التاريخ تقريبا ، فالحقيقة التي أطمئن إليها أنه لم يكن هناك تنظيم محكم لجهاز الثورة ، ولا استعداد لها ، وليس أدل على ذلك من أن الثورة لما قامت في دهلي في ١١ مايو ، وبلغ خبرها إلى النواحي الأخرى بعد ذلك بيومين أو ثلاثة لم تقم أية ثورة في هذه النواحي مباشرة . فقد تأخرت لكهنو ، وكانپور قريبا من شهر عن قيام ثورة دهلي ، فلو كان هناك تنظيم ووقت متفق عليه لقامت الثورة في وقت واحد كما كان يرجى . وإلا تهمنا القائمين بهذه الثورة بالتقصير ونقض العهد فيما بينهم ، وعلى كلا الحالين فالذي حدث ما كان يصح أن يحدث بين قوم أرادوا التخلص من عدو شرير ، متمكن مستعد بالأسلحة الحديثة . من أجل ذلك أميل إلى ما قاله المرحوم مولانا أبو الكلام آزاد وزير معارف الهند السابق في المقدمة التي كتبها لمؤلف الدكتور «سين» المعاصر الهندي عن هذه الثورة حيث قال (١) : «إنه لم يقم دليل للآن على أن هذه الثورة كانت نتيجة مشروع متفق عليه من قبل ، أو كان تدييرها سببا في تأمر الجنود الهنود (الذين يعملون في الجيش

(١) اطلعت على هذه المقدمة مترجمة للاوردية في عدد الجمعية الخاص بذكرى هذه الثورة الصادر ١١ مايو في سنة ١٩٥٧

(الإنجليزى) مع الشعب على الثورة ، وإعدام حكومة الشركة ، وطرده الإنجليز من الهند ، ، ولا شك أن ظواهر قيام الثورة تؤيد هذا القول تماما .

فأول سبب لفشل هذه الثورة هو اعتمادها على العواطف المشتعلة ، وعدم العمل على تنظيمها وقيامها كلها فى وقت واحد ، وعدم شمولها للبلاد كلها ، مما أتاح للإنجليز فرصة واسعة للقضاء على الواحدة تلو الأخرى .

فما سبق عرفنا أن المواطن التى قامت بالثورة محدودة ، وأنها انحصرت تقريبا فى وسط الهند الشمالى ، بينما سكنت النواحي الأخرى ، أو ساعدت الإنجليز .

٢ — ومن أسباب فشل الثورة كذلك انضمام « السيك » للإنجليز ، وهم قوم أولو بأس وشدة ، وكانوا يسيطرون على البنجاب الشهيرة بقوة رجالها ، وأقاموا فيها ملكا نزعه الإنجليز من أيديهم قبل الثورة بمدة قليلة . ومع ذلك رأينا هؤلاء يسارعون فى إرضاء الإنجليز ، ومناصرتهم ضد إخوانهم المواطنين دون أن يغضبوا للملكهم المسلوب ، أولكرامتهم الجريحة ، أو يمنحهم ضميرهم من الفتك بمواطنيهم زلفى للإنجليز ، بل لقد كان هؤلاء يتفننون فى تعذيب إخوانهم المواطنين لاسيما المسلمين تفننا سبقوا فيه ساداتهم الإنجليز ، يقول السيد محمد لطيف فى كتابه « تاريخ بنجاب » (١) « وما وقت « بنجاب » شر الثورة ، فحسب ، بل كانت مستعدة لتدبير كل الوسائل لإبقاء مجد الإنجليز فى الشرق ، وكان الموقف جد خطير ، لكن « بنجاب » ظهرت مع الإنجليز بمظهر القوة التى لا تغلب ، وكان هذا المؤرخ من المماتين للإنجليز .

٣ — ومن الأسباب أيضاً موقف الجنوب حكاما وشعوبا ، ولا سيما ملك « حيدر آباد » ، فقد وقف مع الإنجليز ضد مواطنيه الهنود . وملوك حيدر آباد كانوا دائما مع الإنجليز ، حتى ضد الملوك المسلمين ، كما فعلوا مع السلطان « تيبو المجاهد » سلطان ميسور - كما سبق أن بينا ذلك فى حربه مع الإنجليز -

وقد ضمن موقفهم في صف الإنجليز الهدوء في القسم الجنوبي من الهند ، بما جعلهم يتفرغون بقواتهم لإخماد الثورة في الشمال .

٤ - ومن الأسباب الخارجية تدفق الجنود الإنجليز على الهند في ذلك الوقت بمحض المصادفة ، فقد كان كثير منهم ذاهبا إلى الصين في مناوشات مع الإنجليز هناك ، فلما قامت الثورة نزلوا في الهند لإخمادها ، وقد استطاع الإنجليز بجنودهم الذين وصلوا إلى كابل ، كذلك أن يسدوا الطريق في وجه أى عون يأتى للهند من روسيا ، كما استطاعوا أن يمنعوا عنها أى عون من الدول الخارجية بسيادتهم البحرية . وهكذا وقفت الهند وحدها أمام الإنجليز دون أن تجد عوناً خارجياً .

وفي الحقيقة كانت الهند تستطيع وحدها لو اتحدت أن تطرد الإنجليز بالعصى والحجارة كما اعترف بذلك رؤساؤهم ، ولكنهم لم يتحدوا فحرت عليهم سنة الله .

ه - وقد كان هذا التفرق أهم سبب في فشل الثورة ، حتى إن الذين قاموا بها اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا ، حتى أكل بعضهم بعضا ، وكان بعضهم عوناً للإنجليز مثل « ميرزا إلهي بخش » ، صهر الملك ، وغيره ممن كانوا يتولون أعمالاً هامة في قيادة الثورة ، وهم في نفس الوقت خونة وجواسيس للإنجليز . وثورة تحيط بها هذه الظروف كلها مصيرها حتماً إلى الفشل أمام قوم أتقنوا ضروب الحرب والمكيد والتفرقة بين المواطنين . وما يجدر ذكره بهذه المناسبة تلك الحادثة التي ترينا كيف كان الإنجليز يحاربون بكل الأسلحة الممكنة ، وهذا شأنهم دائماً ، فلا عجب .

لقد زوروا منشورا باسم الملك وزعوه في كثير من البلاد وقت قيام الثورة ، تضمن وعدا من الملك للمسلمين خاصة بأنه بعد الانتصار سيوزع عليهم وحدهم الاقطاعات الواسعة ، فلما علم الملك بذلك ركبته الهم حتى لتقول بذت له : إنها قامت في الليل فلم تجده على سريريه ، فدعرت ثم ذهبت إلى المسجد

الملحق بالقصر ، فوجدته جالسا يبكي ويتضرع إلى الله ؛ ثم علمت منه أنه ما استطاع النوم لهذا المنشور المزور عليه ، وفي الصباح ركب فيلا ، ومشى في شوارع البلد أثناء الثورة ، يعلن أن ما نشر مكذوب عليه ، وأنه ينوى بعد الانتصار أن يؤلف لجنة مشتركة من المسلمين والهندوس تختار باسم الشعب من يكون ملوكا عليهم .

ويحسن بعد ذلك أن أضيف إلى ما تقدم مما ذكره المؤرخون للثورة رأى المرحوم مولانا أبي الكلام آزاد .

فهو يقول : إن قواد الثورة لم يتفقوا ، بل كان بعضهم يحسد بعضا ويتآمر ضد أصحابه وزملائه ، في الوقت الذي كان الإنجليز فيه متماسكين ، وإذا استثنينا بعض القواد المخلصين مثل : أحمد الله مدارسى ، وأتباعه فإننا نجد أن كثيرا من قاموا للثورة قاموا لأسباب شخصية ، وظلم وقع عليهم أخيرا من الإنجليز ، فانقلبوا أعداء لهم بعد أن كانوا أصدقاءهم .

بعد فشل الثورة

وهكذا قدر للإنجليز أن ينتصروا على هذه المحاولة الأخيرة التي قام بها الأحرار من أجل بلادهم ، وحين انتصروا خلا لهم الجو ليفعلوا بالبلاد ما يريدون ، فماذا فعلوا ؟ وماذا لقيته البلاد على أيديهم ؟ بعد أن دفعوها دفعا إلى الثورة بأعمالهم التي سبق الحديث عنها كما صرح بذلك كثير من مؤرخيهم حيث ليقول : مستر ليكي ، « إن كان في العالم ثورة على حق فهي ثورة مسلمي الهند وهنادكها ^(١) ، نعم كانوا على حق . ولكن مع ذلك فعل الإنجليز - بعد انتصارهم - بهم ما فعلوا .

وما لا شك فيه أن الثوار حين قاموا بثورتهم انطبعت تصرفاتهم بطابع الثورة التي تسيطر عليها العواطف المتأججة ، عواطف الحب للوطن التي دفعتهم

إلى التضحية ، وعواطف الحقد التى دفعتهم إلى صب غضبهم على ظالمهم ، ومغتصبى بلادهم وأقواتهم وحرىاتهم ، ف وقعت تصرفات هوجاء ، راح عنجيتها بعض الأبرياء من نساء الإنجليز وأطفالهم أيضا ، ومن المعروف أن الثورة لا عقل لها ، وقد يرتكب فيها كثير من الأشياء التى تملئها الظروف ، وإن تسكن خارجة عن حدود العقل والحكمة .

ولا شك أن الإنجليز حين الثورة قتلوا كثيرا كما قتل منهم الكثير ، فهذه طبيعة الثورات والحروب ، ولكن بما لا يشك فيه عاقل أيضا أن الثورة حين تنهزم أمام جهاز حكومى منظم مسئول ، فإن هذا الجهاز لا يصح له أن يتصرف تصرفات الرعاع ، ولا أن يتعدى فى تصرفاته محاكمة القائمين بأمر الثورة الذين قادوها ، إن كان يريد الانتقام ، على أن تكون محاكمتهم داخل نطاق الظروف المحيطة بهم ، وعلى أن تجرى المحاكمات فى هدوء ، بعيدة عن اشتعال العواطف الذى هو من طبيعة الثورات ، لا من طبيعة الحكومات . لا سيما إذا كانت الثورة قد فشلت ، والعواطف قد هدأت ، فإذا عاقبت الحكومة الثوار فإنه لا يصح مطالبا أن تنزل إلى الدرك الذى نعيه على الرعاع الثائرين ، ولا يصح كذلك أن تتفنن فى أنواع التشكيل حتى تفوق أشد المجرمين إجراما ، وتأفى من الأفعال ما لا يمكن أن يفعله إنسان لا يعرف مسئولية ، ولا يحمل ضميرا .

فهل سارا الإنجليز — وهم القوم المتمدنون المتحضرون ، الذين تعالوا على الشعوب بما يدعونه من تمدن وحضارة — هل ساروا بعد انتصارهم سيرة الحكومة المتمدنة ؟ وماذا فعلوا فى الشعب الذى ظلوه أولا ، ثم كبثوا أنفاسه حين قام يريد التنفس الحر ؟ .

لقد فعل الإنجليز بالثائرين بل وبغيرهم ما لا يمكن لعقل أن يتصوره ، ولا لضمير أن يتحملة ، حتى وجد التاريخ من عقلاء الإنجليز أنفسهم من يتبرءون من أفعال بنى قومهم الوحشية . ويصمون بها بأشع ما يمكن أن يوصم به عمل فى التاريخ ..

ولقد كتب المؤرخون - ولا سيما الإنجليز كثيرا - عنهما ، وكانوا في جملة كتاباتهم متحاملين على الهند بالطبع ، فسموا أهل الوطن المطالبين بحقوقهم بغاة 11 ووصفوهم أوصافا قبيحة 12 وأخذوا يبررون أفعال بني قومهم ، ويعللون الحوادث تعليلا مناسبة لأفكارهم ومصالحهم ، ويشوهون كل وجه جميل لهذه الثورة ، وساعدهم انتصارهم وحكمهم للبلاد مدة طويلة على أن يكتبوا ما يشاءون ، ويقلبوا الحقائق كما يريدون ، وأن يحولوا بين الكتاب الآخرين وما يريدونه من إظهار الحقائق ..

ومع ذلك كله ، ومع حرصهم على أن تبدو أفعالهم سليمة ومعقولة ، فإن سوء تصرفاتهم ووحشيتهم ، وخروجهم على كل قانون وضمير وإنسانية ، كل ذلك لم تستطع الأساليب المصطنعة أن تخفيه كله ، فظهر بعضه في أقوالهم ومذكراتهم ، وهذا البعض هو الذى يمكن لنا أن نستشهد بشيء منه على ما فعل هؤلاء بالهند وقوادها وأهلها حين انتصروا عليهم ؛ لأن الحقيقة لا بد أن يبيء الله لها من يجلوها يوما من الأيام ، وقد كتب مؤرخ أمريكي هو «مستردارد تومس» كتابا عن تاريخ الهند سماه «The other side of medal» وترجمته الحرفية «الجانب الآخر للميدالية» كما نقول : الجانب الآخر للصورة .. صور فيه الناحية الأخرى التى حرص الإنجليز على إخفائها فى الهند ؛ لأنها النواحي التى تدمغهم بالظلم والوحشية ، وعلى هذا الكتاب يعتمد كثير من مؤرخي الهند كما نقلنا وسنقل عنه الكثير ..

وإذا كان المسلمون قد تحملوا النصيب الأكبر فى الظلم قبل الثورة ، ثم قاموا بالعبء الأكبر فيها ، فإنهم تحملوا كذلك من ضروب الانتقام والتشكيل ما لم يتحملة غيرهم ..

ففى دهلى : قبضوا على الملك ومن كانوا معه فى مقبرة همايون من زوجه وأولاده وحاشيته ، وساقوهم إلى البلد مقيدى فى ذلة وانكسار ، وفى الطريق أطلق الضابط «هيدسن» بندقيته على أبناء الملك وأحفاده ، فقتل ثلاثة منهم (٢٩ - الهند)

هم : . ميرزا مغل ، وميرزا خضر وميرزا أبو بكر ،^(١) وقطعوا رؤوسهم وتركوا جثثهم في الطريق مدة ، ثم سولت لهم نفوسهم المتحضرة المتمدنة ١١ أن يتجاوزوا في التمثيل بالقتل ، والتنكيل بأيهم الشيخ المهتم إلى حد تشمئز منه النفوس . .



كوتوال في شارع تشاندني تشوك في دلهي حيث علقت جثث القتلى

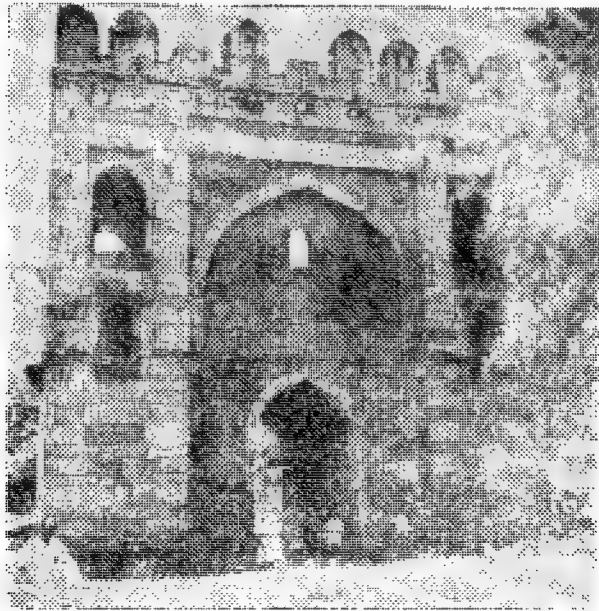
فعند ما قدموا الطعام للملك في سجنه وضعوا رؤوس الثلاثة في دإناء ، وغضوه ، وجعلوه على المائدة أمامه ، وكانت مفاجأة مذهلة ، بل قاتلة حين كشف الغطاء ، فلم يجد طعاماً ، بل وجد بدله رؤوس أبنائه الثلاثة ، وقد غطيت وجوههم بالدم الأحمر القاني ١١ ! وهنا يتمالك الشيخ الضعيف نفسه ،

(١) جاء في كتاب « دلهي كي جان كني » أي (دلهي في النزاع الأخير) لحسن نظامي أن ميرزا إلهي بخش ذهب إليهم في صحة الضابط هدرن ليقنعهم بضرورة الخروج من المنيعة حتى خرجوا ، ولما ضربهم « هدرن » بفدأرتة وسقطوا يتمرغون في دماءهم وقف على رأسهم فرحاً بهذا المنظر ، ثم أخذ في كفه حفنة من دمهم وشربه ، وقال : لو لم أفعل هكذا لظلت نفسي في ثورتها . لقد كنت أنور كلما سمعت أسماء هؤلاء . ثم قطع رؤوسهم ، وعلق أجسامهم على مكان الشرطة « كوتوال » وقدموا الرؤوس إلى أيهم ، ثم بعد ذلك علقوها على بوابة لا تزال معروفة للآن في نيو دلهي باسم « خوني دروازه » أي بوابة الدم وهي قائمة وحدها بجانب الشارع تحدث بهيكلها وباسمها عن فظائع الإنجليز .

وتظهر فيه طبيعته الملكية المغولية ، طبيعة الأنفة والعزة ، ويقول في رباطة جأش غريبة : « إن أولاد التيموريين البواسل يأتون هكذا إلى آبائهم محمرة وجوههم » ، واحمرار الوجه في إطلاق اللغة الأوردية كناية عن الظفر والانتصار ، فيقولون : جاء محمر الوجه : أى ظافرا منتصرا .

وبعد ذلك أخذوا هذه الرؤوس ، وعلقوها على بوابة كبيرة تسمى للآن في نيودلهي بامم « خونی دروازہ » أى بوابة الدم .

ومع منافاة هذا العمل لأبسط قواعد الإنسانية والمروءة ، فإن القائد الإنجليزي العام في البنجاب « مونتجمرى » أرسل إلى القاتل « هيدسن » ، لا ليلومه أو يؤنبه على هذه الوحشية ، بل ليهنته بها فيقول : « عزيزى هيدسن . أهنتك بما قت به من القبض على الملك ، وقتل أولاده ، وأرجو أن تقتل كذلك أبناء الأسرة المالكة الآخرين » (١) .



خونی دروازہ أى بوابة الدم حيث علقت رؤوس القتلى

(١) مجلة الضياء نقلا عن كتاب « ادورد تومس » « The other side of me 'al » .

وأعتقد أن أى إنسان مهما كان حين يقرأ هذه الحادثة ، لا يجد ألفاظاً تساعد على وصف ما فيها من خسة ودناءة ووحشية ، فى الوقت الذى يعجب فيه أياً ما إعجاباً بتناسك هذه الملك الضعيف ، حين فوجئ بهذا المنظر على مائدة الطعام !! نعم ، وهكذا فعل مدعو المدينة والحضارة !!

وبهذه الروح الخبيثة روح الانتقام والتشفى انهالوا على دملها وأهلها يدمرون ويقتلون وينهبون ، حتى بلغ عدد قتلاهم سبعة وعشرين ألفاً^(١) . وحتى هدموا أكثر أحياء دهلئ وتحوّلت إلى أنقاض ، وقد احتلوا المسجد الجامع بخيولهم ، وعطلوا الصلاة فيه لعدة سنين ، وكانوا لا يجدون إنساناً يظنون أنه مسلم بلحيته ، أو قصر ملابسه لإقتلوه ، حتى تكسدت الجثث فى الشوارع ، وجرت الدماء أنهاراً ، وقد كتب بعض الإنجليز أنهم كانوا يتحاشون الخروج إلى الشوارع ، حتى لا تؤذى هذه المناظر نفوسهم !!

جاء فى كتاب الثورة الهندية لمولانا فضل حق^(٢) :

« والنصارى بعد استيلائهم على البلد ، عمدوا إلى أخذ الملك وأولاده وأحفاده ، وهم لم يبرحوا مستقرهم ، مستوثقين بمن غرهم بأكاذيبه وسرهم ، وكان فى تلك المقبرة مغروراً مسروراً ، فأضحى مأسوراً مكوداً مصفوداً ، وأخذوا من معه من الأبناء والأحفاد ، مقرنين فى الأصفاد ، وذهبوا به إلى البلد ، مع من معه من الأهل والولد ، فاغتال أحد ضباطهم « هيدسن » أبناءه وأحفاده بالبندق أثناء الطريق ، وأهدوا رؤوسهم مقطوعة ، إلى رئيسهم (الملك) فى خوان موضوعة ، وتركوا جثثهم منبوذة ، ثم علقوا تلك الرؤوس بمجذوزه ، وحبسوه فى بيت من سم الخياط ، ثم نفوه من ممالك واسعة ، إلى بلاد شاسعة (رنجون فى بورما) مع زوجه التى كانت لهم موالية ، وقد خابت فيما طمعت ، وسلبت أموالاً قد جمعت ، وقد شينت ، بعد ما كانت زينت^(٣) ، وقتلوا كل من وجدوا

(١) كتاب نقش حياة مولانا مدنى ص ٤٧ ج ٢ نقل عن « تبصرة التواريخ » وماضى العلماء المجيد .

(٢) ص ٣٧٩ وما بعدها .

(٣) كان اسمها « زينت محل » وقد قصد بهذا التورية .

من قومه بالضرب والخنق ، كما قتلوا من عداهم كثيرا من الخلق ، ولم ينبج من هؤلاء الضعفاء إلا من فر مستخفيا ، متواريا بالليل ساريا ، وقليل ما هم .
 ثم النصارى قتلوا من كان في نواحي مصر وتلك الأرجاء ، من الأراكن أعضاء الحكومة والرؤساء ، وغصبوا أرضهم وعقارهم ، ومساكنهم وديارهم ، وأمتعتهم وأموالهم ، وأسلبحتهم وأثقالهم ، وأفراسهم وأفيالهم ، ثم أهلكتهم وعبأهم جميعا ، ثم إنهم حشروا جنودهم بكل سبيل ، ليأخذوا من فر بالأخذ الويل ، فأخذوا كثيرا من الهاريين ، وما نجا منهم إلا القليل ، ونهبوا كل ما كان معهم حتى الجلايب ، ثم بلغوهم عظامهم ، فقصوا عليهم بالخنق والتقتيل ، ولم يذر الفتك شبانا ولا ضعافا ، حتى بلغ القتل والخنق آفاقا . . .

« وجل من ابتلى بظلم الظلام ، أهل الإيمان والإسلام ، وأما الأهادن » الهندوس ، فقد سلموا ، إلا من ظن به أنه من يعاند ، ولم يسلم من المسلمين إلا من فر من بيته مهاجرا ، ومن كان للنصارى ناصرا ، وفي دينه قاصرا ، أو من كان لهم جاسوسا ، ومن رحمة الله ميتوسا ، كعامل الملك (١) ، الذي يتولاهم ، بل سلطهم وولاهم .

« وقد خرجت الخواتين (٢) ، والمحصنات من النساء ، في هذه الداهية الدهياء ، وعجزن - وفيهن عجائز وعجائز - عن الفرار الإعياء ، فنهن من هلكت من غلبة الفرق ، ومنهن من أهلكت نفسها بالغرق ، صونا لعرضا وحرمتها ، وحفظاً لعفتها وعصمتها ، وأكثرهن صرن سبايا ، وابتلين برزايا ، فنهن من استرقها بعض الختان (الأراذل) ، ومنهن من بيعت بأبخص الأثمان ، وكثير منهن هلكن عطشا وجوعا ، وكثير غبن فلم يستطعن رجوعا ، ولم يرهن أثر . ولم يسمع عنهن خبر ، وكثير أصبحن بلا أولياء ، من بعولة وآباء ، وإخوة وأبناء ؛ إذ كان كل يوم من هذا الزمن الكريه ، يوم يفر المرء من أخيه

(١) يريد وزيره حكيم أحسن الله خان ومثله كذلك ميرزا الهى بخش صهر الملك .

(٢) « جمع خاتون » وهى كلمة تلاحق باسم النساء كما تلاحق كلمة « خان » بالرجال للتعظيم .

وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، فكم من نسوة أصبحن أياى ، وأطفال أمسوا يتامى ، وكمن ثكلى تبكى وتنوح ، وشكلان تعبر غبراتهن عن حزنهن وبسره بيوح ، وقد صار البلد قاعا صفصفا ، وأهلوه تفرقوا وتمزقوا ، وذهبوا أبدى سبا .

ذلك وصف كتبه شاهد عيان ، آثرت أن أنقله على طوله ، لما فيه من صدق فى الخبر ، ودقة فى التصوير ، تغني عن كل تعقيب .

ولنفقل إلى أقوال الإنجليز أنفسهم :

يقول « سبنسر وولپول » : إن ما فعله نادر شاه الوحشى بدلهى من النهب والسلب والقتل تجاوزه الإنجليز بكثير ، بعد ما استولوا على دهلى ، ولقد نصبوا المشائى العامة فى الشوارع ، وصلبوا ثلاثة آلاف رجل ، كان منهم تسعة وعشرون من الأسرة الملكية (١) :

ومثل هذا القول قاله « ألفنستن » ، وكان من القواد الذين قادوا حملات التعذيب ، ويظهر أنه كان يتباهى ويفتخر بهذا العمل ، وقد بلغ بهم التبعج إلى حد أن يكتب « نكلسن » إلى « أدورد » يقول : علينا أن نسن قانونا يبيع لنا إحراق الثوار وسلخ جلودهم وهم أحياء ؛ لأن نار الانتقام التى تأججت فى صدورنا لا تخمد بالشئ وحده (٢) ، وهل كانوا فى حاجة إلى قانون ليفعلوا ذلك !!!

وما يجدر ذكره أن « نكلسن » هذا هو الذى كتب يدح « والد مرزا غلام أحمد » قاديانى ، ويقول : « إن فى قاديان ، تسكن هذه الأسرة التى وجدنا فيها دون جميع الأسر الوفاء للأنكيز » . ١١ . ومرزا غلام أحمد قاديانى هو الذى ادعى النبوة ، وأبطل فرض الجهاد ، وملا كتبه بالثناء على الإنجليز مفتخرا بأنه وأباه من قبل من أصدقائهم الأوفياء ، ويتبعه القاديانيون فى الهند وغيرها .

(١) عن نقش حياة مولانا مدنى ص ٤٧ ج ٢ .

(٢) ماضى العلماء ص ٨٥ نقلا من كتاب أدورد تومس الأمريكى « الوجه الثانى . . » .

ويكتب ، مجيندى ، فى مذكراته :

« وبتنا تلك الليلة ، وكنا حراسا على المسجد الجامع فى دهلى ، نمنى أكثر أوقاتنا فى قتل الأسرى الذين قبضنا عليهم صباحا ، نقتلهم بالرصاص أو بالشنق ، ولكن مع ذلك كان يظهر على وجوههم آثار الشجاعة والصبر ، مما يدل على أنهم كانوا يضحون بأنفسهم لهدف عظيم ، ولذلك كانوا لا يخافون من الموت أو القتل . »

ويذكر مستر « تومسن » ، للسير « هنرى كوتن » ، عن أحوال بعض المسلمين المسجونين فى بنجاب ما يأتى :

أتانى ذات ليلة عسكري من طائفة « السيك » ، وبعد ما حيانى بالتحية العسكرية خاطبني قائلا : لعل الرئيس يجب أن يشاهد المسجونين ؟ ! فقممت وهولت مسرعا إلى السجن ، فرأيت المسلمين الأشقياء عراة مطروحين على الأرض ، يلفظون آخر أنفاس حياتهم ، وقد شدت أيديهم وراء ظهورهم ، ووجدت أجسامهم قد أحرقت بواسطة النحاس الملتهب من رموسهم إلى أقدامهم ، وتفوح منهم الروائح الكريهة ، فلما رأيت هذا المنظر المفزع أشفقت عليهم لسوء حالهم ، ورأيت أن أريحهم من هذا العذاب ، فأطلقت عليهم الرصاص من « الطبنجة » ، التي كانت معي . فلما سمع « كوتن » ، هذه القصة المؤلمة سأل « تومسن » : ولكن ماذا فعلت بالذين تولوا كبر هذا التعذيب الشنيع ؟ ! قال : ما فعلت شيئا . . . ! !

ويعلق المؤلف الأمريكى على هذه الحادثة فيقول : « منظر فاجع : أناس يحرقون أحياء بالنار المشتعلة ، والإنجليز والسيك قاتمون حولهم يتلذذون برؤيتهم كأنهم فى منتزه عام ! » ^(١)

نعم لقد فقد الإنجليز بعد انتصارهم كل إحساس بمعانى الإنسانية ، وتجاوزوا فى انتقامهم كل ما يتصوره الإنسان . رأوا أن القتل بالرصاص

(١) كتاب ماخى العناء ص ٥٩ . فلا عن كتاب إدورد تومس « الوجه الثانى » ص ٤٠ ، ٤١ . وعن مجلة الضياء .

سهل على المقتولين ، فاستعملوا المشنقة ، وكانوا يشنقون في كل مكان ، ويقفون حول المشنقة يضحكون ويصفقون ، وكانوا يشدون ضحاياهم على فم المدافع ، ثم يطلقونها فتتأثر أشلاؤهم في كل مكان ، وكانوا يلفون أجساد الضحايا المسلمين بجلود الخنازير ، ويخيطونها عليهم ، أو يدهنونهم بشحوماتهم ثم يحرقونهم ، وكانوا يجبرونهم على فعل الفاحشة بعضهم ببعض ، وكانوا يحشرون الناس في البيوت ثم يشعلون النار فيها ، فيتحول المساكين إلى رماد رجالا ونساء وأطفالا !! ، وكانوا .. وكانوا ... لم يتركوا وسيلة للتكيل والتعذيب يتفنن العقل في إخراجها إلا فعلوها بضحاياهم ، ولم يفرقوا بين نائر ومهادن ، فالكل عندهم نائر ، وأى جندي هندي بالمشرق يسأل عما فعله أى جندي بالمغرب !! صور مخزية تمت على يد مدعى الحضارة ، ستظل في التاريخ وصمة عار على جبينهم . وكم على جبينهم من وصمات ! .

ففي « بشاور » ، قبض على ١٢٠ جنديا بتهمة أنهم التحقوا بالشوار ، ولم يكن أحد منهم قد اعتدى على أى إنكليزي ، ولكنهم فقط اضطروا للالتحاق بالشوار ، فكتب قائد البنجاب « جنرال نكلسن » إلى « ادورد » حاكم « بشاور » يقول له : « إنى أرجو منك العفو عن ٥٥ أسيرا من هؤلاء ، لأن ضباطهم أكدوا لى أنهم ما شاركوا فى الثورة بأى نصيب ، وأما الباقون فليصهروا بنيران المدافع والقنابل ، فرد عليه يقول : « إنه لا يمكن العفو عنهم ؛ لأنهم كانوا يقاتلون فى صفوف الأعداء ، وبودى أن أجزيهم جزاء قاسيا حتى يعتبر بهم المعتبرون ، ورأى أن أقتل ثلثهم من رؤسائهم وأشرارهم . أما الباقون فلا أرى إلا أن أعاقبهم بأنواع شتى من العذاب أقلها الحبس ثلاث سنوات ، (١) .

وكتب الضابط « لورد روبرت » رسالة إلى أمه يقول لها :
« سافرننا من « بشاور » إلى « جهم » مشاة ، نقتل الثوار فى الطريق . ونجرحهم

(١) ماضى العلماء المجيدين ص ٦١ نقلا عن كتاب « ادورد تومس » « الوجه الثانى » ص ٣٤ ، ٣٦ . وعن مجلة الضياء .

من الأسلحة ، ولما وجدنا أنهم لا يبالون بالشنق ، كنا نشدهم على المدافع ونطلقها فتتناثر أجسامهم ، ولا ريب أن هذا أسلوب فظيع ، لكن لا مندوحة لنا عنه ، وقد حدث يوما أن اتبنا على رعد المدافع ، وفي الوقت نفسه سمعنا أنينا ، فاستفسرنا عن ذلك ، فعلمنا أن أحد الضباط عبأ مدفعه ، وشد على فوهته أحد الثوار ، ثم أطلقه فتناثرت أجزاء الرجل في الهواء ، وأصاب رأسه المتطاير أحد المارين ، فصرخ من شدة ما أصابه من الألم . . .^(١)

وكتب مستر دى لين مدير جريدة « تايمز أف أنديا » بناء على ما جاء في « أجنده » رسل ،^(٢) :

« كان المسلمون الأحياء يحاطون بجلود الخنازير ، ثم يخطونها عليهم أو يدلكونهم بشحومها ؛ ثم يحرقونهم وهم أحياء ، كما كان يجبر أهل الهند على أن يفعل أحدهم الفاحشة بزميله ، وهذه التصرفات ستظل وصمة عار على جبين المسيحيين الإنكليز ، لا تمحى على مر الأيام . »^(٣)

يقول « ادورد تومس » الأمريكي :

« قد كان كل جندي أهلى متهما بالاشتراك في الثورة ، وقتل نساء الإنكليز وصبيانهم ، سواء كان بريئا أم مذنباً ، بعيداً عن المعركة أم قريباً منها ، حتى إن الجندي في « بشاور » بأقصى الشمال يسأل عن مقتول إنكليزي في « دهلي » . وذكر مستر « مجندي » في مذكراته حادثة فظيعة شاهدها بعينه فقال : « إن الإنكليز والسيك كانوا يطعنون جندياً هندياً بالحراش ، لكن طعناتهم لم تقض عليه نهائياً ، وبقي فيه رمق من الحياة ، وحينئذ جمعوا الحطب وأشعلوا فيه النار ، ثم ألقوا الهندي المسكين فيها ، ولبثوا يشاهدون هذا المنظر بكل فرح وسرور »^(٤) .

(١) المصدر السابق .

(٢) ص ٤٣ المطبوعة في مايو سنة ١٨٥٨ .

(٣) نقلاً عن كتاب « ماضى العلماء المجيد » ص ٦٠ ج ٤ .

(٤) تعريب مجلة الضياء عن المؤرخ الأمريكى .

وكتب اللورد « كايبنجك » إلى الملكة « فكتوريا » ، وكان حاكما في الهند يقول : - « إنهم قتلوا خمسين ألفا من الأهالي من غير ما إثم ارتكبوه ، أو ذنب اقترفوه » (١) .

فكم قتلوا إذن ممن ظنهم قد اشتركوا في الثورة ١١؟
وكتب « مستر كوبر » ، وكان مشرفا على القوات في شمال الهند :
في أول أغسطس سنة ١٨٥٧م حل عيد الأضحى ، فكانت فرصة لإبعاد الجنود المسلمين في الجيش الإنجليزي ، حتى يخلو الجو لتعذيب الثوار المسلمين دون أن يجدوا من يعطف عليهم ، فأعطيناهم - أي المسلمين - إجازة لقضاء عطلة العيد في « أمرتسر » ، وبقي ضابط مسيحي مع السيك الأوفياء لنا ، وأخذوا في قتل المسلمين المقبوض عليهم بكل اطمئنان ، ولكن ظهرت أمامهم مشكلة دفن هذه الجثث ، حتى لا تظهر روائحها الكريهة فتؤذي الناس ، ثم حلت المشكلة حين وجدوا بئرا جافا يرمونها فيها ، فأخذوا يقتلون عشرة بعد عشرة رميا بالرصاص ، فلما بلغ عدد القتلى ١٥٠ قتيلًا كان القاتل قد تعب ، وكان شيخا كبير السن ، فأعطوه فرصة ليستريح ، وبعد قليل استأنفوا عملية القتل ، وحين بلغ العدد ٢٣٧ جاء الضابط المشرف على السجن ، وأخبرهم أن الباقين من الثوار لا يستطيعون الخروج من السجن ، فذهبوا إليهم وكان منظرا مرعبا حين فتحوا الباب فوجدوا من فيه جثثا هامة ، وكانوا ٤٥٠ ماتوا من شدة الفزع والحرارة ، وكان الكناسون يتولون إلقاء هذه الجثث في البئر ، (٢) .

ومن الغريب أن « لورنس » ، « روبرت » ، و « موتجدرى » كتبوا إلى « مستر كوبر » ، المشرف على هذه القوات يهتونه بهذا العمل المجيد !!! (٣) .
ويقول المؤرخ الأمريكي « إنهم لم يكتفوا بالشنق بل كانوا يحرقون .

(١) عن المصدر السابق .

(٢) ماضي العلماء ص ٦٢ ، ٦٣ نقلا عن كتاب « الوجه الثاني » ص ٥٥ .

(٣) نقلا عن المصدر السابق ص ٥٧ .

لقرويين بعد أن يغلقوا عليهم بيوتهم ، ويشعلون النار فيها ، فيصيروا رمادا،^(١)
وكتب مندوب جريدة « تايمز » أف إنديا ، يقول :

« لقد تركت السير في شوارع دهلي بعد ما رأيت بالأمس حادثا مفرجا ،
رأيت جثمان أربع عشرة امرأة من النساء المحجبات ملقاة في الطريق ، وقد
قتلن أزواجهن ، خوفا على عفتن من الجنود الانكليز ، ثم انتحر الأزواج
بجانبنهن . »^(٢)

وهذا الخبر وحده كاف في تصوير ما أصاب الأهالي من فزع وجزع ،
نتيجة الأعمال الوحشية التي قام بها الإنجليز ..

ويقول « إدورد توماس »^(٣) : « كان الجنود الإنجليز ينهبون دكاكين
الخمر ، ويشربون ما فيها حتى يسكروا ، ثم يخرجون إلى الشوارع يقتلون
كل من يقابلهم بلا تمييز . »

وحين شاع في الهند القتل والإحراق والنهب بدون تمييز ، حتى تحولت
لمقاطعات الشمالية خاصة إلى جحيم - أصدر الحاكم العام الإنجليزى أمرا
لجنوده بتجنب الإحراق للقري ، كما أمر الحكام بعدم تعذيب الأهالي الذين
لا يحملون سلاحا ، وسلب حق الشنق العام من يد بعض الحكام الإنجليز
الذين أساءوا التصرف في استعمال هذا الحق .. كما أنه عين « جون
جرائنت » حاكما لوسط الهند ، ليضع حدا للجهازر البشرية التي عمت المدن
مثل إله آباد وكانپور وغيرهما ، ومع ذلك لم يخضع الجنود لأوامره ، وكانوا
يستهترون به ويطلقون عليه اسم « الملك العطوف » ، ولم يبالوا به ، وقد حدث
مرة أن الجنود الإنجليز كانوا راجعين من إحدى القرى بعد إحراقها ، وكان
يرافقهم في مهمتهم بعض الجنود الهنود الأوفياء . ومع ذلك استداروا عليهم
فقتلوه رميا بالرصاص دون مبالاة .

(١) نقلا عن المصدر السابق ص ٦٣

(٢) ماضى العطاء ص ٦٨ نقلا عن المصدر الأمريكى السابق ص ٧٠

(٣) ص ٧٠ من كتابه « الوجه الثانى »

وفي هذه الحادثة قالت « تايمز أف إنديا » : « إن هذا تصرف وحشي ، .
والأوامر الصادرة من الحاكم العام بمنع الإحراق العام والشنق العام ، وبتعيين
حاكم لوسط الهند ليخفف من هذه الجرائم . . أقول هذه الأوامر نفسها
أكبر دليل على إسراف الإنجليز في هذه الناحية إسرافا دعا الرؤساء إلى اتخاذ
مثل هذا الموقف ، ومع ذلك لم يستمع الجنود وضباطهم لهذه الأوامر ،
واستمروا في طغيانهم يعمهون . . فقد استولى عليهم سعار الانتقام من الثائرين
وأهلهم وكل من اتصل بهم ، وسكروا بنشوة النصر ، فلم يقفوا عند حد في
التسكيل بأهل الهند ، وذاتت منهم الولايات التي تقشعر لذكرها الأبدان .

ويكفي ما قدمناه نموذجا لتصرفاتهم ، على أن قراء العربية ليسوا في حاجة
كبيرة إلى ذكر تفصيلات كثيرة من هذا النوع ، فقد شاهدوا وقرأوا الكثير
من تصرفات الإنجليز في بلادهم في ظروف كهذه ، ولو أن الذي فعلوه في
الهند قبل مائة سنة قد يفوق كثيرا ما فعلوه في البلاد العربية التي نسكت
باحتلالهم في هذا القرن . .

محاكمة بهادر شاه وانتهاء الحكم الإسلامي

ويمكن القول بأنه لم تأت أواخر سنة ١٨٥٧ م حتى كان الأمر قد تم
لهم في الهند ، وسيطروا على الموقف في كل مكان ، وبدءوا بعد أن مضت
حدة الانتقام الفوضوى في كل مكان يقيمون حاكم صورية ، لمحاكمة المتهمين
بالثورة عليهم .

وبمنأ هنا محاكمة واحدة هي محاكمة الملك « بهادر شاه » ومعرفة ما انتهى
إليه أمره فيها . . لقد قبضوا عليه وقتلوا ثلاثة من أولاده رميا بالرصاص في
الطريق ، وهم مقيدون مساقون إلى محبسهم ، وقطعوا رؤوسهم ، وقدموها
في طبق كبير إلى والدهم الشيخ الضعيف ، ضمن أطباق الطعام التي كانوا
يقدمونها له - كما ذكرنا ذلك من قبل - واختاروا له حجرة ضيقة في قلعته

وقصره الذى كان يحكم منه ، وأترك وصف محبسه للأستاذ صابر حيث يقول^(١) :
« كان بهادور شاه يستمر فى محبسه بحجرة ضيقة ، متربعا على سرير بسيط ،
عليه تكية واحدة ، وكان دائما مستغرقا فى تفكيره ، حتى ما كان يحس بالانجائين
حين يجيئون عنده ، ينظرون إليه مستهزئين ، وعلى بعد ثلاثة أقدام كان يوجد
رئيس الحرس ، وعلى باب الحجرة اثنان مسلحان ، وقد جردوه فى حجراته
من كل شيء حتى الورق والقلم ، وحتى اضطر مرة أن ينقش بعض الأبيات
على الجدار ، وكان شاعرا مجيدا ، وهى أبيات تصور تفكيره ونفسيته فى هذه
الفترة العصيبة من حياته . يقول فيها : « إن القصر الذى أصبح الآن قفرا كان
من قبل أهلا بالسكان . والمكان الذى استولى عليه ابن آوى كان عامرا بالإنسان ،
والمكان الذى لا نجد فيه الآن إلا الخنزف والحصا والتراب كان مملوا بالجواهر
واليواقيت ، إن أحوال العالم تتقلب دائما ، فأين كنت من قبل ؟ وأين أنا
الآن ؟ إن الذى لا يذكر الله فى رغد العيش ، أو فى وقت الغضب والطيش ،
لا يعد من الأدميين » .

وقد بدأت محاكمته فى دهللى فى ٢٧ يناير سنة ١٨٥٨ م ، وسبق كالجرمين
إلى ساحة المحكمة المؤلفة من الانجليز ، وبدأت المحاكمة بالسؤال العادى : هل
لك اعتراض على المحكمة ؟ فقال : لا .. ، ثم وجهوا إليه التهم الآتية :
(١) أنه تعاون مع آخرين فى الثورة ضد الشركة ، مع أنه كان يتقاضى
مرتبه منها ، وكان عليه أن يكون وفيا لها .

(٢) أن ابنه ميرزا مغل تعاون مع آخرين ضد الشركة ، مع أنهم كانوا
من رعاياها ، وعليهم أن يكونوا خاضعين لها ، لكنهم فيما بين ١١ مايو .
وأول أكتوبر سنة ١٨٥٧ م غدروا ، وأشاعوا أن بهادور شاه صار الحاكم
للهند ، ودبروا المؤامرات مع « بخت خان » لقلب الحكومة الانجليزية فى الهند ،
وأعانوا الجنود على ذلك .

(١) نقلا عن مقالته باللغة الأوردية بمجريدة « الجمعة » لسان حال جمعية العلماء ٦ أغسطس ١٩٥٧ .

(٣) حوالى ١٦ مايو أمر وشارك فى قتل ٤٩ من الانجليز رجالا ونساء وأطفالا داخل القلعة ، كما حرص على قتل الانجليز أيا كانوا ، ووعد ببذل المكافأة على ذلك !!

وقد رد الملك بنفى هذه التهم جميعها ، وأنه كان لاسطان له أثناء الثورة^(١) واسكنهم استمروا فى محاكمته ، واستطاعوا الحصول على مכתوبات تؤيد دعواهم ، كما أن بعض حاشيته وخدمه قد جندهم الانجليز للشهادة ضده !!

ومع أنه من الثابت أن بهادر شاه حين تولى قيادة الثورة ، وأصبح فى يده زمام الحكم ، كان أول أمر أصدره أنه لابد من المحافظة على أرواح الانجليز وأموالهم ، ويجب على كل واحد من الرعية أن يمسك عن الاعتداء ، وأنه بعد هذا الأمر لم يحصل اعتداء ماعلى غير المحاربين من الانجليز ، كما أعترف بذلك بعض كتابهم^(٢) ، أقول بالرغم من ذلك فإن السادة المنتصرين لم يطبقوا صبرا على وجود الملك بدون محاكمة وبدون حكم .

حين انتهت جلسات المحاكمة التى طالب المدعى فيها بإعدامه ، كان رأى الأكثرين من أعضائها ومن كبار القوادى الهند أن يعدم ، ولكن لورد كايبنجك ، عارض هذا الرأى ، ورأى أن يستبدل النفى بالإعدام ، وتم له ما أراد من نفيه خارج الهند ..

وفى يوم الخميس ١٧ اكتوبر سنة ١٨٥٨م نفذ أمر النفى ، ورحل هو وأسرته^(٣) وبعض أفراد حاشيته إلى مدينة « رنكون » عاصمة بورما وكان عدد المرحلين ٣٥ فردا . وحينما نزلوا به فى « رنكون » أركبوه عربة مكشوفة للجهاير ، وساروا به إلى مقره فى شارع كلكتا فى أطراف المدينة . وخصصوا

(١) كتاب « محاكمة بهادر شاه لمواجهة حسن نظامى ص ٢٠١ .

(٢) كاجاء فى العدد الخامس من جريدة . « نئى دنيا » أى الدنيا الجديدة بمناسبة عين استقلال الهند الصادر فى ١٦ أغسطس ١٩٥٧ م .

(٣) منها زوجته زينت محل وأولاده جوان بخت ، كلثوم زمانى بيجم ، رونق زمانى بيجم ، وابن صغير نات هو جشيد بخت .

له مكانا لمحبيه ، ولزوجه وأولاده مكانا بجانبه ، ووضعوا الجميع تحت حراسة شديدة (١) .

وفي أول نوفمبر سنة ١٨٥٨ م في عهد الملكة فكتوريا صدر قرار بنقل حكم الهند من يد الشركة إلى يد الحكومة البريطانية ، وتم تعيين أول حاكم عام من قبل الملكة وهو لورد كايبنجك ، وأعلنت الملكة على البلاد الإعلان التالي (٢) :-

من الملكة إلى الأمراء والزعماء والأمة الهندية ..

نحن فكتوريا حامية العقيدة - بفضل الله - ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا وإيرلندا، والمستعمرات وملحقاتها في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأمريكا وأستراليا، نعلن بهذا ونصرح بأنه بناء على نصيحة المجلس وموافقته ، قد أخذنا على عواتقنا الحكومة المذكورة ، وبهذا ندعو جميع رعايانا في داخل حدود هذه الأراضي أن يكونوا مخلصين موالين حق الموالاة لنا ولورثتنا وحلفائنا ، وأن يقدموا خضوعهم إلى سلطة الذين سنقوم بتعيينهم بعد من آن لآخر ... ومن أجل هذا قد عيننا ، شارلس جون فيكونت كايبنجك ، أول وال وأول حاكم عام على أراضينا ، لكي يدير شؤون حكومتنا باسمنا ... وجاء فيه « ثم إننا قد وافقنا وأبقينا في الهند جميع المعاهدات والتعهدات المعقودة معهم تحت سلطة شركة الهند الشرقية الموقرة ، ولسنا نريد مزيدا من التوسع عن ممتلكاتنا الحالية .. وسنحترم ما للأمراء الوطنيين من الحقوق والمكانة أسوة بنا (١١١)

ونحن لا نعتزم أن نفرض عقيدتنا المسيحية على أحد من رعايانا ، الذين سوف ينعمون بحماية القانون ، في غير فارق بين الأديان وفي غير محاباة (وقد اضطرت الملكة لهذا نظرا لما اقترفته حكومة الشركة من قهر الناس على الدخول في المسيحية كما سبق بيانه) .. ونحن نبدي أسفنا الشديد لما نزل بالهند من أعمال الرجال الطامعين الذين خدعوا مواطنيهم بالأنباء الكاذبة ، وقادوهم

(١) ص ٤٤ من كتاب «دهلي كى سذا» بالأوردية ومعناه «عقاب دهلي» لمواجهة حسن نظامي

(٢) ملخصا من كتاب المسألة الهندية الأستاذ عبد الله حسين

إلى العصيان الذى قمعناه بقوتنا (وهذه عادة الإنجليز كلما احتلوا بلدا سموا أصحابه المدافعين عن حريتهم بالبغية الكذابين الطامعين .. ولا ندرى من الباغي الكذاب الطامع ؟! ولكن متى عرفت لغة الاستعمار معنى الحياة ؟) .
ثم تقول : « ونحن نبسط عفونا على هؤلاء الذين يرغبون فى العودة إلى واجباتهم العادية ، ولكننا لن نعفو عن باشر قتل الرعايا البريطانيين (١١) ولكن الآلاف الذين قتلهم البريطانيون بصورة بشعة لا حساب لهم ولا قيمة (١٢) ، أما الذين قبلوا مختارين إيواء القتلة مع العلم بجنايتهم ، أو الذين كانوا فى الثورة بمثابة زعمائهم أو المحرضين عليها فإننا نضمن بقاءهم أحياء على أن يحاكموا ، وستقدر العقوبات عليهم بمراعاة جميع الظروف التى حملتهم على طرح الولاء لنا (١١) .. أما أولئك الذين يثبت أنهم قد ارتكبوا جرائمهم بسبب تصديقهم الأنباء الكاذبة التى كان ينشرها ذوو الأغراض فسيعاملون بقدر كبير من التسامح ، أما بالنسبة لجميع الذين حملوا السلاح ضد الحكومة فإننا نعدهم - بإعلاننا هذا - بالعفو الشامل غير المقيّد ، وتنامى كل ما اقترفوا ضدنا وضد تاجنا وكرامتنا (هكذا ١١١) .. وسيمتد هذا العفو إلى جميع الذين يؤدون هذه الشروط قبل أول يناير التالى ... وحين يأذن عفو الله بأن يعود السلام إلى الهند ، فإننا نشهد الله على أننا سنمنح بالبلاد الهندية فى طريق التقدم والسلام والنهوض بالأعمال العامة .. الخ ، .

* * *

وبذلك دخلت الهند رسميا ضمن مستعمرات التاج البريطانى ، وظلت كذلك حتى اضطر الإنجليز للجلاء عنها سنة ١٩٤٧ م وأعلنوا استقلالها فى ١٥ اغسطس من هذه السنة ...

وبودى - أخيرا وبعد كل ما تقدم - أن أضع أمام القارئ صورة مجملة لعهد الشركة ، ثم لعهد الحكومة فى الهند ، كتبه « دول ديورنت » ، فى كتابه « قصة الحضارة » ، (١) :

كانت شركة الهند الشرقية قد تأسست في لندن عام ١٦٠٠ م ، لتشتري منتجات الهند وجزر الهند الشرقية بأثمان بخسة ، وتبيعها بأثمان مرتفعة بأوروبا . وقد أعلنت الشركة عام ١٦٨٦ م ، عزمها على إقامة مستعمرة انجليزية واسعة في الهند ، بحيث تكون متينة الدعائم فتدوم إلى الأبد ، وأنشأت مراكز تجارية في مدراس وكلكتا وبمباي ، وحصلتها وجاءت إليها بجنود ، وخاضت معارك القتال ، ورشت وارثت ، ومارست غير ذلك من مهام الحكومة ، ولم يتردد كلايف ، في قبول الهدايا التي بلغت قيمتها أحيانا مائة وسبعين ألفا من الريالات ، قدمها له حكام الهند المعتمدون على نيران مدافعه ، كما ظفر منهم بالإضافة إلى تلك الهدايا بجزية سنوية ، تعادل مائة وأربعين ألفا من الريالات . وعين الأمير جعفر حاكما على البنغال ، لقاء مبلغ يعادل ستة ملايين من الريالات ، وراح يضرب كل أمير وطني بالآخر ، ويضم أملاكهم إلى حظيرة شركة الهند الشرقية شيئا فشيئا ، وأدمن أكل الأفيون ، واتهمه البرلمان ، وبرأه ، ولكنه أزهق روحه بيده سنة ١٧٧٤ م . وأما وارن هستنجز ، وهو شجاع علامة قدير فقد جمع من الأمراء الوطنيين مبلغا كبيرا يقدر بربيع مليون ريال ، ضريبة عليهم دفعوها في خزانة الشركة ، وقبل الرشاوى لقضاء وعد بالآ يفرض ضريبة أكثر مما فرضه ، ثم عاد ففرض ضريبة ، واستولى للشركة على الأراضي التي لم تستطع دفعها ، واحتل أود ، بجيشه ، ثم باعها لأحد الأمراء بمليونين ونصف من الريالات ، وتسابق الهازم والمهزوم في الرشوة ، وفرضت على أجزاء الهند التي خضعت لسلطان الشركة ضريبة أراض بلغت خمسين في المائة من وحدات الإنتاج ، بالإضافة إلى فروض أخرى كانت من الكثرة والقسوة بحيث فر ثلثا السكان ، وباع آخرون أبناءهم ليسدوا ما كانوا يطالبون به من ضرائب متصاعدة ، يقول ما كولي دجعت في كلكتا ، أموالا طائلة في وقت قصير ، ودفع بثلاثين مليوناً من الأنفس البشرية إلى أفصى حدود الشقاء ، نعم قد تعودوا من قبل أن يعيشوا في جو من الطغيان ، إلا أنه لم يبلغ بهم كل هذا المدى . . .

جاءت سنة ١٨٥٧ م ، حتى كانت جرائم الشركة قد أفقرت الجزء الشمالى الشرقى من الهند لإفقاراً أو غر صدور الأهالى ، فشقوا عصا الطاعة فى ثورة بائسة ، وعندئذ تدخلت الحكومة البريطانية ، وقعت العصيان ، وتولت هى الحكم فى الأراضى التى سيطرت عليها . واعتبرتها مستعمرة للتاج ، ودفعت عن ذلك تعويضاً سخياً للشركة ، وأضافت ثمن الشراء هذا إلى الدين العام فى الهند ، ولقد كان هذا فتحاً للبلاد غاشماً صريحاً ...

كان هذا تصويره الإجمالى لعهد الشركة الذى انتهى بضم الهند لمستعمرات التاج ، ونحن نريد أن نقف بهذا الجزء من الكتاب إلى انتهاء الحكم الإسلامى ، على أن نتبعه إن شاء الله بجزء آخر عن الهند فى عهد الاحتلال ، وبعد الاحتلال ، وما شاهده أثناء إقامتى فيها ، ولكن ذلك لا يمنع من أن أعلق على هذا العهد الذى قطعه ملكة بريطانيا لأهل الهند فى إعلانها السابق ، ولا أريد أن أتولى التعليق بنفسى بل أتركه لهذا الكاتب المؤلف الغربى « ول ديورنت » الذى يقول فى إجمال :

« وقد عاد هذا الفتح ببعض المزايا على الهند .. ولئن حارب الإنجليز مائة وإحدى عشرة حرباً فى الهند ، مستخدمين فيها أموال الهند ورجالها ؛ ليتمموا فتحها ، لقد تمكنوا بعدئذ من نشر السلام على ربوع شبه الجزيرة كلها ، ومدوا الطرق الحديدية ، وأقاموا المصانع والمدارس ، وفتحوا الجامعات فى كلكتا ، ومدراس ، وبومباى ، ولاهور ، والله أباد ، ونقلوا من إنجلترا علومها وفنونها الصناعية إلى الهند ، وألهبوا الشرق بروح الغرب الديموقراطية ، ولعبوا دوراً هاماً فى إطلاع العالم على ما شهدته الهند فى ماضىها من ثروة ثقافية غزيرة ، وكان ثمن هذه الخيرات كلها طغياناً مالياً ، مكن لطائفة من الحكام المتتابعين أن يبتزوا ثروة الهند عاماً بعد عام ، قبل عودتهم إلى بلادهم الشمالية ، وكان ثمن هذه الخيرات طغياناً اقتصادياً ، قضى على الصناعات الهندية ، وقذف بملايين صناعها الفنين إلى الأرض يزرعونها ، فلا تكفيهم طعاماً ، وكان ثمن هذه كذلك طغياناً سياسياً كان من أثره — وقد جاء بعد طغيان

أورنجزيب الضيق الأفق بزم قصير — (١) أن يميت روح الشعب الهندي
قرنا كاملا . .

ونعود بعد ذلك إلى ملك الهند المسلم الذي نفي إلى « رانكون » :
لقد انتهى الحكم الإسلامي في الهند ، ووضع الإنجليز نهايته على أيديهم ،
بعد أن استمر ثمانية قرون ونصف ، وتخلصوا من آخر ملك مسلم فيها ، ونفوه
مع أهله وحاشيته . . وظل في محبسه المنعزل حتى وافته المنية في عصر يوم
الجمعة ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٧٩ هـ - ٧ نوفمبر ١٨٦٢ م وقد بلغ من العمر
٨٩ سنة . وكان عمره حين تولى العرش في ١٧ سبتمبر سنة ١٨٢٧ م ستين
سنة ، وحين قبض عليه كانت سنه ٨٥ سنة فيكون قد أمضى في منفاه نحو
أربع سنين . .

وهكذا انطفأ آخر مصباح في الأسرة التيمورية التي حكمت الهند منذ
استولى الملك « بابر » عليها سنة ٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م ، ونزع ملكها من يد أسرة
« اللودي » المسلبة .

مات في محبسه على سرير حقير ، وما حوله أحد إلا زوجته « زينت محل » ،
وولده ، وأخني الإنجليز خبر وفاته ورأوا أن يدفنه قريبا من مكانه مبالغة
في الإخفاء ، ولم يحضر أحد دفنه إلا طبيبه ، وحافظ محمد إبراهيم أستاذ ابنه
جمشيد بخت ، فتوليا تكفينه والصلاة عليه ، وحفرا قبره ودفنانه ، وكانا آخر
من لازم الملك المغولي الراحل ، وآخر من أسلماه إلى أمه الأرض .

وقد تولى الإنجليز حراسة قبره مدة طويلة ، ولم يكن للقبر أية علامة أو
بناء عليه ، ولذا كادت تضيع معالمه بعد ما نبتت الحشائش عليه ، وداسته الحيل
بحوافرها في ميدان التدريب الذي كان بجواره ، وما كانت هناك علامة باقية
تشير إليه إلا شجرة السدر بجواره .

(١) يلاحظ أن أورنجزيب محل حملة شديدة من المؤرخين الغربيين وبعض مؤرخي الهند ، وعلة
هذه الحملة ما حرص عليه أثناء حكمه من تنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية ، وإعادة فرض الجزية
على الهدوس . وقد تكامنا عن هذا بتفصيل حين الحديث عن « أورنجزيب » .



بہادور شاہ علی فراش الموت ، وقد كتب باللغة الأوردية ما ترجمته :

آخر أنفاس ظفر بہادور شاہ المحبوس و رفحون

وقد ظهرت عليه أمارات الموت (عبارة في الأوردية تفيد أن قريب الموت تتعرف حاسة اللم فيه) مات وليس حوله مؤنس ولا رفيق ، وقد طرأت عليه سكرات الموت ، وبعد دقائق توفى وهذا التصوير له حين موته .

يا أمل الهند : أنا ذاهب ومرتحل عن الدنيا ، وأفوض

أمركم إلى الله ، الذي ألقى آخر ستار على سلطنة نبور !!

ولقد كان الملك المنق من أجود الشعراء . وكان لا يفتأ يقرض الشعر عن حاله ، ويتصور ما سيصيب قبره بعد وفاته ، فقال في شعر يفيض بالعبرات :
 « من يوقد الشمع على قبري ؟ ومن يأتي إليه بالورود ؟ نعم لا ورود ولا

شموع ، حتى لا تأتي فراشة تحوم حولى ، ولا يصدح بلبل غريد فوق قبري ،
 بعد وفاتك يا ظفر ، من يأتي على قبرك ليقرأ لك الفاتحة ؟ » .

ولد عاش والدنيا حوله تخدمه ، وتمشى في ركباه ، وتلتبس رضاه ،

وها هو ذا يعيش أواخر أيامه سجيناً ، فانطلقت شاعريته الفياضة الحزينة ،
تصور التعاسة التي لازمته آخر حياته ، وكأنه كان يتنبأ !!

فقد عمد الإنجليز إلى منع أى أحد من زيارته ، وإلى إضاعة معالم قبره ،
حتى لا يتجمع الناس حوله ، ويذكرون - كلما تجمعوا - قصة غدرهم وظلمهم من
أولها إلى آخرها ..

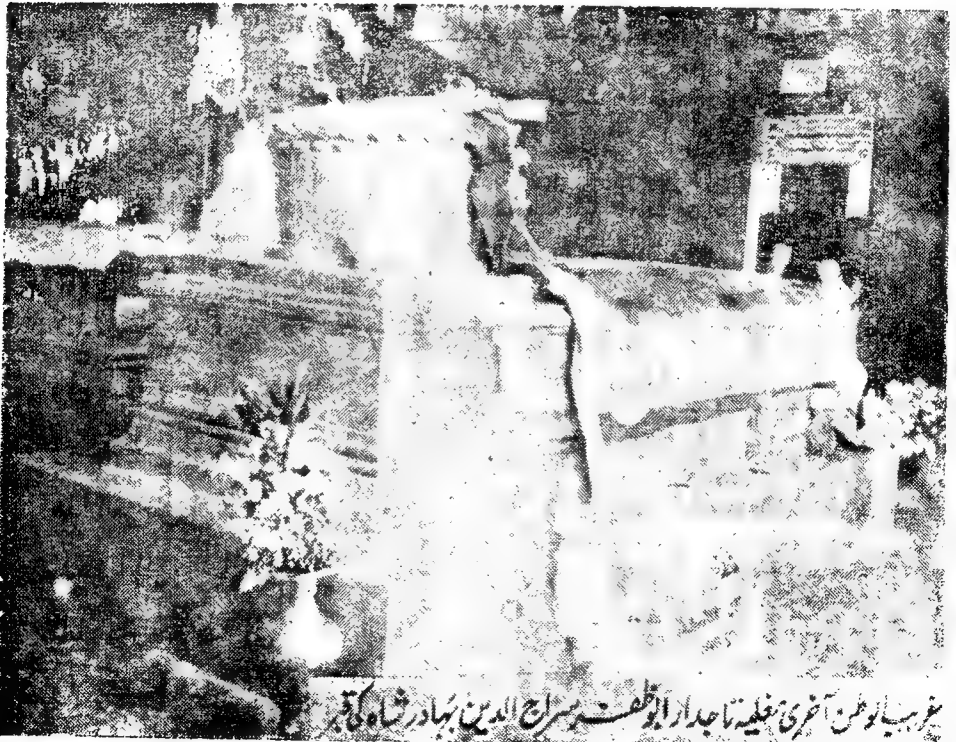
ولقد قام بعض المخلصين من المسلمين ، وحاولوا مراراً أن يقنعوا حكومة
بورما الانجليزية بإقامة بناء على القبر ، أو حتى بالسماح لهم بإقامة هذا البناء ، ولكن
ظلت جهودهم تذهب هباء ، وظل الإنجليز يتعنتون حتى مع رفات القبر ، حتى
ليذكر الأستاذ « سيد أبو ظفر الندوى » ، في مذكراته حين زيارته لبورما وبحته
عن قبره في ٢٣ يوليو سنة ١٩١٥ م أنه وجد القبر قد اندرس تحت أرجل
الخيول في ميدان التدريب الذى كان قريباً منه . وقد قام السيد عبد السلام
رفيقي - مؤسس الصحافة الأوردية في بورما - بجهود جبارة لدى الحكومة ،
ليقنعها ببناء مقبرة لبهادور شاه ، ولكن مساعيه كلها فشلت ، مع أنهم في الهند
عنوا ببناء مقبرة عظيمة على رماد أحد ملوك المراهتا السابقين ، وظل الأمر
كذلك حتى تألفت لجنة من المسلمين في بورما لجمع اكتبابات لبناء المقبرة ،
وفي سنة ١٩٣٢ م ذهب وفد إلى نظام حيدر أباد برئاسة « داود جى أحمد » ،
ومعهم خريطة هندسية لمشروع بنائها ، وطلبوا من الملك المسلم أن يساعدكم في
هذا الغرض ، ولكنه أبى !! ولعله راعى في إباته عواطف أصدقائه الإنجليز !!
فذهبوا إلى بومباى وجمعوا من المسلمين فيها أربعة آلاف روية ، وهو مبلغ
قليل ، ترجع قلته إلى خوف الناس من الإنجليز ، وتلقهم لعواطفهم القاسية ،
ولم يكف هذا المبلغ إلا لتغطية نفقات سفر الوفد ، وعاد من الهند إلى
بورما خائباً !!

ولكن الجهود تضافرت بعد ذلك برئاسة حاج داود أحمد رئيس بلدية
بورما حتى تم بناء المقبرة في سنة ١٩٤٦ م - نعم بعد نحو قرن من الزمان .

والإنجليز يحاربون رفات القبر !!

وقد توفيت زوجته زينت محل بعده بنحو ٢٢ سنة ، وذلك في ١٤ شوال
سنة ١٣٠٣ هـ - ١٧ يوليو ١٨٨٦ م ودفنت بجواره ، كما دفنت معه أيضا
بنته درونق زمانى بيگم ، التى توفيت في ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٤٩ هـ -
إبريل سنة ١٩٣٠ م .

والمقبرة التى بنيت بعد نحو قرن من الزمان عبارة عن سور ، فى وسطه
قبر الملك ، وزينت محل ، ورونق زمانى ، وبجانبه بيت من خشب ، مغطى بالصفيح
(الصاج) لإقامة الزوار ، وعلى يمينه مسجد وبيت للطعام من الخشب أيضا ،
وقد أصبح مزارا للناس من كل ناحية . .



قبر ظفر بهادور شاه فى رنجون - بورما
ومكتوب عليه بالأوردو « قبر غريب الوطن آخر ملوك الفول أبو ظفر سراج الدين بهادور شاه »

وعما يجدر ذكره في هذا المقام أن القائد الهندي المشهور « سبهاش تشندر بوس » حينما قام على رأس جيش ضد الإنجليز في الحرب الماضية لإخراجهم من الهند ، ذهب إلى قبر « بهادور شاه » في سبتمبر سنة ١٩٤٣ م ، وأدى له التحية العسكرية ، تقديرا لموقفه الخالد في محاولة إخراج الإنجليز من الهند سنة ١٨٥٧ م ، وعاهد الله أمام قبره أن يظل مجاهدا حتى تتحرر الهند ، ويخرج الإنجليز منها ، وتحقق أمنية الملك المظلوم الراقد بعيدا عن وطنه ، ضحية غدر الإنجليز وتعنتهم نأثر يحيى رفات نأثر . .

وقد كتب على اللوحة التي وضعت على قبره ما يأتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام

آخر مصباح في أسرة المغول الملكية

حضرة أبو ظفر سراج الدين محمد بهادر شاه ظفر رحمة الله عليه .

جلس على العرش من سنة ١٨٢٧م إلى سنة ١٨٥٨ م

« اليوم بتاريخ ٧ نوفمبر سنة ١٨٦٢ م - ١٤ جمادى الأولى ١٢٧٩ هـ يوم الجمعة صعدت الروح التي استقرت في بهادر شاه ٨٩ سنة ، وودعت جسده إلى الأبد ، فغربت شمس ، وفاضت كأس عمره ، واحتضنت أرض « رانگون » آخر مصباح في الأسرة التيمورية . ولد في « جهان آباد - دهلي » ، ولكنه عانى سكرات الموت بعيدا عن الوطن بآلاف الأميال ، على سرير بسيط حقير . وكانت حياته ريعا حائلا بالخدم والحشم ، ولكنه مات وما حوله إلا ثلاثة : زوجته وولده - وقبل أن تغرب شمس النهار فاضت روحه ، بعد ما عرف العالم حالة أسرته المنكودة ، فاستقر الجوهر اللامع من دهلي في أرض « رانگون » .. فاعتبروا يا أولى الأبصار .

وتحت هذا كتب تاريخ وفاته في بيتين من الشعر بالأوردية ترجمتها :

« في أربعة عشر من جمادى الأولى يوم الجمعة وقت العصر ، .

« كانت هذه اللحظة لحظة حاسمة في تاريخ الغربة والسجن ، .

« قال فيها ملك الموت للملك الهند ، وهو بعيد عن وطنه ، .

« إن جنسة الخلد هي وطنك يا ظفر ، يا غريب الوطن ، .

ثم كتب تاريخ وفاته بالانجليزية هو ومن دفن معه ، وتحت كتب بالعربية في أسفل اللوحة :

ملكة نواب زينت محل : أعلى الله مقامها : تاريخ الوفاة ١٤ شوال سنة ١٣٠٣ هـ مطابق ١٧ يوليو سنة ١٨٨٦ م. بنت الملك : رونق زما ني بيگم : أعلى الله مقامها : تاريخ الوفاة ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٤٩ هـ مطابق ٣٠ إبريل سنة ١٩٣٠ م



أما الأمير « جوان نجت » فقد ذهب الانجليز به إلى سجن في بلدة «مولين» قريبا من الحدود لرغبتهم في تفريق الأسرة ، ومنعوا أى اتصال بينه وبين الأهالى ، والمصدر الذى نقلت عنه هذه المعلومات كلها^(١) يقول : واذلك لم يعرف عنه شيء ، غاية ما هنالك يوجد قبر ، ولكن لم يكتب عليه شيء حتى تعرف صاحبه. أما الأمير «جمشيد نجت» فقد كان صغيرا عند نفيه مع أبيه ، ولذا صاحبه أستاذ «حافظ ابراهيم» ، وفي «رنكون» دخل مدرسة انجليزية ، وكان سجنه في بيت خشبي أمام سجن أبيه ، وعند ما كبر تزوج من أسرة بورمية سنة ١٩٠٥ م ، فرزق باسكندر نجت ، وهو الوحيد الذى بقى ذكرى لهذه الأسرة الملكية ، وإن كان لم يعرف عنه شيء بعد ذلك^(٢) .

(١) معلوماتى عن بهادور شاه وأسرته في «رنجون» نقلتها عن العدد المخصوص لمجلة «دور جديد» الأوردية الصادرة في «رنجون - بورما» عدد ٢٩٨ بتاريخ ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٦ م لصاحبها ورئيس تحريرها مولانا ابراهيم مظاهرى .

(٢) أخبرنى مولانا محمد بيان المؤرخ أنه لما ذهب لبورما تقابل مع فرد من ذرية الملك هناك .

ولما توفي جمشيد بخت سنة ١٩٢١ م ، تحمس المسلمون هناك لدفنه بجوار والده ، ولكن الحكومة الانكليزية حالت دون ذلك ، وحاربت بقوتها وسلطانها الجثة الهامدة ، وخشيت اجتماع الولد مع أبيه تحت التراب فدفن في مكان آخر ١١

* * *

وأما كثوم زماني بيگم : فقد تزوجت من أمير مسلم صيني على الحدود ، ولكن سرعان ما طلقت لاختلاف الطبائع بينها وبين زوجها ، ولم يعرف شيء عنها بعد ذلك .

وأما حافظ إبراهيم أستاذ جمشيد بخت فقد سعى بعد وفاة الملك لكسب العيش ، فاشتغل إماما وخطيبا ومدرسا في مسجد برانگون مدة ١٩ سنة ، ومن تلامذته يوجد إمام وخطيب « مسجد بنگالی ، في « رانگون ، للآن ، وهكذا كان مصير هذه الأسرة الملكية التي شاء لها سوء طالعها أن تكون نهايتها مأساة على يد الانكليز . الذين أمعنوا في كيدهم لها ، وتغنمهم معها حتى قضوا على كل أثر لها ..

وقد عنيت بالسؤال عن ذرية الأسرة التيمورية التي حكمت الهند قرابة قرنين ونصف قرن ، وتفرعت كثيرا ، وهل يوجد منها أحد الآن بالهند يعرفه الناس ، فلم أظفر بجواب يدل على تعارف الناس على أحد من هؤلاء الآن ١١ ولا شك أن كيد الإنجليز ، وإمعانهم في إزالة أي أثر حي لهذه الأسرة يذكر الناس بالعهد السابق كفيلا بتحقيق هذه النهاية ، وبالقضاء على كل معالم هذه الأسرة الملكية ، حتى لم يعد لها ذكر إلا في بطون كتب التواريخ ، وفي أشعار جيدة تركها الملك السجين ، وكان شاعرا مجيدا ، ففاضت نفسه بلوعاتها شعرا حزينا ، لا يزال كثير من الناس بالهند يرددونه في حزن وألم ، كلما أملت بهم مصائب ونزلت بهم أحداث وكلما تذكروا مصير الملك المظلوم . وكان الملك الحزين كثيرا ما يحلوه ترديد أبيات قالها في منفاه ، وظل

يناجي الرسول صلى الله عليه وسلم بها حتى مات ، لا نستطيع أن ننقلها بما هي عليه من روعة وموسيقى حزينة ، ولذا نكتفي بنثرها هنا ، ونسدل بها الستار على نهاية هذا التاريخ الإسلامي العتيد ، على الفردوس الإسلامي المفقود :

« يا رسول الله . ما كانت أمنيئتي إلا أن يكون بيتي في المدينة بجوارك ،
« ولكنه أصبح في « رنكون » ، وبقيت أمنيأتي مدفونة في صدي ،
« يا رسول الله ، كانت أمنيئتي أن أمرغ عيني في تراب أعتابك ،
« ولكن ها أنذا أتمرغ في تراب « رنكون » ،

« وبدلاً من أن أشرب من ماء زمزم ، بقيت هنا أشرب الدموع ،
« الدامية ، فهل تجدني يا رسول الله .. ولم يبق من حياتي إلا عدة أيام ١١٦ ،





تشاندي بي بي (فر) وهي تقود جيوش مملكة أجدنسكر وتدافع عن القلعة أمام
جيوش «أكبر» وقد نشر الكلام عنها في صفحة ٢٠٧ ، ٢٠٨ من الكتاب .

فهرس الموضوعات

الصفحة	المصنف
الزحف الإسلامى نحو الهند	الإهداء
٦٠ بدء دخول الإسلام فى الهند	مقدمة المؤلف
٦٩ " " " فى سيلان	أضواء على الهند
٧١ فتح الهند فى أيام العرب	٢ الهند
٧٨ الدول الإسلامية فى الهند	٤ أنهارها
٨٠ الدولة الغزنوية	٧ زراعتها
٨٦ محمود بن سبكتكين الغزنوى	٩ حيواناتها
وفتوحاته	١٣ معادنها
٩٠ فتح سومنات	١٤ صناعاتها
٩٤ محمود فى نظر التاريخ	١٥ تجارتها
٩٧ خلفاء محمود فى الهند	١٦ حضارة الهند
٩٨ الدولة الغورية	١٧ الغزو الأرى
٩٨ شهاب الدين الغورى	١٨ غزو الإسكندر
١٠٠ فتح دهلى	٢١ شعوب فى شعب واحد
١٠٣ شهاب الدين فى نظر التاريخ	٢٤ الاختلاف فى الدين
١٠٤ دولة المماليك	٢٦ الأديان قبل دخول الإسلام
١٠٥ قطب الدين أيبك	٢٧ فكرة الطبقات
١٠٩ شمس الدين ألتش	٤٢ المذاهب والآلهة الهندوسية
١١١ بعد ألتش	٤٢ المذهب الشيعى
١١٢ غياث الدين بلبن	٤٤ " الفشنى
١١٦ السلاطين الخلاجية	٤٨ المذهب الجينى
١١٦ جلال الدين فيروز شاه	٥١ البديهية أو البوذية
١١٧ علاء الدين الخلاجى	

الصفحة	الصفحة
١٧٥ دولة المغول أو الدولة	١٢٣ خلفاء علاء الدين
التيمورية	١٢٦ الدولة الطغلقية
١٧٥ بابر شاه مؤسس الدولة	١٢٦ غياث الدين طغلق شاه
١٧٨ بابر في نظر التاريخ	١٢٨ محمد طغلق شاه
١٨١ همايون شاه	١٣٤ فيروز شاه الطغلق
١٨٤ شير شاه السورى	١٤٠ خلفاء فيروز شاه
١٩٤ خلفاء شير شاه - سليم شاه	١٤٢ تيمور في الهند
١٩٦ عودة همايون للهند	١٤٧ حكم السادات لدھلى
١٩٩ جلال الدين أكبر	١٤٨ حكم أسرة لودى
٢١١ أكبر في نظر التاريخ	١٥١ الدول الإسلامية الأخرى
٢١٢ د سياسته في الحكم	في الهند
٢١٦ عقيدة أكبر وموقفه من الإسلام	١٥٢ الدولة الإسلامية في الكجرات
٢٢٣ أكبر والحركة العلمية والفنية	١٥٣ أحمد شاه
٢٢٨ جهانگیر	١٥٤ محمود شاه
٢٣٢ جهانگیر يتزوج	١٥٧ مظفر الحليم شاه
٢٣٦ د في نظر التاريخ	١٦٢ سلاطين مالوا
٢٤١ د والأجانب	١٦٢ دلاور خان غورى
الاوربيون	١٦٢ هوشنگ
٢٤٣ شاهجهان	١٦٣ محمود الخلقى
٢٤٥ في بيجابور وگولكنده	١٦٥ غياث الدين
٢٤٦ مع البرتغال	١٦٧ محمود الثانى الخلقى
٢٤٧ عصر شاهجهان	١٦٩ مملكة الدکن البهمنية
٢٤٨ القلعة الحمراء	١٦٩ علاء الدين بهمان
٢٥٠ المسجد الجامع	١٧٠ محمد شاه بهمنى
٢٥٢ تاج محل	١٧٠ محمود شاه بهمنى
٢٦٣ شاهجهان في أواخر حكمه	١٧٢ علاء الدين شاه الثانى

الصفحة	الصفحة
٢٢٣ هنرى الملاح	٢٦٨ أورنگزيب شاه
٢٣٦ كبرال	٢٧٠ مع ستنامى
٢٤٠ هولندا	٢٧١ فرض الجزية
٢٤١ شركة الهند الإنجليزية الشرقية	٢٧٢ ثورة الراجبوت
٢٤٥ فرنسا تدخل ميدان المنافسة	٢٧٦ سينهاجى المراهتى
٢٤٨ موقعة بلاسى	٢٧٧ الاستيلاء على مملكة كتي بيجابور
٢٥٢ حيدر على ملك ميسور	وگول كنده
٢٥٤ تيبو سلطان ملك ميسور	٢٨٠ أورنجيز في نظر التاريخ
٢٥٩ بعد ميسور	٢٨٩ خلفاء أورنجيز
٢٦٢ مملكة كتي حيدر آباد وأود	٢٩٠ شاه عالم بهادور شاه الأول
الثورة الهندية	٢٩٢ مع الراجبوت
٣٦٩ أسبابها - حوادثها - نتائجها	٢٩٢ مع أخيه كام بخش
٣٧٣ الهند بين عهدين : الاسلامى	٢٩٣ مع المراهتا
والانجليزى	٢٩٤ مع السيک
٣٩٨ الانجليز والدين	٢٩٨ جهاندار شاه وفروخ سير
٤٠٣ تغت الانجليز مع المسلمين	٣٠١ مع السيک
٤١٢ موقف العلماء من الانجليز	٣٠٣ رفيع الدلة
وأثرهم في الثورة	٣٠٣ محمد شاه
٤١٣ شاه ولي الله ومدرسته	٣٠٤ الصراع مع السادات
٤١٧ سيد أحمد شهيد	٣٠٥ نظام الملك
٤٢٦ الثورة - أدوارها ونهايتها	٣٠٧ غزو نادر شاه للهند
٤٢٩ كيف دخل الثوار الجنود دهل	٣٠٩ غزو أحمد شاه الأبدالى للهند
٤٣٧ للثورة في المناطق الأخرى	٣١٠ موقعة بانى پت
٤٤٠ موقعة شاملى وتهانة بهور	٣١٢ شاه عالم الثانى
٤٤٤ أسباب فشل الثورة	٣١٣ بهادور شاه آخر ملك مسلم
٤٤٧ بعد الثورة	٣١٥ حضارة المسلمين في الهند
٤٦٠ محاكمة بهادور شاه وانتهاء	٣٢٢ الغرب يتحرك نحو الهند
الحكم الاسلامى في الهند	٣٢٢ البرتغال

فهرس التراجم بالهامش

الصفحة	الصفحة
٢١٨ ، ٢١٩ مبارك بن خضر	٦١ الشيخ زين الدين بن عبدالعزيز
الناگورى وولداه الشيخ أبو	المعبرى
الفضل والشيخ أبو الفيض	٨٣ الحكيم محمد قاسم صاحب
٢٢٢ الشيخ عبدالله السلطان نيورى	تاريخ فرشته،
٢٢٥ عبد القادر البدايوني	٩٧ أبو الريحان البيروني
٢٣٠ الملك عنبر الحبشى	١٠١ تاريخ دهلى قبل الفتح
٢٣٣ الملكة نورجهان زوجة	الإسلامى
جهاننگير	١١٠ الشيخ قطب الدين بختيار
٢٣٤ غياث الدين الطهرانى (والد	الكعكى
نورجهان)	١٥٣ الشيخ أحمد الكهتوى
٢٣٦ شىء عن مولانا أحمد السرهندى	١٥٣ بدر الدين محمد بن أبى
٢٤٣ آصف خان أخو نورجهان	بكر الدماينى
٢٤٤ القائد خان جهان	١٥٥ الشيخ جلال الدين المصرى
٢٥٢ الملكة ممتاز محل زوجة	١٥٥ مجد الدين الأيجى
شاهجهان	١٧٣ الوزير محمود الكيلانى
٢٦١ مولانا أحمد السرهندى	٢٠٢ بيرم خان خانان
بجدد الآلف الثانى	٢٠٢ القائد على خان
٢٦٣ الأمير داراشكوه بن شاهجهان	٢٠٧ الأميرة چاند تشاند بي بي،
٢٧٤ المراهتا	٢١٨ الشيخ عبد النبى الكنگهوى
٢٧٥ أبو الحسن تانا شاه ملك	٢١٨ معين الدين الجشتى
گولكنده	٢١٨ بهاء الدين السيكرى

الصفحة	الصفحة
٢٧٦	ميهواجى المراهتى
٢٩٩	الشريف حسين وأخوه
٣٠٠	القاضى عبد الله الخراسانى
٣٠٠	قليج خان (نظام الملك رأس
	الأسرة الملكية فى حيدرآباد)
٣٢٢	الشيخ حسن الصاغانى
٣٢٢	شاه ولى الله الدهلوى
٣٢٢	الشيخ مرتضى الزبيدى
٣٥٠	الأمير شجاع الدولة
٣٥٢	حيدر على
٣٥٧	مير صادق (خائن ميسور)
٤٢١	سيد إسماعيل الشهيد
٤٤١	مولانا محمد قاسم فانوتوى

فهرس الصور والخرائط

الصفحة	الصفحة
٢٦٧ شاهجهان على عرش الطاوس	٤٣ آلهة الهنود
٢٦٨ أورنگزيب	١٠٨ منار قطب
٢٨٨ أورنگزيب يزور أحد الأولياء	١٧٥ نيمور وبارشاه
٢٩٠ بهادر شاه الأول	١٨١ همايون شاه
٢٩٣ كروناتك مرشد السيک	٢٠٩ خريطة مملكة أكبر
٢٩٨ فروخ سير	٢٠١ مقبرة أكبر
٣٠٤ محمد شاه	٢٢٨ جهانگیر
٣١٢ شاه عالم الثاني	٢٢٣ نورجهان زوجة جهانگیر
٢١٤ بهادر شاه وزوجته زبفت محل	٢٤٣ شاهجهان وزوجته ممتاز محل
٣٦٩ خريطتان لأملاك انجلترا	٢٤٨ القلعة الحمراء بدهلي
٤٣٤ مقبرة همايون	٢٤٩ مسجد اللؤلؤ بالقلعة
٤٥٠ كونوالى حيث علقت جث القتلى	٢٥١ المسجد الجامع بدهلي
٤٥١ خوفى دروازة (بوابة الدم)	٢٥٣ صورة المؤلف فى زيارة تاج محل
٤٦٨ بهادر شاه على فراش الموت	٢٥٤ تاج محل
٤٧٠ قبر بهادر شاه فى رانگون	٢٥٥ صورة مدخل المقبرة
٤٧٢ اللوحة الموضوعة على القبر	٢٥٦ حاجز من المرمر
٤٧٦ الأميرة تشاند بي بي	٢٦٢ مقبرة مجدد الألف الثاني (السرهندى)